سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

بريطانيا والخليج

١٧٩٥ : ١٨٧٠

تأليف
جون. ب. كيلي

الجزء الأول

ترجمة
محمد أمين عبد الله

سلطنة عمان

وزارة التراث القومي والثقافة

بريطانيا والخليج

١٧٩٥ : ١٨٧٠

تأليف

چون . ب . كيلي

الجزء الأول

ترجمة

محمد أمين عبد الله

راجع الكتــاب وأشرف على طبعه الأســـتاذ

عبد المنعم عامر

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى والثقافة
مـكتب الوزير

تقـــديم

عايشت منطقة الخليج خلال القرن التاسع عشر الميلادى أحداثا عـلى جانب كبير من الأهمية كان لها أثرها البعيد فيما آلت اليه حياة الشعوب فى هذه المنطقة .

وكان الشعب العمانى فى نشاطاته البشرية وفى بيئته الطبيعية ــ كما لا يزال ــ عاملا مشتركا فى تواريخ شعوب منطقة الخليج ، وتاريخه هو المرآة التى تبين على صفحتها الأحداث العالمية . والسياسات الدولية ، والتيارات الفكرية والعقائدية التى نشطت فى المنطقة خلال تلك الفترة .

ولقد تناول المؤرخون على اختلاف مذاهبهم وألوانهم وجنسياتهم تاريخ منطقة الخليج من زوايا مختلفة ، فكتبوا المؤلفات العديدة بلغات أوربية وغير عربية ، وكان من بين هؤلاء المؤروخين ، المؤرخ البريطانى جون كيلى الـذى الف هذا الكتاب . وسماه ، بريطانيا والخليج بين عامى ١٧٩٥ و ١٨٨٠ م .

ونظرا لما لهــذا الكتاب من قيمة تاريخية فقد رأت الوزارة أن يترجم الكتاب الى اللغة العربية ، وأن تنشره الوزارة تبيانا لما تضمنه من تواريخ عالج المؤلف أحداثها بقدر كبير من الوفاية والتمام .

وانه لمن المعروف بداهة أن كتب التاريخ تمثل صورا لأحداث ماضية وهى فى كل أحوالها تعبر عن انطباعات مؤلفيها وآرائهم الخاصة ، ومن ثم فان الآراء والمعلومات التى يتضمنها كتاب بريطانيا والخليج لا تمثل أى وجهة نظر معينة ، سياسية كانت أو غير سياسية ، لحكومة سلطنة عمان .

وانا لنرجو أن تحقق خطة الوزارة لنشر الكتب على مختلف ألوانهـــا ما تصبو اليه من بيان ومعارف يتزود بها الفكر العمانى والعربى فيستنير بها فى مسيرته الحضارية ، ونحن نخطو نحو الأمجاد التى نترسمها فى ظـــلال من رعاية صاحب الجلالة السلطان قابوس .

فيصل بن على بن فيصل
وزير التراث القومى والثقافة

مقدمة المؤلف

على الرغم من أن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للخليج فى عالم اليوم لم تعد موضع نزاع ، فان التاريخ الحديث لهذه المنطقة وتاريخ الوجود البريطانى فيها لم يلقيا الاهتمام الوافى من الباحثين فى هذا المضمار وقد يرجع هذا النقص الى ارتباط الخليج بالحكم البريطانى فى الهند ، وبالتالى لم يحظ من المؤرخين البريطانيين المعاصرين بذلك الاهتمام الذى كان له فى السابق ومازال له حتى اليوم . ان غروب شمس الامبراطورية البريطانية لا ينبغى أن يعزف الاهتمام بماضى تلك الامبراطورية وانما على العكس من ذلك ، فهذا الماضى قد يثير فى النفس كثيرا من الانطباعات عنيفة كانت أم مغرضة عن ماضى تلك الامبراطورية على ضوء المفاهيم السائدة أو أنه قد يشجع على اغفال ذلك الماضى كليا . وقد يكون صحيحا أن الخليج هو آخر محطة ينحسر عنها الوجود الاستعمارى ، مهما كانت الطريقة التى تم بها ذلك الانحسار ، لقد كان الخليج أول منطقة اتجهت اليها أنظار المغامرين من رجال التجارة البريطانيين فى الشرق ، وقد مضت الآن ثلاثة قرون ونصف بالتحديد منذ أن نزلت اول شحنة للبضائع على شواطىء الخليج، وهى الشحنة التى استهلت بها شركة الهند الشرقية نشاطها التجارى مع فارس وأقامت على أساسها علاقات تجارية استمرت حتى هذا اليوم أما الاتصال بدول ساحل الخليج فلم يتحقق قبل مرور قرنين منذ ذلك الوقت الذى أصبحت فيه العلاقات البريطانية مع الخليج تخضع للاعتبارات السياسية أكثر مما تخضع للمصالح التجارية . وانطلاقا من تلك الاعتبارات فرضت بريطانيا حمايتها البحرية على الخليج منذ ذلك الوقت .

ان أهم المؤلفات التى صدرت عن تاريخ وجغرافية الخليج هو ((دليل الخليج الفارسى)) ـ ((عمان والمنطقة الوسطى للجزيرة العربية)) . تأليف : جى . جى . لوريمار ، فقد قام لوريمار باعداد هذا الكتاب فى قسم الشئون

الخارجية لحكومة الهند فيما بين عام ١٩٠٥ ، ١٩٢٥ ، وقد صدر المجلد الجغرافي من الكتاب عام ١٩٠٨ ، كما صدر المجلد التاريخي عام ١٩٢٥م ، أى بعد وفاة لوريمار بوقت قصير . ويعتبر الكتاب من أضخم وأهم الأعمال التى صدرت فى هذا المضمار ، بل قد يفوقها جميعا ، اننا لا نتصور أن يضارعه أى عمل آخر حاضرا أو مستقبلا ، فضلا عن التفوق عليه . غير أنه من المؤسف أن هذا الكتاب لم يلق مايستحق من الرواج والتداول ، فقد اقتصر تداوله على الجهات الرسمية حتى الخمسينات من القرن التاسع عشر ، وحتى بعد هذا التاريخ كان الكتاب نادر الوجود . وفى غضون الخمسين عاما بعد صدور هذا السفر التاريخى العظيم لم يصدر أى مؤلف هام عن تاريخ الخليج فيما عدا كتاب أرنولد ويلسن « الخليج الفارسى » الذى صدر عام ١٩٢٨ وأعيد طبعه عام ١٩٥٤ . ولما كان كتاب أرنولد ويلسن قد ركز على العصور القديمة من تاريخ الخليج حتى هذا القرن ، فقد جاءت معالجته لتاريخ القرن التاسع عشر مقتضبة ، غير أن ذلك الكتاب بوجه عام يعتبر مزجا بارعا بين الثقافة العلمية الواسعة والخبرة الطويلة بالمنطقة ، وهذه ميزة تنفرد بها مؤلفات رجال الادارة البريطانية الذين عملوا فى الدوائر السياسية فى الهند .

ان الغاية من وضع هذا الكتاب هى ايضاح المراحل التى مر بها النفوذ البريطانى فى الخليج خلال القرن التاسع والأسس التى قام عليها هذا النفوذ ، واتخاذ عام ١٧٩٥ نقطة انطلاق لدراسة هذا النفوذ ليس لها اعتبارات خاصة ، وكل مافى الأمر هو أنه لابد من اختيار مرحلة تاريخية من القرن الثامن عشر نبدأ بها دراسة منطقة الخليج ، من حيث تركيبات المجتمع والتجارة والسياسة قبل أن تتأثر تلك العوامل بمضاعفات الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ — وبظهور الوهابيين على مسرح الأحداث فى أواسط شبه الجزيرة العربية بعد مرور عام أو عامين منذ ذلك التاريخ .

وعلى الرغم من ذلك فان عام ١٧٩٥ لا يخلو من الأهمية فى التاريخ الحديث للخليج . ففى ذلك العام حقق القاجار وهى الأسرة التى قدر لها أن تحكم فارس طوال القرن التاسع عشر ، وجزءا من القرن العشرين ،

انتصارهم على بقايا أسرة الزند فى جنوب فارس ، وهو نفس العام الذى امتد فيه النفوذ الوهابى الذى قدر له أن يصبح القوة السياسية المؤثرة فى وسط شرق الجزيرة العربية الى ساحل الخليج على أثر احتلال الوهابيين للاحساء وخضوعهم لهم . وقد كنت مدفوعا فى استعراض الوجود البريطانى فىالخليج فيما بين عام ١٧٩٥ ، ١٧٨٠ بهدفين .

الهدف الأول :

ان استعرض تطور السياسة البريطانية فى الخليج بالذات .

والهدف الثانى :

أن أحدد موقع الخليج فى السياسة البريطانية فى الشرق الأدنى كله . وخلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر الأولى كان تصاعد النفوذ البريطانى فى الخليج حقيقة مفروغا منها ، فلقد كان الخليج اذا استخدمنا الاصطلاح الذى كان متداولا قبل جيل أو جيلين ((بحرا موصدا)) امام الدول الأخرى ولكن فى أواخر القرن بدأ النفوذ البريطانى يواجه تحديات وبدرجات متفاوتة وان لم تكن خطيرة فتركيا أولا ثم فرنسا ، ثم ألمانيا وروسيا . وقد قررت أن أنهى أحداث هذا الكتاب بقصة الوجود العثمانى ، ثم بابرام ((المعاهدة الخاصة)) مع البحرين عام ١٨٨٠ ، وهى المعاهدة التى كانت الأساس المباشر لاحتكار بريطانيا النفوذ فى المنطقة ، وكانت واحدة فى سلسلة الاتفاقيات التى عقدت مع دول الساحل العربية كنتيجة لظهور دول أخرى على المسرح السياسى فى الخليج ابان العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، كما كان لتلك المعاهدة الفضل فى وضع أسس المعاهدات التالية التى عقدتها بريطانيا مع دول الخليج فى نفس الفترة لأنها فى نظرى هى الفترة المناسبة للتوقف عندها ، لكونها تعبر عن الحقبة التى كانت بريطانيا تمارس فيها سياستها فى شبه انفراد عن الدول الأخرى فى أوروبا ، وعن بدء مرحلة جديدة من الصراع مع الدول الأخرى .

ان حوالى ثلث المعلومات التى وردت فى هذا المؤلف مقتبسة من رسالة كنت قد أعددتها فيما بين عام ١٩٥٢ ، ١٩٥٥ لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن تحت عنوان ((السياسة البريطانية فى الخليج الفارسى)) . أما بقية المواد فقد قمت بجمعها خلال عام ١٩٥٥ — ١٩٥٨

عندما كنت أشغل منصب رئيس قسم البحوث لمعهد دراسات الكومنولث بجامعة اكسفورد . وانه ليسعدنى كثيرا أن أعبر على صفحات هذا الكتاب عن تقديرى لكافة الذين منحونى التاييد والتشجيع ، وأخص بالذكر البروفوسير كيه . اس . لامبتون ، والبروفوسير دبليو . ان . مدلكوت ، والبروفوسير اس . تى باندوف ، والبروفسير برنارد لويس ، وجميعهم فى لندن ، والدكتور جى . ال لويس ، والسيدة/ايه ام . شلفر (عميدة كلية اكسفورد بلندن) كذلك أدين بالفضل بنوع خاص للبروفوسير لامبتون على ماأبداه من اهتمام بهذا الكتاب ، وعلى الاقتراحات والانتقادات التى وجهها الى خلال مرحلة اعداد الكتاب . أما السير هاملتون جب فقد تفضل مشكورا بمراجعة مسودة الكتاب ، وساهم فيه بآراء قيمة كثيرة .

ومن البديهى أن أقر بأننى المسئول عن أى خطأ فى الكتاب ، كما أشكر اللجنة المشتركة للمجلس الأمريكى للجمعيات العلمية ومجلس البحوث العلمية للشرق الأدنى والأوسط ثم مركز الدراسات للشرق الأدنى وشمال أفريقيا التابع لجامعة مشجن ، وعلى الأخص البروفوسير دبليو . دىشورجر الذى سمح لى بالتفرغ لكتابة هذا المؤلف أثناء العمل ، كذلك أغتنم هذه الفرصة لأعرب عن تقديرى للمساعدة الكريمة التى لقيتها من موظفى مكتبة ادارة الهند ، ثم من مكتب سجلات ادراة الهند ، خصوصا الآنسة اى . اف . طومسون نائبة أمين المكتبة ، والمستر دوجلاس ماثيوز الأمين المساعد السابق ونائب أمين مكتبة لندن حاليا ، بالاضافة الى عدد من الرجال الذين كان لهم الفضل فى انجاز هذا العمل ، وعلى الأخص عما قدموه الى من عون أثناء زيارتى للخليج للاعداد لهذا الكتاب ، فاذا لم أخصهم بالشكر فردا فردا . فأرجو ألا يتصوروا أننى قد جحدت فضلهم .

وأخيرا أهدى هذا الكتاب الى الرجل الذى كان له الفضل الأكبر فى اخراجه ، والذى لولا نصائحه واهتمامه لما قدر لهذا الكتاب أن يرى النور.

لندن — أكتوبر ١٩٦٥ — جى. بى. كيلى

الفصل الأول

الخليج العربى فى أخريات القرن الثامن عشر

ليس فى وسع أى دولة أن تمارس نفوذا على منطقــة الخليج مالم تكن تلك الدولة تملك السيطرة على البحار . ولم يتسن لأى دولة أن تمارس مثل هذه السيطرة منذ سقوط الخلافة العباسية حتى الآن ، الا فى فترتين ، وفى كلتا الفترتين كانت الدولة المسيطرة من الدول البحرية ، مملــكة البرتغال فى القرن السادس عشر ، والامبراطورية البريطانية فى القــرن التاسع عشر . ولقد كانت السيطرة البرتغالية على الخليج جــزءا من خطــة واسعة يعــود الفضل فيها الى القائد الكبير الفونسو البكورك ، وكان الهدف منها الوصول الى جزر الهند الشرقية بالاستيلاء على مداخلها التقليدية ـ البحر الأحمــر والخليج العربى ، ثم مضيق ملقا عبر رأس الرجاء الصالح حتى مصب نهــر تاجوس . أما سيطرة بريطانيا على الخليج فقد تمت بطريقة عشوائية وعلى حين دخل البرتغاليون الخليج رافعين الأسنة والحراب لفرض سلطانهم عليه، جاء البريطانيون فى البداية كتجار مغامرين يبحثون عن التجــارة والثروة ، ولم تتحقق السيطرة الكاملة للانجليز على الخليج الا بعد انقضاء قرنين من الزمان وكنتيجة لسيطرتهم على الهند ، وما ان ولى الربع الثانى من القــرن التاسع عشر حتى كانوا سادة الموقف فى الخليج ، ومنذ ذلك الوقت فرض البريطانيون وصايتهم على هذه المنطقة .

قبل قرون عديدة من وصــول البرتغاليين كان الخليج واحدا من أهــم المعابر التجارية فى آسيا وعن طريقــه كانت تمــر منتجات الهند والصــين والأرخبيل الشرقى الى الأسواق فى ايران ، والشام ، والعكس من ذلك كانت تعبر السلع الواردة من الجزيرة العربية وايران وأوروبا من نفس هذا الطريق الى الهنــد والشرق الأقصى . كما قامت وازدهرت على ضــفاف الخليج كثير من المدن التجارية المعروفة كالبصرة، والبحرين ، وصراف ، وقيس ، وهرمز، وبوشهر ، غير أن هذه المدن سرعان ماسقطت واندثرت تحت ضغط الأحداث

التى توالت على المنطقة مثل ثورة القرامطة ، وسقوط الخلافة العباسية ، وغزوات المغول ، وقيام امبراطورية صفوى فى ايران . وقد طواها الفناء نهائيا عند اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر ، ومنذ ذلك الحين تحولت جميع الطرق التجارية الرئيسية التى تربط آسيا بأوروبا الى الجنوب بعيدا عن منطقتى الخليج العربى والبحر الأحمر ، أى عبر المحيطات الجنوبية ورأس الرجاء الصالح . ولم تستأنف مسارها القديم الا بعد شق قناة السويس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . أما فيما يختص بالمدن والدول التى نشأت على شواطىء الخليج فقد كانت نهاية القرن التاسع عشر بمثابة كارثة كبرى لتلك الدول ، اذ أن وجودها وازدهارها كطريق دولى للتجارة اخذ يعتمد على علاقاته التجارية بالشام وأسواق البحر الأبيض المتوسط ، وما ان جرد الخليج من هذا الدور حتى سقط فى قبضة السيطرة البرتغالية التى استمرت زهاء قرن من الزمان ، وهكذا أصبح للسفن البرتغالية السيطرة على ميـــاه الخليج ، كما كان ولاة البرتغال هم الذين ينظمون الحركة التجارية فى المنطقة .

ومن قلعة هرمز الكبيرة مركز السلطة البرتغالية ، كان البرتغاليون يمارسون سيطرتهم على مداخل الخليج ولم يكن فى مقدور أى دولة من دول الخليج ، ولا حتى امبراطورية صفوى فى فارس تحرير المنطقة من قبضة النفوذ البرتغالى لأن أيا من هذه الدول ، ولا حتى الدولة الفارسية كانت فى وضع يسمح لها بتحدى القوة البحرية البرتغالية .

ولم تتح الفرصة للشاه عباس الأول ، أعظم اباطرة أسرة صفوى لطرد البرتغال من هرمز الا عند قدوم الانجليز الى المنطقة فى القرن السابع عشر ، حيث استعان بأسطولهم البحرى فى تحقيق هذا الأمر . وبسقوط قلعة هرمز فى يد قوة مهاجمة من الفرس والانجليز سنة ١٦٢٢ انتهت للأبد السيطرة البرتغالية على منطقة الخليج ، وانفتحت أسواق ايران والجزيرة العربية أمام التجارة البريطانية ، ولم تحاول هولندا أو فرنسا ، وهما الدولتان الأوربيتان التجاريتان اللتان جاءتا فى أعقاب الدخول البريطانى الى الخليج ، أن تمارسا سيطرتهما على الخليج على غرار السيطرة البرتغالية فقد حصرتا

نشاطهما فى المنطقة ضمن النطاق التجارى فحسب ، وفى العشر الأخير من القرن الثامن عشر لم يبق من الوجـود الأوروبى فى الخليج غير شركة الهنـد الشرقية البريطانية ، وان كانت مصالح هذه الشركة فى تلك المرحـلة قـد تقلصت الى حد كبير ، ولقد عمت الفوضى المنطقة منذ النكسة التى أصيبت بها البرتغال ، وترك الأمر للمشيخات العربية الصغيرة الواقعة على ساحل الخليج لتتنافس بين بعضها البعض على السلطة .

وكانت أكبر هذه الامارات هى سلطنة عمان التى تقع خارج حزام منطقة الخليج الأصلية . وفى العصور الوسطى كان اسم عمـان يطلق على كل ذلك الجزء من الجزيرة العربية الذى يقع شرقى قطر ثم جنوبا الى المحيط الهندى ، وفى القرن الثامن عشر كان هذا الاسم يطلق على الزاوية الجنوبية الشرقيـة من شبه الجزيرة العربية والتى تشكل اليوم سلطنة عمان وساحل الهدنة . ولقد صنعت الجغرافيا من عمـان استراتيجية ، اذ يحيط بهـا البحـر من اجزائها الثلاثة ، بينما تلتف رمال الربع الخالى بجزئها الرابع الذى يفصلها عن بقية الجزيرة العربية ، وتتحكم فى عمان سلسلة من الجبال تسمى جبال الحجر تبدأ من راس رءوس الجبال حتى الخليج العربى، ثم تمتد صوب الجنوب الشرقى على شبه نصف دائرة كبيرة تمتد الى البحر العربى ، والى الشرق من هذه السلسلة بينها وبين خليج عمان يقـع سهل الباطنـة الساحلى ، ويبلغ طول هذا السـهل ١٥٠ ميلا وعرضه نحو عشرة أميال ، ويبـدأ من الجهـة الشمالية من بلدة شناص ، وينتهى جنوبا فى مدينـة مسقط ، حيث تمتـد الجبال داخل مياه البحر .

أما فى الداخل فان الأرض تمتد منتهية فى شكل مجموعة من السـهل الصخرى تشقه أعداد كبيرة من الوديان أو جداول الميـاه ، ويسمى الجـزء الشمالى من هذا السهل الظاهرة ، والجنـوبى منه حمـراء الدروع ، أما فى الغرب فان المنحدرات تختلط بسلسلة من السهول الرملية او بحيرات الملح ، حيث تقع على الناحية الجنوبية من منطقة الرمال المتحركة أو الرجراجـة وتعرف (بأم السميم) والى الغرب أكثر من السبخة تقـع سلسلة تلال رمال الربع الخالى غير المطروقة .

ويشق منطقة الحجر عدد من الوديان التى تفتح الطريق الى داخلية عمان ، وأكبر هذه الوديان وادى سمايل الذى يقسم منطقة الحجر قسمين الحجر الغربى والحجر الشرقى ، ولا يفصل وادى سمايل عن ثانى أكبر وديان عمان ، وهو وادى حلفين ، غير خور ضيق يمتد فى اتجاه الجزء الشرقى من خليج عمان شاقا طريقه نحو الجنوب حتى شواطىء البحر العربى ، ويطل على بطن وادى سمايل سلسلة من القمم تعرف فى مجموعها بالجبل الأخضر، يصل ارتفاعها الى ١٠ آلاف قدم ، وهى أعلى سلاسل الجبال العمانية كلها . وعلى بعد بضعة أميال الى الغرب تقع سلسلة جبل الكور التى لا تقل اثارة عن غيرها . أما الجانب الشرقى من عمان ، ابتداء من رأس الحد شمالا حتى ظفار جنوبا فان البلاد تشكل خليطا من كثبان الرمال كمنطقة بنى وهيبة أو السهول الحجرية كمنطقة الهفوف ، والمنحدرات الصخرية كجده الحراسين. أما ظفار ، السهل الأخضر المطل على البحر العربى فان هبوب الرياح الموسمية السنوية عليه يجعله نعمة على هذا الجزء ، وذلك لما يصاحبه من أمطار ، الى جانب وجود سلسلة جبال القرا التى تحيط به من الشمال وتحميه من الرياح الحارة التى تهب عليه من صحراء الربع الخالى .

من الوجهة التقليدية تنقسم عمان الى عدد من المقاطعات لا يمكن وضع حدود دقيقة لها ، ولكنها تتوافق مع التقسيمات الطوبوغرافية للبلاد . ولا يمكن اعتبار رؤوس الجبال ، وهى مجموعة الجبال المطلة على مدخل الخليج العربى كاحدى مقاطعات عمان القديمة ، وان كانت هذه المجموعة تؤلف جزءا من سلطنة عمان الحديثة ، كذلك لم تكن ظفار مقاطعة من مقاطعات عمان فى القرن الثامن عشر ، غير أن الباطنة التى تشكل السهل الساحلى هى المقاطعة الأولى لعمان ، وقد أطلق عليها هذا الاسم باعتبارها تمثل جوف عمان بالمقارنة الى مقاطعة الظاهرة التى تعتبر بمثابة ظهر عمان . وتمتد مقاطعة الظاهرة من واحة البريمى فى الشمال حتى جبل الكور فى الجنوب حيث تنتهى فى المنطقة الأم أو عمان الوسطى أى المنطقة المحيطة بالجبل الأخضر أو جبل الكور والمرتفعات العليا لوادى حلفين . أما المنحنيات الجبلية الواقعة فى الشرق من وادى سمايل فتعرف بالشرقية ، والى الجنوب والشرق منها تقع جعلان ممتدة على البحر العربى حتى منطقة رأس الحد . أما المنطقة الشمالية والتى تعرف فى الوقت الحاضر بعمان المتصالحة فهى

تشكل ، كما يدل عليها اسمها ، الحدود الشمالية للبلاد ، وهى الوحيدة التى تطل على الخليج العربى . أما المقاطعة السادسة وهى المسماة بالغربية فلم يعد لها وجود الآن ، ولكنها كانت تشكل فى العصور الوسطى الجزء الغربى من أبو ظبى امتدادا الى شبه جزيرة قطر . ولقد أثرت الطبيعة الجبلية لعمان على أهلها تأثير عميقا ، اذ أن معظم هؤلاء السكان الذين يقدر تعدادهم فيما بين نصف أو ثلاثة أرباع المليون يقطنون الوديان الغربية والشرقية من منطقة الحجر(١) ، وعلى الأخص المنطقة المحيطة بالجبل الأخضر وعلى سهل الباطنة .

ان التركيب الاجتماعى لعمان قبلى محض : ففيها قرابة مائتى قبيلة رئيسية واعداد لا تحصى من القبائل الفرعية . كما أن عزلة هذه البلاد عن العالم ، ثم عزلة كل قبيلة عن القبيلة الأخرى كان سببا فى انتشار عمليات الثأر والأحقاد القبلية فيما بينها . وتتكتل قبائل عمان ضمن طائفتين سياسيتين متناوئتين هما الهناوية والغافرية . ومن العسير تحديد أوتفسير أصول هذا الانقسام القبلى ، وترى بعض الأوساط أن منشأ هذا الانقسام هو الحروب الأهلية التى مزقت عمان فى القرن الثامن عشر ، بينما يرجعه البعض الآخر الى العرب الأوائل الذين استوطنوا عمان . فقد بدأت هجرة القبائل العربية الى عمان من الجنوب العربى للجزيرة فى فترة مبكرة من القرن التاسع قبل الميلاد ، واستمرت فى التدفق على البلاد على امتداد العشرة قرون التالية ، ولقد استأثرت هذه القبائل اليمنية أو القحطانية ، كما كانت تدعى ، بالأرض الجديدة حتى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد ، عندما استقبلت البلاد أفواجا جديدة من المهاجرين من أواسط وشرق الجزيرة . وقد استقر

---

(١) حسب تقدير المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط كان سكان عمان فى سنة ١٨٨٠ نحو ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وهم السكان الأصليون و ٢٠٠٫٠٠٠نسمة للأقليات والعناصر غير العمانية (من أفريقيين وهنود وايرانيين ... الخ) وذلك وفقا للتقرير الادارى ــ السنوى ١٨٨٠ ــ ١٨٨١ من اعداد اللفتنانت كولونيل اس . بى مايلز بعنوان «ملاحظات على القبائل العمانية » تأليف جى.جى. لوريمر الذى يقدر عدد سكان عمان سنة ١٩٠٨ بنحو ٥٠٠ ألف نسمة ، ٣٠ الفا منهم من البدو . راجع جريدة الخليج الفارسى عمان وأواسط الجزيرة العربية مجلد ٢ طبعة كلكتا ١٩١٥ الجزء الثانى عدد ١٤١٢

القادمون الجدد من العدنانيين والنزاريين ، وهو الاسم الذى كانت تعرف به هذه القبائل اليمنية ، فى عمان ، رغم المعارضة القوية من اليمنيين القاطنين شمال وادى سمايل ، والمنطقة التى تعرف الآن بساحل الصلح . والمعروف أن القبائل المنحدرة من أصل يمنى تسمى الهناوية بينما المنحدرة من نزار تعرف بالغافرة ، أى أن الأولى من قبائل بنى هناه ، والثانية من سلالة بنى غافر . وظل هذا الانقسام يغذى الصراع القبلى الذى أشرنا اليه آنفا(١) . على أن أهم مافى مجموعة قبائل بنى هناه هم آل سعد أو بال سعد . سكان الباطنة ، والحرث والحجرين ، والحبوس سكان مقاطعة الشرقية ، وآل بوسعيد ، وبنى رواحة والعوامر سكان عمان الوسطى ، بالاضافة الى بنى بوعلى سكان الظاهرة وبنى بوحسن سكان جعلان ، والنعيم سكان الطاهرة ، وقبائل الحبتية وبال وهيبة وهما فصيلتان من ثلاث قبائل عمانية رئيسية ، وهما قبائل بدائية ، موطن نشاطها جنوب وشرقى عمان من ظفار حتى مقاطعة الشرقية ، وكلتا القبيلتين تنحدر من أصل هناوى ، بينما القبيلة الثالثة ، الدروع فمنطقة ارتيادها سفوح عمان ، وهى تنقل ولاءها من الهناوية الى الغافرية(٢) .

وبجانب الانقسام القبلى بين هذين الفريقين ، هناك الانقسام المذهبى أو الطائفى ، ذلك أن معظم ان لم يكن جميع قبائل الغافرية من السنة بينما تنتمى أغلبية الهناوية الى المذهب الاباضى ، وهو مذهب الخوارج الذى ظهر فى القرن الأول للهجرة بعد أن انشق مجموعة من المسلمين على الامام على ابن أبى طالب ، على أثر موقعة حطين فى شهر يوليو ٦٥٧ بعد الميلاد ، بسبب موافقته على التحكيم فى الصراع الذى نشأ بينه وبين خصمه معاوية على

---

(١) فى الوقت الحاضر لا تلعب هاتان القبيلتان دورا يذكر فى الشئون السياسية للبلاد على الرغم من أن غالب بن على الذى تولى الامامة فى عمان سنة ١٩٥٤ ينتمى الى بنى هناه ، أما بنو غافر فقد كانوا يعرفون بالمياسة أى المتقبلو الولاء لأنهم يمنحون ولاءهم مرة الى هذه القبيلة ومرة الى تلك .

(٢) بعض هذه القبائل مستثنون من الهناوية العاديين المنتمين الى الأصل اليمنى أو النزارى أو الغافرى . فالحرث وبنى رواته رغم كونهم هناوية الا أنهم ينحدرون من أصل نزارى أو يمنى بينما بنوريام والنعيم والجبة وهى كلها قبائل غافرية تنحدر من أصل يمنى وليس نزاريا .

الخلافة فقد أصرت هذه الجماعة ببطلان التحكيم فى الخلاف ، وطالبت بالاحتكام الى كتاب الله . وانكفأت تقاوم هذا الموقف بالقوة واللجوء الى الارهاب . ولكن الامام على تمكن من سحق هذه الفئة المرتدة عنه سنة ٦٥٨م ، فيما عدا بعض الجيوب التى بقيت على قيد الحياة فى العراق وفى غيره من الأقطار .

ان احدى فئات الخوارج هؤلاء وهى تقطن منطقة قريبة من البصرة هى فئة الاباضية وقد تسمت بهذا الاسم انتماء الى أحد زعمائها الأوائل عبد الله ابن أباض الذى انفصل عن فئة الخوارج الأشد تطرفا فى سنة ٦٨٥ بعد الميلاد، الأمر الذى سهل للمتعاقبين من خلفاء أمية أن يقبلوا بوجود هؤلاء فى مجتمعاتهم . وعند وفاة عبد الله بن اباض (وتاريخ وفاته مجهول) انتقلت زعامة الاباضيين الى عبد الله الشيت جابر بن زيد الأزدى الذى نزح من نزوى فى عمان ، وعلى الرغم من المكانة العلمية التى كان يحتلها عبد الله الشيت بين مسلمى العالم (فقد كان معروفا أنه من أكبر جامعى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) وأنه كان ينتهج سياسة وفاق مع خلفاء بنى أمية ، كما كان يفعل سلفه واتجهت الحركة الاباضية فى عهده الى التجديد أكثر وأكثر حتى سنة ٧٢٠هجرية عندما أقصى عدد كبير من أتباعها الى عمان .

ولقد انتشرت الأفكار الاباضية والخوارجية فى عمان فى مستهل الحركة وتعمقت فيها وعلى الأخص بين القبائل ذات الأصل اليمنى . وعند قيام الخلافة الأموية الأولى انفصلت عمان عن الامبراطورية العربية ، ولم تعد اليها الا خلال الحقبة الأخيرة من القرن السابع بعد الميلاد ، عندما أخضعها الحاكم الحجاج بن يوسف لسلطانه ، لكنها عادت فانفصلت عن الامبراطورية العربية بعد وصول الجماعات الاباضية المطرودة من البصرة بعد عام ٧٢٠ وبعد سقوط الخلافة الأموية فى عام ٧٥١ ميلادية انتخبت عمان أول امام شرعى لحكمها هو الجلندى بن مسعود ، ولكن حكمه كان قصيرا الى حد كبير ، وخلال عام واحد منه قام السفاح الخليفة العباسى الجديد بفرض سلطانه على عمان بعد اعدام الامام الجلندى ، غير أن النظرية الاباضية كانت حتى ذلك الوقت قد تعمقت بصورة قوية فى وجدان العمانيين حيث غدا من المستحيل استئصالها ، فضلا عن أنها قد ارتبطت فى أذهانهم بالاستقلال .

وقد شهدت عمان عبر القرنين التاليين سلسلة من الأئمة المنتخبين ، قاد معظمهم ثورات متواصلة ضد الحكم العباسى ، ولكنهم أقصوا عن السلطة عن طريق الحملات التأديبية التى كان يقوم بها العباسيون .

وفى نهاية القرن العاشر للميلاد تلاشى نفوذ العباسيين كليا من عمان مع تفكك أوصال امبراطوريتهم ، ومن ثم استعادت الامامة سلطانها على عمان باعتبارها نظام الحكم المفضل .

مبدئيا لا يختلف الاباضيون عن المسلمين السنة كثيرا . والشىء الوحيد الذى يميزهم عن غيرهم من الفرق الاسلامية ، هو تمسكهم الشديد بنصوص الشريعة ، ويقول المؤرخ كارستين ينبهور فى ملاحظة له عن الاباضية خلال زيارته لمسقط سنة ١٧٦٥ بقوله « بأننى لم التق فى حياتى بمحمديين يبدو عليه الوقار والتواضع كهؤلاء الاباضيين ، فهم لا يدخنون ولا يشربون الخمر ، كما أنهم يتناولون كميات قليلة من القهوة ، كما أن رجالهم لا يرتدون ملابس أزهى من الملابس التى يرتديها غيرهم من العامة ، كما لا يميزهم عن هؤلاء الا العمائم البيضاء المزوكشة وسيوف لامعة مدلاة على أكتافهم ، كما يحملون الخناجر الجميلة ويحزمونها على أوساطهم ، كما أنهم مشهورون بعدم الانفعال بسرعة ، وهم مهذبون تجاه الأجانب ويسمحون لهم بالعيش فى البلاد وفقا لقوانينهم(١) . وكغيرهم من الخوارج (الذين انقرض أكثرهم الآن) فان الاباضيين متسامحون مع غير المسلمين ، وبالأخص تجاه المسيحيين واليهود ، وهذا من الأمور البارزة اذا ماقورن بموقفهم المتشدد جدا تجاه الطوائف الاسلامية الأخرى ، ويعود هذا التعصب الى أصول العقيدة الاباضية .

وكان الاباضيون الأوائل عموما كغيرهم من الخوارج لا يقرون نظرية الحاكم الدائم ، وفى رأيهم أن الامام المنتخب شرعا هو شخص تفرضه الظروف ، ولكن لابد أن يتولى الامامة عن طريق الانتخاب فى كل مرة ، ولايحق لأى أسرة أو طبقة أن تحتكر الحكم لنفسها بالوراثة ، وعلى العكس من ذلك فان من حق أى فرد ، مهما كانت طبقته أو وضعه الاجتماعى أن يتولى مسئولية الحكم اذا توفرت فيه الاستقامة الدينية والأخلاقية ، وبالعكس فمن واجب المسلمين الصادقين أن يقوموا باقالة أو اعلان بطلان شرعية أى حاكم لا تتوفر فيه خصائص الامامة الصحيحة ، ومن ثم فقد كان فريق من الخوارج يعتبر الامامة بمثابة خليفة المؤمنين ، وبالتالى فان الأئمة أو الخلفاء الذين يعتبرهم الخوارج أئمة شرعيين هم « أبو بكر وعمر » وعلى الرغم من أن بعض فرق

---

(١) رحلة عبر الجزيرة العربية المجلد الثانى ١٩٧٥ (الجزء الثانى)

الخوارج كانت تعتبر عثمان أيضا اماما شرعيا من أئمة المسلمين وذلك فى الفترة الأخيرة من حكمه ، وكذلك على ابن أبى طالب قبل موقعة حطين .

* * *

ويعتقد الاباضيون بأنهم الفئة الاسلامية الوحيدة التى تطبق الدين وفقا للمبادىء الاسلامية الصحيحة وبالتالى فان الجنة فى اعتقادهم ستكون مثواهم فى اليوم الآخر . أما الفئات الاسلامية الأخرى فهى فى نظرهم بعيدة عن الاسلام وأقرب الى الكفر . وتحلل الفئة المتطرفة من الاباضيين دم غيرهم من المسلمين على هذا الأساس .

وعلى الرغم من أن جميع الاباضيين متفقون حول قضية الامامة، شأنهم شأن الفئات الأخرى من الخوارج ، الا انهم أقل تطرفا تجاه المذاهب الاسلامية الأخرى فلا يرمونها بالضلالة أو الكفر كما أنهم لا ينادون بقتل أصحابها، ومن هنا فان الاباضيين فى عمان لا يصرون على أن يكون امام المسلمين اماما ملتزما ، بمعنى أن يعلن الجهاد على غير المسلمين(١) . وانما يكفى أن يلتزم بالشورى فى الحكم ، وبالتروى فى قيادة الجماعة الاسلامية ، ووفق هذا المفهوم تصبح مهمة الامام قيادية تسير على هدى القرآن والسنة والأحاديث النبوية الصحيحة وأن يقتدى الامام بمن سبقه من الأئمة .

وعلى هذا الأساس فمن حق المسلمين خلع امامهم عن السلطنة اذا لمسوا فيه انحرافا أو خروجا على تلك المبادىء الأساسية . وقد يظل منصب الامام شاغرا فى بعض الحالات لأن استمرارية الامام لا تعتبر فى نظرهم شرطا الزاميا من شروط الاسلام ، أو مايسمى بالامامة الشرعية ، وذلك بعدد من الأسباب فى مقدمتها اعتقادهم بأن الخير والشر هما من فعل الانسان ، وأن الله يحاسب الخلق على أفعالهم خيرا كانت أم شرا . ولا يقر الاباضيون خلافة كل من الامام على وعثمان على نقيض غيرهم من مسلمى المذاهب الأخرى .

ان الصراع الطويل الذى استمر خلال القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد بين الاباضية فى عمان وخلفاء بنى العباس قد أضفى على نظام الامامة

---

(١) يطلق الخوارج على انفسم اسم الشراه (جمع شارى) أى أولئك الذين باعوا انفسهم فى سبيل الله عندما ثاروا ضد الامام على بن أبى طالب .

صبغة علمانية طغت على صبغته الدينية . وبالتالى أصبح ذلك الموقف خياريا وليس الزاميا بالنسبة للمؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فى الامام لكى يحكم المسلمين ويحمى الوطن الاسلامى . وقد اعتاد الاباضيون فى عمان على انتخاب ائمتهم من بين القبائل ذات الأصل اليمنى ، أما عملية الانتخاب فتتم عن طريق مجلس مشترك من زعماء القبائل وعلماء الدين .

وفيما يلى نموذج لصيغة البيان الذى يصدر به انتخاب الامام وهو البيعة وتعود صيغة هذا البيان الى عهد الامام مرشد بن الوليد الذى تولى الامامة فى القرن العاشر بعد الميلاد . (نص البيعة) ...(١)

يشكل القسم الأعظم من المدون التاريخى عن عمان الذى استطاع أن يعثر عليه الأب جى. بى. بادجر فى عام ١٨٦٠ عندما كان عضوا فى لجنة تقصى الحقائق المشتركة بين مسقط وزنجبار (راجع الفصل الثانى عشر) ، وهو الذى قام بترجمته وتبويبه الأب المذكور ، وصدر من مؤسسة هكليوت عام ١٨٧١ تحت عنوان تاريخ (سلاطين وائمة عمان) ويسمى بادجر مؤلف هذا الكتاب الذى يروى تسلسل الأحداث فى عمان حتى عام ١٨٥٦ سليل بن رزيق، غير أن اسمه الحقيقى كما يشير روس فى مؤلفه تاريخ عمان صفحة ١١٢ وكما جاء فى تقرير المقيم السياسى فى الخليج عام ١٨٨٢ - ١٨٨٣ تحت عنوان « ملخص لتاريخ(٢) عمان منذ عام ١٧٢٨ حتى ١٨٨٣ » فان اسمه حمد بن محمد بن رزيق وأن لفظة سليل معناها الابن ، وبالطبع كما يشير بادجر نفسه فى الصفحة الأخيرة من الترجمة هو أن اسمه حمد بن محمد بن رزيق .

---

(١) لم يذكر المؤلف نص البيعة .

(٢) « عمان منذ فجر التاريخ حتى عام ١٨٢٣ م » تأليف الليفتنانت كولونيل اى . اس . روس المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط ويكاد يكون هذا الكتاب ترجمة انجليزية لكتاب « كشف الغمة » تأليف الشيخ سرحان بن سعيد من سكان نزوى وقد كتبه فى القرن الثامن عشر ويبدو أن المؤلف قد فرغ من كتابته عام ١٨٢٨ وهو التاريخ الذى تنتهى عنده أحداث الكتاب وعلى حد راى روس فان هذا الكتاب الذى هو صورة الأصل لكشف الغمة يشكل الجزء الاكبر من المخطوط التاريخى لعمان الذى حصل عليه القس. جى. بى. بادجر عام ١٩٦٠ وكان وقتها ضمن لجنة التحقيق الزنجبارية المسقطية والذى قام بادجر بترجمته والتعليق عليه وقامت بنشره دار هلكيوت =

وكان المؤلف مواطنا من بلدة (نخل) فى عمان الوسطى ، وقد وافاه الأجل فى عام ١٨٧٣ فى مدينة مسقط .

وقد اختفت الامامة من عمان فى منتصف القرن الثانى عشر ، وذلك بعد أن استولت قبيلة بنى نبهان من أواسط عمان على السلطة فى البلاد ، وأقامت فيه حكما ملكيا شمل البلاد كلها ، واستمر حكمهم زهاء قرنين ونصف .

وقد اختفت الامامة من عمان فى منتصف القرن الثانى عشر ، وذلك بعد عندما بدات سيطرة النباهنة فى الانحلال وذلك بعد عام ١٤٢٩ تقريبا . وقد ظل نظام الامامة خلال القرنين التاليين فى وضع غير مستقر ، وعلى حين ظلت السلطة فى يد النباهنة فى الأجزاء الداخلية من البلاد فان المناطق الساحلية قد خضعت لسلطة البرتغال .

وابتداء من عام ١٥٠٧ أصبحت سور ومسقط ومطرح وصحار وخورفكان فى أيدى الغزاة البرتغاليين ، وبانتخاب الامام ناصر بن مرشد الذى ينتمى الى طائفة اليعاربة سكان بلدة الرستاق عام ١٦٢٤ استردت الامامة سيطرتها وسلطانها على البلاد . وقد استطاع اليعاربة أن يحققوا بعثا جديدا للسيطرة العمانية على المقدرات السياسية فى شبه الجزيرة العربية ، كما استطاع مرشد أن يواصل ضغطه على البرتغاليين حتى أرغمهم على التخلى عن الساحل العمانى بحيث لم يعد لديهم من المواقع عند وفاته عام ١٦٤٩ غير التحصينات الداخلية على مشارف مدينتى مسقط ومطرح ، ثم جاء ابن عمه

= عام١٨٧١ تحت عنوان تاريخ «أئمة وسلاطين عمان » ويطلق بادجر على مؤلف هذا الكتاب الذى يتعرض الى تسلسل الأحداث فى عمان منذ عام ١٨٥٦ سليل ابن رزيق غير ان الاسم الأصلى للكتاب كما يشيرروس هو « تاريخ عمان » ص ١١٢ والتقرير الادارى السنوى للمعتمد البريطانى فى الخليج ١٨٨٢ — ١٨٨٣ ، روس « ملخص لتاريخ عمان » ابتداء من عام ١٧٢٨ حتى ١٨٨٣ وأن اسمه هو حمد بن محمد بن رزيق وأن عبارة سليل تعنى الابن « أى ينحدر منه » وبالفعل فان بادجر نفسه يطلق عليه فى الصفحة الأخيرة من ترجمته » أنظر ص ٣٧ « أئمة وسلاطين عمان » يسميه حمد بن محمد بن رزيق وكان من سكان نخل من المنطقة الوسطى فى عمان وقد توفى فى مسقط عام ١٨٧٣ .

سلطان بن سيف وطردهم من مسقط فى يناير عام ١٦٥٠ ثم واصل القتال ضدهم بشن هجوم على تحصيناتهم فى منطقتى ديو والدمام ، وقد تحولت عمان فى ظل اليعاربة الى أكبر قوة بحرية غير أوربية فى مياه الشرق ، وما كاد ينتهى القرن حتى تمكن الامام العمانى سلطان بن سيف من طرد البرتغاليين من كل من ممباسا وكليواوبمبا ، وارساء أسس أول حكم عمانى لأفريقيا الشرقية وما يبعث على الأسف أن اليعاربة رغم نجاحهم فى اقامة قاعدة لأول حكم وراثى فى عمان ، لم يخلفوا وراءهم حكاما عمانيين من نفس طرازهم أو معدنهم ، ومن ثم فان دولتهم لم تخسر سمعتها فى الخارج بعد قرابة مائة عام من بداية حكمهم للبلاد بما فى ذلك الثلث الأول من القرن الثامن عشر فحسب ، وانما كانت على شفا الانهيار فى داخل البلاد نفسها(١) .

عند وفاة الامام اليعربى الحاكم سلطان بن سيف عام ١٧١٨ ، انتخب نجله سيف ، وكان صبيا عمره اثنا عشر عاما ، اماما جديدا لعمان ، وقد واجه انتخابه معارضة من بعض رؤساء القبائل التى رأت فى انتخاب قاصر خروجا على المألوف ، واختاروا بدلا منه اماما آخر من أسرة اليعاربة وقد تسببت عملية الازدواج فى اختيار الامام منافسة قوية بين مؤيدى انتخاب نجل الامام سلطان بن سيف وكبار رؤساء القبائل ، وهو وضع لم يسىء الى نظام الحكم فحسب ، وانما أسفر عن سلسلة من الثورات والتمردات فى طول

---

(١) بالنسبة للاباضية والتاريخ القديم لعمان راجع عمان ص ١١٨ — ٦٦ ترجمة روس . وتتناول التعاليم الاباضية فى عمان كما ورد فى التقرير الادارى السنوى لدار المقيم البريطانى فى الخليج وملاحظاته عن الطائفة الاباضية فى عمان وكتاب « أئمة وسلاطين عمان » تأليف بادجر ص ١ — ٣٠ ومن ١ — ٩٩ ملحقاته وكتاب « أقطار وقبائل الخليج » تأليف الكولونيل اس . بى مايلز المجلد الثانى طبعة لندن ١٩١٩ وكتاب الخليج الفارسى تأليف السيرارنولد ولسون طبعة اكسفورد ١٩٢٨ من ص ٧٧ الى ٨٣ ودائرة المعارف الاسلامية تأليف هوتسما المجلد الرابع طبعة لندن ١٩٢٤ والاباضيون لعبد الله ابن أباض و « الاباضية » وموجز دائرة المعارف الاسلامية تأليف « أ. ح. اى. آرجب وجى » اس كرامرز طبعة لندن ١٩٣٥ .

البلاد وعرضها . وكان أنجح المتنافسين على الأمامة محمد بن ناصر من الغافريين ، الذى انتخب اماما فى عام ١٧٢٤ بمعاونة أغلبية القبائل النزارية ، غير أن انتخابه لاقى معارضة عنيفة من خلف بن مبارك ، الملقب بالقزم ، وهو شيخ من بنى هناه ، وكان قد دخل فى صراع مسلح بالفعل ضد زعيم الغافريين وكان خلف يخوض حربا بتأييد من بنى هناه لخلع محمد بن ناصر . وسرعان مااستدرجت الحرب الى ساحتها كل قبائل عمان تقريبا ، وتحالف نزاريو الشمال مع بنى غافر ، بينما تحالف قبائل الجنوب أو اليمنيين مع بنى هناه ولقد لقى كل من مبارك ومحمد بن ناصر مصرعهما خلال المعارك التى دارت رحاها فى مدينة صحار عام ١٧٢٨ ، ومع ذلك فقد استمر الصراع بين الفريقين دون هوادة ، حتى أسفر فى النهاية عن قيام معسكرين متخاصمين . وقبل ذلك كان سيف الثانى بن سلطان قد بلغ مبلغ الرجال مما أتاح لتحالف القبائل الهناوية الفرصة لانتخابه اماما على عمان ، بينما قامت مجموعة القبائل الغافرية بانتخاب امام منافس له ، هو بلعرب بن حمير . ولكن سيف تمخض عن شخصية ضعيفة وغير مؤهلة للحكم ، بل وعرض نفسه لعداء الفئات الاباضية الأشد تعصبا بانغماسه فى الدعارة والفسق والتدخين(١) حتى أوشك حكمه خلال سنوات قليلة على الانهيار ، واخيرا اضطر سيف كخطوة يائسة الى طلب المساعدة العسكرية من شاه ايران يومئذ نادر شاه .

فى ربيع عام ١٩٣٧ نزلت القوات الايرانية على الحدود الشمالية من عمان ، ومنها تقدمت الى واحة البريمى ، وقد التقى جيش بلعرب بن حمير مع القوات الايرانية فى منطقة الظاهرة وانتهت المعركة بينهما بهزيمة بلعرب .

ولقد وصل الايرانيون فى زحفهم عن طريق عبرى ونزوى الى مشارف مسقط ولكنهم سرعان ماانسحبوا من البلاد بعد تدعيمهم لحكم الامام سيف . وتنازل بلعرب عن الامامة كنتيجة للهزيمة التى منى بها . وقبل مضى وقت طويل ظهر فى عمان منافس جديد على الامامة هو سلطان بن مرشد الذى سرعان

---

(١) وصف للجزيرة العربية ، طبعة كوبنهاجن عام ١٧٧٣ ص ٢٥٨ .

ماتمكن من طرد سيف من مسقط . وقد فر سيف الى ايران حيث استنجد مرة اخرى بالشاه متعهدا له بالتنازل عن مدينة صحار على طرف الساحل الشمالى للباطنة مقابل تأييده ، ولقد قام الفرس مرة اخرى بغزو عمان واجتياحها ، كما أعيد مرة أخرى تنصيب سيف اماما على البلاد ، وقد لجأ مرشد الى صحار ، واعتصم عند واليها يومئذ ، احمد بن سلطان ، الذى رفض تسليم المدينة الى الفرس . وبذلك أصبحت صحار نقطة تجمع لكل العمانيين والمناهضين للاحتلال الفارسى . وفى عام ١٧٤٣ قام أحمد بن سعيد بشن هجوم ضد الغزاة الايرانيين وتمكن من تحرير منطقة الباطنة وارغام الغزاة على التراجع والتحصن وراء أسوار مدينة مسقط ، وبعد عام من هذا التاريخ استسلمت هذه الحاميات للقائد الجديد . وقد توفى الامام سيف كمدا بسبب البلاء الذى أنزله بالبلاد والأهالى كما يقول ينبهور(١) كما قتل سلطان ابن مرشد أثناء معارك الدفاع عن صحارى .

ان حرب الخمسة والعشرين عاما التى خاضها العمانيون بجانب الاحتلال الايرانى قد انهكت القبائل واثارت الآلام فى نفسها حتى أصيبت بحالة من اليأس مما جعلها تتفق أخيرا فى عام ١٧٤٩ على انتخاب أحمد بن سعيد اماما عليها(٢) ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) يختلف سجل الأحداث من عام ١٧٣٧ حتى ١٧٤٩ من مرجع الى آخر . ففى كتاب بادجر «أئمة وسلاطين عمان» ص ١٧ — ٣٠ وحتى ٩٩ — ١٦٩ يحدد تولى الامام سلطان بن مرشد الامامة عام ١٧٣٨ وطرد الفرس وانتخاب أحمد اماما عام ١٧٤١ أما ينبهور فيحدد فى كتابه (وصف للجزيرة العربية) ص ٢٥٨ — ٦٣ هذه الفترة فى عام ١٧٤٩ . وعن المرحلة الفاصلة بين طرد الفرس وانتخاب احمد يقول هذا المؤلف انها ترجع الى عودة الامامة واستئنافها من قبل بلعرب بن حمير قبل اخراج الايرانيين من البلاد ، والاحتفاظ بها لفترة من الوقت ، كما يذكر ان بلعرب كان فردا فى عائلة سلطان بن مرشد . ويجمع بادجر ولوريمر (الجريدة الرسمية للخليج) ان بلعرب توفى مذبوحا من جانب احمد بعد هزيمة الفرس فى عمان . كما يؤيد هذا الرأى الكابتن جولين فى (وثائق من تاريخ وجغرافية وتجارة أفريقيا الشرقية) المجلد الثالث ٥٤٠ — =

وبانتخاب الامام أحمد بن سعيد يبدأ حكم أسرة آل بوسعيد لعمان ، وهو الحكم الذى استمر بغير انقطاع حتى وقتنا الحاضر . كما أن انتقال السلطة الى هذه الأسرة قد أحدث تغييرات عميقة فى طبيعة الحكم لم تظهر آثارها حتى بداية الجيل الثالث من حكم هذه العائلة . وعلى الرغم من أن قبيلة آل بوسعيد موطنها الأصلى أدم،الواقعة على أطراف المرتفعات الوسطى فى عمان ، فان أفراد هذه القبيلة كانوا تجارا وكانوا يزاولون التجارة والملاحة على الشاطىء الشرقى لعمان ، كذلك فقد وجه اليعاربة قسما كبيرا من نشاطهم للتجارة والنشاط الملاحى عبر البحار ، الا انهم على عكس آل بوسعيد كان اهتمامهم مركزا على تكريس سيادتهم الاقليمية على البلاد . وكان الامام أحمد فى المقام الأول تاجرا وأحد ملاكى السفن ، وبالتالى أصبحت القوة التجارية والبحرية فى عهده أساس السيادة فى عمان . ولكن هذا المظهر للسلطة لم يكن كافيا مما تسبب فى ظهور القلاقل والثورات العديدة التى قامت ضده فى الظاهرة والمنطقة الشمالية من البلاد ، فلقد اضطر الى تجنيد جيش من المرتزقة ، البلوش والعبيد الأفريقيين ، وهى عادة حذا خلفاؤه حذوه فيها ، غير أن جيشا بهذا التركيب لم يكن يستطيع الاحتفاظ بسلطان الحكم على البلاد ، فقد كان أحمد

= ٤٢ ولكنه يضيف الى ذلك بأن أحمد انتخب فعلا اماما لعمان قبل قيامه بذبح بلعرب وان كلا الحادثين وقعا فى عام ١٧٤٤ ، ولا يشير مايلز فى كتابه « بلدان الخليج وقبائلها » ص ٢٣٨ — ٦٤ الى التاريخ الذى تم فيه اجلاء الفرس عن عمان وانتخاب أحمد ولو أنه يعتبر عام ١٧٤٤ تاريخا لكلا الحادثين ثم فى وصفه لقبائل عمان فى المجلد الثانى ص ٤٣٥ يقول ان أحمد تولى الامامة على أثر وفاة بلعرب اليعربى سنة ١٧٤٩ بعدالميلاد . وجاء فى المجلة الملكية بقلم س. ان. بلجنهام تحت عنوان « حكم أحمد بن سعيد امام عمان » أن ثمة مخطوطة تاريخية مجهولة عن عمان فى المتحف البريطانى تشير الى أن سلطان بن مرشد تولى الامامة سنة ١٧٤٢ وتوفى سنة ١٧٤٣ بينما تشير المخطوطة الى أن انتخاب أحمد قد تم عام ١٧٤٩ وهنا يتفق مع ماجاء فى كتاب ينبهور الذى الفه فى سنة ١٧٦٥ بأن أحمد قد حكم البلاد ستة عشر عاما .

فى الواقع ، كما يلاحظ ينبهور ، واحدا من رؤساء عديدين يسيطرون على الحكم فى عمان ، وان كان هو أهمهم جميعا . ولقد كانت نقطة الضعف الأخرى فى حكمه هى سلوك أنجاله نظرا لأن أحمد كان يعين أنجاله محافظين على المدن الهامة كصحار ، ومسقط ونزوى ، خلال أيام حكمه ، (وهى عادة انتقلت اليه من الأئمة اليعاربة) فان أنجاله هؤلاء أخذوا يتحينون كل فرصة للانقضاض عليه ، والاستيلاء على المدن التى يعينون عليها ، ويعلنون استقلالها عن سلطة ابيهم ، مما اضطره الى تكريس كثير من جهوده لاعادتهم الى الطاعة .

توفى احمد عام ١٧٨٣ تاركا وراءه خمسة أبناء ، هم هلال ، وسعيد ، وقيس ، وسيف ، وسلطان ، وقد رشح شيوخ عمان الابن الأكبر ، وهو هلال ، خلفا لوالده ، غير أنه كان ضعيف البصر ، الأمر الذى أعجزه عن ادارة الحكم ، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير ، وهو فى طريقه الى الهند طلبا للعلاج . وقد أختير سعيد الابن الثانى لخلافة أخيه ، لكنه أثار نقمة الأمة عليه بسبب ضعفه وتراخيه وجشعه ، لدرجة أن بعضهم قام بمحاولة لخلع سعيد وتنصيب شقيقه قيس ، ولكن المحاولة فشلت ثم تكررت ففشلت أيضا ، غير أن هذا الاضطراب مهد الطريق لحمد بن سعيد بن احمد بن سعيد بالاستيلاء على سلطة والده ، وبفضل سلسلة من المناورات والتكتيكات استطاع أن يسيطر على مسقط ، التى بزت الرستاق والعاصمة القديمة فى الأهمية ، مما اضطر والده الى التنازل له فى النهاية عن كل السلطات(١) ولم يقم حمد بأى محاولة للحصول على لقب الامام لنفسه ، لأنه لو فعل ذلك لتعين عليه أن يخلع والده رسميا ، ويرشح نفسه للانتخاب كامام على الطريق التى شرحناها ، لذلك فلقد لقب نفسه بالسيد ، وهو لقب بدأ استعماله عند تولى أحمد بن سعيد ، كأسلوب لتميز أسرة البيت الحاكم فى عمان عن

---

(١) يحدد مايلز عام ١٧٦٨ تاريخا لهذه الواقعة (بلدان وقبائل الخليج مجلد ٢ ص ٤٣) .

رعاياهم(١) وقد ظل سعيد مقيما فى الرستاق يتمتع بالمركز دون الصلاحيات طبعا . فلقد كانت الرستاق هى البلدة الوحيدة اذا استثنينا نزوى وصحار التى يجوز فيها اقامة صلاة الجمعة ، وكنتيجة لذلك أصبحت العاصمة الطبيعية لعمان ، وأختيرت لتكون مقرا لحكومة البلاد . ولقد تميز حكم حمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بانفجار صراعات ضد أعمامه قيس ، وسيف وسلطان ، وهم الأنجال الرئيسيون الباقون لأحمد بن سعيد ، وكان قيس والى أو محافظ صحار ، يحظى بتأييد واسع فى الأوساط القبلية ، وبالتالى استطاع بسهولة أن يتحدى حمد ولكنه أحرز انتصارا أكبر فى صراعه ضد أخويه الآخرين سيف وسلطان ، فقد نجح فى طرد الأول من البلاد الى أفريقيا الشرقية حيث بقى هناك الى أن وافاه الأجل ، بينما هرب الأخ الآخر الى جواذر على ساحل مكران من حيث ظل يواصل صراعه ضد ابن أخيه ، وعند وفاة أحمد عام ١٧٩٢م بمرض الجدرى ، استولى سلطان على مسقط ، واحتفظ بالسلطات لنفسه ، ولم تفلح محاولات أخيه قيس لخلعه .

بعد عام من هذا التاريخ وقع الاخوة الثلاثة ابناء أحمد بن سعيد الراحل اتفاقا فى بلدة بركا ، يقضى باقتسام عمان على أساس أن يستمر سعيد فى الرستاق كامام ، وأن يحتفظ قيس بصحار ، بينما يظل سلطان حاكما على مسقط . وكان هذا الاتفاق مظهرا واضحا للتغيرات التى أثرت على جيلين من أجيال حكم أسرة آل بوسعيد . وهكذا تم اقتسام السلطة فى عمان .

بعد أن انحل نظام الامامة فى البلاد كرس سلطان انشط أفراد الأسرة الحاكمة جهوده كلها للنشاط التجارى والملاحى ، وكان طبيعيا والحالة هذه أن تتأزم العلاقة بين أسرة بوسعيد والقبائل العمانية فى داخل البلاد وأن تزداد سوءا مع مرور الوقت فلقد كان أهم ماتفتقر اليه عمان خلال القرن

---

(١) راجع ملحق كتاب بارجر : يعتبر لقب السلطاا اصطلاحا جديدا أدخل على العظام فقد كان الهدف منه تميز أفراد البيت الحاكم عن غيرهم من سكان البلاد واضفاء الوجاهة ورفعة الشأن على جمهور الرؤساء والأعيان المحليين . وهكذا غدت أسرة السلاطين فى عمان كنظائرها من البيوت والأسر الحاكمة فى أوروبا أسرة معترفا بها وتتمتع بحق توارث الحكم أبا عن جد .

التاسع عشر وجود زعامة قوية ، تدعمها قوة عسكرية غير أن البلاد أصبحت في ظل حكومات ضعيفة من أسرة كل هم افرادها ومواهبهم ومواردهم كانت معبأة على سبيل التجارة والملاحة البحرية . كما أن الارتباط بالبحر قد تمخض عن نقل العاصمة من المنطقة الداخلية في المنطقة الساحلية ، كذلك حدث تغيير في طبيعة السلطة السياسية في البلاد ، فتخلت أسرة آل بوسعيد عن الامامة كنظام للحكم ، وتم الأخذ بنظام السلطنة ولم يحاول أحمد بن سعيد أو سلطان بن حمد أو خلفاؤه المباشرون من بعده العودة بالحكم الى نظام الامامة ، وان كانوا قد ظلوا يمارسون كل صلاحياتها .

وخلال حياة سعيد بن احمد لم يكن يستطيع أى شخص وفقا للمذهب الاباضى أن يلقب نفسه اماما على البلاد الا اذا تمكن من خلع الامام الحاكم عن السلطة ، اذ انه من الوجهة الشرعية لا يجوز أن يكون هناك أكثر من امام واحد . غير أن هذا التشريع لم يعمل به بسبب الصراع الدائم خلال القرن التاسع عشر للفوز بالامامة ، مما أساء ضمنيا الى المبدأ الذى يقوم عليه هذا التشريع ، وكانت النتيجة بالنسبة لأحمد بن سعيد أن ارتباطه بلقب الامامة كان يخوله ماله من مركز دينى ، فأصبح الحكم فى وضع غير مستقر لأن السلطة والصلاحيات الفعلية للحكم كانت فى واقع الأمر فى أيدى اخوته وغيرهم من الأقارب ، وعند وفاته فيما بين ١٨١١ ، ١٨٢١(١) تقريبا تلاشى نظام الامامة فى عمان ولم تبذل اية محاولات لاعادتها الا لفترة قصيرة خلال أواخر القرن التاسع عشر والنصف الثانى من القرن العشرين . وكان سلاطين آل بوسعيد يلقبون انفسهم بالسادة ، وهو اللقب الذى بقى فى الاستعمال حتى اليوم ، أما الأوروبيون فقد ظلوا حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يلقبون حكام عمان بالأئمة الى أن حل لقب السلطان محل لقب الامام(٢)

---

(١) من المحتمل أن تكون الوفاة فى العام التالى تقريبا (راجع بادجر ، ائمة وسلاطين عمان) ص ٢١٣ — ٣٤٢ والملاحظات عليها .

(٢) من المحتمل أن يكون أول من استعمل لفظة «السيد» الشيخ منصور فى مؤلفه تاريخ السيد سعيد سلطان مسقط الصادر فى لندن ١٨١٩ حيث ذكر فى ص ١ « لقد أطلقت لقب السلطان » على حاكم وهو اللقب الذى يطلقه عليه =

يوم تولى السيد سلطان بن أحمد مقاليد الحكم وكان فى الأربعين من عمره . وكان التأييد لحكمه يرتكز فيما بين قبائل الغافرية وعلى الأخص بنى جابر سكان منطقة الحجر الغربى . وفيما بين قبائل الغـافرية ، وعلى الأخص بنى جابر سكان منطقة الحجر الغربى . وقد نشأ سلطان أيام طفولته بين أوساط قبيلة بنى جابر ، وكانت أمه على صلة قربى وثيقة بمحمد بن ناصر شيخ بنى جابر ، واقوى الزعماء العمانيين فى ذلك الوقت . ومنذ البداية اقنع سلطان نفسه بأن سلطته لن تصل الى المستوى الذى وصلت اليه سلطة والده والتى كانت حدودها كما يقال ، تمتـد من منطقة جعـلان حتى منطقـة التوام فى

= أهله بصفة عامة وأن لقب «الامامة» لم يعد يستعمل منذ عهد جدالسيدسعيد غير أن بادجر يقدم تقريبا لهذا اللقب أدق من تعريف الشيخ منصور فيقول .. « على الرغم من أن لقب السلطان كان معروفا فى البلاد الا أنه قل أن استعمل بين الأوساط الحاكمة ، وكان الحكام سابقا يلقبون بلقب « الأئمة » بينما هـم يلقبون بمجرد « السادة » بصرف النظر عما كان يلقبهم به الأجانب : وقد ورد لقب « السلطان » للمرة الأولى فى المعاهدة المعقودة بين مسقط وانجلترا فى شهر يوليو من عام ١٨٣٩ (أنظر ص ٤٣٧ أدناه) وكان ذلك بنـاء على اقتراح (بالمرستون) وبسؤال الكابتن روبرت كوجان من ضباط الأسطول الهنـدى الذى كان همزة الوصل بين حاكم مسقط وحكومة بريطانيا عن مدى صحـة اللقب قال فى رده عى وزير الخارجيـــة البريطانية بأن اللقب الصحيح هــو (السلطان سعيد بن سلطان « امام عمان ») راجع المراسلات السرية والعلمية لمجلس الهند مجلد ٩ — كما ورد هذا اللقب فى رسالة دبليوفوكس سترينجوى وكيل وزارة الخارجية البريطانية الى آرجوردون (بمجلس الهند) بتـاريخ ١٨٣٨/٨/٢ وفى رسالة كوجان الى كنبل بمجلس الهنـد بتـاريخ ١٨٣٨/٩/٥ وللاطلاع على المرة الأولى التى استعمل فيها لقب « سلطان مسقط وعمان » انظر ص ٥٥ أدناه .

البريمى(١) . وعلى اى حال فما كاد القرن ينتهى ، حتى مد سلطان نفوذه الى ماوراء مناطق الحجر ، حيث قمع تمرد النعيم فى الظاهرة،ووضع حدا لغارات القبائل الشمالية على عمان . على أن السلطان كان يوجه معظم نشاطه الى خارج عمان . فبعد تسلمه السلطة مباشرة بادر الى ارسال قوة عسكرية الى مكران ، للاستيلاء على ميناء جواذر ، الذى حصل عليه من أميركالات ، أثناء فترة نفيه الى تلك المنطقة ، كما ضم الى سلطته المنطقة الساحلية من شهبار ، ومن ناحية أخرى قاد سلطان حملة للاستيلاء على جزيرتى هرمز والقشم داخل الخليج ، وكانت تحت حكم عرب « بنى معين » الذين كانوا يسيطرون أيضا على ميناء بندر عباس وملحقاته ، التى كانوا قد استأجروها من حاكم فارس ، وقد وقعت كلها فى يد سلطان الذى اصدر فى عام ١٧٩٤ مرسوما يخوله حق استئجار للميناء المذكور(٢) .

لقد كانت مسقط بمثابة القلب للأمبراطورية التى أسسها السيد سلطان وتقع مسقط على الساحل الشرقى لعمان ، حيث تلتقى سلاسل جبال الحجر التى تمتد من الجانب الشرقى للحجر عند البحر ، والى الشمال يمتد سهل الباطنة ، بينما يمتد الى الجنوب الصخرى ساحل تتناثر عليه مجموعة من الجبال الصخرية ، اما مسقط نفسها فتحيط بها سلسلة من الجبال البركانية تعمل كسياج دفاعى لها من أى هجوم من الداخل .

أما الخور الصغير الذى تكون بوجود سلسلة الجبال التى تلتف حول المنطقة الجنوبية من الساحل فلايزيد طوله عن ميل واحد من بداية الشاطىء حتى حافة البحر بينما لا يزيد عرضه عن ربع ميل ، وترتفع على جانبى الخور الشرقى والغربى قلعتان كبيرتان شيدهما البرتغاليون فى الفترة الواقعة بين عام ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ ، وكان اسم القلعتين سابقا كابيتان وسان جوا ، ولكنهما

---

(١) بادجر فى كتابه « سلاطين وائمة عمان » ص ١٦٦ وجاء فيها « كانت مملكته تمتد من نهاية منطقة جعلان جنوبا الى البريمى فى الظاهرة شمالا بما فيها الجزء الواقع الى الشرق من ذلك الاقليم حتى ساحل البحر .

(٢) للاطلاع على صورة مفصلة لما تضمنته المعاهدة راجع ص ١٨١ — ٨٥ من الكتاب .

سميتا فيما بعد بقلعتى الميرانى والجلالى . وكانت المبانى الهامة الوحيدة فى مسقط هى تلك التى تخلفت عن الاحتلال البرتغالى للبلاد .

وكان السيد سلطان نفسه يقيم فى كنيسة كبيرة بناها البرتغاليون ، وظل هناك الى أن بنى لنفسه قصرا خاصا يطل على ساحل البحر ، وكان يحيط بالبلدة سور يتخلله عدد من الحصون ، وتحيط به حفرة كانت تستخدم كخندق حربى فيما مضى ، اما خارج منطقة السور فتوجد بيوت السعف ، وهى عبارة عن أكواخ مبنية من الخشب وسعف النخيل ، حيث كانت تسكن فيه الطبقات الفقيرة من أبنـاء الشعب . وكان عـدد سكان مسـقط فى ذلك الوقت يتراوح بين ١٠ آلاف و ١٢ ألف نسمة ، يؤلف الأجانب قسما كبيرا منهم ، معظمهم من التجار وعائلاتهم ، وكان من بينهم نحو ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ شخص من الهندوك أو تجار هاجروا من منطقــة كجــرات فى الهنــد وبعض اليهود(١) .

بينما يؤلف العمانيون وغيرهم من العرب ومجموعة الأفريقيين والأحباش والبلوش اغلبية السكان ، وكان معظـم الزوار الأوربيين لمسقط فى أواخـر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يعودون بانطباعات جميلة من اخلاقيات أهل البلد والنظرة المتحررة لأفراد أسرة آل بوسعيد الحاكمة ، الذين فتحوا البلاد للتجار من كل بلد فى العالم دون أن يتعرضوا لمهانة أو قيود مما كان يفرضها معظـم الدول على الأجانب . ولقـد كتب ينبهور فى هــذا الصدد يقول :

وعلى حين يرغم الهنــدوس فى اليمن على دفن موتاهم فانهـم هنـــا يستطيعـــون أن يحـــرقوا موتاهـــم بكل حـــرية دون تدخـــل ...

---

(١) رحلات الى اشور وفارس (طبعة ثانية) المجلد الثانى طبعة لندن ١٨٣٠ الجزء الثانى ص ٣٩٥ وكتاب « انطباعات رحلة الى خراسان سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٢٢ (طبعة لندن سنة ١٨٢٥) ص ٦ ورحلة الى الجـزيرة العربيـة الجزء الثانى وكتاب ينبهور « رحلة الى العربية » الجزء الثانى ص ٧٨ . أن الرقم ٦٠,٠٠٠ يشمل أيضا ٤٠٠٠ هندوكى وفقا لتقدير فنسنزو سوريزى . فى كتابه تاريخ السيد/سعيد ص ٢٣ ولكنه رقم فيه كثير من المبالغة .

من السلطة الحاكمة ، وبينما يتعين على اليهود أن يرتدوا زيا مميزا عن الأجناس فى الأقطار الاسلامية الأخرى فانه مسموح لهم هنا بأن يرتدوا نفس الأزياء التى يرتديها السكان العرب دون تميز ، وبينما تفرض الأقطار التى تتبع المذهب السنى على اليهودى أو المسيحى او الهندوكى بأن لا يعاشر امرأة مسلمة الا اذا اعتنق الاسلام ، وفى حالة مخالفته لهذا القانون يدفع غرامة مالية كبيرة ، فان حكومة مسقط لا تهتم اطلاقا بمثل هذه الأشياء بشرط ان لا يعاشر هؤلاء غير المومسات اللاتى يتعاطين البغاء مع العرب(١) .

وقد كتب الرحالة البحار والكاتب ص. اس. بكنجهام يصف رحلته الى مسقط فى عام ١٨١٦ يقول : ان سلوكهم على جانب كبير من الأهمية كما انهم يتحلون بقدر كبير من الجدية وقلة الكلام ، ومع ذلك فانهم مرحون وراضون عن أحوالهم ، أضف الى ذلك دماثة طباعهم التى لولاها لكانت برودة مزاجهم منفرة للغير . أن أهالى مسقط كما يبدو لى هم أنظف وأحسن هنداما وأرق معاملة من جميع العرب الذين التقيت بهم حتى الآن ، وان الانسان ليشعر من أول وهلة يلتقى بهم بشعور الثقة والألفة وحسن النية من جانبهم(٢) . كذلك فان الأوربيين معجبون بما يكنه أهالى مسقط من الاحترام لممتلكات الآخرين ، ونستشهد على ذلك بما جاء على لسان أحد وكلاء شركة ليفتانت الانجليزية الذى أعرب عن دهشته فى عام ١٧٥٥ من أهالى مسقط حيث قال : ان هناك فى الوقت الحاضر كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق من غير رقابة أو حراسة عليها اذ لا توجد مستودعات لخزنها ، ومع ذلك لم نسمع عن حادث سرقة أو سطو على هذه السلع أيا كان(٣) .

---

(١) رحلة الى الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٦٧ .

(٢) رحلة الى أشوريا جزء ٢ ص ٤١١ ، ٤١٣ .

(٣) فى « كتاب » رحلات الى آسيا وافريقيا تأليف ابراهيم بارسونز طبعة لندن ١٨٠٨ ص ٢٠٧ لقد أشار ينبهور الى نفس الظاهرة قبل عشر سنوات كما لاحظ بأن من عادة السكان فى الليل اذا خرجوا للشوارع أن يحملوا فى أيديهم قناديل اثباتا للهوية) (رحلة الى الجزيرة جزء ٢ ص ٦٨) ولايزال هذا القانون ساريا حتى الآن .

لقد كانت هناك مبررات وجيهة تجعل سلاطين آل بوسعيد يحسنون معاملة التجار الأجانب المقيمين فى بلادهم . ذلك لأن موقع مسقط على مفترق طرق التجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى الى الهند وافريقيا . ولكونها الميناء الصالح الوحيد فى جنوب شرقى آسيا أصبحت المستودع الطبيعى لتجارة الجزيرة والخليج ، وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت الرسوم الجمركية تشكل المورد الرئيسى لدخل حكام مسقط ، وخلال حكم أحمد كانت فئات الرسوم الجمركية تختلف باختلاف الطوائف فالتعريفة الجمركية كانت فى صالح الأوربيين أكثر ، فقد كانوا يدفعون ٥٪ بينما كان المسلمون يدفعون ٦٪ والهندوك اليهود يدفعون ٩٪ ، وقد عدل عن هذا التنظيم فى سنة ١٧٩٠ وحل محله قانون ضريبى موحد لجميع التجار على أساس ٢½٪ فقط بينما فرض ٥٪ من الرسوم على غير المسلمين من التجار . وهذا يكشف عن أن قسما كبيرا من تجارة مسقط قد تحول بعد ذلك الى أيدى الأجانب الذين كانت اغلبيتهم من الهندوك وفى عهد سلطان بن أحمد كان الجزء الأكبر من تجارة البلاد لايزال فى أيدى العرب والمسلمين ويقدر جون مالكولم مجموع تجارة بلدان الخليج فى سنة ١٨٠٠ بمبلغ مليون وستمائة الف جنيه ، كانت حصة مسقط منها نحو مليون من الجنيهات أو خمسة أثمان المجموع . وكان معظم البضائع الموجهة الى مسقط يعاد تصديره الى الخارج بعد استيفاء الرسوم الجمركية عليها بنسبة تقل ٢½٪ من القيمة الأصلية . ولاتساعد هذه الأرقام على تحديد حصة السيد سلطان من هذه الرسوم ، لأنه شخصيا كان التاجر الرئيسى فى البلاد ولم يكن يدفع أى رسوم على السلع التى ترد باسمه . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت الجمارك مؤجرة بالمقاولة لأحد التجار الهندوك (البانيان) مقابل مبلغ سنوى . ولاتوجد اى سجلات تحدد المبلغ الاجمالى لتلك الرسوم فى عهد السيد سلطان . ويقدر ينبهور دخل أحمد بن سعيد من هذا المصدر بمبلغ مائة الف روبية سنويا فى عام ١٧٦٥ ، اى مايعادل عشرة آلاف جنيه استرلينى . اما سعيد نجل سلطان فقد كان يتقاضى ١٨٠ ألف دولار أسبانى (أى ٣٦٫٠٠٠ ج استرلينى) سنويا من دخول الجمارك كما جاء على لسان فنسنزوموريزى المغامر الايطالى الذى كان يعمل طبيبا خاصا للسلطان المذكور خلال الفترة الأولى من حكمه ، ويقدر مصدر آخر دخل السيد سعيد من الجمارك فى سنة ١٨٢١

بنحو ٩٠٫٠٠٠ — ١٢٠٫٠٠٠ ريال نمسوى أو مايعادل ١٨٫٠٠٠ — ٢٤٫٠٠٠ جنيه استرلينى(١) . فاذا ما اعتبرت هذه الأرقام بحال من من الأحوال أرقاما صحيحة فلابد أن يكون دخل السيد سلطان من نفس المورد أعلى بكثير ، نظرا لارتفاع المعدل التجارى لمسقط خلال الحقبة الأخيرة من القرن الثامن عشر منه قبل ذلك بعشرين عاما وبالتالى كانت الضرائب أعلى هى الأخرى(٢) .

وكان ثمة مورد آخر للدخل من المحاصيل الزراعية فى الباطنة ، وكان يدر نحو مائة ألف روبية (أى ١٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى) فى العام(٣) الى جانب ضريبة الريال الواحد التى كانت مفروضة على كل عبد يباع فى مسقط وسوف نتطرق الى تجارة الرقيق فى مكان آخر من الكتاب ، غير أنه يمكن القول أن دخل السيد سلطان من هذا المورد لم يكن يزيد على دخل نجله سعيد فيما بعد ، وربما كانت أعلى نسبة فى دخل السلطان هى التى كانت ترد اليه من نشاطه التجارى الخاص . فقد كان يمتلك بعض السفن التجارية المسلحة التى كان يمتد نشاطها الملاحى المنتظم الى المحيط الهندى وأفريقيا وعراق الأتراك ، فقد كان لمسقط مجموعة من سفن الملاحة خلال هذه الفترة مكونة من ١٥ سفينة ، حمولتها من ٤٠٠ — ٧٠٠ طن ، وثلاث وخمسين

---

(١) صك ريال ماريا تريز الأول مرة سنة ١٧٥١ وكان يشكل وحدة العملة الرئيسية فى الخليج والجزيرة العربية ، والبحر الأحمر والحبشة وافريقية الشرقية فى نهاية القرن .

(٢) كان لنبهور وصف للجزيرة ص ٢٦٤ (وزارة الهند) سلسلة تتناول الأوضاع التجارية فى الجزيرة العربية وايران مؤرخ ١٧٩٠/١٢/١٨ ومقتطفات من السجلات الرسمية لحكومة بومباى عن العلاقة بين شركة الهند الشرقية والخليج العربى ١٦٠٠ — ١٨٠٠ وقد جاء فى صورة خطاب ملحق موجه من جون مالكولم الى اللورد مورنتجتون (الحاكم العام) لبوشهر بتاريخ ١٨٠٠/٢/٢٦ وكتاب رحلات الى أشور تأليف بكنجهام جزء ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ وكتاب موريزى (الشيخ منصور) .

(٣) بكنجهام .

مركبا شراعيا كبيرا ، وخمسين مركبا صغيرا . وبالاضافة الى هذه المجموعة كان تجار مسقط يستأجرون كل عام عددا من السفن من موانى الخليج الأخرى تقوم برحلات الى الهند ، والارخبيل الشرقى ، وأفريقيا ، والبحر الأحمر . كما كانت عمان نفسها تنتج السمك وأنواعا من الفاكهة التى كانت تصدر الى الخليج الى جانب العقاقير واللؤلؤ والنحاس والملح والزرنيخ التى كانت تنتجها الجزيرة العربية ، وايران كانت تصدر هى الأخرى . وبالمقابل كان الأسطول الملاحى العمانى يعود من رحلاته محملا بالتوابل والأرز والسكر والصنوبر وأعواد الصندل ، والصينى ، والمنسوجات ، والمعادن وأنواع من المنتجات الأوربية ، وفى كل عام كان جحفل من السفن يبحر من عمان الى البحر الأحمر وعليه شحنات من البن والتوابل والأدوية وبعدد من العبيد والأحباش . وكان أسطول آخر من السفن يبحر فى فصل الرياح الموسمية التى تبدأ من شهر نوفمبر وصاعدا الى زنجبار وغيرها من أقطار أفريقيا الشرقية ليعود فى فصل الربيع بالعاج والعبيد وتراب الذهب .

ولم تكن عمان لتستوعب من كل تلك الواردات الا جزءا يسيرا ، وكان الباقى يعاد تصديره الى الخارج ، ولقد كان المركز الذى تحتله مسقط فى مضمار تجارة الخليج من الأهمية بحيث اقتضى الأمر أن تستحصل السفن العربية المبحرة الى الخليج على أجازة من السيد سلطان تضمن سلامتها خلال الرحلة وكان على هذه السفن أن تبحر تحت حماية أسطول السفن العمانية التى كانت تحمل شحنات البن كل صيف الى ميناء البصرة وشط العرب لنقل محصول البلح العراقى منها(١) .

---

(١) ان أغلب المصادر المعتمد عليها فى هذا البحث عن مسقط وعمان فى نهاية القرن الثامن عشر قد سبق الاشارة اليها آنفا فى حواشى الكتاب . أما المراجع الأخرى فان أهمها مايلى : التقرير الادارى للمقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ — ١٨٨٨ اللفتنانت كولونيل اس . بى . مايلز بعنوان : « ترجمة حياة السيد سلطان ابن الامام أحمد » ومقتطفات من سجلات حكومة بومباى سلسلة رقم ٢٤ بعنوان الخليج العربى طبعة بومباى سنة ١٨٥٦ ص ١ — ١٣ اعداد الكابتن ازبتلر ومقتطفات من مختصر ملاحظات عن المعلومات التاريخية وغيرها المتعلقة بمقاطعة عمان وصورة تاريخية عن قيام ونجاح حكومة مسقط ١٦٩٤ — ١٨١٩ بقلم اف واردن ص ١٦٧ — ٨٧ .

وتتحكم فى مدخل الخليج مجموعة من ثلاث جزر ، يسمى الملاحون الأوربيون الجزيرتين الكبيرتين منها (القوين) وذلك لأوجه الشبه بينهما وبين الأساقبين التى كانت تستخدم لحمل المدافع على السفن الحربية . أما الملاحون العرب فيسمونها سلامة وبناتها . وكان من عادة رجال البحر العرب عند مرورهم بهذه الجزر فى الطريق الى الهند أو أفريقيا أن يلقوا بالزهور والفواكه أو النقود الى البحر تفاؤلا برحلة موفقة وعودة سالمة من رحلتهم(١) . وعلى بعد فرسخين أو ثلاثة الى جنوب مجموعة الجزر يقع رأس مسندم وهو قمة شبه الجزيرة الجبلية المعروفة برؤوس الجبال التى تفصل بين عمان ومنطقة الخليج الأم ، ومنطقة مسندم ورءوس الجبال منطقة مخيفة عبارة عن كتلة مضرسة من الجبال تبدأ فى الارتفاع من شاطىء البحر ثم تنشطر فى نتوءات بعد نتوءات من القمم المشقوقة والمتعرجة .

أما على الطرف الشمالى : فانها تنقسم الى سلسلة من الجزر الصخرية آخرها جزيرة مسندم ، انها على حد ما جاء على لسان أحد رحالة القرن التاسع عشر ، كما لو كانت قد شطرت من بعضها البعض بفعل قوة هائلة من الطبيعة التى مزقتها اربا الى كتل منفصلة من القارة التى كانت جزءا منها(٢) ، ويتخلل شبه الجزيرة هذه مجموعة من الخوران تمتد أميالا الى الداخل على جوانب المرتفعات . وأهم هذه الخوران خور الشعم على الجانب الغربى . والقبة الغزيرة على الجانب الشرقى . وحتى عام ١٨٢٠ عند القيام بأول مسح بحرى للمنطقة لم يكن الأوربيون قد اكتشفوا الجزيرة الاولى . وحسب تقدار المشرف على عملية المسح يبلغ طولها ٩ أميال تتخللها رؤوس يبلغ ارتفاعها من ٨٠٠ الى ١٥٠٠ قدم ، ويغطى المدخل الى الجزيرة كما يقول المشرف يمتد الى الأسفل تجاه البحر بحيث لا يمكن التأكد منه بسبب ضيق فتحته بينما لا يتجاوز عرض

---

(١) كان يتم فى بعض الأحيان تسير سفن من جانب البحارة كتجربة . فاذا مالت هذه السفن الحربية تجاه البر فقد كان ذلك يعد فألا حسنا للمحاولة (انظر رحلات من الهند الى انجلترا) طبعة لندن ١٨٢٧ ص ٨٦ بقلم اللفتنانت جى . اى اليكسندر .

(٢) رحلة الى أشور ــ بكنجهام ص ٣٨٥ .

الرأس نصف ميل ، وصخوره عالية وشديدة السواد ، وعند فتحته مباشرة توجد جزيرة ترتفع كالبناء ، لون أحجارها أفتح قليلا عن لون بقية الصخور ، وهي انحدارية الشكل ، ويبلغ ارتفاعها نحو مائة قدم وعمق الماء فيها نحو ١٦ باعا(١) وتكاد لا توجد حياة في رؤوس الجبال ، فعلى سفوحها حيث تمتد الوديان الى البحر يوجد عدد قليل من أشجار النخيل ، أما الى الداخل فلا يوجد شيء من المراعى يكفي حتى لاطعام بضع شياه ، ويقطن رؤوس الجبال قبيلة الشحوح ، وهم نوع منعزل من الناس ويتحدثون بلهجة عربية تختلف اختلافا بينا عن لهجة أهل الجنوب الشرقى ، ولم يخضع الشحوح خلال الفترة التي يشملها البحث لسلطان أى جهة . وكان للشحوح مستعمرات تقع فى خصب بالقرب من رأس الجزيرة وفى جزيرة شحم حتى الشاطىء . وعلى بعد بضعة أميال جنوب شحم فى رمس تنحرف الجبال مبتعدة عن شاطىء البحر فى اتجاه الجنوب حيث تكون منطقة الحجر الغربى ، ويعرف السهل الساحلى الواقع الى الجنوب من رمس « بساحل عمان » أو « ساحل الصلح » أما اسمه القديم فهو الشميلية أو « السر » . ويمتد على ساحل الخليج على مسافة تصل الى ١٣٠ ميلا من رمس فى الشمال الشرقى الى ما وراء أبو ظبى فى الجنوب الغربى . حيث ينحرف الساحل غربا باتجاه شبه جزيرة قطر . وحدوده الشرقية هى سفوح الحجر الغربى ، وجنوبا واحة البريمى . وتتناثر على شواطئه البحيرات والخلجان حيث تقطن القبائل البحرية التى تعيش على مستخرجات البحر . وتقع على الموانى الغربية من البلاد المأهولة ، حيث تسمح وفرة بعض المياه بزراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى . أما ما يتبقى من هذه المنطقة فان الأرض مسطحة وقاحلة تكسوها كثبان الرمال والسهول الحجرية والسبخة .

ان التركيب القبلى للمنطقة الشمالية تركيب معقد على غرار الوضع فى عمان عموما ، وقد ظل محتفظا بهذا الطابع منذ نهاية القرن الثامن عشر ،

---

(١) وزارة الهند : « مذكرات من عملية مسح للشاطىء الغربى للخليج ابتداء من رأس مسندم حتى دبا . اعداد القائد البحرى اللفتنانت جى. ان. جى. وقام باعداد الرسوم الرسام المرافق للعمية اللفتنانت أم. هرتون .

وثمة اتحادان قبليان(١) ، القواسم سكان الجزء الشمالى ، وبنو ياس سكان الجنوب ويتقاسمان السلطة السياسية فى المنطقة . ولايرتبط أى من هذين القسمين بالولاء لحكام آل بوسعيد فى عمان على الرغم من أن بنى ياس كانوا على علاقة ودية بحكام عمان ، وأنهم فيما يتصل بالسياسة العمانية ، كانوا ميالين أو متعاطفين مع بنى هناه . أما بالنسبة للقوة البحرية فقد كان القواسم الفئة الأقوى بلاشك . وكان مفهوم لفظة اقواسم يعنى تلك الجماعة التى تدين بالولاء لشيوخ القواسم فى الشارقة وراس الخيمة ، وأن كان المدلول الأصح للكلمة يعنى الارتباط الأقوى بأسرة القبيلة المذكورة ، أما كم عدد القبائل الموالية لشيوخ القواسم وما مدى نفوذهم ونوعية توزيعهم فموضوع يتعذر الحكم فيه ، ففى رأس الخيمة أهم موانى المنطقة وتنتمى أغلبية السكان فيها الى الخواطر ، وهم فرع قبيلة النعيم سكان المنطقة الجنوبية ، والتى يقيم معظم أفرادها فى منطقة الظاهرة(٢) ، أما فى الشارقة الميناء الثانى للقواسم فاغلبية السكان من بنى قتب ، وفى جزيرة الحمرا وأم القوين اللتين تقعان بين هذين الميناءين وتخضعان لسلطة شيوخ القواسم فتسكنهما قبيلتا الزعابية وبنى على . أما فى عجمان المرتبطة أيضا بالقواسم ، فقد كان زمام السلطة بيد آل بوخريبان ، وهم فرع من النعيم . وفى رمس ، وهى ميناء تابع للشيوخ ، وتقع شمال امارة رأس الخيمة وهى الأخرى متحالفة مع القواسم ، والى ماوراء المرتفعات يقيم الحبوس والمخارية ، على ان السلطة التى يمارسها شيوخ القواسم على هذه القبائل سلطة محدودة ، ذلك أن موازين القوة فى سياسة الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية تتحكم فيه القبائل البدوية التى يتأرجح ولاؤها من رئيس الى آخر وفقا لسخاء الرئيس أو بخله ، على حين لا يتمتع شيوخ القبائل بالحرية المطلقة فى مزاولتهم للسلطة حتى لا يثيروا البدو عليهم . ان بنى قتب والخلافة

---

(١) مفرد القواسم « قاسمى » كما تنطق أيضا جاسمى وجواسم وجوكى وجوسم ، أما الفصيلة الشمالية من قبيلة النعيم فقد كانت تقطن قطر والاحساء .

(٢) أما الفصيلة الشمالية من قبيلة النعيم فقد كانت تقطن قطر والاحساء .

يشكلان الفصائل البدوية الرئيسية فى اتحاد القواسم(١) . وينتمى القواسم الى المذهب السنى فى الاسلام وبالتالى فان ولاءهم السياسى الى جانب الفرع الغافرى من القبائل العمانية كذا لم تتوفر معلومات أكيدة عن الانتمــاءات الأصيلة للقواسم ، فبعض المصادر يرد نسبهم الى قبيلة نزار ، وهى فصيلة من بنى غافر هاجرت الى عمان من نجد فى أواسط الجزيرة العربية فى نحو القرن السابع عشر(٢) ، بينما رجح مصدر آخر أن يكون موطنهم هــو الميناء التجارى الفارسى القديم « السراف » الذى لم يعد له وجود الآن . وتقول رواية ان الفئات التى هاجرت بعد ذلك المكان توجه بعضها الى مسقط فى عمان (حيث كان يسمون هناك بنى السرافى) كما استقر بعضهم فى صور ، كما توجه قسم آخر منهم الى منطقة السرفى — راس الخيمة(٣) . أما القواسم انفســهم فيقولون انهم نزحوا أصلا من فارس بينما يرجح البعض انهم جاءوا من العراق عن طريق فارس « ويؤيد الكولونيل اس . بى . مايلز وهو الحجة البريطانى فى شئون عمان الرأى القائل بأن أصل القواسم من فارس » ويقرر بأنهم فرع من عرب الهويلة الذين استوطنوا الساحل الفارسى قديما ، ثم نزحوا منه الى الساحل العربى خلال القرن الثامن عشر(٤) . فاذا صح هذا الرأى فانه يعنى بأن القواسم قد صعدوا الى السلطة بسرعة ملحوظة جدا ، وذلك فى أعقاب الفوضى التى عمت فارس بعد وفاة نادر شاه ملك فارس عام ١٧٤٧ ، فاستولوا على لنجة الواقعة على الساحل الفارسى ، كما احتلوا جزيرة قشم القريبة من

---

(١) احدى القبائل المستقرة من بنى قتب كانت تقيم بالظــاهرة وذلك فى مجموعة المستعمرات التى تحمل اسما جماعيا هو افلاج بنى قتب .

(٢) مجموعة سجلات حكومة الهند ، المجلد ٢٩٦ مجموعة رقم ٥٦٤٦ اعداد الكابتن دى. ستون (المقيم البريطانى فى مسقط) موجهة الى ص ، فكان حاكم بومباى بتاريخ ١٨٠٧/٧/٢ وأيضــا المجــلد ٢٤ من مقتطفات سجلات حكومة بومباى ص ٣٠٠ وكتاب (صور تاريخية لقبيلة القواسم العربية) من ١٧٤٧ حتى ١٨١٩ تأليف واردن وكتاب بادجر ص ١٠

(٣) مجموعة سجلات حكومة الهند مجلد ١٩٢ المجموعة ٤١٥٥ بخطاب من سيفون الى دنكان بتاريخ ١٨٠٥/١٠/١٦ .

(٤) بلدان الخليج وقبائلها ص ٦٨ .

لنجة » غير أنهم طردوا منها سنة ١٧٦٥ بعد تسلم كريم خان سلطة الحكم في فارس .

وبعد وفاة كريم خان ١٧٧٩ عادوا الى قشم بعد استيلائهم على لنجة من جديد .

وقد اشتهرت قبائل الساحل الجنوبي للخليج من قديم الزمان بممارسة القرصنة ، واذا عرفنا أن هذه القبائل كانت تعيش حياة البؤس والفاقة والتقشف ، وهي ترى السفن التجارية المحملة بالثروات التجارية تمر من امامها عبر الخليج ، فاننا لن نستغرب ذلك ، لأنهم قوم بدائيون يعيشون في الصحراء وبالتالي فانهم يتصرفون وفق ماتمليه عليهم غريزتهم(١) .

وقد كتب أحد اعضاء بعثة المسح التي انتدبت للقيام بعملية المسح للساحل العربي ، يصف سكان هذه المنطقة بما يلي :

ان طباع سكان الساحل انما هي نتيجة طبيعية لنمط حياتهم وحرفتهم فهم يقومون بصيد الأسماك واللؤلؤ في أوقات السلم . غير أن هذه الأعمال تقتصر على أشهر معدودة من السنة . أما في الشتاء فان قسوة البحر على الشواطيء المفتوحة تحول بينهم وبين مزاولة هذه المهنة ، فيما عدا الخلجان والمناطق القريبة من مساكنهم ، بينما تنعدم الأعمال الزراعية في هذه المواسم فيعانون من بطالة شاملة ، وهي التي تدفعهم الى القيام بأعمال السلب والنهب ضد بعضهم البعض . ولأنهم تدربوا على استعمال الأسلحة منذ نعومة أظافرهم وبحكم صلابتهم وتعودهم على الحرمان والمتاعب والأخطار ، فمن الطبيعي ان يشبوا شجعانا مغامرين(٢) .

---

(١) « صور فارسية » طبعة لندن ١٨٤٥ ص ١٥ تأليف جون مالكولم .

(٢) تحقيق عن العرب القاطنين الساحل الواقع بين رأس الخيمة وأبو ظبي على الخليج والمسمى عموما « بساحل القراصنة » ترجمة الجمعية الجغرافية في بومباي (١٨٣٦ — ٣٨) ص ٣٢ مأخوذة عن كتاب ولستد «رحلات الى بلاد الخلفاء عبر شواطيء الخليج والبحر المتوسط » المجلد ٢ طبعة لندن ١٨٤٠ الجزء الأول ص ١٠٨ — ١١٢ .

وبسبب مزاولة القواسم لهذه الأعمال ، أطلق الأوربيون على الساحل الشمالى للخليج الممتد من رمس جنوبا ، اسم « ساحل القراصنة(١) ، هذا على الرغم من أن شهرتهم بالشجاعة انما تعود فى المقام الأول الى صراعهم الطويل ضد حكام آل بوسعيد على تعاقبهم .

وعلى أثر انتخاب أحمد بن سعيد اماما على عمان بادر الحاكم المذكور الى وضع الخطط لاخضاع الساحل الشمالى ، وعلى الأخص القواسم لسلطانه ، وقد تحقق له هذا الى حد بعيد فى عام ١٧٦٣ ، ورغم ما اظهرم القواسم من مقاومة طويلة وعنيفة وباستثناء رأس الخيمة فقد دان الساحل كله لسلطته . ان هزيمة القواسم هذه مضافا اليها اقصاؤهم من لنجة وقشم حملت القواسم على توجيه طاقاتهم الى نواحى أكثر سلعية على امتداد خمسة عشر عاما من ذلك التاريخ غير انهم عادوا الى مناصبة آل بوسعيد العداء فى اعقاب تدهور سلطة الامام أحمد وما رافقها من فوضى عمت عمان . وما ان استعادوا مافقدوه من نفوذ فى الأجزاء الشمالية من ساحل القراصنة حتى شرعوا فى توجيه غاراتهم عبر رأس جزيرة مسندم حتى منطقة الشميلية على خليج عمان . ومنذ أواخر الثمانينات للقرن السابع عشر حتى نهاية القرن خلوا فى صراع مرير مع حاكم مسقط فى محاولة للاستيلاء على مينائى دبا وخورفكان فى الشميلية ، باعتبارهما أفضل موقعين لمهاجمة السفن العابرة من والى طريق مضايق هرمز .

لقد كان الشيخ صقر بن راشد بن مطر رئيسا لمشايخ القواسم فى الفترة الأخيرة من الثامن عشر ، وكان والده هو المسئول عن توجيه نشاط

---

(١) التزاما بالدقة فقد أطلق هذا الاسم أول ماأطلق على المنطقةالساحلية الواقعة بين رمس ودبى ، من دون أن تشمل الميناء المذكور . انظر مقتطفات من أرشيف حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٤٥ وكتاب الكابتن جى. بى. برنكس مذكرات وصفية للملاحة فى الخليج وقد تكون دبى هى المنطقة التى ينتهى عندها ساحل القراصنة على الرغم من اعتقادى بأن القراصنة لم يقوموا بدور فعال فيه ثم أعيد اطلاق هذا الاصطلاح للدولة على كل الساحل من رمس الى أبو ظبى وشبه جزيرة قطر .

القواسم عبر ساحل الخليج ، كما كان يتزعم قبائل ساحل القراصنة فى حروبها ضد احمد بن سعيد ، كما كان الشيخ صقر نفسه مصمما على استرداد القواسم لنفوذهم بعد سنة ١٨٧٠ ، وكانت رأس الخيمة او « جلفار » كما كان يطلق عليها الفرس هى قاعدة السلطة(١) .

وكانت راس الخيمة تضم نحو الف مسكن وتقع على رقعة من الأرض بين البحر والخور الذى يقوم مقام المرفأ أو الميناء ، ويبلغ طول البلدة نصف ميل تقريبا وعرضها نحو ربع ميل ، وكانت هناك قلاع تحميها من البحر ومن البر ضد أى هجوم محتمل . امـا فى القلب وعلى الجـانب الشمالى الشرقى فقد كانت توجد قلاع كبيرة مسلحة بالمدفع . اما بقية البلدة (كماجاء فى بحث أحد المعاصرين) يتألف من مبان عادية من الحجر غير المشذب ، ومن اكواخ من سعف النخيل وأوراقها مع ممرات ضيقة تتخللها ، ويقدر عـدد السكان حاليا بنحو عشرة آلاف نسمة على الأقل ، منهم نحو ٣ آلاف من الذكور ممن يستطيعون استخدام السلاح ، على ان نصف هؤلاء على الأقل من الزنوج الافريقيين ، وعلى الجنوب الشرقى من الخور تبدو مجموعات كثيفة من غابات النخيل التى يعتبر ثمرها مادة الغذاء الأساسية للسكان ومواشيهم ، وفى نهاية هذا السهل المنبسط الذى يمتد على تعدد ملتوياته الى مسافة تصل من عشرين ميلا الى الخلف ترتفع سلسلة من الجبال(٢) .

اما الشارقة التى تقع على بعد بضعة اميال الى الأسفل من الساحل فيحكمهما أحد شيوخ القواسم ، كما ان الموانى التى تتخلل المنطقة ونعنى بها ميناء جزيرة الحمراء وام القوين ، والحمرية ومجمعات ، فتخضع هى الأخرى لسلطة القواسم . أما فى دبى الى ماوراء الشارقة فالأمر يختلف اذ تنتهى عند هذا الميناء سلطة القواسـم ، وتبدأ سـلطة بنى ياس وهى احـدى قبيلتى

---

(١) ان مؤسس دولة الجواسم شيخ يدعى جاسم وكان قد نصب خيمته لأول مرة فى منطقة من الأرض مرتفعة قليلا من شاطىء البحر بحيث تبدو بارزة لجميع السفن العابرة ، مما دعا اللاحين الى تسميتها براس الخيمة . ويمضى الوقت تحول الاسم ليـدل على البـلدة التى تأسست فى المنطقـة من كتاب « السيد سعيد » تأليف الشيخ منصور ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) رحلات عبر اشوريا ، تأليف بكنجهام جزء ٢ ص ٣٥٢ — ٤ .

الاتحادين الرئيسيين لقبائل الساحل . ان بني ياس ليسوا قبيلة متجانسة ، اذ أنها تتألف من نحو عشرين تقسيما قبليا صغيرا وكبيرا ، وتنتشر على ضفاف المنطقة الممتدة من داخل قطر حتى جزيرة مسندم ، والأغلبية العظمى من القبيلة المذكورة تقطن أبو ظبي والمنطقة المحيطة بها ، وفي الظفرة الواقعة الى الغرب ، أما نفوذ الحكم فيمارسه آل بو فلاح ، وهم من أصغر الفصائل القبلية في المنطقة أما الفصائل الهامة فهي الحوامل ، والمحارقة وآل بو فلاسة وآل بومحير ، والقبيسات والرميثات والرواشد والمزاريع والمشاغين والفصيلتان الأخيرتان بدويتان كليا(١) ، ودبي هي مركز الحكم لآل بني ياس ، غير أن مصدر سلطة الحكم لهذه القبيلة ومصالحها تقوم على أسس اقليميـــة على عكس القواسم الذين يعتمدون في الحكم في المقام الأول على النشاط الملاحي ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر كان آل بو فلاح وأغلبية بني ياس تقيم في واحة «ليوا» وتقع في أعماق الظفرة ، اما في موسم الصيف فينتقل معظمـها وبالأخص فصائل الرميثات والقبيسات الى الجـزء الشمالي من الســاحل بحثا عن الأسماك واللؤلؤ . ولا تعود الى مواطنها الا في فترة الحصاد (القيظ) . ولم تحاول هذه المجموعات الاستقرار على الساحل لعدم وجود الماء ، ثم في سنة ١٧٦١ اكتشف الماء في جزيرة أبو ظبي على بعد مرمى حجر من المنطقة الرئيسية وهكذا بدأت الهجرة من واحة ليوا ، ولم ينته القرن حتى انتقل الى المكان فصائل عديدة من بني ياس استقرت في الجزيرة . ولكن البلدة التي أنشأوها كانت متواضعة ، كما جاء في بيان عنها كتب سنة ١٨٣١ .

ان هذه البلدة باستثناء مسكن الشيخ مبنية بيوتها من السعف لأن سياسة الحاكم الحالي تعارض اقامة مبان من الصخر اعتقادا منه أن ذلك يجعل رعاياه مستقلين عنه تماما ، كما أنها تجعله أكثر تعرضا لهجوم من

---

(١) أما ماهي العلاقة بين فصيلة المزاريع والفصائل التي تقيم في جزيرة مسندم وشرقي أفريقيا فمسألة مجهولة وقد أصبح آل بو فلاسة فيما بعد حكام دبي (أنظر ص ٢٣٠) أما فيما يتعلق بالفصائل الأخرى من بني ياس وتوزيعاتهم الراهنة فيمكن الرجوع الى كتاب « الجزيرة العربية وحدودها الشرقية » تأليف جي. بي. كيلي. طبعة لندن ١٩٦٤ ص ٣٦ — ٣٨ ولنفس المترجم .

البحر . ويقدر عدد السكان بنحو ١٨ ألف نسمة . وفى موسم صيد اللؤلؤ يتحرك اكثر من ٦٠٠ قارب صيد ، يحمل كل منها ما لا يقل عن سبعة الى خمسة عشر شخصا الى الخلجان . على أن التربة قاحلة ولا تنتج شيئا ، ثم أن الماء لا يوجد فى الجزيرة . وتعتمد أبو ظبى على مناطق أخرى لتزويدها بالمؤن ، ثم أنها تتعرض للمتاعب كما لو كانت بلدة محاصرة حصارا قويا(١) .

ومعظم افراد قبيلة بنى ياس بمافيهم رئيس مشايخ آل بو فلاح الشيخ دياب ابن عيسى يفضلون البقاء فى واحة ليوا ، حيث تتوفر زراعة البلح بكثرة وفى احدى زيارات الشيخ دياب لأبو ظبى أغتيل من ابن اخيه هزاع ابن سعيد . غير ان هذا الأخير مالبث أن طرد من أبو ظبى من جانب شخبوط ، وذبح جميع اتباعه الذين حضروا مقتل دياب . ومنذ ذلك الوقت شهدت أبو ظبى سلسلة من الاغتيالات والمذابح الأسرية على غرار ماكانت تشهده ايطاليا على يد أسرة لكريس بورجيا ومديسيس .

ان شخبوط بن دياب الذى خلف أباه على الحكم واستقر فى أبو ظبى كان الحاكم الوحيد خلال الستين عاما يموت موتة طبيعية . ولقد امتد نفوذ بنى ياس شمالا عبر الساحل من أبو ظبى حتى دبى ، وشرقا حتى واحة البريمى ، التى تبعد نحو مائة ميل الى الداخل . وكان يحتل البريمى قبيلتان هما قبيلة النعيم وقبيلة الظواهر . والنعيم ، وهى القبيلة النافذة فى المنطقة فتتألف من ثلاثة فروع قبلية : هى آل بوشاش ، وآل بوخريبان ، والخواطر ، وكما عرفنا فان بعض عناصر القبيلتين الأخريين يسكنان الساحل فى كل من عجمان ورأس الخيمة ، والنعيم قبيلة بعضها حضرى ، والبعض الآخر بدوى ، وموطنها القبلى يمتد عبر جناح سلسلة جبال الحجر من البريمى حتى ضنك ، وبما ان النعيم ينحدرون من أصل غافرى ، فقد فرضوا سلطانهم على ظواهر البريمى ، وهم قبيلة من أصل هناوى على الرغم

---

(١) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى المجلد ٢٤ ص ٤٦٢ وضوء تاريخية لقبيلة بنى ياس العربية ، تأليف اللفتنانت هانيل .

من أن الظواهر ربما كانوا قد سبقوا غيرهم فى الاستقرار بتلك المنطقة(١) وفى القرن السابع عشر خضع النعيم لسلطان الأئمة اليعاربة فى عمان . وكان لهؤلاء الأئمة وال فى البريمى(٢) . ولقد عدل الامام أحمد بن سعيد عن هذه القاعدة كما أن نجله سلطان صادف متاعب فى السيطرة على هذه القبائل(٣) . وقد امتد نفوذ بنى ياس حتى أطراف الظاهرة خلال الحقبة الثالثة من القرن الثامن عشر(٤) ، وبنهاية القرن بدا وكأنهم يحاولون الاستيلاء على واحة البريمى بالتحالف مع الظواهر ، كما أقاموا صداقات مع العوامر ، وهى قبيلة كانت قد بدأت فى تلك الفترة فى ارتياد المنطقة . وبما أن العوامر يرجعون فى الأصل الى حضرموت فقد أخذوا يجوبون الجانب الشرقى الى منحدرات عمان، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد استقرت فئة منهم فيما بعد بعمان الأم بالقرب من نزوى على ساحل الباطنة ، الا أن الفئات البدوية منها استمرت فى تجوالها غربا فى اتجاه خطمة ملامة ، وهى المقاطعة الواقعة مباشرة الى الغرب من واحة البريمى ، والى المزيد من الجهة الغربية حيث الظاهرة . ولما كانت هذه القبيلة غير مستقرة وترتاد مناطق بعيدة فان تنقلاتها غير ثابتة ، وقد تضمحل وتتلاشى من الوجود قبل مرور وقت طويل فى مطاوى الربع الخالى . ولا يمكن الجزم بتعداد سكان القراصنة فى تلك الفترة . فأحد التقديرات يضعهم فى حدود ١١٫٠٠٠ — ١٢٠٠٠ نسمة(٥) ، بينما يشير تقدير آخر أعد

---

(١) ان الاسم المفرد لهذه القبيلة وهو الظاهرى يدل على انهم أصلا من الظاهرة .

(٢) أنظر « تاريخ عمان » بقلم روس فى المجلة الجغرافية للبنغال ص١٦٢ مجلد ١٣ .

(٣) التقرير السنوى للمقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ — ٨ ص ٢٥ سيرة سلطان بن أحمد .

(٤) مجلة الجمعية الجغرافية للبنغال ص ١٧٧ — ٨ مجلد ١٣ .

(٥) بحث عن « غرب ساحل القراصنة » مترجم — مجلة الجمعية الجغرافية لبومباى ص ٣٢ مجلد ١

عام ١٨٢٠ بأن هذا الرقم يشمل الرجال فقط(١) ، أما المصدر الذى يمكن الاعتماد عليه أكثر فهو بيان بعثة المسح التى أوفدت الى الساحل العربى بعد عام ١٨٢٠ ، غير أن الرقم الذى يمكن استخلاصه من تقرير البعثة للتعداد الكلى للسكان ونعنى به من ١١٫٩٠٠ الى ١٢٫٧٥٠ نسمة قد لا يكون صحيحا اذا عرفنا أن التقرير قد أورد تعداد بعض المناطق بالكامل ، وبعضها لم يشر الا الى عدد السكان الذكور فقط(٢) . وهكذا ذكر التقرير أن سكان رأس الخيمة ٢٥٠٠ وسكان دبى ٧٠٠ — ٨٠٠ نسمة بينما حدد سكان عجمان والشارقة من ١٤٠٠ — ١٧٠٠ رجل ومن ٣٥٠٠ الى ٣٨٠٠ رجل لكل منهما ، بينما حدد سكان ابو ظبى بـ ١٢٠٠ نسمة ، مع أن تعداد الذكور من بنى ياس كان ٢٤٠٠ شخص ، وحلفاءهم المناصير وغيرهم ٥٠٠٠ شخص(٣) .

لقد كان صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ المقومات الأساسية للحياة فى الساحل كذلك كان القواسم يساهمون فى عمليات نقل السلع فى الخليج كما كانوا يقومون برحلات تجارية الى الهند وأفريقيا ، وكانوا يستخدمون حصيلة هذا النشاط التجارى فى ابتياع الأغذية وغيرها من متطلبات الحياة للمحافظة على مستواهم المعيشى المنخفض ، وكانوا يشترون البلح والخيل والحمير من البحرين والبصرة والبنادق والبارود والسيوف والسجاد والتبغ من ايران ، والمعادن والأرز والمنسوجات من بومباى ، والسمن والزيت من ساحل مكران ، والبلح

---

(١) من خطاب الكابتن دبليو. جى. كولبروك الى اف . واردن بتاريخ ١٨٢٠/٩/١ ضمن محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٤ .

(٢) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٤٠ — ٥٤٧ وكتاب « الملاحة فى الخليج » تأليف بركس .

(٣) نفس المصدر ويقدم كولبروك ثلاثة أرقام لتعداد سكان بنى ياس الذكور هى ٥٠٠٠ منها ٢٠٠٠ على الساحل ، ٣٠٠٠ يسكنون منطقة الظفرة ، ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ وكما سبقت الاشارة الى ذلك بنحو ١٢٠٠٠ فاذا أضيف الى هذه الأرقام ، أرقام بركس للسكان المناصير وبنى ياس معا فان المجموع يقترب من تقديرات كولوبرك (فهو لا يقدم كتقديرات عن عدد المناصير وربما يكون قد ضمهم مع بنى ياس .

من عمان ، والبن من اليمن ، والعبيد من زنجبار « فى مقابل هذه الواردات ». وباستثناء اللؤلؤ لم يكن سكان الساحل يصدرون شيئا ذا قيمة فيماعدا الأسماك المجففة والجبن ، والجاكتات المنسوجة من صوف الماعز والخرفان .

كانت العلاقات فى هذه الفترة بين بنى ياس والقواسم يشوبها التحفظ ولكن كان فيها شىء من الانسجام نسبيا ، اذ لم يكن قد طرأ أى خلاف بينهما حتى ذلك الوقت . وكلا الاتحادين القبليين كان ينتمى الى المذهب السنى ، كما أن بنى ياس لم يساهموا بأى نصيب من التدخل فى الصراع الهناوى ـ الغافرى، فقد كانوا لايزالون يقيمون فى واحة ليوا عندما انفجر هذا الصراع بين الطرفين ، وبعد بداية القرن التاسع عشر ، بدأ آل بوفلاح فى توثيق صلاتهم بحكام آل بوسعيد والتى توثقت أكثر بنهاية القرن . وحتى ذلك الوقت لم تكن المصالح الاقتصادية بين اتحادى بنى ياس والقواسم قد تعارضت . فقد اقتصر نشاط بنى ياس فى مجموعه على الزراعة والرعى ، ولم تكن لديهم الامكانيات الملاحية التى تمكنهم من تحدى القواسم فى البحر ، ولكن عندما ازدادت خبرتهم بالبحر عمدوا الى ممارسة صيد اللؤلؤ بشكل متزايد ، بحيث أخذوا يهددون القواسم فى سيطرتهم على الخلجان . وعندما وصلت العلاقات الى هذا الحد من التوتر فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر انفجر العداء السياسى والدينى لكى يضاعف من حدة التنافس بين الطرفين ويحيله الى عداء مستحكم ، قدر له بأن يستمر حتى معظم فترة القرن ، والى ما وراء أبو ظبى تنتهى حدود مقاطعة الشمال مخلفة وراءها عمان ، والى الغرب من ذلك تمتد صحراء الظفرة التى تحدها من الشمال مياه الخليج ، ومن الجنوب صحراء الربع الخالى . وتتكون الظفرة فى معظمها من سلسلة من كثبان الرمال ممتدة من شرقها الى غربها ، وممتدة فى الاتجاه الجنوبى من الساحل حتى الربع الخالى . أما الساحل المنخفض الملىء بالمستنقعات ، والذى تتناثر فوقه المناطق السبخية والنتوءات الجيرية ويمتد عمقه الى نحو ١٥ ميلا الى الداخل فيعرف بالطف . ومياه هذا الساحل ضحلة على الشاطىء كما أنه غير مأمون بسبب مايضمه من الصخور والجزر والمناطق الرخوة . وعلى الجانب الآخر من الطف توجد ثلاثة احزمة من المناطق الرملية تتوفر فيها آبار من المياه العذبة

ومجموعات من أشجار النخيل فى الفجوات الفاصلة من سلاسل الكثبان ، وتسمى هذه المناطق الثلاث من الشمال الى الجنوب الساروق والفقه ، والباطنة ويمكن تميز بعضها عن البعض عن طريق كثبان عالية . والى الجنوب من الباطنة على امتداد بشكل هلال يصل قطره من الجنوب الغربى الى الجنوب الشرقى من ٤٠ الى ٥٠ ميلا تقع واحة ليوا ، وفى هذه المنطقة تزداد الكثبان ارتفاعا حيث تتناثر فيها وعلى منحدراتها عدد من المستعمرات السكنية ، وعلى الرغم من ذلك فانه يوجد هناك نحو ٤٠ الى ٥٠ مستعمرة من هـذه المستعمرات ، وحتى الآن يقيم سكانها فى بعضها على مدار العام بينما لا يقيمون فى القسم الأكبر منها الا فى مواسم الحصاد . وتتوفر المياه العذبة وخمائل النخيل فى المنحدرات الصخرية الواقعة بين الكثبان وبالرغم من أن الضباط البريطانيين العاملين فى الخليج كانوا يعلمون عن وجود هذه الواحة منذ أواسط القرن التاسع عشر الا أنه لم يتح لأى اوروبى مشاهدة هذه الواحة قبل عام ١٩٤٨ عندما اجتازها الرحالة ولفريد فيسيجر من الجانب الغربى خلال عبوره الثانى لصحراء الربع الخالى(١) . وعلى الجانب الآخر من ليوا جنوبا تقوم كثبان الرمال البيضاء والذهبية اللون لمنطقتى البطين وجيدان ، وهما المقاطعتان الأخيرتان للظفرة عند ملتقى تلال الرمال الحمراء والتى تلتقى بالخطمة من الشمال والظاهرة فى الشرق وهما منطقتا سهول رملية واسعة تقطعها مستنقعات الملح وبعض التلال وتتوفر فيها المياه والمراعى . أما الطف وهو الرقعة الساحلية التى تنتهى حدودها عند سبخة مطى فهى بحيرة ملحية ضخمة يصل عرضها عند حافة البحر الى أكثر من ثلاثين ميلا ، وهى تمتد الى الداخل فى أشكال غير منظمة ، تتخللها كثبان من الرمال الى عمق يصل الى ٦٠ مير ، وتقع بالقرب من سبخة مطى والى الخلف من الطف مباشرة بينونة ، وهى آخر مقاطعات الظفرة غربا ، وبينونة منطقة

---

(١) لقد توجه اليها من الجنوب عام ١٩٤٦ بعد أول اجتياز قام به للربع الخالى وقد سلك فى سيره الجانب الشرقى بعد أن تنامى اليه ان هناك فريقا من السعوديين يعسكرون بالمنطقة (راجع بحثـه عبر الربع الخالى) بالمجلة الجغرافية عدد ١ ص ١ — ٢١ » ورحلة أخرى عبر الربع الخالى نفس المجلة عدد ١٣ ص ٢١ — ٤٦ .

تتخللها كثبان منخفضة ومتعرجة فيها بعض الآبار ذات المياه المالحة . أما من الغرب فيحد سبخة مطى من الغرب وادى مجعن ، وهو سهل حصباوى ينحدر فى رفق من الشرق الى الغرب ، وخلف هذا الوادى يمتد سهل رملى طويل به عدد من الآبار ويسمى عقال ، وينتهى عند أطراف شبه جزيرة قطر حيث ينقسم الى مجموعة من الوديان والرؤوس الصخرية ، وكانت كل منطقة مجعن وعقال فى الماضى عبارة عن مراعى شتوية تستخدمها القبيلتان الرئيسيتان لمنطقة الظفرة ونعنى بهما بنى ياس والمناصير . ومن المحتمل أن بعض العناصر البدوية من القبائل كبنى مرة والمناحيل والرواشد كانت تجوب المنطقة الشمالية من الربع الخالى فى بعض الأوقات لرعى قطعانها هناك . أما المناصير فقد كانت ترتاد الظفرة على امتدادها من الرملة الحمراء شرقا الى بينونة غربا ، بل ربما كانت تصل فى تجوالها الى شبه جزيرة قطر والاحساء ، وكانوا يمتلكون مزارع نخيل فى ليوا كما كانوا يزاولون صيد الأسماك واللؤلؤ بالاشتراك مع بنى ياس فى منطقة غير بعيدة عن الساحل الجنوبى للخليج ، وتتألف هذه القبيلة من ثلاث تقسيمات رئيسية وهى آل بومنذر ، وآل بورحمة ، وآل بوشعر بالاضافة الى فرعين صغيرين ، هما آل بوخيل وآل بوحمير ، ويبدو أن هذه القبيلة لم تكن تدين لزعيم من زعماء القبائل الكبار ، وانما كانت تمنح ولاءها للحاكم الذى يقيم فى منطقته ومنذ بداية القرن التاسع عشر ان لم يكن قبل هذا التاريخ ، كان المناصير متحالفين مع بنى ياس ، بينما كانوا يمنحون ولاءهم لآل بوفلاح مشايخ أبو ظبى . ويمكن تحديد متانة الصلة هذه من تقرير عن قبائل ساحل القراصنة أعده مساعد المعتمد البريطانى فى تركيا العربية عام ١٨١٨ جاء فيه :

« ان بنى ياس قبيلة رعوية من قبائل عمان ويقيمون فى أقصى المقاطعة الشمالية التى تسمى السر ، وهى منطقة رملية قاحلة التربة ، وتنقسم هذه القبيلة الى ثلاثة فصائل ، احداها تسمى بنى ياس ، والثانية تسمى المناصير، والثالثة تدعى العوامر ، أما الفئات التى كانت تقطن المنطقة الداخلية فتمتلك ابلا من أجود السلالات بينما الذين يقطنون المنطقة الساحلية فيمتلكون قوارب خفيفة يحمل كل منها أربعة أشخاص ، وهى صالحة لعمليات الصيد الذى يشحن محصوله الى بلدة الاحساء لتصريفه هناك ... ولديهم بساتين صغيرة

من أشجار النخيل موزعة على التلال الرملية ولا تعطى غير محصول شحيح من الفاكهة ، وفى الصيف يسكن أفراد هذه القبيلة وسط هـذه البساتين وتبقى هناك الى أن تستهلك كل ماعندها من هذا المحصول . ولكن المـاء مالح فى هذا الموسم(١) ويتوجه الرعاة فى شهور الشـتاء الى الاحساء وقطر بحثـا عن المرعى .

ان قطر كما يقول العرب انفسهم عنها « انها البلد الذى نسيته الطبيعة » وشبه جزيرة قطر منطقة منبسطة جرداء وهى تمتد شمالا من الساحل العربى الى داخل مياه الخليج الى مسافة ثمانين ميلا تقريبا . ويبلغ عرض أوسع جزء منها نحو أربعين ميلا ، ولا يوجد فيها شىء مفيد سوى رتابة سهلها الممتد مـع احتمال وجود بعض التلال المنخفضة هنا وهناك كجبل الدخان فى الجهة الغربية من شبه الجزيرة ، أما حدودها الجنوبية فيمكن تميزها بسهولة . وتوجـد سلسلة من المنخفضات التى تبدأ من رومه سلوى فى الغرب حتى حذر العديد فى الشرق ومن الواضح أن هذه المنطقة كانت تشكل فى وقت من الأوقات لسانا من البحر تفصل شبه الجزيرة عن الساحل الخلفى لها .

والمنطقة البحرية المحيطة بقطر تكثر فيها المناطق الضحلة ولا يوجد على الساحل منطقة تصلح كمرفأ حقيقى ، وتوجد هنا وهناك فى المنطقة الداخلية بعض الآبار وتظهر هذه الآبار بعد هطول أمطار الربيع عادة فى الأجزاء المنخفضة من شبه الجزيرة كما تظهر بعض المناطق المـكسوة بالحشائش والأعشـاب . فالزراعة تكاد أن تكون معدومة على الاطلاق ولا توجد الوديان فى أى مكان منها، ولم يكن هناك غير البحر يتزود منه سكان قطر القليلون بمقومات معيشتهم . أما من الناحية السياسية فقد كانت قطر فقيرة مثلما هى من الناحية الجغرافية، وباستثناء عدد قليل من المستعمرات على الساحل فان قطر لم تكن أكثر من منطقة ترعى فيها قبائل البدو ماشيتها ، وقد حل بها المناصير وربما بنو مرة

---

(١) مقتطفات من سجلات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص١٦ اعداد الكابتن أر . تيلور تحت عنوان « ملاحظات مختصرة عن عمان ومسقط والبحرين . . »

ويمكن الرجوع الى ص١٣٩ من الكتاب لمعرفة الظروف التى أعد بسببها هذا التقرير .

أيضا ، ولكن الحجرين ، وهم اليوم القبيلة البدوية الرئيسية فى قطر ، لم يكونوا موجودين فى نهاية القرن الثامن عشر ، رغم أنهم قد نزحوا اليها بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ .

أما الذين وفدوا الى الجزيرة فيما بعد فانهم عناصر من قبيلة النعيم الكبرى ، وعلى طول الضفة الشرقية للساحل تقوم قرى الصيادين كالوكرة وبديه أو (الدوحة كما تسمى الآن) ربما اشتقاقا من لفظة (دوحة البدع) أما الهويلة والنويرات فيقطنهما عدد من القبائل المستقرة والمعاويد ، وهم فرع من آل بنى على وانسبائهم الى بوقورة ، فقد كانوا يسيطرون على النويرات ، بينما كان يسيطر آل مسلم وهم فرع من بنى خالد على الهويلات . أما الدوحة فكانت تتألف من عدة قبائل أهمها المعاديد، وآل بوعينين والسودان(١) . وفى مناطق أخرى من شبه الجزيرة كانت تقيم مجموعات من آل بوعينين والدواسر، والهويلة والأخيرة منها نزحت الى المنطقة من سواحل ايران . وليس ثمة مايؤيد احتمال أن يكون بنو خالد شيوخ الأحساء قد مارسوا نوعا من السيطرة على آل مسلم حتى منتصف القرن الثامن عشر . وعلى حين يبدو القسم الشرقى من الساحل مخيبا للآمال فان الشمال الغربى من الجزيرة يقدم صورة أكثر اشراقا لسبب رئيسى هو وجود قبيلة آل خليفة هناك . لقد هاجر آل خليفة ، وهم فرع من العتوب كانوا قد استوطنوا الكويت فى أوائل القرن الثامن عشر من تلك البلاد فى عام ١٧٦٦ طلبا لمستوى أفضل من المعيشة . ولقد اتخذوا زبارة فى الشمال موطنا

---

(١) قبيلة السودان تأتى أحيانا ضمن بنى ياس وكما يقال عنها أنها نشأت أصلا على ساحل القراصنة وجاء فى تقرير أعد عام ١٨٢٠ أن قبيلة السودان التى تقطن أبو حيل القريبة من الشارقة قد نزحت من قطر عن طريق أبو ظبى على اثر قيام الوهابيين بطردهم منها « الشئون السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤ تاريخ ٢٥ ابريل من كولدبروك الى واردن ١٨٢٠/٩/١ » .

لهم بعد أن انتزعوها بالقوة من آل مسلم ، ثم انضم فى وقت لاحق فرع الجلاهمة من العتوب الذين تركوا الكويت لنفس الأسباب واستقروا فى الرويس فى الطرف الشمالى من قطر ، وقبل أن يهاجر آل خليفة بمعية فرع آخر من العتوب هم آل صباح سكان الكويت بوقت طويل كانوا قد اكتسبوا مكانا مرموقا فى الخليج كتجار وملاحين ، وفى ظل سلطانهم نمت وتطورت زبارة كمركز للملاحة البحرية. ولقد ساعد على تطورها حصار الفرس للبصرة سنة ١٧٧٥ — ١٧٧٦ مما وجه قسما كبيرا من تجارة الخليج الى تلك المستعمرات الجديدة كما شجع كثيرا من التجار على الانتقال الى زبارة ، وثمة عامل آخر ساهم فى ازدهار زبارة هو السيطرة التدريجية التى تطورت الى مايشبه الاحتكار الكامل لمصايد اللؤلؤ فى كل من شواطىء قطر والبحرين من قبل آل خليفة . ومع مضى الوقت تطورت زبارة الى بلدة ذات اهمية فى المنطقة ، ولاتزال آثارها حتى اليوم تنطق عن هذا المركز ، وكانت تحتل مساحة من الأرض تضم بداخلها عددا من المساكن الكبيرة المبنية على النمط الفارسى . ويقدر عدد بيوت زبارة فى العشرينات من القرن الثامن عشر بنحو ٤٠٠ ولكنها كانت شبه مهدمة فى ذلك الوقت .

وفى اعقاب سلسلة من الغزوات التى شنها على المنطقة الفرس الذين كانوا يسيطرون على جزر البحرين المجاورة حل التدهور بالبلاد ولقد كان حاكم بوشهر الذى كان يحكم البحرين فى الوقت نفسه غير راض عما حققه آل خليفة من انجازات فى زبارة ، وكانت تنشب المنازعات كلما اجتاز آل خليفة البر الى البحرين كما كانت الخلافات الدينية عاملا آخر فى اشعال نار الخصومات بين الطرفين ، اذ ان آل خليفة ينتمون الى المذهب السنى بينما ينتمى أهل البحرين الى المذهب الشيعى . وفى عام ١٧٨٢ حدثت واقعة أدت الى مقتل أحد أفراد قبيلة آل خليفة فى سترة على الساحل الشرقى للبحرين مما دفع حكام زبارة الى شن حملة عسكرية على المنامة عاصمة البحرين ، وقد استنجد البحرانيون الذين دب فيهم الفزع،بحاكم المقاطعة الجنوبية لفارس،وقدأصدر هذا الحاكم اوامره الى الشيخ ناصر حاكم بوشهر بتجهيز حملة لاحتلال زبارة ، وفى بداية عام ١٧٨٣ تحركت قوة مشتركة من الفرس والقواسم وانقضت على معقل آل خليفة فى زبارة ولكن القوة اصطدمت بمقاومة من آل خليفة يعاونهم بعض أفراد

قبائل قطر . وبعد بضعة أشهر قام آل صباح سكان الكويت وانساب آل خليفة يؤيدهم بعض عرب قطر بحملة على البلدة، وبعد حصار دام شهرين لقوات الفرس استسلمت حامية المنامة لهم . ومنذ ذلك الوقت غدت البحرين قاعدة لحكم آل خليفة على الرغم من أن الشيخ الحاكم ظل يقيم لعدة سنوات فى زبارة ، ومن بين القبائل التى ساعدت آل خليفة على احتلال البحرين قبيلة الجلاهمة سكان الرويس ، والتى تمت الى آل خليفة بصلة القربى غير أن القبيلتين اختصمتا فيما بعد ، ربما على الغنائم ، مما دفع الجلاهمة الى الانسحاب الى قطر حيث استقر بهم فى خور حسن شمال زبارة ، وكان يحكمهم ثلاثة شيوخ اخوة وأنجال شيخ المشايخ السابق جابر الذى قاد عمليات الهجرة الأولى من الكويت الى قطر . وخلال بضع سنوات ذاع صيت رحمة بن جابر بأنه من أعظم قراصنة الخليج فى العصر الحديث . وفى ظل حكمه غدا خور العديد ملجأ وملتقى لكل المناوئين لآل خليفة ومن يفضلون ممارسة الحياة بقوة السيف وحدها وأن حقده على آل خليفة ، وهو أمر كما يبدو له أسباب شخصية أكثر منها الخلاف الذى نشب على فتح البحرين فقد ظل لأكثر من أربعين عاما وحتى وفاته فى معارك كان يقودها ضدهم وكان يخوض حرب استنزاف ضروسا ضد تجارة وملاحة البحرين . وكان معقل رحمة فى خور حسن (وتسمى الآن الخوير) عبارة عن قرية متداعية متواضعة تتألف فى أغلبها من أكواخ بدائية من السعف والخيش ، وكان يتصدرها قلعة مربعة الشكل مبنية من الطين والحجر المرجانى تقع على الساحل والمرفأ الضحل وفى منطقة غير بعيدة من الشاطىء بعض الشعب المرجانية يمكن مشاهدتها وهى تمتد شمالا وجنوبا بمحاذاة الساحل بالاضافة الى قناة بعمق باع ونصف الى باعين يفصل بينهما فى العرض سلك عازل من حيث تستطيع المراكب ان تبحر من رأس فكان الى زبارة أما القناة الممتدة عبر الشعب بطول ميلين غرب الميناء فلا يمكن الابحار فيها الا فى فصل الربيع ، كما يمكن سدها بالأحجار فى حالة وجود تهديد أو طوارىء(١) .

---

(١) الوثائق السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٣ مجلد ١٧ مشاورات ١٨١٠/٥/٢٩ رسالة من كابتن ان. وارن الى أن اتشه سميث (المقيم البريطانى فى بوشهر) بتاريخ ١٨١٠/٣/١٧ أما بالنسبة لزيارة وارن لخور حسن راجع ص ١٢٣ من الكتاب .

وكان لرحمة معقل آخر يمكنه التراجع اليه للاحتماء فيه ، وذلك فى دوحة حسن ، حيث لا تزال توجد بقايا حصن حيث أقيم بالبناء المذكور ، ويسمى هذا الوكر بوكر الثعلب ، وهو اللقب الذى كان يشتهر به رحمة فى ذروة أيامه .

يقع أرخبيل البحرين فيما بين شبه جزيرة قطر وساحل الاحساء . ويضم جزيرة كبيرة هى البحرين (وتسمى بأوال أيضا) وعددا آخر من صغار الجزر أكبرها المحرق على الطرف الشمالى ، وسترا على الطرف الشرقى ، والبحرين جزيرة مستطيلة الشكل ويصل عرضها فى الوسط الى عشرة أميال . والجانب الشمالى من الجزيرة هو المنطقة الخصبة فقط ، أما الباقى فيما عدا بضعة نقط على الساحل الغربى فصحراء ، وفى الشمال فى البلدة الرئيسية المنامة تتوفر الينابيع بكثرة كما توجد ينابيع تحت مياه البحر على الساحل ، والأرض فى البحرين منخفضة وتكاد أن تكون منبسطة والمنطقة المميزة الوحيدة فيها كما هو الحال فى قطر هو جبل الدخان القائم فى قلب الجزيرة . وخور المنامة صالح للملاحة وهناك مراسى مأمونة بين المنامة والمحرق . وعلى بعد بضعة فراسخ الى الشمال فى محرق تقع أحواض اللؤلؤ وتبدأ من رأس تنورة على الساحل العربى امتدادا الى الشمال الغربى بحث تلتف حول رأس قطر ثم تنحدر فى اتجاه الساحل الشرقى قبل أن تتلاشى عبر أعماق البحر أوعية البحر « التى يطلق عليها العرب « بحر العذارى » بحث تنتهى أخيرا بالقرب من دبى على ساحل القراصنة ، وأكثر الأحواض وفرة باللآلىء هى المنطقة القريبة من البحرين ورأس ركن .

لقد ظل تاريخ البحرين على امتداد القرن الثامن عشر حافلا بالاضطرابات، أما من الذى كان يحكم الجزيرة فى مطلع القرن فغير معروف ، وربما كانت خاضعة للفرس الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ ، أو ربما كان عرب الأحساء على الطرف المقابل من الأرض الأم هم الحكام ، ومن عام ١٧١٨ استولى الامام اليعربى سلطان بن سيف الثانى على الجزيرة ، ولكنه لم يستمر فيها فقد عادت الى الفرس فى عهد نادر شاه ، غير أن الحاكم الفارسى كان حكمه قصيرا وانتقلت السلطة فى منتصف القرن الى عرب الهويلة التى كان زعيمها فى ذلك الوقت شيخ منطقة اسالوا على الساحل الايرانى ، ثم انتهى

حكم هــذا الشيخ عام ١٧٥٥ عندما هاجمتهــا قــوة كبيرة خرجت من الموانى الشمالية لفارس ، وهى بوشهر وبندر رق بقيادة الشيخ ناصر شيخ بوشهر واخضعت الجزيرة لسلطانها . وقد ظل هذا الشيخ يحكم البحرين زهاء ثلاثين عاما باسم فارس حتى أقصى منها مرة والى الأبد من جانب آل خليفة حكام زبارة ، وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت البحرين تخضع لحاكمين من آل خليفة هما سلمان بن أحمد وأخوه عبد الله ، وكان جدهما الشيخ خليفة بن محمــد هو الذى قاد عملية النزوح من الــكويت الى زبارة عام ١٧٦٦ ، وقد احتــل الجزيرة والدهما الشيخ أحمد بن خليفة فى غياب والده الشيخ خليفة الذى كان قد توجه الى مكة للحج وتوفى هناك . وقد ظل يقيم فى زبارة تاركا مقاليد الحكم فى البحرين لولديه ، وعلى أثر وفاته اتفق الأخوان على مشاطرة الحكم حيث يقيم سلمان فى منطقة الرقاع ويقيم الآخر فى المحرق .

ان سكان البحرين متعددو الأجنــاس ، ومما لاشك فيــه أن السكان الأصليين البحارنة يشكلون أكبر مجموعة سكانية ، وهؤلاء يتكونون من خليط من الأصل العربى والفارسى ، ويتعاطون صيد الأسماك والفلاحة ، والمجموعــة السكانية الكبرى الثانية هم الهويلة ، وهذه المجموعة مثلها مثل البحارنة ليست قبيلة وانما هى طبقة تتألف من العــرب الأوائل الذين زحفــوا على الساحل الفارسى فى فترات تاريخية سابقة . ولكن الهويلة سنيون على خلاف البحارنة الذين هم من الشيعة . واذا جمعنا الفئتين يمكن أن يصل تعدادهما فيما بين ٠٠٠ر١٠ر٠٠٠ر٤٥ نسمة،واذا التفتنا الى العناصر القبلية التى تؤلف بقية سكان الجزيرة فيمكن القول ، أن العتوب بما فيهم الأسرة الحاكمة من آل خليفة كانوا اكثر المجموعات نفوذا . أما العناصر الأخرى كآل بوكورة . والسـلاته وآل مسلم ، والمعاودة والجنبات فهم من أصل قطرى كان العتوب قد عبأوهم فى عملياتهم لاحتلال البحرين ، ثم اختاروا البقاء فى الجزيرة ، كما كان هناك نحو ٨٠٠ من بنى خالد الذين نزحوا الى البحرين من الاحساء . وفى اعقــاب هؤلاء كلهم استقبلت البحرين مجموعة من قبائل الدواسر والنعيم الذين هاجــروا اليها من المنطقة الأم . ويقدر عدد العتوب وحلفائهم باستثناء بنى خالد فى ذلك الوقت بعشرة آلاف الى عشرين الف نسمة،كما كاا هناك نحو من ٢٠٠ الى ٣٠٠

من الافريقيين الأرقاء والأحرار فى خدمة آل خليفة . وفى غضون العشرين والثلاثين سنة من حكم آل خليفة حققت البحرين تقدما سريعا فى النواحى التجارية ، وكان مقدرا لها فى وقت من الأوقات أن تنتزع من مسقط أهميتها كمركز تجارى فى الخليج . فبحكم موقع الجزيرة فى منطقة تتوسط خليج هرمز وشط العرب فقد ساعدها هذا الوضع على احتكار تجارة المنطقة بصورة تامة ، ولئن كان تدهور الوضع فى البصرة ، كما أشرنا آنفا ، قد ساهم فى دفع التطور الاقتصادى للبحرين فان الفضل الأكبر فى ذلك يعود الى مهارة ونشاط حكام الجزيرة الجدد الذى برزت قدراتهم الى حد كبير فى الكويت أولا ، ثم فى زبارة كملاحين وكتجار فى نفس الوقت . وربما كان صيد اللآلىء أكبر موارد الدخل لآل خليفة . والتقديرات للقيمة الاجمالية لهذا الدخل قليلة ولكنها تتراوح كثيرا ، ويذكر المؤرخ ينبهور فى سنة ١٧٥٦ ، أن حاكم بوشهر كان يتقاضى من هذا المورد نحو مائة الف روبية (أى ١٠ آلاف جنيه استرلينى)(١) ويقدر مصدر آخر هذا الرقم سنة ١٧٧٥ بستين الف تومان عراقى ، أى مايعادل (١١٢ر٥٠٠ ج س)(٢) ويقدر مكتب تمثيل شركة الهند الشرقية فى البصرة فى سنة ١٧٩٠ أن قيمة صادرات اللؤلؤ من البحرين قد بلغت ٥٠٠ر٠٠٠ روبية هندية (نحو ٥٠ر٠٠٠ج س)(٣) وقد ابلغ أحد الضباط السياسيين التابعين لهذه الشركة فى سنة ١٨٤٨ أن قيمة تجارة اللؤلؤ بلغت ١٠٠ر٠٠٠ تومان عراقى لـ ١٨٧ر٠٠٠ ج س)(٤) ، وتشير المعلومات التى استقاها ضباط الأسطول البريطانى العاملون فى عملية مسح الخليج سنة ١٨٢٤ ان قيمة هذه التجارة

---

(١) نفس المصدر .

(٢) رحلات الى آسيا ص ٢٠٢ تأليف ابراهيم بارسونز . ان بارسونز وكان احد رجال شركة لفانت قد زار الخليج فى عام ١٧٧٥ وقد اشرنا الى انطباعاته عن مسقط آنفا .

(٣) فارس والخليج مجلد ٢١ من مانستى وجونز الى مجلس الحاكم بومباى فى ١٨/١٢/١٧٩٠ .

(٤) وثائق حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٢٢ « ملاحظات عن عمان » اعداد تايلور .

قد ارتفعت فى تقديراتهم الى ٠٠٠ر٦٠٠ر١ نمسوى (أى مايساوى ٠٠٠ر٣٢٠ ج‌س تقريبا) وفى مكان آخر انها بلغت نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ روبية (أى ٠٠٠ر٤٠٠ ج‌س)(١) تقريبا ، وبعد ذلك ببضع سنوات قدر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج بمليون الى مليون ومائتى ألف ريال نمسوى (أى ٠٠٠ر٢٠٠ ج‌س و ٠٠٠ر٢٤٠ ج‌س)(٢) ، وفى غضون العشرينات كان نحو ٢٥٠٠ سفينة تبحر كل صيف من البحرين الى مصايد اللؤلؤ ونحو ٧٠٠ أخرى من ساحل القراصنة . وكان يعمل على هذه السفن من ٢٧ الى ٣٠ الف رجل ، ولكن هذا العدد انخفض سنة ١٨٤١ الى ٢٤٠٠ — ٢٥٠٠ ، وان كان عدد الأفراد العاملين بها قد ارتفع الى ٣٧٠٠٠ — ٣٨٠٠٠ وقد انخفضت حصة البحرين من هذه العمليات بسبب الاضطرابات الداخلية فيها وكانت أكبر مساهمة فردية من القوارب والبحارة هى مساهمة أبو ظبى التى قدرت بأكثر من ٧٠٠ سفينة ومن ٨٠٠٠ الى ٩٠٠٠ بحار . على أن الأرقام الصحيحة الأولى عن تجارة البحرين هى تلك التى تم وضعها خلال عمليات مسح الخليج ، وهى تشير الى أن القيمة الاجمالية السنوية للميزانية بلغت ٠٠٠ر٤٥٩ر٢ ريال نمسوى . أى (٠٠٠ر٤٩٠ ج.س) مقسمة الى رقمين يمثل الأول رقم الصادرات فى حدود ٠٠ر٦٥١ر١ (نحو ٠٠٠ر٣٣٠ ج س) ، ويمثل الثانى فى حدود ٣٠٠ر٨٠٧ ريال نمسوى (نحو ٠٠٠ر٣٣٠ ج‌س) ، ويمثل الثانى فى حدود ٣٠٠ر٨٠٧ ريال نمسوى (نحو ٠٠٠ر١٦٠ ج س) الواردات . وكان اللؤلؤ فى المقام الأول من الصادرات اذ بلغ قيمة مايصدر منه كما أشرنا آنفا نحو ٠٠٠ر٣٢٠ ج س ، أما الواردات فكانت تأتى من الهند (السلع القطنية والأرز والسكر والبهارات

---

(١) نفس المصدر ص ٥٦٨ « حول الملاحة فى الخليج » بقلم بركس وبحث عن عرب ساحل القراصنة بقلم وايتلوك ترجمة مجلد جمعية بومباى الجغرافية فصل ١ ص ٤٤/٤٥ .

(٢) مرفقات للمراسلات السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٦ مرفق ٣٦ خطاب رقم ٧٩ مؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٨٤١ من الكومودورجى . بى بركس الى الكابتن اس هانيل المقيم البريطانى فى الخليج ١٨٤١/٨/٢٥ .

والمعادن والواح الصنوبر والأدوية) . ومن فارس وعمان (الحبوب والفواكه المجففة) ومن البصرة البلح والبن من اليمن . وكان قسم كبير من هذه الواردات وبالأخص المنسوجات القطنية يعاد تصديرها الى داخل شبه الجزيرة العربية . وكانت السفن البحرانية هى التى تنقل هذه المـواد وقد وصل عـددها فى العشرينات من القرن ٢٠ سفينة حمولتها تتراوح من ١٤٠ الى ٣٥٠ طنا ، وكانت تستخدم فى التجارة مع الهند بالاضافة الى ١٠٠ سفينة صغيرة حمولتها من ٤٠ الى ١٢٠ طنا(١) .

لقد أثار ازدهار ونمو الثروة فى البحرين حكام فارس الذين ضاقوا ذرعا بضياع هذا البلد من أيديهم ، غير أن اضطراب الأحوال فى ايران خلال المراحل الأخيرة من القرن الثامن عشر حال بينهم وبين القيام من جديد بغزو البحرين ، كما أن آل خليفة من جانبهم رأوا فى بداية حكمهم أن من الحكمة ترضية الايرانيين عن طريق دفع جزية سنوية لحكومة شيراز ، غير أنهم عدلوا عن هذه الفـكرة بعد أن أيقنوا أن فارس لم تعد تشكل أى خطر عليهم(٢) . كما أنهم فى نفس الوقت لم يحاولوا انكار المطالب الفارسية لأن ذلك كان يمنع غـير الفرس من التفكير فى الاعتداء عليهم(٣) . وأن المنطقة الأم من شبه الجزيرة المواجهة للبحرين . تعرف بالحساء أو باسم الجمع الاحساء . واذا شئنا الدقة فان هذا الاسـم

---

(١) مختارات من وثائق حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٦٨ « الملاحـة فى الخليج » بقلم بركس وقد استقيت هذه المعلومات من سمسار شركة الهند الشرقية فى البحرين ومن وزير آل خليفة .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩ « ملاحظات حول عمان » بقلم تايلور و ص٥٦٥ من « الملاحة فى الخليج » .

(٣) ان المصادر الرئيسية للمعلومات الخاصة بقطر والبحرين خـلاف تلك التى سبق الاشارة اليها هى التقرير الادارى « لمحة قصيرة عن العتوب العـرب » التى استقيت من بعض الأفراد اعـداد وليم بروس . بوشـهر فى ١٨١٦/١٠/٢٦ ومرفق بخطاب الريراد ميرال السير ريتشارد كنج القـائد العام للقوات البريطانية فى الهند الشرقية الى جى. دبليو كروكر (سكرتير الامبرالية) ورولاند ترنكومالى فى ١٨١٧/٣/٥ .

يطلق على الواحة العظيمة التى تمتد بضعة أميال الى الداخل ، وهى تمثل الميزة الجغرافية البارزة للمنطقة ، غير أنه فى العرف العام فالاسم يدل على الرقعة الساحلية والمنطقة الداخلية فيما بين قطر والكويت — انها أرض منبسطة وصحراوية تتناثر عليها التلال والأخاديد فى بعض المناطق مع وجود آبار كثيرة وبعض المراعى . وعدد من الواحات الواسعة التى تختص بها منطقتا الاحساء والقطيف . أما القطيف . وهى ميناء مشهور على الساحل فقد كانت منطقة غير معروفة فى أواخر القرن الثامن عشر ، اذ لم يكن بها سوى بضعة بيوت جميلة وبقايا أحد الحصون التى شيدها البرتغاليون ، وكان عدد سكانها نحو ٦٠٠٠ نسمة ، كما أن مقاطعة القطيف بما فيها ميناء السمات على بعد بضعة أميال على الساحل ، وكان يقدر عدد سكانها بثلاثة عشر ألف نسمة ، والهفوف هى البلدة الرئيسية فيها وتقع فى قلب الواحة . وهى لم تكن أكثر من معسكر بيوتها مبنية من الطين ، والخيش ، يحيط بها سور يرتفع الى ٥٠ قدما من الأرض ، ويبلغ عدد المقيمين قيمة نحو ١٣٫٠٠٠ نفس . كما توجد قرية تابعة لهذا المعسكر تسمى مبارز على بعد ¾ الميل ويسكنها نحو ١٠ آلاف نفس . أما بقية القرى فهى مبعثرة على امتداد الواحة . وكان عدد سكانها حسب تقدير ذلك الوقت ٥٠ ألف نسمة تقريبا . لقد كانت الاحساء فى وقت من الأوقات مقاطعة تابعة للامبراطورية العثمانية . غير أن ماتبقى من كل هذه الامبراطورية فى القرن الثامن عشر فى هذه المنطقة لم يزد عن بعض عائلات من أصل عثمانى . وكانت السلطة فى الاحساء بيد بنى خالد ، وهم احدى أكبر أربعة قبائل من قبائل المنطقة ، أما الباقون فهم بنو هاجر وآل عجمان وآل مرة ، وكلها قبائل بدوية . وكان بنو خالد يقيمون فى المنطقة الشمالية تقريبا وعجمان فى المنطقة الوسطى . بينما كان يقيم بنو هاجر وبنو مرة فى كل من الجنوب الشرقى والجنوب الغربى وكان شيخ مشايخ بنى خالد سنة ١٧٩٥ هو عربى بن سعدون بن الفوف ، وكان لأسلافه نفوذ هائل على منطقة تشمل الكويت وقطر والبحرين ، وفى السنوات الأخيرة من القرن بدأ نجم بنى خالد فى الأفول بظهور الوهابية فى نجد ، واكتساحهم لمناطق البحر الأحمر والخليج . وسوف يأتى الحديث عنهم باسهاب لاحقا . ولكن لابد هنا من القول أنهم سبق أن احتلوا

الاحساء عام ١٧٩٢ وكانوا على وشك أن يعودوا للاستيلاء عليها سنة ١٧٩٥ ، واخضاع بنى خالد على طول ساحل الاحساء وبالأخص ميناءا العقير والقطيف حيث تقيم أعداد كبيرة من المهاجرين العرب ، أغلبهم من البحارنة والهويلة.(١) كذلك اقام البحارنة فى واحة الاحساء وكانت معظم تجارة الاحساء فى أيديهم . وكان معظم صادراتهم من المنتجات الزراعية والرعوية والبلح (وهو أفضـل أنواع البلح فى الخليج) والعباءات وهى منسوجة من الصوف والحرير ، وهى من المصنوعات ، والجمال التى كان يرسل الآلاف منها الى سوريا والعـراق وكذلك اللؤلؤ الذى كان يستخرج من أحواض قريبة من رأس تنورة ، وكان يصدر للخارج كما كان يزرع الشعير والأرز والحنطة بكميات محدودة فى واحة الاحساء ، أما واردات الاحساء فكانت تتكون من البن والأطعمة والمنسوجات والمعادن وكان كل هذه المواد باستثناء البن يأتى بها التجار البحـرانيون من الهند(١) أما شمال الاحساء أى فى الزاوية الشمالية القريبة للخليج فتقع بلدة الكويت ، وميناؤها مركز حكم فرع أسرة الصباح التى تنتمى الى العرب العتوب وينحدر العتوب من قبيلة عنزة العربية ، وهى من كبرى قبائل العرب ، وذلك وفقا لرواية العتوب انفسهم . والعتوب قبيلة نزحت الى المنطقة من شمال أواسط جزيرة العرب ، ومن المحتمل أن يكونوا قد نزحوا الى الخليج فى أواخر القرن السابع عشر ، واستقروا بالقرب من شط العرب ، ربما فى منطقـة أم القصير حيث كانوا يعيشون على صيد الأسماك والقرصنة واغتصاب القوافل التى تعبر الصحراء فى طريقها الى الغرب ، كما أخذوا يهاجمون قوافل السفن فى شط العرب بعد بضعة أعوام من استقرارهم ، وبعد أن تمرسوا على أعمال بناء السفن والملاحة التى غدوا من أمهر صناعها فيما بعد ، ثم انتقلوا الى الكويت

---

(١) ص ٢٩٣ — ٢٩٤ تأليف ينبهور « التقرير الادارى السنوى للمقيم البريطانى فى الخليج » ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ومذكرات حول نجد « بقلم اللفتنانت كولونيل اى . س.روس ومذكرات رحلة الى الجزيرة العربية بقلم الكابتن جى. اف . سادلر بومباى ١٨٦٦ ص ٢٩ — ٥٣ أما عن المصادر التى استقى منهـا معلوماته . راجع ادناه ص ٥٠ ملاحظات رقم ١ وفى ذلك وصف لرحلة سادلر عبر الاحساء فى ١٨١٩ ورد بالفصل الرابع من الكتاب .

فى نحو عام ١٧١٦ . وتمتلك الكويت ، التى عرفها الأوربيون حتى القرن التاسع عشر باسم القرين(١) ميناء طبيعيا من افضل الموانى فى الخليج بالاضافة الى قربها من شط العرب ، كل ذلك مكن العتوب من الفوز على جميع منافسيهم على تجارة الخليج الأعلى . ويتركز السواد الأعظم من سكان الكويت فى بلدة الكويت الواقعة على الساحل الجنوبى من جزر الكويت والعنصر الحاكم فى الكويت هو آل صباح ، ليس بحكم عددهم وانما بحكم قدرتهم على الحكم وبحكم ثقافتهم العسكرية . وكان الحاكم فى أواخر القرن الثامن عشر هو الشيخ عبد الله الصباح . ويتألف سكان الكويت من قبائل بنى خالد والدواسر وعجمان وعنزة بالاضافة الى بعض البحارنة . أما المنطقةالداخلية من الكويت فكانيسكنها البدو من آل الرشيد والعوازم ، غير أن المنطقة كانت تستقبل بعض القادمين من القبائل العربية القاطنة أواسط وشرقى شبه الجزيرة ، وكان مجموع سكان الكويت فى نهاية القرن الثامن عشر نحو ١٠٫٠٠٠ نفس ، ولا يعرف على وجه التحديد كم كان عدد سكانها قبل عام ١٧٦٦ عندما نزحت فصيلة آل خليفة من العتوب الى قطر ، لتتبعها فيما بعد عناصر من الجلاهمة ، غير أن القادمين الى الكويت من شبه الجزيرة ومن بعض أجزاء الخليج فى السنوات التى أعقبت ذلك قد عوض الكويت عن النقص فى عدد السكان . وكانت تجارة الكويتكتجارة البحرين تقوم على أساس أنها منطقة حرة ، كما أن آل صباح كآل خليفة استفادوا من التدهور الذى ألم بتجارة البصرة وكانت الكويت تشرف على تجارة رابحة فى تهريب السلع الى المناطق التركية فى الشمال . وكان عدد كبير من التجار يرسلون بضائعهم الى بغداد وحلب عن طريق الكويت

---

(١) ربما اشتق الاسم من جزيرة القرين القريبة منها اى تصغير لكلمة قرن وهو شكل خور الكويتنفسه أما التسمية «الكويت فهىتصغير لكلمةكوت» « قلعة » أما كيفية اطلاق هذا الاسم عليها فيبدو لغزا الا اذا كان هناك صلة بين الاسم والشكل المنبسط للمنطقة المحيطة بها . ولأن الشكل شىء له اهمية فى ذلك الوقت حتى لو كان بيتا من الطين وعلى حد رأى ينبهور فان هذه القلعة بناها البرتغاليون فى الأصل .

ليتفادوا دفع الرسوم عليها فى البصرة . وكانت القافلة التجارية تقطع المسافة الى بغداد فى ثلاثين يوما والى حلب فى ثمانين يوما ، وخلال المراحل الأولى للرحلة فيكون آل صباح المسئولين عن حماية القافلة كما أن مجموعات كبيرة من الخيول الأصيلة من شمال الجزيرة العربية كانت ترسل الى الهند كل عام عن طريق الكويت . ولم تكن الواردات الى الكويت تختلف عنها فى الأقاليم الأخرى من الخليج مثل المنتجات الهندية كالأقمشة والأرز والسكر والخشب والتوابل والبن من اقاليم البحر الأحمروالفاكهة والحبوب من فارس والبلح من البصرة . اما صادرات الكويت فقد كانت اللآلىء التى كانت تستخرج من منطقة رأس تنورة . وكان لدى آل صباح عدد من السفن يتاجرون فيها الى الهند أو ينقلون فيها البضائع الى الخليج .

ومن المعروف انه كان لديهم فى العشرينات من القرن ١٥ سفينة من عابرات المحيط حمولاتها تتراوح من ١٠٠ — ٤٥٠ طنا وعشرين سفينة صغيرة حمولتها من ٥٠ الى ١٢٠ طنا . بالاضافة الى ١٥٠ سفينة أخرى تتراوح حمولتها من ١٥ الى ١٥٠ طنا .

ويحيط الغموض بعلاقة الكويت بالامبراطورية العثمانية ، فعندما كان الحكم التركى يمتد الى مشارف الساحل الشرقى للجزيرة العربية . لم تكن الكويت قد وجدت بعد . وهى لم تنشأ الا بعد ان زالت السيطرة التركية الفعلية من المنطقة ، غير ان السلطان العثمانى ، أو على الأقل ممثله فى بغداد كان يصر على اعتبار الكويت منطقة تابعة له . ولما كان الأتراك لا قبل لهم بفرض مطالبهم فرضا ، فقد كان موقف آل صباح منهم كموقف آل خليفة من المطالب الفارسية فى البحرين : اى بتجاهل هذه المطالب تارة ورفضها كليا تارة أخرى ، أو بالسكوت عليه اذا تربص بهم خطر من جهة أخرى ، الا انه من الواضح ان الكويت لم تكن تعتبر داخلة ضمن السيادة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، لأن ممثلى شركة الهند الشرقية اثر خلاف وقع بينهم وبين السلطات التركية فى البصرة انسحبوا الى الكويت حيث بقوا هناك لمدة عامين غير ان التهديد الوهابى فى الأعوام القليلة التى أعقبت ذلك قد غير من نظرة آل صباح الى حد ما بحيث اضطروا الى الاعتراف بالسيادة العثمانية

عليهم ، وذلك فى العشرينات من القرن الثـامن عشر ، وكانوا يدفعـون زكاة محدودة لحكام بغداد(١) كل عام . فى قاعدة الخليج على دلتا نهرى دجلة والفرات تقع أقصى القواعد الشرقية للامبراطوية العثمانية ونعنى بها ولاية البصرة ، أما البصرة وهى المركز الادارى للولاية التركية تقع على بعد ستين ميلا من البحر على شط العرب وهو ممر مائى دولى يمتد الى مسافة تربو على المائة ميل من ملتقى نهرى دجلة والفرات من القرنة الى مصبه فى البحر . وعلى امتداد الجزء الأكبر منه فان شط العرب يجرى من خلال مجراه الذى تكون عبر القرون من الطين والطمى اللذين يجلبهما تيار هذين النهرين والى الأسفل من البصرة ينضم الى شط العرب نهر قارون الذى ينبع من جبال غربى فارس ومنطقة الدلتـا منبسطة وخصبة وتنتشر على جانبيها أحراش من أشجار النخيل وتتخللهـا اعداد كثيرة من الخلجان والأنهار الصغيرة التى تشق طريقها الى شط العرب والى الغـرب من الدلتـا تصـبح التربة جافة ، وتمتـد الى سوريا وشـبه الجزيرة العربية ، والى الشرق منها يقع سهل عربستان أو خورستان ويحـده من الغرب مياه الخليج ، ومن الشمال والشرق جبال فارس ، ويتخـلله من الشمال الى الجنوب نهر قارون وفروعه . كان العراق التركى او شبه الجزيرة العربية التركية كما كان يسميها البريطانيون فى أواخر القرن الثامن عشر ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية ، وكانت البصرة تابعة فى ادارتهـا لبغـداد عاصمة الولاية ، ومنذ أواسط القرن الثامن عشر كان يحكم بغداد مجموعة من باشوات المماليك وقد أطلق عليهم هذا الاسم لكونهم عبيدا جىء بهم من جورجيا أو أنهم من سلالة أولئك العبيد .

ولمـا كان هؤلاء العبيد قد وصلوا الى أعلى المراكز اما بحكم كفاءاتهم أوعن

---

(١) مختارات من وثائق حكومة بومباى ، مجلد ٢٤ ، ص ٥٧٥ — ٥٧٦ « الملاحـة فى الخليـج » بقـلم بركس ، وفارس والخليـج جـزء (٢) من مانستى وجونز الى الحاكم العام . بومبـاى فى ١٨/١٢/١٧٩٠ وكتاب ينبهور ص ٢٩ وجريدة الخليج الرسمية .

طريق التآمر أو بفضل أسيادهم فقد استطاعوا فى النهاية لا أن يحصلوا على حريتهم فحسب بل أن يستولوا على السلطة فى الولاية حتى ان السلطان العثمانى قد عجز عن وقفهم عند حدهم ، بل واضطر الى الموافقة على تعيين ولاة وقادة عسكريين منهم فى بغداد ، وأن يقبل منهم اى زكاة يدفعونها لحكام القسطنطينية . وفى نهاية القرن الثامن عشر كان الحاكم المملوكى لبغداد هو سليمان باشا ، وكان من أعظم الحكام المماليك وأطولهم حكما ، وقد تولى الحكم عام ١٧٨٠ وكان عمره اذ ذاك ستين عاما وقبل ذلك كان متصرفا أو حاكما على البصرة حيث أظهر مقدرة فائقة فى الدفاع عن البلاد ضد هجمات الفرس ، وعلى أية حال فقد تدهور وضعه بعد ذلك على الرغم من أنه ظل مهيبا من جانب البلاد التى كان يحكمها . وفى ظل الأتراك فقدت بغداد كثيرا مما كانت تتمتع به من عظمة وبهاء على أيام الخلفاء العباسيين ، ونظرا لموقعها بين ملتقى طريق تجارى هام بين سوريا والبصرة وفارس فقد ظلت تزدهر تجاريا غير أن البلدة التى كانت تقع على الجانب الشمالى من نهر دجلة لم تكن تتمتع بأى ميزة . فقد كانت بيوتها مبنية من الطوب منسقة وأزقتها كثيرة الضوضاء ، وكان أهم مبنى فى البلدة هو قصر الحاكم (السراى) وكان به عدد كبير من المساجد التى لم يكن فى هندستها أى شىء من الجاذبية . وكان يحيط بها سور عظيم البناء يقوم على أعمدة داخلية تسندها دعامات كثيرة . وعلى المداخل الأربعة للسور قلاع محصنة تضم عددا من المدافع . وعلى جانب النهر لم تكن بغداد تحتفظ بأى نوع من وسائل الحماية ، غير أنه كان فى الامكان اخفاء المراكب التى كانت تعمل فى هذا النهر وقت الخطر .

ويقدر الرحالة الفرنسى غليوم أوليفر الذى زار هذه المنطقة خلال عام ١٧٩٦ — ١٧٩٧ عدد سكانها بثمانين ألف نسمة منهم خمسون ألفا من العرب . وخمسة وعشرون الفا من الأتراك وما بقى منهم يهود وكلدانيون وأرمنيون ، وقيل له بأن العدد قد ارتفع خلال حكم سليمان الى ١٣٠,٠٠٠ أو ٤٠,٠٠٠ ، وكانت حامية بغداد تضم ٨٠٠٠ عسكرى بالاضافة الى ٦٠٠٠ من حرس الباشا الخاص بينهم راكبو الخيل والمشاه . كما كان هناك نحو ٧٠٠٠ عسكرى موزعين على المنطقة كلها . غير أن هذه القوة لم تكن تتحرك الا بأمر من الحاكم فى القسطنطينية . وكان عدد الخيالة الأتراك النظاميين فى الولاية نحو ١٢٠٠ غير انه كان فى الامكان تعبئة مايقرب من ١٢ الفا الى ١٥ الف خيال من قبائل الأكراد الى جانب مايقرب من ١٠

آلاف الى ١٢ الفا من الخيالة العرب بمعنى أن الباشا سليمان كان فى امكانه أن يدفع الى الميدان بأربعين الى خمسين ألف رجل ، وكان دخل البلدة يأتى من الرسوم الجمركية ومن الضرائب التى كانت مفروضة على القبائل والواردات التى تصل باسم الأقليات غير الاسلامية . وكان المبلغ الذى ينقل الى القسطنطينية من هذه الدخول لا يزيد على ثمن المبلغ الاجمالى ، بينما يتفق الباقى داخل الولاية. وكان مجمل الدخل فى عام ١٧٩٦ — ١٧٩٧ على حد تقدير أوليفر ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ فرنك أى مايعادل — (٠٠٠ر٢٠٠ج س) غير أن تقديرا آخر وضعه المقيم البريطانى فى بغداد عام ١٧٩٨ يشير الى أنه كان فى حدود مليون ج. س. يذهب منه أقل من مائة الف الى القسطنطينية ، وقد قدره القنصل الفرنسى فى نفس الفترة بـ ٧½ مليون قرش تركى ، أى مايعادل ٠٠٠ر٦٠٠ الى ٠٠٠ر٩٠٠ ج س وفقا لقيمة العملة التركية فى ذلك الوقت .

ولم يكن الباشوات يتقاضون أى ضرائب من أغنى مدينتين من مدن الولاية، وهما النجف وكربلاء ، فالنجف وفيها ضريح الامام على تقع على بعد مائة ميل جنوب بغداد على الضفة اليمنى من الفرات . أما كربلاء حيث ضريح الامام الحسين بن على فهى على بعد خمسين ميلا من الجهة الشمالية من النجف ، وبنفس المسافة عن بغداد . وهما مدينتان مقدستان لدى الشيعة من المسلمين، واليها يحج الآلاف منهم كل عام فى اشهر رجب ورمضان ومحرم ، على أن العدد الأكبر من هؤلاء الحجاج هم الذين كانوا يأتون اليهما من فارس ، ولهم بها مستعمرات كما أن نسبة ملحوظة من سكان العراق من الشيعة . وثروة هاتين البلدتين متجمعة من الهبات التى كان يفرضها علماء الشيعة على حجاج المنطقة ، وربما كان أهم مظاهر هذه الثروة هو الكسوة الذهبية التى تحيط بقية ضريح الامام على التى قدمها الامبراطور نادر شاه ، ويقال بأن القبة قد رصعت بالتومان الذهبى (وهى العملة الايرانية) بمعدل تومان واحد فوق كل ٨ بوصات مربعة ، وتعتبر النذور المصدر الذى يعتمد عليه حراس الضريح لتغطية نفقات الاشراف ، وهؤلاء هم العلماء الذين يسمونهم بالمجتهدين وهم طائفة دينية تتمتع بنفوذ واسع فى كلتا البلدتين . وقد أثرى تجار النجف وكربلاء ثراء فاحشا مما

كانت تدره تجارة الحج عليهم من ارباح ، وكان الضجيج المنبعث من أسواق البلدتين يطغى على نواح الحجاج الذين يفترشون الأرض بالقرب من أسوار الضريح . وربما كان أكثر مصدر للدخل هو الوصايا التى يتركها المتطرفون من الشيعة ، ويوصون فيها بأن يدفنوا بجوار هذه الأضرحة . ومن المشاهد العادية أن ترى طوابير من العربات التى تحمل جثث الموتى عند مداخل هاتين المدينتين تنتظر دورها فى الدفن ، وهى تجارة كانت تدر مالا على المشرفين من وراء بيع الأضرحة ومن عمليات الاشراف عليها . أما الكاظمية وهى ثالث المدن المقدسة فى العراق حيث ضريح الامام موسى ، فالاقبال عليها أقل من الاقبال على النجف وكربلاء ، كما انها أقرب الى سلطة حكم الباشوات لأنها تقع على نهر دجلة مباشرة من العاصمة ، وكان على الباشا أن يكون حذرا فى تصرفاته حتى فى هذه المنطقة حتى لا يثير المتطرفين من الشيعة .

أما البصرة على بعد ٣٠٠ ميل الى الجنوب الشرقى من بغداد فقد كانت خاضعة من الوجهة الرسمية للباشا . غير أن درجة هذا النفوذ كانت تعتمد الى حد كبير على ولاء المسئول الذى يعينه الباشا ، كما كان يعتمد أيضا على علاقة الباشا بالاتحادين القبليين الرئيسيين اللذين يقطنان الناحية الشرقية والغربية من البصرة ، ونعنى بهما قبائل كعب والمنفك ، وكان كل من السلطان العثمانى وشاه فارس يدعى السيادة على قبائل كعب وعلى الأراضى التى يقيمون فيها فى الطرف الشمالى من شط العرب . وغير أن القبائل نفسها لم تكن تعترف بسلطة أى منهما عليها . وعشيرة المنفك وهى قبيلة بدوية كبيرة كانت قليلة الولاء للسلطان كما أن الجزء الأكبر من العراق يخضع لسلطتهم فعلى الشرق يمتد سلطانهم حتى الضفة الشرقية من شط العرب ، بينما يسيطرون من الطرف الشمالى على المنطقة الواقعة على نهر الفرات من القرنة حتى الناصرية أما فى الجنوب والغرب فان حدود سلطاتهم أكثر من أن تحدد .

ولم تكن البصرة فى القرن الثامن عشر أكثر من بقايا باهتة لعصر السندباد ، فلقد وصفها كارستون ينبهور فى عام ١٧٦٥ بأنها كانت أقذر بلدة شاهدها فى الشرق ، وكان عدد سكانها على حد تقديره لا يزيد عن ٥٠٫٠٠٠ نسمة تقريبا يتألفون من عرب الدلتا والصحراء وبعض الفرس والأرمن والهنود . غير أنه على الرغم من مظهرها السيىء فقد كانت البصرة كما

وصفها أحد الرحالة « سوقا هامــة » لمنتجات الهند وفارس والقسطنطينية وحلب ودمشق ، وبايجاز كانت المستودع الأكبر لمنتجات الشرق(١) .

فالقوافل القادمة من الشــام كانت تحمــل مسكوكات الذهب والفضــة والنحاس وشيلان الصوف ومنسوجــات حلب ، الحرير والســاتان وخيوط الذهب والفضة والمجوهرات والأوانى الزجاجية والتبغ ودود القز من فينسيا وماء الورد والتوابل والفواكه المجففة والنحاس والأفيون وغيره من العقاقير من فارس . ومن مسقط كانت تستواد العبيــد والعــاج الأفريقى ، ومن الهنــد المنسوجات القطنية والشالات والسكر والأرز والحديد والقصدير والرصاص والتيل . وكانت السلع التى ترد اليها من الشام يعـــاد تصديرها الى فارس والجزيرة العربية ومسقط والهند ، بينما كانت المنتجاتالتى تصل الىالخليجمن تلك الأقطار تجد طريقها الى بغداد وحلب . وكانت المنسوجات الهندية تشحن بكميات كبيرة من بغداد الى سمرتا والقسطنطينية فى كل عام الى جانب المنتجات الأخرى كالأدوية التى كانت أيضا تجد طريقا فى النهاية الى انجلترا ومارســيليا والبندقية وليجورن وأمستردام عبر الاسكندرية وساحل الشام. وكان الأسطول العمانى هو الذى كان ينقل فى شهر سبتمبر من كل عام شحنات البن ويعــود محملا بمحاصيل البلح العراقى الذى كان يصل مجموع قيمته نحــو مائة ألف جنيه استرلينى ، وكانت مبالغ كبيرة من النقود تحول الى الهند كما راجتتجارة الخيول التى كانت تصدر من العراق رغم القيود التى كان يفرضها الباب العالى على تصديرها .

وكانت الرسوم الجمـــركية المفروضة على الســـلع فى البصرة ٣٪ على الأوربيين وفقــا لمــا كان ينص عليـــه قانون الامتيـــازات الأجنبيـــة ، أما العرب والأرمن والفرس واليهود والهنود فقد كانوا يدفعون ٧½٪ وكانت الضرائب الجمركية تشكل مصدرا هاما من مصادر الدخل لباشوات بغداد سيما وانها كانت تحصل على دفعتين ، أولا عند وصولها الى البصرة ، ثم بعد

---

(١) رحلة الى آسيا ص ١٥٤ تأليف بارسونز .

دخولها الى بغداد أو اعادة تصديرها منها للبصرة ، ثم الى حلب ، وكان التجار الأوربيون والهنود يدفعون ضرائب تصدير على السلع التى كانوا يصدرونها من العراق على أساس ٣٪ و ٥½٪ لكل منهما . على أن الحد الأدنى لهذه الضرائب لم يكن يبدو مجزيا للتجار الأوربيين لأن ضريبة ٣٪ كانت تقدرعلى أساس سعر البيع الفعلى للسلع التى يتاجرون فيها . بينما تقدر ضريبة ٧½٪ المفروضة على التجار المحليين على أساس تعريفة مدونة فى أحد السجلات ، وكان يتم تقديرها على أسس تعسفية بحيث لا تمثل السعر الحقيقى للسلعة المذكورة . وكان ازدواج الضريبة يشكل عبئا على التجار ، مما دفع بأكثرهم الى ممارسة تهريب السلع عن طريق الكويت أو انزالها فى مناطق من شط العرب ، ومنها تنقل الى الزبير جنوب غرب البصرة ، ثم من الزبير تقوم بنقلها القوافل الى حلب. ولا يمكن تكوين فكرة وافية عن مجموع قيمة تجارة البصرة أو اجمالى دخلها من الرسوم الجمركية من واقع الأرقام والمعلومات الضئيلة لتلك الفترة، فبينما يذكر ابراهام بارسونز أن قيمة محاصيل البصرة من البلح عن عام ١٧٧٤ هى ١٠٠ر٠٠٠ — تومان أى مايعادل (١٨٧ر٥٠٠ جس) فان الرقم الاجمالى لقيمة صادرات البصرة كما أعلنها ممثلو شركة الهند الشرقية فى المنطقة عام ١٧٩٠ هى مليون روبية هندية ، وكانت تستورد سلعا من الهند بما قيمته ثلاثة ملايين روبية هندية كل عام ، غير أن جى . اس . بكنجهام ذكر بعد بضع سنوات على ذلك ان ميزان المدفوعات للبصرة فى عام ١٨٠٥ كان فى صالح الهند بما قيمته (٥٠٠ر٠٠٠ جس) سنويا .

ويعود التدهور فى تجارة البصرة الى حد كبير الى انتشار مرض الطاعون الذى اكتسح البلدة فى عام ١٧٧٣(١) بالاضافة الى احتلال القوات الفارسية للمدينة بعد حصار امتد من عام ١٧٧٦ حتى عام ١٧٧٩ . ومنذ ذلك الوقت

(١) يقول ابراهام بارسونز الذى زار الميناء فى عام ١٧٧٤ أن ٢٥٠ر٠٠٠ شخص قضوا نحبهم من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة غير ان هذا الرقم مبالغ فيه .

بدأت البصرة تفقد اهميتها كمركز تجارى وتحول ذلك النشاط التجارى الى البحرين ومسقط ومما ساعدهما على ذلك وجود امكانيات ملاحية متفوقة .

ولم يكن فى عراق الأتراك بأسره شيء من الامكانيات البحرية سوى السفينة كاتث باشه التى كانت موجودة فى البصرة وكانت مهمتها حراسة شواطىء الولاية والمحافظة على الأمن على طول النهرين من شط العرب حتى الحلة ، وكانت السفن التى تدخل شط العرب تدفع ضريبة معينة للتمتع بتلك الحماية، ولما لم تكن هناك قوة بحرية تحت التصرف فقد عجز المسئولون عن وضع حد لأعمال القرصنة التى كان يقوم بها عرب بنى كعب وقبائل الصحراء ضد السفن التجارية .

وبالمثل لم يكن باشا بغداد فى وضع يسمح له بممارسة ضغط سياسى على الخليج لأن نفوذ الامبراطورية العثمانية كان دائما تحت رحمة الملاحين العرب رغم امكانياتهم(١) المتواضعة . والى الشرق من شط العرب تمتد مملكة عرب بنى كعب ، وهم من الاتحادات القبلية القوية التى لا تعترف بأى سلطة للعثمانيين أو الفرس عليهم .

---

(١) هذا القسم من المعلومات يعتمد فى الأساس على المصادر التالية : الوثائق الرسمية لحكومة بومباى : أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج ١٦٠٠ — ١٨٠٠ الخطابات السرية لبومباى جزء ٢٤ (حلقة ١) حول اتصال تجربة شركة الهند الشرقية مع تركيا العربية ١٦٤٦ — ١٨٤٦ وفارس والخليج مجلد ٢١ تقرير مانستى وجونز ١٧٩٠/١٢/١٨ « رحلة الى آسيا » بقلم بارسونز ص ١٥٤ — ١٦١ ورحلة الى الجزيرة العربية فصل ٢ ص ١٧٢ — ١٩٣ ، ٢٠٩ — ٢٢٠ « رحلة داخل الامبراطورية العثمانية » ٦ مجلدات باريس ١٨٠١ — ١٨٠٧ فصل ١٢ ، ١٣ تأليف : جان بابتش روسو طبعة باريس ١٨٠٩ ص ٤ — ١٢٤ « ورحلة من الهند الى انجلترا فى سنة ١٧٩٧ » طبعة لندن ١٧٩٩ ص ١٥ — ٤٣ ، ٩٠ — ١٠٤ « ورحلة الى أشوريا » فصل ٢ ص ١٦٩ — ١٨٦ « تأليف باكنجهام واربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » طبعة اكسفورد ١٩٢٥ ص ١٨٧ — ٢٥٦ تأليف اس . أج لونجرج .

ان حدود كل من الأراضى الفارسية والعثمانية لم تكن واضحة المعالم وكانت كلتا الحكومتين تدعى السيادة على الجزء الشرقى من دلتا شط العرب أما المنطقة الواقعة بين دلتا النهر وسلسلة الجبال الفارسية الوسطى فانها تشكل جزءا من مقاطعة خوزستان الفارسية أو عربستان وهى مقاطعة تمتد من الجنوب الى شواطىء الخليج ومن الشمال الى أقصى أطراف نهر قارون . وعلى كل فان السلطة الفارسية على هذه المنطقة لم تكن أكثر من سلطة اسمية. وتتألف المنطقة الجنوبية من خوزستان فى معظمها من سهول طموية أغلبها صحراوية فيما عدا بعض المناطق الكثيرة الخصوبة حيث تنمو الحنطة والشعير. وأهم مافيها هو نهر قارون الذى يرتفع كثيرا عن سطح البحر عند جبال بختيارى لينساب فيها جنوبا وغربا الى شط العرب .

أما خوزستان الغربية الواقعة الى ماوراء الهويزة فهى منطقة تكثر فيها المستنقعات التى تمتد حتى ضفاف نهر دجلة ، وعلى امتداد الأطراف السفلى لنهر قارون وعلى الضفة الشرقية لشط العرب ، تكسو المنطقة غابات من اشجار النخيل . أما بالقرب من شط العرب فان التربة منبسطة ومالحة . وقد هاجر عرب بنى كعب الى هذه المنطقة خلال القرن السابع عشر ، أما أسباب هجرتهم واصل موطنهم فغير معروف ، غير أن ثمة أدلة على أنهم كانوا خاضعين سابقا للسيادة العثمانية ، وبانتصاف القرن الثامن عشر استكملوا سيطرتهم على معظم البلاد المتدة من شط العرب الى الأهواز على نهر قارون نزولا الى ساحل الخليج . وفى هذه الفترة بدأوا يلتفتون ناحية البحر حيث استولوا بعد ذلك بزمن قصير على معظم الجزر الواقعة على شط العرب وبنوا من السفن مايمكنهم من فرض سلطانهم على الممرات المائية . غير أن نجاحاتهم هذه أثارت حفيظة حاكم زند جنوب فارس السلطان كريم خان الذى سير حملتين ضدهم فى عام ١٧٥٧ ثم فى عام ١٧٥٦ بغرض اخضاع المنطقة الجنوبية من خوزستان لنفوذه . ولقد سقط فى الحملة الثانية أهم مركزين من مراكز تجمع بنى كعب هما قبعان والدراق مما أرغم الشيخ سليمان رئيس عشائر بنى كعب الى نقل عاصمته شمالا الى الفلاحية . كذلك قام الأتراك بمحاولات لاخضاع بنى كعب بغرض وضع حد لغاراتهم على مواصلات التجارة البحرية من جهة وحرمانهم

من حقوق السيادة على القبائل من جهة أخرى ، وتمخضت هذه الحملات عن قيام نوع من الوفاق بينهم وبين الفرس ، لدرجــة أنهــم قدموا مساعدات من السفن والجند للقوات الفارسية خلال حصارها للبصرة فى عام ١٧٧٥ — ١٧٧٦ الا أنه قبل مرور وقت طويل عاد بنو كعب الى مواقعهم فى المنطقة الفاصلة بين الدولتين .

وقد كانت مطالبة تركيا وفارس بالسيادة على أقاليم بنى كعب تقوم على أساس اتفاقية عام ١٦٣٩ بين السلطان العثمانى وشاه صفوى والتى بمقتضاها ألحقت منطقة خوزستان لفارس والعراق العربى لتركيا. وقد حددت خوزستان على الخريطة بالمنطقة الممتدة على نهر قارون والتى تعتمد فى ريها عليه بينما حدد العراق العربى بالأراضى التى تضم المنطقة التى تعتمد على نهرى دجلة والفرات. وعلى اى حال فابتداء من عام ١٦٣٩ تغير مسار هــذه الأنهار بشكل ملحوظ فى بعض المناطق . ومن الواضح فان الضفة الشمالية لشط العرب قــد اعتبرت أرضا تركية فكانت بالتالى تخضع للواء البصرة بينما لا نعرف شيئا عن الأراضى الواقعة وراء تلك المنطقة مباشرة ، وحتى وضع الضفة الشمالية من شط العرب كان يسودها الغموض بعد انشاء مدينة المحمرة كعاصمة لبنى كعب بعد ســنة ١٨١٢ ، وقد قدر لمدينة المحمرة أن تتحول فى السنوات التى أعقبت ذلك الى منطقة خلاف بين الحكومتين التركية والفارسية وكانت الحكومة التركية تدعى بحقوق السيادة على بنى كعب والمناطق التى يقيمون فيها على أساس أن هذه القبائل سبق أن خضعت لحــكم الأتراك وعلى أساس اعترافهــم بالســيادة العثمانية عليهم .

أما الفرس فينطلقون فى دعواهم بحجة أن بنى كعب كانوا يستوطنون منذ زمن طويل المنطقة التى تعتبر حدودها الشرقية أرضا فارسية بلا نزاع . كما يستندون الى ماكان يدفعه بنو كعب من زكاة لكريم خان ، ثم الى القاجار كتعبير عن خضوعهم للسيادة الفارسية ، غير أن تلك الزكاة لم تكن من ايجار سنوى يدفعه بنو كعب مقابل الجزء الفارسى من المنطقة التى يقيمون فيها . ولمــا لم يكن أى من الدولتين فى وضع يسمح لها فى ذلك الوقت باثبات سيادتها ظل بنو

كعب محتفظين باستقلالهم عن السلطتين العثمانية والفارسية(١) .

ويقع مجمل الساحل الشرقى للخليج تحت السيطرة الفارسية ، فعلى امتداد شواطئه ابتداء من مدخل الخليج حتى المحيط الهندى تطل سلاسل من الجبال على ساحل البحر ، والى الشمال من بوشهر يوجد سهل ساحلى يتراوح عرضه من ١٥ الى ٢٠ من الشمال ومن ٤٠ ميلا فأكثر من الجنوب . وتكسو الحشائش والأعشاب الجزء الأكبر مع وجود مناطق قابلة للزراعة فى بعض أجزائه كما أن هناك امتدادات صخرية تشقه فى بعض الأجزاء وبعض الترع التى تشق طريقها من المنحدرات الجبلية ، ويوصل القسم الجنوبى من السهل أحد الأنهار الهامة ، ويعرف باسم روض الحلة أوداشيستان الفارسية. وتزداد سلسلة الجبال الساحلية التى تطل على السهل ارتفاعا من الشمال الى الجنوب بحيث تصل فى بعض أجزائها الى ٦٠٠٠ قدم وراء مدينة بوشهر . والى الوراء من هذه السلسلة تطل كتلة الجبال الفارسية الوسطى ، ويتابع السهل الساحلى امتداده جنوب بوشهر عبرمقاطعة تنجستان وداشتى بحيث لايتجاوز عرضه بأى حال من الأحوال عن ٢٥ ميلا ، وتعترضه فى طريقه الى البحر سلسلتان من المرتفعات وعند كنجون تقترب سلسلة الجبال من البحر حيث تمتد بمحاذاة الشاطىء الى مسافة تصل الى ٢٠٠ ميل وقد يصل ارتفاعها فى بعض المناطق الى ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وعند لنجة حيث يغير الخط الساحلى اتجاهه من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى تتراجع سلسلة الجبال عن الشاطىء ، وتنحرف فى اتجاه الشرق لتكون جزءا من الكتلة الجبلية المعروفة باسم لارستان ، والى الخلف من لنجة وعلى امتداد الساحل الشمالى الى الشمال الشرقى توجد مستنقعات كثيفة . أما فى ميناء خامر فان السهل الساحلى يتسع الى نحو ٢٠ ميلا تقريبا حتى بندر عباس وابتداء منها يمتد عرضه لحد ٤٠ ميلا أو اكثر تقريبا الى أن يبدأ فى التقلص عند الجنوب بحيث يقل عرضه الى نحو ١٠ أميال عند خليج عمان . اما ارتفاع السلسلة الجبلية

---

(١) عن العلاقة العربية التركية (١٨٠ — ١٩٠٥) ملحق الف « ومذكرات حول عرب الشعب » واج. س. رولسنون يونيو ١٨٤٤ وكتاب ينبهور ص ٢٧٦ « ورحلة خمسين شهر أعبر ممرات خوزستان وفارس غير المطروقة » مجلدان طبعة لندن ١٨٣٤ — ص ٧٢ — ٩١ .

فى الشرق فلايزيد عن ١٠٠٠ قدم عند مدخل الخليج وتنتشر الخصوبة فىالوادى فى المنطقة المحيطة ببيناب فيما عدا بعض مستنقعات الملح على حافة البحر . أما رقعة الأرض المعروفة باسم بيابان والتى تقع بين بيناب ومكران الفارسية فانها منطقة رملية طينية لا تصلح لغير رعى الأغنام والنعاج ، وكانت حدود السيادة الفارسية فى المنطقة الجنوبية من الأمبراطورية فى تلك الفترة من التاريخ حدودا غامضة ، ويصل اقصى حدودها الفعلية على ساحل مكران الى مملكة خان كلات والمناطق التى استولى عليها سلطان مسقط .

كما أن جميع الجزر الواقعة على الساحل الايرانى من خاركو وخـراك شمالا الى هرمز ولاراك جنوبا تعتبر أراضى فارسية رغم أن كثيرا منهـا تحت سيطرة القبائل العربية ، فلقد كان العرب يسيطرون على أغلب موانى الساحل، وكانوا يعتمدون فى معيشتهم على صيد السمك واستخراج اللؤلؤ والتجـارة وزراعة النخيل والحبوب . وكان كل ميناء يخضع لسلطة أحد المشايخ الذى يتم انتخابه من جانب القبيلة التى تعتبر مسئولة عن حمايته ، وبعض هـــذه القبائل كقواسم لنجة كانت تربطهم علاقة نسب مباشرة مع قبائل الســاحل المواجه كما أن معظمهم سنيون ومعادون بشدة للشيعة الفرس . وكان كلمـا حاول الفرس اخضاعهم لسلطتهم انسحبوا فى مراكبهم الى بعض الجزر المطلة على الساحل حيث يبقون هناك ريثما تسمح الظروف بعودتهم الى المناطق التى جلوا عنها . ولقد شبه المؤرخ ينبهور وضعهم بوضع المدن الاغريقية الحاكمة ، ولم يكن ينقصهم غير شعراء ومؤرخين ليمجدوا أعمال السـلب والنهب التى كانوا يمارسونها . حتى ان فاتحا جبارا كنادر شاه لم يفلح فى اخضاع الساحل العربى ، رغم الأسطول الذى انشأه لتحقيق ذلك الهدف . وفى أواخر أيامحكمه صمم على تهجير سكان الساحل الى شواطىء بحر قزوين واستبدالهم بقبائل من تلك المنطقة غير أن هذا المشروع لم ير النور بسبب وفاة الأمبراطور ، ولقد حاول كريم خان مؤسس دولة الزند وأبرز حكام الفرس والمنطقة الجنوبية من فارس منذ عام ١٧٦٥ حتى عام ١٧٩٥ وضع حد للاسـتقلال الذاتى للأقاليم العربية . وعلى الرغم من نجاحه فى اخضاع بعض المقاطعات بما فيها بندر عباس

وبوشهر لبعض الوقت الا أن نجاحه هذا لم يستمر لعدم وجود أسطول بحرى قوى يعزز تلك المحاولات . وعند وفاته فى عام ١٧٧٩ انتفضت القبائل الساحلية على حكم شيراز وظلوا خلال العشرين عاما التى أعقبت ذلك يرفضون الاعتراف بسلطة اى حاكم عليهم فيما عدا شيوخهم القبليين .

خلال هذه الفترة تعرضت المناطق الداخلية من ايران(١) لصراع مرير على السلطة كاد يمزقها بين أسرتى زندو وقاجار سكان مازندان الشمالية .

وكان القاجار قبيلة تركية استوطنت ايران منذ زمن بعيد . ولكن الشاه عباس الأول الذى أقلقه تصاعد قوتهم تمكن من بعثرتهم فى مناطق مرو وكاراباغ وجورجان ، الا انهم فى أوائل القرن الثامن عشر عادوا فتوحدوا تحت زعامة فرع جورجان القبلى . ولما كان القاجار من مؤيدى أسرة صفوى فقد عانوا كثيرا من المتاعب عندما أطاح نادر قولى خان (الذى عرف بنادر شاه فيما بعد) بحكم أسرة صفوى ، كما أنهم عانوا متاعب أشد فى ظل حكم أسرة زند . ولقد بلغ العداء الذى استمر بين القاجار ونادر شاه وكريم شاه حدا دفع بزعيم للقاجار أغا محمد خان الى أن يقسم بأنه لن يألو جهدا حتى يقضى على كل من بقى من اتباع الحاكمين المذكورين . وعندما بلغ الخامسة أو السادسة من عمره أجريت له عملية خصى بأمر من عادل شاه ابن اخى وخليفة نادرشاه . وفى عام ١٧٥٨ قام أحد زعماء القاجار بذبحه بالتواطؤ مع كريم خان ، كما أنه سجن لعدة سنوات فى بلاط حاكم زند . وعندما تمكن فى النهاية من الافلات من السجن بذل محاولات لاستعادة النفوذ الذى كان لوالده على جماعة القاجار ، وظل يتابع طموحه هذا باصرار عنيد وعزيمة لا تكل . الأمر الذى يعكس طبيعته الهوجاء والتأثيرات السلبية

---

(١) تاريخ فارس جزء ٢ طبعة لندن سنة ١٨١٥ فصل ٢ مستقاة من كتاب « اغا محمد ونشوء قاجار بقلم ص . ار . جى . هامبلى فى مجلة الجمعية الجغرافية لآسيا الوسطى مجلد ١ جزء ٢ ص ١٧١ . ان أخلاقيات أغا محمد لتبدو منفرة أكثر من اى فاتح تحكم فى مسار تاريخ آسيا الوسطى حتى بداية القرن التاسع عشر بالرغم من الانجازات الايجابية التى حققها .

التى تركتها فى نفسه أخطاؤه السابقة ، على حد رأى السير جون مالكولم . غير أن أغا محمد لم يوقر حتى اخوته فى عمليات تصفية منافسيه على السلطة أو الخلافة التى كان يريدها لابن أخيه بابا خان أحد ابنى أخيه الوحيد من الأم .

ولا يقل عدد الحكام الزند الذين تعاقبوا على الحكم فى شيراز عن سبعة حكام خلال العقد الأول بعد وفاة كريم خان . ولعل الصراع على الخلافة بين أفراد هذه الأسرة الى جانب أحقاد أغا محمد خان هى التى تشكل الأسباب التى أسهمت فى سقوط حكم هذه الأسرة . فعندما تولى آخر حكامهم لطف على خان عام ١٧٨٩ لم يكن قد بقى تحت حكم هذه الأسرة من المقاطعات سوى شيراز وبهبهان وشستار . أما يزدو وكروان وبوشهر فكان ولاؤها لا يظهر حتى يختفى مرة أخرى . ولقد خاض لطف على خان الصراع عدة سنوات دون جدوى لوقف تقدم القاجار من الشمال ولكن على الرغم من شجاعته فقد كانت له عيوب خطيرة ، كان على حد وصف أحد الكتاب المعاصرين قاسيا ومتغطرسا فى سلوكه(١) وكان يرفض أى تفاهم مع خصومه وقد ضاعت منه شيراز فى صيف عام ١٧٩١ بعد مؤامرة دبرها وزيره الذى استولى على المدينة وسلمها لأغا محمد خان فى السنة التالية ، ومنذ ذلك التاريخ لم يكن لطف على خان أكثر من ظل فى بلاده . وجاءت نهايته فى سنة ١٧٩٥ عندما غرر به الحاكم القاجارى الذى أمر بتعذيبه وأوقعه فى يده وقام بفقء عينيه وخصيتيه ثم قتله ، وقد صنع من جمجمته وجماجم رفاقه وجثثهم أهرامات فى المكان الذى أعدم فيه بمنطقة باثام . وعلى أى حال فان حقد أغا محمد خان على خصومه لم يكن يقف عند حد فقد سحقت شيراز بسكانها وأبيحت كرمان لمدة ثلاثة اشهر كما سلم عشرون ألفا من النساء والأطفال الى جيش القاجار أو بيعوا كأرقاء . أما سكان كرمان فقد كان مصيرهم أشد هولا ورعبا فلقد فقئت عيونهم ولم يهدأ بال أغا محمد خان الا بعد أن جىء اليه بسبعة آلاف شخص منهم وسلموا رهينة اليه . وكان آخر عمل انتقامى قام به هو استخراج رفات نادر شاه وكريم خان من قبريهما واعادة دفنهما عند مدخل قصره فى طهران لكى يدوس عليهما كلما مشى بقدميه .

استغرقت عمليات أغا محمد خان لتوطيد سيادته المطلقة على فارس عشر

---

(١) هامبيلى — المجلة الجغرافية لآسيا الوسطى .

سنوات ، ولكنه لم يعش بعدها أكثر من عامين ليتمتع بثمرة جهوده ، فقد توفى مقتولا على يد اثنين من خدمه الذين كان قد أمر باعدامهم . وقد خلفه بابا خان الذى حكم البلاد من بعده تحت اسم فتح على شاه ، وأنشأ أسرة كبيرة انطبقت على أرجاء فارس كما تطبق أسراب الجراد على النبات ، وكان لها تأثير كبير على فارس ولم يستطع توطيد حكمه على ساحل فارس الا بعد وقت طويل . ولم تظهر اى بادرة للاعتراف بسلطة الحكومة المركزية الا فى بوشهر فقط التى تعهدت بدفع الزكاة ، وحتى دفع الزكاة كان يتوقف دفعها على قدرة الحاكم الفارسى العام على ارغام الأهالى على دفعها ، فأبوشهر الميناء الرئيسى لساحل فارس تدين بالفضل فى أهميتها لنادر شاه الذى بذل جهودا فى تطويرها كمركز لبناء السفن وقاعدة للأسطول الذى كان ينوى انشاءه لتوسيع رقعة نفوذه فى منطقة الخليج . وعلى الرغم من أن حلمه هذا لم يعمر طويلا — لأن مواطنيه لم يكن لهم اهتمام بالبحر فحسب فان هذه المدينة قد حققت فى عهده ازدهارا ملحوظا ، ولعل ذلك يعود الى تدهور وضع بندر عباس التى كانت الميناء الرئيسى على الجانب الفارسى من الخليج فى ذلك الوقت ، وبسبب نقل مقر شركة الهند الشرقية الى بوشهر فى عام ١٧٦٣ .

وكانت قبيلة بنى ناصر هى التى تحكم المدينة وهى قبيلة نزحت أصلا من عمان فى أخريات القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (ولعلها كانت فرعا من قبيلة المطاويش) وكانت هذه القبيلة كغيرها من القبائل الساحلية تستمد قوتها من البحر ومن أساطيلها التجارية التى كانت الى جانب أسطول مسقط تجوب البحار للتجارة . وكان الشيخ ناصر حاكم بوشهر ، وهو اسميا تابع لحكام زند ، أبرز شخصية فى القبيلة ، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٧٨٩ .

---

(١) لقد ألمح اللورد كرزن بأن القاجار كان يتميزون بنظرة الأبوة وكانوا على درجة كبيرة من الذكاء والدماثة كما كانوا يتمتعون بروح رياضية . كما كانوا معروفين بالتقتير « فارس والمسألة الفارسية » مجلد ٢ طبعة لندن عام ١٨٩٢ .

اما ابنه وخليفته ناصر الثانى فلم يكن يتمتع بنفوذومهارة والده ، وبالتالى لم يكن له اى نفوذ على سياسات الخليج .

وعلى الرغم من مزايا بوشهر من الناحية التجارية والسياسية الا انها لم تكن بلدا محظوظا . وفى تقرير بعث به أحد ضباط البحرية الهندسية عنها يقول : « لن ادهش على الاطلاق اذا صدم القادم من الهند بما يحمله من ذكريات عن نضارة وخصوبة الشواطىء الهندية من رتابة المظهر الذى ترتديه ايران ، وعلى اى حال فان هذا الاحساس لا يعد بداية سيئة للصدمة التى ستصيبه عند نزوله الى البلاد ، فما أن يدخل من بوابة قذرة حتى يجد على جانبى ممراتها صعاليك نصف عراة وبجانبهم بنادق قديمة وخراطيم المياه فى أفواههم ، ويلقى بنظرة الى كتلة المبانى التى أمامه وعلى الأكواخ الفقيرة من جهة والأضرحة المتهدمة التى يسير عليها المشاة من جهة أخرى ، الى جانب القذارة والغبار والتعاسة التى تعكسها طرقاتها الضيقة فانه لا يملك الا أن يسأل بدهشة واستغراب ما اذا كانت هذه مدينة الثلاثين الف نسمة والميناء البحرى لايران .(١)

تقع بوشهر على شبه جزيرة رملية مائلة الى الجانب الشمالى نحو البحر ، ويحيط بها من البر خور ضحل واسع لا يصلح لرسو السفن من أى حمولة ، كما أنه يمتد من أطرافه الشمالية الى أرض من المستنقعات والرمال المتحركة . وعلى الناحية البحرية يتعرض الميناء لهبوب الرياح الشمالية الغربية ، وهو مرفأ ضحل ويترتب على السفن القادمة اليه أن ترسو على بعد أميال من الشاطىء ، وكان فى المدينة نحو ١٥٠٠ مسكن ، معظمها أشبه بزرائب الحيوانات كما أن ازقتها ضيقة ومليئة بالقاذورات ، وهناك فى الجزيرة بقايا قلعة قديمة متهدمة وليس بها اى تحصينات ، أما وراء السور فالأرض منبسطة ورملية وقاحلة تتناثر فيها بعض الآبار المالحة التى تزود سكان المدينة بحاجاتهم من الماء . وكانت توجد صفوف كثيفة من أشجار النخيل تنتصب بألوانها الخضراء الداكنة فوق السهل الذهبى والتلال القرمزية ولم يكن عددسكان بوشهر فى ذلك الوقت يزيد على ١٠٫٠٠٠ نسمة على الرغم من ان ابراهام بارسونز وهو الرحالة المتفائل الذى جاب الشرق يقدر عددهم بعشرين الفا فى عام ١٧٧٥ .

---

(١) رحلة الى مدينة الخلفاء .

كما وصف ملامح سكانها بأنها كئيبة لا تختلف عن مظهر بيوتهم ، وأنهم خليط متنافر من العرب والفرس ، وأن كل مايعتبر من الخصال الحميدة فى أى من الخليطين يعتبر ممقوتا وكريها عندالآخرين ، والعكس بالعكس،وهذه الأخلاقيات تشمل السكان جميعا بما فى ذلك أزياؤهم ولهجاتهم وسلوكهم ومظهرهم العام، وكل هذه الصفات انما تعكس النسل الهجين الذى يتكونون منه ، وأما فيما يختص بشخصياتهم فلا هم أقزام ولا هم ضخام الأجسام مثل العرب الأصليين سكان الجانب الآخر من الساحل غير انهم يشبهونهم فى الدمامة والقذارة وفى الفقر الذى هو القاسم المشترك بينهم فضلا عن الشعور بالعزة وبكرم الضيافة الذى يتميز به العرب الا أنهم مع ذلك يحتفظون بتلك الخاصة (النذالة) فى المساومة وفى اقتراف اعمال السرقة والسلب والنهب(١) .

وتجارة بوشهر هى قسمة بين الفرس والأرمن . ولم يكن بها من التجار اليهود أو الهندوك الا قليلا . وكان الأرمن أهم تجار البلدة بحكم نشـــــاطهم ومهاراتهم وعلاقتهم المكثفة ، وكان جزء ضئيل من التجارة يتم عن طريق مكتب شركة الهند الشرقية . ولمـا كانت بوشهر المنفذ الجنوبى لتجارة ايران فى ذلك الوقت بعد ان بنت بندر عباس فى هذا المجال فان حركة التجارة فيهـا كانت تزدهر وتتدهور تبعا للجو السياسى الذى كان يسود شيراز واصفهان أهـم سوقين فارسيين فى تلك الفترة ، وفى غمار الفوضى التى عمت على اثر سقوط دولة زند تدهورت الحركة التجارية فيها هى الأخرى غير أنها عادت فانتعشت فى اواخر القرن،أما تجارة بوشهر الخارجية فقد كانت مع الهند فى المقام الأول، أما تجارتها مع البصرة فكانت محدودة بالرغم من أن بوشهر كانت منفذا لتهريب السلع الى العراق التركى . وبعد ضياع البحرين تضاءلت الاتصالات التجارية مع الجانب الآخر من الخليج . وكانت واردات الهند الى بوشهر بنفس المستوى الذى عليه مع موانىء الخليج الأخرى . وكان المعدل السنوى لهذه التجارة مليون

---

(١) رحلات فى اشوريا فصل ٢ ص ١٠٨ ، ص ١٠٩

روبية هندية تقريبا (نحو ٢٠٠٫٠٠٠ ج‌س) وكانت الصادرات من ايران تشمل العقاقير والخيول والنحاس والفواكه المجففة والسجاد وماء الورد والنبيذ الشيرازى . وكان الأفيون هو أهم بند فى قائمة العقاقير وكان يزرع فى يزد وأصفهان .

هذا مع العلم أن أرقى انواع الأفيون كان يأتى من كزرون غربى شيراز . وكان شهر مايو أو يونيو هو موسم حصاد الأفيون الذى كان يشحن فيما بين شهرى سبتمبر ويناير . كذلك كانت فارس تصنع مواسير البنادق ونصل السيوف ورؤوس الرماح التى اشتهرت بها مدينة شيراز ، وكانت توزع فى كافة اقطار الخليج — اما اللآلىء فكانت تجاب من سواحل الخليج وعلى الأخص من منطقتى خرك وخاركو على الساحل الفارسى ، وبعضها كان يجد طريقه عبر الخليج من البحرين ، وكانت قيمة صادرات بوشهر تشكل ثلث وارداتها أى حوالى ٩٥٠٫٠٠٠ روبية هندية (نحو ٩٥٫٠٠٠ ج‌س) ، وكان يتم سد العجز عن طريق الصادرات بالنقد . ولم تكن الرسوم الجمركية باهظة فى بوشهر على الرغم من انها كانت أحيانا تقدر بطريقة تعسفية من جانب مدير جمارك الميناء حيث لم تكن تقدر وفقا لأثمان السلع وانما على أساس نوعيتها وحجم الطرد الذى يحتوى البضاعة . أما الرسوم على الصادرات فقد كانت طفيفة وكانت تستوفى على الفواكه المجففة وماء الورد والعقاقير فقط(١) .

ولم يكن ثمة ميناء آخر على الخليج يضاهى ميناء بوشهر فموانىء كنجون واسالو ، ونخيلو وشيرو وشراك كانت تعتمد على الصيد واستخراج اللؤلؤ

---

(١) الرسوم الرئيسية على الوردات كانت ٥٪ على المنسوجات وعلى المعادن و ١٥ روبية على صندوق النيلة و ٦ روبيات على كل جوال من التوابل وروبيتين على كل جوال من البن فى تقرير مانستى المجلد ٢١ بتاريخ ١٨/١٢/١٧٩٠ وتقرير عن تجارة الهند وفارس وموضوعه أول علاقة لشركة الهند الشرقية بالخليج ١٦٠٠ — ١٨٠٠ اعداد مستر رفوسيت رئيس قسم المحاسبة فى بومباى مؤرخ ١٧/١٢/١٧٩٩ وتقرير عن تجارة الخليج اعداد مالكولم ومؤرخ ٢٦/٢/١٨٠٠ وكتاب باكنجهام « رحلات الى بلاد آشوريا » جزء/٢ (ص ١١١ — ١١٨) .

والمبادلات التجارية المحدودة من موانىء الخليج الأخرى . أما فى لنجة فقد كان القواسم أكثر نشاطا ، فقدكانوا يدورون برحلات تجارية الى مسقط وبومباى، وكانوا مثل اخوانهم فى راس الخيمة لا يتورعون عن ممارسة القرصنة اذا سنحت لهم الفرصة ، وكان قربهم من طرق الملاحة التجارية فى الخليج يسهل لهم القيام بتلك الأعمال . وكان بندر عباس الذى يقع على بعد ١٠ أميال من الشمال الشرقى للنجة الميناء الرئيسى فى جنوب فارس ، ولكن مركزها قد انهار بسبب الغزو الأفغانى والحروب الأهلية وتدهور الطريق التجارى القديم الى أصفهان وأخيرا نقل المراكز التجارية الأوربية من المنطقة .

وفى عهد سلاطين آل بوسعيد الذين كانوا يستأجرون الميناء منذ عام ١٧٨٤ حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، انتعش الميناء قليلا وان لم يستعد ازدهاره القديم ، وكانت ترد اليه السلع الأوربية والهندية ، ويصدر السجاد والتبغ والفواكه المجففة والصوف الكرمانى والملح . وكان الملح يستخرج من جزيرة هرمز ، وكان نجاح هذه السلعة يعتمد على موقف السلطات البريطانية فى الهند التى كانت تحتكر تجارة الملح فى المنطقة ، ويصل قيمة ماتستورده بندر عباس فى العشرينات من القرن الثامن عشر ثلاثمائة الف روبية (أى ٣٠٫٠٠٠ ج س) كما يقال ان سلطان مسقط كان يجمع دخلا سنويا قدره ٨٦٠٠ — ١٠٫٠٠٠ ريال نمسوى) ، اما عدد السكان فلم يكن يزيد على ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ نسمة ، وجاء فى وصف للمدينة كتب عام ١٨٢١ مايلى :

« انها مجرد مجموعة من الأكواخ المبنية من الطين والحجر ، وسوقها يكاد يكون خاويا ، وكذلك الحصن الذى رمم اكثر من مرة كان فى حالة ميئوس منها هو الآخر ، وليس فيه غير بضعة مدافع ، وكانت عجلات المدافع غير صالحة للاستعمال كما أن المبانى كلها كانت قديمة بالية . . .

وربما(١) يرجع ذلك الى الأحوال الجوية للمنطقة التى كانت تؤثر على طبيعة

---

(١) رحلة الى خراسان ص ٤٢/٤٣ تاليف فريزر راجع ايضا كتاب وولستد « مدينة الخلفاء » ان المراجع الرئيسية التى استقيت منها هذه المعلومات هى تاريخ وثائق حكومة بومباى الرسمية خلال الاتصالات الأولى بين شركة الهند الشرقية بالخليج ١٦٠٠ — ١٨٠٠ و « وصف رحلة الى الجزيرة =

المبانى ، وكان هناك قوتان كل منهما غريبة على الخليج ، وان كان مقدرا لهما أن يلعبا دورا مؤثرا فى تاريخ المنطقة خلال القرن التاسع عشر : الوهابيون الذين قدر لهم ان يمارسوا نفوذا على بعض الأجزاء الغربية من الخليج على فترات متقطعة من التاريخ ، والحكومة البريطانية فى الهند ، التى وان لم تحرز حقوقا اقليمية فى المنطقة الا انها كانت تمارس نفوذا كبيرا على شئونه السياسية .

ان التوسع الوهابى يعتبر ظاهرة من الظواهر التى يتكرر وقوعها بين شعوب المناطق البدائية وعلى الأخص بين البدو ، ولا يختلف التوسع الوهابى فى سماته عن التوسع العربى فى صدر الاسلام قبل أحد عشر قرنا ، أن الوهابية التى بدات كحركة اصلاحية دينية اكتسبت بعض الوقت طابعا سياسيا وعلمانيا حتى غدت فى ذروة قوتها أشبه بموجة زحف بربرى تمليه غريزة السلب والنهب وتعززه الرغبة فى العنف والتدمير ، أى كطاقة روحية ، فان الوهابية لم تجد لهـا صدى خارج موطنها فى قلب الجزيرة العربية واذا كان لكل جانب دنيوى . الا ان هذا الجانب للحركة الوهابية قد ترك بصمات مؤلمة ودامية لا تزال آثارها ماثلة فى الأذهان حتى اليوم .

ان لهذه الحركة التى ولدت قبل قرن ونصف .. جانبين : جانب مخيف وجانب مضحك ... ولفظة الوهابية مشتق من اسم مؤسس الحركة « محمد ابن عبد الوهاب » غير أن الوهابيين لم يتقيدوا بهـذه التسـمية فهم يسمون انفسهم المسلمين أو الموحدين من حيث أن التوحيد هو جوهر العقيدة الوهابية وان المعلومات المتوفرة عن عبد الوهاب قليلة ، فقد ولد فى العينية ، وهى منطقة تقع فى قلب الجزيرة العربية ، والمعروف أنه ولد فى عام ١٧٠٣ ، بينما تقول مصادر اخرى انه من مواليد عام ١٦٩١ وانه تلقى جزءا من دراسته فى المدينة ، ومن هناك انتقل الى البصرة حيث أمضى خمسة أعوام اخرى ، وتزوج من سيدة

= العربية » تأليف ينبهور ص ٢٦٩ — ٢٩٢ و « تاريخ فارس » تأليف مالكولم مجلد/٢ وتاريخ فارس طبعة لندن تأليف ار. جى. واتسون ص ٥٠/٥١ «ملاحظات جغرافية للأمبراطورية الفارسية» طبعة لندن ١٨١٣ ورحلات وجولات فارس مجلد ٢ طبعة لندن و « رحلة الى شيراز » تأليف اى. اس وارنج طبعة بومباى ١٨٠٤ ص ٦١/٦٣ .

غنية توفيت عنه تاركة له ثروة يعيش منها . وعلى أثر ذلك قام برحلة الى فارس حيث أمضى هناك عدة سنوات يدرس فى قم ، وهمدان ، وأصفهان . وفيما بين عامى ١٧٤٢ ، ١٧٤٤ عاد الى موطنه فى العينية . ولقد استنبط من رحلاته ودراساته بأن العقيدة الاسلامية وتعليمها قد باتت فى أمس الحاجة الى اصلاح شامل . فقد اقتنع بأن البساطة التى اتسم ونزل بها القرآن الكريم قد فسدت بفعل البدع والخرافات والرهبنة التى زحفت عليها ، وبالتالى فان العودة الى روح الاسلام أصبحت أمرا لابد منه اذا أريد للعقيدة الاسلامية البقاء والاستمرار وهكذا انكب على صياغة وشرح نظرياته التى ضمنها فى مخطوطة بعنوان « كتاب التوحيد » .

وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن المصالح البريطانية فى الخليج تتعدى النطاق التجارى(١) فبموجب مرسوم (فرمان) أصدره الشاه عباس الأول فى عام ١٦١٦ منحت شركة الهند الشرقية الانجليزية حق التعامل التجارى مع فارس ، وفى شهر يناير من العام الذى يليه وصلت الى ميناء حاسك على ساحل مكران أول شحنة من السلع الانجليزية . وفى وقت لاحق من نفس العام أنشئت ورشتان للشركة المذكورة فى كل من شيراز واصفهان ، كما أنشئت ورشة ثالثة فى أصفهان فى عام ١٦١٩ . وحتى ذلك الوقت كان البرتغاليون هم الفئة الأوربية الوحيدة التى قامت بالتغلغل الى منطقة الخليج ، فقد احتلوا مسقط وصحار وهرمز والبحرين خلال القرن السابع كما ركزوا اقدامهم فى عدد من النقاط على سواحل الخليج أهمها القطيف وراس الخيمة .

وعند ظهور الانجليز على المسرح كان النفوذ البرتغالى يؤذن بالزوال . فقد صفى وجودهم فى البحرين من جانب قوات الشاه عباس فى نحو عام ١٦٠٢ وفى رأس الخيمة فيما بين عامى ١٦١٩ و ١٦٢٠ ، ولما استعصى على الشاه عباس اخراج البرتغاليين من هرمز بسبب افتقاره الى القوة البحرية اقترح على البريطانيين القيام بحملة مشتركة لتنفيذ هذه الخطة ، ولقد وافق مجلس ادارة

(١) لعل افضل مرجع عن نشاطات هذه الشركة فى الخليج قبل سنة ١٨٠٠ كتاب لوريمر « التقويم الجغرافى للخليج » جزء ١ ص ١٠ — ١٦٨ .

شركة الهند الشرقية ، ومركزه سورت ، على الاقتراح ، ونفذت خطة الهجوم البحرى فى شهر يناير عام ١٦٢١ ، وقام به الأسطول البريطانى ، بينما قامت قوات الشاه بمهاجمة التحصينات البرتغالية الضخمة . وبعد حصار دام شهرين ونصفا للمنطقة استسلمت هرمز وكان هذا نهاية للوجود البرتغالى فى الخليج .

وكان من المكاسب التى جنتها شركة الهند الشرقية بتعاونها مع الشاه عباس حصولها على حق انشاء مركز لها فى بندر عباس ومنذ ذلك اليوم اصبح هذا المركز المقر الرئيسى للنشاط التجارى مع فارس . الا أنه بالنظر الى الصعوبات التى طرأت بين الشركة والفرس أو بالأصح نتيجة معاكسات الهولانديين الذين كانوا قد أسسوا لهم مركزا مماثلا فى المنطقة ، لم تحرز الحركة التجارية مع فارس أى نجاح .

فى الربع الأخير من القرن السابع عشر ظهر الفرنسيون على المسرح فى الخليج بالتعاون مع الهولنديين واستولوا على قسم كبير من تجارة الحرير الخام . وبالرغم من كساد الأسواق استمرت شركة الهند الشرقية فى تعاملاتها التجارية مع فارس فى الوقت الذى أخذت تحصل على مراسيم جديدة لصالحها من ملوك فارس الذين تعاقبوا على الحكم الواحد تلو الآخر ، غير أن الهجوم الأفغانى فيما بين عامى ١٧٢٢ ، ١٧٢٩ كان بمثابة ضربة قاصمة أدت الى تدهور الأحوال الطبيعية فى جنوب فارس . وعادت الحياة الطبيعية الى المنطقة فى عهد الشاه نادر شاه غير أن الفوضى التى سادت أعقاب وفاته سنة ١٧٤٧ قضت قضاء مبرما على مركز الشركة فى بندر عباس . وفى ظل الاضطرابات السياسية التى نتجت عن الصراع بين القاجار والزند والبختياريين والأفغان تقلص النشاط التجارى الى حد كبير وعندما قام الأسطول الفرنسى بقصف المركز وتدمير مبانيه عام ١٧٥٩ خلال حرب السنوات السبع قرر أصحاب المركز الانسحاب . ولقد سبق أن أغلق كل من المركز الفرنسى والهولاندى الأول والثانى فى عام ١٧٥٩ وباغلاق المركز البريطانى فى ٧ مارس عام ١٧٦٣ توقفت التجارة المباشرة بين الأوربيين وجنوب فارس فترة من الوقت . وانتقلت الوكالة التجارية البريطانية بعد انسحابها من بندر عباس الى البصرة حيث كان يوجد بالفعل نوع من التمثيل التجارى للشركة .

ويعود تاريخ العلاقات الانجليزية التجارية مع تركيا العربية الى عام ١٦٤٠ غير أن المركز لم يتأسس بشكل دائم فى البصرة قبل عام ١٧٢٣ . وباغلاق مركز الشركة فى بندر عباس تحول التمثيل من البصرة الى درجة وكالة وأسند اليه الاشراف على نشاط الشركة التجارى فى الخليج وبعد مضى عام على هذا أعلن الباب العالى اعترافه بالوكالة التى تحولت الى قنصلية ، ولم تقرر الشركة الانسحاب الكلى من الأسواق الفارسية عندما تم اغلاق مركزها هناك ، فقبل عامين من اغلاق المركز فى بندر عباس بدأ البحث عن ميناء آخر على الساحل الفارسى يصلح لاقامة المركز فيه . وفى أوائل عام ١٧٦٢ اقترح الوكيل السياسى فى بندر عباس اتخاذ المحمرة مقرا للمركز المذكور . وفى يوم ١٢ ابريل سنة ١٧٦٣ عقدت اتفاقية مع الشيخ ناصر حاكم المحمرة يسمح للشركة بموجبها انشاء مركز تجارى فى ميناء المحمرة . وقد تم اعتماد هذا المركز كمركز تجارى قانونى بعد ثلاثة أشهر من ذلك تاريخ ، وذلك بموجب قانون‌الامتيازات الأجنبية الذى أصدره الشاه كريم خان الحاكم الجديد لفارس ، وبصدور هذا القانون اصبح للشركة الحق فى اقامة المركز ، وأى مبانى أخرى تابعة له ، سواء فى المحمرة أو ميناء آخر من الموانى الفارسية ، كما أصبح لها الحق فى انشاء التحصينات اللازمة لحماية هذه المراكز . وتضمن القانون اعفاء الشركة من الرسوم الجمركية على وارداتها الى البلاد بل وخفضت هذه الى ٣٪ فقط ، الى جانب منح الشركة حق احتكاراستيراد المنسوجات الصوفية الى فارس‌وتخويل حكام الأقاليم الفارسية سلطة مساعدة الشركة فى استيتفاء ديونها من الرعايا الفرس وحماية السفن والشحنات التجارية ، كما سمح للشركة بأن تتولى بنفسها محاكمة العاملين فيها عن أى مخالفات مدنية أو جنائية يقترفونها ، وفى مقابل هذه الامتيازات اشترط كريم خان بأن توافق الشركة على استيفاء أثمان مبيعاتها أو بعض هذه الأثمان مقابل سلع فارسية‌وبأن لا تحول أثمانها بالعملات النقدية فقط ، وبأن لا تقدم الشركة أى تأييد أو مساعدة للمتمردين على سلطة الشاه أو الى خصومه(١) .

---

(١) مجموعة المعاهدات والمستندات الخاصة بالهند الطبعة الثالثة اعداد س. يو. ايتشيسون المجلد الثالث طبعة كلكتا ١٨٩٢ ـ بالنسبة للمعاهدة المعقودة مع حاكم المحمرة راجع نفس المجلد ص ٣٢ ـ ٣٣ .

كان كريم خان وهو يقدم تلك التنازلات يحدوه الأمل فى أن تعوضه الشركة بتقديم مساعدة بحرية اليه لتثبيت سلطته على طول الساحل الفارسى اعترافا له بالجميل . وفى وقت لاحق من العام تقدم الشاه بمقترحات مجددة الى حكومة الشركة فى بومباى يطلب منها تخصيص سفينتين حربيتين ترابطان فى مياه الخليج باستمرار لحماية الخطوط التجارية مع استعداده دفع ٤٠ الف روبية سنويا كنفقات لهذه الحماية . ورغم أن حكومة بومباى لم تكن على استعداد للعمل بهذا الاقتراح الا أنها أوعزت الى المقيم البريطانى فى المحمرة فى شهر ديسمبر سنة ١٧٦٤ بأن يقدم الى الشاه كريم احدى سفن الشركة المسلحة ، اذ تبين له أن مثل هذا الاجراء سوف يسهم فى دعم مركزها فى البلاد، ومنذ ذلك الوقت تعددت المناسبات التى استخدمت فيها مثل هذه السفن المسلحة فى حملات تستهدف تدعيم سلطة الحاكم الفارسى على القبائل الساحلية(١) . وفى عام ١٧٦٦ تعاونت الشركة مع متسلم لواء البصرة لاخماد تمرد قامت به قبائل بنى كعب ، مما أثار حفيظة كريم خان والمقيم البريطانى فى المحمرة وعلى اثر ذلك اضطرت الشركة الى اغلاق المركز فى شهر فبراير سنة ١٧٦٩ ولم يستأنف المركز نشاطه قبل شهرابريل ١٧٧٥ ولم يكن حظ النشاطات التجارية للشركة فى البصرة بأفضل منها فى المحمرة، يضاف اليها عمليات الابتزاز التى كان يقوم بها الموظفون المحليون والاضطرابات التى تسود البلاد الى جانب الهجمات التى كان يقوم بها القراصنة على السفن التجارية . وعندما انتشر الطاعون فى البصرة عام ١٧٧٣ توقفت حركة التجارة وتم اغلاق المكتب بصورة مؤقتة ، وبعد بضع سنوات حلت بالبصرة كارثة أخرى بحصار الفرس لها مما جعل مستقبل الميناء كمركز للنشاط التجارى يبدو كئيبا بحيث اضطرت حكومة بومباى فى عام ١٧٧٩ الى التخلى عن فكرة اعادة فتح الوكالة الا اذا انسحب الفرس فى أقرب وقت ممكن، وحتى لو كان هناك تفكير لاعادة فتحه فان صلاحيته سوف تتقلص ولن تشمل المحمرة . غير أن سلطات بومباى ترددت

---

(١) خلال احدى هذه الحملات ضد المير مهنا شيخ بندر رق عام ١٧٦٨ تعهد كريم خان بان يسلم الى الشركة جزيرة خرك فى حالة نجاح العملية .

فى الاستجابة لطلب الشركة، فقد كانت الحرب مع فرنسا وشيكة، وكان الابقاء على طرق المواصلات الى البحر المتوسط مفتوحا أمرا مرغوبا فيه . وعلى أى حال فقد سويت المشكلة بانسحاب الفرس من البصرة . ثم أعيد فتح المكتب مع تخفيض درجته التمثيلية ، وانحلت الصلة التى كانت تربطه بدار المقيم البريطانى فى بوشهر ، وغدت أهميته منذ ذلك مرتبطة أساسا باعتباره مركزا متقدما لنقل بريد الشركة من الهند الى المملكة المتحدة .

وخلال حرب السنوات السبع استخدم طريق الصحراء الى حد كبير باعتباره الطريق المباشر بين سوريا والعراق فى نقل البريد كما استمر استخدام هذا الطريق فى نقل النسخ الاضافية من المكاتبات بينما كانت النسخ الأصلية ترسل عن طريق الرأس . وكان البريد ينقل الى البصرة من بومباى على ظهر السفن المسلحة للشركة أو عن طريق السفن الأوربية وأحيانا بالسفن الهندية والعربية . وفى البصرة كانت السفن تسلم الرسائل الى الرسل من الفرسان التتار الذين كانوا يتسلمونها من محطة الزبير خارج البصرة ، ومنها يعبرون الصحراء الى حلب حيث يعاد ارسالها الى فينا ولندن عن طريق بيت فرير سمتز ، وكان الرسول يقطع المسافة الى حلب من ١٣ الى ٣٠ يوما على الرغم من أن معدل الرحلة لا يتجاوز ١٥ يوما . وفى نهاية القرن بعد أن تم انشاء دار للمقيم فى بغداد أصبح البريد يرسل عن طريق بغداد رأسا الى القسطنطينية ، وكان معدل طول الرحلة ٢٤ يوما صيفا و٢٧ يوما شتاء . وكانت الرحلة من بومباى الى لندن بمجملها لا تستغرق أكثر من ١٠ الى ١٢ أسبوعا . وكان البريد يرسل فى بعض الأحيان عن طريق الكويت اذا شاب الحالة عدم استقرار بالمنطقة المحيطة بالبصرة .

وكانت العلاقة بين الأتراك ومركز الشركة فى البصرة على غير مايرام باستمرار ، ويعود ذلك الى سلوك المسئول عن المركز ، فقد كان عدد كبير من المسئولين لا يقصرون نشاطهم على النواحى التجارية وحدها بل كانوا يتدخلون فى السياسة فى تعاملهم مع المسئولين الأتراك للحفاظ على المصالح البريطانية .

وبصرف النظر عن هذه المزاعم فان السياسة كانت تطغى كثيرا على الجوانب الأخرى مما كان يرغم رؤساء مجلس الادارة على التدخل فى الأمر لوضع الأمور فى نصابها . على أن حكومة بومباى الانجليزية كثيرا ماشارك مندوبوها

فى التدخل فى السياسة . وكان معظم التدخل لرؤساء الشركة يعود الى تخوف مبالغ فيه من التجــار الأوربيين فى البصرة والفرنسين منهــم على الأخص . وبانتهاء القرن خفت حدة التنافس في كلا المجالين السياسى والتجــارى بين الاوربيين فى البصرة . فالهولنديون الذين كانوا يتعاملون مع المنطقة العــربية الخاضعة للأتراك منذ منتصف القرن السابع عشر والذين كانوا قــد أنشأوا مركزا لهم فى البصرة . فى أوائل القرن الثامن عشر ، عادوا فأغلقوا مركزهم فى عام ١٧٥٢ بعد وقوع شقاق بينهم وبين المتسلم المحلى ، وبعد مضى عام على ذلك افتتح الهولنديون مركزا لهم فى جزيرة خرك غير أنه بعد سبع سنوات تم اغلاق المكتب بالقوة من جانب المير مهنــا حاكم بندر رق . ولم يحــاول الهولنديون العودة الى المنطقة مرة أخرى .

ولقد بدات علاقات فرنسا بالمنطقة الخاضعة للحكم التركى بتعيين مطران بابلون اللاتينى فى عام ١٦٣٨ ، ومن ذلك التاريخ أصبح لفرنسا ممثل دينى فى البصرة يعمل كقنصل لهــا فى نفس الوقت ، وفى نحو عام ١٧٤٠ عين أسقف فرنســا قنصلا فى بغداد ومطران لأثينا ببابل ، بينما أسندت وظيفة قنصل بغداد الى رجل مدنى . غير ان التمثيل الفرنسى فى البصرة كان متقطعا . فقــد أنشئت وكالة فرنسية هناك فى عام ١٧٥٥ ولكنها توقفت عن العمــــل عام ١٧٦٥ ، فباستثناء الزيارات المتقطعة التى كانت تقوم بها احدى الســفن التى ترفــع العلم الفرنسى فان التجارة مع البصرة تضاءلت حتى تلاشت فى أخــريات ربع القــرن .

ان تدخــل المقــيم البريطانى فى البصرة فى الســـياسة الداخليــة للبلاد سار متوافقا مع النظرة الحسودة لموقفه . وكانت الحصيلة الرئيســية للاثنتين والنتائج المؤسفة التى ترتبت عليها قد اخذت تنعكس على الظــروف التى أحاطت بعملية سحب المركز من البصرة فى ربيع عام ١٧٩٣ . وفى شــهر مارس من عام ١٧٩١ تقدمت الجالية اليهودية فى البصرة بشكوى الى المتسلم مضمونها أن أحد زملائهم قد أغتيل من جانب أحــد المسيحيين . وعلى أثر هذه مضمونها أن أحد زملائهم قد أستيل من جانب أحــد المسيحيين . وعلى أثرهذه الشكوى القى المتسلم القبض على عدد من المسيحيين ، أربعة منهم لم يكونوا مشمولين بالحماية البريطانية .

وقد احتج المقيم البريطانى صمويل مانستى على اعتقالهم وتمكن من الافراج عنهم مع الآخرين غير المشمولين بالحماية البريطانية . وبعد ذلك بوقت قصير ابلغ المقيم من جانب المتسلم بأن أحد هؤلاء المفرج عنهم هو المتهم بالقتل وينبغى تسليمه لمحاكمته . ولقد قام مانستى بتسليم المتهم ، ولكنه طلب من الموظف المختص بأن تجرى له محاكمة عادلة .

وفى الوقت نفسه فان الجالية اليهودية التى أثارها تدخل مانستى قام أفرادها بمظاهرة هددوا فيها المقيم . وقد طالب مانستى بتوقيع العقوبة على اليهود ، غير أن المتسلم لم يكن يرغب فى نكش الجروح القديمة ، ودعا مانستى الى تناسى الموضوع . غير أن هذا لم يكن آخر اجراء يفكر فيه المقيم ، ومن هنا قرر الاتصال بسليمان باشا مطالبا اياه بمعاقبة الجالية اليهودية وفرض غرامات جماعية عليهم ومطاردة زعمائهم ، ومضت الشهور دون أن يتحرك الباشا لتلبية طلب المقيم ، ولهذا قام مانستى فى فبراير عام ١٧٩٢ بتوجيه رسالة الى السفير البريطانى فى القسطنطينية ، يطالبه فيها باقناع الباب العالى بتوجيه خطاب الى سليمان باشا بارضاء مانستى . ورغم ارسال الباب العالى للخطاب فان سليمان باشا لم يفعل شيئا لتلبية مطالب مانستى ، وفى النهاية انزل مانستى علمه عن المركز فى ٣٠ ابريل ١٧٩٣ وانسحب الى الكويت .

ولقد استغرق الأمر سنتين من المكاتبات بين مجلس الادارة وحكومة بومباى ومانستى حول هذا الموضوع حتى امكن فى ابريل عام ١٧٩٥ الوصول الى قرار فى ذلك . ولقد كان تصرف مانستى فى رأيهم غير سليم وتقرر ازاحته من منصبه واعادة انشاء دار الاعتماد فى البصرة بأسرع وقت ممكن . ولكن مانستى لم يهتم بقرار مجلس الادارة فلقد استطاع بعد وقت قصير الحصول على موافقة الباشا على شروطه للعودة ، وتمكن من استئناف أعماله فى البصرة فى سبتمبر عام ١٧٩٥ قبل وصول خلفه من بومباى بأربعة اشهر . وفى نفس الوقت تلقى مجلس الادارة صيغة أخرى للمشكلة من هارفورد جونز زميل مانستى عند عودته الى انجلترا عام ١٧٩٥ ، وفى نفس اليوم الذى وضع خلف مانستى قدمه فى البصرة لاستلام دار الاعتماد ، كتب أعضاء مجلس الادارة الى حاكم بومباى

ينقضون تعليماتهم السابقة ويعيدون تنصيب مانستى فى وظيفته السابقة ، وبما أن الظروف الخاصة قد استبقت مانستى فى البصرة حتى ابريل عام ١٧٩٦ — ولا نعرف كيف استطاع ذلك — فما ان وصلت التعليمات حتى تمكن مانستى من استئناف عمله بكثير من الاستياء من قبل المقيم البريطانى الجديد(١) .

لم يكن الوضع فى دار الاعتماد البريطانى خلال العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر على شىء من الأهمية ، فجميع القلاقل كانت تعزى الى الأوضاع غير المستقرة فى جنوب فارس خلال السنوات الأخيرة من حكم أسرة زند ، ولم تكن ترجع الى الأوهام والتصرفات الغريبة للمقيمين البريطانيين فى المنطقة . وقد ظلت حركة التجارة متدهورة خلال هذه الفترة ، ولم تبذل أى محاولات لانعاشها وبالنظر الى حالة التصدع التى اصابت مبنى دار الاعتماد فقد وصفها احد المقيمين البريطانيين فى تقريره ، بأن المبنى قد ينهار عند سقوط أول رذاذ للمطر ، الأمر الذى ادى الى فقدان الأمل فى عودة التبادل التجارى مع بلاد فارس الى ماكان عليه . وكان من عادة المقيم البريطانى أن يمارس اعمالا تجارية محدودة لحسابه الخاص . ومع ان التجارة كانت محظورة على موظفى الشركة أيام حكم كلايف للبنغال الا أن هذا الحظر لم يكن يشمل المقيمين البريطانيين فى البصرة وبوشهر لأن طابع عملهم لم يكن سياسيا بحتا ، كما ان قباطنة سفن الشركة المسلحة كانوا يقومون بنقل شحنات من التوابل لحساب التجار بين بومباى وموانى الخليج دعما لظروفهم المعيشية . على أن ثراء موظفى الشركة لم يكن سببا كافيا على اى حال لابقاء هؤلاء الموظفين فى وظائفهم ويبقى السؤال:

---

(١) فارس والخليج « مجلد ١٨ فى تقرير من اعداد جونز ومانستى موجه الى اللجنة السرية بشركة الهند الشرقية بتاريخ ٥ يوليو ١٧٩١ والى السير روبرت اينسلى السفير البريطانى فى القسطنطينية ٧ فبراير و ٢٢ نوفمبر عام ١٧٩١ ومجلد ١٩ من اعداد جونز ومانستى الى اللجنة السرية والمرافعات السياسية مجلد ٦ بتاريخ ٢٢ يناير و ٢٢ مارس و ١١ يونيو و ٧ يوليو والسجلات السرية لبومباى مجلد ٢٤ حول أول اتصالات شركة الهند الشرقية بتركيا .

ماهى الفوائد التى كانت تجنيها الشركة من الاحتفاظ بصلاتها التجارية مع المنطقة اذا كانت هناك أى فوائد ؟

لعل الفائدة الكبرى من تلك التجارة هى أنها كانت تساعد الرجال فى الشركة على تطبيق ذلك البند من الميثاق الذى ينص على أن يكون عشر السلع المصدرة الى المنطقة من صنع بريطانيا . وكانت الوسيلة لتنفيذ هذا المطلب تتمثل فى تصدير الأصواف والمعادن الانجليزية الصنع حيث كانت تلقى رواجا فى بلاد فارس وفى المنطقة العربية الخاضعة للحكم التركى .

أما الميزة الأخرى التى كانت تتمتع بها الشركة من اتجارها مع موانىء البصرة فان ذلك كان يعفيها من دفع الرسم الاضافى وقدره ١٥٪ ، وهوالرسم الذى كانت تفرضه انجلترا على جميع واردات الشركة من المواد الخام ، فقد كانت انجلترا تستورد خام الحرير وخيوط الصوف من كرمان بفارس هذه ، وكانت السلع تلقى رواجا فى أوربا رغم أن أسعارها كانت عرضة للتقلبات . وكان الهولنديون المنافسين الرئيسيين للبريطانيين فى تجارة الحرير فى بندر عباس . وفى تجارة الأصواف التى كانوا يشترونها من تجار ارمينيا الذين كانوا يستوردونها ثم يشحنونها الى فارس عن طريق تركيا ، وفى عام ١٧٦٣ عندما تم سحب المركز من بندر عباس حلت هذه السلع محل خام الحرير كسلعة أساسية فى مشتريات الشركة . وبعد سحب المركز تركزت مبيعات الشركة من الأصواف على مدينة البصرة ، غير أن أسواق المنطقة العربية الخاضعة للأتراك لم تكن لتنافس الأسواق الفارسية ، وكانت هناك منافسة تجارية من جانب الهولنديين ثم الفرنسيين ومن التجار المحليين الذين كانوا يستوردون الأصواف الأوربية عن طريق حلب ، على أن ارتفاع اسعار الأصواف البريطانية بالاضافة الى تغيير اسعار العملة فى تحويل النقد الى الهند ونظرا لندرة العملة النقدية فى تركيا قد ساهم ذلك فى زيادة تدهور هذه التجارة .

على أن الشركة لم تكن المسئولة عن تدهور تجارتها مع الخليج فقد كان هناك تدهور عام على مستوى المنطقة خلال الأربعين عاما الأخيرة من القرن لعدد

من الأسباب ، منها تفشى أعمال القرصنة من جانب قبائل بنى كعب ثم القواسم ، وازالة المستوطنة الهولندية فى خرك وانتشار الوباء فى المنطقة العربية الخاضعة للأتراك فى عام ١٧٧٥ وحصار واحتلال البصرة وندرة العملة الفضية ، ثم أخيرا الحرب الأهلية التى اجتاحت بلاد فارس منذ عام ١٧٧٩ وصاعدا ، ومع ذلك فان الشركة هى التى جنت على نفسها بنفسها عندما قررت الحد من مشترياتها من الحرير الخام وأصواف كرمان ، ولما لم تكن الشركة راغبة فى شراء خام الحرير من بلاد فارس فى مقابل السلع التى تعرضها فقد كان الروس راغبين فى ذلك وهكذا ، فبانتهاء القرن كانت الشركة قد خسرت سوق السلع الصوفية لصالح الروس الذين كانوا فى امكانهم استيرادها بأسعار أقل ثم تصديرها الى شمال بلاد فارس من موانىء بحر قزوين مما مكن البريطانيين من شرائها من بوشهر ، فضلا عن ان الأصواف الروسية باعتراف أحد موظفى الشركة كانت أجود بكثير من تلك التى كانت تستوردها الشركة ، فقد كانت الأصناف الأخرى من الصوف من خيوط دقيقة ومن نسيج رقيق سرعان مايتلف بعد استعماله بوقت قصير(١) ويمكن القول أن الروس كانوا يحصلون على أصوافهم من انجلترا . وقبل نهاية القرن كانت تجارة الشركة مع ايران والمنطقة الغربية الخاضعة للأتراك قد تعرضت لخسائر كبيرة . وعلى سبيل المثال فان الميزانية العامة لمركز البصرة عن العام ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ تتضمن خسارة لا تقل عن ٦٣٫٨٥٠ روبية هندية كان مبلغ ٥٩,٣٤٥ روبية منها نفقات مركز البصرة كما كان معدل الخسارة فى مبيعات الأصواف يصل الى ٢٤٪ بالمقارنة الى ١٩٪ للسنة : ١٧٨٩/١٧٩٠ ولولا الرسوم القنصلية لزادت الخسارة ٣٠,٠٠٠ روبية(٢) . وكانت هذه الرسوم تدفع من قبل التجار الذين كانوا يزاولون اعمالهم التجارية فى العراق وفارس تحت حماية الشركة وبموجب مرسوم عام

---

(١) « بلاد فارس والخليج » تأليف ولـيم بروس فى ١ ابريل سنة ١٨٥٩ .

(٢) نفس المصدر المجلد ١٩ بعنوان حسابات وأرباح وخسائر مركز البصرة التجارى فى ١٧٩٢/٥/١ و ١٧٩٣/٤/٣٠ .

١٧٦٤ كان يحق للمقيم تحصيل الرسوم القنصلية بوصفه قنصلا أيضا ، وكان هذا يسرى على جميع القناصل فى الحصول على تلك الرسوم طبقا للبند رقم ٣٥ من قانون الامتيازات الأجنبية . ولتسهيل هذه العملية فقد قسمت الشركة الرسوم التى تتقاضاها تحت بندين هما : بند الرسوم الجمركية وبند الرسوم القنصلية ، محتفظة بالأولى لنفسها ، بينما كانت ترصد الرسوم الأخرى لحساب المقيم(١) والواقع أن الرسوم القنصلية كانت بمثابة عوائد الشركة من عمليات المراكز فى الخليج خلال الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكان معدل مبيعات الأصواف فى بوشهر خلال الخمس سنوات من عام ١٧٨٥ حتى ١٧٩٠ الى ٢٤٫٠٠٠ روبية سنويا . أما الرسوم القنصلية التى كانت تستوفى مقابل السلع التى يستوردها التجار المشمولون بحماية الشركة عن نفس المدة فلم تزد على ١٦٫٠٠٠ روبية .

والواقع أن دور الشركة فى تجارة الخليج كان يتحول من المشاركة الفعلية الى مجرد حماية لهذه التجارة التى أصبحت منذ ذلك الوقت تحت رحمة التجار الفرس والعرب والأمن والهنود واصحاب السفن فى هذه البلاد ، وكانت الشركة توفر الحماية المسلحة لهؤلاء التجار ضد القراصنة وكان أسطول الشركة هو الذى يقوم بتلك الحماية .

ولم تصل للخليج أى سفينة حربية قبل عام ١٧٦٩ وذلك عندما طلبت حكومة بومباى مساعدة من قائد الأسطول فى الهند الشرقية فى مطاردة بعض قراصنة بنى كعب الذين كانوا يزاولون نشاطهم من سواحل الخليج ، ومنذ ذلك الوقت أخذت سفن الأسطول تبحر بين حين وآخر الى مياه الخليج غير أن عبء حماية التجارة كان يقع فى المقام الأول على بحرية بومباى حيث كان يوجد الفرع المسلح التابع للشركة .

---

(١) كانت الضريبة الجمركية المفروضة فى بوشهر هى ٣٪ حسب السعر والرسوم القنصلية ١٪ وفى عام ١٧٨٤ رفعت الضريبة الجمركية الى ٥٪ والقنصلية الى ٢٪ التى كان نصفها يذهب الى الشركة ونفس الاجراء كان يتخذ فى البصرة .

وقد تأسس هذا الأسطول عام ١٦١٣ وكان الغرض من انشائه فى البداية حماية المراكز التجارية فى مدينة « سورك » بالهند والتجارة المحلية على شواطىء ملبار ، ثم تطور فى أواخر القرن الثامن عشر الى اسطول فى الهند وكانت صغيرة الحجم لا تتجاوز حمولتها ٤٥٠ طنا ، ولم تكن تحمل من المدافع أكثر من ستة ، وكان يقودها متطوعون من السفن التجارية التابعة للشركة ، أما بحارة هذه السفن فكانوا من الهنود . وفى أواخر القرن السابع عشر نقل المقر العام لهذا الأسطول الى بومباى ، واخضعت وحداته لسلطة حكومة الرئاسة ، وينمو هذا الأسطول حتى أصبح أكثر قوة وحجما مما جعله يلبى متطلبات الحرب مع فرنسا كما أعيد تنظيم هذا الأسطول على أسس أكثر تطورا وتنظيما ، وتم تشغيل مزيد من البحارة الأوربيين والضباط على غرار ماكان يتم بالنسبة لجيش الشركة ، وعندما تم وضع سورت فى عام ١٧٥٩ خول قائد البحرية بمقتضى مرسوم أصدره الأمبراطور المغولى سلطة أميرال الامبراطورية بشرط أن ترفع مراكب هذا الأسطول العلم المغولى على مقدمة سفنها ، وشعار الشركة فى مؤخرتها طوال السبعين عاما التالية ، وفىعام ١٧٩٨ أعاد مجلس الادارة تنظيم الأسطول على أساس أن يصبح نظاما صالحا للقتال على أفضل وجه ، وقد حظر على رجال هذا الأسطول ممارسة اى أعمال تجارية كما منحوا حق الحصول علىمعاشات عند التقاعد،وقد عين لهذا الأسطولمراقب ومساعد مراقب وعميد بحرى وهؤلاء بالاضافة الى اثنين من الضباط الكبار الذين كانوا يشكلون هيئة بحرية وكانوا يشرفون على الشئون المدنية للأسطول التى كانت تشمل مراقبة المرسى فى بومباى .. الخ ، أما الاشراف التنفيذى للأسطول فقد كان فى يد المراقب العام وقد حددت مهمة هذا الأسطول كما يلى :

حماية التجارة وبالأخص التجارة الريفية ومكافحة القرصنة على سواحل الهند والمياه القريبة منها ، بالاضافة الى القيام بنقل بريد الشركة ، وفى حالة نشوب حرب يتعين على هذا الأسطول القيام بأعمال حماية الممتلكات البريطانية فى الهند والاشراف على عمليات نقل الجنود وحراسة السفن التجارية ، وقد اعيد النظر فى هذه المهام خلال الحرب الثورية والنابوليونية بحيث تتركز فى

نقل البريد وحماية تجارة البلاد من القراصنة ولم يعهد الى هذا الأسطول بالتصدى للفرنسيين اذ كانت تنقصه البواخر والأسلحة التى تمكنه من تنفيذ ذلك الا أن بوارج الأسطول كثيرا ماشتبكت مع العدو وأحرزت تفوقا عليه ، وفى عام ١٨٠٢ وصلت قوة هذا الأسطول الى فرقاطتين ، هما لورن ، واليس ، وقد حولت الاثنتان فيما بعد الى الأسطول الملكى بالاضافة الى ثلاثة طرادات يحمل احدها ٢٢ مدفعا ، ولكل من الآخرين ١٦ مدفعا أخرى مزودة كل منهما بـ ١٤ مدفعا الى جانب ٧ سفن أخرى مزودة كل منها بـ ١٠ مدافع الى ١٨ مدفعا ، وسفينتين تحمل احداهما ١٤ مدفعا والأخرى ٨ مدافع ، وكان عدد العاملين فى هذه القوة فى عام ١٨٠٢ (١٣) قبطانا و ٢٣ ملازم أول و ٢١ ملازم ثان و ٢٧ من المتطوعين .

ولم يطرأ أى تغيير على قوة هذا الاسطول خلال فترة الحرب مع الفرنسيين وفى سنة ١٨١٠ كان عدد العاملين فى هذا الأسطول ١٦ قبطانا و ٨ قادة و ٢٦ ملازم أول و ٢٤ ملازم ثان و ٤٨ من ضباط الصف(١) .

ولاشك أن أسطول بومباى بالمقارنة الى الأسطول الملكى كان ضعيفا كما لم يكن بحارته حتى القرن التاسع متساوين فى الرتب مع بحارة الأسطول الملكى ، وكان أصغر ملازم فى الأسطول الملكى يفوق أعلى ضابط فى البحرية الهندية ، وكان الضباط الملكيون ينظرون نظرة أدنى الى بحارة الشركة بل حتى قباطنة السفن الشراعية البريطانية كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من بحارة الشركة ربما من حيث مركزهم ومستواهم المادى .

وكان المسئولون فى الهند وفى المنطقة الشرقية يوجهون اللوم بكثرة الى بحارة سفن الشركة على افتقارهم الى النظام ومستوى السفن التى يستعملونها وعلى اخلاقيات ضباطها وعناء بحارتها . والواقع أن تلك الانتقادات لم يكن لها مايبررها ، فالبحرية الهندية قد سلمت الى الأسطول الملكى خلال الحروب الفرنسية كما كان النقص فى البحارة الأوربيين والانجليز يعود الى الاجراءات

---

(١) « تاريخ الأسطول الهندى » تاليف س. ار. لو. مجلدان طبعة لندن عام ١٨٧٧ .

غير المشروعة لنقل رجال البحرية الهندية الى العمل فى الأسطول الملكى منذ عام ١٧٩٨ فصاعدا . وقد اضطرت حكومة بومباى الى الاحتجاج لدى الهند البريطانية على تلك الاجراءات حتى أصدرت الادميرالية بعد ذلك مرسوما يحظر نقل تلك السفن .

وكانت مهمة الأسطول الهندى فى الخليج بشكل عام من أشق المهام الملقاة على عاتق البحرية الهندية ، وقد وصف احد الضباط العاملين فى هذا الأسطول تلك المهمة على النحو التالى :

ان سواحل الخليج قاحلة جرداء والمناطق الرملية المحترقة تحيط بها من كل جانب ولكن هذه الحالة لا يمكن أن يتصورها الا من رآها أو عاش فيها . ولا اثر فيها لأى نبتة خضراء تريح عين الناظر اليها أللهم الا حرارة الرمال ، فالفصل الحار الذى يستمر خمسة أشهر امر لا يمكن أن يتحمله أى انسان ، وتصبح الحياة فيه شيئا لا يطاق لأن ارتفاع الحرارة ارتفاعا كبيرا يصعب على أى مخلوق احتمالها . حتى ان بعض الناس ماتوا من حرارة الجو والشمس كما يصاب البعض بالحمى الشوكية والمصاب بهذا المرض لا يمكن أن ينجو من الموت ، واذا نجا فانه يعيش ضعيف العقل ، ويقضى الضباط والبحارة أسوأ ايامهم خلال فصل الصيف لأنهم يتعرضون لمتاعب لا يمكن أن يصدقها عقل ولا يوجد أثر للحياة الاجتماعية الا بين الضباط . والمرأة لا وجود لها على الاطلاق كما أنه من النادر أن تلمح العين امرأة عربية أو فارسية فهن جميعا محجبات بالكامل ومعزولات عن الرجال(١) .

يتراوح معدل درجات الحرارة فى الخليج مابين ٩٢ فى منتصف فصل الصيف الى ٦٠ و ٨٠ درجة فى منتصف فصل الشتاء ، غير أن درجات الحرارة القصوى تتراوح فى البصرة حيث يصل معدلها الأقصى من ٢٤ الى ١٢٢ درجة ، وفى لنجة على الساحل الفارسى يتراوح معدلها من ٤١ الى ١٠٩ درجات ، وفى مسقط من ٤٩ الى ١١٦ ، كذلك فان نسبة الرطوبة عالية بحيث تجعل الحر اكثر قسوة ، ويكثر الضباب أحيانا وعلى الأخص فى الأطراف

---

(١) ملاحظة عملية مسح للشواطىء الشرقية للخليج : اللفتنانت جى. بى. كاميثورن .

السفلى للخليج ويبدأ الضباب يتجمع فى الصباح الباكر حتى يصير كثيفا جدا بحيث يغمر البواخر وهى فى الميناء ، أما العواصف الرملية فمألوفة جدا وتزداد حدتها فى أشهر الصيف. وفى الشمال تهب الرياح السائدة فى المنطقة من الشمال الغربى . أما فصل الشتاء فانه يأتى فجأة بعواصفه وأخطاره وعلى الأخص فى شهرى يناير وفبراير ، وفيهما تصبح الملاحة قرب الشواطىء الجنوبية للخليج خطرة جدا . وتهب الرياح الشمالية الصيفية خفيفة وان كانت أحيانا تهب قوية وتكتسح معها كميات من الأتربة والرمال . ولا تزال الملاريا من الأمراض المستوطنة فى المنطقة وكذلك حمى التيفود منتشرة فى المناطق الساحلية . ومنذ قرن مضى كانت المنطقة تتعرض لموجات منتظمة من وباء الجدرى والطاعون والكوليرا .

كانت الملاحة فى الخليج قبل مائة وخمسين عاما عملا محفوفا بالأخطار ، فعلى طول الشاطىء الممتد نحو ٥٠٠ ميل من شط العرب حتى مضيق هرمز توجد الجزر والمنخفضات والصخور والتيارات وحتى ذلك الوقت لم تكن توجد لهذه المنطقة خرائط صحيحة .

وتزداد التيارات السطحية حدة حتى انها تفوق على حركة المد والجزر ، فعلى مدخل الخليج يكون التيار قويا وفيما بين رأس مسندم والقوين توجد دوامات وتيارات . ولم تكن توجد خريطة معتمدة للخليج فى القرن الثامن عشر . وكانت الخريطة الوحيدة الموجودة هى التى قام باعدادها كارستون ينبهور فى القرن الثامن عشر . وقد قامت البحرية التابعة لحكومة بومباى بأعمال مسح قليلة لشواطىء الخليج الواقعة شمال غربى الهند. كما تم مسح سواحل كتياورا والسند ومكران الفارسية فى عام ١٧٧٢ مع جزء من الساحل العمانى امتدادا من مسقط حتى رأس الحد ، ولفترة امتدت خمسين عاما بقيت هذه البقعة الصغيرة هى المنطقة الوحيدة من الشاطىء العربى التى تم مسحها مسحا تاما . ولم يكن يعرف الأوربيون شيئا عن الجانب العربى من الخليج وكانت الملاحة فى الخليج تتجه عبر الخط الرئيسى للساحل الفارسى ولم تكن اى سفينة اوربية تجرؤ على الدخول فى النصف الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين منه. وكانت مسقط هى الميناء الوحيد على الجانب الغربى للخليج الذى كانت ترتاده السفن الأوربية .

وفى عام ١٧٨٥ قام اللفتنانت جون مكلور من البحرية الهندية بمسح الساحل الفارسى ولقد ركز عمله على تصحيح الجوانب التفصيلية لخريطة ينبهور حيث حدد مواقع الجزر والسواحل وأعد رسوما للموانى(١) وقد انتفع بهذه الخريطة فيما بعد جيمس هور سيرج أخصائى الخرائط المائية التابع لشركة الهند الشرقية فى كتابه « دليل الهند » غير أن جيمس حصر أعماله فى النواحى الملاحية للجانب الفارسى ولم يتناول الجانب العربى للخليج الا فى صفحة واحدة ، وأشار جيمس الى أن هذا الجانب من الخليج لم يكن يلقى الاهتمام من السفن الأوربية لقلة المعلومات عنه ولأنه منطقة غير مأمونة(٢) وكان الابحار الى الخليج من الهند خلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والتى تستمر من اكتوبر حتى ابريل لا يستغرق اكثر من أسبوعين ، أما خلال الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من مايو حتى سبتمبر فقد كان يستغرق من اربعة الى ستة اسابيع ، وكان على كل سفينة أن تغير اتجاهها نحو الغرب بنحو ٥ الى ١٠ درجات جنوب خط الاستواء ثم تعود فتتجه شمالا ، ثم تبحر قبل حلول المونسون لتصل الى الشاطىء بالقرب من رأس الحد .

وهكذا اصبح وضع الشركة غامضا فى الخليج خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر بحيث بات من الصعب عليها أن تحدد على أى الأسس سوف تستمر علاقاتها التجارية بالمنطقة . وكان وضعها التجارى مضحكا كما لم تكن لها مصلحة سياسية فى المنطقة ، فالنشاط السياسى للمقيم البريطانى فى الخليج كان قد توقف بقرار من مجلس الادارة رغم أن هذا الحظر لم يكن له مايبرره خصوصا وانه لم تكن هناك سلطة مركزية فى فارس للتعامل معها ، وربما كان لذلك الحظر مايبرره حيث كان وجود النشاط السياسى للمقيم البريطانى مدعاة للحرج اكثر منه للمصلحة ، واذا أخذنا فى الاعتبار انعدام أى مصلحة

---

(١) بحث عن الملاحة فيما بين الهند والخليج على مدار العام « طبعة لندن ١٧٨٦ » .

(٢) « اتجاه الملاحة من والى الهند الشرقية والصين وهولندا الجديدة وراس الرجاء الصالح » .. الخ مجلدات طبعة لندن عام ١٨٠٩ .

للشركة فى الخليج خلال العقد الأخير من القرن فان انسحابها انسحابا كليا من المسرح يعتبر أمرا معقولا ، وذلك على غرار انسحابها فى السنوات السابقة من مناطق أخرى من الشرق عندما أصبح بقاؤها أكثر حذرا من انسحابها .

ومن المشكوك فيه على أى حال ما اذا كان فى مقدور الشركة فى ذلك الوقت الانسحاب بسبب المسئولية التى كانت تتحملها بالنسبة لتجارة تلك المنطقة مع الهند . ان قلادة التكريم التى منحها الامبرال المغولى لقائد بحرية الشركة لم يكن يمنحها عبثا لأنها مسئولية تتعلق بحماية تجارة الشركة وبالتالى تجارة البحرية الهندية التى كان القائد مسئولا عنها ، كما كانت تلك الحماية تشمل سفنا أخرى غير السفن التى ترفع أعلام الشركة والتى تعمل فى الخلجان الفارسية والعربية قبل عام ١٧٥٩ ، وربما أصبحت تلك الحماية فيما بعد ذلك مسئولية قانونية تتحملها الشركة ، والواقع أن هذه المهمة كان لابد أن تدخل الى حيز التنفيذ قبل العقد الأول من القرن التالى عندما انطلقت ضد خطوط الملاحة فى الخليج ، كما جعلت الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٣ ، ثم الحملة الفرنسية على مصر بعد ذلك بخمسة أعوام وانسحاب الشركة من الخليج أمرا يكاد يكون مستحيلا .

الفصل الثانى

الحرب مع فرنسا والوفود الى فارس

١٧٩٨ - ١٨١٤

في يوليو ١٧٩٨ نزلت الى الأراضى المصرية قوة فرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، وبعد ثلاثة أسابيع من وصول هذه القوة استطاعت أن تقضى على نفوذ الحكام المماليك فى مصر فى موقعة الهرم ، وبذلك مهدت لقائد الحملة الشاب طريق فتوحاته فى الشرق ، غير أن احتلال نابليون لمصر لم يكن غاية فى حد ذاته .

لقد كانت فرنسا فى ذلك الوقت آخذة فى التوسع والفتوحات . وكان تاليران الذى أختير وزيرا لخارجية فرنسا فى شهر سبتمبر عام ١٧٩٧ يؤمن بحاجة فرنسا الى التوسع والاستعمار ، وكان الشرق هو الميدان الوحيد أمام فرنسا لتحقيق تلك الأطماع ، ورغم أن احتلال فرنسا لمصر كان هدفا مرغوبا فيه ، الا انه كان يخدم أهدافا أخرى أكثر طموحا . وعلى أساس الاحتلال الفرنسى أمكن تحويل التجارة من طريق رأس الرجاء الصالح الى خليج السويس ، الأمر الذى يتيح لفرنسا من خلاله الانقضاض على الوجود البريطانى فى الهند والحصول على السفن اللازمة لهذه الخطة من البحر الأحمر وجزر موريشيوس الفرنسية ، وكان الدافع الرئيسى لسياسة تاليران هو العمل على اضعاف انجلترا بتوجيه ضربة اليها فى أقوى مواقعها ، أى تجارتها مع الشرق ومستعمراتها فى الهند . وربما كان لتلك السياسة دوافع أخرى كالاحتفاظ بنوع من النظام الارستقراطى فى أوربا عن طريق تحويل اهتمام رجال الادارة الفرنسيين عن أوربا الى مغامرات فى الشرق لصرف انظارهم . وكان نابليون بونابرت يؤيد الحملة الفرنسية على مصر كل التأييد . وكان الاثنان يعدان العدة بالاشتراك مع رجال الادارة الفرنسيين(١) .

---

(١) ردود الفعل السياسية لحملة بونابرت الشرقية بقلم جى هولاند روس فى المجلة التاريخية الانجليزية (١٩٢٩) ص ٤٨ - ٥٨ .

وكان صدى الحملة الفرنسية على مصر ملحوظا وبعيد المدى . فحتى ذلك الوقت كان الدفاع عن الممتلكات البريطانية فى الهند ، يعتمد على القوة البحرية . وكانت المحاولات الفرنسية للتوسع فى الشرق تنطلق سابقا من جزر موريشيوس الواقعة على السكرينيز فلابور دونى وديلون وبوس الذين حاربوا والبحر من ورائهم . أما بونابرت فقد اختار مصر كنقطة انطلاق لفتوحاته ، وكان يعتمد على جيش لم يكن له مثيل فى الشرق . ولأول مرة أثارت محاولاته قلق الحكومة البريطانية التى كانت ترى جيوشه وهى تقترب من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج والبحر الأحمر والحدود الدولية لفارس وافغانستان .

وكان من نتيجة ذلك أن اضطرت بريطانيا الى اقامة علاقات سياسية مستديمة مع الامبراطوريتين العثمانية والفارسية بهدف حماية المستعمرات البريطانية فى الهند ضد عدوان الدولة الأوربية من الشمال الشرقى . وحتى قبل أن يبحر جيش بونابرت من ميناء طولون كان بصيص من اخباره قد وصل الى لندن كما نمى الى علم مجلس الهند(١) أن تيبو سلطان حاكم ميسور ، وكان

---

(١) وقد تم انشاء مجلس المحافظين لادارة شئون الهند بموجب أحكام القانون الصادر ١٧٨٤ ووكلت الى هذا المجلس كل من الشئون السياسية والعسكرية لشركة الهند الشرقية وكان يتألف من ستة أعضاء متفرغين من مجلس الشورى بما فى ذلك أحد أعضاء مجلس الدولة ووزير الخزانة وخول هذا المجلس صلاحية الاشراف على اللجنة السياسية لمجلس ادارة الشركة ولكى ينقل القرارات التى تصدرها الشركة الى الهند فى كل المسائل التى تتعلق بالحرب والسلام أو فى المفاوضات مع الدول خارج الأراضى التابعة للشركة أما مكتب رئيس مجلس الادارة أو « مجلس الهند » كما كان يسمى فقد انشأه واندس عام ١٧٩٣ . بحيث أخرج من عضويته وزير الدولة ووزير الخزانة ولكن أضيف اليه اثنان من المحافظين ليسا من أعضاء مجلس الشورى . ويمضى الوقت وازدياد سيطرة المجلس على شئون الشركة ازدادت مسئوليات الرئيس حتى بلغت صلاحياته الى مستوى صلاحيات رئيس ادارة فى حكومة . وكان يعتبر عادة =

هو من الد أعداء الشركة قد عقد حلفا مع حاكم جزر موريشيوس الفرنسي هنرى داندس رئيس الوزراء وزير الحربية يومئذ ، يعتقد بأنه على الرغم من أن مصر هى الوجهة المباشرة للحملة الفرنسية الا أن الهدف النهائى منها هو الاطاحة بالنفوذ البريطانى فى الهند . وفى ١٣ يونيو فاتح داندس اللورد جرينفيلد وزير الخارجية فى هذا الأمر وأشار فى المذكرة التى بعث بها اليه أن امام بونابرت أربعة اتجاهات للزحف منها على الهند بعد أن يكون قد وصل الى الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط : الأول من القسطنطينية عبر البحر الأسود جنونا عبر طريق تركيا الشرقية ، والثانى من السويس نزولا الى البحر الأحمر ، والثالث من جدة عن طريق الحجاز واليمن عبر ساحل حضرموت ومسقط ومنه الى الشواطىء الهندية ، والرابع عن طريق الصحراء السورية الى بغداد ورأس الخليج ثم منه الى الهند ، وكان داندس يعتقد بأن الأتراك والروس لن يسمحا بمرور جيش نابليون عن طريق البحر الأسود كما أنه لن تتوفر لذلك الجيش سفن فى البحر الأحمر ، كما أن هناك صعوبات لو حاول هذا الجيش المرور عن طريق سوريا بينما يمكن بسهولة فرض حصار على البحر الأحمر والخليج من جانب الأسطول البريطانى . كل هذه الأسباب تقنعنى كما قال دنداس بأنه لو قدر لمغامرة نابليون أن تتم فانها على الأرجح سوف تتفادى طريق البحر باعتباره غير مأمون وبالتالى فسوف يحاول نابليون وبمعاونة اتباعه أن يزحف على الهند عن طريق حلب مرورا بالفرات ودجلة ثم منها الى الخليج ، ومن الخليج سوف ينقل عبر الساحل الى منطقة نهر الأندس(١) .

= احد أعضاء مجلس الوزراء واعتبارا من عام ١٨٤١ فصاعدا كان هو العضو الوحيد المعين فى اللجنة الملكية وقد أضيفت أسماء عدد من الأعضاء السابقين ضمن الميثاق المعدل لسنة ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ وفى عام ١٨٥٥ حل محل هذا المكتب مكتب وزير الدولة لشئون الهند كما حل محل مجلس ادارة الهند المجلس الأعلى للهند .

(١) رسائل ومحاضر وتقارير الماركويس ويلسلى مجلد ٥ الطبعة الثانية لندن ١٨٤٠ . ملحق ١ — ح انظر أيضا نفس المجلد ص ٣٤٨ — ٣٥١ من داندس الى ويلسلى ١٧٩٨/٦/١٦ .

غير أن جراينفيل لم يقتنع بمسببات داندس فعاد يقترح عليه الرجوع الى خريطة آسيا . ولكنه أبدى استعداده للاتصال بكل من تركيا وروسيا للاستعانة بهما ضد نابليون اذا حاول غزو مصر واحتلالها . ولقد قام داندس فعلا باعداد قوة من ٤ آلاف جندى وارسالها الى الهند لتعزيز القوات البريطانية المرابطة هناك ، كما قامت الأدميرالية بناء على تعليمات باصدار أمرها للابحار بثلاث قطع من الأسطول البريطانى الى منطقة البحر الأحمر عن طريق الراس للقيام بدوريات فيما بين منطقتى الخليج والبحر الأحمر . كما صدرت الأوامر الى الحكومة فى بومباى للاستيلاء على جزيرة بريم فى باب المندب ، واقامة تحصينات فيها لاغلاق طريق البحر فى وجه نابليون ، كذلك طلب الى الحكومة السامية فى كلكتا(٢) أن تقوم بسلسلة من الاتصالات بحكام الولايات الشمالية الغربية من الهند لاقناعهم بصد أى هجوم قد يقوم به الفرنسيون على الهند . وبالاضافة الى هذه الاتصالات تم الايعاز الى هارفورد جونز الوكيل التجارى المساعد للشركة فى البصرة والذى كان يومئذ يقضى اجازته فى انجلترا بقطع اجازته والعودة الى العراق فورا لانشاء ممثلية بريطانية فى بغداد والعمل على كسب الوالى والعمل التركى سليمان باشا الى صف انجلترا .

وقد بدأت الشكوك تحوم حول النوايا الفرنسية قبل ذلك بسنتين ، أى عندما وصل اثنان من علماء التاريخ الطبيعى البارزين فى فرنسا ، وهما بروجى وأوليفر الى طهران ، وبقيا فيها ثلاثة أشهر لبحث الأوضاع السياسية

---

(١) لقد خولت حكومة البنغال صلاحيات مطلقة للاشراف على شئون الشركة فى الهند وعلى الأخص فى علاقاتها بالدول المجاورة وان كان الحاكم العام هو الذى يمارس تلك المسئولية كمسئولية مستقلة عن وظيفة رئيس مجلس الشركة فورت ويليام (فى البنغال) ويعتبر المجلس الأعلى للحكم كما أن حكومة البنغال والحكومة السامية هما من الناحية العملية سلطة واحدة وقد استمر العمل بهذا النظام حتى ١٨٣٤ عندما تحولت الحكومة السامية الى حكومة الهند .

فى فارس واجراء محادثات مع وزراء الشاه(١) ولقد عاد المبعوثان الى بغـداد فى ديسمبر عام ١٧٩٦ ثم غادراها مرة أخرى الى القسطنطينية ، وذلك فى شـهر مايو من نفس العام . وأعقب ذلك تعيين قنصل فرنسى فى بغداد فى شخص جان بابيتر روسو ابن عم المفكر الفرنسى المشهور جان جاك روسو(٢) .

ووصلت انباء الحملة الفرنسية على مصر الى الهنـد فى شهر أغسطس ، ثم سرعان ماتبعها نبأ تحطيم الأسطول الفرنسى على يد نلسون فى خليج أبو قير يوم أول اغسطس ، وبانقطاع خطوط مواصلات نابليون بونابرت مع فرنسـا كان من المتوقع أن تتعثر تحركاته المقبلة ، وقد أثار هذا الوضع الارتياح فى نفس الحاكم العام الجديد اللورد ويلسلى الذى كان فى نفس الوقت مشغولا بقمـع حركة تيبو سلطان فى جنوب الهند ومواجهة الأفغانيين على الحدود الشماليـة الغربية للهند وحصار الفرنسيين فى جزر موريشيوس ، ولم تكن فى منطقـة الهند الشرقية أى سفينة يمكن أن تقوم بأعمال المراقبة لأى تحرك قد يقـوم به نابليون من مصر ، وكان الأميرال بيتر رينر القائد العام للقـوات البريطانية فى الهند الشرقية يشرف على مراقبة تحركات تيبو سلطان على ساحل البنغال ، ولكى يحول بين تيبو سلطان والاتصال بالفرنسيين فى جـزيرة موريشيوس ، وكانت بقية قوات الأميرال رينر موزعة على امتداد السواحل الشرقية .

ولم يعلم رينر باحتلال نابليون لمصر قبل شهر نوفمبر وعندئذ فقد هرع مبحرا الى بومباى بأسرع مايستطيع وعند وصوله الى بومباى حاصرته موجـة من الاشاعات عن التحـركات الفرنسية (من هـذه الاشاعات أن نابليون كان

---

(١) من الموضوعات التى تناولتها مهمة المبعـوثين كما جاء فى التقـرير موضوع اعادة فتح المراكز الفرنسية فى شيراز وأصفهان وبندر عباس وانشاء مركز فرنسى فى جزيرة خرك الواقعة غير بعيد من بوشهر واحتمال عقد حلف تحت اشراف فرنسا بين تركيا وفارس ضد روسيا .

(٢) للاطلاع على تنقلات العالمين المذكورين فى العـراق وفارس أنظـر : « فارس والخـليج » ولقـد عاد أوليفر بمفـرده الى فرنسا عام ١٧٩٨ أما بروجى فقد توفى من الحمى وكان فى طريقه الى فرنسا .

موجودا فى السويس على راس جيش قوامه ٨٠ الف رجل على اهبة الزحف ، ولكنه لم يأبه بتلك الاشاعات كثيرا فقد كان يعرف أن نابليون لم يكن يمتلك السفن الكافية للزحف عن طريق البحر الأحمر . كما أن زحفه عن طريق سوريا والعراق يبدو بعيد الاحتمال . وقد رفع هارفورد جونز من بغداد تقريرا على اثر وصوله فى شهر سبتمبر جاء فيه ، أن سليمان باشا قد تعهد له بمقاومة اى هجوم يقوم به الفرنسيون فى اتجاه الخليج ، وكدليل على حسن نية الوالى نحو بريطانيا فقد احتجز عنده فى منزله القنصل الفرنسى روسو(١) . ولهذه الاعتبارات لم تعد مراقبة التحركات الفرنسية فى الخليج ضرورية على حد تصور رينز وان كان هذا القائد مستعدا للتمشى مع رغبة السلطات الحاكمة فى بومباى، فقد وعدها بأنه فىحالة وصول السفن العاملة فى بحرالصين فانه سوف يقوم بارسال بعضها للخليج لكى تقوم بأعمال الرقابة والدوريات بين مسقط والبصرة(٢) .

أما موقف حاكم مسقط سلطان بن أحمد من تلك التطورات فلم يكن واضحا . ومنذ انفجار الحرب الثورية فى سنة ١٧٩٣ ظل آل بوسعيد بعيدين عن التورط فى أكثر الأحوال كما أنهم رفضوا السماح للأوربيين بانشاء مراكز تجارية لهم فى مسقط ، كما انهم لم يسمحوا بأن تصبح سواحلهم منطقة للصراع ولكنهم وافقوا لحكومة بومباى على تعيين سمسار هندى لها فى مسقط للاشراف على التجارة البريطانية والبريد البريطانى ، وذلك فى مقابل تنازل حكومة البنغال لمسقط عن امتياز استخراج الملح بحيث تستطيع السفن العمانية الحصول على حاجاتها من الملح من كلكتا .

وفى عام ١٧٩٦ انتشرت الاشاعات عن أن حكومة مسقط تنوى التنازل عن حيادها فى الصراع بين انجلترا وفرنسا ، وكان السبب هو تسرب معلومات

---

(١) فهرس الخليج مجلد ٢٣ من خطاب من جونز الى دنتش من بغداد فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨ .

(٢) من خطاب مرسل من رينز الى ايفان نبين « وزير البحرية » من بومباى فى ٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨ .

عن تحركات للسفن البريطانية تحمل تجارا من مسقط الى جزيرة موريشيوس ، وأن الفرنسيين كانوا يزورون مسقط وهم فى طريقهم الى فارس والمشرق(١) ، ولم تتحسن الأحوال من وجهة النظر البريطانية باشتراك تجار مسقط فى نشاط تجارى ناجح عن طريق تصريف السلع البريطانية وبيع السفن المصادرة من جانب الفرنسيين ، كما أن مفعول الحصار البريطانى لجزر موريشيوس لم يؤد الغرض منه بسبب تزايد التبادل التجارى بين مسقط وجزيرة موريشيوس . وبنهاية عام ١٧٩٦ أوفد حاكم بومباى جو ناثان دنكن أحد المسئولين الى مسقط ليتأكد عما اذا كان هناك فرنسيون فى مسقط ، وليطلب من حاكم مسقط سلطان ابن أحمد ايضاح موقفه من كل من شركة الهند الشرقية والفرنسيين ، وقد كان رد حاكم مسقط على جانب كبير من الأهمية حيث ذكر فى رسالته (أنه منذ الزمن القديم فان أواصر الصداقة والمودة ظلت قائمة بين حكومتينا ، وانه بحول الله مادام هناك نفس فى الجسم ، فان جنة الحب والتفاهم سوف تبقى يانعة الثمار ، يرويها ماء المحبة والاخلاص ولهذه الأسباب فان أصدقاء الشركة الموقرة هم أصدقائى وأعداءها هم أعدائى(٢)) .

وقد بهرت دنكان فصاحة خطاب السلطان ، ولذلك قرر الا يثير الموضوع مرة اخرى الى ان وصل نابليون الى مصر مما أضفى على مسألة موقف السلطان اهمية جديدة وخطيرة . وقد كانت مسقط بالنظر الى موقعها ووجود انسب مرفأ فيها تشكل موقعا ملائما لبونابرت للانطلاق منه اذا مافكر فى الزحف على الهند . وعلى هذا الأساس فقد أصدر دنكان تعليماته فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ الى مهدى على خان ، وهو المواطن الفارسى الذى كان يعمل فى شركة الهند الشرقية منذ زمن طويل والذى كان قد عين قبل ذلك بوقت قصير فى منصب المقيم البريطانى فى بوشهر ، بالتوجه الى مسقط فى طريقه لاستلام

---

(١) للاطلاع على حقيقة العلاقات بين فرنسا ومسقط فى تلك الحقبة يراجع كتاب ايه أوزوس (١٩٠٩) من ص ٥١٨ — ٥٤٠ .

(٢) وثائق حكومة بومباى حول أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج — مضمون خطاب من سلطان بن أحمد الى دنكان .

منصبه ، ولكى يتأكد من السلطان عما اذا كان على استعداد لابعاد الفرنسيين والهولنديين من بلاده خلال فترة الحرب ، وما اذا كان يسمح لشركة الهند الشرقية بأن تقيم مركزا لها فى مسقط . وقد سمع بأن السلطان قد عين طبيبا فرنسيا خاصا له فان صحت تلك الاشاعة فان عليه أن يطلب من السلطان فصل الطبيب الفرنسى من العمل ويعين طبيبا من بومباى ليحل محله(١) . وقد وصل مهدى على الى مسقط فى الأسبوع الأول من أكتوبر ، وبعد مباحثات استغرقت بضعة أيام نجح فى اقناع السلطان سلطان بن أحمد بالتوقيع على اتفاقية مكتوبة فى يوم ١٢ أكتوبر ، تعهد السلطان فى البند الثانى منها : أن كل صديق للسركار (أى الحكومة البريطانية) هو صديق له والعكس بالعكس وبالمثل فان عدو السركار هو بالتالى عدو للسلطان والعكس بالعكس(٢) وفى البند الثالث من الاتفاقية ، تعهد السلطان بألا يسمح للفرنسيين أو الهولنديين(٣) بانشاء مركز تجارى لهم فى أراضيه وألا يكون لهم موطىء قدم فى أى جزء من دولته . غير أن هذا الحظر كما ورد فى البند التالى من الاتفاقية لم يكن يسرى على السفن الفرنسية التى تزور مسقط ، اما فى حالة نشوب قتال بين السفن الفرنسية والسفن البريطانية فى مياه مسقط فقد تعهد السلطان بالوقوف الى جانب البريطانيين، وعلى اى حال فانه لم يطلب من السلطان بأن يلتزم بالاشتراك الفعلى فى القتال خارج المياه الاقليمية ولكن السلطان رفض أن يمنح حق اقامة مركز تجارى لبريطانيا فى مسقط بحجة أن ذلك سيثير عداء الفرنسيين له كما سيؤدى الى الأضرار بمركز مسقط التجارى ، وانه قد يسمح بفتح مثل هذا المركز اذا تعهدت له الشركة بحماية اسطول مسقط التجارى من اعتداءات الفرنسيين .

ومن ناحية اخرى فقد أعرب السلطان عن رغبته فى السماح للشركة باعادة

---

(١) وثائق حكومة بومباى حول أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج مضمون خطاب من دنكان الى مهدى على خان .

(٢) معاهدات اعداد اتشيسون .

(٣) نفس المصدر .

فتح مركزها السابق فى بندر عباس التى كانت حتى ذلك الوقت خاضعة له رغم انه قد رفض طلبا للفرنسيين والهولنديين(١) ومقابل هـذه التنازلات وضـع السلطان سلطان بن أحمد شرطين ، أولهما أن على الشركة أن تتعهد بتوفـير الخشب والمـاء مجانا لسفنه فى موانىء بومبـاى وكلكتا بنفس الطـريقة التى يوفرها السلطان لسفن الشركة فى بلاده ، أما الشرط الثانى فهو زيادة كميـة الملح التى تحصل عليها سفن السلطان بين كلكتا من ١٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ من(٢) .

ولم تحاول السلطات البريطانية فى الهند مرة أخرى خلال الفترة الباقية من عام ١٧٩٨ م أن تعزز من وجودها فى الخليج أو على أقطاره الساحلية وفضلت التريث لترى ما الذى سيفعله نابليون وفى نهاية ديسمبر زار نابليون السويس وأصدر أمرا للبدء فى انشاء أسطول ، وكانت المساعدة التى يمكن أن تقدمها له الحامية الصغيرة فى جوز موريشيوس ضئيلة جدا فقد كانت اثنتان من بوارج حاكم الجزيرة فى المياه الشرقية ، والثالثة فى خليج البنغال ، وهى السفينة التى تمت مصـــــادرتها فيما بعد . وفى يناير ســنة ١٧٩٩ وجـه بونابرت خطابين الى سلطان بن أحمد وتيبو سلطان يبلغهما بأن اى سفن تصـــل الى السويس من بلديهما سوف تلقى كل تسهيل ومساعدة، كما وعد الأخير بتقـديم المساعدة اليه فى صراعه ضد البريطانيين(٣) ولكن عمـلاء الشركة تمـكنوا من

---

(١) نفس المصدر والواقع أن الشركة كانت بالفعل تتمتع بهذا الحق وذلك بموجب سلسلة من الفرمانات التى صدرت عن ملوك فارس بالتعاقد على امتداد الـ ١٥٠ عاما السابقة بحيث تجيز للشركة أن تحتفظ بمركز لها فى بندر عباس وبالتالى فقد كان من المشكوك فيه فيما اذا كان استيلاء مسقط على بندر عباس وماتبعه من استئجار للميناء من حكومة فارس قد أبطل ذلك الحق .

(٢) وثائق حكومة بومباى اول اتصال لشركة الهند الشرقيـة بالخليج، مضمون خطاب من مهدى على خان الى دنكان فى ١٤ أكتوبر ١٧٩٨ .

(٣) مضمون خطاب بونابرت الى سلطان بن أحمـد وقد ورد فى مؤلف السير رجلاند كوبلان وعنوانه « أفريقيا الشرقيـة وغزواتها طبعة اكسفورد » ١٩٣٨ ص ٨٩

مصادرة الخطابين فى موكا وأرسلوهما الى بومباى مما جدد الشكوك حول انتهاك سلطان بن احمد للاتفاقية التى وقعها مع البريطانيين ، كما علم بأن السلطان لايزال يستخدم الفرنسيين فى بلاطه ، وانه كان يتبادل الرسائل مع تيبو سلطان عن طريق المعتمد السياسى لميسور فى مسقط . كما كان ممثله فى زنجبار يظهر موقفا معاديا من الكومندور جون بلانكت قائد الوحدة البحرية المرسلة من انجلترا فى شهر يوليو سنة ١٧٩٨ أثناء زيارة القائد لزنجبار ، وفى شهر فبراير سنة ١٧٩٩ عندما كان فى طريقه الى البحر الأحمر ، وفى ابريل اكتشفت مؤامرة فى البنغال اشترك فيها صهر نابليون للاطاحة بالحكم البريطانى بمساندة من حاكم أفغانستان زمان شاه ، كما تبين أن عددا من الشخصيات البارزة فى مسقط من بينهما الوالى نفسه كان لها ضلع فى الرسائل المتبادلة والتى تم الاستيلاء عليها . وفى الشهر التالى وصل الى الهند خطاب من السيد سلطان يعرب فيه عن تمسكه بصداقته لبريطانيا . غير أن البريطانيين لم يأخذوا مضمون الخطاب مأخذ الجد وقرروا وضع رقابة دقيقة على مسقط وحاكمها فى ذلك الوقت(١) ، على أن التهديد الذى كان يشكله الجيش الفرنسى بدأ يتلاشى فى أواخر ربيع سنة ١٧٩٩ ، وفى الثانى من يناير من نفس العام وقعت معاهدة تحالف بين بريطانيا والباب العالى تقوم على أساس اقصاء الفرنسيين من مصر ، وفى شهر مارس توقف زحف قوات نابليون على سوريا امام قلعة عكا حيث استطاعت القلعة مقاومة الهجوم طوال مدة الحصار الذى كان مفروضا عليها ، وفى ٢١ مايو اضطر نابليون الى رفع الحصار والتراجع والعودة الى مصر كما اخذ يتلاشى احتمال قيامه بزحف على الهند عن طريق العراق أو البحر الأحمر ، فقد كان بلانكت يسيطر على البحر الأحمر بالسفن الخمسة التى كان يقودها سيطرة كاملة ، كما فرض حصارا محكما على السويس والقصير كما أغلق مضيق باب المندب فى شهر مايو بعد احتلال جزيرة ويلسلى وأن يتخلص من تيبو سلطان عن طريق الاستيلاء على سوينجا باتام ، وقد قتل تيبو سلطان فى هذه المعركة

---

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢١ مضمون رسالة من دنكان الى رينز فى ٨ مايو سنة ١٧٩٩ .

وبالقضاء على تيبو سلطان وتحطم الهجوم الفرنسي على سوريا أصبح ويلسلى فى موقف يسمح له بتوجيه اهتمامه للخطـــر الأهم وهـــو زمان شـــاه حاكم أفغانستان .

استطاع زمان شاه فيما بين سنة ١٧٩٢ ، ١٧٩٧ أن ينقض ثلاث مرات على المنطقة الشمالية من الهند وخلال فترتين من تلك الحملات استطاع أن يعبر نهر الأندس ويجتاح البنغال ، وفى خريف سنة ١٧٩٨ عاد يهدد البنغال من جديد انطلاقا من قاعدته المتقدمة فى بشاور ، وكان مفتاح وضع حد لتهديدات زمان شاه يوجد فى فارس ، فقد كان بابا خان أو فتح على شاه الذى أصبح فيما بعد حاكما جديدا للقاجار تراوده الأطماع فى توسيع منطقة نفوذه نحو خراسان كما كان يسعى الى أن يسترد من زمان شاه المناطق التى كانت فى حوزة الصفويين سابقا ، وكان يبدو انه لو امكن تقديم مساعدات مغرية اليه فان ذلك قد يؤدى الى حدوث انشقاقات فى افغانستان الغربية مما يرغم زمان شاه على التخلص من غزوه للهند . وكان رأى ويلسلى ، أن هذه المحاولة قد تسهم أيضا فى حمل الشاه على مقاومة المحاولات التى كان يقوم بها الفرنسيون لـكسب الفرس . وبنـــاء على تعليمات من ويلسلى أجرى مهدى على خان اتصالا بالشاه فى نهاية ١٧٩٨ غير أن عبارات التهجم على زمان شاه والأمر الذى أصدره شاه فارس بالقبض على اى مواطن فرنسى يتواجد على الساحل الفارسى للخليج قد غيرت تلك الاتصالات ولم تنم عن أى شيء .

وكنتيجة لوصول معلومات فى صيف ١٧٩٩ بأن زمان شاه ينوى القيام بهجوم جديد على البنجاب اقتنع ويلسلى بأن ارسال وفد كامل الى بلاط فارس اصبح امرا ضروريا . وفى شهر اغسطس اختار ويلسلى الكابتن جون مالكولم مساعد المقيم البريطانى فى حيدر اباد لهذه المهمة ، وكان مالكولم فى ذلك الوقت فى الثلاثين من عمره ، وقد جاء الى الهنـــد كجندى تحت التمـــرين فى جيش الشركة ، وكان عمره اذ ذاك اربعة عشر عاما وقد شهد عمليات حربية فى ميسور فى سنة ١٧٩٠ ، وفى عام ١٧٩٨ نقلت خدماته الى السلك السياسى حيث عين فى حيدر اباد ، وحتى ذلك الوقت لم تظهر اى دلائل على نبوغه غـــير العادى ،

وكل ماكان معروفا عنه انه شجاع وعنيف وطموح مما جعله يحظى باهتمام الحاكم العام وتقديره ، وقد تلقى مالكولم التعليمات الخاصة بمهمته فى ١٠ أكتوبر ١٧٩٩ ، وكان الهدف الرئيسى من مهمته هو أن يحول بين زمان شاه وغزو الهند اما الهدف الثانى لمهمته فهو الحصول على تعاون من فتح على شاه على مقاومة اى محاولات يقوم بها الفرنسيون للوصول الى الهند عن طريق فارس أو الخليج الفارسى(١) .

وقد فوض مالكولم بعقد اتفاقية مع حاكم فارس يتعهد فيها بهذين المطلبين فى مقابل أن تتعهد بريطانيا بدفع معونة مالية سنوية له فى حدود ٤٠٠٫٠٠٠ روبية (أى مايعادل ٤٠٫٠٠٠ ج‌س) طوال سريان فترة المعاهدة ، وهى ثلاث سنوات مع احتمال تجديدها ، أما بالنسبة للفرنسيين فان ويلسلى لم يزود مالكولم بتعليمات محددة وانما ترك له حرية اختيار أسلوب اقناع الشاه بقطع علاقاته بالفرنسيين فيما اذا حاول الفرنسيون التوغل الى آسيا فسوف يقدم الأسطول البريطانى مساندة للشاه . واذا أراد الشاه الاشتراك فى القتال ضد فرنسا فان الحكومة البريطانية سوف تتعهد له بدفع معونة مالية شهرية مقابل ذلك .

كما أوضح ويلسلى لمالكولم بأن يوجه نظر الشاه الى الفوائد التى سوف تتمخض عن قيام تبادل تجارى متحرر ومفتوح بين فارس والهند ، فاذا ماوافق الشاه على هذا الراى فيمكن لمالكولم ان يوقع على معاهدة تجارية دائمة مع فارس لا تنتهى الا بانتهاء المعاهدة السياسية كما كلف بزيارة مسقط وهو فى طريقه الى فارس ليحث السلطان على الالتزام باتفاقية سنة ١٧٩٨ ، كما عهد اليه بمحاولة انهاء خلافات السلطان مع سليمان باشا حاكم بغداد، لأن الخلاف المذكور كان يسبب احراجا لحكومة الهند البريطانية نظرا لوجود تحالف بين بريطانيا والباب العالى ، ونظرا لأن الخلاف كان قد نشأ كما يقول السلطان

---

(١) ان مدى الأهمية التى تظهر كان يعلقها ويلسلى على مهمة مبعوثكم من الحيز الذى افرد لكل من هذه التعليمات فالتعليمات الخاصة بزمان شاه استوفت نحو ثمانى صفحات بينما التعليمات الخاصة بالفرنسيين لم تزد عن صفحة واحدة .

عن امتناع الباشا من دفع المخصصات السنوية التى سبق أن دفعها من عشرين عاما نيابة عن السلطان العثمانى للامام أحمد بن سعيد مقابل المساعدة التى قدمتها مسقط للأتراك أثناء حصار الفرس للبصرة ، أما سليمان باشا فكان يتهم السيد سلطان بن احمد بأنه قد أساء الى التسهيلات الممنوحة له فى البصرة ، وأيا كانت صحة هذه الاتهامات فقد طلب من مالكولم بأن يوجه نظر السلطان الى أن سلوكه هذا يتناقض مع روح الاتفاق الذى ينص بأن أصدقاء احدى الدولتين هم أصدقاء الدولة الأخرى(١) .

وقد وصل مالكولم بومباى فى نهاية العام ، وكان مدير الجمارك والمحاسب العام قد أعد له تقريرا عن الوضع التجارى ، واقترح فيه بأن تستمر تجارة الهند مع فارس كما كانت فى أيدى رجال الأعمال من القطاع الخاص ، وفيما يختص بتجارة الشركة فان التقرير لم يطالب بامتيازات خاصة لها كما اقترح التقرير ان يتقدم مالكولم باقتراح الى الشاه،وهو الاقتراح الذى سبق أن تقدم به مهدى من قبل ، ومؤداه أن تطلب الشركة منحها احدى الجزر القريبة من الساحل الفارسى لاقامة المركز التجارى عليها بحيث يمكن تحويل ذلك المركز فى المستقبل الى منطقة تجارية حرة للخليج(٢) . وفى ٢٩ ديسمبر غادر مالكولم

---

(١) رسائل ويلسلى مجلد ٨٢ — ٩٠ اعداد الكولونيل ويليام كرك باتريك (سكرتير الحاكم العام) الى مالكولم وفورت‌ويليام ١٠ اكتوبر ١٧٩٩ أما بالنسبة للنزاع بين سلطان مسقط وسليمان باشا فيمكن الاطلاع على وثائق حكومة بومباى بشأن أول اتصال بين شركة الهند الشرقية والخليج مضمون خطاب موجه من مانستى المقيم البريطانى فى بوشهر الى المجلس الوزارى فى حكومة بومباى بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٧٩٨ و ١٠ اكتوبر و ٢٧ نوفمبر ١٨٩٩ وكذلك « فارس والخليج » مجلد ٢١ مضمون خطاب من مجلس وزراء بومباى الى مالكولم بتاريخ ٢ ديسمبر ١٧٩٩ والمجلد الثالث والعشرين مضمون رسالة من جونز الى مجلس وزراء حكومة بومباى والمرسل من بغداد بتاريخ ٢٣ ابريل ١٨٠٠ .

(٢) وثائق حكومة بومباى حول اتصال لشركة الهند الشرقية بالخليج مضمون خطاب مرسل من مستر فوسد الى دنكان بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٧٩٩ .

بومباى على الطراد انتربيد ، ووصل الى مسقط بعد عشرة أيام ، وكان السيد سلطان حاكم مسقط متغيبا عن البلاد فى جولة بحرية على احدى الفرقاطات لمطاردة بعض القراصنة فى مياه الخليج ، ولقد لحق به مالكولم ، وفى يوم ١٧ يناير التقى بالسلطان بالقرب من جزيرة هنجام ، وقد عقد مالكولم مباحثات طويلة مع السيد سلطان تركزت حول حجم القوات البريطانية فى الهند التى عززت بعد هزيمة سلطان ، وقد أعرب السلطان فى رده عن عميق مشاعر الصداقة نحو البريطانيين ، وقد قدم مالكولم الى السلطان الجراح ارشيلد بوجال من العاملين فى حكومة بومباى ، وطلب منه أن يوافق على تعيينه كوكيل للشركة فى مسقط ، وكان السلطان قد سبق أن عارض اقتراح جوناثان دنكان فى عام ١٧٩٨ بتزويده بجراح ، ولكنه وافق فى هذه المرة على تعيين بوجال كطبيب خاص له فى مسقط .

وقد تأكدت هذه الموافقة بعقد اتفاقية بين الطرفين وقع عليها فى ١٨ يناير ١٨٠٠م وكانت تعزيزا للاتفاق السابق المعقود فى سنة ١٧٩٨(١) ، وقد اضطر مالكولم الى البقاء فى بوشهر أربعة أشهر فى انتظار مبعوث الشاه ليصحبه الى بلاط صاحب الجلالة الامبراطور ، وخلال هذه الفترة أجرى مالكولم بعض التحريات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى فارس كانت نتيجتها اقتناع مالكولم بأنه لم تعد هناك جدوى من عقد اتفاقية جديدة بين الشركة وحكومة فارس ، وقد رأى مالكولم أنه من الأفضل أن يظل التبادل التجارى بين الشركة وفارس فى يد القطاع الخاص من التجار وأن يتم الحصول على احدى الجزر القريبة من فارس لانشاء المركز التجارى للشركة ، وكان رأى مالكولم هذا يقوم على اعتبارات سياسية أكثر منها تجارية . وقد كشفت الحملة الفرنسية على مصر عن مواطن الضعف فى الامبراطورية العثمانية كما جعلت تحرك الفرنسيين الى الهند عن طريق الأقاليم العثمانية أمرا محتملا ، كما كان هناك احتمال تحرك

---

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٢ مضمون خطاب من مالكولم لويلسلى من بوشهر بتاريخ أول فبراير ١٨٠٠ وقد أعيد نشر هذه الاتفاقية فى « كتاب المعاهدات » اعداد ايشون مجلد ١١ ص ٥٥ — ٥٦ .

روسيا من حدودها الجنوبية من بحر قزوين ، وبالتالى فان حصول بريطانيا على جزيرة فى فارس سوف يساعد الى حدما على مواجهة الخطرين من الجهتين ، كما يمكن أن تصبح هذه الجزيرة ملجأ للتجار الفرس والأتراك الذين يبحثون عن منطقة مأمونة يزاولون فيها أعمالهم التجارية ، أما اذا تأزمت العلاقات بين الحكومة البريطانية والباب العـالى فان ذلك سيؤدى الى خلع باشا بغـداد ، وبالتالى سيكون وجود هذا الموقع الحصين فى يد بريطانيا فى صالح الخليج ، أما الجزر الأخرى الواقعة فى الخليج فلم تكن تصلح فى رأى مالكولم أن تـكون قاعدة ، فجزيرة خرك التى كانت مركزا تجاريا للهولنديين سابقا لا تصلح لهذا الغرض ، لأن مرفأها غير حصين كما انها ليست فى موقع يسمح بالاشراف منه على التجارة بين الهند وفارس ، كما أنها لم تكن تصلح كمنطقة حرة لأنه لا توجد رحلات بينها وبين البصرة(١) ، وكان مالكولم يفضل جزيرة قشم الواقعة عنـد مدخل الخليج ، فلو أمكن تطوير تلك المنطقة فانها قد تجتذب على حد رأيه نصف التجارة العابرة الى مسقط ، ويمكن أن يقوم بالاشراف عليها مقيم سياسى بشرط الا يسمح له بالاشتراك فى التجارة وأن توضع تحت اشرافه قــوة مكونة من خمسمائة جندى وطرادين لحماية المنشآت التجارية فى الجزيرة ، ويمكن توفير نفقات صيانة الجزيرة عن طريق فرض رسم قدره ٣٪ على جميع الواردات ، كما أن مالكولم لم يكن يتوقع أى صعوبة فى الحصول على تلك الجزيرة من شاه فارس(٢) .

---

(١) وثائق حكومة بومباى حول أول اتصال لشركة الهند الشرقية بالخليج الفارسى مضمون رسالة من مالكولم لويلسلى من بوشهر بتـاريخ ٢٦ فبراير ١٨٠٠ .

(٢) على الرغم من أن الامبراطور لا يمارس أى سلطة فعلية على أى من الجزر الواقعة فى الخليج الا أن جميع الجزر الواقعة على الشـاطىء الشمالى تعتبر جزءا من الامبراطورية وبالتالى فان تقديم طلب اليه لمنح بريطانيا هـذه الجزر يعتبر الخطوة الأولى نحو تنفيذ هذه الخطة .. وكان يمكن الحصـول على موافقة الشاه بسهولة لأن الجـزر فى وضـعها ذلك لم تكن ذات أهميـة للحكومة . (نفس المصدر) راجع أيضا « فارس والخليـج » مجـلد ٢٢ مضمون رسالة من مالكولم لويلسلى « من بوشهر فى ٢٢ ابريل و ٥ مايو ١٨٠٠

ولم يتمكن مالكولم من مغادرة بوشهر قبل مايو ان يصل الى طهران قبل نوفمبر ، وكانت رحلته الى العاصمة الفارسية فريدة ، فالى جانب الحاشية التى احاطت به والمكونة من الأوربيين الستة الرسميين فقد رافقه حرس مكون من مائة جندى وجمع من الخدم والاتباع وبعض المرافقين من الفرس ، وكان الموكب مهيبا ، ويتكون من الجياد والرجال ، ويضم مالا يقل عن ٥٠٠ شخص . وكان مالكولم مقتنعا بأن نجاحه فى تلك المهمة يعتمد على ماسيتركه من انطباع عن مركز وقوة الشركة وعن نفسه كممثل لها لدى الشاه ، وانطلاقا من هذا الاعتبار كان يوزع الهدايا بصورة لا نظير لها ، كما اصر على أن تقام له مراسم الاستقبال بما يتناسب مع مركزه لأنه كان يعتقد بأن البروتوكول وما يتبعه من احتفالات وحفاوة يشكل أهمية بالغة فىنظر الفرس،وكان أسلوب رحلته يورطه فى نزاعات طويلة مع السلطات المحلية وهو فى طريقه الى الشاه غير أنه كان يبرر تلك الحوادث وتجاوزه فى الانفاق ، على ماقرره له ويلسلى من اعتمادات ، بالأهمية التى كان ينظر بها الشاه الى مهمته ، وقد قال مالكولم فى رسالة بعث بها الى الحاكم العام ، ان الأوامر التى أصدرها الشاه بحسن معاملتى لا تترك اى مجال للشك فى رغبته فى تدعيم عرى الصداقة مع الحكومة البريطانية كما قال « ان الشاه لم يكن موجها بالدوافع السياسية وحدها فى اعطاء ذلك المظهر وتلك الأهمية للزيارة ، فقد كان الشاه يعتقد بأن الزيارة والصورة التى تمت بها قد تمت فى فترة حساسة لا من حيث ولاء رعاياه له فحسب بل ومن حيث دعم هيبته بين خصومه»(١) وكان من المشكوك فيه أن يكون الشاه فعلا قد نظر الى زيارة مالكولم من تلك الزاوية فهو لم يكن يرغب فى مقابلته لأنه فى نظره لم يكن اكثر من مبعوث لشركة تجارية ، غير أن مالكولم ربما تأثر من جو الاستقبال الذى استقبل به فى أصفهان حيث اصطف نحو ١٠ آلاف فارس لتحيته ، وفى طهران حيث رافقه حرس مكون من ١٢٠٠ خيال من بلاط الشاه عند دخوله اليها،وفى يوم ١٦ نوفمبر استقبله الامبراطور الذى كان يتربع على

---

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٢ من مضمون رسالة من مالكولم الى ويلسلى من شيراز بتاريخ ٦ يونيه ١٨٠٠ .

عرش الطاووس وهو يرتدى حلة رسمية مطرزة بقطع الجواهر الثمينة التى قدر مالكولم قيمتهـا بحوالى مليون من الجنيهات الاسترلينية ، وفى مقابلته الثانية للامبراطور بعد أحد عشر يوما من المقابلة الأولى قدم مالكولم للامبراطور هدايا الحاكم العام للهند ، وكانت تتألف من ماسة كبيرة وساعات مرصعة بالأحجار وعلب فضية وذهبية ومرايا وشالات وبنادق ومسدسات كانت محلاة بالذهب والفضـة .

وقد بدأ مالكولم مفاوضاته مع كبار الوزراء حاجى ابراهيم خان ومرزا شفيع بعد بضعة أيام من وصوله الى طهران ، وقد وقعت تغييرات هامة منـذ أن غادر مالكولم الهند بحث انقضى المضمون السياسى لمهمته ، فلقد اخذ حكم سلطان زمان شاه يتدهورفى أفغانستان،واصبح من المتوقع أنيخلعه منافسوه عن الحكم فى أية لحظة ، كما أصيب الفرنسيون فى مصر بالضعف ، ثم سرعان ماتمكنت القوة البريطانية التى ارسلت الى مصر من تمزيق شمل ذلك الجيش، وبالنظر الى تلك التطورات فقد قرر مالكولم بأن يركز على الناحية التجارية من مهمته واستطاع بسهولة أن يستعيد للشركة امتيازاتها السابقة بالاضافة الى امتيازات أخرى ، ولكنه عندما طلب من الحكومة الفارسية التخلى عن جزيرتى قشم وهنجام وفق التعليمات الجديدة التى وصلته من ويلسلى اعترضـته المشاكل ، فقد كان الوزراء الفرس يعارضـون بشـدة التخـلى عن أية أراض فارسية على أساس أن التنازل عن احدى الجزر للشركة سوف يتبعه تنازل عن أراض فارسية أخرى حتى يتم الاستيلاء على كل فارس ، وذلك وفقا لخطة التوسع البريطانى ، وقد فشل مالكولم فى ازالة هذا الانطباع من ذهن الشاه ووزرائه رغم المحاولات التى بذلها لاقناعهم ، وبالتالى صرف النظر عن هـذا الموضوع وتحول النقاش الى موضوع ابرام المعاهدة السياسية مع فارس . وقد وجد مالكولم لدى الشاه ووزرائه استعدادا للتعاون ضد أطماع زمان شـاه ، وبذلك تم الاتفاق على صيغة الاتفاقية التى تعهد الشاه بموجبها بالزحف على افغانستان بقوات مدربة على حرب الجبال فيما لو حاول الحاكم الأفغانى شن هجوم على الهند البريطانية ، وبالمقابل تعهد مالكولم بالنيابة عن حكومته بتقديم

المساعدات العسكرية الى الشاه فيما لو تعرضت بلاده لغزو من افغانستان . ولم يرد فى تلك المعاهدة أى ذكر لتقديم معونة مالية بعد أن رأى مالكولم أثناء المفاوضات أن الظروف لم تعد تستدعى الاشارة الى الموضوع .

واما فيما يختص بالفرنسيين فقد وضح مالكولم للشاه بأن مصلحته مرتبطة بمصلحة الملوك الآخرين فى مقاومة النظام الجمهورى والثورى للحكم الفرنسى ، وسواء اقتنع الشاه بذلك الرأى أو لم يقتنع فقد وافق على التعاون مع الأسطول البريطانى فى مقاومته الفرنسيين فيما لو حاولوا الهجوم على الخليج ، كما وافق على اصدار فرمان يحظر على الفرنسيين الدخول الى المنطقة الساحلية من الخليج بحجة أنهم قد يعرضون حياتهم للخطر ، وقد تعهدت الحكومة البريطانية من جانبها بتزويد الشاه بالمساعدات العسكرية فيما لوهاجم الفرنسيون بلاده . كذلك لم يشر مالكولم الى أى نوع من المساعدات المالية لحكومة الشاه(١) .

لقد تم التوقيع على المعاهدات السياسية والتجارية بتاريخ ٢٨ يناير ١٨٠١ وبعدها مباشرة سافر مالكولم،وقد خرج من بلاط الشاه بانطباع،هو أن الامبراطور الفارسى كان يخشى التهديدات الروسية على حدوده الشمالية اكثر من أكثر من اى شىء آخر ، فقد ضاعت منطقة جورجيا من فارس على اثرالغزو الروسى لها فى عام ١٧٩٦ ، وقد توقف الزحف الروسى فى الأراضى الفارسية بسبب وفاة الامبراطورة كاترين فى شهر نوفمبر من ذلك العام،الأمر الذى أدى الى ايقاف تقدم الحملة الروسية . ولم تؤد محاولات الشاه لاستعادة جورجيا الى اى نتيجة ، وظل فى خوف دائم من تكرار الحملات الروسية فى بلاده . وكان اكثر ماازعج مالكولم هو خوفه من أن يؤدى التقدم الروسى فى آسيا الى تهديد الوجود البريطانى فى الهند فى يوم من الأيام(٢) .

---

(١) المعاهدات اعداد اتيشيسون مجلد ١٠ ص ٣٧ ــ ٤٥ بالنسبة لمفاوضات مالكولم فى طهران راجع تقريره فى « فارس والخليج الفارسى » المجلد الثانى والعشرين .

(٢) راجع « فارس والخليج » مجلد ٢٨ من رسالة من مالكولم الى ارل أوف الجن (سفير بريطانيا) لدى القسطنطينية بتاريخ ٢٣ مارس ١٨٠١ .

وقد وصل مالكولم الى الهند فى منتصف عام ١٨٠١م أى بعد ١٨ شهراً على خروجه من بومباى ، ولقد لقى الأسلوب الذى أدى مالكولم به مهمته تأييدا تاما من ويلسلى رغم أنه انحرف عن التعليمات التى أعطيت له ، وعلى الأخص بالنسبة للمعاهدة السياسية التى لم تحدد لهـا المـدة التى اشترطها ويلسلى وهى ثلاث سنوات والموقف الشديد العداء الذى اتخذه مالكولم من فرنسا . وقد انتقد الحاكم العام النفقات الباهظة التى تكلفتها المهمة وان كانت المكاسب التى حققها قد غطت على ذلك(١) . فقد أسفرت المهمة عن اقامة علاقة حميـدة ووطيدة مع حكومة فارس ، كما حصلت بريطانيا على امتيازات لهـا أهميتها فى الاتفاقية التجارية التى تخول لها استخدامات غير محدودة للموانىء الفارسية والاشراف التام على الساحل الفارسى(٢) .

وعلى أى حال فلم يكن فى الامكان التغاضى عن النتائج التى تمخضت عنها المهمة ، فبالنسبة للمعاهدة السياسية فان المعاهدة جاءت متأخرة لأن زمان شاه لم يعد يشكل أى خطر على الوجود البريطانى فى الهنـد ، وأمـا عن التهـديد الفرنسى للوجود البريطانى فان ذلك التهديد قد زال منذ وقت طويل . ولعل مالكولم قد شعر بذلك اذ لم تتضمن الاتفاقية أى معونات مالية للشاه . وأمـا المعاهدة التجارية فانها لم تأت بامتيازات لم تكن موجودة من قبل ، على أن مهمة مالكولم قد تركت سابقة فى الاسراف والتبذير ظلت مثار انتقادات لاذعة لعدة سنوات ، ولعل أقسى حكم على تلك المعاهدة هو رأى هنرى رولنسون الذى قال فيما بعد « بأن المعاهدة لم تكن سليمة من حيث المضمون السياسى ، كما أنها لم

---

(١) أما النفقات والتكاليف التى تكبدتها الحكومة البريطانية فمن الصعب اعطاء تقدير لها وان كان الرقم التقديرى المتداول لتلك المبالغ هو مليون روبية هندية أى مايعادل (مائة ألف جنيه استرلينى) .

(٢) مختارات من الارسالية معاهدات وغيرها من الوثائق الخاصة بالماركيز ويلسلى اعداد اس . ح أوجن — اكسفورد ١٨٧٧ ص ٦٠٧ الى ٦١٠ من رسالة موجهة من ويلسلى الى سكرتارية اللجنة بتاريخ ١٨٠١/٩/٢٨ .

تكن ضرورية وكانت حافلة بالعواقب الوخيمة لانها بنيت على أساس خطر وهمى لا وجود له » كما أنها تتضمن حلولا مبالغا فيها أو على الأقل أسلوبا عنيفا لمعالجة المشكلات المطروحة كما كانت أسلوبا انتحاريا لتعريض امبراطوريتنا للخطر ، وبالتالى فان المعاهدة على هذه الاعتبارات انما تشجع العدوان أكثر مما تمنعه، ولقد كانت المعاهدة بادرة سيئة بالنسبة للتعامل مع حكومة فارس وبدأت علاقاتنا السياسية معها بهذا الأسلوب ، كما كانت نذيرا لأن تصبح الامبراطورية الفارسية كبش الفداء للسياسة البريطانية(١) .

انتهى الاحتلال الفرنسى لمصر فى يونيو سنة ١٨٠١ عندما احتلت القاهرة قوة عسكرية بريطانية تقدمت من الاسكندرية ، بينما استولت قوة أخرى وصلت من الهند على منطقة القصير والسويس ثم أخذت تتقدم على طول ضفة النيل . وفى مارس من ذلك العام وقعت معاهدة السلام بين انجلترا وفرنسا فى أمينز ، ولكنه كان سلاما قصيرا ، فقد نشبت الحرب من جديد بينهما فى شهر مايو ١٨٠٥ مما ارغم الحكومة البريطانية على ان تبحث مرة أخرى عن سبل لحماية ممتلكات شركتها فى الهند ، وقد تركز اهتمام بريطانيا خلال السنوات القليلة التى تلت ذلك وبوجه عام كما كان الحال قبل عام ١٧٩٨ على المناطق التى تعتبر أخطر مواقع الصراع خلال الثورة والحروب النابليونية ونعنى به المحيط الهندى والأرخبيل الشرقى . وكان احتمال وجود تهديد من الشمال الغربى

---

(١) انجلترا وفرنسا فى الشرق طبعة لندن ١٨٧٥ ص ١٠ كذلك انتقد رولنسون بشدة الأوامر المتشدوة التى أصدرها الشاه الى حكام الولايات فى فارس وخوزستان والتى تنص على « انه اذا حاول أحد الفرنسيين المرور بموانيكم وحدودكم او أراد الاقامة على الشواطىء الفارسية أو حدودها فينبغى عليكم اتخاذ الاجراءات اللازمة لابعاده أو اعدامه وبأن لا تتركوا لأى فرنسى مجالا للتواجد فى اى منطقة فى مملكتنا وانكم مفوضون تفويضا كاملا لاذلالهم والقضاء عليهم (كتاب المعاهدات) اعداد اتيشيسون المجلد العاشر ص ٣٧ ترجمة للفرمان الذى أصدره فتح على شاه بتاريخ ١٢ شعبان ١٢١٥ . وعلى أية حال فلابد من التسليم لميول الفرس الى المغالاة والشطط .

عن طريق فارس والخليج احتمالا ضئيلا وبالتالى لم تبذل أى محاولة للحفاظ على العلاقات التى أنشأها مالكولم مع فارس ، بل ان حكومة البنغال لم تفكر قط فى التصديق على المعاهدات التى عقدها مالكولم مع الشاه . وقد وضعت نهاية مفاجئة لبعثة الشاه فى عام ١٨٠٢ التى حضرت للتصديق على المعاهدات ، وذلك بسبب مقتل السفير على أثر مشاجرة بين خدمه وحرس الحكومة فى بومباى(١) . ولقد وجه الحاكم العام فى سنة ١٨٠٤ خطاب اعتذار الى حكومة طهران حمله صمويل مانستى المقيم البريطانى للشركة فى البصرة الذى بذل مجهودا ليضفى على مهمته طابعا سياسيا ، ولكن الحاكم العام سرعان ما استدعاه للعودة بسبب ذلك(٢) . ولم يتم تبادل المراسلات مع الشاه بعد ذلك لفترة من الوقت . وكان من الممكن أن ينصرف البريطانيون عن شئون الخليج لولا أن الفرنسيين جددوا من نشاطهم فى مسقط خلال النصف الأخير من عام ١٨٠٣ ، ففى مستهل ذلك العام أبحر أسطول مكون من سبع قطع ، تحمل ٢٠ ألف جندى من ميناء بوست متوجها الى جزر موريشيوس بقيادة الجنرال دنكان الحاكم الجديد للجزيرة والقائد العام الفرنسى فى الشرق .

---

(١) لقد أنهى هذا الحادث خدمة مهدى على خان لدى شركة الهند الشرقية فقد قام المذكور بعد علمه بموت السفير بتوجيه رسالة الى بلاط الامبراطور تتضمن نصا غير صحيح عن الحادث ولهذا فقد فصل من عمله كمقيم فى بوشهر ثم اعتكف فى شهر ابريل ١٨٠٣ . وبعد عام واحد وافته المنية ولكن موته أثار أسف دنكان وغيره من رجال حكومة بومباى الذين قاموا بالترتيبات لدفنه فى النجف . وكان مهدى على خان يطارده سوء الطالع حتى آخر لحظة من حياته فالسفينة التى كانت تحمل جثمانه استولت عليها سفينة القرصنة الفرنسية لافورتشيون وذلك فى شهر سبتمبر عام ١٨٠٤ وقد علم دنكان فيما بعد أن قبطان المركب الفرنسى المسلح قد وارى جثمانه فى البحر رسميا .

(٢) للاطلاع على تقرير مانسى عن مهمته (راجع) « فارس والخليج » مجلد ٢٤ وعلى الأخص خطاباته فى ٢١ فبراير ، ٣ ، ٣١ مارس ، ٢٨ ابريل ، ١٢ يونيو و ٦ ، ١٨ ، ٣١ يوليو ، ٨ نوفمبر ، ١٨٠٤ .

وقد زود دنكان بتعليمات للقيام بمحاولات جادة لدعم السيطرة الفرنسية فى المياه الشرقية ، وكانت مسقط احدى النقاط الرئيسية التى شملتها مهمته. وبعد شهر من وصوله الى جزر موريشيوس أى فى اغسطس ١٨٥٣ أوفد وكيلا له يدعى دى كافيناك الى مسقط مزودا بالأوامر اللازمة لاقناع سلطان بن أحمد بقبوله ممثلا لفرنسا وكمبعوث مقيم فيها ، وقد وصل دى كافيناك الى مسقط فى شهر أكتوبر ليجد السلطان خارج العاصمة فى جولة داخلية ، كما كان الكابتن ديفيد سيتون الممثل المقيم لشركة الهند الشرقية ــ الذى تولى الوكالة بعد وفاة بوجل فى عام ١٨٠١ فى جولة بحرية فى منطقة الخليج هو الآخر . وقد لمس كافيناك أن أغلبية وجهاء البلاد كانوا يرغبون فى تجديد الصلات مع فرنسا غير أن السيد سلطان بعد رجوعه من الداخلية رفض قبوله كممثل مقيم لفرنسا على أساس أن ذلك سيشكل انتهاكا لاتفاقية عام ١٧٩٨ مع بريطانيا(١) .

وعلى الرغم من أن موقف سلطان بن أحمد كان وديا تجاه بريطانيا الا أنه لم يتخذ ذلك الموقف بدافع الحرص على صداقته مع بريطانيا فقط ، فقد كانت هناك اعتبارات أخرى ، فقد أخذ الوهابيون يشنون هجمات على حدوده من المنطقة الوسطى للجزيرة العربية فى الوقت الذى كان يحارب القراصنة القواسم وعتوب البحرين فى البحر ، وكانت القوة الوحيدة التى يمكن أن تقدم له المساعدة ضد خصومه هى حكومة الهند البريطانية ، ولهذا لم يكن مستعدا للتضحية بالمساعدات البريطانية لقاء التودد للفرنسيين كما كانت تجارة مسقط مرتبطة بالهند . خصوصا وأن دنكان كان قد هدده فى نفس ذلك الشهر بأنه فيما لو سمح للفرنسيين بموطىء قدم فى مسقط وتحت أية شروط وبأى أسلوب فسوف يتم قطع العلاقات معه .

على أن فشل مهمة دى كافيناك لم يمنع الفرنسيين من استخدام مسقط

---

(١) ملخص للمخابرات المتداولة حول شئون الخليج (١٨٠ — ١٨٥٣ ص ٢٩ من مضمون رسالة من دنكان الى سلطان بن احمد بتاريخ ١٨٠٣/١٠/٢١ .

كمحطة لتموين أعمال القرصنة التى كانوا يقومون بها والمقاصة لغنائم الحرب فقد كانت السفينة الحربية لافوريتون (٢١ مدفعا) تجوب مياه الخليج من سبتمبر الى نوفمبر قبل أن تدمرها مدفعية البارجة البريطانية كونكورد فىنهاية شهر نوفمبر(١) وفى أوائل السنة الجديدة اشتبك الطراد تيماوث فى معركة غير متكافئةمع إحدى سفنالقرصنة الفرنسية مجهولةالاسم عند مدخل الخليج، وعلى الرغم من أن استخدام الفرنسيين لمسقط كان يضايق حكومة بومباى الا أن اتفاقية ١٧٩٨ لم تكن تتضمن أى حظر على السفن الفرنسية من ارتيادمينائها للتموين . وكان سلطان بن أحمد قد ألمح الى ذلك فى شهر مايو ١٨٠٠ عندما كان يزوره أحد المسئولين من حكومة بومباى ، كما أضاف الى أنه لم يكن يفسرالبند الثانى من الاتفاقية،والتى تنصعلىأن أعداءالدولتين المتعاقدتين هم الأعداء الأخرى،على أنها تربط الطرفين بحلف هجومى ودفاعى ، وقال أنه طالما لم يكن يسمح للفرنسيين بالاقامة فانه يعتبر حرا فى ممارسته الشئون التجارية العادية معهم(٢) ولقد رأت حكومة بومباى أن توافق سلطان على موقفه هذا على أساس أن أعمال القرصنة التى تمارسها فرنسا فى مياه الخليج لا تشكل خطورة كبيرة . كما أنه وبشكل أهم فان التقيد بحرفية الاتفاقية قد يجر

---

(١) ارشيف وزارة الهند مجلد ٣ (١) من الحاكم الى اللجنة الوزارية ١٨٠٤/١١/٩ أما قبل هذا الحادث فلم تغرق سفينة واحدة من سفن القرصنة فى مياه الخليج وفى شهر أكتوبر ١٧٩٩ دارت معركة حامية بالقرب من منطقة أم القوين بين الطراد البريطانى ترنكومالى وسفينة القرصنة المسلحة الفرنسية (١٨ مدفعا) وتسمى لى انيجينىوالتى أدت الي غرقالسفينتين بعد أن انفجرت عيون البارود فى الطراد البريطانى .

(٢) من مضمون رسالة من جى. أج لوفيت الى دنكان بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٠٠ من مسقط أعرب لوفيت عن موافقته لتفسير السلطان للبند الثانى من الاتفاقية «علىالرغم منأنالنصوص تحمل المعاهدة الدفاعية فانها تصوراتها تدخل ضمن اعتبار ماورد فيها كمحرد طلب » لاعتبار عمان جزءا من الممتلكات البريطانية وبريطانيا العظمى كجزء من عمان .

البريطانيين الى الدفاع عن مسقط ضد الفرنسيين أو الى ما هـــو أدهى الى الاصطدام مع الوهابيين(١) . وقد تمسك البريطانيون بهـذه السياسة الى مابعد وفاة سلطان بن أحمد فى نوفمبر سنة ١٨٠٤ وكان كل ماتطلبه بريطانيا من خلفه بدر بن سيف هو الالتزام بنصوص الاتفاقية ، ولم تجـد بريطانيا نفســها فى مواجهة مع الفرنسيين بالنسبة لعلاقتهم بمسقط الا بعد مقتل بدر بن سيف فى صيف عام ١٨٠٦ . وخلف بدر ابن عمه الشاب سعيد بن سلطان وكان عمره يومئذ ستة عشر عاما ، وكان ابنا لسلطان بن أحمد الذى اعتلى عرش الحكم بعد اغتياله لبدر(٢) ، وكان وضع سعيد بن سلطان فى بداية توليه الحكم دقيقـا للغاية ، فلم يكن سعيد يتمتع بتأييده معظم القبائل ، كما كان الوهابيون يعيثون فسادا على حدوده الغربية والقواسم يهاجمونه من الشمال . وكانت السلطات البريطانية فى الهند تنظر بغير ارتياح الى الطريقة التى تولى بها الحكم وظلوا غير معترفين به زهاء عام واحد . ومنذ وفاة سلطان بن احمد ظلت علاقة مســقط بفرنسا فاترة ، ونظرا لحاجته الى حليف يدعم حكمه فى الداخل ويبعد عنـه خصومه فى الخارج ، فلم يكن سعيد فى وضع يسمح له بمعاداة الخصــمين الكبيرين فى الصراع الذى كان ناشبا بينهما فى المياه الشرقية . وكما كان مقدرا عليه فقد وجد نفسه بعد مضى شهر من توليه الحكم أمام خصمين هما فرنسا وانجلترا .

وفى منتصف يوليو ١٨٠٦ وصلت سفينة القرصنة الفرنسية لافيلانت الى مسقط للاصلاح والتموين قبل ابحارها الى الخليج ، ولم يمض على وجـود السفينة داخل مرفأ مسقط الا قليل حتى وصلت الفرقاطة البريطانية كونكورد وقد ظهر لقبطان الفرقاطة البريطانية أن سعيد بن سلطان لم يكن يكتفى بتزويد الطراد الفرنسى بالمـاء والطعام والمـال فقط وانما قدم له طاقما من العمـال لاجراء الاصلاحات اللازمة للسفينة الفرنسية ، وبمـــا أن قبطان الفرقاطة

---

(١) انظر مايلى فصل (٣) .

(٢) للاطلاع على تفاصيل عهد بدر والظروف التى أدت الى موته أنظر مايلى

البريطانية قد وجد فى عمل سعيد مايتعارض مع الاتفاقية المعقودة معه فقدطلب اليه بأن يأمر الطراد الفرنسى بمغادرة المياه الاقليمية المسقطية خلال ٢٤ساعة، وقد استجاب سعيد بتردد لطلب القبطان البريطانى وأخذت الفرقاطة تبحر غير بعيد عن الميناء . وما أن غادرت السفينة الفرنسية الميناء خلال ساعات حتى استولت عليها الفرقاطة البريطانية من غير اشتباك ، وعلى مسافة تقع بنحو ٩ أميال من مسقط . وبسبب تخوف سعيد مما قد يترتب عن الاستيلاء على السفينة الفرنسية من ردود فعل فقد بادر الى الكتابة الى دنكان فى بومباى يحتج على سلوك قبطان الكونكورد ويطلب الافراج عن السفينة ، ولقد تعاطف دنكان مع موقف سعيد من القبطان ، فقد فسر الاتفاقية تفسيرا اعتباطيا لا مبرر له ، ولهذا ابلغ دنكان قاضى المحكمة البحرية فى بومباى حيث كانت توجد السفينة الفرنسية ، بأن موقف الحكومة سوف يكون حرجا اذا ماصدر الحكم بمصادرة السفينة ، وقدرفضت المحكمة انتتقيد بالاعتبارات السياسية فىنظر القضية ومن هنا اعتبرت لافيونت من غنائم الحرب .

كانت النتيجة بالنسبة لسعيد بن سلطان غير سارة . ففى خريف تلك السنة قامت الفرقاطة الفرنسية «لابومونتيه» بايقاف سبع سفن تابعة لمسقط ومصادرة حمولاتها . وقد أبلغ قبطانها ربابنة السفن العمانية أنه قد تصرف بوحى من اوامر صادرة اليه من الجنرال دنكان انتقاما لاستيلاء البريطانيين على السفينة الفرنسية لافيلانت . وبدافع الانزعاج والخوف أوفد مبعوثا خاصا برسالة الى دنكان فى جزيرة موريشيوس يناشده فيها اعادة السلع المصادرة . كما أوفد فى الوقت نفسه مبعوثا آخر برسالة الى دنكان فى بومباى ليعاتبه فيها على ذلك التصرف ومما قاله : (وهذا هو دائما عمل رجالكم الذين دأبوا على ايذائى والنيل من كرامتى وانتهاك حرمة اراضينا رغم مايلقاه رجالكم من حسن المعاملة) وقد ضمن سعيد رسالته طلبا بالحماية البحرية أو اعادة السفينة الفرنسية المصادرة(١) والواقع ان سعيد كان يريد فى قرارة نفسه أن يستمر

---

(١) مجموعة المجلس مجلد ٢٥٧ مجموعة ٥٦٥٠ من مضمون رسالة من سعيد الى دنكان بتاريخ ٥ ذى القعدة ١٢٢١ — ١٥ يناير ١٨٠٧ .

كسمسار لتصريف الغنائم والسلع التى كانت تستولى عليها سفن القرصنة الفرنسية ، كما كان يسعى فى نفس الوقت الى انشاء علاقات مع الهند البريطانية تمكنه كما كان يأمل من الحصول على مساعداتها ضد خصومه الوهابيين فى شبه الجزيرة والخليج ، وكان سعيد يدرك موقفه الضعيف حين تقدم بذلك الطلب خصوصا وانه لم يمض غير وقت قصير منذ أن انتقل الى بلده قرصان خطير هو سيد محمد عقيل الذى كان يمارس أعمال القرصنة من صلالة على الساحل الجنوبى . كما كان يقوم خلال عام ١٨٠٦ بتموين سفن القرصنة الفرنسية التى ترتاد مياه البحر الأحمر . وقد علم فى أوائل سنة ١٨٠٦ أن محمد عقيل كان يتفاوض مع حاكم لنجة لشراء جزيرة كمران على الساحل اليمنى ، وذلك بعد أن قدم المساعدة الى ثلاثة من الضباط الفرنسيين للقيام بمسح الحديدة وكمران وقنفذة على ساحل الحجاز . ونظرا لأن حكومة بومباى قد فهمت من ذلك بأن الفرنسيين يسعون الى تحويل كمران الى قاعدة للقرصنة فقد أرسلت طرادين الى البحر الأحمر فى نهاية شهر يوليو تحت امرة القبطان سيستون الذى كان يعمل كضابط سياسى وذلك لتعقب عقيل واحباط خططه(١) ، ولكن عقيل هرب قبل وصول الطرادين وسافر الى مسقط . وقد وصل سيستون الى لنجة واستطاع أن يحصل على تعهد من حاكمها بعدم السماح للفرنسيين بالدخول الى الموانىء الأخرى الخاضعة له(٢) .

---

(١) سجلات سكرتير حكومة بومباى مجلد ٣ فقرة (أ) من رسالة موجهة من مجلس الحاكم العام الى سكرتير اللجنة بتاريخ ١٠ مايو و ١١ يوليو و ١٢ أغسطس ١٨٠٦ (وكان عقيل قد استولى على سفينة أمريكية اسمها اسكى أوف سالم وذلك بغير بعيد عن جزيرة كمران وذلك فى شهر فبراير وذبح جميع بحارتها) راجع المرفقات برسائل سكرتير حكومة بومباى مجلد (أ) مرفق بخطاب السكرتير المؤرخ ١٠ يوليو ١٨٠٦ من سى شيران هوجى (سمسار الشركة فى موكا) الى الحاكم فى ١٥ يونيو ١٨٠٦ والمرفقات لخطاب السكرتير المؤرخ ١٢ أغسطس ١٨٠٦ من شارلز فوردس الى دنكان (بمباى ١٩ يوليو سنة ١٨٠٦) .

(٢) مذكرات للخطابات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٢ من الحاكم العام الى المحكمة ٢٥ فبراير ١٨٠٧ .

ولم يكن تصرف سعيد بن سلطان بايوائه محمد عقيل هوالذى اثار شكوك بريطانيا بقدر ماكان عزوفها عن التورط فى شئون مسقط . واثناء تولى السير جورج بارلو منصب الحاكم العام مؤقتا كانت الحكومة ملتزمة التزاما تاما بالسياسة التى كان قد وضعها مجلس ادارة شركة الهند الشرقية باستدعاء وليسلى . وكانت بنود هذه السياسة تقوم على أساس :

١ ـ ضغط المصروفات .

٢ ـ عدم الاستحواذ على أراضى الغير وعدم التورط مع الحكومات الأخرى خارج نطاق حكومة الهند البريطانية ، وكانت حكومة بارلو قد حددت صلاحيات ممثلى الشركة فى الخليج ضمن أطر محدودة وتجارية .

وقد تم ابلاغ حاكم بومباى فى يونيو سنة ١٨٠٦ بأن المقيم البريطانى فى بوشهر وفق الصلاحيات المحدودة لوظيفته ، وهى صلاحيات ليست ذات طابع سياسى ، فان مجال تدخله فى الشئون السياسية يبقى مجالا محدودا ووفق ضرورات خاصة تبرر ذلك التدخل(١) ، وبعد شهرين من ذلك التاريخ وضع كل من المقيم البريطانى فى بغداد والبصرة، شأنه شأن المقيم فىبوشهر ، تحتاشراف حكومة بومباى مباشرة . ولم يسمح للمقيمين بالتخابر مباشرة مع الحاكم العام(٢) .. وظل مكتب المقيم البريطانى فى مسقط فى بداية ١٨٠٦ شاغرا عندما غادره المقيم فى اجازة مرضية ، وظل كذلك مما قلل من احتمال التورط البريطانى فى مسألة الدفاع عن مسقط وغيرها من الدول الآسيوية .

فى ابريل سنة ١٨٠٧ ردت الحكومة السامية على طلب سعيد ، وقد جاء فى الرد ، بأن الطريقة المثلى للحفاظ على مصالح مسقط هى فى اتخاذ موقف

---

(١) مرفقات لخطاب السكرتارية فى بومباى مجلد (١) خاص بخطاب السكرتارية مؤرخ ١٢ اغسطس ١٨٠٦ من رسالة موجهة من ان. بى. ادمون بيتون (سكرتير الحاكم العام) الى اف. واردن سكرتير حكومة بومباى بتاريخ ١٨٠٦/٦/١٦ .

(٢) مجموعة المذكرات السرية مجلد ٩ مجموعة (١) من رسالة موجهةمن الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٠٦ .

محايد ، وبدلا من أن ينحاز سعيد لبريطانيا عليه أن يسعى الى عودة علاقات الصداقة مع فرنسا . وتشجيعا له على ذلك فقد وعدت الحكومة البريطانية باعادة السفينة الفرنسية لافيلانت اليه(١) ولكن هذا الرد لم يكن مرضيا لسعيد من حيث أنه يضعف علاقاته ببريطانيا،وعلى أى حال فقد كانت النتيجة أن الرد وضع نهاية لتورط مسقط فى الحرب ، وفى يونيو سنة ١٨٠٧ عقد سعيد معاهدة تجارية مع دنكان ، ولم يمض وقت طويل حتى تم تعيين وكيل لفرنسا فى مسقط دون أن يثير ذلك ردود فعل مضادة من جانب حكومة الهند .

على أن رغبة دنكان فى استئناف علاقات الصداقة مع مسقط لم تكن بدافع الرغبة فى تسوية الخلافات مع السيد سعيد أو تجار جزر موريشيوس فحسب وانما كان هناك دافع آخر وهو رغبة فرنسا فى ١٨٠٦ — ١٨٠٧ استرجاع ماضاع من نفوذها فى الشرق . فنابليون لم يتخل عن احلامه فى اقامة امبراطورية شرقية ولم ينس الدروس التى تلقاها فى مصر ، وبالتالى فان احراز أى نجاح فى الشرق قد يدعم مركزه السياسى فى أوربا وكانت محاولات فرنسا استعادة نشاطها الدبلوماسى فى آسيا موجها فى المقام الأول الى تحييد روسيا فى أوربا عن طريق تحالف ثلاثى يعقد بين فرنسا وتركيا وفارس ضد الروس فى آسيا ، وبأن تكون الخطوة التالية كما تصور نابليون هى الزحف على الهند بالاشتراك مع روسيا والتواطؤ مع فارس ، وكان نابليون ينظر نظرة عملية الى اى سياسة شرقية فرنسية وما قد تنطوى عليه مثل تلك السياسة من مكاسب . وفى خطابه الى امبراطور فارس فى شهر فبراير سنة ١٨٠٧ اشار الى أن فارس لم تكن تشكل تهديدا عسكريا على الهند البريطانية ، ولكنها تستطيع أن تضغط على البريطانيين بطرد التجار الانجليز من فارس وبوقف جميع المعاملات التجارية مع الهند .

وقد كون تاليران هذا الرأى على اساس علاقته بعملاء فرنسا الذين زاروا

---

(١) مجموعة المجلس مجلد ٢٥٧ ومجموعة ٥٦٥٠ من الحاكم العام الى مجلس حاكم بومباى فورت ويليام بتاريخ ١٨٠٧/٤/٢٣ . جميع المخابرات الخاصة بحادث السفينة لافيلانت واردة فى هذه المجموعة .

فارس خلال العامين السابقين . كما قام الفرنسيون أيضا باجراء اتصالات مع حكومة الشاه عن طريق عملائهم فى سوريا ، وذلك فى نهاية ١٨٠٤ لوضع خطة عمل مشتركة بين الفرنسيين والفرس ضد روسيا التى أصبحت مرة اخرى فى حالة حرب مع فارس ، ولكن تلك الاتصالات لم تنجح ، ربما لأنها لم تقم على أسس واضحة ، وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وروسيا فى العام التالى أوفد نابليون الكولونيل الكسندر روميه الى طهران ليقترح على الشاه بأن يلغى معاهدة ١٨٠١ مع بريطانيا ويعقد حلفا مع فرنسا ضد الروس مقابل تخصيص معونة مالية له من فرنسا ، وقد يحصل على مساعدة عسكرية ، ولما كان الشاه قد سبق ان أوفد قبل ذلك مبعوثه محمد نبى خان الى الهند ليطلب مساعدة من الحكومة البريطانية فى صراعه ضد روسيا فانه رفض اقتراحات روسية قبل أن يعرف رد بريطانيا على طلبه. وتشاء المصادفات ان يموت روميه بعد وصوله الى طهران فى شهر أكتوبر ١٨٠٥ ، وحل محله بعد ذلك فى شهر مايو اميدى جوبير الذى وجدالشاه عند وصوله أكثر استعدادا للاستماع الى مقترحاته ودراستها .

ويكمن السبب فى موقف الشاه الى التقارير غير المشجعة التى وصلته من محمد نبى مبعوثه الى الهند . وكان المبعوث قد وصل الى بومباى فى شهر أكتوبر ١٨٠٥ ، ووصل الى كلكتا فى نهاية العام ، وهناك وعند وصوله وجد بارلو الحاكم بالنيابة غير مهتم بمشاكل فارس كما لم يكن على استعداد لاجابة مطالب الشاه والتى كانت تشمل دفع مليونى روبية كفدية عن مقتل صهره المبعوث السابق(١) وبقى محمد نبى يتلكأ فى كلكتا عاما واحدا دون ان يحقق اى شىء، وفى

---

(١) هناك من الأسباب مايدعو الى الشك فى أن محمد نبى قد اتصل بالسفارة البريطانية بدافع الاثراء على حساب الشركة حيث أن الرحلة التى قام بها مالكولم الى فارس والطريقة البذخية التى انفق بها هى التى دفعته الى ذلك وفى بومباى تقدم المذكور بطلبات غير معقولة فيما يتعلق بمعاملته ومن تلك الطلبات ان تصنع لخيوله احذية من الذهب والفضة، ولكن بطريقة تجعل تلك الأحذية تتساقط أثناء السير لكى تغرى المارة بتلك المظاهر .

نهاية ١٨٠٦ تلقى رسالة من الشاه محررة فى مايو ، وهو نفس الشهر الذى وصل فيه جوبير الى طهران يقول له فيها : انه لن يعقد أى اتفاق مع فرنسا قبل أن يعود محمدنبى ومعهالرد النهائى من الحكومة البريطانية(١)،وقد عرض المبعوث الخطاب على بارلو الذى لم يبد أىاهتمام به ، وكان بارلو قد تلقى تقارير عن النشاط الذى كان يقوم به رومية وجوبير ، وكان يعتقد بأن تلك التقارير مبالغ فيه كثيرا(٢) ، وفضلا عن ذلك فقد أصبحت روسيا الآن حليفا لانجلترا ، ولم يكن يستطيع بارلو أن يؤيد فارس ضد روسيا مالم يتلق تعليمات واضحة من الحكومة البريطانية فى انجلترا . وقد ابلغ مضمون هذه الفكرة لمحمد نبى فى يناير ١٨٠٧ ، وذكر له بأن معاهدة ١٨٠١ كانت موجهة ضد فرنسا وليست ضد روسيا . وأن البنود التى وردت فى المعاهدة فيما يتعلق بتقديم المساعدة فى حالة نشوب الحرب كانت تنطبق على أفغانستان فقط ، ولا تنطبق على فرنسا الا فى حالة اشتراك دولة أوربية . كما لم تكن تنطبق على روسيا ، كما أوضح بارلو لمبعوث الشاه بأن فارس لاتزال ملتزمة بتلك المعاهدة والوقوف مع بريطانيا ضد فرنسا ، ولكى يضفى اهمية على هذه النقطة فقد قام بارلو بالتصديق على المعاهدات السياسية والتجارية المعقودة مع فارس ولكن هذا الاجراء لم تعد له أهمية(٣) .

ولم ينتظر الشاه عودة محمد نبى من مهمته قبل أن يتفق مع الفرنسيين

---

(١) من رسالة موجهة من فتح على شاه الى محمد نبى بتاريخ أول ربيع الأول ١٢٢١ مايو ١٨٠٦ .

(٢) من ارشيف لسكرتارية حكومة البنغال مجلد ٩ فقرة (١) من مضمون رسالة موجهة للحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٠٦ وقد انحى بارلو باللائمة فى المبالغات التى تضمنتها التقارير الى مرسليها وهما هارفورد جونز ببغداد وصمويل مانستى بالبصرة .

(٣) خطاب مؤرخ ١٠ يناير ١٨٠٧ من ادمون ستون الى محمد نبى . ان وولنسون وكرزن ولورمان من بين الذين أخطأوا فى القول بأن المعاهدات لم يصدق عليها .

وحتى قبل وصول جوبير كان الشاه قد بعث برسول الى القسطنطينية ليجس نبض السفير الفرنسى هناك حول عقد معاهدة دفاعية بين الدولتين ضد روسيا. وفى مقابل ذلك فقد كان الشاه مستعدا لأن يشارك فى أى لحظة للهجوم على الهند مع الفرنسيين الى حد أنه أبدى استعداده للزحف بجيش على الهند عن طريق قندهار وكابول ، وأن يسمح للفرنسيين بانشاء قاعدة لهم فى الخليج ، وقد تلقى الشاه ردا مناسبا عن طريق جوبير ، وفى نهاية عام ١٨٠٦ غادر مبعوث من الشاه متوجها الى فرنسا بصحبة جوبير للتفاوض على عقد حلف بين الدولتين .

وقد ظل كل من مجلس ادارة الشركة ومجلس الحاكم فى الهند على اطلاع مستمر بتطور العلاقات بين فرنسا وفارس ، وكان هارفورد جونز المقيم البريطانى فى بغداد هو الذى يقوم بابلاغ السلطات البريطانية بتلك المعلومات ، ولكن السلطات فى الهند لم تهتم بالموضوع الى أن عاد جونز الى انجلترا فى نهاية ١٨٠٦ .

وفى الأسبوع الأول من يناير ١٨٠٧ رفع جونز مذكرة الى الحاكم فى الهند يوضح فيها الأخطار التى تنجم عن الاتصالات التى كان يجريها الشاه مع فرنسا وقال فى مذكرته، بأن فارس لن تجنى أية فائدة من تحالفها مع فرنسا لأن نابليون لا يستطيع الضغط على روسيا بالتخلى عن أطماعها فى المنطقة الشمالية من فارس، وعلى اى حال فان حصول فرنسا على موقع فى فارس سوف يشكل من ناحية خطرا على الوضع البريطانى فى الشرق ، ولابد من بذل جهود للحيلولة دون حدوث ذلك ، وبالتالى فلابد من ايفاد مبعوث بريطانى بسرعة الى فارس على أن يسافر عن طريق بطرسبرج بهدف اقناع قيصر روسيا بحل خلافاته مع فارس فى وجه الخطر الأكبر الذى تمثله فرنسا ، كما يتعين على المبعوث أن يتكلم باسم الامبراطور وليس باسم الشركة كى يضيف الى مهمته ذلك ثقلا ، وسوف تتركز

---

(١) تعليمات المبعوث الفارسى وقد قام بترجمتها جون هاين المقيم المساعد البريطانى فى بغداد .

مهمته على العمل باعادة العلاقات الودية بين انجلترا وفارس واعتبار أى اتفاقيات يكون الشاه قد عقدها مع فرنسا ملغاة(١) .

على أن مقترحات جونز لم تتضمن شيئا لم يكن الحاكم على اطلاع به (كان جونز يحثهم على ذلك منذ أن تسلم عمله فى بغداد فى عام ١٧٩٨) وكان من المحتمل أن يتجاهل المجلس مذكرته لولا الاتجاهات المعاكسة التى اتخذتها الحرب مع فرنسا خلال النصف الأول من عام ١٨٠٧ ، وعلى امتداد عام ١٨٠٦ كانت الامبراطورية العثمانية تتجه نحو المعسكر الفرنسى ، وفى بداية العام الجديد تأزمت العلاقات مع فرنسا بصورة واضحة . ولما كان الأتراك قد انحازوا الى جانب الروس فقد اصبحت روسيا هى الحليف الوحيد لانجلترا فى الشرق ، وهكذا كانت العلاقات مع روسيا تميل الى الفتور ، وما أن حلت بداية الصيف حتى وجد البريطانيون انفسهم امام حلف مشترك بين الامبراطورية العثمانية والفارسية ومنحاز الى جانب روسيا التى قررت الانسحاب التدريجى لتتخذ من الصراع سياسة الحياد، وهذا مادعا جورج كاننج وزير الخارجية البريطانية الجديد الى تبنى اقتراح جونز فى شهر مايو بايفاد بعثة الى فارس لهذا الفرض ، وقد رشح جون مالكولم لمنصب السفير عن طريق الارل أوف منتو ، وهو الحاكم العام المرشح ، غير أن هذا الاقتراح لم يلق صداه بين مجلس الادارة لشركة الهند الشرقية الذى كان قد وافق بالفعل على أن تتحمل الشركة نفقات تلك البعثة ، والتى كانت لاتزال تتذكر فى كثير من المرارة حادثة البذخ التى رافقت بعثة مالكولم الى طهران ، ولهذا رشح شخص آخر من المعتدلين ، ومنح لقب بارون ، لدعم منصب السفير لدى حكومة طهران ، وفى شهر يونيو قام كاننج بوضع الصيغة المبدئية للعمليات الخاصة بالبعثة ، كما تم ابلاغ الحكومة البريطانية بقرار تعيين جونز فى منصب السفير .

وبغير علم كاننج عقد نابليون معاهدة سرية مع مبعوث الشاه ميرزا محمد رضا وذلك فى منطقة فننكن اشتين يوم ٤ مايو ، وفى تلك الاتفاقية ضمن

(١) « فارس والخليج » مجلد ٢٧ من مضمون مذكرة قدمها جونز الى الحكومة البريطانية فى لندن بتاريخ ٧ يناير ١٨٠٧ .

الامبراطور سيادة فارس ، واعتبرت منطقة جورجيا جزءا من فارس ، وعمل كل مافى وسعه ليحمل روسيا على اخلاء منطقة جورجيا ، وعقد معاهدة سلام بينهما ، كما اتفق على انشاء سفارة فرنسية لدى الشاه بصفة دائمة ، وايفاد خبراء عسكريين الى فارس للمساعدة فى اعادة تنظيم الجيش الفارسى على النمط الأوربى ، وفى مقابل هذه الامتيازات تعهد الشاه بحل اتفاقياته السياسية والتجارية مع بريطانيا واعلان الحرب عليها والبدء فى تنفيذ الأعمال العسكرية بأسرع وقت ممكن ، كما تضمنت الاتفاقية بندا باجلاء جميع الرسميين والتجار البريطانيين المقيمين فى فارس وقطع جميع العلاقات بين فارس وممتلكاتها .

وقد تضمنت المعاهدة أيضا انه فى حالة ظهور أى من الأسطول الفرنسى فى مياه الخليج فعلى حكومة فارس أن تقدم له كل مساعدة يحتاج اليها ، كما كان على الشاه أن يجرى اتصالات بالولاية الأفغانية لاقناعها بالاشتراك مع فارس فى تجهيز حملة عسكرية لغزو الهند كما كان عليه ان يقدم كل مساعدة ممكنة الى اى حملة فرنسية ترسلها الحكومة الفرنسية ضد البريطانيين فى الهند(١) .

وقد أفاض نابليون فى تعليماته للجنرال كلود جاردان السفير الذى اختاره للتوجه الى فارس حول النقطة الأخيرة من الاتفاقية .

وكان المطلوب من جاردان أن يجرى تحريات واسعة حول امكانية القيام بزحف على الهند عن طريق فارس والخليج ، وأنه اذا ماتقرر ايفاد مثل هذه الحملة فانه يتعين عليها أن تنزل فى الاسكندرية وتعبر الى فارس عن طريق سوريا ، أو تبحر عن طريق راس الرجاء وتنزل بالقرب من مدخل الخليج ، وكان على جاردان أن يحدد الموانىء الفارسية التى تصلح لرسو سفن الحملة المكونة من اسطول كبير يحمل مالا يقل عن ٢٠ ألف مقاتل لتزويد القوات بحاجتها بما فيها الماء والمؤن(٢) .

---

(١) مجموعة المعاهدات الفرنسية مجلد ٢٣ اعداد الكسندر جى اتشه دى كلرك باريس ١٨٦٤ — ١٩١٧ .

(٢) مهمة الجنرال جاردان ص ٨١ — ٩٤ من مضمون رسالة من نابليون لجاردان بتاريخ ١٠ مايو ١٨٠٧ .

ولم يكد يمضى شهران على ارسال تلك التعليمات حتى كان نابليون قد توصل الى اتفاقه المشهور مع القيصر (الاسكندر الأول) الذى وقع فى تلسيت ، وهذا الحادث وحده يكفى لالقاء ظلال من الشك على جدية نوايا نابليون فى عقد معاهدة فنكنشتين ، وربما كان الغرض منها كسب الوقت حتى يستطيع نابليون انهاء مفاوضاته مع الاسكندر(١) . وكانت معاهدة السلم فى تلسيت هى أسوأ نكسة سياسية تعرضت لها بريطانيا خلال الحرب ، الأمر الذى أضفى على مهمة جونز مزيدا من الأهمية ، وذلك لأن أى محاولة بريطانية لابعاد الفرنسيين عن فارس قد أفلتت الى الأبد بعد تحالف فرنسا مع روسيا . وكان لابد من تحقيق هدف اكثر صعوبة ، ألا وهو الحيلولة دون قيام حلف ثلاثى بين فرنسا وروسيا وفارس يستهدف الهند ، وكان يتعين على جونز أن يثير مع الشاه كل حساسياته ضد روسيا وأن يوضح له بأن الصداقة الفرنسية الروسية الجديدة سوف تعرض فارس لخطر اشد . وفى يوم ٢٨ اغسطس أصدر كاننج تعليماته النهائية لجونز ، ومؤداها ، أن يحصل جونز على تعهد من الشاه بالالتزام بمعاهدات عام ١٨٠١ واذا تعذر ذلك فعليه أن يقنعه بالوقوف على الحياد فى الصراع القائم بين فرنسا وانجلترا ، فاذا ماأظهر الشاه رغبة فى قطع صلاته بفرنسا — وكان كاننج حتى ذلك الوقت يجهل أمر معاهدة فنكنشتين ، فقد فوض جونز بأن يتعهد للشاه بمده بالسلاح والمال والخبراء العسكريين بالاضافة الى دعم الأسطول البريطانى له فى الخليج مقابل « اتفاقيات مفتوحة » وعلى أن يتعهد بالوقوف الى جانب بريطانيا فى حالة تعرض الهند البريطانية لغزو من اى دولة اوربية — فرنسا او روسيا — ولما كانت الحرب فى ذلك الوقت قد نشبت بين انجلترا والامبراطورية العثمانية فقد كان يتعين على جونز أن يجس باشا بغداد حول استعداده لعقد حلف مع بريطانيا مقابل التعهد له بمساعدته

---

(١) تضمنت التعليمات التى أرسلت الى جاردان مايشير الى أن عقد تحالف رسمى بين تركيا وفارس ضد فرنسا لم يعد أمرا مرغوبا فيه وكل ماكان مطلوبا هو القيام بعمل مركز ضد روسيا فقط (نفس المصدر) وكان تاليران هو أحد المعارضين لتلك الاتفاقية على طول الخط وقد أوضح تلك النقطة لجاردان.

ضد أى هجوم يقع عليه سواء جاء هذا الهجوم من جانب الاقطاعيين الفرس او من الفرنسيين أو من الفرس انفسهم . أما اذا لم يظهر الشاه استعداده لعقد مثل هذا التحالف فلابد من استخدام الضغط عليه باثارة القبائل ضده داخل البلاد، كذلك اذا رفض باشا بغداد التعاون فيمكن لجونز الاتصال بأمير الوهابيين سعود بن عبد العزيز الذى كان فى ذلك الوقت سيد الموقف فى شبه الجزيرة العربية للحصول على تعاون منه ضد أى هجوم تقوم به فرنسا عن طريق البحر الأبيض المتوسط(١) .

وقد وصلت المعلومات السرية عن اتفاقية السلام الموقعة فى تلسيت الى الهند فى نهاية سبتمبر . وفيما كان يبدو تراجعا عن السياسة الخارجية السابقة منذ استدعاء ويلسلى فقد بعثت اللجنة السرية لمجلس ادارة الشركة بتعليمات الى الحاكم العام للتخابر مع الأقطار الواقعة بين الهند وفارس لتوجيه نظرهم الى الخطر الذى أصبحوا يتعرضون له والسعى الى اقامة تعاون معهم لصد أى هجوم فرنسى أو فرنسى روسى مشترك ضد الهند . كما أبلغ المقيم بأن التعزيزات الحربية ستكون على استعداد لارسالها الى الهند أو الشرق الأدنى اذا لاح خطر هجوم يدبر ضد الهند . كذلك تضمنت الخطة اثارة القبائل الجنوبية ضد الشاه كما تضمنت أيضا توجيه تحذير الى حكومة الشاه بأن العلاقات سوف تتدهور حتى ولو لم يقع الهجوم ، وتحذير آخر عن نية بريطانيا فى تحريض الوهابيين الذين كانوا على عداء مع الأتراك والفرس على السواء .

---

(١) رسالة من كاننج الى جونز بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٨٠٧ راجع أيضا رسالة اردندس الى جونز بمجلس الشركة بتاريخ ١٨٠٧/٩/٨ (وقد خلف روبرت دندس ابا كرئيس لمجلس الحاكم فى الوزارة الجديدة) وكان كاننج سبق أن رفض مشروعا كان قد تقدم به جونز بخلع الشاه عن العرش وتنصيب أمير من أسرة الزند السابقة، راجع أيضا رسالة كاننج لجونز بتاريخ ٢ يونيو ورسالة اخرى بتاريخ ٢١ اغسطس ١٨٠٧ (رقم ١ و ٢) وأيضا رسالة دندس لكاننج بتاريخ ١٨٠٧/٨/٢٠ كذلك راجع مسودات المجلس السرية مجلد (٣) وهى صيغة رسالة أعدت للحاكم العام بتاريخ ١ يونيو ١٨٠٧ تحت رقم ٢٨ .

ولقد تلقت السلطات فى الهند معلومات من فارس عن احتمال وقوع بعض الاضطرابات فيها ، وقد ظل المقيم البريطانى فى بوشهر يزود الحكومة بتقارير منظمة عن نية الشاه فى تسليم ميناء بندر عباس الى الفرنسيين الذين سيحولونه الى قاعدة فرنسية لترسل اليها الامدادات جزر موريشيوس الفرنسية . وبمجرد وصول ذلك التقرير قام جوناثان دنكان على الفور باصدار أوامره للقائد العام للأسطول فى الهند الشرقية الفيلد ادميرال سيرادوارد بيلو بارسال بارجة الى الخليج . ولكن بيلو رد عليه يقول : بأنه لا يستطيع ارسال البارجة وأن الخطة الفرنسية كانت فى نظره مجرد محاولة (لاثارة المشاكل) ، وقد وصله طلب مماثل من الحاكم العام الجديد للهند مينتو بعد وصوله الى الهند مباشرة ، وكان مينتو قلقا من بعض التقارير التى كانت قد وصلت اليه من المقيم البريطانى فى بوشهر بأن الشاه ينوى تسليم جزيرتى خرك وهرمز الى الفرنسيين بالاضافة الى بندر عباس ، وفى منتصف اكتوبر وافق بيلو على تغيير الفرقاطة فوكس بفرقاطة أخرى ، اسمها بت ، وبأن يجهز الطراد البيون (٧٤) مدفعا للسفر الى بومباى مزودا بتعليمات الى قائدها بادخال الفرقاطات الثلاث التى تحت امرته الى حوض بناء السفن لاجراء بعض الاصلاحات عليها حتى تكون مستعدة للعمل اذا مااستدعت الظروف(١) .

وعلى الرغم من الحلف المعقود بين فرنسا وتركيا فقد وجد القلق فى الأوساط المسئولة فى كلكتا حول احتمال قيام الفرنسيين بنشاط فى الجزيرة العربية ، وقد راى والى بغداد على باشا بأن لا يشجع اتباعه بالانضمام الى المعسكر الفرنسى . وانما على العكس فقد أبدى كثيرا من الاستعداد لاظهار صداقته نحو البريطانيين فطلب الى كل من المقيم البريطانى فى البصرة وبغداد بالبقاء بمنصبهما،وقد رأت حكومة الهند بأنه طالما بقى على باشا على موقفه هذا تجاه بريطانيا ان تتجنب اى خطوة من شأنها ان تدفع بالعراق الى منطقة الصراع .

---

(١) من سجلات الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد (٢) خطاب الحاكم بتاريخ ١٨٠٧/٨/٣١ وخطاب رقم ١٧٩/١ من بيلو الى ويليام مرسدن سكرتير الأميرالية البحرية وكلودن ومدراس بتاريخ ١٨ اكتوبر١٨٠٧بالمرفقات .

وعلى أى حال فان ظهر تغيير فى موقف الشاه من هذا الموضوع فسوف تنظر الحكومة البريطانية فيما اذا كانت نفقات تجهيز حملة عسكرية لارغام الشاه على تغيير موقفه توازى الفوائد التى سوف تجنيها بريطانيا من وراء تلك التعبة ، ولما كانت سلطة الباب العالى على الحكم فى العراق أصبحت ضعيفة فان أى هجوم تقوم به بريطانيا على العراق لن يؤثر على الباب العالى ، وبالتالى فانه من مصلحة بريطانيا ان يبقى العراق كما هو ممرا لنقل البريد وغيره من البضائع(١) .

هذه هى الاستنتاجات التى توصلت اليها الحكومة قبيل وصول منتو الى الهند ، وعلى أى حال فان هذه الاستنتاجات تختلف عن مقترحات جون مالكولم التى حاول فرضها على الحاكم العام بعد وصوله الى الهند مباشرة . وعلى الرغم من أن الحرب بين الباب العالى وانجلترا لم تكن قد نشبت حتى ذلك الوقت ، كما كان الاعتقاد سائدا فى الهند ، فلقد كان مالكولم يعتقد بأن الحرب لابد أن تنشب ، الأمر الذى يستدعى حصول بريطانيا على موطىء قدم فى العراق يمكنها من احباط أى محاولة للهجوم على الهند من جانب أى دولة فى أوربا ، وقد جاء فى خطاب مالكولم الى سكرتير الحاكم العام ، بأن فارس وتركيا مازالتا تعتبران منطقتين فاصلتين بين الهند والدول العربية ، وأن القضاء على استقلال أى منهما من قبل أى دولة معادية سيعرض الهند للخطر من جانب تلك الدولة ، ومن هنا فان سياسة الحكومة البريطانية فى مساعدة تلك الدولتين وتأييدهما لها وخلق دول أخرى مؤيدة لسياسة بريطانيا ودعمهما يعتبر جزءا من هذه السياسة(٢) ، وكان مالكولم يرى بأنه من الممكن فصل العراق عن تركيا وانشاء دولة مستقلة منها بشرط أن تضمن الحكومة البريطانية استقلال تلك الدولة من أى عدوان خارجى ، كما تضمنت رسالة مالكولم نقطة استراتيجية

---

(١) من سجلات سكرتارية حكومة البنغال مجلد ١٠ من مضمون رسالة من مجلس الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت وليام بتاريخ ١٨٠٧/٦/١٢ .

(٢) مذكرات متفرقة للحكومة البريطانية مجلد ٧٢٧ من مضمون رسالة من مالكولم الى آدمون ستون ميسور ١٨٠٧/٨/١٢ .

هامة بالنسبة للعراق ، فقد اقترح فيها أن تقوم الحكومة البريطانية بتحويل منطقة القرنة الواقعة على دلتا النهرين الى قاعدة بريطانيـة ومرابطة قـوة عسكرية فيها بصفة دائمة . وحذر مالكولم من أن ضياع العراق من الامبراطورية العثمانية سوف يعجل بسقوطها ، الأمر الذى ستفيد منه روسيا ، وأن روسيا، وليس فرنسا ، هى التى تشكل الخطر الأكبر على الحكم البريطانى فى الهند ، غير أن مالكولم عاد وأكد أنه لم يكن فى وسع بريطانيا أن تعمل أى شىء لانقاذ الامبراطورية العثمانية من الانهيار(١) ، وفى الوقت الذى كان مالكولم يعرب عن آرائه كانت الأحداث فى العراق تضيف وزنا جديدا على مقترحاته ، فقد اغتيل على باشا فى أغسطس ١٨٠٧ ، وفى الصراع الذى أعقب مقتله بدا أن السلطة سوف تنتقل الى شخصية موالية لتركيا . وفى نهاية العام تقريبا ظهر سليمان باشا الصغير ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع أن يقيم علاقات ودية مـع السلطات البريطانية فى الهند . وبعد أن هـدأ القلق لدى الحاكم العـام منتو بالنسبة لتركيا العربية ، ان لم يكن قد زال ، فقد وجد نفسه فى وضع يسمح له بالتركيز على الأمور الأكثر أهمية داخل فارس .

اما الجنرال جاردان فقد وصل طهران يوم ٤ ديسمبر ١٨٠٧ ، وكانت المهمة الموكولة اليه هى حمل الشاه على الالتزام بتنفيذ معـاهدة فرنكشتين ، ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة بعد توقيع معاهدة السلم فى تليسيت ، ولكن ربما أنه اعتمد فى اقناع الشاه على احتمال استرجاعه لمقاطعة جوريا عن طـريق الوساطة الفرنسية بدلا من الأسلحة الفرنسية ، وكان نابليون يتصور أن معاهدة السلم التى عقدت مع روسيا قد خلقت ظروفا ملائمة للمضى فى خططه الخاصة بالتوسع فى الشرق بدلا من سياسة الالتزام لفارس بمساعدتها دبلوماسـيا وعسكريا ضد الروس ، واذا ماقدر للمفاوضات التى سيجريها جاردان مـع الشاه أن تنجح فان قيام عمل مشترك بين فارس وفرنسا وروسيا للهجوم على الهند سوف يغدو بعيد الاحتمال .

وبعد وصوله بقليل غادر الجنرال جاردان فارس ممتعضا من الشكوك التى

---

(١) نفس المصدر .

أبداها الشاه حول اصدار بيان يقول فيه ، انه الى أن يتم تطبيق البند الرابع من المعاهدة التى تلزم نابليون أن يبذل أقصى الجهود لاستعادة المقاطعة الفرنسية وعقد معاهدة سلام تضع حدا للقتال الدائر فى شمال فارس فان الشاه سوف يكون غير ملزم بالشروط المتعلقة بالحرب ضد البريطانيين فى الهند(١) .

لقد تم وضع صيغة اتفاقية تسمح باقامة مراكز تجارية فرنسية فى بندر عباس وتسليم جزيرتى خرك وهرمز للفرنسيين ، وتم تفويض رجال الجنرال جاردان للقيام بمعاينة الجزر للتأكد من تحصيناتها(٢) .

ولقد تسربت أخبار هذه الصفقة عن طريق بوشهر فى الأسابيع الأولى من عام ١٨٠٨ كما بعث المقيم البريطانى بتقارير عنها(٣) . وقد عم الذعر فى الأوساط السياسية فى بومباى فى يناير ١٨٠٨ عندما أشيع بأن وحدات من الجيش الفرنسى المرابطة فى هولندا بقيادة الجنرال منون قد سحبت ، وقد فوض منون بالسفر الى حمص واللاذقية عن طريق تركيا ومنها الى فارس . والأدهى وصول تقرير عن تحرك قطع بحرية من الأسطول الفرنسى مكونة من سفينتى امداد ونحو أربع الى ست فرقاطات تحمل مئات من الجنود من الأروشفورت متجهة الى الشرق ، وذلك فى شهر يونيو ، وأن القرصان الذائع الصيت روبرت سركوف قد غادر هو الآخر على سفينة القرصنة فى طريقه الى الهند الشرقية ، وقيل يومئذ بأن وجهة الأسطول الفرنسى هى الخليج حيث سيتولى الاشراف على الجزر التى حصل عليها الجنرال جاردان .

وقد تسبب هذا الخبر فى سرعة تجهيز ثلاث فرقاطات كانت فى أحواض

---

(١) للاطلاع على نص البيان المشار اليه راجع فارس والخليج مجلد ٢٦ من مضمون رسالة من اتشو جونز الى ار. دندس من طهران بتاريخ مارس ١٨٠٩ (رقم ٣) ومرفق معه تصريح جاردان المؤرخ ١٧ ديسمبر ١٨٠٧ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٢٩ مضمون رسالة من مالكولم الى منون شهر يونيه ١٨٠٨ .

(٣) معظم هذه المعلومات وصلت الى الهند عن طريق نجل الشاه حسين على ميرزا الأمير والحاكم فى فارس والذى كان يكن العداء للفرنسيين .

بناء السفن فى بومباى ، وبنهاية يناير كانت تلك الفرقاطات جاهزة للابحار ، وفى يوم ٤ فبراير أبحرت من بومباى الى الخليج وحدة من الأسطول تحت قيادة الكابتن جوفرير، وكانت تتألف من الطراد البيون ، والفرقاطات فيتون ، ودى ودنتيس ، والطراد رويال جورج (٥٠ مدفعا) والطرادين مورننج تون ، وترنيت وعلى ظهر هذه القطع ألفا رجل من الفرقة الخامســة والستين ، وستون من رجال المدفعية ، بالاضافة الى الكابتن دافيد ستون المقيم البريطانى السابق فى مسقط ، الذى زود بتعليمات لاعادة فتح الوكالة، وقد عزز فرير هذه الاجراءات باصدار أوامر الطراد « رسل » والطراد « سانت فيورنزو » اللذين كان يتوقع وصولهما الى بومباى بعد قليل لكى يلحقا بالكابتن ستون مافى(١) ، وكان منتو يعتقد أن الاجراءات البحرية وحدها لم تكن تكفى لوقف نشاطات جاردان فى طهران ، كما راى انه لابد من ايفاد بعثات الى افغانستان والسند والبنجاب ، وذلك قبل أن يتسلم التعليمات التى صدرت اليه من مجلس الادارة فى الهنــد بتاريخ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وكان يعتقد أيضا أن الوضع فى فارس كما تقرر فى شهر يناير سنة ١٨٠٨ لا يحتمل الانتظار حتى وصول هارفرد جونز ، وانه لابد من اتخاذ اجراء فورى . وكان مالكولم يحث منتو على اتخاذ مثــل ذلك الاجراء على مــدى الشهرين الســابقين ، وكان يصر على أن توضــح الحكومة البريطانية للشاه ، بأنها لن تصبر أكثر ممــا صــبرت على استمرار المؤامرات الفرنسية فى فارس ، واذا كان ثمن الحصول على موافقة الشاه لابعاد الجنرال جاردان من فارس هو انحياز بريطانيا الى جانب فارس فانه ثمن لابد من دفعه، كما لا ينبغى أن يؤثر مثل هذا القرار ، كما اشار مالكولم، على الاعتقاد باحتمال

---

(١) من سجلات الوثائق السياسية بومباى مجلد/٢ من مضمون رسالة من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٠٨ ومجموعة وثائق مجلس الادارة مجلد ٢٥٨ مجموعة ٥٦٥٥ من مضمون رسالة من ويليام نيوهام (سكرتير الدولة) الى فرير بتاريخ ٢٥ يناير ١٨٠٨ ورسالة من فرير الى دنكان بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٠٨ . ومنذ مغادرته مسقط كان ستون مشغولا بمهامه السياسية فى كتش والبحر الأحمر .

تحول روسيا الى الخصم الأكبر لانجلترا فى آسيا ، فاذا مارفض الشاه قطع صلاته بالفرنسيين فلابد من عملية استعراض للقوة ، كما يتعين على بريطانيا أن تغلق مركزها فى بوشهر ، وأن تقوم بانشاء قاعدة لهـا فى الخليج وأن توقف جميع المعاملات التجارية مع فارس(١) . ...

وقد أيد منتو هذا الرأى وقام بايفاد بعثة الى الخليج للاتصال بحكومات فارس وتركيا العربية ، وذلك بواجهة دبلوماسية تخفى وراءهـا زناد البنادق البريطانية(٢) . واختار مالكولم قائدا لتلك الحملة رقاه الى رتبة برجيـدير جنرال ، ويوم ٣٠ يناير ١٨٠٨ صدرت اليه التعليمات وزود بصلاحيات تخوله التصرف فى الشئون السياسية وغيرها من المصالح البريطانية فى منطقتى فارس والجزيرة العربية ، وعلى أن الصلاحيات الممنوحة للمراكز البريطانية فى بغداد والبصرة وبوشهر بالنسـبة للشئون السـياسية ووضـعها تحت سلطته المباشرة(٣) . كما أعطيت له صلاحية الاشراف على طرادات بحـرية بومباى العاملة فى الخليج ، وكان ينبغى على مالكولم بموجب تلك الصلاحيات ان يضـع حدا للتغلغل الفرنسى نحو الهند ، وأن يعمل على قطع علاقات فرنسا والغـاء أحلافها بجميع دول المنطقة ... وأن يقدم من الاقتراحات مايراه مناسبا بمـا يمكن بريطانيا من اتخاذ الخطوات السـلمية أو العسكرية لتحقيق الأهـداف البريطانية فى تلك المنطقة(٤) . بعد بضعة أسابيع على سفر مالكولم كلفه منتو ضمن تعليمات جديدة أرسلها اليه بالتحرى عن تطور علاقات فرنسا بفارس ،

---

(١) حياة ورسائل السير جون مالكولم واعداد السير جى. دبليو. كيه مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٥٦ من مضمون رسالة من مالكولم الى منتو من ميسور بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٠٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) فارس والخـليج مجـلد ٢٨ من مضمون رسـالة من منتو الى مالكولم بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٠٨ .

(٤) نفس المصدر كما أيضا راجع الرسالة الخاصة من منتو الى مالكولم بتاريخ ٣١ يناير كما وردت فى كتاب كيه .

وفى ظروف الحرب بين فارس وروسيا ومدى ماحققته المحاولات الفرنسية فى تحقيق أطماعها فى الهند . فان تبين له بأن موقف الفرس من الفرنسيين قد اصيب بالفتور يبادر منتو الى ارسال حملة الى الخليج لتتعاون مع الفرس ضد الفرنسيين . أما اذا تبين أن الفرس يميلون الى اتخاذ موقف الحياد فان الحملة سوف تخدم غرضا مزدوجا من حيث انها ستؤدى الى تأكيد الوجود البريطانى فى منطقة الخليج . وكان يتعين على مالكولم بأن يقدم رأيه عن حجم قوة تلك الحملة وتكوينها . غير ان منتولفت نظر مالكولم الى نقطة هامة ، وهى أن يقوم بجمع معلومات أكيدة عن هذه المسألة، كما طلب منه بألا يتخذ اى اجراء قبل وصول تعليمات واضحة اليه من حكومة الهند ، التى قال منتو بأنها لن توافق على مثل هذه الاجراءات الا فى حالة قيام ظروف استثنائية كموضوع الدفاع عن الممتلكات البريطانية أو فى حالة لجوء الحكومة الفارسية الى انتهاك صريح للاتفاقيات المبرمة بينها وبين الحكومة البريطانية(١) وخلال المباحثات التى عهد الى مالكولم باجرائها مع الشاه عهد اليه بأن يلتزم بنصوص معاهدات ١٨٠١ التى كانت لاتزال سارية المفعول وملزمة للحكومة الفارسية .

ولانجاح مهمة مالكولم أوضح منتو بأنه سوف يضفى على مهمته فى فارس طابع القوة والحزم(٢) .

غادر مالكولم مدراس عن طريق البحر متجها الى بومباى يوم ١٧ فبراير، وعند وصوله اليها فى الأسبوع الأول من ابريل وجد أن القوة البحرية المعقود لواؤها للكابتن فرير قد غادرت الخليج قبل أيام قليلة من وصوله بعد أن قضت شهرا هناك حيث كانت تقوم بدوريات فى مياه الخليج بين بندر عباس ومسقط، ولكنها لم تكتشف اى اثر للنشاط الفرنسى، وان كان قد قيل لفريرو هو فى بندر عباس ، ان اثنين من الضباط الفرنسيين قد زارا الميناء فى بداية فبراير(٣) .

---

(١) فارس والخليج مجلد ٢٨ من مضمون رسالة من ادمون ستون الى مالكولم وفورت ويليام بتاريخ ٧ مارس ١٨٠٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وثائق حكومة بومباى السياسية الحلقة ٣٨٠ مجلد ٤٠٣ وتتضمن استشارات مؤرخة ٨ ابريل ١٨٠٨ ومضمون رسالة من الكابتن فرير الى دنكان بتاريخ ٣ ابريل ١٨٠٨ .

وقد تعرض مالكولم لتأخير دام اسبوعين بينما كانت القوة المرافقة له والمؤلفة من ٣٠٠ جندي من الفرقة الرابعة والثمانين و ١٠٠ خيال وخمسين عسكري وقوة مدفعية قد تجمعت . وكان مالكولم يحتاج الى هذه القوة لمواجهة اى قوة فرنسية يلتقى بها فى مياه الخليج(١) . وقد حامت الشكوك على أى حال فى جدية الأسباب التى أبداها مالكولم ، وذلك بسبب اسراعه فى مغادرة الهند يوم ١٧ ابريل الى الخليج دون أن يصحب معه القوة بكاملها ، وكان سبب اسراعه بالمغادرة ، هو علمه بأن الفرقاطة التى كانت تحت قيادة هارفرد جونز بانجلترا قد ابحرت من رأس الرجاء يوم ٢٦ يناير ، وكان متوقعا وصولها فى أى يوم .

وقد توقع منتو بأن يصل جون الى الخليج فى نفس الوقت الذى يصل فيه مالكولم ، كما ابلغ مالكولم بأنه اذا رأى بأن مهمته تتعارض مع وجود جونز فان عليه ان يتخلى عن مهمته ، وأن يقرر فيما اذا كان ينوى البقاء فى الخليج كمعتمد سياسى للحاكم العام أم لا(٢) ، وقد أسر منتو الى مالكولم بأن هدف جونز هو افساد الخطة التى وضعها(٣) . وانه سيكون سعيدا لو تأكد بأن ابحاره الى الخليج مثل جونز كان بدافع المصلحة العامة(٤) .

وصل جونز الى بومباى يوم ٢٦ ابريل وهناك علم لأول مرة بمهمة مالكولم ، فقرر أن ينتظر عما تسفر عنه تلك المهمة قبل أن يتوجه الى فارس كما أوضح ذلك لروبرت دانتس رئيس المجلس حتى يتفادى حدوث تضارب فى السلطة امام الفرس وقال : « فاذا كان الجنرال مالكولم لم ير من المناسب أن ينتظر

---

(١) انظر كتاب كيه الفصل الأول ص ٤٠٩ الى ٤١١ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٢٨ من مضمون رسالة من ادمون ستون الى مالكولم بتاريخ ٧ مارس ١٨٠٨ .

(٣) من كتاب كى مضمون رسالة من منتو الى مالكولم ٩ مارس ١٨٠٨ أما فيما يتعلق بشعور مالكولم نحو مهمة جونز فيمكن الرجوع الى نفس المصدر ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٤) فارس والخليج مجلد ٢٨ مضمون رسالة من أدمون ستون الى مالكولم وفورت ويليام ٢١ ابريل ١٨٠٨ .

وصولى الى بومباى وهو الذى كان متوقعا فى أى لحظة فليس من المحتمل أن يتنازل الى مالكولم عن أى شىء من اختصاصاته وحتى لو توجهت أنا الى فارس(١) .

كان مالكولم فى ذلك الوقت فى طريقه الى مسقط بأقصى سرعة ، وكان السيد سعيد قد سئل عن رأيه فى الخطوة التى قام بها الفرس للتنازل عن بندر عباس وهرمز للفرنسيين ، وكان رده ، أنه طالما أن الميناءين تحت سلطته فانه لن يسمح للفرنسيين أو للفرس لاستعمالهما كقاعدتين ، وعند تلقى هذا الرد من السيد سعيد عهد منتو الى جوناثان دنكان بأن يستفسر من السيد سعيد عما اذا كان سيقبل مساعدة من البريطانيين لابعاد الفرنسيين عن بندر عباس ، وقد كلف دنكان مالكولم بتسليم تلك الرسالة الى السيد سعيد ، وقبل أن يغادر مالكولم بومباى أصدر منتو تعليمات محددة اليه طلب منه فيها مقابلة السيد سعيد لكى يوضح له الأسباب التى استدعت اتخاذ تلك الاحتياطات فى منطقة الخليج(٢) . وقد رست سفينة مالكولم فى خليج مسقط يوم ٣٠ ابريل ، وحضر وزير السلطان الى السفينة لمقابلة مالكولم ، وعندما قابل مالكولم السلطان سعيد ابلغه انه على الرغم من أن الحكومة البريطانية قد سمحت له بالاحتفاظ بعلاقاته مع الفرنسيين فلا ينبغى له ان يفسر ذلك التساهل بما يرقى الى تقديم المساعدات الى الفرنسيين أو التواطؤ معهم على حساب المصالح البريطانية ، وقد ابدى الوزير دهشته من حديث مالكولم خصوصا وان حكومة الهند قد قررت اخيرا ان تعتبر مسقط من الدول المحايدة فى الصراع الفرنسى البريطانى . غير أن مالكولم لم يقتنع بهذا الراى وقال للوزير : ربما يكون ذلك مقبولا لو أن الفرنسيين لم يصلوا الى ابواب الهند وشواطئها أو كانوا فى مناطق بعيدة عن مسقط بحيث لا يستطيع السيد سعيد مساعدتهم ، فاذا تبين أن السيد سعيد

---

(١) فارس والخليج مجلد ٢٥ مضمون رسالة من جونز لداندس صادرة من بومباى بتاريخ ٢٨ ابريل ١٨٠٨ كذلك راجع خطابه لمنتو بنفس التاريخ ونفس المجلد .

(٢) مجموعة وثائق حكومة البنغال مجلد ١٠ فصل واحد خطاب من الحاكم العام الى سكرتير اللجنة فورت ويليام بتاريخ ١٨٠٨/٣/٣١ .

كان متعاونا مع الفرنسيين فان الحكومة البريطانية سوف تعتبره من الحكام المعادين لها(١) وقد اقترح وزير السيد سعيد على مالكولم بأن ينتظر حتى يصله رد السيد سعيد النهائى ، غير أن مالكولم لم يوافق على الاقتراح ، وقرر مواصلة السفر الى بوشهر . وعند هذا الحد لا يمكن اعتبار مهمة مالكولم قد انتهت أو انه قام بتنفيذها وفقا للتعليمات الصادرة اليه من دنكان(٢) .

واذا كان الحاكم العام للهند يرى أن مقابلة مالكولم للسيد سعيد اجراء مرغوب فيه فقد كان ذلك جزءا من مهمته، وكان تعليق منتو على الأسلوب الذى تصرف به مالكولم فى مسقط بأنه لا يعدو أن يكون استمرارا لمواقفه السابقة من هذه القضية .

وقبل مغادرة مالكولم الهند كان منتو قد شرح له تفاصيل مهمته ، وفى يوم ١٥ ابريل تلقى منتو رسالة من مالكولم يقول فيها :

انني مصمم على تأجيل سفرى الى فارس ريثما أتأكد من نجاح مهمتى فى الحصول على المطالب التى تقدمنا بها الى حكومة فارس(٣) .

وصل مالكولم الى بوشهر يوم ١٠ مايو ، وفى نفس اليوم نزل الى المدينة يرافقه قوة من خمسين جنديا من الفرقة الرابعة والثمانين الملكية ، وقد أثار وجود هذه القوة سكان البلاد الذين لم يسبق لهم أن رأوا جنودا أوربيين من قبل ، وبعد أن وصل مالكولم الى مبنى الوكالة البريطانية فى بوشهر وجه انذارا الى مجلس وزراء الشاه ، وأرسله مع الكابتن شارلس بازلى أحد الضباط المرافقين له ، وقد اتهم مالكولم الشاه فى هذا الانذار بانتهاك معاهدة عام ١٨٠١ باستقباله بعثة فرنسية فى طهران وحذره من أنه مالم يأمر على الفور بابعاد

---

(١) رسائل الخليج ١٨٠١ — ١٨٥٣ رسالة من مالكولم لمنتو مسقط ١٨٠٨/٥/١ .

(٢) الكنتس منتو اللورد منتو فى الهند/حياته ورسائله طبعة لندن ١٨٨٠ ص ١١٥ رسالة من منتو الى أدمون ستون (١٨٠٨) .

(٣) من مالكولم الى منتو بومباى فى ١٥ ابريل ١٨٠٨ تأليف كيه .

الجنرال جاردان وحاشيته من فارس فانه لن يحضر الى طهران ، وأن الشاه مسئول عن النتائج التى سوف تترتب على ذلك ، وسوف تقطع الهند جميع علاقاتها التجارية بفارس ، وستقوم حملة بريطانية باحتلال احدى الجزر الفارسية فى الخليج ، ولم يخامر مالكولم أى شك فى أن انذاره للشاه سوف يؤدى الى الغرض المنشود ، وقد ذكر لبازلى مرة بأن ملك فارس ووزراءه سوف يرحبون بمقدمه ، ولذلك فقد أجل زيارته لبلاط الشاه حتى يستجيب لمطالبه ، التى كان يعتقد بأنها مطالب تمس كرامة ومصلحة بريطانيا(١) أما بازلى فبقى فى شيراز ، وهناك عرف بأن عليه أو على مالكولم أن يقوم بالاتصال بالأمير حسين على ميرزا حاكم فارس ، الذى كلفه الشاه بالفعل بالاشراف على علاقات فارس بشركة الهند الشرقية . وعندما علم مالكولم بتلك ثارت ثائرته ، وأبلغ بازلى يوم ٩ يونيو بأن يطلب من الأمير بأن يسمح لبازلى بالتوجه الى طهران خلال شهر واحد فاذا رفض فان مالكولم سينسحب من أراضى فارس ويعود ، وقال لبازلى أن عودتك وخروجى الفورى الى خرك او البصرة سوف يرد هؤلاء الى صوابهم وينبههم الى الأخطار التى ينطوى عليها تصرفهم(٢) ، وللمرة الثانية اخطأ مالكولم فى تقديراته فان على ميرزا لم يكترث بتهديدات بازلى الذى لم يجد مفرا من أن يغادر شيراز فى نهاية شهر يونيه ، وفى يوم ١٢ يونيه أبحر مالكولم على الفرقاطة البريطانية لوريس عائدا الى الهند . ويبدو انه لم يخطر على بال مالكولم أن فشله فى مهمته انما يعود الى الأسلوب الذى عالج به تلك المهمة . وكان منتو قد اقترح على مالكولم بألا يتعدى حديثه مع الشاه العتاب الودى وتقديم النصح ، ولو أن مالكولم تقيد بالتعليمات التى أصدرها اليه الحاكم العام لربما أسفرت مهمته عن نتائج أفضل ، وكان اصراره على الشاه بالالتزام بمعاهدة ١٨٠١ خطأ

---

(١) فارس والخليج المجلد ٢٥ من مالكولم لمنتو بومباى ١٨٠٨/٥/١٨ ومرفق معه الانذار الموجه الى مجلس وزراء الشاه ويقع الانذار فى نحو عشرين صفحة متراصة السطور من الورق الفولسكاب .

(٢) فارس والخليج مجلد ٢٥ من مالكولم الى بادلى ٩ يونيو ١٨٠٨ .

بينا ، وقد أوضح منتو هذه الحقيقة لمالكولم اثناء مناقشته لمهمته (ان فارس كحكومة مستقلة لها الحق في استقبال السفراء المعتمدين من اى دولة وأن تعقد معهم أى مفاوضات تراها ضرورية لمصلحتها) .

وقد لا يمنع توقيع الشاه على المعاهدات السابقة مع بريطانيا من الاشتراك فى توقيع معاهدات واتفاقات جديدة وبالتالى فلا يصح أن يعتبر استقبال الشاه للمبعوث الفرنسي ومرافقته انتهاكا لتلك المعاهدات(١) . ويرى الحاكم العام بأن مالكولم قد اخطأ حين اعتبر ابعاد جاردان ومجموعته من فارس اساسا لأى شرط للمفاوضات بدلا من التركيز على الهدف الأساسى للمهمة « فلو أن مالكولم استطاع تحقيق هذا الهدف من خلال اقامته الطويلة فى فارس واحسن استغلال ماكان يتمتع به من مواهب لكان قد حقق نجاحا باهرا فى مهمته بيد أن مهمته قد اهتزت من خلال الطريقة التى تناول بها الموضوع والاسلوب المقوت الذى استخدمه مع سلطان فارس(٢) ، وكان الأولى بمالكولم اذا كان يهدف الى صرف الشاه عن الفرنسيين على حد رأى منتو أن يضرب على وتر المخاوف الفارسية من الروس وتذكير الشاه بالتحالف القوى بين على وتر المخاوف الفارسية بين الروس وتذكير الشاه بالتحالف القوى بين روسيا وفرنسا مما يجعله يفقد الثقة فى فرنسا من ناحية وفى روسيا وفرنسا من ناحية أخرى . وكان المفروض أن لا يتوقع مالكولم من الشاه الذى كان فى ذلك الوقت متورطا فى قتال مع الروس فى الشمال بأن يكترث لتهديدات فى الجنوب ، وكان منتو يود أن يعرفه عما اذا كان مالكولم قد فكر فى التهديدات التى وجهها الى حكومة الشاه قبل أن يقدم على ذلك(٣) .

---

(١) « فارس والخليج » المجلد ٢٥ من منتو الى مالكولم وفورت ويليام ١٢ أغسطس ١٨٠٨ والواقع أن فارس قد نقضت اتفاقية ١٨٠١ بعقدها لمعاهدة فنكشتين ولكن بما أن منتو ومالكولم لم يكونا فى ذلك الوقت على علم بتلك المعاهدة فان سلوك مالكولم باشارته الى تلك المعاهدة لا يمكن أن يغتفر .

(٢) اللورد منتو فى الهند ص١١١ من رسالة من منتو الى اللفتنانت جنرال هبوت ١٨٠٨/٧/٣٠ .

(٣) فارس والخليج مجلد ٢٥ من منتو الى مالكولم ١٢ أغسطس ١٨٠٨ .

وعندما كان مالكولم يغــادر الخليج كانت تشــغل باله وتراوده كثير من الأفكار ، فقد قرر بأن يتجه مباشرة الى كلكتا دون أن يفــكر فى الاحراج الذى سوف يتعرض له عندما يقابل هارفورد جونز ويعرف منه الفشل الذى لقيته مهمته ، وكما ذكر بنفسه أن سبب توجهه الى كلكتا يعود الى رغبته فى عرض اقتراحاته المعتادة لموقف حكومة فارس ، وكان على رأس تلك الاقتراحات تجهيز حملة عسكرية للاستيلاء على جزيرة خرك وتدعيم تجارة الهند مع فارس ، مع أن مالكولم قد سبق أن رفض اتخاذ خرك كموقع لاقامة مركز سياسى وتجارى فيها ، بينما هو يقترح الاستيلاء عليها لانشاء القاعــدة البريطانية فيها ، كما اقترح اغلاق الوكالتين فى كل من البصرة والخليج ، وأن يحل محلهما مؤسسة سياسية وتجارية كبيرة ، ويمــكن الاتفاق على هــذه المؤسسة من ايرادات الجمارك،لأن مالكولم كان يعتقد بأن جزيرة خرك لابد وأن تصبح مركزا تجاريا كبيرا فى الخليج وأنه هو الذى سوف يشرف على هذه الأعمال بتلك المؤسسة(١) .

عند وصــول مالــكولم الى كلكتا يوم ١٢ أغسطس عرض مشروعه على الحاكم العام ، ولم يكتف منتو بقبول المشروع من أول وهلة فحسب بل تراجع أيضا عن كثير من الانتقادات والمآخذ التى سبق أن وجهها الى مالكولم فى البداية بشأن الأسلوب الذى انتهجه فى بوشهر ، وفى هذا الصدد كتب منتو الى اللجنة السرية يقول : اننا مقتنعون بأن الاطار العام للاجراءات التى اتخذها مالكولم انما تتفق مع مركز وكرامة الحكومة البريطانية،وأن أى قرار بانسحابنا من أراضى فارس كنتيجة لرفض استقبال المبعــوث البريطانى من قبــل الشاه قد يترك انطباعات توازى الانطباعات التى قد يتركها أى حدث يمس الشرف القــومى لبريطانيا(٢) . أما كيف استطاع مالكولم أن يغير من موقف منتو فانه لأمر يدعو

---

(١) نفس الحلقة مجلد ٢٩ من مالكولم الى منتو بتاريخ ١٨٠٨/٨/١٥ وفيما يتعلق بتصورات مالكولم الأخرى حول جزيرة خرك انظر كتاب كيه الجزء الأول ص ٤٢٥ وقد اقتبس فيه من جريدة مالكولم عدد بتاريخ ١٨٠٨/٧/٨ .

(٢) ارشيف حكومة البنغال مجلد ١٠ من مجلس الحاكم العام الى اللجنة السرية وقدرة ويليام بتاريخ ١٨٠٨١/٩/٣٧ .

الى الغرابة . فقد كان دفاعه عن تصرفاته دفاعا ضعيفا ، كما أن القصة التى اخترعها من أن الفرس كانوا يتآمرون على اعتقاله مع مرافقيه لم تتأكد(١) . ومع ذلك فبعد مضى يومين من وصول مالكولم الى كلكتا صدرت الأوامر الى بومباى لتجهيز حملة بقيادته بينما طلب الى هارفرد جونز ، الذى كان منتو قد رفع الحجر الدبلوماسى عنه بعد أن بلغه خبر فشل مهمة مالكولم ، بأن يؤجل سفره ويبقى فى بومباى ، لكن قبل أن تصله التعليمات كان جونز قد أبحر ولم تصله تلك التعليمات الا بعد أن وصل بالفعل الى بوشهر وأصبح تنفيذ تلك التعليمات غير ممكن على الاطلاق .

وعندما علم منتو بسفر جونز أخذ يعيد النظر فى الأمر وكتب الى مالكولم يطلب منه الغاء الحملة والتوجه الى الخليج بصفته الدبلوماسية فقط ، وذلك لانجاز مهمته الأصلية التى تعذر عليه انجازها مع التأكيد على المشاعر الودية لباشا بغداد . غير أن مالكولم لم يكن على استعداد لتقبل ذلك والتقليل من حجم مهمته ، وكتب الى منتو يحتج على القرار ويتهجم على هارفرد جونز على تواطئه فى الخروج من بومباى قبل وصول التعليمات التى تطلب اليه البقاء هناك .

وقد لاقى احتجاجه النجاح ، ففى يوم ٣١ أكتوبر بعث منتو بتعليماته الى جونز يطلب منه الانسحاب من فارس ، وفى نفس الوقت فوض مالكولم للمضى فى الحملة . وفى التعليمات التى أرسلت الى مالكولم فى الشهر التالى طلب اليه بألا يستخدم قواته الا فى حالة الدفاع عن النفس فقط . وأن يبذل أقصى ما فى وسعه ليوضح للسلطات الفارسية فى بوشهر بأن الغرض من الحملة هو ضمان سلامة وحماية الهند . فان رأى تغييرا فى موقف الشاه من الفرنسيين فقد فوض بأن يعرض على الشاه تقديم قوة عسكرية صغيرة من نحو ٥٠٠٠ جندى لتساعد الفرس فى مقاومة اى غزو فرنسى روسى مشترك من الروس والفرنسيين الى اراضيه، فقد طلب من مالكولم ان يعرض تقديم تلك القوة الى أمير شيراز كما كان يتعين عليه أن يتبع نفس الأسلوب مع السلطات التركية فى العراق ، كما فوض

---

(١) انظر فارس والخليج مجلد ٢٥ من جونز الى منتو بوشهر ١٨٠٨/١١/١ .

باجراء اتصالات مع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية(١) ان هو رأى مصلحة فى ذلك .

ووصل مالكولم الى بومباى يوم ٣٠ نوفمبر حيث كانت الاستعدادات لتجهيز الحملة قد قطعت شوطا كبيرا ، فقد تم تعبئة قوة مؤلفة من ألفى رجل من المشاة الأوربيين والجنود والخيالة والمدفعية والطلائع ،كما قيل له بأنه فى الامكان تزويده بـ ٤٠٠٠ جندى اضافى من دار الوكالة اذا احتاج اليهم ، غير ان مالكولم اضطر الى تأجيل سفره الى الخليج فى انتظار وصول الأوامر اليه من كلكتا ، وبينما كان فى انتظار تلك الأوامر أوفد مساعده الكابتن ان ـ تى جرانت ليقوم بمسح ساحل مكران ابتداء من جواذر حتى بندر عباس وذلك لاختبار هذه المنطقة فيما اذا كانت تصلح لزحف يقوم به الجيش الفرنسى من جنوب فارس الى مشارف نهر الأندس(٢) .

ومن المشكوك فيه ماذا كان مالكولم قد فكر بالفعل ،أنه فى امكان الفرنسيين القيام بمحاولة لارسال قوة عبر ذلك الطريق ،ولعله كان يهدف من ذلك الابقاء على فكرة وجود خطر يهدد الهند ، وحتى لا يغير منتو رأيه بشأن الحملة . أما دنكان فى بومباى فقد كان يعارض على طول الخط مشروع مالكولم ، وكان يحث هـ.رفرد جونز بالاسراع فى انجاز المهمة التى كلف بها ، وقد كتب اليه رسالة بهذا المعنى : (ان هدفى من وضع كل هذه المسئولية عليك انما يعود الى اعتقادى

---

(١) من ارشيف حكومة البنغال مجلد ١٠ رسالة من الحاكم العام الى اللجنة السرية لفورت ويليام ١٨٠٨/١٢/١٥ .

(٢) من ارشيف الوثائق السرية لحكومة بومباى مجموعة ٣٨٣ مجلد ٣ بتاريخ ١٨٠٩/٤/٢٩ من مالكولم الى جرانت ١٨٠٩/١/١٣ . ان رحلة جرانت فى الشهور الأولى من ١٨٠٩ تعتبر على جانب من الأهمية باعتبارها أول رحلة فى سلسلة من الرحلات البارزة التى كان سيقوم بها المسئولون البريطانيون عن طريق الأقطار الواقعة الى الشمال الغربى من الهند على امتداد ٣٠ سنة التالية ولم تذع الحكومة مضمون تقريره قبل ١٨٣٩ (أنظر انطباعات رحلة عن طريق الاجزاء العربية من مكران) فى المجلة الملكية للجمعية الآسيوية عدد(٥) (١٨٣٩)، ٤٢/٢٨ .

بأنك ستعمل لمصلحة الملك لما تتمتع به من همة ونشاط وامكانيات ، ونأمل أن نسمع أنك قد وصلت الى فارس قبل أن تصل اليها الحملة الأخرى التى أرسلت الى الخليج بطريقة عشوائية،اذ لو وصلت تلك الحملة هناك فسوف تكلف الشركة ملايين الروبيات وستتمخض عن نتائج سيئة(١) وبالغة السوء .

فى نفس الشهر وصلت تقارير الى بومباى من بوشهر تفيد بأن هارفرد جونز قد استقبل استقبالا يليق به وانه من المتوقع أن يتوجه الى طهران فى أقرب وقت ، وعندما علم مالكولم بذلك علق قائلا فى غضب (اننى مصمم على المضى فى مهمتى وبالتالى فاننا سوف نخلق فوضى عجيبة فى الخليج ، فهل سيريح هذا التصرف الموقرين فى لندن ، وما هم فيه من رعونة وطيش للتدخل فى شئون الحكومة المحلية(٢)) . حقا انه لكلام جرىء،ولكن حتى مالكولم لم يكن يستطيع أن يخفى القلق الذى أخذ يساوره مما تنطوى عليه تلك الخطوة من خطورة ، وفى يوم ٨ يناير ١٨٠٩ كتب الى منتو يقول « بأن التقارير التى وصلته عن نجاح مهمة جونز » جعلتنى اتصور انه من واجبى أن أرجىء مهمتى بدلا من المجازفة والتسرع فى أمر قد يؤدى الى الاضرار بالمصلحة العامة(٣)،وقد اضطر منتو الى موافقته على ذلك بعد أن تلقى اشارة من الحكومة فى انجلترا تفيد بأن الصراع فى أسبانيا قد يقيد نابليون من توجيه نشاطه للقيام بمغامرات عسكرية فى الشرق لبعض الوقت ، وبالتالى كتب الى مالكولم بتاريخ ٢٧ يناير يحذره بأنه قد تم صرف النظر عن الحملة الى أجل غير مسمى ، وعلى أية حال فقد قال له مواسيا ، بأن الخطط الفعلية بدعم مراكز الشركة فى جزيرة خرك سوف

---

(١) بيان عن بعثة صاحب الجلالة الى بلاط شاه فارس مجلد ٢ تأليف افنشن جون برجز طبعة لندن ١٨٣٤ جزء١ صفحة ١٧٠ ويتضمن خطاب دنكان.

(٢) موضوعات متفرقة للحكومة البريطانية مجلد ٧٣٧ من مالكولم الى جورج بوشاف بومباى ١٨٠٨/١٢/٢٤ .

(٣) نفس المصدر من مالكولم الى منتو بومباى ١٨٠٩/١/٨ .

تستمر وان كانت ستبقى فى نطاق ضيق مما كان يتصوره مالكولم، وانهم يفضلون المفاوضات للحصول على الجزيرة بدلا من الغزو والاحتلال .

فى يوم ١٤ فبراير ١٨٠٩ وصل هارفورد جونز ، وبعد اربعة أسابيع من وصوله استطاع اقناع الشاه بالموافقة على ابرام اتفاقية صداقة وتحالف مع الحكومة البريطانية ، ويبدو أن نجاح جونز فيما فشل فيه مالكولم يعود الى مايتمتع به من موهبة أو الى قصر نظر مالكولم أكثر مما يعود الى تغيير فى موقف الشاه من الفرنسيين . كما يعود ايضا الى مااستجد من أحداث فى أوروبا وعلى الحدود الفارسية الروسية . وخلال وجود مالكولم فى بوشهر تمكن جاردان من أن يحقق هدنة لمدة سنة بين الروس والفرس ، كما تمكن من أن يتعهد للشاه بالعمل على عقد معاهدة سلام بين فارس وروسيا ، تجرى المفاوضات بشأنها فى باريس حسب مقترحات جاردان تمتنع بموجبها روسيا من القيام بأى عمل عدائى ضد فارس . وربما لسوء حظ جاردان أن حكومة روسيا لم تأخذ اقتراحاته أو اقتراحات الشاه مأخذ الجد ، وطالبت فى انذار وجهته الى الشاه باعتبار خطوط نهر ارس ، وكر واريشاى حدودا دولية بين فارس وروسيا . وقد أخذ الشاه يستعد للحرب بينما بادر جاردان الى ارسال احد مساعديه الى القائد الروسى فى القوقاز يطلب منه الامتناع عن القيام بأى أعمال عسكرية، ولكن المبعوث وصل متأخرا . واندلعت الحرب وأخذ الروس يتقدمون لحصار منطقة اديفان . وفى يوم ٢٣ نوفمبر ، وفى جلسة عامة انتقد الشاه جاردان انتقادا مريرا حول اخلاص نابليون ، وأعطى المبعوث الفرنسى مهلة شهرين لكى يقدم دليلا على حسن نية الامبراطور ، وقد كتب أحد المرافقين لجاردان حول هذا الموضوع بعد أن انفض الاجتماع يقول : « ان فارس فى موقف يائس فهى تتعرض للهجوم من الشمال من دولة كبيرة وتتعرض لتهديد من الجنوب من الانجليز الذين يلوحون لها بالصداقة تارة وبالحرب تارة أخرى ، كما تخلت عنها خليفتها وحاميتها فرنسا ، وبالتالى لم يعد هناك من يقف الى جانبها . . . وعلى حين كانت فارس تنتظر رد فرنسا أعطى الشاه مهلة شهرين لوصول الرد ، بينما كان

يعمل جاهدا لكبح جماح التدخل البريطانى فى شئون بلاده(١) . وبنهاية شهر يناير ١٨٠٩ لم يكن قد وصل أى معلومات من فرنسا ، وبالتالى أبلغ الشاه جاردان أنه سيضطر الى استقبال المبعوث البريطانى جونز ، وفى يوم ١٢ فبراير ودع جاردان الشاه ، وفى يوم ١٣ فبراير توجه الشاه الى تبريز ، وفى اليوم التالى من وصوله وصل هارفورد جونز الى طهران قادما من أصفهان .

وصفت المعاهدة التى عقدت بين جونز ومجلس وزراء الشاه فى الثانى عشر من مارس ١٨٠٩ بأنها (معاهدة تمهيدية) وقد ألزمت هذه المعاهدة الشاه بالغاء جميع المعاهدات السابقة التى كان قد عقدها مع الدول الأوربية وبأن يمنع مرور أى جيش أوربى الى الهند عبر أراضيه . وفى مقابل هذا البند تعهدت الحكومة البريطانية بأن تساعد فارس بقوة عسكرية وبالأسلحة والمعونة المالية اذا تعرضت لغزو من جانب أى دولة أوربية . أما اذا كانت الدول المعتدية مرتبطة بمعاهدات صداقة مع بريطانيا فان الحكومة البريطانية ستقوم بعرض وساطتها فى النزاع ، وفى حالة فشل الوساطة يطبق البند الخاص بالتزام بريطانيا ، أما بالنسبة للعلاقات الأفغانية الفارسية فقد نصت المعاهدة أنه فى حالة نشوب صراع مسلح بين الدولتين فان الحكومة البريطانية سوف تمتنع من التدخل الا اذا طلب الطرفان وساطتها(٢) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) وقع جونز هذه المعاهدة وهو لا يعلم أن مونستورت الفنستون وهو الرجل الذى أوفده منتو فى مهمة الى عاصمة أفغانستان قد ألزم الحكومة البريطانية من خلال الاتفاق الذى عقده مع الأفغان بتدخل بريطانيا الى جانبهم فى حالة تعرض أفغانستان لهجوم من فارس . وقد تحول هذا الاتفاق الى معاهدة تم التوقيع عليها فى كلكتا بتاريخ ١٨٠٩/٦/١٧ (انظر كتاب المعاهدات اعداد اتيشون الجزء التاسع ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

وقد أفرد فى المعاهدة بند خاص بحملة مالكولم التى كانت قد نزلت الى جزيرة خرك ، وبمقتضى ذلك فقد أضيف بندان الى المعاهدة ينصان على ترتيب استقبال ودى للحملة ، وفى مقابل ذلك تعهد جونز فى المعاهـــدة بأن احتلال البريطانيين لأى ميناء أو جزيرة فارسية لا يعتبر حقا من حقوق الاحتلال(١) ، وبعد مضى شهر على توقيع المعاهدة لمس جونز ماتركته المعاهدة من أثر فى نفس حكومة منتو ، ولهذا فقد حاول الحصول على جزيرة أخرى من الشـاه ، وكانت قشم فى رأيه هى أفضل موقع للحامية . كما اقترح جونز احتمال زيادة حجـم الدعم المـالى المنصوص عليه فى المعـــاهدة ، غير أن الشـــاه رفض الاقتراح المذكور(٢) ، ويوم تلقى منتو أخبار المعاهدة التمهيدية التى وقعها جونز فى منتصف ١٨٠٩ وافق عليها وعلى الشروط التى تضمنتها بشأن تقديم المساعدات الى فارس . ولكنه لم يوافق للسماح لجونز بالتصرف فى موضوع تقـديم الأسلحة والدعم المالى ، أو على تعيينه ممثلا للحكومة البريطانية فى فارس وكان يعتقد

---

(١) كتاب المعاهدات اعداد اتيشسون فصل ١٠ ص ٤٥ — ٤٨ .

(٢) « فارس والخليـــج » مجـلد ٢٦ من جونز الى دندس بتـــاريخ ١٨٠٩/٣/٣١ (الحلقة الثالثة) .

(٣) وثائق حكومة البنغال مجلد/٢ خطاب الحاكم العـام الى اللجنــة السرية بتاريخ ١٠ ، و ٢٠ و ٣ ابريل و ٣١ اغسطس ١٨٠٩ . ان الأسباب التى ابداها منتو للتنديد بجونز لم تكن تجيز له تشويه سمعته فى التقارير التى كان يبعث بها الى رؤساء مجلس الادارة فتقريره المؤرخ فى ٣ابريل على سبيل المثال يقع فى ٨٠صفحة من الحجم الكبير (يكاد يصل الى ٢٢ الف كلمة) والتقرير هذا برمته ملىء بالتشنيع على جونز كما لم يكن هناك مايبرر تهديده بالاحتجاج على نفقات جونز اذا لم يغادر فارس واتهامه جونز بأن نجاحه فى فارس انما كان يعــود الى مؤامرات تافهة ودنيئة مع وكلاء الشاه وعملائه الصغار بالاضافة الى اسرافه وتبذيره فى الانفاق (أنظر فارس والخليـــج) مجلد ٢٦ من منتو الى جـونز بتاريخ ١٨٠٩/١/٣٠ .

أن جونز قد تجاوز عن عمد نطاق الصلاحيات والسلطات المخولة لحكومة الشركة فى الهند خلال المفاوضات التى أجراها مع وزراء الشاه كما كان يعتقد أن ايفاد مالكولم مرة أخرى الى فارس هــو الطريقة الوحيــدة لتصحيح الأخطاء التى ارتكبها جونز ، كما كان يعتقد أيضا ، كما أبلغ اللجنة السرية ، بأن الممثل البريطانى الدائم المعين فى فارس هو الشخص الذى يملك صلاحية التفاوض على تقــديم الدعم ، وأن تعيين مثل هذا الممثل هو مسئولية حكومة الهند وليس مسئولية حكومة انجلترا ، غير ان اللجنة السياسية لم توافق على مقترحات جونز وان كان الشاه قد طلب بالفعل من جونز بأن يبقى كمبعوث بريطانى حتى يصل من يخلفه من انجلترا ، وجاء فى رسالة الشركة المؤرخة فى مارس ١٨١٠ (بأن ايفاد بعثة أخرى من الهند قد يؤدى الى مزيد من الاحراج والبلبلة فى علاقاتنا بفارس)(١) غير ان اعتراضات اللجنة وصلت متأخرة حيث كان مالكولم قد ابحر من بومباى يوم ١٠ يناير ١٨١٠ ترافقه حاشية تحوطها كل مظاهر الأبهة والفخفخة . ومهما قيل عن تصرفات مالكولم فى الجوانب الأخرى من مهمته فلقد كان يعرف كيف يختار الرجال الذين يعملون معه ، ومن بين الذين رافقوه فى رحلته الثالثة : هنرى أليس وجون ماكدونالد وهنرى بوتنجر وهنرى لنس والذين اصبحوا من الشخصيات المشهورة كما وافقه آخرون ممن اخذت الأضواء تسلط عليهم ، وهم كريستى الذى اكتشف بالاشتراك مع بوتنجر منطقتى بلوشستان ، وسيبستان وجرانت الذى قام بمسح ساحل مكران ، ولكن كريستى لقى مصرعه بعد ذلك بوقت قصير ابان القتال مع الروس ، بينما اغتيل جرانت من قبل بعض قطاع الطرق العرب فى بغداد .

---

(١) الرسائل السرية للجنة مجلد ٣ صيغة خطاب الحاكم العام بتاريخ ١ مارس ١٨١٠ (الحلقة ٦١) .

أما فيما يختص بالجزء الأخير من مهمته فمن الواضح أنها لم تكن ضرورية لمالكولم ولم تؤد الى نتائج ايجابية باستثناء الأبحاث التى أجراها بعض أعضاء البعثة حول الأوضاع فى فارس . كما أن الرحلة قد كلفت الحكومة نفقات باهظة وتخللتها خلافات مشينة بين مالكولم وجونز بالنسبة لوضع كل منهما لدى بلاط الشاه . وقد انتهت مهمة مالكولم فى شهر يوليو ١٨١٠ عندما استأذن فى مغادرة معسكر السلطانية ، أما جونز فقد غادرها الى انجلترا عن طريق القسطنطينية وكان ذلك فى نهاية العام .

وقد أصدر مجلس الادارة فى الهند واللجنة السرية قرارهم المشترك فى شهر مايو ١٨١٠ وكان القرار يمس السياسة التى كان ينتهجها منتو منذ شتاء ١٨٠٧ — ١٨٠٨(١) .

أما فيما يتصل بالتعليمات الأصلية التى أرسلها منتو الى مالكولم فى شهر يناير ١٨٠٨ فان اللجنة لم تجد فيها مايدعو الى الاعتراض وانما اعتراضها على الكيفية التى نفذبها مالكولم تلك التعليمات ، ومن ناحية أخرى فقد نددت اللجنة بقرار ارسال حملة الى الخليج ورأت فيه اجراء لا مبرر له على الاطلاق ، وربما كان سيؤدى الى الدخول فى صراعات مع فارس لا تعرف نتائجها وقد تكلف بريطانيا ثمنا باهظا(٢) ، وأما فيما يختص بما وقع من خلافات بين منتو وهارفورد جونز فقد

---

(١) يرجع السبب جزئيا فى تأخر صدور ذلك القرار الى أن منتو لم يكن يطلع رؤساءه فى انجلترا بالتطورات الخاصة بالسياسة التى كان ينتهجها فى فارس والخليج أولا بأول والاجراءات التى اتخذها باستثناء موضوع أوموضوعين وفى شهر مارس ١٨١٠ اضطرت اللجنة السرية الى معاتبته بالنسبة للتقارير التى كان يرسلها وتصل اليهم متأخرة فى بعض الأحيان بما لا يقل عن ١٢ شهرا من تاريخ ارسالها .

(٢) مسودة القرارات وارسالية اللجنة السرية مجلد ٣ مسودة خطاب الى الحاكم بتاريخ ١٨١٠/٥/٦ (حلقة ٦٣) .

أعرب مجلس الادارة عن أسفه لما حدث . وكان مالكولم منذ البداية قد قضى على كل أمل فى التنسيق بين الأطراف المعنية أولا بسبب تسرع مالكولم فى السفر من بومباى فى شهر ابريل ١٨٠٨ ، وثانيا لمغادرة هارفورد جونز لبومباى فى شهر سبتمبر قبل أن يستمع منتو لآراء مالكولم بعد عودته مما قضى على كل أمل فى احياء الفكرة . كما كان قرار منتو فيما بعد باحتلال جزيرة خرك فى الوقت الذى طلب الى جونز مغادرة فارس كان قرارا غير سليم فى نظر مجلس الادارة ، ليس لأنه عرض هارفورد جونز وغيره من المسئولين للفشل على أحسن الافتراضات ، أو لفقد حياتهم على أسوأ الافتراضات فحسب ، وانما لأن عملية الاستيلاء بالقوة العسكرية على الجزيرة كان سيؤدى الى اتهام حكومتنا بالخيانة ونكث العهود(١) ، كما رأى مجلس الادارة بأن تكليف منتو لمالكولم للمرة الثالثة لم يكن واردا ، وبالتالى فقد رفض المجلس قبول عذر مالكولم فى أن مهمته كانت تهدف الى اصلاح الأخطاء التى ارتكبها جونز والتى أساءت الى حكومة الهند ، وقال بأن هذا العذر موضع تكهن أكثر مما هو موضع اهتمام عملى(٢) .

وانتهت العمليات الفرنسية فى الشرق تماما فى ديسمبر ١٨١٠ عندما تمكنت الحملة البريطانية من الاستيلاء على جزيرة موريشيوس (والتى أطلق عليها فيما بعد جزر موريشيوس) ، وبذلك حرم الفرنسيون من قاعدة رئيسية لهم كانوا يوجهون منها عملياتهم العسكرية فى المياه الشرقية ، وبعد زوال التهديد الفرنسى تضاءلت المصالح البريطانية فى منطقة الجزر الواقعة الى شمال

---

(١) نفس المصدر .

(٢) وقد أخطر مجلس الادارة فيما بعد بأن احتجاجاته العنيفة على الانتقادات التى وجهتها اللجنة الى سياسته فى فارس هى أنه من الطبيعى أن يحظى مبعوث التاج على احترام وحفاوة أكبر مما يحظى به مبعوث الحاكم العام . كما أن الايضاحات التى اضطر جونز الى تقديمها لحكومة فارس حول تبعية حكومة الهند للحكومة الأم فى انجلترا هى بسبب تجريح بازلى له أمام أمير شيراز فى شهر يونيو ١٨٥٨ .

غربى الهند ، ولكن ذلك لم يتم بالسرعة المتوقعة . ومن ناحية اخرى اتسع نطاق المصالح البريطانية فى فارس ، وذلك فى المقام الأول نتيجة الخوف من التسلل الأفغانى الى الهند ثم نتيجة الرغبة فى تنشيط تجارة الشركة مع تلك البلاد ، وأخيرا نتيجة القلق الذى أثاره احتلال فرنسا لمصر . وقد بدات المرحلة الثانية لتلك التطورات فى ربيع صيف ١٨٠٧ وكانت أسبابها تعود الى مخاوف البريطانيين من زحف على الهند أكثر مما تعود الى اسباب أخرى ، اما المرحلة الثالثة فقد بدات فى أواخر ١٨٠٨ عندما احست بريطانيا بالتغلغل الروسى فى فارس ، مما دفعها الى الاعتقاد بأن الخطر الحقيقى للمصالح البريطانية فى آسيا ناتج عن الأطماع التوسعية للروس وبالتالى فلا يمكن الانسحاب من فارس فورا لمجرد أن الفرنسيين قد انسحبوا من المنطقة مالم تنجح فى اقناع فارس بأنها خط الدفاع الأول عن الهند .

ان الترتيبات التى اتخذت لتحويل معاهدة سنة ١٨٠٩ الى اتفاقية دائمة يمكن تلخيصها فيما يلى :

عينت الحكومة البريطانية السير جوراوسلى خلفا للسير هارفرد جونز وكلفته بالتفاوض لعقد معاهدة مع الشاه . وقد وصل المذكور الى فارس فى اواخر ١٨١١ ، وفى يوم ١٤ مارس ١٨١٢ عقد معاهدة مع امبراطور فارس يتعهد فيها بمنع عبور أى جيش أوربى عن طريق بلاده الى الهند ، وفى مقابل ذلك تعهد اوسلى للشاه بالدعم المالى والمساعدة العسكرية فى حالة تعرض فارس لهجوم من قبل أى دولة أوربية(١) كما يمكن أوسلى من عقد هدنة بين الروس وفارس واقناع الدولتين بعقد معاهدة سلام فى بلوشستان يوم ١٢/١٠/١٨١٣ غير أن كلا الطرفين لم يكن راضيا عن تلك المعاهدة فقد راى الشاه بأن المعاهدة

---

(١) كتاب المعاهدات الجزء العاشر من ص ٤٨ — ٥٢ اعداد اليشسون .

تتضمن شروطا مهينة له وبالتالى فلم تكن تلك المعاهدة تعالج تسوية المشكلات بين البلدين(١) .

كما أن لندن هى الاخرى لم توافق على المعاهدة التى عقدها اوسلى مع الشاه ، وبصورة خاصة على البند الخاص بالدعم المالى وبالتالى فقد أوفدت الحكومة البريطانيــة فى عام ١٨١٤ كلا من هنرى اليس وجيمس موريبه الى طهران لحمل الشاه على ادخال تغييرات على المعاهدة . وفى ٢٥ نوفمبر ١٨١٤ وقعت معاهدة جديدة بالتعديلات المطلوبة ، فقد أضيفت فقرة الى البند الرابع من المعاهدة تنص على صرف البند الخاص بتقديم الدعم المالى الى فارس فى حالة نشوب حرب بين فارس واحدى الدول الأوربية تكون فارس هى البادئة بالحرب ، كما تعهد الشاه من جانبه بأنه فى حالة قيام الأفغان باعلان الحرب على الهند البريطانية بأن يشترك مع البريطانيين فى القتال ضد الأفغان على أن تتحمل الحكومة البريطانية نفقات الجيش الفـــارسى ، كما نصت على أن لا يطلب من بريطانيا التدخل فى حرب تقع بين فارس وافغانستان مالم تطلب الدولتان منها ذلك . كذلك سبق للحكومة البريطانية فى المعاهدة السابقة ان وافقت بتقديم المساعدات العسكرية البحرية والبرية الى الشاه فى الخليج اذا ما احتاج الى مثل تلك المساعدات ، وكانت بريطانيا فى حالة تسمح لها بتقديمها اليه ، على أن تتحمل حكومة فارس نفقات تلك القوة ، كما لا يحــق للسفن البريطانيــة ان تستخدم موانىء غير الموانىء التى تحددها السلطات الفارسية(٢) وعلى أية حال فان المعاهدة التى تصف ديباجتها العلاقة بين فارس وبريطانيا بأنها اشبه بباقة من الورد قطفت من شجرة لا أشواك فيها قد تحولت فى الواقع الى قراص فى يد صانعيها وعلى الأخص بسبب هذه البنود التى تضمنتها .

---

(١) للاطلاع على ترجمة معاهدة بلوشستان راجع كتاب المعاهدات جزء ١٠ مرفق (٥) اعداد اتيشسون .

(٢) « كتاب المعاهدات » الجزء العاشر من ٥٣ ــ ٥٦ اعداد اتيشسون .

لقد كان من الآثار المباشرة لمعاهدة طهران انها قللت من الأهمية الاستراتيجية للخليج فى نظر البريطانيين، وقد اتضح ذلك أثناء قيام هارفرد جونز بمهمته فى فارس . وحتى سنة ١٧٩٨ كانت علاقة بريطانيا بفارس علاقة تجارية بحتة ، وكان الخليج هو القناة التى كانت تمر عبرها تلك العلاقات ، وحتى بعد عام ١٧٩٨ عندما اكتسبت العلاقات البريطانية مع فارس طابعا سياسيا أوضح ظل الخليج محورا للمصالح البريطانية ، وبالتالى فان الشعارات التى دعا اليها ويلسلى ، أى منذ كان ويلسلى يعتقد بأن أى جيش أوربى يريد غزو الهند من الشمال الغربى لابد له من عبور الخليج باعتباره الطريق البحرى الوحيد بدلا من التعرض لأخطار الطريق البرى الوعر افغانستان ، غير أن هارفرد جونز بالمعاهدة التمهيدية التى عقدها مع حكومة فارس قد صرف الاهتمام عن الخليج وركزته على فارس . وسبب ذلك واضح ، ففى عام ١٨٠٨ أصبحت روسيا ، وليس فرنسا، هى الدولة التى يمكن أن تفكر فى غزو الهند، وعلى حين كان من المحتمل أن يقوم الفرنسيون بمثل ذلك الهجوم من البحر على الأقل فان روسيا لم يكن أمامها غير الطريق البرى، وكانت حدودها متصلة مع حدود فارس، وأمراء الخليج الآسيويين وبالتالى فقد كان عبور جيش روسى الى الهند لابد وأن يمر من شمال فارس ، ولم يكن من المتوقع بأى حال أن يسلك الروس الطرق الساحلية من فارس لأنهم بذلك سيعرضون قواتهم لتكون هدفا للأسطول البريطانى الذى سيتمكن من صد الزحف .

فقد كان على مالكولم والحالة هذه أن يصر بقوة على اعتبار الخليج الطريق الوحيد لأى غزو فى الوقت الذى كان يعرف، مثل جونز وربما أكثر منه، احتمال استخدام الروس للطريق الشمالى عبر فارس وافغانستان . . . . .

وان الرد على هذا السؤال يكمن فى طموحات مالكولم الشخصية كما يكمن فى الفرصة التى سنحت له خلال الفترة الحرجة من عامى ١٨٠٧ ــ ١٨٠٨ والتى تصور أن فى امكانه تحقيق تلك الطموحات .

« كان مالكولم يعتبر نفسه سيد الخليج الفارسى وسيد تلك الجـزيرة المحصنة (خرك) والحاكم بأمره فى مقدرات ومصير فارس وشبه الجـزيرة العربية(١) وهكذا وصفه هنرى رولنسون فى كتابه (سيرة مالكولم الذاتية)

كما سخر رولنسون من تصورات مالكولم وعلى الأخص من الخطط التى وضعها لتحويل جزيرة قشم وخرك الى قاعدتين بريطانيتين وقال فى هذا الشأن (ان هاتين القاعدتين سوف تكونان من الوجهة العسكرية بمثابة (جسر) بالنسبة الى بومباى، فمن الناحية التجارية كان الغرض من القاعدة هو احياء ماضى سيراف وهرمز الغابر . وأما من الناحية السياسية فقد كان الهدف من القاعدة هـو اعادة الثقة الى سكان آسيا ، وأما بالنسبة لأوربا فان القاعدة ستكون خـط الدفاع الأول عن امبراطورية الهند(٢) وعلى أى حال فلا يمكن أن نتهم مالكولم بالقصور فى تلك التصرفات لأن وجود مثل تلك القاعدة فى يد البريطانيين فى مطلع القرن التاسع عشر قد مكن الحكومة البريطانية من مكافحة أعمال القرصنة فى الخليج .

(١) كيه جزء ١ صفحة ٤٢٢ .
(٢) « انجلترا وروسيا فى الشرق ص ١٢

الفصـل الثالث

القرصنة والوهابيون ١٨٠٨ — ١٨١٨

ان احتلال الوهابيين لمنطقـة الاحساء فى سـنة ١٧٩٥ كان لاستكمال سيطرتهم على المناطق الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية . وعلى مدى السنوات الخمسة عشر التى تلت ذلك كانت القوة الوهابية فى طريقها الى التوسع والفتوحات خارج حدود نجد . وقد اتخذ هذا التوسع اتجاهات ثلاثة : غربا الى الحجاز والأماكن المقدسة ، وشمالا الى العراق وسوريا ، وجنوبا الى الامارات الساحلية على الخليج الفارسى. وكانت الأطماع الاقليمية والحماس الدينى وشهوة السلب والنهب هى الدوافع الأساسية وراء ذلك التوسع ، الذى كان لابد وأن يرافقه وبصورة حتمية أعمال السلب والنهب وقيام المجازر .

واخيرا جاء الرد من الغرب فقد أثار احتلال الوهابيين للحجاز السلطان العثمانى الذى كلف واليه فى مصر، بأن يتولى مهمة القضاء على النفوذ الوهابى، اما فى الشرق فقد دفعت اعمال القرصنة الحكومة البريطانية فى الهنـد الى التحرك لوضع حد الى تلك الأعمـال التى تلقى الدعم والتـأييد من الدولة الوهابية على الساحل العربى . ولما كانت الدولة الوهابية الناشئة تفتقـر الى التماسك الداخلى ، والى الوحدة والقوة فى تركيبها فانهـا لم تتمكن من مواجهة العمليات التى بدأت ضدها ، وما ان حل عام ١٨١٨ حتى كانت جميع انتصارات الوهابيين قد تحولت الى حكام وراءهم : بعد أن مزقتهم جيوش والى مصر ، وفى الخليج اخذت هذه الأعمـال التى كان الوهابيون وراءهـا تقض مضاجع الحكومة البريطانية تماما كتهديدات نابليون ، وبالتالى فان القلق على امن الهند قد أرغم البريطانيين على دخول المعترك السياسى فى الخليج .

تعرض العراق التركى فيما بين ١٧٩٥ — ١٧٩٨ الى حملات عسكرية عديدة من الوهابيين . ولم يكن فى مقدور سليمان باشا الذى كان يعانى من المرض أن يعمل شيئا لوقف غارات الوهابيين على العراق حتى خريف ١٧٩٨ ، عندما اضطر بأمر من الباب العالى وضغط أعيان البلاد الى تجهيز حملة عسكرية الى الاحساء ، وكان على رأس الحملة رئيس ديوانه ، على باشا، الذى زود بالأوامر للتوغل الى الدرعية وتدمير المناطق الوهابية ، وفى شهر سبتمبر ١٧٩٨ غادرت قوة من الجنود الاتراك بغـداد ، وفى البصرة انضمت اليها بعض وحـدات من القبائل ، يقدر عددها بعشرة آلاف مقـاتل ، من منـاطق المنتفك والشمار والظافر ، وقد تحركت هذه القوة الى الاحساء مع مطلع العام الجديد ، وقد قامت أولا بفرض الحصار على قلعة الهفوف فى الاحساء، ولكن الحامية صمدت ضد المحاصرين، وبعد مضى شهرين اضطر على باشا الى رفع الحصار عن الحامية والعودة الى البصرة ، وخلال تراجعه من شمال الاحساء التقى عند منطقة آبار التاج شمال الأحساء بقوات من الوهابيين يقودها سعود بن عبد العزيز، النجل الأكبر للأمير الوهابى . وبعد مواجهة استمرت بضعة أيام تخللها تبادل الحوار بين الطرفين تم الاتفاق بين الأمير سعود وعلى باشا على هـدنة مدتها ست سنوات ، وقد اصطحب على باشا فى عودته الى بغداد مندوبا عن الوهابيين كلف بالتصديق على المعاهدة .

وبعد عام واحد من ابرام تلك المعاهدة استأنف الوهابيون غاراتهم على العراق ، وبنهاية عام ١٨٠٠ نقضوا تلك المعاهدة نقضا تاما . وقـد تضاعفت غاراتهم خلال شتاء سنة ١٨٠٠ — ١٨٠١ وانتهت بمجـزرة رهيبة وأعمال السلب والنهب فى كربلاء ، وكان ذلك فى ربيع ١٨٠١ ، ففى صباح يوم ٢٠/٤ ظهرت فجأة قوة من الوهابيين تقدر بـ ١٢ ألف رجل أمام المدينة، وقد صادف أن كان معظم السكان خارج المدينة فى النجف لتـأدية الحج ، وقـد انقض الوهابيون على المدينة من المدخل الغربى واندفعوا الى ضريح الامام الحسين

حيث عاثوا فيه سلبا ونهبا وتدميرا ، كما دمرت نصف القبة الذهبية لضريح الحسين (رضى الله عنه) ، ثم انتقل الغزاة الى الأحياء الأخرى من المدينة وعملوا فيها سلبا ونهبا وقتلا ، وكانوا يقتلون كل من يصادفونه ويدمرون كل شيء أمامهم ، وفى الساعة التاسعة من ذلك اليوم انسحب الوهابيون حاملين معهم الكثير من الغنائم التى استولوا عليها الى جانب الأسرى تاركين المدينة وراءهم حطاما وأنقاضا تضم تحتها ما لا يقل عن ٥ آلاف قتيل .

وعلى الفور اجتاحت العالم الشيعى موجة من الذعر بعد وصول أنباء تلك المجزرة ، فقد طالب شاه فارس الذى كان مواطنوه أكثر الضحايا بانزال العقاب الشديد بالوهابيين واستعادة الغنائم والأسلحة التى استولوا عليها . أما سليمان باشا فقد أصيب بالذهول لدرجة انه عجز عن اتخاذ اى اجراء ، وعرض الموضوع على هارفورد جونز المقيم البريطانى فى بغداد ليتوسط لدى الوهابيين للافراج عن الأسرى والتفاهم على طريقة دفع الفدية ، وفى نهاية العام أصدر سليمان باشا أوامره باعداد قوة كبيرة من قبائل المنتفك والظافر والشمار للتحرك الى الاحساء تحت قيادة ثوينى السعدون أكبر مشايخ المنتفك ، ولكن الحملة لقيت نهاية فاجعة ، فقد أغتيل قائدها ثوينى من قبل أحد العبيد الزنوج عندما كانت القوة تعسكر فى منطقة آبار الشعيبية الواقعة على بعد ٣٠ كيلو جنوب الكويت ، أما القوة نفسها فقد لاذت بالفرار أمام القوة الوهابية التى كان يقودها سعود بن عبد العزيز ، وبعد بضعة أشهر وفى يوم ٧ أغسطس ١٨٠٢ توفى سليمان باشا ، ويقال انه قد صرح قبل موته (بأنه لا يجوز أن ابقى حيا بعد مذبحة كربلاء) .

كانت الحجاز هى الهدف الثانى للوهابيين، وقد كانت الحجاز من الناحية الاسمية تعتبر ولاية من الولايات العثمانية ، ويحكمها كبير أشراف مكة وأسرة

الشريف هى من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان يقدر عددها فى ذلك الوقت بنحو ٢١ فردا يسكن معظمهم فى الحجاز ، وعلى الأخص فى مكة والمناطق المجاورة لها . غير أن الصراع على السلطة والحكم بين أفراد تلك الأسرة وعلى الأخص على الخلافة حولت الحياة السياسية فى الحجاز الى مجتمع يسوده الفوضى والعنف .

وكان يحدث أن ينجح أحد هؤلاء الأشراف أحيانا فى فرض النظام غير أن هذا النوع من الحكام كان نادرا جدا . وكان دخل الحجاز يأتى من الرسوم التى تفرض على الحجاج فى موسم الحج ، ومن المنح والمعاشات المخصصة للأمراء من السلاطين العثمانيين ، ومن أموال الحرمين أو الأماكن المقدسة ، كما كان يأتى من الرسوم الجمركية فى جدة . وبهذه الأموال كان شريف مكة ينفق على أفراد الأسرة وعلى غيرهم من سكان مكة والمدينة ، كما كان يدفع اعانات الى شيوخ القبائل ذوى النفوذ .

وقد تنبأ الشريف غالب بن مساعد ، الذى تولى الحكم فى أواخر القرن الثامن عشر ومن خلال استقرائه للأحداث فى المنطقة ، بنهاية حكم أشراف الحجاز واضمحلال سلطانهم على الأماكن المقدسة . وابتداء من عام ١٧٩٠ قام الشريف بحملات متلاحقة على الوهابيين على امتداد المنطقة الغربية لنجد لتطويقهم وتصفية نفوذهم . كما أخذ فى نفس الوقت يندد بهم أمام مسلمى العالم ، ويتهمهم بالهرطقة وبالعمل على تقويض الاسلام . غير أن محاولاته كلها ذهبت أدراج الرياح ، حتى اضطر فى نهاية القرن الى اتخاذ موقف الدفاع منهم ، وفى عام ١٧٩٩ أرغمت الظروف شريف مكة على أن يشهد دخول سعود دخول الفاتحين ليؤدى فريضة الحج ، وكانت ترافقه حاشيته العسكرية ، وفى أواخر عام ١٨٠٢ استولى الوهابيون على الطائف . ثم فى مطلع العام الثانى احتل سعود مكة نفسها ، مما اضطر غالب الى مغادرة المدينة والانسحاب الى جدة ، وفى ٢٧ ابريل تمكن سعود من دخول مكة دون أن يلقى أى مقاومة .

وعلى نقيض سـلوكهم فى كربلاء التزم الوهابيون الاعتـدال فى الأماكن المقدسة ، ولكنهم قاموا بنزع الكسوة الثمينة عنها ولكنهم لم يمسوا الكعبة بسوء . كما قاموا بازالة القباب والشواهد من على أضرحة الأولياء بما فى ذلك ضريح السيدة خديجة زوجة الرسول عليه الصـلاة والسـلام ، كما أغلقوا المقاهى ومنعـوا تدخين النارجيـلة والحشيش ، كما اضرموا النار فى بيوت الدعارة وفرضوا عقوبات مشددة على المدخنين والمعاقرين للخمر ، كما قاموا بالقضاء على كل مظاهر الترف والفساد والشهوات ، وقد أخذ الأمير سعود وأتباعه فى الاتصال برجال الدين والعلماء والمشايخ بهدف اقناعهم بصحـة تفسير الوهابيين للاسلام . وقد تجاوب معهم كثيرون ، وجاء على لسـان المشتركين فى الاجتماع الذى دعا اليه زعماء الوهابيين (بأن العلمـاء ورجال الدين يقرون مبدأ العقيدة الوهابية) ولم يعترض اى منهم على الأحكام التى أصدروها باعدام بعض المواطنين ، وانما اعتبروها أحكاما صحيحة تتفق تماما مع جوهر العقيدة الاسلامية(١) ، وقـد بعث سـعود برسالة الى السلطان العثمانى فى القسـطنطينية يحذره فيها من ارسال المحمل « الى الكعبة أو دخول موكب الطبول والزمور » (لأن الدين الاسلامى يحرم هـذه البدع)(٢) ، وبعد وفاة الأمير عبد العزيز وما أعقب ذلك من انسـحاب الوهابيين من مكة توقف صدور تلك القوانين .

---

(١) ترجمة لنشرة اصدرها عبد الله حفيد عبد الوهاب بقلم اوه. كنبلى مجلة الجمعية الآسيوية فى البنغال .

(٢) رحلات الى الهند وسيلان والبحر الأحمر والحبشة ومصر خـلال سنوات ١٨٠٢ ـ ١٨٠٣ المجلد الثالث طبعة لندن ١٨٠٩ ص ٣٨٩ الفصـل الثانى تأليف الفياكونت فلنشيا كان فلنشيا وقتها يمر بمنطقة البحر الأحمر . وقد كتب يعلق على تلك الأحداث بقوله : (ان تعاليم محمد تلزم اتباعـه من المسلمين بزيارة مكة ولو مرة واحدة فى حياتهم غير أن تطبيق هذه الفريضـة أصبح متعذرا ، فمكة الآن تعج بقرقعة السـلاح وتخضع لحـكام ينـكرون على المسـلمين هـذه الفريضـة التى ظـلوا متمسـكين به طـوال اثنى عشر قـرنا . ان حـكم آل البيت قـد انتهى الآن ـ على الرغم من أن القـرآن سوف يبقى محـاطا بالتقـديس لفـترة طـويلة من الزمن وفى أجزاء كبيرة من قارة آسيا وخاصة بعد أن دخل السعوديون الى مكة فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٠٣ .

فى الوقت الذى كان الوهابيون يكثفون هجماتهم على العراق كانوا فى نفس الوقت يشنون الغارات على شبه جزيرة قطر . وعلى المنطقة الجنوبية (عمان) وساحل القرصنة ، ففى مطلع عام ١٨٠٠ تحركت قوة من الوهـابيين يقدر عددها بسبعمائة رجل بين خيال وراكب جمل ، وكانت وجهتها الظفرة بقيادة سالم الحارق الذى كان من القواد البارزين فى جيش الأمير سعود . وكان الحارق عبدا من أصل نوبى ، وفى أوائل فبراير وصلت القوة الوهابية الى واحة البريمى، أقصى خط دفاعى لعمان من الجهة الشمالية ، وعند وصول الحارق الى تلك المنطقة وجه رسالة الى السيد سلطان بن احمد فى مسقط، يدعوه فيها الى اعتناق مذهب محمد بن عبد الوهاب ، ونبذ المذهب الاباضى والاعتراف بالسلطة الزمنية والروحية للأمير عبد العزيز ، غير أن السـيد سلطان قد رد على رسالة الحارق بشن حملة على سالم الحارق عن طريق وادى الجزى ، وقد اشترك فى الحملة مع سلطان أخوه قيس والى صحار ، وقـد التقى الجيشان فى البريمى، ولكن القائد الوهابى عاد أدراجه بسرعة من الواحة واتجه الى رأس الخيمة فى الطريق الشمالى لساحل القرصنة لطلب النجـدة من القواسم ، وقد وجد الحارق أن القواسم على استعداد للاشتراك معـه فى شن هجوم على آل بوسعيد ، وقد تحرك الحارق والقواسم عبر وادى القور عن طريق ساحل الشميلية غير أنه حوصر من قبل سلطان وقيس اللذين كرا عليه بالهجوم من واحة البريمى ، وقد ارتبـك جيش الحارق واضـطر الى التراجع الى الواحة عن طريق الساحل، بينما عقد أنصاره القواسم معاهدة سلام مع السلطان . ولمـا كان حاكم مسقط مصمما على طرد الحارق من أراضى عمان نهائيا فقد قرر ملاحقتهم ، غير ان جيشه أصيب بنكسة على يد الخيالة الوهابية مما اضطره الى التخلى عن المطاردة ، وقد توصل أخيرا حاكم عمان الى اتفاق مع القائد الوهابى بالتنازل له عن واحة البريمى . ولكن تلك المعاهدة

كانت أفدح خطأ ارتكبه السيد سلطان فى حياته لأن مواطنيه اضطروا لدفع الثمن غاليا عن تلك المعاهدة فى السنوات المقبلة(١) .

كان الحارق يعلم أن البريمى هى مفتاح الطريق البرى الى عمان ، كما انها المنطقة الوحيدة التى توجد فيها موارد للمياه وسط مئات الأميال من الصحراء القاحلة التى تفصلها عن الأحساء ، بالاضافة الى موقعها على مفترق الطرق بين عمان وساحل القراصنة ، فعلى مسافة ١٢ ميلا الى الشرق تقع سلسلة جبال الحجر الغربى التى يخترقها وادى الجزى الذى يمتد الى الساحل العمانى للخليج ، كما انه يمتد من الشمال والى الغرب الى حدود الشارقة ورأس الخيمة وابو ظبى ، ومن الجنوب الى طريق ضنك وعبرى والى ماوراءها حتى نزوى وجبرين وأزكى التى هى قلب عمان ، وتبدو البريمى فريدة بموقعها ، فمساحتها نحو ٦ أميال عرضا وهى أقرب ماتكون دائرية فى شكلها . والى الجنوب مباشرة منها يقع جبل حفيت ، وهو مجموعة من الكتل الصخرية الضخمة التى تطل مباشرة على الساحل المحيط بها ، ومن هذه المنطقة ومن السفوح القريبة لجبال الحجر يحصل سكان البريمى على حاجتهم من المياه التى تصلهم عن طريق قنوات جوفية تسمى بالأفلاج(١) ؛ وتوجد فى هذه الواحة بعض القرى التى تحيط بها قلاع بنيت من الأحجار والطين، اكبرها قصر الخندق الذى يقع من الناحية الجنوبية من قرية البريمى ، ومنه تستمد القرى اسمها ولا يعرف الآن عدد المستعمرات التى كانت فى

---

(١) متفرقات من أرشيف حكومة بريطانيا مجلد ٤٧١ اعداد من اتشه. بوجل (المقيم البريطانى فى مسقط) الى جوناثان دنكان ١٢ مارس ١٨٠٠ ومجلد ٤٧٢ من بوجل الى دنكان ١٨٠٠/٤/٢ انظر كذلك السادة والأئمة فى عمان وتقرير المقيم البريطانى فى الخليج ١٨٨٧ — ١٨٨٨ وسيرة السيد سلطان بن الامام أحمد .

(١) الافلاج (مفردها فلج) .

الواحة عام ١٨٠٠ غير أن ثلاثة من القرى الموجودة حاليا وهى سعره وحماسة والعين كانت موجودة بصورة مؤكدة فى ذلك الوقت(٢) ، وتضفى خمائل النخيل القريبة من القرى منظرا جميلا على الواحـة . والى جانب ثمار البلح تنتـج البريمى الفواكه بكثرة بالاضافة الى القمح والبن الذى يزرع على منحدرات جبل حفيت،كما تربى فيها المواشى،وتعتبر الواحة المنتج الطبيعى لقبائل البدو فى المنطقة الذين يذهبون لمقايضة محاصيلهم أو بيع مواشيهم . وقدقام الحارق ببناء قلعة سماها قصر الصبارة جنوب قصر الخندق،وذلك لتدعيم مركزه فى الواحة ، ثم استدار لاخضاع قبائل الظاهرة وساحل القراصنة أو لكسب ولائها ، ومما ساعد الحارق على ذلك هو أن أكثرية قبائل المنطقة الشمالية سنية المذهب ، وتنتمى الى القطاع السياسى الغافري ، ونظرا لأن المذهب السنى أكثر بساطة من المذهب الاباضى فقد اعتنقت هـذه القبائل المذهب الوهابى بسهولة وابدوا استعدادهم للاشتراك فى أى عمليات للقرصنة ضـد الهناوية الذين يقطنون المنطقة الداخلية فى عمان .

أما قبيلة النعيم وهى أكبر قبائل البريمى وقبيلة الظاهرة فقد انحازت الى الحارق واشتركت القبيلتان ليس فى اخضاع قبيلة الظواهر التى رغـم كونها سنية المذهب الا أنها تنتمى سياسـيا الى الهناوية وتدين بالولاء لآل بوسعيد فحسب ، وانما فى اخضاع قبائل الغافرية الأخـرى كبنى قتب والشوامس الذين يحتلون الأطراف الغربية لوادى الجزى(١) . أما على ساحل القرصنة فقد واصل الحارق انتصاراته على الغافرية التابعين لاتحاد القواسم الذين وجدوا فى المذهب الجديد فرصة أخرى للانغماس فى عمليات السلب والنهب والأعمال العدوانية ، على الرغم من أن صقر بن راشـد شـيخ مشايخ

---

(٢) أما القرى الأخرى الموجودة حاليا فهى جيمى ، حلى ، والقطارة ، والمطيرد ، والمويقى .

(١) أئمة وسلاطين عمان ص ٢٢٨ ـ ٣٣٠ ترجمة بادجر .

القواسم كان يقاوم التسلط الوهابى على المنطقة(٢) وكان الحارق يقبض الزكاة من جميع القبائل الموالية للوهابيين وكانت الضريبة تدفع رسميا للأمير الوهابى.

أما قبائل بنى ياس فلم يكن نجاح الحارق معهم كبيرا ، ولكن الوهابيين كانوا يحكمون قبضتهم على عمان الشمالية فى الوقت الذى كان سلطان بن أحمد يستنزف طاقاته فى محاولات لاحتلال البحرين،غير أن محاولاته لاحتلال الجزيرة فى عام ١٧٩٩ منيت بالفشل ، أما فى المحاولة الثانية سنة ١٨٠٠ فقد نجح فى ارغام آل خليفة على دفع الزكاة . ولكنهم سرعان مانقضوا التزامهم هذا مما اضطره الى شن حملة أخرى عليهم ، وقد اشترك معه فى الحملة الأخيرة شيخ بوشهر ، أما شيوخ آل خليفة فقد فروا الى زبارة فى قطر أو الى الكويت عند أبناء عمومتهم .

وقد أقام السلطان حامية عمانية فى جزيرة المحرق وولى عليها نجله الأصغر سالم البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما آنذاك .

وقد استنجد شيوخ البحرين بالأمير السعودى عبد العزيز لاسترجاع البحرين ، وقد وافق على مدهم بالمساعدة شريطة أن يعترفوا بسلطته ويدفعوا له الزكاة .

وفى عام ١٨٤٠ طرد العمانيون من البحرين وتخلى سلطان بن أحمد نهائيا عن فكرة الهجوم على البحرين مرة أخرى خوفا من اصطدامه بالوهابيين الذين أصبحت لهم اليد الطولى فى سياسة الجزيرة العربية . وقد قرر أن يتوجه

---

(٢) من التقارير السنوية للمقيمين البريطانيين فى الخليج ١٨٨٧ — ١٨٨٨ اعداد مايلز « سيرة حياة سلطان بن أحمد » .

الى الحجاز فى شهر يناير سنة ١٨٠٣ لأداء فريضة الحج(١) .

ما كاد سلطان يغادر البلاد حتى انبرى ابن أخيه بدر بن سيف للاستيلاء على السلطة . ولكن محاولته فشلت وفر من البلاد الى عجمان ، على ساحل القراصنة ومنها الى الدرعية عاصمة الوهابيين . وعند وصوله كانت مكة على وشك أن تسقط فى أيدى الوهابيين فاستنجد به الشريف غالب ، وعند عودته الى عمان بعث الى الشريف ببعض المال والمقاتلين غير أنهم وصلوا متأخرين جدا بحيث لم يكن من وجودهم أى فائدة . ولكن تلك المبادرة من جانب حاكم مسقط أثارت ثائرة الأمير عبد العزيز ، فأصدر أمره فى سنة ١٨٠٣ الى قائده سالم

---

(١) ان بعض الالتباس يكتنف بتسلسل الأحداث فى البحرين فيما بين عام ١٨٠٠ — ١٨٠٢ فلوريمر فى (دليل الخليج) ص ٨٤١ — ٨٤٢ يذكران الاحتلال العمانى للمحرق امتد من عام ١٨٠٠ — ١٨٠١ غير أن مايلز فى كتابه (سيرة السيد سلطان) وفى التقرير السنوى للادارة البريطانية فى الخليج ١٨٨٧ — ١٨٨٨ ص ٢٦ ، ص ٢٧ وروث (فى مذكرات حول نجد التقرير السنوى للادارة البريطانية فى الخليج ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ص ٣٩ يذكران الاحتلال المذكور قد امتد من عام ١٨٠١ الى عام ١٨٠١ الى عام ١٨٠٢ وعلى أى حال فان روث يشير فى موضع آخر (لمحة عن تاريخ عمان من ١٧٢٨ الى ١٨٨٣ ص ٢٤) بأن الاحتلال العمانى للبحرين وقع فى عام ١٧٩٩ عندما عين سالم حاكما عليها وان الاحتلال الثانى الذى تم فى عام ١٨٠١ لم يدم الا فترة قصيرة . أما فرانسزواردن فيحدد ذلك التاريخ بعام ١٨٠٠ فى كتابه (لمحة عن العتوب) وفى عام ١٨٠١ فى كتابه (لمحة عن الوهابيين) مجموعة وثائق حكومة بومباى المجلد الرابع والعشرين ٣١٦ ، ٤٢٩) وهو يحدد عامى ١٨٠١ ، ١٨٠٢ كتاريخ لاستعادة آل خليفة للبحرين ويتحدث الكابتن دافيد ستون المقيم البريطانى فى مسقط يومئذ فى رسالة تاريخها ٢٠ يوليو ١٨٠١ عن احتلال متوقع للبحرين وثائق متفرقة لحكومة بريطانيا مجلد ٤٧٧ وربما كان يشير بذلك الى الحملة الموفقة التى أرسلها السلطان فى ذلك العام ...

بأن يشن هجوما شاملا على عمان ، وأن يشجع الوهابيين على القيام بحملات قرصنة ضد سفن مسقط ، كما ارسل أوامر مماثلة الى كل من آل خليفة في البحرين وآل الصباح في الكويت . وفي منتصف الصيف نجح الحارق في اختراق سلسلة جبال الحجر الغربي ، وبعدها اجتاح الباطنة وارتكب جنوده أعمال سلب ونهب وقتل في المناطق التي استولوا عليها .

وبنهاية الصيف اضطر السلطان الى طلب السلم ، الأمر الذي تمخض عن عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات بين الطرفين ، اشترط فيها أن يدفع السلطان الزكاة سنويا بواقع ١٢ الف ريال للأمير الوهابي ، وأن يسمح للوهابيين بالدعوة الى مذهبهم حتى يتسنى تحقيق الاصلاحات في البلاد، ولكن تلك الاتفاقية كانت مجرد خطة لكسب الوقت ريثما تصل امدادات جديدة من نجد .

وبفضل الامدادات الجديدة التي وصلت الى الحارق وبمن انضم اليه من قبائل الظاهرة انقض القائد السعودي على الباطنة مرة اخرى ، وقد التقى بسلطان في مدينة السويق حيث منيت قوات السلطان بهزيمة أخرى ، ولذلك واصلت قوات الحارق زحفها صوب مدينة صحار وفرضت الحصار عليها . وفي أثناء ذلك وصلت اخبار الى عمان تفيد بأن عبد العزيز قد اغتيل أثناء تأديته الصلاة في مسجد الدرعية يوم ٤ اكتوبر ، وكان القاتل من الشيعة الفرس ممن ذبح الوهابيون أطفالهم في كربلاء ، وقد أدى ذلك الى انتشار الفوضى في صفوف قوات الحارق، وبالتالي رفع الحصار عن صحار ، وتراجع الوهابيون الى البريمي ، وقد انتهز القواسم بزعامة شيخ مشايخهم سلطان بن صقر تلك الفرصة فعقدوا صلحا مع السيد سلطان على الرغم من انهم لم يكن لهم أي دور في القتال ، وقد فعلوا ذلك خشية أن يفقدوا مصائد اللؤلؤ التابعة لهم وحذا حذوهم آل خليفة بينما استجاب الكويتيون الى مطالب الوهابيين .

جاءت وفاة عبد العزيز خاتمة لمرحلة من مراحل التوسع الوهابي ، فقد امضى الوهابيون السنوات الأولى من حكمهم في استغلال المكاسب التي تحققت

لهم فى مستهل حركتهم وفى تصفية جيوب المقاومة على الحدود الشرقية والغربية لشبه الجزيرة . وقد تسلم سعود بن عبد العزيز زمام الأمور فى أوائل عام ١٨٠٤ فأنجز عملية اخضاع بقية الحجاز لسلطانه . فتقدمت قوة من الوهابيين لفرض الحصار على المدينة والاستيلاء على ينبع الواقعة على البحر الأحمر . وقد استسلمت المدينة للسعوديين فى شهر ابريل ، وتم تعيين حاكم وهابى عليها ، كما بدىء فى تطبيق التعاليم الوهابية بمنتهى الصرامة ، غير أن الوهابيين لم يمسوا ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم بسوء، وقد تمكن شريف مكة من استعادة سيطرته على هذه المدينة فى غمرة الفوضى التى سادتها بعد مقتل عبد العزيز، بعد أن سمح له الوهابيون بالبقاء فى الحكم بشرط تطبيق المفهوم الوهابى للاسلام(١) . وخلال الاضطرابات توقفت مراسم الحج تماما وامتنعت قوافل الحج من فارس من السفر للحجاز، كما تعذر على قوافل الحج من فارس السفر للحجاز ، وتعذر على قوافل الحج السورية أن تصل المدينة فى عام ١٨٠٣ . وعلى الرغم من الغضب الذى استولى على الأمة الاسلامية كنتيجة لتلك الأحداث الا أن المسلمين لم يتحركوا . فقد كان السلطان سليم الثالث مشغولا بالصراعات السياسية فى أوربا والقسطنطينية ، بينما ظهرت بادرات للرد والانتقام من الوهابيين ، ففى عام ١٨٠٤ دعا سليم باشا الثالث كلا من عامليه فى سوريا وبغداد لاعداد حملة عسكرية مكثفة ضد الوهابيين كما بادر سلطان بن أحمد بعد أن علم بأمر تلك الحملة الى التحرك الى البصرة على رأس قوة من الأسطول العمانى للمشاركة فيها ، ولكنه فوجىء عند وصوله بأن باشا بغداد لم يتخذ الاستعدادات الكافية لاعداد الحملة ، ثم تبين بأن

---

(١) لم يتوقف الشريف غالب فى جهوده لاستعادة الحكم فى شهر يونيو ١٨٠٤ ووجه نداء الى قائد البارجة فوكس وكانت فى ذلك الوقت فى البحر الأحمر لمساعدته فى طرد الوهابيين من ينبع (وثائق حكومة بريطانيا مجلد ٤٧٩ رسالة من الكابتن جى. جى. فاشرن الى جوناثان دنكان بتاريخ ١٨٠٤/٧/١٣ .

الحملة لن تخرج الى حيز الوجود على الاطلاق . وقد عاد السيد سلطان الى مسقط فى غاية الاستياء من الأوضاع ، وعند وصول سلطان الى منطقة قريبة من باسيدو ، وعلى الطرف الغربى لجزيرة قشم انتقل من الفرقاطة جنجاوا الى سفينة صغيرة لكى يعبر بها الى الشاطىء ولكنه فوجىء بوجود ثلاث سفن لم تكن فى مرمى الفرقاطة راسية بالقرب من الجزيرة ، فانقضت السفن الثلاث على سفينته وأصيب اصابة قاتلة ، ولم يتضح ما اذا كانت تلك السفن الثلاث التى اعترضت سفينة سلطان تابعة لقبيلة الشيوخ التى تقيم فى شبه جزيرة مسندم أم لا ، وانها كانت تكمن فى تلك المنطقة للسطو على السفن التى تمر بها أو ربما تكون ـ وهذا أقرب الاحتمالات ـ سفن القواسم التى كانت موجودة لنفس الغرض ، على أننا لا نستطيع الجزم بأن الهجوم على سفن حاكم مسقط كان خطة مدبرة . وأعقب وفاة سلطان نشوب اضطرابات مسلحة فى الخليج ، فقد تحرك القواسم فى محاولة لتهديد الملاحة التابعة لسلطنة مسقط ، فتمكنوا بالاشتراك مع أبناء عمومتهم ، سكان لنجة على الساحل الفارسى للخليج وبنى معين سكان قشم وهرمز من الاستيلاء على هذه الجزر فى شهر فبراير ١٨٠٥ ، كما تمكنوا فيما بعد من الاستيلاء على بندر عباس وفرض حصار على ميناب التى لا تبعد أكثر من بضعة أميال من بندر عباس ، وما أن تمت لهم السيطرة على مضايق هرمز حتى أصبحوا فى وضع يمكنهم من تهديد ومهاجمة أى سفينة قادمة الى الخليج أو ذاهبة منه ، وفى أواخر عام ١٨٠٤ استولى القواسم على مركبين أوربيتين هما شنون وترمر تابعين لصمويل مانستى ممثل شركة الهند الشرقية فى البصرة ، وفى شهر يناير ١٨٠٥ هاجم أسطول من ٤٠ سفينة شراعية تابعة للقواسم طراد الشركة مورنجتون المسلح بـ (٢٤ مدفع) الذى كان وقتها بالقرب من جزيرة بوليور(١) غير أن مدفعية الطراد ارغمتهم على الفرار .

---

(١) الوثائق السياسية لحكومة بومباى مجلد واحد ، خطاب من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٠٥ .

لم تكن هذه الاعتداءات هي الأولى من نوعها التي يقوم بها القواسم على السفن التي ترفع العلم البريطاني، فقد سبق أن اضطرت احدى سفن الشركة، وكانت تحمل البريد، الى خوض معركة استمرت ثلاثة أيام ضد ستة سفن للقواسم قبل أن يتمكن القواسم من الاستيلاء عليها ويطالبوا بفدية قدرها ٤٠٠٠ روبية ، وفي يناير سنة ١٧٧٩ — كانت السفينة سكركتش في طريقها من مسقط الى البصرة، وفي الطريق اعترضتها ثمانية أو عشرة سفن تابعة للقواسم، ولكنها تغلبت عليهما جميعا ، وبعد شهر من هـذا الحادث تغلبت السفينة على هجوم قام به القواسم عليها أثناء سيرها في الخليج . وفي عام ١٧٩٠ بينما كانت السفينة باجلربر في طريقها من البنغال الى بوشهر استولى القواسم عليها بالقرب من مسندم ، وفي يوم ١٨ مايو ١٧٩٧ بينما كانت السفينة باسيم تحمل بريد الشركة هاجمتها نحو ٢٠ سفينة للقواسم بالقرب من جزيرة قيس واستولت عليها وسحبتها الى رأس الخيمة ولكن القواسم عادوا وأفرجوا عنها بعد بضعة أيام ، وفي أكتوبر من نفس العام بينما كان طراد الشركة فايبر راسيا في ميناء بوشهر هاجمته بعض سفن القواسم في محاولة للاستيلاء على بارود الباخرة والأسلحة التي كانت تحملها ، ولما كان قبطان الطراد وأغلبية البحارة على الشاطىء فقد أصبح الأمل ضئيلا في امكان التغلب على القواسم ، غير أن البحارة عرفوا كيف يتصرفون ، فقد قاموا بقطع حبال الطراد ، وبذلك نجحوا في احباط محاولة القراصنة ، ثم قاموا بعـد ذلك باطلاق النار على سـفنهم لاغراقها .

وقد تم ارسال احتجاج الى الشيخ صقر بن راشد شيخ القواسم الذى رد على الشركة بأن السفن المهاجمة ليست تابعة له وانما هي لأهل لنجة(١) .

---

(١) وثائق حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٠٢ ، لمحة تاريخيـة عن القواسم ، (تأليف اف. واردن) (والأسطول الهندى) تأليف لو الجزء الأول ص ٣١٣ (بلدان وقبائل الخليج) تأليف مايلز فصـل اثنين ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ص ٢٨٨ .

وتختلف اعتداءات القراصنة سنة ١٨٠٤ عن الاعتداءات السابقة لهم ، اذ أن الاخيرة اصطبغت بالصبغة الدينية وان كان من المشكوك فيه أن يكون امراء نجدهم المحرضين لتلك الاعتداءات(١) . كما اننا لا نتصور أن يكون اعتناق القواسم المذهب الوهابى هو الذى أثار فيهم نزعة القتال، كما اعتنق قواسم لنجة المذهب الوهابى ، غير أنه لم يتضح حتى ذلك الوقت أن قواسم لنجة وقواسم رأس الخيمة قد أصبحوا خاضعين للوهابيين ، صحيح أنهم كانوا يدفعون الزكاة الوهابيين الا أنهم لم يكونوا يسلمون خمس مايستولون عليه من غنائم الى السلطات الوهابية فى الدرعية ، وهى الزكاة التى اعتاد الوهابيون أن يفرضوها على اتباعهم(٢) .

ولم تظهر الأوساط المسئولة فى بومباى اغتباطها لوفاة سلطان وظهور القواسم على المسرح .

وبعد اغلاق دار الاعتماد البريطانى فى مسقط فى نهاية عام ١٨٠٣ تقلص الاهتمام بهذه البلاد ، ولما توفى أحد المعتمدين البريطانيين هناك ومرض آخر

---

(١) لا أتصور أن التصرف الأخير للعرب القواسم فى الاستيلاء على السفينتين تريمر وشانون والهجوم على مورننجتون هى نتيجة لرغبات أو أوامر شيخ الوهابيين (من وثائق مجلس ادارة شركة الهند مجلد ١٩٢ من مانستى الى جرانت (سكرتير حكومة بومباى) بتاريخ ١٨٠٥/٤/١٩) .

(٢) يعتبر الشيخ غذيف فى لنجه الواقعة على الجانب الفارسى من الخليج قاسميا بالولادة فهو عم سلطان بن صقر حاكم راس الخيمة على الجانب الغربى من الخليج ولكنه كان وهابيا بالمذهب وكان يدفع الزكاة الى سعود الزعيم الجديد للوهابيين ولأنه كان يقيم على الساحل الفارسى فقد كان يعتبر نفسه مواطنا فارسيا كيفما اتفق رغم انه لم يكن يأتمر بأوامر شاه فارس الا فيما كان ينفق ومصلحته (وثائق مجلس ادارة شركة الهند مجموعة ٤١٥٥ مجلد ١٩٢ من سبتون الى دنكان مسقط ١٨٠٥/٨/١٤ .

بالحمى لشدة حرارة الطقس اكتفت حكومة بومباي بأن توكل أمر الحفاظ على مصالح البحرية الى السيد سلطان نفسه اعتقادا منها بأن له بعض النفوذ فى الخليج ، وان كان ذلك الاعتقاد لم يكن يتفق مع سلوكه السياسى . وقد تبين فيما بعد انه لو أريد لمسقط أن تستمر فى القيام بذلك الدور فلابد من مساندتها والتأييد والمساعدة لها ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد طلب الكابتن سيتون فى مارس ١٨٠٥ بأن يعود الى مسقط لفتح دار الاعتماد ليقدم مساعدته لأحد المرشحين من أنجال سلطان لتولى الحكم . وقد نصحه جورج بارلو الحاكم العام للهند فى ذلك الوقت بمنح تأييده للمرشح الذى يتعهد باقامة الحكم العادل، ويشترط ان يتم تقديم تلك المساعدة على أسس لا تورط الحكومة البريطانية فى حرب ضد مسقط(١) .

وضع الطراد البريطانى مورنجتون تحت تصرف سيتون لتدعيم موقفه فى أى قرار قد يتخذه وبشرط أن لا يتعارض مع سياسة السلطان الجديد وفى العمل على استعادة السفن والبضائع التى استولى عليها القواسم ، وقد قيدت حرية سيتون فى التصرف الى حد كبير ، وجاء فى التعليمات التى صدرت اليه ، انه فيما يتعلق بأى اجراءات قد تتخذ ضد القواسم فينبغى بأن تلتزم منتهى الاعتدال معهم ، وأن تسعى الى تهدئة الأوضاع بالمفاوضات وبأن لا تلجأ الى العنف تحت أية ظروف .. كما ينبغى أن يتجنب أي صدام مع الوهـــابيين أو اى من الحكومتين التركية والفارسية(٢) وقـد سبق أن صـدرت نفس التعليمات الى قائد طرادات الشركة(٣) .

(١) حول مراسلات الخليج ١٨٠١ — ١٨٥٣ ص ٣٤ الحاكم العام للهند الى مجلس حاكم بومباى فورت وليم ١٨٠٥/١/١٠ .

(٢) مجموعة من وثائق مجلس ادارة الشركة الحلقة ٤١٥٥ مجلد ١٩٢ من دنكان الى سيتون ١٨٠٥/٣/٣ .

(٣) المراسلات السياسية لحكومة بومباى مجلد واحد من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٠٥/٢/٢٦ .

لكنه قبل أن يغادر سيتون بومباى كان النزاع على السلطة فى مسقط قد انتهى . فقد عاد السيد بدر بن سيف ابن أخ سلطان من منفاه بعد زيارته لقطر حال سماعه بوفاة عمه . وعند وصوله وجد كلا من سعيد وسالم نجلى سلطان محاصرين من جانب عمهما السيد قيسر بن أحمد والى صحار . فاضطر بدر الى أن يطلب النجدة من الحاكم الوهابى فى الدرعية الذى استجاب لطلبه بمنتهى السرعة .

تحركت قوة من جنود الحامية الوهابية فى البريمى الى منطقة وادى الجزى وحاصرت صحار ، كما أبحر أسطول من ١٥ سفينة تحمل ١٥٠٠ مقاتل من البحرين الى مسقط بأمر من الأمير سعود ، وقد أثار وصول الوهابى استياء عميقا فى أوساط العاصمة العمانية خصوصا وأن السفن كانت ترفع أعلاما من أقمشة الستائر التى نهبها من ضريح سيدنا الامام الحسين بن على فى كربلاء ، وقد اضطر قيس الى الانسحاب من مسقط لمواجهة الوهابيين فى صحار ، وبعد ذلك بوقت قصير عقد صلحا مع بدر بن سيف(١) .

عند وصول سيتون الى مسقط فى شهر مايو ١٨٠٥ كان بدر يستعد لاسترجاع بندر عباس من بنى معين خلفاء القواسم ، وقرر سيتون أن يشترك مع بدر فى الهجوم ، وفى يوم ٧ يونيو غادر الأسطول مسقط ومعه الطراد مورنتيجون بندر عباس وبعد قصف استمر طوال اليوم استسلمت الحامية ، وأعقب ذلك فرض حصار على بنى معين فى جزيرة قشم . وفى بداية يوليو حاول أسطول من رأس الخيمة قوامه ٣٠ سفينة فك الحصار عن البلد غير انه وجد نفسه محاصرا فى ميناء قشم . ولم يسمح للقواسم بمغادرة الميناء

---

(١) المراسلات السياسية لحكومة بومباى مجلد واحد مرفق لرسالة سياسية بتاريخ ١٨٠٤/٤/٢٢ من سيتون الى دنكان مسقط فى ١٨٠٥/٥/٢٣ وكتاب « سلاطين وأئمة عمان » ترجمة بادجر ص ١٣ و ١٩ و ص ٢٦٢ — ٢٦٩

الا بعد أن وقعوا هدنة مدتها سبعون يوما ، وهى فترة كانت تكفى لوصـــول امدادات الى بدر من أسطول الجيش العمانى الذى كان يومئذ فى طريقه من البحر الأحمر الى البصرة ، كما يتعهد القواسم بتســليم السفينة « تريمر » التابعة لمانستى خلال خمسة وعشرين يوما وحمولتها أو مايعادل الحمــولة نقــدا (١).

واعيدت السفينة لأصحابها فى الخريف . وفى مطلع عام ١٨٠٦ بدأ سيتون يتعامل مع القواسم للوصول الى صيغة اتفاق يتعهدون فيه بعــدم التعرض للسفن التى ترفع العلم البريطانى . وفى يوم ٦ فبراير عقد هذا الاتفاق فى بندر عباس مع ممثل الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم ، تعهدوا فيه باحترام ممتلكات شركة الهند الشرقية ورعاياها ، وفى حالة عدم امتثالهـم لشروط الاتفاق تفرض عليهم غرامة مالية قدرها ٣٠,٠٠٠ نمسوى . أما اذا أرغموا على نقض الاتفاق بأمر الوهابيين فيتعــين عليهم أخطــار شركة الهنــد الشرقية فى مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر، وفى مقابل ذلك تنازل سيتون عن قيمة حمولة السلع التى كانت تنقلها السفينة تريمر وسمح للقواسم بالدخول الى موانىء الهند التى كان محظورا عليهم دخولها منذ الهجوم على السفينتين(٢) .

وفى صيف ١٨٠٥ نشب القتال من جديد بين بدر وقيس ابنى احمد ، وعاد بدر مرة أخرى يستنجد بالوهابيين فى البريمى غير أنه لم يدرك خطورة اعتماده على الوهابية ، ففى أكتوبر ١٨٠٥ كتب الى دنكان فى بومباى بطلب من

---

(١) مجموعة وثائق مجلس ادارة الشركة مجلد ١٩٢ حلقة ٤١٥٥ من سيتون الى دنكان ٢٥ يوليو ١٨٠٥ .

(٢) مجموعة وثائق مجلس ادارة الشركة مجلد ٢٦٥ حلقة ٥٦٤٦ ملخص المحادثات السياسية بتاريخ ١٨٠٥/١١/١ ومضمون رسالة من سيتون الى دنكان مسقط فى ٤ مارس ١٨٠٦ ويمكن الاطلاع على الاتفاق المذكور فى كتاب « المعاهدات » اعداد اشيسون فصل ١٠ ص ١٢١ — ١٢٢ .

البريطانيين مساعدته للتخلص من الوهابيين ، وقام سيتون بتزكية طلب بدر وحذر مرة أخرى من أنه لو قدر للوهابيين أن يسيطروا على عمان فان هـذه البلاد سوف تصبح وكرا للقرصنة ، وسوف تهدد سفنها تجارة الهند الغربية، وتأييدا لهذا الاقتراح اقترح سيتون على بدر بأن يبعث الى دنكان بنسخة من الخطاب الذى تلقاه بدر من الأمير السعودى ، الذى يقول فيه بالحرف الواحد: انك من غير شك سوف تبادر الى دخول الحرب المقدسة معنا ضد الهند فأنت فى هذه الحرب لا تقاتل من أجلى أنا ولكنه جهاد فى سـبيل الله(١) . غـير أن سيتون كان يبالغ فى تقديراته،واذا كان من المؤكد أن هناك نحو ٤٠٠ خيال من الوهابيين يرابطون باستمرار فى بركا على ساحل الباطنة وأن الدعاة الوهابيين يجولون طرقات مسقط يبشرون بالمذهب الجديد ، ويرهبون السكان الا أن موجة من الاستياء أخذت تعم الأوساط القبلية ضدهم ، وتحولت الى عـداء سافر شمل قبيلة الظواهر الذين كانوا من أوائل المعتنقين للمذهب الوهابى . وقد أخذ كفاح قيس ضد بدر والوهابيين يتخذ طابعا وطنيا أكثر منه صراعا من أجل السلطة ، وكان هناك شعور عميق بالمهانة فى أوساط أسرة آل بوسعيد لاضطرارهم الى دفع الزكاة للوهابيين والاعتماد على حرابهم ، وكان سعيد أصغر أنجال سلطان بن أحمد شابا فى السادسة عشرة وكان يكره بدر ويعتقد بأنه قد اغتصب منه الحكم . وكان سعيد يعتبر فى الأوساط القبلية المعارضة للنفوذ الوهابى فى عمان البديل الطبيعى لبدر . وكان على رأس تلك الفئة محمد بن ناصر شيخ بنى جابر الذى كان من أكثر المناصرين لوالد السيد سعيد أثناء حياته . وفى صيف عام ١٨٠٦ صمم كل من محمد بن ناصر وسعيد على وضع

---

(١) نفس المصدر مجلد ١٩٢ حلقة ٤١٥٥ من بدر الى دنكان بتـاريخ ٢٢ شعبان ٢١/٢٢٠ أكتوبر ١٨٠٥ ومرفق به رسالة سعود لبدر ورسـالة سيتون الى دنكان بتاريخ ١٨٠٥/١١/١٦ مسقط . انظر ايضا كتاب « لمحـة تاريخية عن الوهابيين » تأليف واردن مجموعة وثائق حكومة بومباى فصل ٢٤ ص ٤٣١/٤٣٠ .

خطة للتخلص من بدر . فاستدرجوه الى بركا التى كان سعيد واليا عليها وهناك طعنوه بخنجر طعنة أودت بحياته ، وقام بعملية الاغتيال أحد العبيد النوبيين يوم ٩ يوليو(١) واستطاع الثلاثة بعد ذلك أن يضللوا الوهابيين المرابطين فى البلدة ويصلوا الى مسقط حيث قاموا بتنصيب سعيد حاكما على البلاد خلفا لبدر . وقد بادر قيس بن أحمد الى تقديم التهنئة الى ابن أخيه على توليه الحكم وأعرب له عن تأييده له ، وتبعا لذلك اضطرت القوة الوهابية المرابطة فى بركا الى الانسحاب منها للبريمى ، وقد كتب سعيد الى جوناثان دنكان ، يعلنه بوفاة بدر وتسلمه السلطة فى البلاد(٢) . غير أن السلطات البريطانية فى الهند لم ترض عن الطريقة التى تولى بها سعيد حكم البلاد وبالتالى حجبت اعترافها به حتى ربيع ١٨٠٧ وحتى عندما اعترفت به بعد ذلك فانها قد أوضحت له بأنها سوف تعتبر عمان دولة محايدة فى الصراع القائم بينها وبين فرنسا(٣)،ولفترة من الوقت ظلت الاتصالات البريطانية بحاكم مسقط محدودة . وكانت دار الوكالة مغلقة منذ العام السابق وتقرر تركها مغلقة كاجراء تقشفى من جهة ، وللحد من التورط البريطانى فى شئون عمان من جهة اخرى ، وعلى اى حال فان التطورات التى وقعت فيما بعد أرغمت السلطات البريطانية فى الهند الى تغيير موقفها اثر تطور الصراع مع فرنسا

---

(١) أشار الى هذا الحادث الشيخ منصور فى كتابه (السيد سعيد) ص ٤ — ١٤ كما ورد ذكره أيضا فى كتاب أئمة وسلاطين عمان ص ١٩ — ٢٠ ، ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

(٢) وثائق مجلس الوزراء مجلد ٢٥٧ حلقة ٥٦٥٠. من سعيد الى دنكان ١٤ جمادى الأول ١٢٢١ الموافق ٣١ يوليو ١٨٠٦ وقد حدد الكتاب الفترة التى تولى فيها السيد سعيد الحكم بين ١٨٠٤ ، ١٨٠٨ وتوضح الرسالة بأن سعيد تولى الحكم فى سنة ١٨٠٦ وان التاريخ الذى أغتيل فيه بدر هو ٩ يوليو . انظر أيضا المراسلات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٣ جزء ١ من الحاكم العام الى اللجنة السرية فى ١٨٠٦/٨/١٢ .

(٣) أنظر أعلاه ص ٧٨ .

وكنتيجة لانحياز روسيا وتركيا الى جانب نابليون(١) ، وفى يناير ١٨٠٨ صدرت الأوامر الى سيتون بالعودة الى مسقط لفتح دار المثلية البريطانية هناك، وقيل له بأن مهمته وان كانت تنحصر فى مراقبة أى تحركات للفرنسيين ومحاولاتهم لانشاء قاعدة لهم فى الخليج الا أن عليه أن يهتم بالأوضاع فى عمان ، وبعد وصول سيتون بعث بتقرير غير مطمئن الى رؤسائه جاء فيه « أن الحكومة الحالية غير مستقرة ولا يؤيدها الشعب . وأن السلطان بحكم صغره وقلة خبرته قد فقد النفوذ الذى كان لوالده فى الخليج . ولأنه لم يظهر الاهتمام اللائق بشيوخ القبائل الذين وفدوا انفض عنه حتى أصدقاؤه، كما أن سلطته لا تتجاوز الجزء الساحلى من عمان : أما المنطقة الداخلية فانها تدفع الزكاة للوهابيين ، ولولا خضوعه المشين للوهابيين لما ترددوا عن الزحف على ساحل عمان واحتلاله ، وتم استدعاء سيتون لسوء الحظ بعد بضعة أسابيع وكلف بمهمة أخرى فى السند مما حرم حكومة بومباى من مصدر موثوق للمعلومات عن التطورات المزعجة فى الجزء الشمالى من عمان وعلى امتداد ساحل القرصنة طوال بقية العام ، وفى سنة ١٨٠٧ توفى السيد قيس أثناء محاولة كان يقوم بها لطرد القواسم من خورفكان على ساحل الشميلية وكانوا قد احتلوا ذلك المرفأ فى أعقاب الفوضى التى أعقبت وفاة بدر .

بعد وفاة بدر بادر السيد سعيد الذى اشترك فى الحملة التى قام بها قيس على الوهابيين الى تعيين وال من أنصاره فى صحار ، وبذلك قطع الطريق على عزان نجل قيس لتولى ولاية المنطقة وبهذا الاجراء خلق لنفسه خصما جديدا فى شخص عزان . وفى خريف العام اختلف سعيد مع محمد بن ناصر شيخ بنى جابر واكبر المؤيدين له ، فغادر الأخير مسقط مستاء وبدأ يراسل الأمير السعودى . ومن السرعة التى استجاب بها الأمير السعودى لمحمد بن ناصر يتضح كيف أن الوهابيين كانوا يتحينون الفرصة لاستكمال سيطرتهم

---

(٤) انظر أعلاه ص ٨٢ .

على المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجـزيرة ، ففى خريف سنة ١٨٠٧ ارسل العاهل السعودى قوة كبيرة الى البريمى بقيادة مطلق المطيرى، وكان من أقدر القواد الوهابية وعند وصول مطلق الى البريمى بدأ فى بناء قلعة ضخمة وكان يرمى من وراء ذلك الى مد سيطرته ليس على واحة البريمى وحـدها وانما على منطقة الظاهرة كلها .

كذلك تحالف المطيرى مع أقوى زعماء قبائل المنطقة الشمالية من عمان أمثال أحمد بن ناصر شيخ بنى غافر ، ومحمد بن ناصر شيخ بنى جابر، وعزان بن قيس والى صحار . وعين كل واحد من هؤلاء مسئولا على منطقته وتابعا للدرعية فى صلاحياته ، كما شملت سياسة مطلق اجـراء بعض التعـديلات فى ساحل القرصنة ، فقد أعفى سلطان بن صقر من مشيخته للقواسم فى خريف سنة ١٨٠٨ لأنه لم يظهر تحمسا لقضية الوهابيين . وفى نهاية العام قبض على صقر ثم نقل سجينا الى الدرعية . وقد عين مكان سلطان حسين بن على شيخ رمس كنائب للأمير الوهابى وشيخا على القواسم وارتفعت قيمة الزكاة السنوية التى كانت تدفع لحكام مكة من ٤٠٠٠ ريال نمسوى الى ١٢٠٠٠ ريال نمسوى. وصدرت الأوامر الى حسين بن على بأن يلقى الى البحر بكل سفينة لديه لتعمل باسم الوهابيين ضد الهراطقة والمرتدين والكفار على السواء ، وأن يرسـل بخمس الغنائم التى يستولى عليها الى الدرعية(١) .

---

(١) أنظر الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٣ مجلد (٢) مجموعة ٢٤ مارس ١٨٠٩ من سيتون الى مالكولم مسقط ٦ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ فبراير ١٨٠٩ ويقدم فرانسز واردن صورة مختلفة بعض الشيء عن أحداث المنطقة الشمالية من عمان خلال فترة ١٨٠٧ ، ١٨٠٨ فى كتابه «لمحة» (مجموعة وثائق حكومة بومباى المجلد ٢٤) ويرجع سبب هذا الاختلاف فى الأساس الى سوء فهم واردن عندما ألف كتابه فى عام ١٨١٩ ، أما وجهة نظر سيتون فتتفق مع رأى المؤرخ العمانى ابن رزيق فى كتابه « أئمة وسلاطين عمان » ترجمة بادجر ص ٢٩٤ الى ٢٩٨ رغم أن الغموض الذى يحيط بالتاريخ الذى أشار اليـه ابن رزيق .

وفى يوم ٢ مايو ١٨٠٨ هاجمت سفينتان تحملان نحو ٥٠٠ رجل ، طراد الشركة « فيورى » الذى كان فى طريقه من البصرة الى بومباى . وقد وقع الهجوم بعد الظهر فى منطقة تقع على بعد بضعة فراسخ الى الشرق من مسقط، وبعد مطاردة دامت عدة ساعات تمكنت مدفعية الطراد من ابعاد بحارة السفينتين عن الطراد(١) ثم بعد أسابيع ثلاثة التقت السفينة منيرفا التابعة لمانستى باسطول من سفن القواسم يقدر بنحو ٥٠ قطعة بحرية بالقرب من رأس مسندم ، وكان ذلك يوم ٢٣ مايو . وقد ظلت السفينتان تدافعان لمدة يومين الى أن استولى عليها القراصنة ، وقد قتل معظم بحارة السفينة وركابها ، ومن الذين نجوا من الذبح السيدة روبرت تايلور حرم اللفتنانت تايلور أحد العاملين بمكتب المقيم البريطانى فى البصرة، وكذلك طفلها الرضيع ، وقد نقلت السفينة الى رأس الخيمة وتم تفريغ حمولتها من السلع ومن التركيبات الأخرى ، ثم اعيدت الى البحر لتعمل ضد السفن الأخرى . وقد تم الافراج عن معظم الأسرى فيما بعد ومن بينهم السيدة تايلور التى باعها أحد شيوخ القواسم الى أحد المواطنين العرب فى البحرين بمبلغ ٦٧٠ ريال نمسويا وقد دفع المقيم البريطانى فدية ١٠٠٠ ريال نمسوى(٢) لقاء الافراج عنها .

منذ ذلك الوقت بدأ القواسم يخرجون الى البحر فى مجموعات تتألف من ١٥ الى ٢٠ سفينة كل منها بقيادة نائب يتبع حسين بن على نائب الأمير

---

(١) الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٣ مجلد ٤٥ المحادثات السياسية بتاريخ ١٨٠٨/٥/١٠ من اللفتنانت جوان قائد (الطراد فيورى) الى وليام مونى (رئيس البحرية) ١٨٠٨/٥/١٠ «والأسطول الهندى» تأليف لو ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر حلقة ٣٨٣ محادثات ١٨٠٩/٩/٨ من بوراه على منجى (أحد ركاب منزنا) الى سيتون يوليو ١٨٠٩ نفس الحلقة مجلد ٢ محادثات ١٨٠٩/١٢/٦ . من وليام بروس (المقيم البريطانى فى بوشهر) الى فرانسيز واردن سكرتير الحكومة ١٨٠٩/١٠/١٧ .

الوهابى . ونظرا لضعف تسليح هـذه السفن من حيث الأسلحـة التقليدية فقد كانت تتبع طريقة خاصة ، وهى أطباق سفن القراصنة على السفن التى يريدون اقتحامها . والواقع أن كل من يحاول مقاومتهم أو حتى من لا يحاول مقاومتهم يذبحونه ذبح النعاج . وقد وصف أحد ضباط الأسطول التـابع لحكومة بومباى أسلوب القواسم بقوله :

« فيما يتعلق بالقواسم فاننى لا أستطيع أن أتصور كيف أن هؤلاء الناس الدين ليست القسوة من طبيعتهم ان يتخذوا من الوحشية والعنف سـبيلا للتخلص من أسراهم . فهم يقترفون هذه الجرائم ببرود رهيب مما يضفى على العملية لونا دنيئا يتخذ أسوأ أنواع القسوة والوحشية ، هذا على الرغم من أن عقيدتهم الدينية لا تبيح لهم تلك الأساليب الوحشـية ، ومن عادة هؤلاء أنهم بعد أن يستولوا على احدى السفن يقومون بغسلها بالماء ورشها بماء العظور ثم يقودون بحارتها واحدا تلو الآخر ويعلقون رأسه على فوهة المدفع ثم يبترون رأسه وهم يرددون عبارة الله أكبر »(١) .

وقد قدرت عدد وحدات أسطول القواسم فى ذلك الوقت بـ ٦٣ سفينة من الحجم الكبير و ٨١٠ من الحجم الصغير ، يديرها ما لا يقل عن ١٨٫٠٠٠ الى ٢٥٫٠٠٠ مقاتل(٢) وكان أغلب السفن يأتى من الشارقة ورمس وان كان البعض منها يأتى من لنجة ونخيلو وغيرها من الموانى الفارسية . وكان القسم الأكبر من بحارة هذه السفن يعملون فى الغوص وصيد الأسماك ، وبالتالى فان أسطول القتال القاسمى لم يكن فى الواقع يزيد على ٧٠ الى ٨٠ سفينة(٣) .

---

(١) « مدينة الخلفاء » فصل واحد ص ١٠١ تأليف ويستد .

(٢) الوثائق السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣ محادثات ٦ يناير ١٨١٠ مذكرة من جوناثان دنكن (يناير ١٨١٠) .

(٣) راجع الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقـة ٣٨٣ محادثات ١٨٠٩/٨/٢٥ من مانستى الى دنكان ، البصرة فى ١٨٠٩/٧/٨ .

أما فى البر فقد كان القواسم يرمون بثقلهم الى جانب مطلق المطيرى ليتمكن من تشديد قبضته على عمان على الرغم من أن قسوته وصلاحيته كانت تدفع بقبائل الظاهرة الى التخلى عنه ، فقد كان حمد بن ناصر يرفض أن يعمل معه فى بناء القلاع والحصون لاقامة رجال الحامية الوهابية ، ولهذا الفرض عرض سرا على السيد سعيد بأن ينضم اليه ، غير أن السيد سعيد رفض عرضه لعدم ثقته فيه . أما محمد بن ناصر الذى ضاق ذرعا بمعاملة مطلق القاسية فقد استغاث بالسيد سعيد ، ولكن سعيد زج به فى السجن ثم أفرج عنه أخيرا .. وكذلك عزان فقد تخلى عنه الوهابيون وانضم الى السيد سعيد بعد أن أقسم لسعيد بأنه كان يفضل الموت بدلا من أن يبقى تحت رحمة مطلق. غير أن كل هذه الانشقاقات لم تضعف مطلق بأى حال من الأحوال . فقد استطاع بتأييد القواسم من احتلال مدينة شناص الساحلية الواقعة شمال مدينة صحار وطرد عزان منها . وفى أواخر عام ١٨٠٨ كانت معظم مرافىء الساحل الشمالى بما فيها خورفكان والفجيرة ودبا وخور كلية تحت سيطرة مطلق ، ومن هذه الخلجان كان من السهل على القواسم الانقضاض على المراكب التجارية التى ترتاد خليج عمان . وكان ساحل الباطنة هدفا لغارات متواصلة من مطلق وأتباعه . وكانت غاراتهم تتسم بالهمجية والقسوة بحيث أن فظاعتهم السابقة تبدو ضئيلة الى جانبها ، وفى الوقت الذى كانت عمان تتألم وتدمى تحت ضربات مطلق المطيرى تقدم السيد سعيد بطلب الصلح(١) مع الوهابيين سنة ١٨٠٨ .

---

(١) وثائق حكومة بومباى السياسية والسرية حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٥ محادثات ١٠ ديسمبر ١٨٠٥٨ من كيش داس « سمسار الشركة فى مسقط » الى دانكن ١٧ رمضان ١٢٢٣ الموافق ٧ نوفمبر ١٨٠٨ والحلقة ٣٨٣ مجلد ٢ محادثات ٢٤ مارس ١٨٠٩ من سيتون الى مالكولم مسقط ٦ ، ١٩ ، ٢٠ فبراير ١٨٠٩ .

استأنف القواسم نشاطهم القرصنى فى خريف ١٨٠٨ على أثر انتهاء موسم اللؤلؤ ، وقد استهلوا ذلك النشاط بهجوم وحشى وجرئ على الطراد سيلف المسلح بثمانية مدافع والتابع لوحدات أسطول بومباى .

وقد وقع الهجوم عند مدخل الخليج يوم ٢٠ اكتوبر حيث كان الطراد سيلف احد قطع الأسطول التى رافقت هارفورد جونز فى رحلته الى بوشهر فى طريق العودة الى بومباى برفقة الفرقاطة نيريد (٣٦ مدفعا) . وفى نحو الظهر يوم ٢٠ أكتوبر بينما كانت السفينتان بالقرب من رأس مسندم ظهرت فجأة سفينتان كبيرتان قريبا منهما وكانتا خارجتين من الخليج . ولما كان الطراد سيلف أسرع من الفرقاطة فقد كان أقرب الى السفينين من الفرقاطة ، واستدارت السفينتان الكبيرتان وأطبقتا عليه وقد ابطأ قبطان الطراد اللفتنانت وليم فى اطلاق النار على السفينتين حتى ضاعت الفرصة من يده، فتمكن بحارة احدى السفن من مهاجمة الطراد وصعود بحارتها على سطحه ، ولما كان البحارة اكثر عددا من رجال الطراد فقد تغلبوا عليه ، وقد ذكر القبطان جراهام بعد ذلك بأنه لم يتمكن من اطلاق مدافعه على المهاجمين بعد أن داهموا الطراد وذلك بسبب هياج البحر والريح ، كما أن رجال الطراد لم يتمكنوا من تصويب المدافع على السفينتين لابادة بحارتهما ، لأن القبطان أصدر أمره الى رجاله باستخدام الأسلحة الصغيرة لمنع بحارة السفينتين من الصعود الى سطح الطراد ، وقد نجحوا فى ذلك غير أن سطح الطراد لم يتسع لرجال الطراد والقراصنة الذين احتلوا الجزء الأكبر منه ، وبذلك تغلبوا علينا، وقطروا السفن(١) الى قواعدهم ، أما السفينة « نيريد » التى حاولت طوال العملية مساعدة الطراد « سيلف » فقد انطلقت تطارد سفن القرصنة ، وفى نحو الساعة الرابعة أصبحت نيريد فى تمكنها من اطلاق مدافعها على القواسم

---

(١) الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٣ محادثات ١٨٠٨/١١/١١ . من جراهام الى وليم مونى بومباى ١٨٠٨/١٠/٢٨

وقد ارسل « نيريد » الى القائد العام لأسطول الهند الشرقية بالتقرير التالى عن هذه العملية .

« ففى الساعة الخامسة عندما كنا على مقربة منهم بعد أن التحمنا بهم عدة مرات انزلت أشرعة المقدمة ، اما الاقرب الى المؤجرة فقدأخذ يسيربالقرب منهم لانتشال من نجا من البحارة ، وبينما كنا فى هذا الوضع كنا نبتعد بضعة أمتار ، ولكن ياصاحب السعادة قد لا تصدقون انه مع ذلك وعلى الرغم من أننا أخذنا نحييهم بالعربية فقد ردوا علينا بتهديدات وحشية من التحدى ، وامطرونا بالرصاص وأخذت احدى السفن التى تركها بحارتها تميـــل الى الغرق بينما أقلعت الأخرى شراعها وانطلقت وسط الريح العنيفة فى الوقت الذى كان أصحابها يصيحون ويطلقون النار من فتحات السفينة . لقد أصبحنا تحت الدعامة السفلى للسفينة . لقد كان الوقت ليلا ولـكنى استطعت أن أعرف أن السفينة قد مالت الى الغرق وسمعناهم ينزحون الماء منها ، وعندما اقتربنا لصعود المركب ونحن نطلق النار اكتشفت بانه بعد أن تغلب القواسم على البحارة بمنتهى السهولة بتروا رؤوس جميع بحارتها وهم الضابط المساعد وستة وعشرين جنديا اغلبهم من الهنود . أما القبطان فقد نجا من المـوت بادخاله الى قبو السفينة تحت صخرة ضخمة بعد أن أصيب بعدة طعنات وجروح .

وعلى اى حال فقد كان فى الامكان تجنب كارثة الطراد سيلف لو أن قائده تمكن من اطلاق النار على القواسم فى وقت مبكر من العملية ، ولكنه كما ذكر فيما بعد فى تقريره ... لقد كنت مصمما على الا أبدأ بالهجوم حرصا منى على الالتزام بتعليمات حكومتى فى هذا الشأن(١) . فبعد حادث الطراد « فيورى »

---

(١) على أن هذه السياسة قد تعرضت فيها بعد الى نقد لاذع ومركز من جانب مؤرخ الأسطول الهندى : « ان الحكومة بارسالها سفنا صـــغيرة ومهلهلة الى مياه الخليج كالطراد سيلف حمولة ٨ طن أى أقل من ثلث حمولة اى سفينة حربية للقواسم التى اعتادت أن تبحر فى مجموعات تحمل المئات

في شهر مايو من العام السابق أخطرت الحكومة جميع قباطنة الطرادات بأن يتجنبوا استفزاز القواسم أو اطلاق النار عليهم الا اذا بدأوا هم بالهجوم على الطرادات ، وعلى أى حال فلم يكن سلوك قائد الطـراد « سيلف » ينم عن الجبن . فحتى ذلك الوقت لم تكن السلطات المسئولة فى الهند تعرف شيئا عن مدى العلاقة بين القواسم والوهابيين ، وبالنظـر الى ما كانت تتعـرض له امكانيات الشركة من استنزاف بسبب الحرب الفرنسية والصراعات داخـل الهند فقد كان احتمال الدخول فى مواجهة أخرى مع الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية أمرا غير وارد فى سياسة الشركة فى تلك المرحلة ، كما لم تكن بريطانيا تفكر ، بعد أن عاد نابليون الى استئناف نشاطه فى الهند الشرقية ، فى أن تفتح بريطانيا جبهة أخرى ضد الأمير السعودى ، وتأسيسا على ذلك فقد طلب الى هارفارد جونز بأن يجرى اذا ما فيشلت مهمته في فارس بعض الاتصالات مـع الأمير السعودى ، كما أصدر منتو تعليمات مماثلة الي مالكولم فى أواخـر عام ١٨٠٨ .

كما صدرت أوامر مشـابهة من منتو الى مالـكولم فى أواخـر ١٨٠٨(١) وبصرف النظر عن الاعتبارات السياسية كانت حكومة الهند تنقصها الامكانيات اللازمة لشن حملة فعالة ضد القواسم . فلم تكن بحرية بومباى تملك أكثر من ١٢ سفينة فى سنة ١٨٠٨ لتباشر مهامها المختلفة فى المناطق البحرية الواقعة بين كلكتا والسويس وحتى لو كان في وسع الشركة أن توفر مثل تلك القـوة

= من الرجال على سطوحها انما كانت فى الواقع تتعمد التضحية بسفنها والأدهى فلى من ذلك هو التضحية بتجارة تلك السفن وفي الوقت الذي كانت الحكومة تخسر هيبتها وسمعتها فقط كان البحارة يدفعون الثمن من أرواحهم .

(١) انظر اعلاه ص ٨٣ - ٩٢ وقد تم فعلا اعداد خطة قدمها فلانيشيـة الي مجلس الهند في شهر سبتمبر سنة ١٨٠٨ بعد رجوعه من البحر الأحمر وذلك لعقد حلف مع سعود الذى كان وقتها فى خصام مع امام اليمن وذلك لتأمين تجارة الصادرات مع تلك البلاد (راجع مذكرة فلانيشيا ١٨٠٨/٩/١٣)

العسكرية للهجوم على معاقل القراصنة فى الخليج قد ضاعت تلك الفرصة بسبب مشروع حملة مالكولم فى اواخر عام ١٨٠٨ لاحتلال جزيرة خرك والتى كانت سببا فى نفاد الاحتياطى من الرجال .

ورغم ذلك فلم يكن دنكان على استعداد لأن يتغاضى عما وقع للطراد سيلف دون انتقام ، ففى ١١ نوفمبر أصدر أمره للطرادتين ماوث (١٦ مدفعا) بالابحار الى الخليج للقيام بدوريات متواصلة فى المنطقة الواقعة بين مسقط وبوشهر وبالاستيلاء على أى سفن للقواسم وتدميرها كى يثوب زعيمهم الى رشده ويدرك فظاعة الاعتداءات التى يقوم بها أتباعه والعمل على وقف تلك الأعمال رغبة فى تحقيق الأمن فى المنطقة لمصلحة الطرفين(١) . غير أن الطرادتين ماوث لم يتحرك اطلاقا فقد بقى فى مكانه توقعا لأن يحتاج اليه مالكولم بعد عودته من كلكتا . وفى شهر نوفمبر ظهرت قطع أسطول القواسم فى مياه الهند للمرة الأولى ، فقد هاجمت أربعون سفينة من سفن نقل البضائع فى اقليم كنتس ، وفى يوم ٢٦ نوفمبر خاض الطراد لفيلى معركة ضد أربع سفن للقواسم على ساحل كحجرات(٢) . كما اعترض

---

(١) الوثائق السرية والسياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٣ محادثات ١٨٠٨/١١/١١ قرار المجلس بنفس التاريخ انظر أيضا نفس الحلقة مجلد ٥٤ محادثات ١١/٢٦ محاضر دنكن ١٨٠٨/١١/٢٤ .

(٢) بعد ثلاثة ايام على هذا الحادث تسللت السفن الى مرافىء سورت حيث حاولت أن تختفى وسط غيرها من السفن الراسية هناك ولكن وجود جرجى فى السفينة كشف عنهم ووضعت السفن وبحارتها تحت الحجز بأمر الكيوادور المسئول عن البحرية فى سورت ومن هناك أرسلت السفن الى بومباى حيث احتجزت لبعض الوقت حيث أفرج عنها بعد أن تلقت كفايتها من العقاب . الوثائق السياسية والسرية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٢ مجلد ٥٥ محادثات ١٨٠٨/١٢/١٧ من الكابتن أر. ردن الى وليام مونى صورة ١٨٠٨/١٢/٤ « الأسطول الهندى » تأليف لو فضل واتخذ ص ٣١٩ .

القواسم مجموعة من عشرين سفينة تجارية فى شهر نوفمبر ، وفى أوائل ديسمبر تقدم حوالى ثلاثين من أكابر التجار الفرس بعريضة الى الحاكم يطالبون باتخاذ اجراءات ضد القراصنة ويعلنون فيها أنهم سوف يضطرون الى وقف تجارتهم اذا استمر القواسم فى الاعتداء عليهم .

وقد أصدر دنكان تعليماته الى قائد بحرية بومباى لاعداد قوة على الفور لتطهير منطقة الساحل الشمالية من القراصنة والاستيلاء على أكبر عدد من سفنهم أو حرقها أو تدميرها(١) .

وكان من رأى دنكان أنه لا يصح اتخاذ اجراءات أشد حتى يعود مالكولم الذى كان قد كلف بالاشراف على المصالح البريطانية فى الخليج . غير أن اهتمام مالكولم كان منصبا على موضوع جزيرة خرك ، وأول شيء طلبه بعد عودته الى بومباى هو تقرير عن القوة التى أعدت بمزيد من المعدات ، أما فيما يختص بالشئون العربية فقد كان الاقتراح الوحيد الذى عرضه مالكولم هو عودة الكابتن سيتون الى مسقط كمقيم بريطانى(٢) .

وصل سيتون الى مسقط فى مستهل شهر يناير ١٨٠٩ حيث اكتشف أن القواسم قد أصبحوا يشكلون خطرا على خطوط الملاحة الرئيسية ، وأن حسين بن على نائب الحاكم الوهابى قد طلب من حكومة بومباى أن تدفع له زكاة مقابل سماحه للسفن البريطانية بالمرور فى الخليج كما عرف سيتون هناك لأول مرة بما كان يجرى فى شمال عمان ولمس بنفسه قوة الخطر الوهابى على تلك المنطقة . ففى مسقط كان الدعاة الوهابيون يبشرون علنا بمذهبهم ، وكان الأهالى يعيشون فى خوف منهم . وكان السيد سعيد قد طلب من الحاكم

---

(١) نفس المصدر مجلد ٥٥ محادثات ١٨٠٨/١٢/٣ قرار مجلس الهند بنفس التاريخ .

(٢) نفس المصدر محادثات ١٨٠٨/١٢/١٠ من مالكولم الى دنكان بتاريخ ١٨٠٨/١٢/٩ .

السعودى بأن يعيد اليه بلدة شناص وغيرها من المناطق الواقعة على الساحل الشمالى من عمان والتى استولى عليها مطلق المطيرى والقواسم ، ورد عليه الحاكم الوهابى بأن عودة الأراضى الى سعيد مشروطة بموافقته على الاشتراك مع القواسم فى الهجوم على البصرة ونهب السفن الهندية(١) .

وقد نجح سيتون فى اقناع مالكولم الذى وجد بعـــد ذلك وقتا لديه يخصصه لشئون الخليج بعد صرف النظر عن مشروع جزيرة خرك فلقد اصبح التدخل البريطانى امرا مفروغا منه اذا أريد لعمان أن تتحرر من الخضـــوع للوهابيين كمشيخات القواسم .

وقد هدد الأمير الوهابى أنه اذا رفض السيد سعيد اقتراحه بالاشتراك مع القواسم فى مهاجمة البصرة وفى غيرها من أعمال القرصنة فانه ينوى أن يصل بنفسه الى عمان فى الربيع بعد الانتهاء من اداء فريضة الحج . وبالتالى فقد أصبح يتعين على سعيد ان يقوم بتعزيز قواته ودفاعاته لصد أى هجوم قد يشنه عليه الوهابيون . ولكى يتحقق له ذلك فقد كان لابد من اســتعادة سيطرته على شناص وساحل الشميلية . غير أن ذلك لم يكن يتحقق بغير دعم بحرى وعسكرى من حكومة الهند . وعلى ضوء تلك الاعتبارات دعا مالكولم الحاكم العام فى الهند الى الموافقة على اعداد حملة عسكرية لوضع حد لنشاط القواسم ومساعدة عمان للاحتفاظ باستغلالها ضد تهديد الوهابيين(٢) .

---

(١) انظر اعلاه ص ١١٠ — ١١٢ من تقارير ســيتون شــهر فــبراير ١٨٠٩ .

(٢) وثائق حكومة بومبــاى السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجـلد ٢ محادثات ١٨٠٩/٣/٢٤ من سيتون الى مالكولم ١٩ ، ٢٠ فبراير ١٨٠٩ مجلد ثلاثة محــادثات مايو ١٨٠٩ من مالكولم الى أن. بى ادمون سيتون ٩ مــارس ١٨٠٩ .

وبعد تردد وافق منتو على مقترحات مالكولم ، وبتاريخ ٣/٤ أوعز الى دنكان باعداد قوة من الأسطول للعمل ضد القواسم ، فقد اقتنع منتو بأن القواسم هم مفاح المآقف فى عمان والخليج حتى ذلك الوقت ، والى أن يبدأ الأمير السعودى فى توجيه اهتمامه بجنوب شرقى الجزيرة . ولم تكن لمطلق الصلاحيات الكافية لتحدى نفوذ السيد سعيد فى الوقت الذى كان القواسم من ناحية أخرى وتحت قيادة حسين بن على سادة الموقف فى البر والبحر ، فاذا أمكن توجيه ضربة قاصمة للقواسم فى البحر وطردهم من منطقة الشميلية فان ذلك سوف يخدم هدفا مزدوجا ، فهو من جهة واحدة سيمكن حكومة الهند من الانتقام للاعتداءات التى يشنونها على السفن البريطانية والحد من هذا الخطر فى المستقبل ، اما من الجهة الأخرى فانه سوف يسمح لسعيد بتقوية وسائل دفاعه . وعلى أي حال فقد حذر منتو دنكان بأن عليه أن يلتزم بأهداف الحملة وأن لا يتعداها بأى حال من الأحوال .

* * *

وكان من رأينا ان يقتصر نشاط الحملة على البحر وأن يكون الهدف منها تدمير سفن القرصنة وبأنه لا يجوز استخدام هذه القوة وجنودها بأن يشتبكوا على البر مع أي قوة برية عاملة فى الجيش العمانى ، كما ينبغى العلم بأن الهدف من العمليات التى ستقوم بها الحملة هو استعادة الموانىء البحرية التابعة للسيد سعيد والتى هى حاليا تحت سيطرة القواسم ، كما أننا لا نعتقد أن هذه العمليات ستحد من حرية هذه القوة فى اطار المسئولية المحددة لها غير إنه لابد والحالة هذه من توضيح نقطة على جانب كبير من الأهمية ، سواء بالقول أو بالفعل ، وهى أن الحملة ليست موجهة بصورة عامة ضد الوهابيين ولكنها وانما بصورة خاصة ضد العناصر التى تمارس القرصنة والتى ماتزال تهدد الملاحة فى الهند والخليج(١) حتى الآن .

---

(١) نفس المصدر مجلد ٣ محادثات ٦ مايو ١٨٠٩ من الحاكم العام الى مجلس حكومة بومباى فورت وليام ١٨٠٩/٤/٣ .

وكان رأى دنكان أن تغادر الحملة على الفور غير أن مالكولم رأى تأجيلها حتى أغسطس أو سبتمبر . فقد كان فصل الرياح الموسمية على وشك أن يبدأ فى المنطقة الغربية فى المحيط الهندى ، وكان هذا يعنى أن السفن المتجهة الى الخليج يتعين عليها أن تسلك الطرف الجنوبى الأطول بحيث يستغرق وصولها الى الخليج شهرا على الأقل . وكان من رأى مالكولم أن هذه فترة يجب أن تستغل فى جمع المعلومات عن المعاقل الرئيسية للقراصنة وعن قوتهم البحرية والعسكرية كما طلب بأن يظل موضوع الحملة سرا حتى يكون لعنصر المفاجأة أثرها فى فاعلية الحملة . كما أمر بمنع تصدير الأخشاب من ساحل « ملابار » الى الخليج حتى يحرم القواسم من المواد الخام اللازمة لبناء مزيد من السفن(١) أما سيتون شأنه شأن دنكان فقد كان يعارض تأخير الحملة بحجة أنه اذا اريد للحملة أن تنجح فى مهمتها فعليها أن تفاجىء سفن القواسم وهى فى مرافئها فى فصل الصيف .

وقد وجد مالكولم مؤيدا قويا فى شخص الكابتن جى. وين. رايت (من البحرية الملكية) الذى كان عين قائدا للقوات البحرية مما اضطر دنكان الى الموافقة على تأخير الحملة الى فصل الخريف(٢) .

وفى الأسبوع الأول من سبتمبر كانت الحملة قد استكملت استعدادها وأصبحت جاهزة للتحرك ، وكانت القوة تتألف من الفرقاطة لاشيفون (٣٦ مدفعا) وكارولين (٣٦ مدفعا) وكانت الطرادات الخاصة بالشركة تتألف من الطراد مورننج تون (٢٢ مدفعا) وتين موش (١٦ مدفعا) وترنيت (١٦ مدفعا) وتوتلس (١٤ مدفعا) وأوروره (١٤ مدفعا) وفيستال (١٠ مدافع) واريال (١٠ مدافع) وفيرى (١٠ مدافع) وسفينة القذائف ستروم بولى ، أما بالنسبة للوحدة العسكرية فقد كانت مكونة من فصائل من الفرقة السابعة والأربعين

---

(١) نفس المصدر من مالكولم الى دنكان ١٨٠٩/٥/١ .

(٢) نفس المصدر محادثات ٢٤ يونيه ١٨٠٩ محاضر دنكان نفس التاريخ ومن وين رايت الى دنكان ١٨٠٩/٦/٢٠ .

والخامسة والستين ، ومن مدفعية بومباى ومن الوحدة الثانية ومن الفرقة الثانية ومن مشاة الهنود فى بومباى ومن وحدة بومباى البحرية ومن بين مجموعة الضباط الاربعة والخمسين ونحو ١٣٠٤ فردا، فقد كان أكثر من نصفها من الأوربيين . أما كارولين واربعة طرادات اخرى وعليها فصيلة من ٨٠ جنديا اوربيا فقد كانت فى الخليج بالفعل ، وكان الغرض من وجودها هناك هو تقديم مساعدتها لحكومة مسقط والدفاع عنها اذا احتاج الأمر(١) ولم يبق الا الاتفاق على حجم العمليات واصدار التعليمات اللازمة الى كل من واين رايت والكولونيل ليونيل سميث قائد الفرقة الخامسة والستين والقواد المساعدين .

على أن نقص المعلومات عن الوضع على ساحل القرصنة أو بالأحرى على امتداد الساحل الغربى للخليج قد عاق دنكان من تحديد حجم التعليمات فلم يلق البحارة الأوربيين الذين زاروا تلك المناطق ، كما أن المعلومات التى تم الحصول عليها من المخبرين العرب ضئيلة جدا لدرجة أن المواقع الفعلية لموانىء القراصنة لم تكن معروفة(٢) فى التعليمات التى أرسلت الى وين رايت وسميث ، وبتاريخ ٩/٧ اعتبرت رأس الخيمة الهدف الرئيسى للهجوم،ونصت التعليمات على تدمير أسطول القراصنة بما فى ذلك المراكب الراسية فى اى ميناء من موانى رأس الخيمة أو فى الناحية الجنوبية ، كما كانت تقضى بطرد القواسم

---

(١) نفس المصدر مجلد ٩ محادثات ١٨٠٩/٩/٨ عودة الفصيلة بتاريخ ١٨٠٩/٩/٧ .

(٢) بعد خروج الحملة بوقت قصير أجرى دنكان بعض التحريات بين التجار والفرس والهنود فى بومباى ممن لهم معرفة سابقة بالخليج وعلى اساس تلك المعلومات وضع دنكان تقريرا عن القوة العسكرية لتلك الموانىء ، ثم احال ذلك التقرير وان كان فى وقت متأخر جدا الى كل من سميث ووين رايت وثائق بومباى السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣/محادثات ١٨١٠/١/٦ مذكرة من دنكان (يناير ١٨١٠) .

من شناص ومن غيرها من سواحل الشميلية على الرغم مع أخذ الحيطة بأن لا يقع اى من تلك المناطق فى يد الوهابيين . وكان على وين رايت وسميث أن يلتزما بتعليمات منتو الصادرة اليهما فى ٣ ابريل،كما كان عليهما الا يظهرا تجاه الوهابيين اى مظاهر عدائية ، كما كانت العمليات تشمل منطقة لنجة وغيرها من موانىء القواسم على الساحل الفارسى امتدداً الى لفت ، معقل القواسم فى جزيرة قشم .

كما كان يتعين ابلاغ أمير اقليم فارس بخطة الهجوم على القواسم، فاذا لم يعترض عليها حتى خروج قطع الأسطول الى مياه الخليج يمكن المضى فى خطة الهجوم على معاقل القواسم على الموانىء الفارسية ، وكان يتعين على وين رايت وسميث بعد الانتهاء من العمليات أن يحملا القواسم على ابرام معاهدة سلام ، يتعهدون فيها ، بالامتناع عن القيام بمثل تلك الأعمال فى المستقبل ، وبأن لا يرد فى المفاوضات التى ستجرى بشأن المعاهدة أى اشارة الى الأمير الوهابى أو سيطرة الوهابيين باعتبار القواسم فئة مستقلة. كما طلب الى قادة الأسطول ابداء رأيهم فى انسب جزيرة بالقرب من موانى القواسم تصلح كقاعدة بحرية أو موقع لانشاء مركز للمقيم البريطانى ، بحيث يمكن مراقبة تحركات القواسم منها ، كما طلب اليهم تقديم مقترحاتهم حول أفضل الوسائل للدفاع عن الجزيرة ليس ضد القوى المحلية فحسب وانما ضد اى دولة أوربية قد تظهر فى المنطقة(١) .

وابحرت الحملة يوم ١٤ سبتمبر ومنذ اللحظة الأولى لخروجها كان سوء الحظ يلاحقها ، فقبل أن تتحرك القافلة وصل نبأ وفاة الكابتن سيتون فى مسقط ، وبذلك حرم الاثنان وين رايت وسميث من خبرته بشئون الخليج .

---

(١) نفس المصدر محادثات ١٨٠٩/٩/٨ من الحاكم الى وين رايت ١٨٠٩/٩/٧ .

ولم يكد يمر يومان على خروج الحملة حتى توفى اثنان من ضباط سفينة القذائف كنتس و ١٤ نفرا من بحارتها . كما أدى سوء الأحوال الجوية الى بطء سير القافلة على الأخص السفن الثقيلة الحمولة . ويوم ٣ اكتوبر أرسل وين رايت ثلاثة من رجال الطراد الى الساحل واثنين الى مسقط مزودين بتعليمات الى البارجة « كارولين » لانتظار أسطول الحملة عند رأس الخيمة ، للقيام بشن الهجوم عليها دون توجيه انذار سابق . وبعد انقضاء أسبوعين كانت الحملة لاتزال على بعد خمسين فرسخا شرقى مسقط ، وكانت تشق طريقها فى معاناة شديدة ، وقد أخذ احتياطها من الماء يتناقص لان قباطنة السفن لم يتزودوا بكفايتهم من الماء من بومباى ، وفى يوم ٢٠ اكتوبر تحدث وين رايت الى خمس من السفن الشراعية كانت خارجة لتوها من مسقط وعرف من ربابنتها أن البارجة كارولين لم تصل حتى تلك اللحظة للخليج كما أنها لم تشاهد من الطرادات أثناء سيرهم على الجهة الشرقية . ولم يكن أمام وين رايت الا ان يتخلى عن فكرة السرية ويتجه الى مسقط . وفى مسقط عرف المبعوثان سميت ووين رايت أن السيد سعيد لم يكن يؤيد الحملة ، وكان يشك فى نجاحها ، وكان من رأيه أن الاستيلاء على رأس الخيمة يحتاج الى ما لا يقل عن ١٠ آلاف جندى كما لم تكن هناك أى فائدة من استخدام مدافع الفرقاطة فى تدمير تحصينات القراصنة لأن المياه فى مدخل الميناء ضحلة ولا تصلح لرسو الطراد(١) .

أبحر الأسطول من مسقط فى بداية شهر نوفمبر وكانت (كارولين) قد وصلت فعلا من الخليج وعلى مقربة من رأس مسندم انضمت اليها الطرادات التى سبق أن انفصلت عنها وفى ١١ نوفمبر تحركت المجموعة كلها الى رأس الخيمة .

---

(١) التقرير الادارى لدار المقيم البريطانى رقم ١/١٨ من واين رايت الى الرميرال أميرال وليام دوورى والقائد العام للأسطول البريطانى فى الهند الشرقية) مسقط « لاشيفون بتاريخ ١٨٠٩/١٠/٣١ .

وربما كان السيد سعيد على حق فى بعض تصوراته، فان الفرقاطات لم تتمكن من التقدم نحو البلدة الى أكثر من اربعة أميال كما لم تتمكن بقية الطرادات وسفن النقل من التقدم الى أكثر من ميلين . وقد بدأ وين رايت فى قصف البلدة فى يوم ١٢ نوفمبر وقد أحدث بعض الدمار بدفاعات البلدة وعلى الرغم من ذلك فان معظم القذائف لم تصل الى أهدافها .

وفى فجر اليوم الثالث عشر تقدم اثنان من القوارب المسلحة الى الخليج الذى كان يفصل شبه الجزيرة عن بقية البلاد، وبعد نصف ساعة قام الجنود من الفرقتين ٤٧ ، ٦٥ وفصائل الأسطول بهجوم على شبه الجزيرة ، غير ان التيار فى هذه المنطقة أعاق حركة الجنود ، وقد تعين عليهم أن يسيروا عبر منطقة رملية للوصول الى تحصينات القواسم ولكنهم استطاعوا التغلب على تلك العوائق فى النهاية ، وأخذ القواسم يتراجعون الى داخل البلدة، وقد دارت معركة عنيفة بين الطرفين ، فقد كان القواسم قد حولوا كل بيت الى مركزدفاع ولم ينسحبوا من مراكزهم الا بعد أن أضرم البريطانيون النار فى منازل البلدة، وفى نحو الساعة العاشرة صباحا كانت رأس الخيمة قد خلت من اكثرية سكانها الذين انسحبوا عبر الخليج الى داخل البلاد ، وكانت الاصابات بين الجانب البريطانى قتيلا واحدا من الضباط وثمانية من الجنود وضابطين جرحى ، بينما قتل ثلاثة من البحارة وجرح تسعة ، أما الخسائر بين القواسم فتعذر تقديرها بصورة دقيقة فقد سقط منهم سبعون الى ثمانين قتيلا أثناء المعركة ومن المحتمل ان يكون قد قتل أكثر من هذا العدد عن طريق القصف(١) .

وقد أحرقت كل السفن التى وجدت فى الخليج كما دمرت معدات السفن واطلق سراح بعض السجناء الهنود . وقد علم فى مساء ذلك اليوم أن قوة

---

(١) نفس المصدر الطراد ليشافون رأس الخيمة ١٨٠٩/١١/١٤ راجع ايضا « الأسطول الهندى » تأليف لو فصل واحد ص ٣٢٦ — ٣٣٠ .

كبيرة من الوهابيين قد تحركت من البريمى فى طريقها الى الساحل وربما كانت قد وصلت بالفعل الى « حنيبيد » على بعد بضعة أميال من الجزيرة فى مساء ذلك اليوم ظل الجنود فى انتظار الهجوم المضاد ولكنه لم يقع وفى صباح يوم ١١/١٤ بعد أن أتمت الحملة تدمير سفن القواسم وتحصيناتهم عاد الجنود الى سفنهم ثم بعد ذلك بقليل تحرك الأسطول متجها الى الشمال .

فى يوم ١١/١٧ هوجمت منطقة لنجة ودمرت نحو عشرين سفينة . وقد انفصلت كارولين وغيرها من سفن النقل الثقيلة واتجهت الى ساحل الباطنة حيث كان قد تم الاتفاق على ملاقاة السيد سعيد يوم ١٢/٦ لشن هجوم مشترك على شناص وخور وكلبه وفكان ، أما وين رايت وما بقى معه من الأسطول فقد ابحر شرقا الى جزيرة قشم لشن هجوم على منطقة « لفت » التى كانت فى يد القواسم وحلفائهم بنى معين فى ذلك الوقت ، وعند وصوله هناك حاول واين رايت بأن يقنع شيخ بنى معين بأن يستسلم ولكنه رفض ، وفى اليوم الثانى أصدر وين رايت وسميت أمرا الى جنوده بالنزول الى البلدة ومهاجمتها ، ولكن بنى معين انسحبوا من داخل التحصينات الى قلعة تقع على صخرة كبيرة عند شاطىء البحر وكان بالقرب من القلعة احدى عشر سفينة من سفن القراصنة راسية هناك وقد تم اشعال النار فيها من جانب بحارة الطرادات على الرغم من القصف الذى كانوا يتعرضون له من أصحاب القلعة ثم بدأ الطراد « فيورى » بالاقتراب من الشاطىء وقصف أسوار القلعة بالمدفعية وعند الغروب وافق الملاحون على الاستسلام . وفى يوم ١١/٢٨ سلمت القلعة والبلدة الى وين رايت الذى قام بدوره بتسليمها الى شيخ آخر من بنى معين

---

(١) التقرير الادارى رقم ١٨٢/١ من وين رايت الى دوورى الطراد لاشيفون ميناء برقة ١٨٠٩/١٢/٧ ووثائق حكومة بومباى السياسية والسرية =

موال للسيد سعيد ، وكانت الاصابات فى معركة لفت كبيرة بلغت نحو من ٧٠ الى ٩٠ قتيلا وجريحا من القواسم وسبعة قتلى من البريطانيين و ٣١ جريحا كما قتل اثنان من بحارة الأسطول ونحو ٢٥ بحارا من السفن الأخرى .

وفى يوم ١١/٩ غادر وين رايت لفت الى مسقط حيث وصلها يوم١١/٧ وكان السيد سعيد سعيدا بنتائج الحملة وواثقا من نجاح العمليات المزمع القيام بها على ساحل الشميلية . وقد أمر وين رايت احدى سفن النقل وطرادين بالابحار الى بومباى ومعها فصيلة المشاة ورجال الفرقة السابعة والاربعين اذ لم يعد فى حاجة اليها .

وقد ابحرت بقية القوة من مسقط عشية عيد الميلاد عام ١٨٠٩ بينما تحرك السيد سعيد نحو الشمال عبر ساحل الباطنة على راس جيشه .

كانت المهمة التى تنتظره فى شناص جسيمة فقد كان فى شناص قلعة هائلة تطل على الخور وقد عرف بأن امدادات قوية قد ارسلت الى تلك الحامية لكى تتمكن من مواجهة أى حصار يفرض عليها ، غير أن وين رايت وسميث لم يكونا يعفيان مطلق المطيرى من انه هو الذى قام بارسال تلك الامدادات الى الحامية بعد الهجوم الذى وقع على رأس الخيمة مباشرة ، وفى يوم أول يناير طلب وين رايت من الحامية أن تستسلم ، ولكنها رفضت ، واخذت السفن تقصفها بالمدفعية وعلى أى حال فان الحامية لم تكن فى متناول المدفعية ، وفى يوم ٢ يناير أنزل وين رايت وسميث الجنود والمدفعية بعد ان فشلت مدافع المورترز فى دك أسوار الحامية وقد اضطر المهاجمون أخيرا الىاستخدام مدافع

= حلقة ٣٨٣ مجلد ١٣ محادثات ١٨١٨/١/٣ من سميث الحاكم ١٨٠٩/١٢/١٦ .

عيار ٢٤ وعيار ١٢ لقصفها. وفى فجر يوم ٣ يناير بدأ قصف القلعة ، وفى نحو الساعة العاشرة صباحا استطاع القصف أن يحدث فجوة فيها ، ثم بعد قليل هوى أحد أبراجها وبقيت الأبراج الأخرى صامدة ثم اتضح للمهاجمين بأنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على الحامية الا بالزحف عليها .

بدأ الزحف على الحامية فى الساعة الثانية بعد الظهر بقوات مسقطية وبريطانية مشتركة ، وقد تبع ذلك قتال شرس يدا بيد ، واستخدمت فى المعركة جميع أنواع الأسلحة ، وكانت أقسى المعارك التى خاضتها الحملة منذ بدأت هجومها ، وفى الساعة الخامسة مساء كان الجزء الاكبر من الحامية فى يد البريطانيين غير أن الصراع لم ينته عند ذلك الحد وقد كتب سميث وصفا للمرحلة الأخيرة لتلك المعركة جاء فيه : من المحال أن نتصور مقاومة أشد عنادا وتحديا من المقاومة التى أبداها العدو فى هذا الموقع ، فقد كانت دفاعاته قد دمرت وتحولت الى أنقاض ، كما كان الجزء الأكبر من حاميته قد تحولت الى أكوام الى جانبه ، وعلى الرغم من ذلك الوضع اليائس واحتلال البريطانيين والعمانيين للقلعة ظل القواسم يطلقون النار من التحصينات التى لم يتم تدميرها تماما، الى أن استطعنا التغلب عليه ، وقد كان من العبث أن نحاول سحق المقاومة ، وكان الوصول الى مداخل دفاعات العدو المحصنة تحصينا قويا أمرا بالغ الصعوبة ، وكان المساء قد بدأ يقترب ، وكانت الاعتبارات الانسانية وغيرها تقضى بوقف هذه المجزرة المخيفة . ولهذا فقد دعا من بقى من القواسم الاحياء بالاستسلام اتقاذا لأرواحهم ، غير أنهم اجابوا بأنهم يفضلون الموت على الاستسلام فى هذا الوقت بالذات ، وكنت قد أحضرت الى الشاطىء بطارية مؤلفة من بعض المدافع وأخذت فى اطلاق النار بشكل مكثف من مكان قريب جدا من القلعة فى محاولة لتسويتها بالأرض ولكن العدو ظل يرد النار بالمثل ، وكما يبدو فانهم كانوا مصممين على أن يدفنوا فيها أحياء .

ولقد عمدنا الى استخدام القنابل الكروية والبدوية ، ولكن العدو أعاد هـذه القنابل الينا قبل أن تنفجر مؤكدا بذلك تصميمه على مواصلة القتال فى الوقت الذى كانت القلاع تتساقط فى أيدينا وكان كل من فيها قد قتل ، وقد توقفت مرة أخرى عن اطلاق النار فى محاولة جديدة لانقاذ أرواح الموجودين فى القلعة، ومن حسن الحسن خرج أخيرا أحد الرجال وتقدم الينا وبعد أن أمنه العمانيون على حياته تمكنا من انقاذ حياة ٧١٠ شخص أخذوا كأسرى ولـكنه كان من الصعب علينا أن نمنع حلفاءنا من ذبحهم(١) .

ومن الصعب تحديد الخسائر التى منى بها الوهابيون والقواسـم فى الأرواح ، أما من الجانب البريطانى فقد كانت الخسائر طفيفة جدا خصوصا اذا ادخلنا فى الاعتبار حدة القتال : اذ لم تزد الخسائر عن قتيل وجريحـين من الضباط وتسعة من الرجال جميعهم من الفرقة الخامسة والسـتين من الفصيلة البحرية ، أما خسائر العمانيين فقد كانت أكثر بكثير وكان يتعـين على وين رايت وسميث أن يقررا اذا ما كان من الأفضل لهما مواصلة لعمليات العسكرية بحيث تشمل خور كلبة أو خورفكان أم لا ؟ الا أن السيد سـعيد رفض الاشتراك فى عمليات عسكرية ضد المنطقتين بحجة أن مثل ذلك الهجوم سوف يواجه نفس المقاومة المستميتة التى واجهت الهجوم على شناص . وفى هذه الأثناء تلقى البريطانيون معلومات تفيد بأن مطلق المطيرى قد وصل الى منطقة قريبة من المنطقة التى يرابطون فيها على رأس قوة كبيرة ، ولهذا ظلت الحملة لثلاثة أيام فى حالة ترقب وأمل ، وعندما لم يقع شىء قرر وين رايت

---

(١) وثائق بومباى السياسية والسرية حلقة ٣٨٣ مجلد ١٤ محادثات ٢٧ يناير ١٨١٠ من سميث الى الحاكم من الطراد لاشيفون فى البحـر بتـاريخ ١٨١٠/١/١٨ .

وسميث بأن يعود الجنود الى سفنهم ، كمـا طلب من السيد سـعيد سحب قواته عن طريق البحر،ولكن السيد سعيدتجاهل اقتراح القائدين البريطانيين، ولم يكن من الحكمة أن يفعل ، اذ ما ان غاورت القوة البريطانية المنطقة حتى انقض مطلق المطيرى على قوات السـيد سـعيد فمزقهـا اربا وأرغمهـا على الانسحاب الى مسقط(١) .

مضى الأسطول بقية شهر يناير من عام ١٨١٠ يجوب ساحل القرصنة؛ بحثا عن أى سفن تابعة لهم لتدميرها ولم يكن موضـوع ابرام معاهدة مـع القواسم واردا حتى ذلك الوقت : فقد كانوا يخضعون لنفوذ الأمير السعودى وكان لابد من الحصول على موافقة الوهابيين على ذلك وهو ما كان دنكان يحاول أن يتفاداه . وفى نهاية الشهر ابحر القسم الأكبر من الحملة الى بومباى بينما قام القائدان بمعاينة الجزر الواقعة عند مدخل الخليج بحثا عن موقع يصلح

---

(١) نفس المصدر مجلد ١٤ محادثات ١٨١٠/٢/١٧ من سميث الى الحاكم بومباى من الطراد ترتيت فى البحر بتاريخ ١٨١٠/٢/٢ ويروى الكابتن غولين قصة عن هذا الحادث فى مؤلفه (وثائق تاريخية عن أفريقيا الشرقية « فصـل ٢ ص ١٦٣ ـــ ١٦٧ » فيقول أن سميث وقع معاهدة مع مطلق فى نهاية القتال فى شناص تعهـد القائد الوهابى بموجبهـا بألا يقـوم بهجمـات أخـرى على الملاحة البريطانية كما تعهد سميث من ناحيته فى المقابل بألا يتدخل فى أى حروب تنشب بين مسقط والوهابيين . غير أنه لا يوجد أى اثر لهذا الاتفاق فى سجلات حكومة بومباى كما لا يوجد اقل دليل فى التقارير التى كان يبعث بهـا سميث بأنه يفكر فى مثل هذه المعاهدة أو أنه قد تفاوض بشأنها ويبدو احتمال مثل هذا الاتفاق أكثر بعدا اذا رجعنا الى صـيغة التعليمـات التى كانت لدى سميث .

لانشاء قاعدة . وفى يوم ٣٠ يناير جرى اتصال بينهما بالقرب من جـزيرة هنجام وبين الطراد « سيش » الذى كان يقل جون مالكولم الى فارس . وكانت لديه تعليمات جديدة لابلاغها الى قائدى الحملة وتكليفها بتعقب رحمه بن جابر شيخ خور حسن على الشمال الغربى من قطر وكان من أكبر زعماء عصابات النهب والقرصنة .

وقد داب الشيخ رحمه ورجال قبيلته « الجلاهمة » على شن حروب انتقامية ضد آل خليفة شيوخ البحرين وآل صباح شيوخ الكويت ، وذلك منذ أن حررت البحرين من الفرس وقد نشب بينه وبين فرعين من قبيـلة العتوب نزاع على اقتسام الغنائم وعلى الرغم من انه قد اصبح هرما وكسيحا الا أن نفوذه كان لا يزال قويا وذلك حسب ماروى من أحد الرحالة الأوربيين الذى التقى به (كان رحمه بن جابر ضئيل القامة ، على جسمه آثار ندوب من طعنات الخناجر والرماح ومن طلقات الرصاص التى كانت آثارها تغطى أنحاء جسده ويزيد عددها على عشرين ندبا أما وجهة فقد كان ينطق بالشراسـة والدمامة المتناهية وقد زاده قبحا وجود تلك الندب كما فقد احدى عينيه(١)) ، ويضيف المصدر بأن شراسة رحمة لم يكن لها مثيل على الاطلاق ويستشـهد بحادثة على هذا القول فيقول : انه جمع بحارته عندما حاولوا التمرد عليه فى قزان ماء السفينة واغلقها عليهم فمات جميع البحارة مختنقين ثم قـذف

---

(١) رحلة الى أشوريا فصل ٢ ص ١٢٤ ١٢٥ تأليف بكنجهام وقد اشار بكنجهام أيضا الى أن المعارك التى خاضها رحمة قد تركت اثارا وعلامات على سلاحه .

بالقزان الى الماء بما فيه من جثث(٢)، انحاز رحمه وأتباعه الىالوهابيين فى سنة ١٨٠٩ طمعا فى ممارسة أعمالهم الارهابية ضد آل خليفة وآل صباح وكان السيد سعيد شأنه فى شأن شيوخ آل خليفة وآل صباح فقد تلقى انذارا من الأمير السعودى بالانضمام الى القواسم فى شن هجمات على السفن ، وعلى ميناء البصرة غير أنهم رفضوا طلبه ، وفى أواخر سنة ١٨٠٩ صمم الأمير السعودى بأن يخضعهم لسيطرته فقام بتعيين عبد الله بن عفيصان مأموره الوهابى واليا على قطر والبحرين والقطيف كما أرسل قوة عسكرية لاحتلال زبارة ، ثم انضم الى عفيصان رحمه بن جابر وخرج الاثنان على رأس أسطول مكون من ٤٠ سفينة واستطاع الاثنان أن يخضعا آل خليفة لسلطان الوهابيين وكان ذلك فى شهر فبراير ١٨١٠(٢) .

ولما كانت الحكومة فى بومباى تهدف الى محو القرصنة فى مياه الخليج واحلال الأمن فى ربوعه فقد كان عليها أن تقوم بالقضاء على نفوذ وارهاب رحمة بن جابر الذى كان يقترف أعمال القرصنة ضد أغلب أقطار الخليج وبشراسة غير معهودة وكان اسمه يثير الرعب على طول المنطقة الممتدة من عمان حتى ميناء البصرة وفى الأيام الأخيرة من سنة ١٨٠٩ اقترف هذا الرجل أبشع الأعمال الارهابية عندما استولى عنوة على عشرين سفينة كويتية كانت فى طريقها من مسقط الى الخليج وقتل بحارتها عن آخر رجل فيهم بما فيهم نجل

---

(١) نفس المصدر فصل ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) تعود السيطرة المباشرة للوهابيين على قطر الى النصف الأخير من عام ١٨١٠ وهناك رأى آخر يعزوه الى ماقبل ذلك التاريخ نقلا عن رواية اثنين من رجال الطرادات الهندية التى خرجت من قطر فى مارس ١٨١٠ (كان عبدالله ابن عفيصان وقتها يقيم فى منطقة قريبة من ذلك المكان) .

الشيخ عبد الله آل صباح شيخ الكويت . وكنتيجة لذلك تقدم الشيخ عبد الله يطلب الاشتراك فى الحملة البريطانية للهجوم على مواقع رحمة فى خـــور حسن(١) . وعلى أى حال فان رحمةلم يكن يهاجم سفينة ترفعالعلم البريطانى، وبالتالى فلم تجد حكومة بومباى من المبررات مايدفعها للدخول فى نزاع معه، كما كان الحال مع القواسم ، ومن ناحية أخـرى فقد كانت هناك عـدة سفن القواسم قد افلتت خلال الهجوم على واس الخيمة ولجأت الى خور حسن ، وفى بداية يناير ١٨١٠ قرر مجلس الحاكم بأن يكلف وين‌رايت وسميث‌بالاتصال برحمه واستكتابه تعهدا بعدم تقديم أى مساعدة أو حماية للقواسم واذا رفض اعطاء مثل ذلك التعهد ففى تلك الحالة يمكن مهاجمة سفنه ومعداته فى خور حسن مثلما حدث للقواسم(٢) . هذه هى التعليمات التى حملها مالكولم معه لسميث ووين رايت ، ولكنه بعد اجتماعه بهما على ظهر الطراد «شيس» يوم ٣٠ يناير وافقهما على وجوب شن هجـوم على منطقـة خور حسن ووصف وين وايت مثل ذلك الهجوم بأنه عملية صـعبة خصوصـا عند هبوب الرياح الشمالية التى يتعذر معها على السفن الكبيرة الاقتراب من الميناء . وكان من رأيه بأن التعهد الذى طلبه دنكان من رحمه يمكن أن يحصل عليه منه المقيم البريطانى فى بوشهر(٣) .

الا ان المقيم نوكلاس هنكى سميث وهـو أخ الكولونيل ليونيل سميث

---

(١) الوثائق السياسية حلقة ٣٨٣ محـادثات ١٨١٠/٢٩ من أن اتشه سميث الى واردن بتاريخ ١٨١٠/٤/١٣ .

(٢) نفس المصدر مجلد ١٣ محادثات ٦ يناير ١٨١٠ من الحاكم الى وين رايت وسميث بنفس التاريخ .

(٣) مجـلد ١٤ محادثات ١٧ فـبراير ١٨١٠ من سميث الى الحـاكم ١٨١٠/٢/٣ .

الذى حضر الاجتماع عارض هذا الراى وقال بأن عدم اتخاذ اى اجراء ضد رحمه سوف يشوه النتائج المشجعة التى أسفرت عنها الحملة ولما كان رحمه حليفا للوهابيين فقد كان هؤلاء يسعون الى تنصيبه زعيما جديدا للقراصنة .
وعندما علم دنكان بوجهة نظر مالكولم وغيره أبدى موافقته على آرائهم على الرغم من انه كان يتعاطف مع موقف هنكى سمث وكان دنكان يتصور بأن أى هجوم قد يقوم به البريطانيون على رحمه دون أن يكون رحمه قد اعتدى على أى من السفن البريطانية أو الرعايا البريطانيين انما اجراء يتعارض مع المبدأ الذى قامت عليه فكرة العمليات العسكرية فى الخليج . كما لابد من الأخذ بعين الاعتبار ماقد تسببه سياسة التحرش بالوهابيين من عواقب ، غير أن صمويل ريتشارد رد على هذا الرأى بقوله : أنه لا يمكن رسم خط فاصل بين الوهابيين وبين القراصنة وان أى محاولة من هذا النوع تعد ضربا من الوهم وأضاف : « بأن الأمير الوهابى قد أعلن وصايته على القراصنة الذين يضمون فى معسكرهم كافة القبائل التى تدين بالولاء للأمير الوهابى ، ولا يمكن ان تعصى له أمرا . كما ان رحمة نفسه من اصل وهابى ومن اتباع الوهابيين . ومن ثم فليس ثمة تعارض بين رحمة وبين القواسم بل ربما كان رحمة اكثرهم تطرفا وبالتالى فان رحمة يقف فى الصف المعادى لبريطانيا . وهذه الاعتبارات الى جانب متطلبات العدالة انما تفرض على الحكومة البريطانية أن تضع حدا لنشاط هذا الرجل وبألا تقف موقف اللامبالاة والتخاذل على سبيل مجاملة الأمير سعود بن عبد العزيز (٢) . وفى هذه الأثناء ونزولا على رغبة مالكولم تراجع هنكى

---

(١) نفس المصدر من أن اتشه سميث الى واردن بتاريخ ٣ ، ٥ فبراير ١٨١٠ ومن ان سميث الى الحاكم فى ١٨١٠/٢/٥ .

(٢) نفس المصدر محاضر اجتماع دنكان وريتشارد بنفس التاريخ محادثات ٢/٢٣ ومحاضر ريتشارد بتاريخ ١٨ فبراير ودنكان مجلد ١٥ محادثات مارس ومختلف محاضر دنكان وريتشارد .

سميث عن قراره بشن هجوم على رحمة وبدأ يستعد للسفر الى طهران ، كما بعث فى الوقت نفسه بخطاب ودى الى الأمير سعود يناشده فيه كبح جماح رحمه بن جابر واتباعه وقد ارسل هذا الخطاب من خور حسن فى شهر مارس وحملة الى الأمير السعودى الكابتن واردن من الفرقة الخامسة والستين الذى توجه مع الطرادين فيتال رزيال عند وصول واردن الى خور حسن قام بفحص المعقل ، وابرق الى رئيسه هنكى سميث يقول ان موقع المعقل ومناعته الطبيعية تجعل اى هجوم عليه فى منتهى الصعوبة ، وقد وافقه سميث على ذلك بتردد لانه سبق أن تلقى تعليمات من مالكولم تكلفه بأن يطلب من الأمير السعودى الضغط على رحمه كما قال لرؤسائه فى بومباى « بأن لم تعد لديه ثقة فى القراصنة (١) .

واذا شئنا الحكم على نتائج حملة ١٨٠٩ — ١٨١٠ فاننا نستطيع القول بأنها لم تكن ناجحة ، صحيح أن عددا من سفن القواسم قد دمر فى موانئهم الرئيسية غير أن الجزء الأكبر من تلك السفن قد أفلت ، فقبل مجيء الحملة تمكن القواسم من اخفاء عدد كبير من سفنهم فى الخلجان الصغيرة على الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم والتى لم يكن قواد الحملة يعرفون شيئا عنها كما كانت بعض السفن فى رحلات تجارية أو فى عمليات قرصنية فى البحر الأحمر وافريقيا الشرقية ومن ناحية أخرى لم يحقق السلطان ولم يجن أى فائدة ملموسة من هجومه على شناص التى كان يستهدف تأديب القواسم وقد ظلت خورفكان وغيرها من المرافىء على ساحل الشميلية فى ايديهم ، واستمر السيد سعيد يفتقر السيادة على تلك المناطق امام تصاعد نفوذ الوهابين مما

---

(١) نفس المصدر مجلد ١٧ محادثات ١٨١٠/٥/٢٩ من سميث الى واردن ٣/٢٤ ، ١٨١٠/١٤/١٣ ومرفق معه خطاب وارن الى سميث المؤرخ ١٨١٠/٣/١٧ .

ادى الى أن ترك لهم المنطقة الشمالية من عمان والمنطقة الغربية من الباطنة ، والواقع أن موقف السيد سعيد أصبح فى منتهى الضعف والتفكك كما تدهورت موارده العسكرية الى حد كبير ، كما ضعف سلطانه على القبائل ، ولم يكن هناك أى أمل فى تصحيح هذا الوضع الا بتدخل بريطانى واسع، غير أن الحفاظ على استقلال مسقط أو بقاء أسرة آل بوسعيد فى الحكم لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للسلطات البريطانية فى الهند لتبرير مثل ذلك التدخل ، وكان هذا الاعتقاد هو سبب تردد البريطانيين فى التدخل الى جانب عمان كما كان هو السبب فى الأسلوب الحذر الذى انتهجه منتو تجاه الوهابيين وان كان قد أبرز ذلك الحذر لوجود الخطر الفرنسى فى الشرق حتى بعد أن أصبح هذا التهديد فى خبر كان وحتى بعد أن تفاقمت السيطرة الوهابية على القواسم وتواطؤهم معهم فى أعمال القرصنة فقد ظل يصر على ان هناك فرقا بين دوافع الوهابيين ودوافع اتباعهم على سواحل القرصنة .

أما الأمير السعودى من جانبه فقد كان ينظر الى الحملة من زاوية أخرى؛ وقد كتب الى هنكى سميث رسالة ردا على رسالة منه يقول فيها : « لا تفرح باشتعال النار فى بعض السفن » لأن ذلك فى نظرى لا اهمية له سواء بالنسبة لأصحاب السفن أو بالنسبة للتدخل فى مسائل ليست من شئونها ولكنه مع ذلك أعرب عن استعداده للتسامح عما حدث كما قال « بما انكم جنحتم الى السلم فاننى استنتج من ذلك أنكم اصبحتم تدركون سوء العمل الذى قمتم به وأصبحتم اضحوكة بين الناس بتحريض رجل لا يملك اى قوة ذاتية كما انكم لم تفكروا فى نتائج عملكم وبناء على ذلك فانى أرى لزاما على بأن أبلغكم بأننا لن نقترب من موانئكم كما أمرت اتباع العقيدة المحمدية وما يملكون من سفن بعدم الاعتداء على سفنكم(١) . كما رحب بالتجار البريطانيين فى موانيه

---

(١) محادثات البنغال السياسية حلقة ١٩ مجلد ٨ ومحادثات ٧ يوليو ١٨١٠ من سعود بن عبد العزيز الى هنكى سميث (دار المقيم البريطانى فى بوشهر ١٨١٠/٤/١).

وطالب فى مقابل ذلك بأن تقدم بريطانيا نفس التسـهيلات لرعاياه فى الموانىء الهندسية كما أعرب عن أمله فى ان تمتنع بريطانيا عن القيام بأىأعمال عدوانية على السواحل الخاضعة له أو التدخل فى نزاعاته مع جيرانه « ان الحرب فى المقام الأول هى أشبه بفتاة فى عنفوان شبابها تثير فتاها حتى تلتهب المشاعر تعود فتنسحب كامرأة عجوز عانس(١) .

وقد أعرب منتو عن ارتياحه لرسالة الأمير السعودى واعتبرها خطوة مشجعة كما رحب بقرار الأمير بمنع اتباعه من التعرض للملاحة البريطانية وابلغه بأن الحكومة البريطانية لا تهمها خلافاته مع غيره من المسلمين وانما تهمها علاقته بالقراصنة(٢) .

والواقع أن منتو كان على حق فى رفضه التدخل ضد النفوذ الوهابى فى الخليج اذ لم يكن فى ذلك اى مصلحة لبريطانيا وأن المغامرة الوحيدة التى قام بها للتدخل قد كشفت له عن العواقب غير المحمودة لأى تدخل أو انحياز فى الصراع العربى الاسلامى ، وبالتالى فان تلكالتجربة قد أثرت خبرتهالسياسية، وهكذا صرف النظر عن انشاء قاعدة بريطانية فى الخليج واستعاض عنها بالاجراء الوقائى الوحيد الذى أمكن اتخاذه ضد القواسم وهو فرض حظر على تصدير الأخشاب من الهند(٣) الى ساحل الخليج . ومن ناحية أخرى قرر منتو بأن لا يسمح لنفسه بأن يستدرج مرة أخرى فى مشاكل مسقط كما أرجأ قرار اعادة فتح دار المقيم البريطانى فى مسقط . بعد أن اودت قسوة المناخ بحياة

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المحادثات من ادمون ستون الى واردن ٧ يوليو ١٨١٠ .

(٣) الأسطول الهندى فصل ١ ص ٣٢٦ تأليف لو. ولكنه كان مخطئا فى رايه لان الحظر على تصدير الأخشاب لم يطبق راجع رسائلبومباى السرية مجلد ٣١ جزء ٢ من الحاكم الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨١١/٤/٤ .

أربعة من المقيمين البريطانيين هناك منذ عام ١٨٠٠ ، الأمر الذى اعتبر مبررا كافيا لتركها مغلقة ، ومن هنا فعندما طلب السيد سعيد من دنكان مساعدته فى صد هجوم جديد عليه من مطلق المطيرى تلقى منه رفضا باتا. أما سعيد فقد أخذ يتذمر من أن تعاونه مع الحملة البريطانية الأخيرة على القراصنة قد ورطته فى حروب مستمرة مع الوهابيين الذين كانت علاقته بهم فى السابق علاقة ود وسلام(١) ... ولولا صداقته للحكومة البريطانية لكان قد وافق على عروض السلام التى تقدم بها الوهابيون اليه ، ولكن منتو انتهز تلك الفرصة فكلف دنكان فى أغسطس ١٨١٠ بأن يبلغ السيد سعيد بأن الحكومة البريطانية لم تعد لها مصلحة فى الصراع الدائر بينه وبين الوهابيين وأن كل مايهمها هو مصلحة وخير ورفاهية السلطان سعيد بن سلطان وانطلاقا من هذا الاعتبار وما قد تسفر عنه ظروف السلم من استقرار وخير للمنطقة فان دنكان يقترح على السيد سعيد بقبول عروض السلم التى تقدم بها الوهابيون اليه اذا لم يكن بها مساس بكرامة عمان وأمنها واستقلالها(٢) .

وازاء فشل السيد سعيد مع الحكومة البريطانية فى الهند اتجه الى حكومة فارس فقام أخوه سالم بزيارة لأمير منطقة فارس بمركزه فى شيراز

---

(١) « المحادثات السياسية لحكومة بومباى » الحلقة ٣٨٣ مجلد ١٦: محادثات ١٨١٠/٥/٢٩ من هنكى سميث الى واردن مسقط ١٨١٠/٤/١٤ فى الوقت الذى كان فيه السيد سعيد يشكو أوضاعه للحكومة البريطانية كان مشغولا بالاستعداد لاعداد حملة لغزو البحرين بينما كان الوهابيون يعيشون فسادا فى داخلية البلاد على بعد بضعة أميال من مسقط .

(٢) « محادثات حكومة البنغال السياسية » حلقة ٣١٩ مجلد ١٠ محادثات ١٨١٠/٨/١١ من ادمون ستون الى واردن وفورت وليام بنفس التاريخ .

يطلب العون منه وعاد الى مسقط ومعه ١٥٠٠ مرتزق بينهم من ٤٠ الى ٥٠ من أسرى الحرب الروسية . ولقد وصل هؤلاء المرتزقة الى داخلية عمان في النصف الثاني من عام ١٨١٠ للقيام بمحاولة لاسترداد قلعة سمايل التي كان قد احتلها محمد بن ناصر شيخ بني جابر بعد أن تحالف للمرة الثانية مع الوهابيين ، وقد سقطت سمايل وفر محمد بن ناصر الى البريمي في حماية مطلق المطيري ، وعند وصوله الى البريمي عرف أن مطلق قد غادرها الى نجد قبل وصوله بثلاثة أيام ، فقرر أن يلحق به عن طريق تقديم بعض الرشاوى الى مطلق وأقنعه بالعودة الى البريمي للاشتراك معه فيحملة لاسترداد سمايل وعودته الى الحكم ، وقد تحرك مطلق بسرعة وبعد أن جمع قوة مقاتلة من قبائل النعيم والظواهر وبني قتب زحف على أزكى وهناك انضم اليه فئات من قبيلتي الدروع والجنبه ، ولكن سالم بجيشه المؤلف من الفرس والحرث والحبوس شن هجوما عشوائيا على مطلق غير أنه مني بهزيمة نكراء(١) ومن ناحية أخرى فان قيام حكومة فارس لمد سعيد بقوات عسكرية قد حملت عبد العزيز الى ايفاد مبعوث خاص الى شيراز في بداية عام ١٨١١ للاحتجاج على تقديم العون الى مسقط وكان الأمير سعود في ذلك الوقت قلقا من اشاعات

---

(١) « ائمة وسلاطين عمان » ترجمة بادجر ص ٢٣ ، ص ٢٤ وأيضا ٣٠٥ — ٣١٧ من سجلات حكومة بومباى السياسية مجلد ٤ من الحاكم العام الى مجلس الادارة ١٨١١/٤/١٥ ورقم (١) ويعزو بادجر وقوع هذه الأحداث الى عام ١٨٠٩ غير أن لوريمار (في دليل الخليج) جزء ١ ص ٤٤ يعزوها الى عام ١٨١٢ ولكنه اتضح من شهادات اربعة من الروس الذين تمكنوا من الفرار الى بومباى الى ان الأحداث وقعت في أواخر ١٨١٠ اوائل ١٨١١ راجع أدناه ص ١٢٨ .

كانت تنطلق من مصر ، بأن محمد على باشا يعد العدة لشن حرب عليه فى الحجاز ، وبالتالى فقد كان يريد أن يتأكد من أن الأمير الفارسى لن يستغل تلك الفرصة لشن حرب عليه من الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية ولهذا اخذ الأمير السعودى فى اتخاذ الاحتياطات ودعا زعماء آل خليفة فى البحرين الى الدرعية واحتجزهم هناك وكان السيد سعيد قد هاجم البحرين فى صيف العام السابق وقام باحراق زبارة وارغام أفراد الحامية الوهابية على الفرار(١) .

وقد قام العاهل السعودى بتعزيز الحاميتين فى قطر والبحرين كما أصدر اوامره الى وكيله عبد الله بن عفيصان بأن ينقل مركزه من داخلية البلاد الى الجزيرة . وقد نجحت زيارة المبعوث الوهابى الى شيراز اذ حصل على التعهدات المطلوبة من الأمير ، وفى طريق عودة المبعوث ابراهيم عبد الكريم توقف فى بوشهر وذلك للاجتماع بالمقيم البريطانى هناك وللاستفسار عما اذا كان هناك نية فى ارسال حملة عسكرية بريطانية فى الخليج ، وقد ابلغ المبعوث المقيم بأن سعود قد فوضه فى ابرام معاهدة تجارية مع البريطانيين ، وذلك وفق الصيغة الواردة فى كتاب الأمير الى هنكى سميث فى العام السابق ، وقد أحيل الطلب الى الحكومة فى الهند فرئى رفضه وتجنب أى علاقة رسمية مع الوهابيين ولكن قبل أن يتم ابلاغه بهذا القرار قد اقتنع بأنه ليس هناك مايدعوه الى التخوف من البريطانيين فى المستقبل القريب(٢) .

---

(١) محادثات حكومة بومباى السياسية حلقة ١١٩ مجلد ١٠ بتاريخ ١٨١٠/٨/١٤ من سعيد الى دنكان ١٨١٠/٧/٣ .

(٢) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٣٤ — ٤٣٥ « لمحة تاريخية الوهابية » بقلم واردن عام ١٧٩٥ — ١٨١٨ .

وفى أواخر عام ١٨١١ انتهز السيد سعيد فرصة تخفيض حجم القوات الوهابية فى البحرين فشن هجوما عليها بمشاركة بعض العناصر المنشقة من العتوب ، وقد نجح الهجوم واستسلمت الحامية واخذ عبد الله بن عفيصان أسيرا(١) غير أن سعود لم يتخذ اى اجراء انتقامى ضد السيد سعيد وذلك بانشغاله بالخطر القادم من الغرب وبدلا من ذلك فقد أفرج عن شيوخ آل خليفة وأعادهم الى البحرين بعد أن تعهدوا له بدفع الزكاة كما أن سعيدا من جهته لم يعارض على عودتهم الى البحرين واشترط عليهم الاعتراف بسيادته عليهم ودفع الزكاة . وقد وافقه أمير البحرين الشيخ سليمان وعبدالله بن أحمد بنفس الطريقة التى تعهدا بها للأمير سعود على أمل أن تتبدل الأمور يوما ما ويعود اليهما استقلالهما ، وكان من نتيجة ذلك أن تدهور موقف رحمة بن جابر فى قطر ، ولهذا فقد غادر خور حسن ولجأ الى الدمام على ساحل الاحساء (٢) .

وقد عارض أنجال(٣) سعود موقف والدهم من احتلال السيد سعيد للبحرين فقرروا العمل بمفردهم ، وهكذا خرج اثنان او ثلاثة منهم من الاحساء بطريق

---

(١) يذكر لورمار فى دليل الخليج فصل واحد ٨٤٣ « أن الاستيلاء على البحرين واجتياح زبارة قد وقع فى عام واحد وهو عام ١٨١١ غير أن خطاب سعيد الى دنكان بتاريخ ١٨١٠/٧/٣ والذى اشرنا اليه آنفا يوضح تماما : انهجوم قد وقع فى العام السابق .

(٢) لورمار .

(٣) يذكر ابن رزيق « ائمة وسلاطين عمان » ص ٣١٨ أن الأنجال اللذين اشتركوا فى تلك العملية هم تركى وفيصل غير أن عثمان بن بشر المؤرخ بالاسرة السعودية الذى عاش فى القرن التاسع عشر يذكر فى مؤلفه « عنوان المجد فى تاريخ نجد » بأنهم كانوا ثلاثة هم : تركى وناصر وسعد فصل ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

البحر ، وكان ذلك فى بداية عام ١٨١٢ وكان والدهم فى ذلك الوقت يؤدى فريضة الحج . وقد نزلوا فى عجمان على الساحل وكان يرافقهم بعض أتباعهم ، وفى عمان انضم اليهم شيخ المنطقة ونحو مائة شخص من اتباعه وسار الجميع الى البريمى . وفى البريمى نشبت معركة بينهم وبين القبائل اضطروا معها الى الانسحاب بعد سقوط عدد من أتباعهم ، وعندما علم مطلق بذلك خف لنجدتهم، وبالاشتراك مع أنجال الأمير والشيخ محمد بن ناصر زعـيم بنى جابر شنوا هجوما كاسحا على ساحل الباطنة ومنطقة الشرقية كما هاجموا بركة ومطرح وقتلوا عددا كبيرا من سكانها ومن هناك عبرت القوة الى الحجر الشرقى وهى تدمر وتقتل حتى وصلت رأس الحد حسب ماورد فى أقوال لوريمار ، وعندما بلغ سعود الأمر بالغزوة التى قام بها أنجاله والتى لم يصرح لهم بهـا غضب وجهز قوة لاحتلال القلعة الرئيسية فى البريمى ومنع أنجاله من دخولها كما استدعاهم هم ومطلق المطيرى الحضور الى نجد ، وقد أوفد بدلا من مطلق « عبد العزيز بن غروقه » حاكم الاحساء للاشراف على القوات الوهابية هناك غير أن ابن غروقه ورفاقه قتلوا فى الطريق خلال كمين أعد لهم فى بنى ياس حلفائهم فى منطقة الظاهرة .

وقد صدرت الأوامر لمطلق المطيرى مرة أخرى فى عام ١٨١٣ بالعودة الى عمان والعمل لاستعادة مركز الوهابيين هناك غير أن ايامه فى هذه المـرة كانت معدودة، فعند عودته الى الوريمى اكتشف بأن أغلبية العرب كانوا ضده، ويعود السبب فى ذلك أساسا الى المطالب الـكثيرة التى كان يفرضـها على السكان وارغامهم على شن الحروب والغارات على جيرانهم ، وبالتالى ولهذا

كان أثرياء عمان يتصنعون الفقر وشجعانهم يتصفون بالجبن ولكن مطلق استمر في محاولاته معهم الى أن رضخوا لمطالبه فيما عدا بنى كلبان ، اما بقية قبائل الظاهرة فقد أيدته ، وكان الهدف فرض الاتاوة على القبائل، اذ أن مطلق كان ينوى القيام بهجوم على السيد سعيد انتقاما منه على طرد الحاكم الوهابى من رأس الخيمة فى أوائل العام وهكذا خرج مطلق على راس جيش من ٤٠ ألف مقاتل لمهاجمة مدينة صحار العمانية ولنجة ومنها الى مسقط . ولما كانت امكانيات السيد سعيد العسكرية لا تسمح له بصد مثل ذلك الجيش فقد دفع لمطلق المطيرى جزية مقدارها ٤٠ ألف ريال نمسوى . لكن تلك الحملة العسكرية كانت آخر عملية يقوم بهامطلق المطيرى، ففى نهاية عام ١٨١٣ وبينما كان يقوم بالاغارة على احدى مناطق الشرقية فى عمان وقع فى كمين نصب له بالقرب من قرية بديه « وقد قتل فى وادى البطحا وقد قتل القائد فى هذا الكمين الذى نصبه بعض الحجرين .

وقد خلفه فى منصبه قائد جديد هو عبد الله المزروعى وبعد وصول القائد الجديد الى البريمى بأيام قليلة جهز حملة للهجوم على « بديه » والانتقام لمصرع مطلق . ولكنه لم يتمكن من الوصول الى أبعد من بهلا،وهناك قرر عدم مواصلة الغزو بعد أن نمى اليه بأن السيد سعيد قد اثار قبائل الشرقية عليه وكان ينتظره فى نزوى(١) وبعد وقت قصير وصل الى مسقط مبعوث خاص من الدرعية يطلب التفاهم مع السيد سعيد لأن الأمير السعودى لم يعد لديه من

---

(١) ابن رزيق ص ٣٢٦ — ٣٢٨، (رحلات الى الجزيرة العربية) بقلم جى. ار. ولستد مجلد ٢ فصل واحد ص ٩٦ طبعة لندن ١٨٣٨ .

الوقت مايوليه لشئون عمان بعد أن عبأ امكانياته كلها لمواجهة الهجوم الذى شنه عليه محمد على باشا والى مصر(١) .

---

(١) ان تاريخ وتسلسل الأحداث فى هذه الفترة من وجهة نظر السلطات تشوبها الغموض وان هذا البيان ان هو محاولة لوضع تلك الأحداث فى اطارها الصحيح ان بادجر شأنه شأن ابن رزيق يؤرخ أبناء سعود لعمان بالفترة الواقعة بين هذا التاريخ والهجوم البريطانى على راس الخيمة عام ١٨٠٩ والتى تبدو وانها وقعت فى وقت مبكر جدا « ائمة وسلاطين عمان » أما ابن بشر « تاريخ نجد » فصل واحد ص ١٥٢ فيقول أن أبناء سعود خرجوا الى عمان من الدرعية فى شهر ذى الحجة ١٢٢٥ الموافق ديسمبر ١٨١٠ — يناير ١٨١١ وهو تاريخ يبدو مبكرا على مايبدو لأنه يحدد تاريخ الغارة فى نفس التاريخ الذى منى فيه مطلق بالهزيمة على يد سالم والفرس فى بلدة ازكى فى مستهل عام ١٨١١ . ومرة أخرى يذكر بادجر وهو على صواب بأن الغارة جاءت فى أعقاب تلك الهزيمة «ائمة وسلاطين عمان» ونرى أن ابن بشر يؤرخ لها قبل هذا التاريخ كما يحدد تاريخ الهزيمة فى الفترة الواقعة بعد شهر ذى الحجة عام ١٢٢٦ الموافق ديسمبر ١٨١١ يناير ١٨١٢ «تاريخ نجد فصل ١ ص ١٥٣ — ١٥٤ » وهذا يتطابق مع التاريخ الذى حدده لوريمار « دليل الخليج فصل واحد ص ١٤٤ » غير أن هذا يتناقض مع ما أشرنا اليه اما لوريمار فانه يؤرخ لغارة أبناء سعود بعام ١٨١٢ أو ١٨١٣ » « نفس المصدر » ولكن بما انه قد مر عام أو عام ونصف على الغارة وغزو مطلق للباطنة فمن المؤكد انه وقع فى النصف الأول من عام ١٨١٣ فان ١٨١٢ وهو التاريخ المحتمل ، أن لوريمار شأنه فى ذلك شأن ابن بشر يؤرخ لمصرع ابن غروقه بعد الغارة المذكورة ولكن بينما يعزوها ابن بشر الى شهر جمادى الأول ١٢٢٦ الموافق مايو — يونيه ١٨١١ فان لوريمار يحددها بعام ١٨١٢ وأخيرا على حين يقول ولستدان مصرع مطلق =

ولفترة تزيد على عقد من الزمن ظل الباب العالى يقف موقف الخنوع والضعف فى وجه الخطر الوهابى وكانت هناك عوامل كثيرة ساهمت فى ذلك الوضع منها الثورة داخل الامبراطورية ثم ضياع الاراضى والاستنزاف البطىء لامكانيات العثمانيين لمواجهة التصدع الذى أصاب البنية السياسية للباب العالى بسبب وجود المرتزقة واخيرا العجز المزمن فى الامكانيات المالية .

وفى عام ١٨١٠ دخل الوهابيون المدينة المنورة فقاموا بنبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونهب الحرم النبوى . غير أن هذه الجريمة أثارت السلطان العثمانى محمد الثانى وقرر القيام بعمل ضد الوهابيين . ولما كان وضع السلطان لا يسمح له بتنفيذ تلك المهمة فقد كلف واليه فى مصر محمد على باشا بالتحرك الى الحجاز . وعلى الرغم من أن شن هجوم على الوهابيين فى الحجاز لم يكن عملا سهلا بالنسبة لمحمد على الا انه رأى فى ذلك فرصة للتخلص من المتاعب التى كان يعانى منها فى مصر ، اذ ان المماليك كانوا لا يزالون يهددون مركزه فى مصر كما كانت الأوضاع المالية فى منتهى السوء بينما كان الجيش الذى يتكون معظمه من الباشوات تسوده روح التذمر والثورة على الأوضاع .

وقد اعتقد محمد على باشا بانه لو استطاع اخضاع الوهابيين فان ذلك قد يؤدى الى دعم وضعه المالى عن طريق حصوله على قرض من الباب العالى

= وقع فى عام ١٨١١ — ١٨٨٢ ص٢٨ «ملاحظات حول القبائل العمانية» وانه قتل فى شهر نوفمبر ١٨١٣ (بلدان وقبائل الخليج فصل ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠) وهذا يبدو اكثر انطباقا مع تسلسل الأحداث كما أن غولين يحدد نفس التاريخ فيروى انه على الرغم من رأس وأطراف مطلق قد ارسلت للسيد سعيد تأكيدا لمقتله الا ان السيد سعيد لم يصدق بأن خصمه اللدود قد قتل بالفعل .

والى اعفائه من دفع الزكاة السنوية فضلا عن الغنائم التى سوف يحصل عليها من الحجاز . كما ان الحرب فى الصحراء كانت فى نظره فرصة لتدريب جنوده على تلك الحرب . كذلك فلو قدر له أن ينتصر على الوهابيين فان ذلك سوف يعزز مركزه فى العالم الاسلامى كمحرر للأماكن المقدسة ، كما قد يفيده فى دعم مركزه فى سوريا على الرغم من انه ظل يذكر الباب العالى بأن السلطان لم يفعل شيئا حتى ذلك الوقت لوقف الوهابيين عند حدهم لاسيما وأن امكانيات سوريا كانت أكبر من امكانيات مصر . ولعل محمد على باشا رأى بأن الحملة تتيح الفرصة له للقضاء على نفوذ المماليك فى مصر . وقد حقق محمد على هذا الهدف بطريقة شرسة ، فقد دعا الى القلعة فى يوم ١ مارس ١٨١١ أربعمائة وستين من زعماء المماليك وذبحهم عن آخرهم كما ذبح نحو ٥٠٠ مملوك آخر فى مختلف انحاء مصر عن طريق ولاته. وفى نفس الوقت أبلغ السلطان بأنه لم يكن فى وسعه أن يجازف ببقاء المماليك فى مصر لأنهم قد يغتصبون السلطة منه بينما يكون جيشه يحارب خارج البلاد(١) . وفى نهاية شهر أغسطس ١٨١١ خرج الجيش المصرى الى الحجاز بقيادة طوسون نجل محمد على ، وفى شهر اكتوبر استولى الجيش على ميناء ينبع وبعده بدأ الزحف نحو المدينة فى أوائل العام الجديد ، غير أن طوسون منى بهزيمة نكراء على يد الوهابيين وحلفائهم من قبائل حرب . وكان الجيش بقيادة عبد الله وفيصل نجلى سعود ، فاضطر محمد على الى الانسحاب الى ساحل البحر الأحمر ، وفى خريف ١٨١٢ جدد الهجوم على الوهابيين ، وفى شهر نوفمبر دخل المدينة وفى أواخر العام قام

---

(١) « تاريخ مصر » فصل واحد ٣،٩ تأليف منجم و ١٨١١ — ١٨٤٩ طبعة باريس ١٩٣٠ ص ٣٥ — ٤٠ ، « مؤسس مصر الحديثة » تأليف اتشى دودوال طبعة كامبردج ١٩٣١ ص ٤١ — ٤٣ التقرير الادارى للمقيم البريطانى فى الخليج » ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ، ومذكرات حول نجد « تأليف روث » .

عبد الله ابن سعود الذى كان يقود القوة الوهابية فى الحجاز باخلاء مكة ودخلها المصريون منتصرين فى يناير ١٨١٣(١) ، وفى شهر أغسطس من العام التالى وصل محمد على باشا بنفسه الى الحجاز ليقود الحملة وفى نهاية العام قام الأمير السعودى باتصالات جديدة بالسلطات البريطانية فى الهند لاجراء مباحثات معهم .

وقد أجرى الاتصال نفس المبعوث الذى كلف أيضا بزيارة السيد سعيد فى مسقط كما توجه مبعوث آخر الى بوشهر لنفس الغرض وقد أدى ذلك بالقواسم الى استئناف عمليات القرصنة وبخاصة أنهم قد عوضوا خسائرهم فى السفن ببناء سفن جديدة بالأخشاب التى وصلتهم من « ترافنكور » وغيرها من المناطق خارج السيطرة البريطانية ، وفى الشهور الأخيرة من عام ١٨١٢ عاد القواسم الى نشاطهم بنفس القوة . وقد أمضت الفرقاطة البريطانية «هسبر» بناء على تكليف من السلطات فى بومباى الفترة الواقعة من نوفمبر ١٨١٢ حتى فبراير ١٨١٣ فى دوريات مستمرة بحثا عن القواسم، ولكن على الرغم من أنها جابت المنطقة من مضايق هرمز حتى شط العرب والعكس بالعكس فانها لم تصادف ولا سفينة واحدة للقراصنة(٢). وفى أوائل عام ١٨١٣ أبلغ السيد سعيد الحكومة فى بومباى بأنه قد قرر مهاجمة رأس الخيمة بهدف اعادة الشيخ سلطان بن صقر الزعيم السابق الى السلطة . وكان الوهابيون قد أقصوه عن

(١) « منجم » فصل واحد ص ٣٨٢ — ٣٨٤ «ملاحظات عن البدو» ص ٣٤٥ — ٣٥٦ تأليف برخارد ودودوال ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) التقرير السنوى رقم ١٨٥/١ من الكابتن جوزيف بريور الى الفايس أميرال السير صمويل هود الطراد هسبر مسقط ١٨١٢/١٢/١٥ ومن هود الى ويليام كروكر « سكرتير الأميرالية » ١٨١٣/٤/١٣ أنظر أيضا الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٤ الحاكم الى الحكومة البريطانية ١٨٤٣/١/١٦ .

السلطة من خمسة أعوام ، وبانه يخطط لعقد اتفاقية مع صقر يتعهد فيها بعدم قيام القواسم بأى غزو أو هجوم على عمان . وقد اقترح السيد سعيد أن يصحبه فى تلك العملية اللفتنانت وليام بروس المقيم البريطانى بالوكالة فى بوشهر ولكى يشهد على توقيع المعاهدة ويقدم مايمكن من المساعدة البحرية وقد راى بروس فى ذلك فرصة للحصول على اتفاقية مكتوبة مع القواسم يتعهدون فيها باحترام السفن البريطانية وعلى هذا الأساس صدرت الأوامر لروس بمرافقة السيد سعيد فى الطراد ولكن الحملة فشلت على الرغم من أن سلطان بن صقر قد نجح فى الاستيلاء على الشارقة وهى الميناء الثانى الهام للقواسم(١). وفى خريف عام ١٨١٣ بدأت سفن القواسم تظهر من جديد على السواحل الشمالية للهند وفى مستهل عام ١٨١٤ استولوا على عدد من السفن كانت تسير بالقرب من كاثيا وار . وقد صدرت الأوامر الى ثلاث من الطرادات للبحث عن القواسم وتحذيرهم من نتائج بقائهم فى المياه الهندية ، وفى هذه الاثناء تلقت حكومة بومباى طلب الأمير السعودى للوصول الى اتفاق مع الحكومة البريطانية واحيل الطلب الى كلكتا حيث قرر الحاكم العام وهو الأرل أوف مويرا الذى لم يوافق على ابرام أى اتفاقات رسمية مع الحاكم الوهابى لكنه اقترح على سلطات حكومة بومباى بالاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الحاكم الوهابى والسعى بمختلف الوسائل للاعراب عن تقديرها لمواقف لامير لوهابى الودية تجاه الحكومة البريطانية(٢) وبعبارة أوضح كان

---

(١) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٠٨ « لمحة تاريخية عن القواسم » تأليف واردن .

(٢) رسائل بومباى السياسية نفس المجلد من الحاكم الى الحكومة البريطانية ١٨١٤/٤/١٦ .

مويرا يرى أن نشاط القواسم ضد الملاحة فى الخليج لاعلاقة له بالوهابيين وذلك كى تتفادى الحكومة البريطانية أى خلافات قد تسبب احراجا معهم غير ان مويرا اكتشف فيما بعد خطأ هذا الرأى .

فى أول مايو ١٨١٤ توفى الأمير سعود وخلفه نجله عبد الله وكانت اغلبية أراضى الحجاز فى يد محمد على باشا وكانت الخطوة التالية فى خطة محمد على باشا هى نقل الحرب الى المعسكر الوهابى . وفى يناير ١٨١٥ وفى منطقة تقع بين الطائف وترابه قضى على جيش الوهابيين وقوامه ٣٠ الف رجل قضاء تاما ، وكان الجيش بقيادة فيصل بن سعود شقيق عبد الله . وقد فشلت خطة محمد على للتقدم نحو نجد بعد وصول أنباء عن احتمال قيام الباب العالى بخلعه عن الحكم خلال غيابه عن مصر ، وقد اقتنع محمد على من المعلومات التى كانت تصل اليه ومن التطورات التى كانت تشهدها أوربا بعد هرب نابليون بوجوب العودة الى مصر فورا ، وهكذا غادر الحجاز فى مايو ١٨١٥ بعد أن سلم القيادة الى طوسون . ولم يمض وقت طويل حتى عقد طوسون معاهدة مع الأمير عبد الله تعهد فيها الأخير بالتنازل عن مطالبه فى الحجاز والأماكن المقدسة واعلان ولائه للسلطان العثمانى بينما تعهد طوسون من جانبه بفتح أبواب الحجاز للوهابيين للأغراض التجارية والدينية كما اعترف بسلطة عبد الله على نجد وعلى جزء من القاسم وهى المقاطعة الواقعة بين نجد والحجاز(١) .

وقد أعلن عبد الله بن سعود بعد توليه السلطة بأنه سوف ينهج منهج والده بالنسبة للخليج ، وعلى أثر تسلم حسن بن رحمة تحذير المقيم البريطانى فى شهر مايو من سنة ١٨١٤ وكان قد خلف حسين بن على كحاكم لرأس الخيمة

(١) كيه فصل ٢ من ص ١ — ٤٨ — وبرخارد من ص ٣٦٠ — ٤١٣ وصبرى ص ٤٣ ودودوال من ص ٤٤ — ٤٦ .

بوقف نشاطه على حدود الهند وقد استدعاه الأمير عبد الله الى الدرعية وحذره من استفزاز البريطانيين ، غير أن عبد الله أبلغ المقيم البريطاني فى رسالة بعث بها اليه فى شهر اكتوبر سنة ١٨١٤ بأن هجمات القواسم على السفن غير البريطانية سوف تستمر وقد ذكر له فى تلك الرسالة بأننا نرجو أن تشعروننا من هم رعاياكم وما هى العلامة المميزة لهم لأن سفن المسلمين تجوب البحار باستمرار »(١) وقد اخبر حامل هذه الرسالة وكان قاسميا من رأس الخيمة المقيم البريطانى بأن حسن بن رحمه قد أصبح مستعدا للتوقيع على تعهد كتابى بعدم التعرض للسفن البريطانية على الرغم من أن المقيم بروس كان فى قرارة نفسه يشك فى قيمة ذلك التعهد الا انه رأى من المناسب أن يقبله منه وقد اقرت الحكومة فى بومباى الاجراءات التى اتخذها بروس بهذا الشأن(٢) .

بعد تحسن الأحوال الجوية فى شهر أكتوبر ١٨١٤ ظهرت سفن القواسم مرة اخرى وبأعداد كبيرة على السواحل الشمالية للهند وعندما تقدم أمراء مقاطعة السند الى حكومة بومباى بطلب حماية الأسطول لهم ضد نشاط القواسم رفض طلبهم على أساس أن الهجمات القرصنية على السفن البريطانية موضوع ليس من اختصاص الشركة ، وعلى اى حال وفى الوقت نفسه اعرب السير ايفان نبيين الذى خلف دنكان فى بومباى اعرب للحاكم العام عن مخاوفه مما قد تتعرض له تجارة لهند من أضرار وخسائر فيما لوسمح للقواسم بممارسة نشاطهم دون رقيب بالقرب من سواحل السندوكتش، وقد ايده الحاكم العام فى ذلك الرأى

---

(١) من أرشيف الرسائل المتعلقة بالخليج ١٨٠١ — ١٨٥٣ ص ٥٦ من عبد الله ابن سعود الى اللفتنانت وليم بروس (سجلات بوشهر٢/١٠/١٨١٤).

(٢) رسائل بومباى السياسية مجلد ٥ من الحاكم الىالحكومة البريطانية ١٨١٥/٨/٢٣ .

ولوانه كان يعتقد بأن قبول نبين لتعهد ابن رحمة قد يفيده وذكرفى خطابه «بأن الممارسة المنظمة والدستورية لأعمال القرصنة من جانب القواسم قد تعتبر أساسا سليما لأى حكومة متحضرة لمكافحتهم والقضاء عليهم انطلاقا من مبدأ الدفاع عن النفس وهو المبدأ المعترف به دوليا ... أما ما اذا كان رأيا صحيحا أو غير صحيح من وجهة النظر العامة فان الحكومة البريطانية ليست لديها المبررات للعمل بمقتضاه لأنها بعد ان عقدت اتفاقا مع القواسم باحترام السفن البريطانية فانها اعترفت بهم ضمنيا كقوة لها حق الاحتفاظ بعلاقات دولية عادية مع الدول الأخرى(١) .

والذى يمكن أن نستنتجه من ذلك هو أن حكومة بومباى قداشترت سلامة مصالحها باعترافها الضمنى بحق القواسم فى العبث والنهب والسلب بسفن الدول الأخرى . ويؤيد هذا الرأى ماأوضحه الأمير عبد الله فى عام ١٨١٥عندما قام رحمة بن جابر الذى كان لايزال يتمتع بالاعتداء على احدى السفن التركية وكانت تحمل تصريحا من المقيم البريطانى فى البصرة . وقد كتب عبد الله بعد ذلك الى بروس فى بوشهر يحتج بمنتهى القوة على اصدار تصريح لسفن غير بريطانية، وقال فىاحتجاجه أما هؤلاء الكلاب الأتراك فانهم خصومىوهم يسعون الى بذر بذور الشقاق فيما بيننا ، أما الذين يمتون اليكم بصلة فاننا لن نسمح لرعايانا بالاعتداء عليهم بأى شكل من الأشكال ، ولكن لا ينبغى أن تخلطوا بين أعدائنا ورعاياكم أو أن تصدروا لهم اذونا أو تصاريح(٢) وقد كان رد الفعل من

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ بتاريخ ٢١ ، ٢٩ يوليو ١٨١٩ من موريزا الى نبين بتاريخ ١٨١٥/١/٢٠ .

(٢) رسائل حكومة بومباى السرية مجلد٤١ بتاريخ ٢١،٢٩يوليو ١٨١٩من ١٨١٥/٨/٢٢ وقد أرفق به صورة من خطأ عبد الله .

جانب نبين ان أعرب عن اسفه من ان رحمة بن جابر لم يلقن الدرس الكافى سنة ١٨٠٩ – ١٨١٠ . وانه كما قال نبين لو ظل بغير عقاب لمجرد عدم هجومه على السفن البريطانية فان ذلك لن يكون مثلا سيئا للقبائل البحرية فحسب وانما سيضر بالمصالح البريطانية بشكل واسع . « ان أقل درجة من التسامح تجاه هذا الزعيم المؤيد من قبل الوهابيين سوف يشجعه على القيام بنشاط ضار جدا ليس ضد مصالحنا فى مصر فحسب ، وانما ايضا فى العراق ولدى البلاط العثمانى » .

فى أوائل عام ١٨١٦ بدأ القواسم هجماتهم على السفن الأوربية ، فأطلقوا النار على السفينة مكولاى وعلى السفينة الأمريكية فارس وطاردوها ، كما اقتحموا سفينة فرنسية قادمة من جزر موريشيس ، وعاثوا فيها نهبا وسلبا ، وقالوا لقبطانها ، انه لو كان هو وبحارته من البريطانيين لقطعوا رؤوسهم ، ولعل أخطر عمل قام به القواسم هو استيلاؤهم على السفن المحملة بالسلع الثمينة التى كانت متجهة من سورت وترفع العلم البريطانى وقدوقع الهجوم على السفينة فى منطقة البحر الأحمر من جانب بعض سفن أسطول القراصنة وكان يقودها أخ حسن بن رحمه وقد ذبح كل من كان فى الاثنتين من السفن الثلاثة ، بينما قتلوا من السفينة الثالثة نحو ٥٠ الى ٦٠ شخصا ، وكانت القيمة الاجمالية للسلع التى كانت تحملها تلك السفن تتراوح بين مليون الى مليون و٢٠٠ روبية(١) غير ان صيحات التجار فى سورت ارغمت نبين الى اتخاذ الاجراءات اللازمة

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى الحكومة البريطانية ١٨١٦/١٢/١٨ مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص٣١٠–٣١٢ ولمحة عن تاريخ القواسم تأليف واردن « والاسطول الهندى » فصل واحد ٣٣٩ – ٣٤٢ تاليف لو .

فقد طلب الى القبطان « أن اتشه براجرز » قائد الطراد شلنجر (١٨ مدفع) بأن يتحرك الى الخليج بصحبة الطرادين ماركرى وفستال لمساعدة المقيم البريطانى فى بوشهر لاستعادة البضائع والسلع المنهوبة من القواسم ومعاقبة المسئولين عن مجزرة البحارة . وقال له بأنه اذا رفض حسن بن رحمه الاذعان للطلب فعليه أن يوضح له بأن الحكومة البريطانية ستكون مستاءة جدا منه وانها سوف تتخذ الاجراءات الضرورية ضده وقد حذر براجرز بالايحاول القيام بأى عمل بحرى ضد القواسم الذين كانوا يملكون أسطولا حربيا يقدر بـ ٤٠ ـ ٥٠ سفينة كما قيل له أيضا بانه «لن يكون من الحكمة أن يلجأ الى اى اجراء ضد راس الخيمة أو اى منطقة أخرى على الساحل دون أن تكون هناك تحت تصرفه قوة عسكرية كافية (١) .

قبل صدور هذه الأوامر كان بروس قد وجه احتجاجا الى حسن بن رحمة حول انتهاكه الاتفاق الذى عقد فى أكتوبر ١٨١٤ ورد حسن بن رحمة على بروس بأن الاتفاق لم يكن يشمل الهنود وانما ينطبق على الانجليز من ديانة المسيح أو الذين يحملون معهم التصاريح البريطانية ويرفعون الأعلام البريطانية الخاصة فقط (٢) غير أن الفصل بين الجنسين عمل يتضح بروح الانتقام ، ولهذا كان على بروس أن يوضح لزعيم القواسم بأن العلم البريطانى يشمل السفن البريطانية والسفن الهندية على السواء . وقد وصلت قطع الأسطول الى بوشهر يوم ١٨ نوفمبر الى راس الخيمة يوم ١١/٢٦ بعد

---

(١) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١/١٨٩ من وارد الى برادجز ١٨١٦/٩/٨ ومرفقات لخطاب الريرداميرال السيراركن « القائد العام للهند الشرقية » الى كرورکر سكرتير الاميرالية ، ترنكر مالى١٨١٦/١٠/٢٠ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم العام الى الحكومة البريطانية بومباى ١٨١٩/١٠/٩ .

الظهر ، وفى صباح اليوم التالى نزل منه رسول يحمل خطابا الى زعيم القواسم، يتضمن طلبا بارجاع السلع المنهوبة وتسليم المتهم اخ حسن بن رحمة بالاضافة الى تسليم اثنين من أبنائه كضمان لاعادة السلع ، وقد نزل الكابتن براجرز فى وقت متأخر من النهار واكتشف بأن القواسم قد قاموا بتعزيز حامياتهم الى حد كبير منذ حملة سنة ١٨٠٩ ، كما شاهد أربعة سفن كبيرة كاملة التسليح بأطقمها ترسو خارج الميناء ، وعلى الشاطىء فى مواجهة الخليج كانت هناك صفوف من السفن كان يجرى تجهيزها للابحار بينما رأى سفنا أخرى راسية فى الخليج ، وقد جرى الترحيب بالكابتن براجرز ومرافقيه ومن بينهم جى.اس.بكنجر المؤلف والرحالة الذى كان يعمل ربانا لأحدى السفن التجارية وأعد لهم لقاء مع حسن بن رحمة وقد كتب بكنجر يصف زعيم القواسم بقوله : « كان رجلا صغير الحجم فى نحو الأربعين من العمر ولكن ملامح المكر كانت واضحة على محياه ، كما كانت ابتسامته تحوى الكثير من الدهاء ، وكان هناك أثر جرح باحدى عينيه غير أن تقاطيعه الأخرى كانت جميلة وكانت اسنانه ناصعة البياض ومتناسقة وبشرته سمراء اللون جدا ولحيته صغيرة تكاد تلتصق بمحيط الدقن (١) .

وقد سأل براجرز حسن بن رحمه عما اذا كان قد قرأ المطالب البريطانية ، فرد حسن بالايجاب ، ووعد بأن يرد عليه وقت الظهر غير أن الرد الذى جاء بعد الظهر لم يكن مقنعا فقد زعم حسن بن رحمه فى رده بأنه لم يقصد أى انتهاك للتعهد المعقود قبل عامين وأنه تبعا لذلك لم يهاجم أى سفينة بريطانية ولكنه استدرك بقول بأنه لا يستطيع اعتبار الهنود رعايا بريطانيين لانه لو وافقهم على ذلك فانه سوف يأتى يوم يكون فيه الانجليز قد احتلوا الهند كلها ، وهذا يعنى انه لن يبقى لهم أحد ينهبونه، وأما بالنسبة للسلع فقد أكد حسن بانه لا يمكن اعادتها لأنها قد وزعت على مستحقيها ،

---

(١) رحلات الى اشوريا فصل / ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

وأخيرا رفض حسن رفضا باتا تسليم أخيه أو اثنين من أبنائه كرهائن (١).

وبينما كان روس وبراجرز يناقشون زعيم القواسم هبت ريح من الشمال الغربى دفعت بقطع الاسطول الى خارج الشاطىء ، وعند حلول نهار يوم ١١/٢٨ وصلت السفن الى جزيرة قشم ، ولم تتمكن من العودة قبل اليوم الثلاثين وقد عاد المبعوثان فكررا طلبهما الى حسن بن رحمه بدفع التعويض عن الجريمة التى اقترفها أخوه ، ولكنه عاد فرفض الطلب ، غير أن بروس لم يكن يريد مغادرة المنطقة قبل أن يترك طابعا قويا عن استياء حكومته من الحادث ، وقد وافقه براجرز على رأيه ولهذا تجاهل الاثنان تحذيرات الحكومة وسارا بالأسطول الى منطقة قريبة من الساحل وأخذا يطلقان النار على بعض السفن الراسية هناك ، لكن القذائف لم تصب الأهداف ، ورد القواسم النار بالمثل وأصابوا أحد الطرادين . وعندئذ تجمهر الأهالى على الساحل واخذوا يصيحون صيحات الفرح والامتداح ويطلقون النار فى الهواء ولم يكن أمام براجرز ما يفعله سوى وقف العمليات والتحرك الى خارج الميناء (٢) .

لقد كانت عملية رأس الخيمة عملية فاشلة بل انها شجعت القواسم أكثر على تحدى القوات البريطانية نتيجة التساهل البريطانى تجاههم . فقد عززوا أسطولهم بسفن حربية جديدة ، وأصبح لديهم اكثر من مائة سفينة وتم تجميع سفن هذا الأسطول فى الموانىء الواقعة بين رمس والشارقة وقد سلحت هذه السفن بـ ٤٠٠ مدفع و ٨٠٠٠ مقاتل كما انضم الى القواسم سكان لنجة وخرك وغيرها من الموانىء الواقعة على الساحل الفارسى ؛

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى مجلس الادارة اشوريا » فصل / ٢ ص ٣٥٨ الى ص ٣٦٠ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى الحكومة بومباى ١٨١٩/١٠/٩ وبكنجاهم فصل ٢ ص ٣٧٣ — ٣٧٦ .

بالاضافة الى سكان لفت وجزيرة قشم اللتين استعادهما القواسم ، وكان كل هذا الأسطول يخضع لاشراف الوهابيين وكان جميع سكان هذه المناطق يكنون الاحتقار لبريطانيا ، وهذا ما اكتشفه بروس عندما توجه الى راس الخيمة فى محاولة لاسترجاع السلع التى استولى عليها القواسم من السفن التابعة لسورت وحولوها الى سفن عاملة فى اسطولهم ، وكل الذى استطاع أن يحصل عليه بروس من زعماء المناطق (١) التى توجه اليها هو الانكار القاطع لمعرفتهم بأى شىء عن تلك السلع .

فى شهر ديسمبر ١٨١٦ داهمت سفن القواسم المياه القريبة من ساحل كتش واستولوا على ١٢ سفينة . وفى فبراير ١٨١٧ داهمت سفن القواسم احدى السفن المسلحة التابعة لحكومة بومباى بالقرب من بوربندر وذبحوا ١٧ من بحارتها وأخذوا الباقين أسرى الى راس الخيمة ، وقد أخذ القلق يساور ايفان نبين على السفن التجارية المتجهة البحر الاحمر وبخاصة خلال الموسم فطلب الى القائد العام لأسطول الهند الشرقية تقديم ما فى استطاعته من الحماية المسلحة لتلك السفن ، وبناء عليه صدرت الأوامر الى الطرادين باخوس وتوفى بالابحار شمالا للقيام بحماية قوافل السفن المتجهة الى البحر الاحمر والخليج . ولما كان القواسم فى ذلك الوقت قد رفضوا أن يميزوا بين السفن الاوربية فقد اضطر القائد الى اصدار أوامره الى الطرادات بأن تهاجم وتستولى على أى سفينة تابعة للقواسم وتدميرها سواء كانت فى الخليج أو فى مياه البحر الاحمر .

وعلى أى حال فقد كان من الواضح انه لا يمكن القضاء على قوة القواسم البحرية الابإعداد حملة عسكرية أخرى ضدهم ، وقد كتب نبين الى الحاكم

---

(٢) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١٨٩/١ من براجرز الى الحاكم فى بومباى ديسمبر ١٨١٦ مرفقات لخطاب كنج الى كروكر رقم ٦ بتاريخ ١٨١٧/٣/٥ .

العام فى شهر ديسمبر ١٨١٦ فى هذا الشأن وتقلى موافقة مويرا عليه وكلفه فى شهر فبراير ١٨١٧ باجراء تحريات عن حجم وتوزيع القوة اللازمة لتنفيذ هذه العملية بالرغم من أنه أشار الى أن مثل تلك الحملة موضوع لم يكن واردا فى تلك الظروف على الأقل بسبب قلة الامكانيات ، كما كان هناك أمل ضئيل فى توفير العدد الكافى من الجنود الهنود وكان من الأفضل ارجاؤها ريثما تنتهى الحرب الدائرة فى الهند ضد ولايتى مهرتا وبندارى (١) . كما كان هناك اعتبار آخر وهو أن اعداد حملة أخرى ضد القواسم قد تؤدى الى التورط فى صراع مع الوهابيين ، فقد كان الأمير عبد الله بن سعود مستاء أشد الاستياء من عملية قصف رأس الخيمة واعرب عن استيائه هذا فى رسالة بتاريخ فبراير ١٨١٧ الى بروس ، وبعد أن كرر تعهده بعدم التعرض للسفن الاوربية التى ترفع العلم البريطانى عاد فجدد تحذيره الى بروس، من أن عمليات القرصنة سوف تستمر « وبالنسبة الى السفن التابعة لغير الانجليز فاننى حر من أى قيد فى ذلك ، اذ كيف تتصورون اننا نعيد لكم الغنائم التى استولينا عليها من اعدائنا؟ . . .غير اننى اعتبر نفسى المسئول عن سلوك جميع المسلمين تجاه الرعايا الانجليز وعلى اى حال فان أهالى مصر واليمن والشحر والمكلا ومسقط والعراقين والفرس الخاضعين لسعيد بن سلطان كلهم اعدائى واننا بحول الله سوف نقوم بقتلهم والاستيلاء على ممتلكاتهم فى آى مكان نجدهم فيه ، وفى ذلك تنفيذ لأوامر الله الذى نحمده ونشكره . . .» (٢).

أما لماذا اختار محمد على باشا ان ينقض الاتفاق الذى وقعه طوسون فى

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ محادثات رقم ٢٩ بتاريخ ١٨١٩/٧/٣١ من جى ادم (سكرتير الحكومة) الى واردن وفورت ويليام ١٨١٧/٢/٢٢ .

(١) نفس المصدر من عبد الله بن سعود الى بروس (سجلات بوشهر ١٨١٧/٢/٢٥) .

عام ١١٨٥ فغير وأضح (١) . وعند وصول المبعوثين الوهابيين الى القاهرة فى أغسطس من ذلك العام للحصول على التصديق على معاهدة طوسون رفض محمد على باشا طلبهم ، وقد يكون ذلك راجعا الى أسباب دينية نظرا لما كان معروفا عن سلوكه وطموحاته كما قيل أيضـا بأنه كان على خلاف مـع علماء الأزهر الذين أظهروا تشددا كبيرا بالنسبة للموقف الدينى من الوهابيين وثمة تفسير آخر وهو أن عبد الله بن سعود كان يحاول تأكيد سلطته على منطقة القاسم وبالتالى فان محمد على باشا قرر معاقبته على تهوره وعلى تردده حتى ذلك الوقت فى تقديم الولاء للسلطان العثمانى (٢) . وحتى اذا افترضـنا ان تصرفات عبد الله هى التى أملت على محمـد على باشا بشن الحرب عليه مرة أخرى الا ان ذلك لا يعتبر سببا وجيها لشن حملة عسكرية جديدة على شبه الجزيرة العربية وعلى الأخص بسبب ما تتطلبه الحرب من نفقات وما تنطوى عليه من مخاطر ، ولعل أقرب الأسباب الى الصحة اذا ادخلنا فى الاعتبار نشاط محمد على فى اعوامه الاخيرة كما جاء فى اقوال الرحالة والمستشرق جى . ال برخارد الذى رافق طوسون فى حملته على الحجاز وكان فى القاهرة فى ذلك الوقت : أن محمد على كتب الى عبد الله

---

(١) توفى طوسون بعد عودته من الجزيرة وذلك بسبب الحماس الذى استولى عليه كما يقول دادويل من مشهد الافراح والاستقبالات التىوجدها فى مصر بعد عودته من الحجاز (مؤسس مصر الحديثة ص ٤٦) وعلى أى حال فهناك رواية ربما تكون اكثر صحة وردت على لسان برخارد الذى قال : « بان طوسون توفى بعد اصابته بوباء الكوليرا عندما كان فى روزيترا فى سبتمبر ١٨١٦ (ملاحظات عن البدو ص ٤١٨)وقد أعرب برخارد عن اعجابه بطوسون الذى وصفه بالشجاعة .

(٢) راجع « تاريخ مصر » فصل / ٢ ص ٥٥ — ٥٧ وكتاب « صبرى » الامبراطورية المصرية تحت محمد على ص ٤٨ ودودوال نفس المصدر وكتاب « الجزيرة العربية » تاليف فلبى ٩٧ .

يبدى استعداده للتصـــديق على المعـــاهدة التى وقعها نجله بشرط أن يتخلى الوهابيون له عن مقاطعة الاحساء وهى أخصب وأهم المقاطعات فى شـــبه الجزيرة العربية وتقع على ســـــاحل الخليج الفارسى ، ويبدو أن عبد الله رفض طلب محمد على باشا أو انه لم يرد عليه اطلاقا ، وفى أوائل عام ١٨١٦ علم فى القاهرة أن بعض القبـــائل فى الحجـــاز قد أعلنت التمرد على ســـلطة الحاكم المصرى بتحريض من الوهابيين فقام محمد على بحشد جيش كبير فى فصل الصيف وعهد قيادته الى أحد أنجاله هو ابراهيم باشا (١) .

وقد وصل ابراهيم باشا الى الحجاز فى شهر سبتمبر ١٨١٦ وأقام معسكراته بالمدينة كما أقام قاعدة متقدمة فى الحماقية على بعد ٦٠ ميلا الى الشمال الشرقى أو على الطرف الغربى للسهل الأوســـط لشبه الجزيرة ، وقد سبق ذلك استعداد فى اوائل عام ١٨١٧ للزحف على منطقة القاسم بينما كانت المفاوضات تعززها الرشاوى والتهديدات مستمرة مع القبائل الرئيسية والمنطقة الغربيـــة من الجزيرة فى محـــاولة لكسبهم الى المعسكر

---

(١) لدى دبليو . جى بلجريف قصة يرويها عن محمد على فيقول انه اراد ان يختبر قوادهالعسكريين قبل القيام بالحملة فوضع تفاحة فى وسط سجادة كبيرة وطلب الى كل منهم ان يصل الى التفاحة دون ان يضع قدمه على السجادة ، وكان يقصد من ذلك ان — التفاحة هى الدرعية والسجادة هى الصحراء المحيطة بهـــا وقد اخذ القواد واحدا تلو الاخر يحـــاولون ذلك الا انهم فشلوا وفى النهاية طلب ابراهيم الاذن له بالوصول الى التفاحة ويتقدم ابراهيم واخذ يطوى السجادة من احد اطرافها الى ان وصـــل الى التفـــاحة وأمسك بها . وعلى نفس الغرار قال ابراهيم لوالده ان قبائل المنطقة الغربية للجزيرة لعربية يجب طيهم بهذا الشكل اذا اريد للجيش المصرى ان يصل باى حال من الاحوال الى الدرعية (رحلة عبر المناطق الوسطى والشرقية للجزيرة العربية) تاليف بلجريف مجلد / ٢ طبعة لندن فصل ٢ ص ٤٧ — ٤٨ .

المصرى . وبدأ الزحف على القاسم فى شهر يونيه وقد وقع عبء القتال المبدئى على كاهل الخيالة البدو والفرسان ، وكان عددهم نحو ٦ آلاف جندى جمعهم ابراهيم باشا من الحجاز ليكونوا طليعة قواته ، وقد بدأ هؤلاء يضيقون ذرعا بالدور المكلفين به ، وسرعان ما أخذ ابراهيم باشا يواجه مشكلة فرار الجنود من الجيش بشكل واسع ، غير أن هذا النقص فى القوات، تم تعويضه عن طريق عروض التأييد التى بدات تنهال عليه من شيوخ عنزه وشيوخ مطير الذين كانوا مستائين من سيطرة الوهابيين عليهم ، وفى جبل معاوية فى شهر يوليو نشبت أول معركة بين قوات محمد على والوهابيين ، وذلك عندما أرغم ابراهيم باشا جيشا من الوهابيين يقدر بنحو ١٠ آلاف من راكبى الجمال بقيادة عبد الله بن سعود نفسه (١) على أن يولوا الأدبار .

ولعل معركة جبل معاوية كانت المعركة الحاسمة بين الطرفين ، فقد انسحب عبد الله الى معقله بين أسوار الدرعية ولم يعد يغامر بشن حرب أخرى ، أما إبراهيم فقد أخذ يضغط فى زحفه نحو القاسم وبنهاية عام ١٨١٦ كان معظم هذه المنطقة قد سقطت فى يده أو فتحت أبوابها له ، وبعد أن تلقى مجموعة أخرى من الجنود من مصر استأنف زحفه نحو الشرق ، وذلك فى بداية العام الجديد . وقد تعطل الزحف أكثر من مرة لتأخر وصول المؤن والامدادات التىكانت تشق طريقها بصعوبة فىالحجاز.ولم يتمكن جيش ابراهيم باشا المؤلف من نحو الفين من الخيالة المصريين والألبانيين والمغاربة والبدو ٥٦٠٠ رجل من لمشاه و ٢٥٧٥ منهم من المصريين و ١٧٢٥ من الألبانيين ومائة من المغاربة والبقية من المحاربين البدو غير النظامين بالاضافة الى قوات المدفعية والمهندسين والطلائع لم يتمكنوا من الزحف على الحجاز قبل فبراير عام ١٨١٨ .

---

(١) كان عدد الوهابيين الذين ذبحوا فى هذه المعركة كبيرا جدا بحيث ان ابراهيم باشا اضطر الى أن يتوقف عن ارسال رؤوس الجنود الوهابيين لعرضها فى القاهرة وأخذ يرسل الآذان بدلا من الرؤوس .

وخلال تقدم ابراهيم باشا عبر وادى حنيفة لم يواجه مقاومة تذكر حتى أنه فى أوائل ابريل كان قد وصـــل الى مشـــارف الدرعيـــة ولم ينته الحصار الذى فرض على المدينة واســتمر خمســـة أشــهر الا بعد أن كلف الطرفين خسائر جسيمة (١) ومن الغريب أن اندحار الوهابيين فى أواســط الجزيرة العربية لم يترك آثارا خطيرة على سواحل الخليج . لقد كان القواسم أصبحوا اقوياء حتى أنهم لم يكترثوا بفقـد حمـاية الوهابيين لهم كما أن نار العقيدة قد خبت فيهم وهكذا لم يعد لمذهب محمد بن عبد الوهاب أى دور سوى تغطية أعمـال القرصـنة بستار من التقوى . كمـا أن البحرين التى خلعت هى الأخرى رداء الخضوع للدرعية تحولت الى المركز الرئيسى لنشاط القواسم ، وكانت تزودهم بالأغذية وغيرها من المواد بينما أخذت أعداد من العتوب تســافر الى رأس الخيمـة لتنضـم الى القواسم ، (٢) وخـلال

---

(١) منجم فصل ٢ ص ٧٧ — ١١٩ وسدلر ص ١١٣ — ١٢٠ وصبرى ص ٤٨ — ٥٦ ودودوال ص ٤٦ — ٤٨ وفلبى من ص ٩٧ — ٩٩ .

(٢) ان تواطؤ البحرين فى عمليات القواسم قد يكون سببا فى عدم تاثر حجم التجارة بين الهند والخليج بحملات القرصنة وكانت القيمة الاجمالية لتجارة الحكومات الثلاث التى هى بومباى والبنغال وكلكتا مع موانىء الخليج والجزيرة العربيـــة فى عام ١٨٠٢ لا تزيـــد على ١٢ مليون روبيـــة وفى عـــام ١٨١٣ — ١٨١٤ حافظت على نفس المســتوى تقريبـــا لكنهـــا فى عـــام ١٨١٧ — ١٨١٨ ارتفعت الى ٤٢ مليون روبية (التقرير الثالث للجنة التجارية الخارجية ، تقارير اللجان (١٨٢١) وثيقة ٧٤٦ مجلد ٦ ص ١٩١ ملحق اتشى) ويمكن أن تعزى تلك الزيادة الى التحسن الذى طرأ فى التجارة مع فارس فى اعقاب توقف الحرب بينها وبين روسيا ١٨١٣ كما يمكن ان يعزى الى ارتخاء قبضة الوهابيين على البحرين وعمان بعد ذلك الوقت . ومن ناحية اخرى فان عمليات السلب والنهب التى كان يمارسها القواسم قد ازدادت حدة فيما بين عامى ١٨١٤ — ١٨١٨ واذا كانت التجارة قد ازدهرت خلال هذه السنوات فمعنى ذلك ان السلع والبضائع كانت تصل فى النهاية الى وجهتها ويمكن القول ان القرصنة لم تؤد الى وقف التجارة بقدر ما ادت الى تاخير وصول السلع الى موانيها فقط .

١٨١٧ — ١٨١٨ تفاقم خطر نشاط القواسم لدرجة أن حكومة بومباى ادخلت نظام القوافل الذى اتخذت مسقط قاعدة له لحماية السفن المتجهة الى الخليج ، وكانت هرمز هى منطقة نشاط القراصنة ، وكان بالتالى على السفن ان تواجه هذه المشكلة . فقد كان القراصنة ينطلقون من قواعدهم فى قشم وخور فكان وغيرهما من الخلجان الصغيرة القريبة من شبه جزيرة مسندم ، وقد اقترح على السيد سعيد بأن يتعاون مع حكومة الهند لرسم سياسة ناجحة للخليج كما قبلت عروض للمساعدة من رحمة بن جابر الذى انشق بعد ذلك عن الوهابيين وعن القواسم الذين تحولوا بعد ذلك الى جنب آل خليفة المفقوتين . أما فى المناطق القريبة من السواحل الشمالية للهند فقد كان القواسم يتحركون بكل حرية ويهددون التجارة الساحلية فى المنطقة مما أرغم ايفان نبين الى ارسال تقرير شديد الى مجلس ادارة الشركة فى أواخر عام ١٨١٧ — ١٨١٨ وقال فى تقريره ، بأن القراصنة أصبحوا يداهمون السفن العاملة فى هذه المنطقة بجراة متناهية (١) . وفى الفترة الواقعة من اكتوبر ١٨١٨ ويناير ١٨١٩ التقى الطرادان فتيس وسيش بالقواسم ما يقرب من ١٧ مرة وكانوا يبحرون فى مجموعات تتراوح ما بين اثنين وعشر سفن ، وعلى الرغم من محاولة الطرادان اعتراض سفن القواسم الا أن الفشل كان حليفهما فى كل مرة ، فقد كانت سفنهم قد تمكنت من الافلات بسهولة بل كان القواسم على الدوام على اتم استعداد لمواجهة الطرادات لأنهم كانوا دائما يتخذون مواقع بعيدة عن مرمى النيران حتى اذا حل الليل يتسللون فى الظلام عائدين الى المناطق الساحلية فى انتظار طلوع النهار والعثور على ضحايا جديدة .

فى خريف ١٨١٨ عزز الطرادان بسفينتين اخريين هما الفرقاطة ايدن والطراد كنوى من قاعدة ترنكومالى غير أن الأسطول لم يحدث أن استولى على اى سفينة للقواسم داخل المياه الهندية ولذلك كان القراصنة يسرحون

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨١٩/١٠/٩.

ويمرحون بالقرب من ساحل بومباى ، غير أن الطراد ابدن كان أحسن حظا ففى الأسبوع الأخير من ديسمبر التقى بمجموعة من سفن القواسم وعددها نحو ثمانية بالقرب من أم القوين واستطاع ان يغرق ثلاثة منها قبل أن تتمكن الباقية من الفرار (١) .

كان نشــاط القراصــنة والقواسم فى ذروته فى ذلك الوقت ولكن النهــاية كانت وشــيكة فى البحر ، وكان القواسم يتحــدون أعداءهم بكل وقاحة . غير ان المراحل الأولى لنهايتهم جاءت على مشارف الدرعيــة وقد تأخر استيلاء ابراهيم باشا على عاصمة الوهابيين بسبب وقوع انفجار فى القطار الذى كان يحمل الامدادات الى جيشه ، وكان ذلك فى شهر يوليو وعلى امتداد شهرين بينما كان ابراهيم ينتظر وصول الامدادات المطلوبة اضطر الى توزيع قواته على مختلف المناطق التى كان يسيطر عليها وذلك لفرض النظام عليها ، وقد شن هجومه الأخير على الدرعية فى بداية سبتمبر وبعد أن استطاع اكتساح التحصينات الخاصة بالوهابيين وطلب منه الأمير عبد الله أن يتقدم اليه بشروط استسلام ولكن ابراهيم باشا رفض اقتراح عبد الله وأصر على الاستسلام بدون شرط أو قيــد كمــا طلب الى الأمير عبد الله بأن يسلم نفسه ، وقد وافق عبد الله ، وفى يوم ٩/٤ سلم نفســه وعددا من أفراد عائلته الى القائد المصرى ، وقد دمرت الدرعية تدميرا تاما بحيث تحولت الى انقاض وأرسل عبد الله أسيرا الى القاهرة ومنهــا الى القسطنطينية حيث جرى فى نهاية العام اعدامهم جميعا فى مكــان عام بميدان سانت صوفيا (١) وشهدت الشهور الاخيرة من سنة ١٨١٨ نهاية للحروب التى كانت تشنها الولايتان الهنديتان مهراتا وبندارى على البريطانيين وأتاح هذا ولأول مرة منذ سنوات للحكومة البريطانية الفرصة لتوفير القوات اللازمة للعمل خارج الهند دفاعا عن مصالحها ومصالح رعاياها الهنود .

---

(١) التقرير الادارى للمقيم البريطانى ١٩٠/١ من الكابتن اف — لوك الى كنج ١٨١٨/١٢/٢٧ و ٢ يناير ١٨١٩ ومرفقات لخطاب كنج لكروكر من الطراد مندن ١٨١٩/٢/١٥ (رقم ٧٣) .

(١) منجم فصل ٢ ص ١١٩ — ١٣٤ وصبرى سدلز ص١٢٠ — ١٢١ وفلبى ص ٩٩ — ١٠٢ .

الفصل الرابع

الحملات العسكرية ضد موانىء القراصنة

١٨١٩ — ١٨٢٠

بدات حكومة بومباى استعدادها لشن هجوم على معاقل القراصـنة فى الخليج خلال صيف ١٨١٨ ، وذلك بعد أن وضع الكابتن روبرت تايلور الوكيل البريطانى السياسى المساعد فى تركيا العربية تقريرا عن مواقـع وموارد الموانىء الرئيسية للقراصنة ، وعن حجم قوتهم القتالية والبحرية ، وخلافاتهم السياسية (١) . وقد تم وضع ذلك التقرير بناء على طلب نبين ، وحسب رأى تايلور فان الموانى الرئيسية الواقعة فى سـاحل الخليج التى تنطلق منها أعمال القراصنة هى راس الخيمة ، الجزيرة الحمراء أم القوين ، عجمـان ، الشـارقة ، دبى ، والى الشـمال زبارة وخـور حسن والقطيف والعقير ، كما ان أبوظبى وهو الميناء الرئيسى عند بنياس وموانى لنجه وخرك على الجانب الفارسى للخليج والتـابعة للقواسم تعتبر داخلة ضـمن ذلك النشاط (٢) . كذلك فان الضباط التابعين لبحرية بومباى قد زودوا نبين بمعلومات اضافية عن امكانيات القراصنة البحرية ، وقد جاء بتلك المعلومات بما يفيد انه فى وسع القبائل البحرية أن تقذف الى البحر بـ ٨٩ سفينة حربية كبيرة ، و ١٦١ سفينة أصـغر ، ويبـلغ عدد رجـال هـذه السفن اكثر من ١٠٠٠٠ مقاتل (٣) كما أن البريجدير جنرال ليونيل سميث الذى قاد حملة

---

(١) اعيد طبع هذا التقرير (مختـارات حـكومة بومبـاى مجـلد ٢٤ ص ١ — ٤٠ وقد صـدر بعنوان مقتطفات من ملاحظات تتعلق من الناحيـة التاريخية او بغيره من المعلومات المتعلقة بعمان ، مسقط ، البحرين وهرمز وقشم وخرك وغيرها من الموانى والمناطق فى الخليج الفارسى) .

(٢) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ، ص ١٤ — ١٨ وايضا ٣٧ يضيف تايلور ان بنياس لم يكونوا يمارسون القرصنة فى اعالى البحار .

١٨٠٩ ، ابلغ نبين بأن عملية القضاء على القواسم ومعاقلهم قضـــاء مبرما تتطلب ما لايقل عن ٣٠٠٠ رجل تعززهم قوات من الدفعية (١) .

حول نبين كل هذه المعلومات الى الحاكم مويرا (الذى أصبح فى ذلك الوقت الماركيز أوف هستنجز) وذلك فى شهر سبتمبر ١٨١٨ ، وقد عززها باقتراح لاعداد حملة وارسالها على وجه السرعة الى الخليج ، كما طلب نبين أن يعرف وجهة نظر الحاكم العام حول عدد من النقــاط المتصـلة بالاهداف السياسية والعسكرية للحرب ، وعما اذا كان الحــاكم العام ينوى توطيـد السلطة البريطانية فى الخليج منعا لعودة نشاط القراصنة فى المستقبل والى اى حد سيكون من المتوافق مع سياسة الحكومة أن تضع الساحل الجنوبى الخليج ساحل القرصنة ــ وجزيرة البحرين تحت سلطة السيد سعيد ؟ .

وهل تتجه النية الى الاســتعانة برحمة بن جابر زعيم القراصـــنة فى خور حسن للعمل ضد خصومه القواسم (٢) ؟ وقد رد هستنجز فى شهر نوفمبر على نبين يقول : أنه من خلال دراسته للمعلومات التى زوده بها يرى انه لابد من اعداد حملة أكبر مما اقترحه الجنرال سميث ، اذا أريد سحق القواسم سحقا تاما . . . . ، وان أى محاولة لا تصل الى حد ضرب قوة القواسم فى الصميم ، فانها ستكون بدون جدوى ، وستضـطرنا بعد مضى فترة من الوقت الى أن نعاود الهجوم عليهم فى الوقت الذى ستكون فيه استعداداتهم قد قويت) (٣) . ان العملية سوف تحتاج الى ٥٠٠٠ رجـل على الأقـل فى رأى هستنجز ، وأن قوة بذلك الحجـم لا يمكن توفيرها من الهنـد قبـل أن ينتهى موسـم العمليـات القادمة فى الخليج ، أى من نوفمبر الى مارس ، وبالتالى فان الحملة ينبغى

---

(١) فارس والخليج الفارسى مجلد ٣٢ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٢٠/٨/٩ م.

(٢) نفس المصدر مجلد ٣٨ .

(٣) محادثات بومباى السرية مجلد ٣٨ محـادثات رقم ٥ بتاريـخ ١٨١٩/١/٥ من الحاكم العام الى مجلس الحاكم فى بومباى ١٨١٨/١١/٧ .

تأجيلها لمدة عام واحد على الاقـل ، وذكر هستنجز بأن مثـل ذلك التأخير سوف يكون لمصلحتهم ، وقد كانت الأخبار التى ترد من الجزيرة العربية تشير الى أن ابراهيم باشا سوف يتمكن فى نهاية العام من التغلب على الوهابيين ، وأن احتلال نجد والاحساء من قبـل المصريين سـوف يحرم القواسم من الحصول على المساعدات التى كانوا يحصلون عليها من الوهابيين ، وقد يكون من الملائم ايضا دعوة ابراهيم باشا للاشتراك فى عمليات مشتركة ضد رأس الخيمة ، على أن يهاجم البريطانيون من البحر ويغطى جيش ابراهيم باشـا الهجـوم من البر . كمـا يمكن لجيش ابراهيم باشا أن يرابط فى المنطقـة لحمايتها . اما المسائل الاخرى التى أثارها نبين فى خطابه ، فقد رأى هستنجز أنه من الأفضل ارجاء أى قرار بشأنها ريثما يقترب موعد الهجوم .

بعد مرور بضعة أسابيع على رسالة هستنجز ، ابلغ المقيم البريطانى فى بوشهر فى تقرير له ، عن سقوط الدرعيـة ووصـول الجيوش التركية والمصرية على شواطىء الخليج وفى يوم ٢ يناير كتب هستنجز الى ابراهيم باشا يهنئه على انتصاره ، ويوجه نظره الى المعلومات والاخبار التى كانت رائجة عن أن ابراهيم باشا ينوى اخضاع حلفـاء الوهابيين وعلى الاخص القواسم . ولما كان القواسم هم أعداء للحكومة البريطانية أشـار هستنجز بأنه سيكون من المصلحة القيام بعمل مشترك ضدهم ، فان كان ابراهيم باشا يقر هذا الرأى فعليه أن يتخابر مع نبين فى بومباى (١) . غير أن نبين نفسه لم يكن مقتنعا بوجهة نظر الحـاكم العـام وفى الوقت الذى كان يرحب بأى مساعدة يمكن أن يقدمها ابراهيم باشا لضرب القواسم فانه لم يكن يعتقد كما كان يتصور هستنجز أن مستقبل الاستقرار والهدوء يعتمد على فرض السـيطرة المصرية التركية على سـواحل الخليج وبالأخص أن مجلس ادارة

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٠ محادثة رقم ١٧ بتاريخ ١٨١٩/٤/١٧ من هستنجز الى ابراهيم باشا ١٨١٩/١/٢ .

الشركة سبق له فى يناير السابق أن وضـــع خطة لسياسة التهـــدئة والمرونة وأن الاستمرار فى تلك السياسة سيكون فى مصـــلحة حـكومة الشركة فى الهند فى السنوات المقبلة (١) . وذلك يعنى أنه لا مجال هناك للاطلاع بأعباء جديدة خارج حدود المناطق الخاضعة للشركة . وعلى أساس هذه الاعتبارات ، تقدم نبين الى المجلس فى بداية ١٨١٩ بخطة تقوم على تسوية سياسة فى الخليج بعـد أن يتم التغلب على القواسم ، تهدف الى تأمين الأمن والتجارة والملاحة الهندية فى مياه الخليج دون توريط الحكومة البريطانية بأى التزامات ليست من مصلحتها .

وكان العنصر الأســاسى للخطة أن السلام فى الخليج يمكن أن يتحقق بشــكل أفضل عن طريق دعم وتوســيع نفوذ حــاكم مسقط السيد سعيد ، بانشاء قاعدة بريطانية فى موقـع استراتيجى بالقرب من مضيق هرمز ، وعلى حين يرى نبين بأنه يمكن أن يعهد بحمــاية الســاحل العربى من راس الخيمة غربا حتى الكويت الى السلطة المصرية التركيـة المشتركة فان المنطقة الممتدة من شمال راس الخيمة وشبه جزيرة مسندم يجب أن توضـــع على الفور تحت السيطرة المباشرة للسيد سعيد ، كما ينبغى وضـــع البحرين ايضا تحت سيطرة السيد سعيد ، ليس ذلك انتقاما على تواطئها مع القواسم، وانما لدعم موارد السيد سعيد فى مواجهة المهمة التى ستلقى على عاتقه ، وفى المساهمة فى نفقات انشاء القاعدة البريطانية والاحتفاظ بها . وكان من رأى نبين أن أفضل موقع للقاعدة هو جزيرة قشم ، التى لا تبعد الا مسيرة

---

(١) مسودات مجلس الادارة من مضمون تقرير سرى مجلد ٥ صيغة خطاب الى الحــاكم العام بتاريــخ ١٨١٨/١/٥ وقد ورد هــذا الخطاب من (شركة الهند الشرقية) ١٧٨٤ — ١٨٣٤ بقلم س اتشه فيلبس ص ٢١٩ طبعة مانشستر ١٩٤٠ :٠:

ساعات من ساحل جزيرة القرصنة ، والتى كانت خاضعة ، كما يعلم ، لسلطة السيد سعيد (١) .

على أن الخطة كانت تنطوى على ثغرات كثيرة ، ربما لم ينتبه اليها نبين عند وضع ذلك الاقتراح فقد بذل جهدا شاقا لكى يبرر رأيه باخضاع البحرين عن طريق القوة عقابا لها على تواطؤ آل خليفة مع القواسم . . . .

وجاء فى تقريره ، بأنه لا مجال للشك فى أن الحماية التى قدمها شيوخ آل خليفة للقواسم كانت تبرر فى تصورنا اتخاذ الاجراءات التى قد تساهم فى تجريدهم من السلطات التى يمارسونها كما أشار فى التقرير الىالاحتلال السابق للجزيرة من جانب العثمانيين والى الاتفاق الذى قيل انه قد تم بين فتح على شاه والسيد سعيد بتنازل الاول عن سيادته على البحرين مقابل زكاة يدفعها سعيد للشاه بعد استيلائه على الجزيرة . غير أن ما لم يلحظه نبين ، أو ربما يتجاهله ، هو ان اخضاع البحرين وجزء من ساحل القرصنة لمسقط سوف يؤدى الى ظهور القرصنة من جديد ، لان آل خليفة والقواسم سوف يتحدون فى هذه الحالة لتحرير انفسهم من سيطرة العمانيين ، وكان من المشكوك فيه ماإذا كان فى مقدور السيد سعيد اخضاع تلك القبائل على الاطلاق ، خصوصا وأن القواسم استطاعوا أكثر من مرة اجتياح منطقة الشميلية من عمان بالاضافة الى الطرف الشمالى من ساحل الباطنة ، كما استطاع آل خليفة أن يصدوا بسهولة الهجمات التى شنتها عليهم مسقط .

ولقد لفت فرانسيز واردن الأمين الاول للحكومة والعضو المؤقت للمجلس نظر نبين الى هذه الحقائق فى اجتماع عقده معه يوم ٣ ابريل ، فاستهل

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ ، ١٨١٩/٤/١٤ مسودة خطاب من نبين الى الحاكم العام .

واردن بيانه بالهجوم على نبين على الدور الذى حاول أن يتقلده كمحكم فى نزاعات الخليج وهو دور ، حسب اعتقاد واردن ، يشكل خطرا ولا لزوم له ، وقال بأنه لا يهم الحكومة البريطانية فى شىء أن تخضع بلدان الخليج لأى دولة من الدول ، طالما أن الهـدف الرئيسى الوحيـد من سياستنا هو القضاء على القرصنة (١) . فاذا كان نبين يصر على مبدأ التدخل فى سياسة الخليج فان عليه أن يحترم حقوق ومطالب مختلف الحـكومات والامارات الواقعة على سواحله ، فحقوق حكومة فارس وحكومة تركيا ، بالاضافة الى حقوق القبائل العربية التى استطاعت ان تحافظ على استقلالها عن طريق أخطاء لتلك الدول ، الأمر الذى يجب وضعه فى الاعتبار قبل أن نضـع الخطط والاقتراحات لانقسام الخليج ، هذا ما قاله واردن . وقد انصب اعتراض واردن على الخطة على الاقتراح الخاص بتوسيع سلطات السيد سعيد ، واخضاع البحرين لحكمه .... بما أن تصاعد نشاط القراصـنة فى منطقة الخليج انما يعود الى حد كبير الى السياسة غير الحكيمة التى ينتهجها السيد سعيد تجاه بعض القبائل المستقلة التى استطاعت فى بعض الاوقات ان تهز كيـان دولته فينبغى عليه أن يظهر قـدرا أكبر من المرونة السياسية تجـاه تلك القبـائل فى المستقبل . فاذا شـاءت الحـكومة البريطانية أن تجامل كل من يدعى السيادة على البحرين ، فان الأولى بهـا كما قال واردن ، أن تجامل الشاه بالضغط على آل خليفه بدفع الزكاة السنوية للشاه ، وكان واردن يتصور أنه من الأفضـل على أى حـال السماح لتلك الدويلات بالاحتفاظ باستقلالها ، وبأن تؤكد لها بأنها طالما امتنعت عن أعمـال القرصنة فان الحكومة البريطانية ستظل معترفة باستقلالها ، بل وستقوم بتأييد ذلك الاستقلال . وعلى أية حال ، كما يرى واردن ، فانه لم يكن من الحكمة اتخاذ أية قرارات سياسية فى الموضوع قبل أن تتضح نوايا ابراهيم

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ بتاريخ ١٨١٧/٤/١٤ بيان وارد ١٨١٧/٤/٣ .

باشا وأنه فى امكان المبعوث البريطانى الذى سيقوم بتسليم رسالة هستنجز المؤرخة ٢ يناير والسيف التقليدى المرسل هدية اليه من الحاكم العام أن يتناول هذا الموضوع .

كما سيتعين عليه أن يتحقق بصورة خاصة ، عما اذا كان ابراهيم باشا يزمع القيام بفتوحات أخرى على سواحل الخليج ، فان وجد لديه هذا الاتجاه فينبغى عليه بأن يوضح له بأنه فى الوقت الذى تعتبر بريطانيا أن تصفية القرصنة هو هدفها الوحيد الا أنها فى نفس الوقت تشاركه فى ضمان حقوق مختلف الدول الواقعة على سواحل الخليج كما أن عليه بأن يؤكد على نقطة أخرى وهى ان أية مساعدة قد تقدمها اليه بريطانيا فى حربه ضد حلفاء الوهابيين تقوم على شرط موافقته على احترام حقوق تلك الدول . (١) .

وعلى أى فقد كان الغموض يحيط بوجهة النظر التى تقدم بها واردن ولهذا فان نبين لم يعر تلك المقترحات أى اهمية غير أن اثنين من أعضاء المجلس الاخرين وهما جى برندرجاست والكسندربيل رأيا أن فيها من النقاط ما يستحق الاهتمام . ونظرا لهذا الانقسام فى الرأى فقد رأى نبين ان يرجىء اتخاذ أى قرار حول هذه السياسة الى أن تتضح خطط ابراهيم باشا ، وأن كان قد وافق على اقتراح واردن بأن يتم ابلاغ موافقة بريطانيا على السماح لقوات ابراهيم باشا بالمرابطة فى رأس الخيمة عند الاستيلاء عليها شفويا وليس كتابيا ، أى عن طريق المبعوث المكلف بتسليم رسالة الحاكم العام ، والسيف (٢) . المهدى اليه وقد اختير لهذه المهمة الكابتن جورج فوستر سادلر من الفرقة السابعة والأربعين ، وصدرت له التعليمات

---

(١) راجع بيان واردن بتاريخ ١٨١٩/٤/١١ خلال نفس المحادثات .

(٢) محادثات بومباى السرية رقم ١٧ مجلد ٤٠ — ١٨١٩/٤/١٤ بيان نبين ، انظر ايضا نفس المحادثات ، وبيان برندر جاست ١٨١٩/٤/٢٠ وبيان الكسندر بل .

يوم ٤/١٣ ، وكان عليه أن يتوجه الى القطيف أو العقير على ساحل الأحساء ، ومن هناك يواصل رحلته الى الدرعية فى الداخل حيث كان ابراهيم باشا يرابط هناك ، وعند وصوله الى الدرعية يقوم بتسليم الرسائل الى ابراهيم باشا وكانت هذه التعليمات تتضمن ما يلى :

بأنه خلال اقامتك فى المعسكر التركى عليك ان تحاول بما اوتيت من براعة وبمنتهى اللباقة المتاحة التعرف على طبيعة موقف ابراهيم باشا بالنسبة الى قيامه بفتوحات أخرى على السواحل العربية والخليج دون أن تظهر بأن لك أى مصلحة مادية فى هذا الأمر (١) وانما من خلال المباحثات التى ستجريها من غير أن يشير الى أى شىء قد يؤدى الى توريط الحكومة البريطانية فى الاعتراف بفتوحات جديدة لابراهيم باشا فى شرقى الجزيرة العربية ودون أن تشير فى تلك المباحثات الى موضوع الهند ، كما كلف المبعوث بأن يتوقف فى مسقط للتأكد مما اذا كان السيد سعيد لديه الرغبة فى التعاون مع المصريين فى الحملة المقترحة على ساحل القرصنة .

أبحر سادلر من بومباى فى ١٨١٩/٤/١٥ وقد حال سوء الأحوال الجوية من نزوله فى مسقط قبل منتصف مايو ، وعند مقابلته للسيد سعيد تبين له بأن السلطان يعارض بشدة فكرة التعاون مع ابراهيم باشا وقد اكد السيد سعيد لسادلر بأنه لن يشترك فى الحملة اذا اشترك المصريون فيها الا اذا أمكن نقل القوات التى سيساهم بها عن طريق البحر ، وعدم اختلاطهم بالمصريين . ولم يقدم السيد سعيد تفسيرا لطلبه هذا أكثر من انه أشار الى أن حكمه قد يتعرض للخطر لو قبل التعاون مع المصريين (٢) . وقد

---

(٣) محادثات بومباى السرية نفس المجلد والرقم والتاريخ ، والتعليمات المعدلة لسادلر . انظر ايضا التعليمات الاضافية ١٨١٩/٤/١٤ .

(١) نفس المصدر مجلد ٤١، محادثات رقم ٢٩ بتاريخ ١٨١٩/٧/٢١ من سادلر الى الحاكم فى ١٨١٩/٥/١٥ .

كانت معارضة السيد للاشتراك فى الحملة مفاجأة تامة لسادلر لتناقضها مع موقفه السابق عند ما زار الكابتن تايلور فى شهر يناير ليسلمه رسالة خاصة من نبين تتضمن قرار هستنجز بدعوة ابراهيم باشا للتعاون ضد القواسم . وقد أكد له نبين فى الرسالة المذكورة بأنه ليس هناك ما يمكن أن يخشاه سعيد من وجود المصريين فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، لأن ابراهيم بشا كان يعلم حق العلم روابط الصداقة القائمة بين مسقط والحكومة البريطانية (١) .

وفى رد السيد سعيد على رسالة نبين أعرب عن سروره بنجاح ابراهيم باشا فى معاركه ضد الوهابيين وقال بأنه على استعداد لتزويد ابراهيم باشا بالسفن اللازمة لنقل الجنود اذا قرر الأخير العمل ضد القواسم . (٢) .

فما الذى جد بعد ذلك مما دعا السيد سعيد الى تغيير موقفه ؟
يبدو من الوهلة الأولى ان محادثاته مع الكابتن تايلور كانت ذات طابع اكاديمى. فى ذلك الوقت كان ابراهيم باشا على بعد ١٠٠٠ ميل من حدود الخليج ولم يكن فى الحسبان أن يتحرك ابراهيم باشا نحو الجنوب الشرقى . ولعل دعوة هستنجز لابراهيم باشا للاشتراك فى احتلال راس الخيمة هى التى شجعته على المضى فى فتوحاته . وعلى أى حال فان ظهور قائد مصرى على المسرح فى المنطقة لم يكن يستسيغها السيد سعيد . وبعد سقوط الدرعية فى أيدى المصريين لجأ عدد كبير من مؤيدى آل سعود الى الحامية الوهابية فى البريمى ، وكانوا يروون القصص المفجعة عن فظائع ابراهيم باشا بعد استيلائه على عاصمة الوهابيين وبينما كان سادلر فى مسقط وصل اليها مطلق المطيرى قائد الحامية الوهابية فى البريمى وشقيق مطلق المطيرى ، لتقديم ولائه

---

(١) نفس الحلقات مجلد ٣٨ محادثات رقم ٥ — ١٨١٩/١/٢٠ من نبين الى السيد سعيد يناير ١٨١٩ .

(٢) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٠ رقم ١٧ بتاريخ ١٨١٩/٤/١٤ من تايلور الى الحاكم مسقط ١٨١٩/١/٢٩ .

للسيد سعيد (١) . وقد عرف السيد سعيد عن انتصارات ابراهيم باشا فى نجد من سادلر ولهذا كانت أنباء تلك الانتصارات راسخة فى ذهنه خلال محادثاته مع سادلر . وربما كان السبب الأساسى الذى دعا سعيد الى تحديد موقفه تجاه القائد المصرى هو خوفه من أن يكون القائد المذكور ينوى احتلال البحرين ايضا ، خصوصا وان سعيدا قد بدأ يتفاوض مع فتح على شاه للقيام بحملة مشتركة من العمانيين والفرس ضد البحرين ، وفى كل رسائل سعيد الى الشاه كان يذكره باستمرار باحتمال استيلاء ابراهيم باشا للبحرين، وكان يطالب الشاه بايفاد مبعوث خاص الى القاهرة لتحذير محمد على باشا من القيام بمثل هذه الخطوة غير أن فتح علي شاه لم يتحمس للموضوع ، خصوصا وان الحجاج الفرس عند زيارتهم لمكة عوملوا معاملة حسنة من قبل السلطات المصرية ولكن من ناحية اخرى لم يكن الشاه يقبل بوجود جار قوى كباشا مصر فى الخليج ، ولهذا قرر الشاه فى شهر ابريل سنة ١٨١٩ ان يوافق على طلب سعيد فى ارسال مبعوث الى القاهرة (٢) . غير أن هذه الفكرة لم تتبلور اطلاقا كما أن فتح على شاه قد شغلته الأحداث الداخلية وارتيابه فى نجاح خطة القيام بهجوم مشترك على البحرين . ولذلك لم يول مقترحات سعيد اى اهتمام ولعل موضع السرية فى هذه الخطة هو ان سعيد لم يكن يعلم شيئا حتى ذلك الوقت عن موقف تبين بالنسبة لمستقبل البحرين ، والا اتخذ موقفا أكثر مرونة من اشتراك ابراهيم باشا فى الحملة ضد القواسم .

---

(١) يروى سادلر ان بطال المطيرى بعد ان تعرض موقفه للخطر يئس من القواسم حلفاء لسابقين والذين كانوا يسعون الى الاستيلاء على حصن البريمى لانفسهم فقد اختار بطال المطيرى الطريق الاسلم وسلم نفسه الى السيد سعيد (انظر الى محادثات بومباى السرية مجلد ٤١ فى ١٨١٩/٧/٢١ من سادلر .

(٢) انظر محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٨ ١٨١٩/٧/١٤ ، من هنرى ولك القائم بالأعمال البريطانى فى طهران الى الحاكم العام ١٨١٩/٤/١٩ .

غادر سادلر مسقط يوم ١٨١٩/٥/١٨ وبعد اقامة طويلة فى بوشهر وصل القطيف يوم ٦/٢١ ، وهناك فوجىء بأن الأجزاء الداخلية من البلاد قد تمردت ضد المصريين وأصبح انسحابهم من نجد والاحساء بين ليلة وضحاها . وقد أعاد ابراهيم باشا تنصيب عائلة ابن غرير ، وهم فصيلة من شيوخ بنى خالد فى الأحساء باعتبارهم صنائع المصريين غير انه يبدو ان المشايخ الرئيسيين محمد وماجد ابنى غرير كانا غير راضيين عن قمع ثورة القبائل ، وقد علم سادلر من قائد الحامية المصرية فى القطيف بأن الوحدات المصرية التى تم توزيعها على مختلف مناطق البلاد قد تلقت اوامر بالتراجع بأسرع ما يمكن فى اتجاه معسكر الباشا الواقع على بضعة أيام من الشمال الغربى للدرعية ، وقد غادر سادلر القطيف يوم ٢٨ يونيه تحت حراسة أحد شيوخ ابن غرير ، وبعد أسبوعين وصل الى الهفوف فى واحة الاحساء حيث ابلغه الحاكم المصرى انه على وشك تسليم المقاطعة الى ابن غرير ، ومن هنا اصبح تعاون المصريين فى عملية اخضاع قبائل الساحل غير ذى موضوع .

وفى يوم ١٧ يوليو كتب سادلر من الهفوف رسالة الى نبين يقول فيها .

« من الواضح انه سوف يتمخض عن احتلال الاحساء وميناء القطيف واحتمال الوصول الى العقير الفوائد التى قد تتحقق من ضم راس الخيمة. فاذا اضطر الباشا الى التخلى عن هذه المناطق فليس من المحتمل ان يتمكن من المشاركة فى اى عمليات تهدف الى ضم اراضى جديدة لا يستطيع الاحتفاظ بها والتى قد تزيد نفقات الاحتفاظ بها على عوائدها . (١) .

---

(١) نفس الحلقـات محـادثات رقم ٣٠ ١٨١٩/٧/٢٨ من ولك الى الحاكم العام ١٨١٩/٥/٢٤ .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان سادلر يرى أنه لابد من تقديم مقترحاته فى هذا الشأن لحكومته ، وفى يوم ٧/٢٢ بعد حصوله على تعهدات من شيوخ ابن‌غرير غادر سادلر الهفوف عن طريق الاحساء بمعية القوات المصرية المنسحبة وقبل أن يتسلم نبين خطاب سادلر كان قد توصل من خلال التقارير التى كانت تصله من دار المقيم البريطانى فى بوشهر ، بأن احتمال قيام تعاون مع ابراهيم باشا لاخضاع موانىء القراصنة ينبغى أن يستبعد تماما كما لا يمكن أن تقوم الحكومة التركية بممارسة نفوذها على القبائل الساحلية من الكويت جنوبا وبالتالى أصبح يتعين على نبين أن يضع خطة بديلة لتحقيق الاستقرار على الشواطىء العربية بعد انتهاء الحملة وفى يوم ٧/٢١ وضع نبين خطته الجديدة وقدمها للمجلس ولم تكن تختلف كثيرا ولم يكتف نبين فى خطته بوضع الساحل غربا تحت سلطة السيد سعيد ، لكنه أيضا ادخل البحرين ضمن ذلك النفوذ ، حتى يتمكن من الانفاق على القاعدة البريطانية فى جزيرة قشم من عوائد البحرين (١) . وللمرة الثانية وجد نبين أن المجلس منقسم على نفسه حول مقترحاته فقد كان براندرجاست يعارض فكرة انشاء قاعدة بريطانية فى الخليج وذكر بأن السيد سعيد لم يكن له سلطة على جزيرة قشم ، عدا أنه يشرف عليها بمقتضى اتفاق عقده مع الشاه . وفى الوقت الذى كان واردن وبيل يتفق مع نبين على ضرورة انشاء مثل تلك القاعدة الا أنه كان يعترض على فكرة اخضاع البحرين لسلطة السيد سعيد (٢) .

---

(١) مذكرات سادلر ص ٢٤ - ٥٤ وفارس والخليج مجلد ٣٢٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٠/٨/٩ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٩٠ بتاريخ ١٨١٩/٧/٢١ مسودة خطاب من نبين الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

ولدعم هذا الرأى أبرز واردن رسالة حول هذا الموضوع تاريخهـا عام ١٨١٦ غير أن موضوع هذه الرسالة لم يرد فى المحادثات التى اجراها مع السيد سعيد على الاطلاق ، وفى صيف ذلك العام تواطأ السيد سعيد مع أمير فارس على شن هجوم مشترك على البحرين ، ولكى يوحى السيد سعيد الى آل خليفة ، بأن الحكومة البريطانية كانت تؤازره على ذلك الاجراء اطلق تلك الاشاعة كوسيلة لتهديد آل خليفة . وكان فحوى الاشـاعة أن الحكومة البريطانية كانت تفكر فى اغلاق موانى الهند فى وجه سفن العتوب، وبالفعل قد اثارت تلك الاشاعة المخاوف فى أوساط شيوخ البحرين ، مما دعاهم الى الاستفسار عن هذا الموضوع من المقيم البريطانى فى بوشـهر اللفتنانت بروس. وقد رد بروس على رسالة شيوخ البحرين بزيارة قام بها لهم فى شهر يوليو ١٨١٦ واكد لهم شخصيا بأن الاشاعة ليس لها أساس من الصحة ، وعقد معهم معاهدة صـداقة تعهد فيها بفتح الموانىء الهندية أمام سفنهم التجارية ، وعند رفع هذا الأمر الى الحكومة فى بومباى أشار بروس الى ان حكام البحرين (قوم مسالمون ويفضلون الأعمال التجارية على عمليات القرصنة) . وان علاقتهم الاخيرة بالقواسم تعود الى الهجوم الذى شنه السيد سعيد على بلادهم فى النصف الأخير من عام ١٨١٦ وخلال اشارة واردن الى التقرير الذي بعث به بروس الى نبين اعـاد الى ذاكرة الحاكم ما سبق أن أشار اليه فى شهر يناير ١٨١٦ من وجوب معاملة آل خليفة بطريقة تتسم بالتسامح بصرف النظر عن علاقاتهم السابقة بالقواسم ، كما أشار الى أنه بعد ان يتم التغلب على القواسم سوف تفقد البحرين اهميتها كمركز للقرصنة غير أن نبين لم يقنع بهذا الرأى كما لم يقنع بان سبب تعاون العتوب مـع القواسم فى عمليات القرصـنة يعود الى خوفهم من السـيد سـعيد أو أن الاتفاقية التى لم تتم الموافقة عليها كانت السبب فى الحد من التعامل مـع حكومة البحرين، وبما ان الظروف لم تتح للمجلس الاتفاق على تحديد مصير

الجزيرة فقد ترك أمر ذلك الى الحاكم العام لاتخاذ قراره فيه . (١) .

وقد أدى عدم اكتراث الحاكم بآراء زملائه ، الى أن يقوم واردن باعداد تقرير مستفيض حول السياسة البريطانية برمتها فى الخليج ، وهو التقرير الذى قدمه الى نبين وضمنه مجموعة من المقتطفات التاريخية عن الخليج حصل عليها من سجلات الحكومة (٢) . وزعم واردن فى تقريره بأن المحادثات التى دارت عن الخليج فى المجلس حتى الآن كانت تقوم على اسس سطحية ومعرفة غير تفصيلية بشئون الخليج ، وقال بأنه لابد أولا من الحصول على معلومات دقيقة عن الاسس التى تقوم عليه ادعاءات مختلف القبائل فيما يتعلق باستقلالها ، وهى الأسس التى يمكن بموجبها تحديد علاقاتنا معها على أساس مبادىء ، وهو ما يتفق مع حق الفرقاء فى وضع الأسس التى تزيد عليها لمصالحهم جميعا ، الا وهو القضاء على القرصنة واستئصالها (٣)وبالتالى فان مبدأ العدالة ودافع الخير سوف يفقدان معناهما لو عمل باقتراح نبين بوضع ساحل القرصنة تحت سلطة السيد سعيد . أما أن قبائل القرصنة ينبغى أن تلقى جزاءها فهذا امر لاخلاف عليه ، ولكن تجريدها من استقلالها واخضاعها لسلطة حاكم تمقته امر لا مبرر له .

ولعل ما أثار شكوك واردن فى خطة نبين هو محاولته التخلى عن مسئولية الاشراف على امن الخليج بعد ان تؤدى الحملة مهمتها ، وذلك بوضعها تحت سلطة السيد سعيد وبالتالى فان السياسة البريطانية فى الخليج كما كان واردن يعتقد بأن العوامل التى أدت الى انتشار الفوضى والعنف فى

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد رقم ٢٩ ١٨١٩/٧/٢١ من نبين الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

(٢) اعيد طبع هذه المقتطفات من مجموعة بومباى مجلد ٢٤ .

(٣) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٣٧ — ١٨١٩/٩/٢٠ بيان واردن فى ١٨١٩/٨/١٣ .

منطقة الخليج ، هى أطماع السيد سعيد غير المحدودة واطماع والده سلطان بن أحمد مع ان هذا هو الحاكم الذى يقترح نبين اسناد القيادة السياسية لدول الخليج اليه وقد جاء فى بيانه : —

« هل بسبب محاولات السيد سعيد اليائسة أو هل بسبب فشله الذريع فى عملية البحرين أو هل بسبب وضعه المتردى تعد العدة الآن لتنصيبه الزعيم الانسب لتحقيق سياستنا الرامية الى تحقيق الاستقرار فى الخليج ؟ ان المرء لا يحتاج الى كثير من الذكاء السياسى ليفهم بأن تأيدنا لسلطان مسقط فى تحقيق أحلامه فى البحرين سوف يؤدى الى نشر الفوضى والحروب فى المنطقة وتمهيد الطريق الى تجدد أعمال السلب والنهب والقرصنة » .

ولو اننا طبقنا سياسة نبين فىالخليج فانها سوف تؤلب علينا أعداءنافى الوقت الذى يمكننا ان نكسبهم الى صفنا خصوصا وأن هؤلاء الأعداء قد اثبتوا انهم أقوى نفوذا من الامام الذى هو حسب معلوماتى أقل الزعماء العرب شعبية فى الخليج .

فاذا كان لابد من وجود حليف لبريطانيا فى منطقة الخليج فهناك شيخ ابوظبى وشيخ الكويت ، فان هذين الزعيمين لم يشتركا فى اى نشاط للقرصنة فى الخليج ، أما بالنسبة لعتوب البحرين فان واردن لم يطلب لهم بأكثر من معاملة عادلة وبأن اشتراكهم فى أعمال القرصنة مع القواسم انما كان لسبب حبهم للتجارة أكثر من كونه طبعا متأصلا من طباعهم ، وبالتالى فلا يجوز أخذهم بجريمة غيرهم . واختتم واردن تقريره بالتحذير من اضاعة النتائج المحققة للحملة باتخاذ قرارات متسرعة وغير حكيمة .

ومن الأفضل لنا ان نتفادى مثل تلك القرارات وذلك بتكوين فكرة دقيقة وشاملة عن حقيقية المصالح المختلفة المتضاربة لتلك الدول وللثورات

الكثيرة التى شهدها الخليج . ولقد حاولت جهدى ان اجمع واقدم مثل هذا التقرير وهذه المعلومات وغيرها من الآراء التى يمكننا على ضوئها ان نتخذ قرارا سديدا فى هذه المسألة ، فاذا لم تخضع عملية تدخلنا لاحترام حقوق مختلف الدول التى تعيش على سواحل الخليج واذا عمدنا الى اخضاع دولة لأخرى بطريقة عشوائية وعنيفة فاننا سوف نساعد على انتشار المزيد من أعمال القرصنة بدلا من أن نزيل ما هو قائم بينها . اننا ينبغى ان نكسب ثقة العرب ورضاهم من خلال التصرف بالحكمة والعدالة . واخيرا فان انتهاج خط سياسى مخالف لهذا الخط سوف يجلب علينا عداوة العرب فى منطقة الخليج (١)

غير ان نبين لم يول هذا التقرير الاهتمام الذى يستحقه فقد اعتبر تقارير أمينه الأول من النوع الذى قد يفيد بعض قواد الحملة ، وبالتالى فقد ابلغ المجلس انه متمسك بآرائه التى يؤيده فيها ، كما قال،اكثرية الضباط فى الأسطول وفى القوات المسلحة ممن قاموا بزيارات كثيرة لموانىء الخليج (٢) ولكنه على اى حال أبدى استعداده لارسال بياناته وتقريره الى الحاكم العام رغم انه كان واثقا من أن الحكومة السابقة فى بومباى كانت على اطلاع مستمر بشئون الخليج . غير أن هستنجز لم يكن يشاركه ذلك الموقف ، ففى ٢٨ اغسطس كتب يقول : انه لا يستطيع اتخاذ اى قرار فى المسائل التى احيلت اليه فى شهر يوليو من نبين وعلى الأخص فيما يتعلق بموضوع البحرين قبل استكمال المعلومات فى ذلك الشان اما اذا كان الموضوع يتطلب سرعة البت فان ذلك من شأن نبين وحده . وعلى اى حال فقد اصر الحاكم العام على نقطتين ، اولهما ان اقامة قاعدة دائمة فى الخليج

---

(١) محادثات حكومة بومباى رقم ٣٧ مجلد ٤١ — ١٨١٩/٩/٢٠ بيان واردن فى ١٨١٩/٨/١٢ .

(٢) نفس الحلقة من بيان نبين ١٨١٩/٩/٦ .

أمر غير مرغوب فيه الا اذا تكفل سلطان مسقط بدفع نفقات تلك القاعدة أو تم تدبير تلك النفقات من مصادر اخرى كعائدات الجمارك مثلا ، وقال بأنه مهما كانت التدابير السياسية التى يرى نبين اتخاذها بالنسبة لدول القرصنة فانه لابد وأن يتجنب كل انواع التدخل فى شئون الدول العربية فيما عدا ما يتصل بتنفيذ الخطط الخاصة بمكافحة القرصنة . (١)

وهكذا جاء الرد على غير ما يهوى نبين، وبخاصة بعد ان انتقلت موضوعات رسم السياسة الى الحاكم العام ، فبالنسبة للبند الوحيد الذى اتفقت حوله آراء كل من نبين واعضاء المجلس وهو انشاء قاعدة دائمة ومرابطة قوة عسكرية فى الخليج ، فقد عارضه هستنجز معارضة تامة . أما بالنسبة للنقاط الاخرى فلم يعط هستنجز رأيه فيها اطلاقا ، وكان يجرى بسرعة وكانت الحملة التى كان يجرى اعدادها فى بومباى خلال صيف ذلك العام قد أوشكت على الانتهاء ، وكان قائدها فى انتظار التعليمات الخاصة بتوزيع قواته بعد أن تكون القوة قد فرغت من مهمتها ، والواقع أن نبين لم يكن على خلاف مع اعضاء مجلسه فحسب بل ان مدة خدمته كانت على وشك الانتهاء ايضا . فقد أخذت صحته تسوء كما كانت اكثرية القرارات الخاطئة التى اتخذها يعود سببها الى تدهور صحته ، وحتى عندما أبلغه الماجور جنرال السير وليم جرانت كير قواد الحملة فى شهر اكتوبر انه يستعد للابحار كان نبين لايزال مترددا فى موقفه ، ولم يكن أمامه مفر من صرف النظر عن الخطوط الرئيسية للسياسة . وأبلغ القائد كير بأنه سوف يتلقى التعليمات الخاصة بالأهداف السياسية للحملة فيما بعد اما منه شخصيا او من الحاكم الذى سيخلفه . وفى يوم ٢٨/٢٧ اكتوبر صدرت التعليمات العاجلة الى كير بالاقلاع الى رأس الخيمة والاستيلاء عليها وتدمير اسطول القواسم

---

(١) نفس الحلقة مجلد ٤٢ رقم ٣٨ – ١٨١٩/٩/٢٩ من الحاكم العام الى مجلس الحاكم في بومباى – ١٨١٩/٨/٢٨ .

الحربى وجميع مستودعات الذخيرة والمخازن الحربية كما ابلغ بأن يتوجه بعد ذلك الى الشارقة فالجزيرة الحمراء فعجمان وغيرها من سواحل المنطقة ممن لها علاقة بالقرصنة وتدمير المعدات والسفن التابعة لتلك المشيخات ، كما ابلغ كير بأنه قد يحصل على مساعدة من السيد سعيد حاكم مسقط بعد أن أصبح اشتراك ابراهيم باشا فى العملية أمرا مستبعدا . وقد تم ارسال خطاب الى أمير اقليم فارس يتضمن شرحا لأهداف الحملة ودعوة الى الأمير للشاركة فى العمليات التى سوف تتخذ ضد موانىء القرصنة الواقعة على الساحل الفارسى من الخليج مع التأكيد على احترام حقوق السيادة لفارس ، كما كلف القائم بالأعمال البريطانى فى طهران ببذل أقصى جهد فى وسعه لتطمين حكام فارس من وجود الأسطول البريطانى فى المياه الفارسية بأعداد كبيرة ، وقد حذر كير فى الأوامر التى اعطيت اليه من محاولة استخدام قواته على أى منطقة من الساحل تتعدى المسافة اللازمة لاطلاق نيران مدفعيته على تجمعات سفن القواسم ، وقيل لكير انه بعد أن يقوم بالاستيلاء على راس الخيمة أن يضع فيها قوة بريطانية ترابط فيها ، وربما تصل معلومات من سادلر عن مدى استجابة ابراهيم باشا لمقترحات الحاكم العام بشأن الاحتلال المشترك للمشيخة ، كما طلب الى كير بأن يقترح موقعا فى الخليج يصلح لاقامة قاعدة بريطانية دائمة (١) .

لم يصل من سادلر أى خبر منذ أن بعث برسالته من الهفوف والتى ذكر فيها بأنه يعتزم مرافقة القوات المصرية فى طريق انسحابها من الاحساء

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٢ رقم ٤٥ — ١٨١٩/١٠/١٧ من واردن الى كير ١٨١٩/١٠/٢٧ ومجلد رقم ٤٦ — ١٨١٩/١١/١ من واردن الى كير ١٨١٩/١٠/٢٨ لقد تقاعد واردن وتسلم منصبهم كامين اول عند وصول القائد العام الجديد لجيش بومباى للفتنانت السير شارلس كوولفيل والذى كان يشغل منصبه مؤقتا .

وقد بقى أحد الطرادات البريطانية عدة اسابيع على ساحل الخليج فى انتظار أخبار من سادلر الا انه لم تصل اخبار من داخليه البلاد (١) وقد غادر سادلر الهفوف يوم ٢٢يوليو فىصحبةالفيلقالمصرى الذىخرج يشقطريقهببطء،بينما كانت الجمال تنفق والبدو يتذمرون والترك يسبون ويشتمون ، وقد علم فى المنطقة الواقعة على بعد عشرة أميال جنوب شرق الدرعية بأن حامية السلامية الواقعة الى الجنوب والتى كان من المفروض أن تنضم الى الفيلق الرئيسى قد حوصرت من قبائل محمات مما اضطر نصف افراد الفيلق الى الانفصال والتوجه الى الحامية لفك الحصار عنها وبالتالى فان الفيلق لم يتمكن من الوصول الى الدرعية قبل ٨/١٣ وقد صدم سادلر من الوحشية التى استعملها ابراهيم باشا فى تدمير البلدة فقد سوى تحصيناتها بالأرض وأحرق كل ما كان فيها من مزروعات وحدائق وقال بأننى لم التق خلال تجوالى فى انقاض تلك البلدة بأثر لأى انسان (٢) .

كان ابراهيم باشا قد غادر المعسكر الى الحجاز ولكن كان من الممكن أن يلحق به سادلر ولذلك فقد قرر أن يمضى اليه ، ولقد ظل الفيلق يسير لعدة أيام فى المناطق الغربية والشمالية من الدرعية خلال منطقة مقفرة ووسط انقاض البيوت والحدائق دون ان يكون هناك وجود لأى انسان ،

---

(١) ربما كان وجود الطراد سببا لانطلاق تك الاشاعة التى رواها منجى فى مؤلفة تاريخ مصر فصل ٢ ص ١٦٠ — ١٦٢ وهى ان البريطانيين قد قاموا بهجوم فرعى على القطيف لدعم ابراهيم باشا واعادة التجارة البريطانية ويروى فلبى فى كتابه (العربية السعودية) (طبعة لندن ١٩٥٥ ص ١٤٨ — ١٤٩) قصة يبدو انها انتشرت داخل البلد عن انزال بريطانى على الساحل والذى ربما كان قد بدأ فى نفس الوقت او خلال زيارة الكابتن واردن لخون حستن فى — مارس ١٨١٠ .

(٢) المذكرات ص ٥٥ .

وعند وصول الفيلق الى الشقرة هرب نصف قبائل بنى خالد بما فى ذلك حرس سادلر بعد أن شاهدوا المصريين يقترفون أعمالا بربرية ضد بعض البدو ، وبعد ذلك ببضعة أيام قام القائد المصرى بطرد بقية أفراد هذه القبيلة واستبقى جمالهم معه، وبعد أن رحل هؤلاء لم يعد هناك أمل لسادلر فى العودة الى الخليج فبدون جمال ومرافقين وبدون حرس ومع اضطراب الحالة فى المنطقة الواقعة لم يكن أمام سادلر الا مواصلة السير مع الفيلق وفى يوم ٢٤اغسطس وصل الفيلق الى عنزه التى «تعتبر من الوجهة الجغرافية والسياسية والتجارية قلب الجزيرة العربية (١) وبعد مضى يومين وصل الفيلق «الرجس» وهناك علم سادلر أن ابراهيم باشا قد غادر المنطقة الى المدينة فى نفس اليوم الذى وصل فيه سادلر الى عنزه، وقد قرر سادلر عندئذ أن يقطع مهمته ويطلب حرسا لمرافقته الى البصرة ، غير أن نائب الباشا أو السكرتير الاول .. الذى عهد اليه بالاشراف على عملية الانسحاب فى منطقة الرص رفض طلب سادلر بحجة ان الرحلة ستكون شاقة جدا وان كان كما علق سادلر بأن القائد المذكور لم يكن يعرف اى شىء عن جغرافية البلد التى ظل سيده يحارب فيها لمدة ثلاث سنوات ، وكان كالطفل الذى لم يغادر أسوار مدينة القاهرة (٢) . ولاضطرار سادلر البقاء مع الفيلق فقد ظل يسير معه حتى ساءت صحته وانتابته الحمى وتعرض لاهانات المصريين كما هاجمه البدو وسرقوا ما معه من متاع ونقود ، واخيرا فى الأسبوع الأول من سبتمبر وصل الفيلق الى مشارف المدينة المنورة وكان فى استقباله احد رجال الباشا الذى صحبه الى معسكر الباشا فى مدينة بير بالقرب من المدينة .

وفى يوم٩/٨ كانت اول مقابلة مع الباشا وفى مقابلته الثانية فى اليوم التالى قدم سادلر سيف وخطاب الحاكم العام، وقد أعرب ابراهيم باشا عن

---

(١) المذكرات ص ٦٦ .

(٢) المذكرات ص ٧٢ .

اسفه بأنه لم يعلم بالخطة البريطانية مبكرا أو قبل ذلك وخاصة انه كان قد ابدى اتصالا مع السيد سعيد بعد سقوط الدرعية مباشرة ، وأنه قد تلقى منه عرضا بالتعاون معه ضد القواسم غير انه لم يصله اى شىء من مسقط بعد ذلك الخطاب ، كما قال بأنه لا يستطيع أن يرد ردا قاطعا على مقترحات الحاكم العام قبل احالة الموضوع الى والده محمد على باشا ، ولذلك طلب من سادلر أن يتوجه الى جدة لينتظره هناك حتى وصول محمد على باشا للحج ، وبقى سادلر ينتظر مدة شهر وفى جدة تعرض هناك لاصابة شديدة من الحمى ، فلم يتمكن من مقابلة ابراهيم باشا قبل ٢٩ اكتوبر ، وقد وجد الباشا مترددا ولم يقل سببا حاسما عن موضوع اتصاله بالقاهرة او ان يرتبط باعطاء رد كتابى على مقترحات الحاكم العام ، كما قال بأنه يرغب فى ارسال جواد ومهر كهدية للحاكم العام ولكنه لم يسمح لسادلر بفحصهما ، ثم مرت خمسة عشر يوما دون ان يكون هناك أثر للهدايا أو رد رسمى ، وفى ١١/١٢ طرق الباب على سادلر احد خدم الباشا ومعه جوادان هزيلان وقال بأنهما هدية من ابراهيم باشا للحاكم العام غير ان سادلر اعادهما الى الباشا وقال بأنهما لا يصلحان كهدية لشخص كالحاكم العام . وقد تصور سادلر أن تقديم الجوادين المذكورين كان المقصود منه اهانة الحاكم العام وقد تأكد له هذا عندما أعرب ابراهيم باشا عن استيائه من اعادة الهدية ، وامر سادلر بمغادرة المعسكر بعد أن انذره بأنه سوف يبعث برسالة احتجاج الى الحاكم العام بعد رجوعه الى القاهرة ويعيد اليه السيف ، وقد غادر الباشا بعد ذلك بوقت قصير الى مصر وترك سادلر يبحث بنفسه عن وسيلة للخروج . ولمدة شهرين ظل سادلر يعيش عيشة الكفاف فى جدة كرجل مسيحى واوربى وسط شعب مسلم معاد له ، وظل على هذه الحال حتى ٢٣ يناير سنة ١٨٢٠ وعندما وصل الطراد برنس اوف ويلز ورسا على شاطىء جدة كانت نهاية لمتاعب سادلر . وعلى الرغم من ان المراحل الأخيرة لمهمة سادلر كانت حرجة نتيجة لغرور باشا مصر فاننا لا نستطيع ان نقلل من المكانة المرموقة التى اكتسبها لشجاعته وحكمته بوصفه الاوربى الوحيد الذى

اجتاز شبه الجزيرة العربية من الشرق الى الغرب . (١)

في الوقت الذى كان سادلر يسعى للحصول على رد من ابراهيم باشا كانت الحملة تشق طريقها الى مياه الخليج بقيادة السير وليم جرانت كير ولقد اقلعت الوحدة الاولى من الاسطول من بومباى يوم ١٨١٩/١١/٣ والتى سبق لها الاشتراك فى الحملة الاولى ضد القواسم قبل عشر سنوات ، وكانت تتألف من الفرقة ٤٧ والفرقة ٦ والفصيلة الاولى والفرقة الثانية من مشاة بومباى ، وفصيلة بومباى البحرية والفصيلة الاولى والفرقة الثانية وسرية الجناح ٢٤ ووحدة من مدفعية بومباى ونصف عدد احدى فصائل الاستطلاع وكان مجموع القوة كلها ١٠ر٤٥٣ اوربى و ٢ر٠٩٤ كرى هندى (٢) اما سفن الحراسة فكانت تتألف من الطراد ليفربول (٥٠ مدفعا بقيادة الكابتن كوليير) والطراد كرلر (١٨ مدفعا بقيادة الكابتن واليول) وطراد الشركة الموقرة اورورا ١٤ مدفعا ، اما الطرادات التى كانت موجودة بالفعل فى مياه الخليج فهى الطراد ايدن (٢٥ مدفعا بقيادة الكابتن دوك) وتبين مادت (١٦ مدفعا) ونوتيلوس (١٤ مدفعا) وترنيت (١٤ مدفعا) وسيش (١٢ مدفعا) وابريل (١٠ مدافع) وفستال (١٠ مدافع) وعند وصول الحملة الى خليج عامن ، انشق عنها الطراد ليفربول الذى ابحر الى مسقط يحمل على ظهره قائد

---

(١) لقد كتب سادلر بنفسه وصفا عن هذه المهمة فى كتابه مذكرات حول رحلة عبر شبه الجزيرة العربية . اما عن سيرته وحياته فى بدايتها او اخرها فيمكن الرجوع الى كتاب « جورج فورستر سادلر » تأليف اف .ام. ادواردز طبعة عام ١٩٥٧ ص٣٨ — ٤٩ وقد اعتزل العمل من الجيش فى عام ١٨٣٧ واصبح عمدة لبلدته كوك وفى نحو عام ١٨٥٥ هاجر الى نيوزيلندا حيث توفى فى ازكلاند يوم ١٨٥٩/١٢/٢ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٠/٨/٩ .

الحملة السير جرانت كير الذى كلف بمقابلة السيد سعيد . ولقد سبق لنبين أن أوفد فى شهر اكتوبر السير جون اندرو جيركس من جيش بومباى ليستفسر من السيد سعيد عما اذا كان يوافق على رسو الحملة فى جزيرة قشم وتزويدها بالمئونة وبالزوارق اللازمة لانزال المعدات والمدفعية ، كما كلف جيركس أيضا بابلاغ سعيد بحجم العمليات المنوى القيام بها ، ومعرفة ما اذا كان سيوافق على الاشتراك فيها خصوصا وأن اشتراك ابراهيم باشا فى الحملة قد أصبح مستبعدا الان ، ولقد وجد جيركس السيد سعيد على أتم استعداد للتعاون وقال بأنه قد أصدر الأمر بتجميع الخرفان والعجول وغيرها من المستلزمات فى بنـدر عباس ، بالاضـافة الى تجهيز ٧٠ زورقا لانزال الجنود والمعدات كما أبدى استعداده بتسيير ٤٠٠٠ من رجال القبائل الى رأس الخيمة للمساهمة فى الهجوم على البلدة ، كما وعد بأنه سوف يخرج بنفسه على رأس ثلاث سفن حربية و ٦٠٠ الى ٨٠٠ جندى للاشتراك فى الهجوم البحرى على رأس الخيمة وعندما وصل كير الى مسقط فى الاسبوع الثالث من نوفمبر كرر سعيد تلك الوعود للمبعوث .

غادر كير مسقط يوم ١٨ نوفمبر ولحق ببقية الاسطول بعد ثلاثة أيام فى مكان ما من الساحل الفارسى وقد وجد أن بعض السفن لم تصـل من بومباى بعد ، ولكنه ابحر الى ساحل القرصنة على الطراد ليفربول تاركا بقية قطع الاسطول تتزود بالماء من جزيرة قشم وكان يرافقه الطراد والسفينة بنارس التى قامت بمسح لمداخل راس الخيمة ، وكان فصل الرياح الشمالية يقترب بسرعة وكان واضحا ان أى تأخير فى انزال القوات سوف يقضى على نجاح الحملة ولذلك تم ارسال السفينة بنارس الى جزيرة قشم لتستعجل وصول قوارب النقل اللازمة للهجوم ، وفى يوم ٢ ديسمبر كان الاسطول يشق طريقه الى رأس الخيمة بالاشتراك مع فرقاطتين من مسقط مع السيد سعيد ونحو ٦٠٠ مقاتل من رجال القبائل .

منذ الحملة الفاشلة على راس الخيمة فى نوفمبر ١٨١٦ قام القواسم بتعزيز وسائل الدفاع عن البلدة بصورة مكثفة حيث اقيم حولها سور ارتفاعه نحو (٩) أقدام وعرضه قدمين ، كما بنى سور آخر اقيمت عليه بعض البروج بارتفاع قدره ٢٠ قدما حول البلدة والى الناحية الجنوبية مباشرة أنشئت قلعة مربعة بالاضافة الى عدد من البروج الأخرى التى تحيط بالنصف الاسفل من شبه جزيرة راس الخيمة وكان بعضها يختفى وراء مزارع النخيل ، وقدر عدد المقاتلين فى البلدة فى حدود ٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠ رجل وقد وقع الانزال البريطانى التمهيدى يوم ٣ ديسمبر وكان هدفه المنطقة الرئيسية من البلدة كما أحاط الجنود بالمنطقة من البحر وقد انقضى بقية اليوم فى انزال المدافع والمؤن وفى حفر الخنادق ، وفى صباح ٤ ديسمبر بدأ الجنود من الفرقتين ٤٧ ، ٦٥ — تحرشاتهم بالعدو والتوغل الى خطوطه الامامية . وبحلول الظلام كانت القوات البريطانية توغلت الى مسافة ٣٠٠ ياردة من القلعة الرئيسية وبدات فى قصف القلعة يوم٥ وقد اقترب الطراد ليفربول لقصف المنطقة غير أن القواسم تمكنوا من صد الهجمات بمدافعهم ، وكانوا أحيانا يخرجون من خلف تحصيناتهم لمواجهة القصف البريطانى الذى كانت قذائفه تتساقط بعيدا عن الأهداف ، وقد تم انزال مدافع أخرى من الاسطول يوم ٦ ديسمبر لتشديد القصف وفى تلك الليلة قامت مجموعة من القواسم بقيادة ابراهيم بن رحمة اخى شيخ راس الخيمة بالهجوم على احدى وحدات المدفعية واستطاعت أن تسحب احد المدافع الهاوتزر ، ولكن مجموعة من الفرقة ٦٥ خفت لنجدة الوحدة بعد نشوب معركة بالسلاح الأبيض قتل خلالها مالا يقل عن ٩٠ من القواسم بما فيهم ابراهيم بن رحمة ، ثم قام القواسم بهجوم آخر قبل الفجر امكن صده .

وفى يوم٧ تم انزال المزيد من المدافع من الاسطول بما فى ذلك فيهما مدفعان عيار ٢٤ من الطراد ليفربول . وفى الصباح التالى فتحت المدفعية البريطانية كل نيرانها على الحصن واستمر القصف طوال الليل . وما ان

أشرف اليوم التالى على الانتهاء حتى كانت أسوار القلعة قد تهشمت وقد زحف الجنود على القلعة ولكنهم لم يجدوا فيها أحدا كما كانت البلدة نفسها خالية تقريبا من السكان الذين تمكنوا من الافلات ، ويقال أن القواسم خسروا نحو الف رجل بين قتيل وجريح ، خلال القتال الذى استمر خمسة أيام.

اما الجانب البريطانى فكانت خسائره فى الأرواح ضابطا وخمسة جنود ونحو ثلاثة ضباط ، و٤٩ جندى اصيبوا بجراح ، وكان من الممكن أن تكون خسائر القواسم أكثر لو أن الجنود العمانيين الذين أرسلهم سعيد عن طريق البر قد وصلوا فى الوقت المناسب ، ولكنهم وصلوا راس الخيمة بعد يومين من سقوط البلدة . أما الذين رافقوا السلطان فى رحلة البحر فقد قدموا مساعدة قيمة فىعملية انزال المدافع والمعدات والمؤن من السفن وقد تقدم جسن بن رحمة لتسليم نفسه بعد ظهر يوم ٩ وجاء معه معظم من بقى من رجاله على قيد الحياة . (١) .

لم يكن القتال على ساحل القراصنة قد انتهى بعد ، وفى الوقت الذى كانت الوحدات الرئيسية تقوم بعملها كان اثنان من الطرادات يحاصران

---

(١) فيما يتعلق بعملية راس الخيمة انظر الرسائ مجلد (٥) من نبين الى جى ـ دارت (سكرتير مجلس ادارة الشركة) لندن فى ١٨٢٠/٤/٢٢ ومرفق به خطاب كير الى الادجوتانت جنرال جيش بومباى وراس الخيمة فى ١٨١٩/١٢/٩ وخطاب كير الى واردن ١٨١٩/١٢/١٠ والتقرير الادارى للمقيم البريطانى فى الخليج رقم ١٩٠/١ من الكابتن اف.أى كوليير الى لاميرال كنج ، ليفربول راس الخيمة ١١/٢١ ديسمبر ١٨١٩ (ومرفق بخطاب كروكر ١٨٢٠/١/٧ رقم (١٠٥) راجع أيضا «الاسطول الهندى» تأليف لووفصل ١ ص ٣٥١ الى ٣٦٠ وينقل لو عن احد الضباط الذين اشتركوا فى القتال الذى قال بأن السيد سعيد ذكر بأن الجنود وصلوا من من البر قبل نشوب المعركة غير ان هذا يتعارض مع تقرير كير .

بلدة رمس ، الواقعة على الساحل ، وهى مركز حسين بن على الشهير ونائب الحاكم الوهابى السابق فى ساحل القرصنة . ولهذا تم ارسال الفرقة ٦٥ مع سريات الجناح التابعة للفصيلة الاولى والفرقة الثانية ووحدة داعمة من المدفعية الى رمس لشن هجوم على الشيخ ولكن عند وصول تلك القوات الى البلدة وجدتها خالية من السكان فقد انسحب حسين بن على واتباعه الى قرية العينة على احد المرتفعات على بعد ميلين وهناك تحصنوا فى احدى القلاع القديمة وكانت مشهورة بقوة تحصينها وقد ثبت ذلك فيما بعد ، فعندما وصل القائد كير الى الضيعة اكتشف بأنه لا يمكن اقتحام القلعة الا بعد قتال عنيف ولذلك عاد يطلب امدادات من الفرقة ٤٧ والفصيلة الاولى والثالثة وتم انزال مدفعين كبيرين من الطراد ليفربول وبصعوبة كبيرة أمكن نقل تلك المعدات الى نقطة قريبة من المرتفع ، وقام بذلك بحارة الطراد كرلو ، وفى يوم ٢٢ ديسمبر كانت وحدة المدفعية قد وصلت الى موقع يمكن منه قصف القلعة وبعد قصف استمر ساعتين امكن فتح فجوة فى القلعة وبعدها استعد الجنود لاقتحامها ولكنهم شاهدوا علما أبيض يرفرف فوق قمتها . ثم بعد ذلك خرج حسين بن على ورجاله وكان تعدادهم ١٦٩ شخصا . وقد تم نقلهم أسرى الى السفن . وقد قتل من البريطانيين ضابط وثلاثة جنود وجرح ١٦ وتوفى احدهم فيما بعد (١) .

لم تنته مهمة الحملة عند ذلك الحد فقد بقيت هناك اعمال اخرى يتحتم انجازها كتدمير جميع تحصينات راس الخيمة تدميرا تاما وتفتيش جميع الموانىء الى جنوبها بحثا عن السفن التى تكون مختبئة فيها كما تعين على القائد كير أن يتخذ قرارا بشأن مصير الأسرى الذين كان اكثرهم بما فيهم حسين بن رحمة وحسين بن على مرضى أو جرحى . وربما كان الأهم

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ٤ مجلد ٤٥ — ١٨٢٠/١/٢٦ من كير الى واردن ١٨٢٠/١/٦ انظر كذلك « الاسطول الهندى » تأليف لووفصل ١ ص ٣٦٠ — ٣٦٦ .

من ذلك كله هو الوصول الى تسوية سياسية تضمن أن لا يعود القواسم الى ممارسة ارهابهم للمياه الواقعة بين البصرة وبومباى ، ولم يتلق كير اى تعليمات حتى ذلك الوقت ، وكان الوقت يجرى بسرعة ، وكان لابد للأسطول من مغادرة المنطقة قبل ان تسوء الأحوال الجوية .

وفى أوائل يناير كان أكابر الشيوخ للمنطقة قد حضروا الى مقر كير لاعلان خضوعهم والاعراب عن صداقتهم ، وكان بينهم سلطان بن صقر شيخ الشارقة وشخبوط بن دياب والد طنحون بن شخبوط شيخ آل بوفلاح فى ابوظبى ، ومحمد بن حزه شيخ دبى وكان لايزال صبيا وقد جاء بصحبة عمه الاكبر بالاضـــافة الى شيوخ عجمـــان وأم القوين والجزيرة الحمـراء ولكى يكسب الوقت الذى يستطيع خلاله تلقى الأوامر من الهند وليؤكد للشيوخ انهم لن يفلتوا ، وكان كير قد وجه الدعوة الى هؤلاء الشيوخ للحضور والتوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد وتسليم اى أسير هندى قد يكون لديهم (١) . وتطبيقا لهذه الاتفاقيات أمر كير بعض القوات بتفتيش جميع الموانىء ابتداء من راس الخيمة حتى دبى . وتم تدمير جميع التحصينات والسفن التى وجدت فى هذه الموانى وتقـدر قيمتها الاجمالية بـ ٨ر٣٠٢ (اى ما يزيد على ٣٠٠٠٠ جنيه استرلينى) (٢) ولما لم تصل الاوامر حتى الاسبوع الثانى من يناير ١٨٢٠ قرر كير أن يفرج عن السجناء بعد أن أخذ سكان راس الخيمة يتذمرون من احتجاز

---

(١) يمكن الرجوع لنصوص هذه الاتفاقيات الى اتشيمون (المعاهدات) جزء ١٠ ص ١٢٢ — ١٢٧ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ٨ مجلد (٤٥) ١٨٢٠/٣/١ من كير الى واردن ١٨٢٠/٢/٧ ووثائق بومباى السرية مجلد ٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٢/٧/٣١ (رقم ٣ ــ الدائرة السياسية) وقد تم توزيع جزء من هذا المبلغ كمكافأة على البحارة والجنود .

شيوخهم خصوصا وانهم فهموا من شروط المعاهدة التمهيدية انه سيفرج عن شيوخهم خلال بضعة أيام سيما وأن احتجاز الرجال القادرين كان يسبب متاعب لاسرهم .

يوم ٨ يناير استدعى كير حسن بن رحمة وابلغه بأن قرار احتجازه يقوم على اساس انه الشيخ المسئول فى رأس الخيمة ثم قدم له مسودة معاهدة للسلام كان كير قد أعدها بالاشتراك مع معاونيه وتنص ديباجة المعاهدة على ما يلى :

(بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الذى جعل السلام بركة على الناس ، وانه بناء على ذلك يتفق الطرفان على توطيد السلم بين الحكومة البريطانية والقبائل العربيـة الموقعـة على هذا العقد وذلك على الشروط الآتية . . . .) (٣) .

الشرط الاول (المادة ١) تقرأ كما يلى (يجب الامتناع عن جميع اعمال النهب والقرصنة على البر وفى البحر من جانب العرب الموقعين على هذا الاتفاق الى الابد ، وتوضح (المادة (٢)) من الاتفاق «مفهوم النهب والقرصنة» بانها : اى عملٍ من أعمال العنف التى تقترف فى أوقات السلم من جانب أى دولة وأن كل من يرتكب عملا كهذا قد أهدر حياته وحقوقه . وتضمن البند الثالث الى السادس توضيحا للاجراءات التى يرى القائد كير ، انها سوف تضع حدا لأعمال القرصنة ، وكان قد طلب الى كير فى التعليمات التى ارسلت اليه بأن يقرر ما اذا كان من المناسب وضع انظمة للملاحة تلتزم بها القبائل البحرية ويمكن بموجبها للاسطول البريطانى تحديد هوية السفن العاملة وتحديد تسليحها وتفتيش موانيها وقد اقترح كير أن ترفع سفن القراصنة علما ابيض عليه خط احمر كعلامة مميزة لها سواء كانت مبحرة او راسية فى الميناء ، وكان كير يرمى من وراء اقتراحه هذا أن يكون العلم

انظر معاهدات جزء ١٠ ص ١٢٧ .

هو رمز للعلاقات السلمية القائمة بين القبائل من ناحية وبين الانجليز من ناحية اخرى ، كما تنص المعاهدة على أن تحمل كل سفينة سجلا وتصريحا بالسفر (اذن خروج) يوقع عليه شيخ المنطقة ويبين فيه حمولة السفينة ونوع تسليحها ومنشأتها ووحدتها ، وعلى ربابنة هذه السفن ابراز هذا التصريح للطرادات البريطانية عندما تقوم بتفتيشها على أن يجدد هذا التصريح سنويا ويصدق عليه ممثل من قبل الحكومة البريطانية .

وقد تناولت بقية الاتفاقية فى بنودها الخمسة موضوع التزام قبائل ساحل الخليج بمبادىء السلوك الانسانى فى تعاملها مع بعضها البعض، فنصت الفقرة الثانية التى كتبت (وذكريات فظائع القواسم لاتزال حية فى الأذهان) على حظر اعدام الأسرى ، كما نصت على القيام بعمل مشترك بين القبائل والحكومة البريطانية ضد كل انتهاك لهذا الالتزام ، كذلك اشتملت الاتفاقية على نص مشابه فى حالة ارتكاب أعمال القرصنة العادية بموجب المادة السابعة . أما المادة التاسعة فقد نصت على حظر نقل العبيد من أفريقية بقصد الاتجار ، وقد اختتمت الاتفاقية بنودها ببند ينص على استخدام موانىء الهند لسفن القبائل البحرية للاغراض التجارية وموانى الدول الحليفة للحكومة البريطانية أمام السفن (١) .

وفى يوم ٨ من يناير وقع حسن بن رحمة وشيخ الجزيرة الحمراء على معاهدة السلام العادية كما سميت فيما بعد ، أما الشيخ شخبوط بن دياب حاكم ابوظبى فقد وقعها بالنيابة عنه ابنه طحنون فى اليوم الثالث من ابرامها ، كما وقع عليها شيخ رمس حسين بن على وعم شيخ دبى بتاريخ ٢٨ من يناير . وفى نفس اليوم تلقى كير التعليمات التى كان ينتظرها وقد

(١) المعاهدات « تأليف اتشيسون » جزء (٢) ب ص ١٢٧ — ١٢٩ .

صــدرت من بونشتورت الفينستون الذى خلف نبين كحاكم على بومبــاى بعد وقت قصير على خروج الحملة ، وقد تضمنت التعليمات التى ارسلت الى كير توصيات الفنينستون التى تضمنها خطابه الى الحاكم العام بتاريخ ١٨١٩/١٢/١٥ حول السياسة التى يتعين على القــائد كير اتباعهــا فى الخليج ، وهى لم تضن تختلف اختلافا كبيرا عن تعليمات سلفه . وتضمنت التعليمات رأى الفنينستون فى أن السبيل الوحيد لتصفية القرصنة فى الخليج هى فى اخضاع السفن للتفتيش بشكل منظم من قبل الاسطول البريطانى ، وفى تدمير معاقل القراصــنة تدميرا تاما وتعيين منــدوب بريطانى محلى فى رأس الخيمة ليقوم بالتأكد من السفن المعاملة ، وفى تشجيع الروح التجارية بين القواسم وربطهم بالمؤثرات الحضارية الحديثة عن طريق حثهم وتشجيعهم على القيام بزيارات الى موانىء الهند للأغراض التجــارية وقــد اقترح الفينستون عزل حسن بن رحمــة من المشــيخة وتنصيب خليفة له يكون على استعداد للعمل بموجب هذه القرارات . أما اذا لم يكن هناك شيخ يرضى بالعمل على اساس هذه التوصيات ، فيعهد الى سلطان مسقط بالاشراف على بلدان الساحل وقيام أسطوله بحراسة سواحل المنطقة ومداخلها .

---

(١) ولد الفنستون عام ١٧٧٩ وهو الابن الرابع لعمدة اسكوتلندى ، وقد التحق بالعمل فى الشركة ككاتب فى مكاتب الشركة بالبنغال وكان عمره اذ ذاك ١٥ عاما ووصل الى الهند فى فبراير ١٧٩٦ وقد تبناه وليسلى وبعد ذلك بوقت قصير عين مساعدا للمقيم فى بونا عام ١٨٠١ ثم فى ناجيور عام ١٨٠٤ وفى عام ١٨٠٨ اختاره منستو لرياسة البعثة البريطانية الى كابل ومنذ عام ١٨٢٧ عمل مقيما فى بونا وفى نهاية الحرب الثالثة للمهراتا عين محافظا للمقاطعة دكنى وكان تعيينه فى بومباى خيبة أمل كبيرة لجون مالكولم الذى يأمل ان يحتل المنصب .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية حلقــة ٥٣ مجــلد ٤٣ بتاريــخ ١٨٣٩/٤٢/٣٥ من الحاكم الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

عند استلام كير لهذه التعليمات التى وصلته متأخرة جدا لم ير فيها اى شىء ذى أهمية ، وفى رده على الفينستون توخى ان تحظى التسوية التى توصل اليها على موافقته غير أن الفنيستون لم يوافق عليها ، وكان كير قد توقع تلك النتيجة منذ مغادرة السيد سعيد للمنطقة قبل التوقيع على المعاهدة بأسبوعين نتيجة سياسة الليونة التى اظهرها كير تجـــاه القواسم كما ان معارضة الفينستون للاتفاقية ، وان كانت قـد صـيغت بصيغة مقبولة فقدلقيت معارضة عنيفة، ففى الوقت الذى أشاد الفينستون بالاعتبارات الانسانية التى أملت على كير اطلاق سراح الأسرى وشيخى القراصنة حسن بن رحمة وحسين بن على ، الا أنه كان يعتقد بأن الزعيمين لم ينالا من العقاب ما يتناسب مع حجم الفظائع التى ارتكباها ، وكان يرى بأن نقاط الضعف فى الاتفاقية هى القوانين التى فرضها كير لتنظيم حركة الملاحة لأنها لم تتضمن قدرا كافيا من الضمان عن سلوك القراصنة فى المستقبل ، فالسجلات والتصاريح التى نصت عليهـا الاتفاقيـة ليسـت ضمانات كافية بالنسبة للنشاط الملاحى غير المشروع ولعل الميزة الوحيدة لهذا البند هى انه تحدد الميناء الذى خرجت منه السفن وقال الفينستون متهمكا بان الخطر لا يأتى من الموانى التى تغادر منها السفن التى ظلت تهددنا طيلة هذه المدة (١) ولما كانت السفن التى تمارس القرصنة تزود عـادة ببعض الأوراق الا ان المعاهدة لا تنص على فرض عقوبة على السفن التى تزور الاوراق او التى لاتحمل شيئا من التصاريح وكان الأجدى بالقائد كير أن يحصل على موافقة شيوخ المنطقة على تجديد حجم السفن كما جاء فى التعليمات الاصلية الصادرة فى اكتوبر ١٨٠٩ . ولو انه حصل على التعهد لتمكن الاسطول البريطانى من التغلب على هـذه المشـكلة وكان يجب أن تتضمن الاتفاقية نصا أكثر تحديداً من النصـوص التى وردت فى المـادة

---

(١) محادثات بومباى السرية رقم ٦ مجلد ٤٥ — ١٨٢٠/٢/١٦ من واردن الى كير بنفس التاريخ .

الخامسة والتى تقول انه اذاالتقت بعض السفن البريطانية او غيرها من السفن بسفن القراصنة فينبغى على الأخيرة ان تبرز دفتر السجل وتصريح السفر كما انه من حق الطرادات البريطانية أن تستولى على جميع السفن التى تزيد حمولتها على الحد المتفق عليه فى المعاهدة وبدون حق النص على هذا الحق فان بنود الاتفاقية التى كانت تبدو مكاسب فعلية كالتعهد بالامتناع عن ممارسة القرصنة وتجارة الرقيق لم يجد الفنستون فى نصوص الاتفاق اى فائدة حقيقية وكان المفروض فى كير أن يمنع بنـاء السفن المسلحة ميناء راس الخيمة ، كما كان مفروضـا من الفينستون بأن يصدر قرارا بحظر الاخشاب من الهند الى ساحل القراصنة غير ان الوقت كان قـد انتهى ، وهذا ما صرح به كير وبالتالى لم يكن أمامه فرصة لتغيير الاتفاقية كما لم يكن أمامه الا أن يطلب من الحاكم العام للهند التصديق عليها .

وسبب انتقادات الفينستون للمعاهدة العامة يرجع الى حد ما الى الرسالة الخاصة التى تلقاها من الكابتن طومسون ، المترجم العربى للحملة والذى أبدى شكوكه فى فعالية القوانين البحرية التى وضعها كير ، وعلى الرغم من أن طومسون كان قد وافق على أن تصاريح السفر قد تساعد على مراقبة سفن القراصنة الا انه لم يكن يعتقد بأن تلك القوانين ستكون قوانين فعالة ، الا اذا عهد للمعتمدين البريطانيين المقيمين فى تلك الموانى بتفتيش السفن والاوراق التى تحملها . وعلى اى حال فانه يبدو أن الفينستون قد فاته أو انه تجاهل بعض النقاط ، ولكن طومسون كان يؤيد فرض القيود التى فرضت على تسليح السفن او على حمولاتها مما كان الفينستون يرغب فى فرضها ولكن لم ترد فى التعليمات التى وصلت الى كير فى البداية كما انها كانت قيودا غير واقعية ، سيما أن القرصنة كانت تمارس بكل الوسائل وبكل انواع السفن ، والاسلحة التى تحملها سفن القرصنة عادة لا تتعـدى مدفعا واحدا صغيرا ، اما فيما يختص بالتسليح الشخصى فان العرب عادة يتسلحون سواء فى البر او البحر وسوف يستمرون على ذلك مهما كان

موقف الحكومة البريطانية . كما قال طومسون بأنه ليس هناك حل لهذه المشكلة اذا تعذر التمييز بين السفن التى تمارس القرصنة والسفن العادية ، فالسفن جميعها سواء تلك التى تمارس القرصنة واعمال السلب والنهب هى سفن مسلحة . فاذا كان الهدف من تشجيع البريطانيين للقبائل العربية الساحلية على تعاطى التجارة هو القضاء على القرصنة فان طومسون يتساءل ، كيف يمكنهم ذلك اذا ما فرضت قيود على تسليح السفن ، ان هناك قطاعا برمائيا من الافراد متورطون فى أعمال القرصنة .... وبالتالى فان تدمير سفن هؤلاء الأفراد لن يكون اجراء تعسفيا فحسب والما سوف يؤدى الى القضاء على القدرة الطيبة التى يمثلها هؤلاء الناس . (١) لم يتسلم كير تعليمات الفينستون الا بعد أن انتهت الحملة وكان فى طريق العودة الى بومباى وعند وصول كير الى بومباى دافع بحرارة عن طريقته فى ادارة الحملة ، وعن المعاهدة التى عقدها مع شيوخ المنطقة ، وقال بأن المادة الثانية من الاتفاقية تتضمن أقصى حد للعقوبة ، وهى اهدار حياة الشخص واهدار ممتلكاته ، أما بالنسبة لفرض قيود على حجم وتسليح السفن فان ذلك سوف يرغم الحكومة البريطانية على الدفاع عن القبائل التى وقعت على المعاهدة ضد اى عدوان عليهم من الدول التى لا تخضع سفنها لتلك القيود، أما بالنسبة لحظر تصدير الاخشاب اللازمة لبناء السفن فان هذا الموضوع يخص السلطات البريطانية فى الهند ، ولم يكن ثمة داع لاضافته فى الاتفاقية ، أما فيما يتعلق بمعاملة زعماء القرصنة فقد ذكر كير للحاكم بأن

---

(١) لقد أثار الحاكم هستنجز هذه النقطة بالذات عند تصديقه على المعاهدة فى بداية ابريل (انظر محادثات بومباى السرية رقم ١٣ مجلد ٤٦ تاريخ ١٨٢٠/٥/٣ ، س س . اف متكاف (سكرتير الحاكم العام) الى واردن بتاريخ ١٨٢٠/٤/٣ .

جميع الزعماء فيما عدا حسين بن على قد حضروا اليه برغبتهم واعلنوا ولاءهم له غير انهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك لو انهم علموا مسبقا بالقيود البحرية المشددة التى فرضها الفينستون ، كما ذكر بأنهم لو لم يتقدموا اليه سلميا لاضطر الى أن يخوض حربا طويلة معهم ، وقد تؤدى الى الحرب فى الداخل ، كما أن التعليمات التى تلقاها لم تكن تسمح له بذلك كما قال كير بأنه لو حاول استبدال بعض هؤلاء الشيوخ بآخرين فان ذلك سوف يلزم بريطانيا بتأييدهم وبالتالى مزيد من التدخل فى المنطقة . (١)

وعندما علم الفينستون بالتسوية التى توصل اليها كير مع شيوخ القرصنة قرر القيام ببعض الخطوات لانقاذ ما يمكن انقاذه من خطة كير ، فطلب من سلطان بن صقر بأن يوافق على اضافة القيود الى البند الخاص بحمولات السفن ونوعية تسليحها (٢) مقابل تنصيبه شيخا على رأس الخيمة ، وقد ارسلت هذه التعليمات غير أنها وصلت متأخرة اليه بحيث تعذر عليه أن يقوم بتنفيذها ، وقد أشار كير فيما بعد بان القضاء على القرصنة فى الخليج لم يكن يعتمد على كثرة القيود والقوانين والموانع اكثر مما كان يعتمد على يقظة الاسطول والقوة العسكرية المتوافرة لدى حكومة بومباى للحفاظ على أمن الخليج (٣) .

واذا نظرنا الى التسوية بأثر رجعى فانها تعتبر تسوية سليمة وتتسم بالروح الانسانية والاريحية ويعود الفضل فى ذلك الى كير وانطلاقا من نظرة كير الى أوضاع القواسم وحياة البؤس والشقاء التى كانوا يعيشونها وشحة المورد ، ونظرة العداء التى كان ينظر بها جيرانهم اليهم ، كل هذه

---

(١) دليل الخليج جزء ١ ص ٦٧٣ — ٦٧٤ تأليف لورمار .

(٢) نفس الحلقات محادثة رقم ٦/مجلد ٤٥ — ١٨٢٠/٢/١٦ من واردن الى كير بنفس التاريخ .

(٣) دليل الخليج جزء ١ ص ٦٧٣ — ٦٧٤ تأليف لورمار .

الاعتبارات اثارت فيه شعور العطف والتسامح نحوهم ، وكان كير يعتقد بأن معاملة القواسم بطريقة انسانية كريمة بعد الحملة التأديبية سوف تساهم الى حد كبير فى تغيير موقفهم تجاه الحكومة البريطانية التى كانت قد صممت على محو كل أثر للقرصنة بدلا من اتباع سياسة القوة والبطش والانتقام ضدهم وقد اثبتت الايام صحة موقفه .

فى الأسبوع الأول من عام ١٨٢٠ كانت مهمة كير فى ساحل القرصنة قد انتهت تماما وأمكنه توجيه اهتمامه للساحل الفارسى . وبالنسبة لهذا الموضوع فان المشكلة الرئيسية لم تكن معارضة الدول البحرية التى تمارس القرصنة وانما معارضة حكومة فارس الشديدة لأى عمليات على ساحل فارس ، غير أن التعليمات كانت واضحة وصريحة بمهاجمة جميع الموانى التى تنطلق منها أعمال القرصنة مهما كان موقف حكومة فارس من الموضوع، وقد طلب الى الكابتن هنرى ويلوك الاتصال بالشاه حول هذه المسألة والوصول الى اتفاق معه حولها .

تناول ويلوك الموضوع مع وزراء الشاه فى اجتماعه بهم يوم ١٨١٩/١٢/٢٢ وبعد أن أطلعهم على الخطوات التى كانت تنوى حكومة بومباى اتخاذها لردع القراصنة أينما وجدوا فى الخليج طلب من حكومة فارس بالاتدع العابثين بالأمن أن يفلتوا من العقاب لمجرد كونهم يقيمون أو يقطنون على أرض فارسية غير أن الحكومة الفارسية أعتبرت ذلك تدخلا يجرح كبرياءها وكان رد الشاه بأنه لا يعلم عن أى اعمال للقرصنة يقترفها رعاياه وانهم حتى لو حدث وهاجموا بعض السفن التى ترفع العلم البريطانى فان الاجراء السليم أمام الحكومة البريطانية ، هى ان تطلب من الشاه تعويضا عن ذلك ، لا أن تلجأ الى اتخاذ عمليات معادية ضد حرمة اراضيه ، غير ان ويلوك ذكر وزراء الشاه بأنه سبق للحكومة البريطانية أن تقدمت بعدد من الشكاوى الى أمير اقليم فارس عن اعتداءات قام بها الرعايا الفرس ضد السفن البريطانية غير أنها لم تحصل على أى فائدة، لأن أمير فارس لم يكن

يمارس اى نفوذ على قبائل الساحل (١) وبعد ذلك بأسبوع تلقى ويلوك تبليغاً من حكومة فارس بأن الشاه قد بعث بأوامره الى نجله أمير شيراز لتقديم كل مساعدة ممكنة للحملة غير أن ويلوك قد راودته الشكوك فى جدوى مثل تلك الأوامر لأن الشاه كان يهمه مركزه أكثر مما يهمه شيء آخر ، وأنه سوف يتخوف من الحملة فلا يقدم اى مساعدة فعالة لهم (٢) .

وكانت شكوك ويلوك فى محلها ، فعلى الرغم من أن حسين على ميرزا قد بعث برسالة الى القائد كير عند وصول الحملة الى الخليج يرحب فيها بالاجراءات التى اتخذت لردع القراصنة ، ويعرض استعداده لتقديم المؤن ، فان الرسالة التى وصلت كير فيما بعد ، اى بعد احتلال رأس الخيمة ، كانت فاترة فى عباراتها الى حد كبير (٣) . وفى رسالة ثالثة كتبها الأمير الى ويلوك ، كانت اللهجة عنيفة ، وجاء فيها بالنسبة لقواسم لنجة مايلى ... ان ميناء لنجة تابع لمقاطعة فارس ، وأن سكانها هم رعايا أوفياء للشاه....

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ١٠ مجلد ٤٦ تاريخ ١٨٢٠/٤/٥ من ويلوك الى حاكم بومباى ١٨٢٠/١/١ وقد ارفق به محاضر اجتماع هنرى ويلوك وقد اظهر ويلوك تعاطفه مع الشاه ووزرائه الذين لم يسبق لهم ان واجهوا مثل هذا الموقف وكانت الاشارة التى تضمنها خطاب كير فى حقهم اشارة لم يسبق لاى مسئول ان ذكرها فى حقهم طوال مدة خدمة كير فى فارس .

(٢) محادثات بومباى السرية مجلد ٨ تاريخ ١٨٢٠/٣/١ من ويلوك الى كير ١٨١٩/١٢/٢٩ ومرفق لخطاب كير الى واردن ١٨٢٠/٢/٧ .

(٣) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٥ رقم ٨ — ١٨٢٠/٣/١ من ويلوك الى كير ١٨١٩/١٢/٢٩ .

وعليه يتعين عليكم طالما تقيمون فى الخليج بأن تصدروا أوامركم بعدم (٣) التعرض لأى من سكان الموانى البحرية فى فارس ولنجة ، وعلى الرغم من ان كير لم يكترث بهذا التحذير فقد قرر أن يقوم فى الأسبوع الأول من فبراير بعمليات استطلاع فى الساحل الفارسى قبل بدء عملياته . غير انه قبل ان يغادر رأس الخيمة وصلت اخبار تذكر بأن بعض وحدات الاسطول قد بدأت بالفعل عملياتها على الساحل الفارسى . ولقد صدرت الأوامر الى الكابتن ويلوك ، قائد الطراد ايدن ، بالتوجه الى البحرين يوم ٣ يناير ، برفقة الطراد كارلو والسفينة نوتلس ، لمطاردة أى سفن للقواسم توجد فى ميناء ذلك البلد ، وخلال عودة ويلوك بلغه أن عددا من سفن القرصنة قد لجأت الى ميناء امالى على الجانب الفارسى للخليج ، وعلى ذلك الأساس قرر أن يتأكد من هذا الموضوع . وبالبحث وجدت ثلاثة سفن راسية فى امالى اثنتان منهما جاءت من ميناء خرك والثالثة من دبى ، ومن طريقة تسليح تلك السفن شك ويلوك ، بأنها سفن للقرصنة . ولذلك امر بحرق السفينتين وقطر السفينة التى جاءت من دبى ، كما التقى بسفينتين اخريين مسلحتين فى ساحل كانجون ، وقد جاءتا من لنجة ، وامر بحرقهما ايضا ، لشكه فى انهما من سفن القرصنة . وقد احتجت حكومة فارس على اجراء ويلوك ، واعتقد كير أن ويلوك لم يتأكد تماما من نوعية السفن التى امر بتدميرها ، وعلى هذا الأساس رأى كير انه قبل اتخاذ أى اجراء ضد الموانى الفارسية لابد من دراسة الموضوع دراسة شاملة للتأكد من بطلان الاتهامات التى توجه اليهم فى هذا الشأن، ولقد أحال كير الموضوع الى القومندان بروسى ، المقيم البريطانى فى بوشهر ، بينما ابحر هو

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من حسين على ميرزا الى القائد كير شيراز ٩ ربيع الاول ١٢٣٥ الموافق يناير ١٨٢٩ وقد ارفقت نسخة من هذه الرسالة فى خطاب كير الى واردن بتاريخ ١٠/٢/١٨٢٠ .

للقيام بعملية استطلاع للساحل الفارسي وفقا للخطة التى وضعها ، بعد أن أعطى التعليمات الخاصة بعمليات نقل القوات التى أمر بأن تلحق به بأسرع ما يمكن .

وقد وجد بروسي أن هناك حالتين فقط ارتكبتهما قبائل الساحل الفارسي ضد السفن البريطانية ، احداهما هي قيام سكان خرك بنهب سفينة تحطمت بالقرب من جزيرة قيس فى عام ١٨١٤ ، والأخرى قام بها بعض العرب من سكان لنجة فى عام ١٨١٥ ، وفى كلتا الحالتين كانت هناك ظروف استثنائية لأن شيخ جزيرة خرك قد ساعد فى انقاذ حمولة السفينة الاولى واما فى الحالة الثانية التى قام بها سكان لنجة فقد كان الميناء فى ذلك الوقت تحت سيطرة سلطان بن صقر ولم يكن تحت سلطة شيخها الحالى محمد بن قضيب ، وقد انهى بروس خطابه بقوله « لقد ظلت الموانى الفارسية تقاوم محاولات القراصنة لضمهم الى صفوفهم غير اننى اشك فى انهم كانوا سيتعاونون مع القراصنة لو انهم وجدوا مساندة حقيقية من رؤسائهم فى حكومة شيراز (١) . وبالتالى فلم يكن أمام كير الا ان يصرف النظر نهائيا عن مهاجمة الموانى الفارسية وكان هذا يعنى أن الدور التأديبى للحملة قد انتهى ، ولهذا أمر كير سفن النقل التى كانت تقل الجنود الأوربيين ،وكانت راسية فى منياء قيس ، بأن تبحر الى بومباى وكان ذلك فى الأسبوع الأخير من فبراير ، أما كير نفسه فقد ابحر الىساحل القرصنة بمن بقىمعه من أفراد الحملة لكى يشرف على العمليات النهائية هناك .

وقد نتساءل هنا ما الذي دعا كير الى شن الهجوم على الموانى الفارسية فى الوقت الذى لم يكن متأكد من اشتراكها فى عمليات القرصنة ، والجواب

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٥ رقم ٩ — ١٨٢٠/٣/٨ من بروس الى كير ١٨٢٠/٢/٢٠ وقد ارفق نسخة من هذه الرسالة فى خطاب كير الى واردن بتاريخ ١٨٢٠/٢/٢٤ .

هذا السؤال نجده فى اجابة ايفان نبين الذى كان يعتقد بأن أغلبية القبائل البحرية للخليج هم قراصنة ، وذلك يعود الى قلة المعلومات التى كانت فى حوزته وحوزة حكومته عن الوضع فى الخليج ، وقد جاء فى التقرير الذى رفعه الكابتن تايلور عام ١٨١٨ ، وكان وقتها يشغل منصب المقيم البريطانى فى البصرة بأن عددا من الموانى الواقعة على الجانب الفارسى للخليج كان سكانها يتعاونون مع القواسم ، ولكن يبدو ان هذا الرأى كان مبنيا على الافتراض فقط وهو رأى كان يؤيده فى نفس الوقت ايفان نبين ، وهو على أساس أن سكان الموانىء الفارسية من أصل عربى عموما ، ومنهم كثير من القواسم ، ولما كان بعضهم واقعا تحت سيطرة النفوذ الوهابى فانهم لابد وأن يمارسوا عمليات القرصنة مثل غيرهم من العرب من أبناء بلدتهم ، وقد ايد الفنستون فكرة الهجوم على الموانىء الفارسية ، كما أيدها نبين غير أنه عندما علم برد فعل الحكومة الفارسية عن العمليات المقترحة أعاد النظر فى موقفه وفعل كير مثله فهو لم يؤيد موقف كير تأييدا مطلقا فحسب وانما أصدر أمرا باتخاذ الخطوات الفورية لتعويض أهالى فارس الذين دمرت سفنهم خلال تلك الأحداث (١).

ولم تتضمن التعليمات التى أرسلت الى كير فى شهر اكتوبر ١٨١٩ أى اشارة الى عمليات ضد البحرين ، لأن نبين وبقية اعضاء المجلس لم يتفقوا على السياسة الواجب اتباعها تجاه تلك الامارة وقد تناول الفنستون الوضوع فى شهر ديسمبر ١٨١٩ ، وأدرك بسرعة أن خطة نبين لاخضاع البحرين لنفوذ سلطان مسقط لم تكن سياسة حكيمة ، وبالتالى فان سياسة الحياد التى ينادى بها كبير الامناء واردن كانت هى الأصوب ، وقد أوضح الفنستون هذا الرأى بقوله : ... اننا يجب أن نعارض أى خطوة لاحتلال البحرين،

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٦ رقم ١٠ بتاريخ ١٨٢٠/٢/٥ محضر من اعداد الفنستون ١٨٢٠٤٣/١٥ .

وذلك بأن نوضح لحاكمها انه طالما استطاع أن يمنع رجاله من ممارسة أعمال العدوان والسلب في البحار واستمروا فى ممارسة نشاطاتهم التجارية المشروعة التى اعتادوا عليها فان موانى الهند سوف تبقى مفتوحة امام سفنهم ، كما يمكنه أن يتوقع من الحكومة البريطانية كل تشجيع ومعاملة ودية، وعلى العكس من ذلك اذا ظهرت اى ميول عدوانية من جانب رعاياه فاننا سوف نضطر الى اتخاذ الاجراءات الردعية (١) ضدهم .

ورغم وضوح هذه التصريحات ، الا انها لم تكن تعكس موقف الفنستون الكامل من الموضوع ففى نفس التاريخ الذى قدم فيها الفنستون مقترحاته الى الحاكم العام كتب الى ويلوك فى طهران يقترح عليه محاولة كسب ود الشاه عن طريق التلميح له بأن الحملة على القرصنة قد تسفر عن استعادته لبعض الموانىء والجزر التى انفصلت عن فارس ابان المد الوهابى فى الخليج ، وبأن بريطانيا قد تتوسط له فى الحصول على اعتراف من شيوخ آل خليفة بسيادته على جزر البحرين بشرط أن لا يكون للبريطانيين دور فى المفاوضات التى ستجرى بهذا الشأن وبشرط أن يبقى آل خليفة حكاما للبحرين ، وكان الفنستون على يقين من أن السيد سعيد سوف يتقبل بروح ودية رفض مطالبه بشأن البحرين ، وجاء فى رسالة الفنستون للحاكم العام « اننا نأمل الا نلاقى أدنى صعوبة فى اقناع السيد سعيد بأنه من الأفضل له العمل على تدعيم وتقوية موارده وممتلكاته الراهنة بدلا من اضعافها عن طريق سياسة التوسع والضم (٢) .

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٣ حلقة ٥٣ — ١٨١٩/١٢/١٥ من مجلس الحاكم الى الحاكم العام بنفس التاريخ .

(١) محادثات حكومة بومباى السرية سلسلة رقم ٥٣ مجلد ٤٣ — ١٨١٩/١٢/١٥ من الحاكم الى مجلس الحاكم العام بنفس التاريخ .

ان سبب تردد الفنستون يعود الى اقتناعه بأن وجود قاعدة بريطانية دائمة فى الخليج شرط أساسى للقضاء على أعمال القرصنة . فاذا أمكن كسب ود الشاه عن طريق الحصول على اعتراف من شيوخ آل خليفة بسيادة فارس على الجزيرة من غير أن يمس ذلك الاعتراف استقلال الشيوخ فان ذلك سوف يشجع الشاه على التنازل لهم عن احدى الجزر التابعة له على الساحل الفارسى ، والأفضل ان تكون تلك الجزيرة هى جزيرة قشم حتى يتسنى استعمالها كقاعدة للاسطول البريطانى ، غير ان الأمور سارت على غير ما توقع الفنستون .

وقبيل مغادرة السيد سعيد رأس الخيمة سأل كير عما اذا كان ينوى التوجه الى البحرين فأجابه كير بأنه لم يتلق أى تعليمات بهذا الخصوص . وعندئذ عاد السيد سعيد يسأل عما اذا كان لدي حكومة بريطانيا اى اعتراض على قيامه بضم البحرين اليه ، فرد كير بأن السيد سعيد حاكم مستقل ومن حقه أن يتصرف كما يشاء ، غير أن ذلك الرد لم يصادف هوى السيد سعيد فقد كان يتوقع أن يعرض كير مساعدته فى احتلال البحرين . وبذلك لم يعد أمامه غير العودة الى التفاوض مع أمير اقليم شيراز للقيام بحملة مشتركة لاخضاع البحرين .

وقد زار مبعوث للشاه السيد سعيد فى رأس الخيمة يوم ٢٥ ديسمبر كما زاره مبعوث آخر فى مسقط بعد عودته مباشرة فى الأسبوع الثانى من يناير .

ويبدو أن الأمير هو الآخر متلهفا لاحياء فكرة الحملة المشتركة، وعلى الأخص أنه لم يكن يعرف حقيقة نوايا كير بالنسبة للبحرين (١) . وقد أعرب حسين ميرزا فى رسالة بعث بها الفنستون أثناء وجوده فى رأس الخيمة عن قلقه ازاء خطط كير بالنسبة للجزيرة ، وتحدث عن وجود جيش

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من كير الى ويلوك يناير ١٨٢٠ .

قوى مزود بكافة أسلحة الحرب تم حشده للاستيلاء على البحرين ، وأن الجيش اصبح على أهبة الاستعداد للزحف الى منطقة الساحل (١) ثم وردت رسالة أخرى منه فى بداية يناير يقول فيها انه سوف يصل كنجون فى منتصف الشهر ليتحرك منها الى البحرين ، وقد اقترح الأمير فى رسالته انه بالنظر الى تقارب الآراء والتفاهم القائم بينهما فانه ، أى كير ، قد يحتاج الى مهلة ليعود بسفنه لتقوم بنقل قوات الشاه (٢) ولكن كير تجاهل الرسالة ، الأمر الذى أثار امتعاض الأمير الفارسى فعاد فأرسل خطابا آخر الى كير فى أواخر شهر يناير يذكر فيه : «... أن البحرين تعتبر بشكل قاطع احدى توابع حكومة فارس » .

وتنفيذا لأوامر صاحب الجلالة الفارسية ، سوف نستولى عليها هذا العام ، وبناء على ذلك فانى أرجو الا تكون لديكم تصورات خاطئة حول هذا الموضوع بما يتعارض مع الصداقة الثابتة بين دولتينا وانكم .... سوف تتصرفون وفقا لما بيناه فى رسالتنا هذه » (٣) .

ولكن كير كان أبعد من أن يفكر « أفكارا خاطئة » بشأن البحرين ، وانما كان فى ذلك الوقت مشغولا بخطاب الفنستون المؤرخ ١٨١٩/١٢/١٥ . الى الحاكم العام وبوصول القائم بالاعمال البريطانى فى طهران ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بالتفكير فى موضوع التدخل فى مشكلة البحرين وفى

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من حسين ميرزا الى حاكم بومباى وقد وصلت الرسالة الى رأس الخيمة فى ١٨١٩/١٢/٢٥ وقد ارفق نسخة منها فى خطاب ويلوك الى اللجنة السرية فى ١٨٢٠/٣/٦ .

(٢) من حسين على ميرزا الى كير (وقد وصلت الرسالة الى رأس الخيمة فى ١٨٢٠/١/٩ وقد ارفق نسخة منها فى خطاب ويلوك مؤرخ ١٨٢٠/٣/٦ المشار اليه آنفا .

(٣) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٥ حلقة ٩ــ ١٨٢٠/٣/٨ من حسين على ميرزا الى كير فى ربيع ١ ـــ ١٢٣٥هـ يناير ١٨٢٠ ومرفق فى خطاب كير الى واردن ١٨٢٠/٢/١٢ .

المحاولات التى كانت تبذل لاحتلالها ، او فى موضوع التوسط للحصول على اعتراف من شيوخ البحرين بالسيادة الفارسية على الجزيرة وعلى أى حال فقد اهتدى الفنستون فى نفس الوقت الى فكرة أخرى، فقد علم لتوه بوصول خطاب من حسين على ميرزا الى كير يطلب فيه مده ببعض سفن النقل وباستئناف المفاوضات بين الأمير والسيد سعيد للقيام بغزو مشترك للبحرين، فوجد فى ذلك الخطاب فرصة مناسبة لمحاولة الوصول الى حل لمشكلة البحرين بطريقة ترضى جميع الأطراف المعنية ما عدا آل خليفة ، وفى يوم ٢٦ يناير صدرت تعليمات الى كير منا ، وهى أنه فى حالة اضطراره الى القيام باجراء ضد آل خليفة فيتعين عليه بعد استيلائه على البحرين أن يسلمها الى سلطان مسقط نظير دفع زكاة سنوية الى حكومة فارس اما اذا اعترض امير شيراز على ذلك الاجراء فانه يتعين على كير أن يسلم الجزيرة الى اى مسئول يعينه الامير لحكمها وبأن يستغل تلك الفرصة للحصول على موافقة الحكومة الفارسية على اقامة قاعدة بريطانية فى جزيرة قشم .

غير أن ذلك لم ينفذ اطلاقا ، وفى الأسبوع الاخير من يناير وصل مبعوث من شيوخ آل خليفة الى معسكر كير فى رأس الخيمة برسالة من شيخى البحرين وهما سلمان وعبد الله ابنا أحمد وكانا متخوفين من نوايا كير ، وقد ازدادت مخاوفهم هذه بعد وصول وحدة جديدة من الأسطول بقيادة ويلوك الى المنامة يوم ١٧ يناير للبحث عن بعض السفن التى كان يظن أنها قد لجأت الى البحرين ، وقد قام الشيوخ بتسليم جميع السفن الموجودة فى الميناء ، وعددها عشر الى ويلوك الذى أمر باحراقها . بعد أن تعهدوا له بعدم التعاون مع القراصنة أو السماح لهم باستعمال موانىء البحرين (١).

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كابتن كوليير ١٨٢٠/١/٢٣ . وقد ارفقت صورة منه الى خطاب ويلوك الى اللجنة السرية طهران فى ١٨٢٠/٣/١٣ .

كما أوفدوا مبعوثا آخر الى كير يعرضون الانضمام الى معاهدة السلم العامة، وبالتالى وبناء على التعليمات التى كان قد تلقاها كير من الفنستون المؤرخة ١٨١٩/١٢/١٥ بمعاملة آل خليفة معاملة خاصة طالما أنهم لا يشتركون فى أعمال القرصنة فقد وافق كير على طلبهم ، وقد حصل كير من المبعوث على تعهد خطى لاطلاق سراح أى أسير هندى يوجد فى البحرين وبالامتناع عن التعاون مع القراصنة أو الاتجار فى السلع المنهوبة ، وعلى هذا الأساس سمح كير للمبعوث بالتوقيع على الاتفاق بالنيابة عن حكام البحرين ،وكان ذلك يوم ٥ فبراير . وفي وقت متأخر من ذلك الشهر صدق سليمان وعبد الله على المعاهدة شخصيا فى البحرين .

من هناك اتجه مبعوث آل خليفة الى مسقط للتفاهم مع حاكمها على بعض نقاط الالتقاء وقد امر كير بالمساعدة غير المباشرة فى مهمته مع السيد سعيد ، وكان كير قد سبق له أن كتب الى السيد سعيد ، يحذره من أن الحكومة البريطانية فى الهند لن تنظر نظرة ارتياح الى وقوع أى معارك فى الخليج تؤدي الى بعث الفوضى فيه من جديد ، كما يبلغه نصيحة الفنستون، إنه من الأفضل له أن يوجه طاقاته نحو معالجة التدهور الاقتصادى فى بلاده كنتيجة لاعتداءات الوهابيين على عمان ، بدلا من القيام بمغامرات خاصة ، ولكن السيد سعيد لم يرحب بتلك النصيحة ، وفى منتصف فبراير كتب الى كير يقول له ، بأنه من المستحيل عليه أن ينسى المتاعب التى قاستها عمان على يد آل خليفة (١) . وبعد ذلك بوقت قصير عاد السيد سعيد فكتب الى كير رسالة يقول فيها ، بأنه قد توصل الى اتفاق مع المبعوث البحرينى وبذلك لم تعد هناك ضرورة للقيام بهجومه على البحرين فقد اعترف له آل

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٥ حلقة — ٩ — ١٨٢٠/٣/٨ من السيد سعيد الى كير ٣ جمادى الاولى ١٢٣٥ الموافق ١٨٢٠/٢/١٧ .

خليفة بالسيادة ، كما وافقوا بأن يدفعوا له زكاة سنوية قدرها ٣٠٫٠٠٠ ريال نمسوى (١) .

وبانضمام البحرين الى المعاهدة العامة وقيام الصلح بين السيد سعيد وآل خليفة أفسدت خطة الفنستون لاستخدام الجزيرة كأداة للحصول على امتيازات من الشاه . وعلى الرغم من أن الشاه قد رفض فى البداية اعتبار موضوع انضمام آل خليفة الى المعاهدة بأنه اعتراف ضمنى من حكومته للوضع المستقل للبحرين ، الا انه عاد فى النهاية وخاصة بعد محاولات واردن معه فوافق على أن تتعهد الحكومة البريطانية بعدم تأييد سعيد لاخضاع البحرين واشعاو الشاه بأن اى محاولة من جانب السيد سعيد بفرض مطالبه بالقوة على البحرين قد يؤدى الى تعكير حالة السلم والاستقرار في الخليج وبأن حكومة الهند سوف تنظر باستياء الى مثل هذه الأمور (٢) .

وانتهت الحملة على سواحل القراصنة فى مارس ١٨٢٠ وكان معظم سفن نقل الحملة قد عادت الى بومباى ، عندما قام كير بزيارة أخيرة الى الساحل الغربى فى الاسبوع الثانى من مارس ، وبالقرب من فليحة يوم ١٨٢٠/٣/١٥ استقبل كير شيوخ عجمان وأم القوين على ظهر الطرادليفربول، قبل اشتراكهم فى معاهدة الصلح . وكان كير قد وافق سابقا على اشتراك سلطان بن صقر شيخ الشارقة فى التوقيع على المعاهدة ، وقد ادعى سلطان بأن راشد بن أحمد شيخ عجمان وعبد الله بن راشد شيخ أم القوين خاضعان له وأن توقيعه على المعاهدة يشمل هذين الشيخين غير أن كير لم يعلق على ذلك الموضوع ، ولكنه بعد أن فكر قليلا فى الموضوع قرر بأنه لابد من وضع

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٦ حلقة ١٠ —١٨٢٠/٤/٥ من كير الى واردن ١٨٢٠/٤/١ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٦ حلقة ١٠ بتاريخ ١٨٢٠/٤/٥ محضر الفنستون برودا مارس ١٨٢٠ .

حد لادعاءات القواسم بالسلطة عن طريق الاعتراف بالشيخين المذكورين كحاكمين مستقلين . وعلى ذلك الأساس تم ضمهم الى المعاهدة يوم ١٥/٣٠

ولنفس الأسباب عندما قام كير بزيارته الاخيرة لرأس الخيمة لم يعهد بمسئولية الحكم الى سلطان بن صقر وانما أجل البت في هذا الموضوع، وكانت التعليمات التى تلقاها من كير تنص على مرابطة قوة عسكرية فى الخليج تقوم بمراقبة تحركات القواسم ، ولكن بشرط أن لا ترابط تلك القوة داخل البلد ، حتى لا يثير وجودها التوتر فى الأوساط القبلية ويعطيها الانطباع بأن للحكومة البريطانية أطماعا اكثر تتعدى القضاء على القرصنة وحتى ذلك التاريخ لم يتحقق شيء فى موضوع الحصول على جزيرة لانشاء قاعدة بها ولم يبق أمام كير الا أن يترك القوة العسكرية لترابط فى راس الخيمة وتتألف من فصيلة من الجنود وسريتين من المشاه الاوربيين وبطارية مدفعية، وعين على رأس تلك القوة الكابتن طومسون ، وفى يوم ١٨٢٠/٣/١٦ أبحر كير من منطقة الساحل للمرة الأخيرة وتوجه الى بومباى .

الفصل الخامس
البحث عن قاعدة في الخليج
والحملة على قبيلة بنى بوعلى
١٨٢٠ - ١٨٢٣

فى المناقشات التى دارت فى بومباى خلال عام ١٨١٩ حول مستقبل السياسة البريطانية فى الخليج كان هناك اجماع تام على ضرورة الحصول على قاعدة دائمة لبريطانيا فى الخليج ، وذلك للحيلولة دون ظهور نشاط جديد للقراصنة بعد انتهاء الحملة ضدهم ، وكان الرأى يتجه الى انشاء القاعدة فى موقع يشرف على خليج هرمز على مسافة غير بعيدة من مناطق القرصنة ، فلو توفرت قوة عسكرية بهذا المستوى فانها بالاضافة الى عمليات الدوريات البحرية للأسطول سوف تنجح فى منع القبائل البحرية من استئناف نشاطاتهم العدوانية وكان العاملون فى مراكز الشركة فى كل من البصرة وبوشهر قد سبق أن طالبوا أكثر من مرة بنقل تلك المراكز الى احدى الجزر ، غير أن اقتراحاتهم لم تنفذ ، ربما لأن فشل المركز الهولندى فى خرك سابقا كان قد دفعهم الى ذلك ، ولعل رجال الشركة لم يروا أى فائدة من مثل تلك الخطوة بحيث توازى ما يصرف عليها من نفقات .

وقد دعا مالكولم الى احياء تلك الفكرة بين عام ١٨٠٠ ، ١٨٠١ عندما حاول ولم ينجح فى اقناع الشاه بالتنازل عن جزيرتى قشم وُهنجام أو تأجيرهما . وفى عام ١٨٠٨ ، وجه مالكولم اهتمامه الى جزيرة خرك ، ودعا الى الاستيلاء عليها ولو بالقوة اذا اقتضى الأمر . وبعد مضى عام على ذلك كلف قواد الحملة ضد القواسم بأن يبحثوا عن الجزر والمواقع التى تصلح أن تكون قواعد عسكرية بحيث يمكن منها مكافحة أعمال القرصنة ومراقبة النشاط الذى يقوم به الفرنسيون فى كل من فارس وتركيا العربية ، وقد

اقترح هؤلاء جزيرة هنجام ، غير أن حكومة بومباى لم تكن فى وضع يسمح لها بالحصول على تلك الجزيرة ، أو تملك القوة العسكرية لاقامة القاعدة المقترحة ، وفى عام ١٨١٧ اقترح هنرى ويلوك ، القائم بالأعمال فى طهران على وزير الخارجية الفايكونت كاستلريج الحصول على قاعدة فى الخليج وقال ، بأن ذلك سوف يساعد على وقف القرصنة وتدعيم النفوذ البريطانى فى فارس الذى أصبح من المحتمل أن يتقلص أمام محاولات روسيا لتوطيد أقدامها فى فارس (١) . غير أنه لم تتوفر دلائل على الأخذ بذلك الاقتراح .

عندما أصدر نبين تعليماته الى كير فى شهر اكتوبر ١٨١٩ طلب اليه أن يتحرى عما اذا كانت جزيرة قشم تصلح كقاعدة عسكرية وكان نبين يعتقد بأن قشم تخضع لسلطة السيد سعيد حاكم مسقط خضوعا كاملا ، وذلك على أساس المعلومات التى كان سادلر قد نقلها عن السيد سعيد خلال اجتماعه به فى مسقط فى شهر مايو من ذلك العام ، وكان السيد سعيد قد أبلغ سادلر فى ذلك اللقاء بانه قد ورث ملكية جزيرة قشم عن والده سلطان ابن أحمد الذى كان يسيطر عليها بحكم الاحتلال ، ولم يكن يدفع الى فارس أى زكاة عنها ، وفضلا عن ذلك فانه لم ترد فى المرسوم (الفرمان) الذى تلقاه كير من الشاه فى موضوع تأجير بندر عباس وتوابعها ما يشير الى وضع جزيرة قشم (٢) . غير أن موضوع السيادة على قشم لم يكن بالسهولة التى صورها السيد سعيد للمبعوث البريطانى ، ففى تقرير للكابتن تايلور عن موانى القرصنة أعده فى عام ١٨١٨ ذكر بأن السيد سعيد كان يحكم

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٣ من ويلوك الى كاستلزيج ، طهران ١٨١٧/٤/١٦ .

(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٢٦ — ١٨١٩/٧/٢١ . من سادلر الى الحاكم العام مسقط فى ١٨١٩/٥/١٧ .

جزيرة قشم بطريق الالتزام من الشاه (١) كما ذكر ذلك فرانسيز واردن فى العام التالى .

وعلى أساس التصريحات التى كان قد ادلى بها قبل سنوات كل من الحاكم جوناثان دنكان والكابتن سيتون المقيم البريطانى السابق فى مسقط فانه لم يكن للسيد سعيد أى حق فى الجزيرة ، وأن أى محاولة لوضع قوات عسكرية فيها دون موافقة الشاه سيعد انتهاكا لسيادة الشاه على حد اعتقاد واردن (٢) . وعلى الرغم من ان مونستورت الفنستون كان اقرب الى آراء نبين فيما يتعلق بموضوع السيادة على جزيرة قشم منه الى آراء واردن، الا انه كان يفضل استطلاع رأى الشاه اولا قبل القيام بأى خطوة لاحتلال الجزيرة ولهذا كلف ويلوك فى التعليمات التى أرسلها اليه بتاريخ ديسمبر ١٨١٩ . بأن يتحرى الموضوع فان وجد أن الشاه قد تخلى عن مطالبه فى الجزيرة ، وبأن السيد سعيد هو صاحب السيادة الحقيقية عليها فيتعين عليه أن يقرر ما اذا كان من الضرورى الحصول على موافقة الشاه او الاكتفاء باشعاره بعزم بريطانيا على احتلال الجزيرة . ولم يمض وقت طويل على ارسال خطاب الفنستون الى ويلوك حتى عرف الفنستون من الطبيب الجراح اندرو جيوكس ، الذى زار مسقط فى شهر نوفمبر ١٨١٩ فى بداية الحملة، بأن قشم لم تكن تتبع فارس منذ أيام نادر شاه ، وأن السيد سعيد هو الذى كان يعين ولاة الجزيرة . وقد اكدت المعلومات على سيادة السيد سعيد على قشم ، وعلى هذا الأساس اصدر الفنستون فى شهر يناير ١٨٢٠ أوامره الى كير بأن ترابط القوة العسكرية التى ستتخلف فى المنطقة بعد الحملة على جزيرة قشم بصرف النظر عن ردود فعل الحكومة الفارسية حول هذا الموضوع .

---

(١) محادثات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٣ .
(٢) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١ رقم ٣٧ — ١٨١٩/٩/٢٠ محضر من اعداد واردن ١٨١٩/٨/١٢ .

عند وصول هذه التعليمات الى كير، كان كير قد زار قشم ووجدها غير صالحة لتكون قاعدة لأن طقسها غائم باستمرار ومعرضة لتيارت الهواء ولا يوجد بها ماء صالح للشرب ، وتعتمد فى الحصول على المواد الغذائية من داخل البلاد ، كما أخبره الكابتن كولير قائد الحملة بأنه لايوجد فى الجزيرة منطقة صالحة لرسو السفن ، وأن موقعها يقع فى الاتجاه المعاكس لهبوب الرياح أكثر أيام السنة كما أن صغر مساحتها يجعل الدفاع عنها صعبا كذلك فان عدم وجود ميناء صالح يجعلها غير صالحة كمركز للتجارة وعلى العكس من ذلك كانت جزيرة قيس الواقعة الى شمال هذه الجزيرة تضم بضعة مراسى ممتازة ، وبها مياه صالحة للشرب كما تتميز بوفرة المواد الغذائية فضلا عن انها تقع على خط المواصلات الملاحى الرئيسى وقريبة من الموانى الفارسية التى يسيطر عليها القواسم . وعلى أساس هذه الاعتبارات قرر كير أن يتجاهل أوامر الفنستون وتحذيراته السابقة من مرابطة الجنود فى المناطق الداخلية ، كما قرر أن يعين الكابتن توماس قائدا للفصيلة التى ستبقى بمنطقة راس الخيمة ريثما تعرف نتيجة المحاولات الجارية لاقناع فارس بالتنازل عن الجزيرة المذكورة ، وقد تناول ويلوك موضوع جزيرة قشم مع وزراء الشاه فى الأسبوع الثانى من شهر مارس ١٨٢٠ اى قبل أن يعلم بما جد من تطورات . وقد أجرى محادثاته معهم على أساس خطاب الفنستون المؤرخ ١٨١٩/١٢/١٥ . الذى توخى فيه آراء كير وويلوك بالاضافة الى التعليمات الخاصة بقشم بابلاغ حكومة فارس عن استعداد الحكومة البريطانية للتوسط مع شيوخ البحرين للحصول على اعتراف منهم بسيادة فارس على البحرين مقابل موافقة الشاه على انشاء قاعدة عسكرية بريطانية دائمة فى الخليج .

وبعد أن شرح ويلوك لوزراء الشاه راى حكومة بومباى فى انه لايمكن القضاء على القرصنة بصورة نهائية الا بوجود موقع تدار منه العمليات الخاصة بهذه المهمة ، كما أبلغهم بأن النية كانت تتجه الى مرابطة قوة عسكرية

في جزيرة قشم بعد انتهاء حملة كير ، اما اذا ظهر أن قشم التي تعتبر في حوزة سلطان مسقط لا تصلح كقاعدة فانه مفوض بأن يطلب من حكومة فارس التنازل عن منطقة اخرى أو تأجيرها بشرط ان تكون صالحة لهذا الغرض وأن وجود مثل هذه القاعدة كما قال ويلوك لن يساهم في تأكيد سلطة حكومة فارس على موانيها فحسب وانما سينفتح الطريق الى ان تصبح الجزر المستقلة الآن عن فارس خاضعة لسلطة الحكومة الفارسية ، سواء بالترغيب أو الترهيب (١) .

وكان رد الحاج حسين الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) على طلب ويلوك بان اقامة قاعدة عسكرية بريطانية بالقرب من سواحل فارس أمر لن يوافق عليه الشاه ، كما اضاف بأن الشاه في الوقت الذي يقدر كل التقدير المكاسب التي سوف تعود عليه من تحالفه مع البريطانيين الا أنه لا يرغب أن يحدث ما يعكر صفو هذه العلاقات ، وقد سبق للشاه أن تلقى طلبا للتنازل عن احدى الجزر ، ولكنه رفض ذلك ، كما ذكر رئيس الوزراء ، بأن الدول التي تفصل بين حدود بعضها البعض مسافات شاسعة هي اكثر نفعا من الدول المتاخمة لبعضها البعض وأضاف الصدر الأعظم بأن امام مسقط يحتل قشم بموافقة حكومة فارس وذلك على غرار اشرافه على شئون بندر عباس .

وقد رد ويلوك على هذه الحجة فأشار الى المكاسب التي قد تترتب من التحالف البريطاني الفارسي ، وعلى الأخص في ميدان التبادل التجاري بين فارس والهند والذي لا يمكن أن يزدهر مالم يتحقق الأمن والاستقرار في الخليج ، والذي لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق الوجود البريطاني العسكري في المنطقة . ولو كان في نية الحكومة البريطانية شن هجوم على اي جزء

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كير ١٨٢٠/٣/١٠ ومرفق بخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٠/٣/١٧ .

من اراضى فارس فقد كان فى استطاعتها شن مثل هذا الهجوم بسهولة من القاعدة البريطانية فى رأس الخيمة بدلا من بعض الجزر البعيدة عن الساحل الفارسى ، وأضاف ويلوك بلهجة تحذيرية ، بأنه فى حالة استمرار الشاه فى رفضه لاقامة قاعدة بريطانية فان من المحتمل أن يخسر الشاه حق السيادة على كافة الجزر الواقعة فى الخليج ، كما انه لو حدث أن تعرضت البحرين لغزو ما ، ولم ينجح الغزو ورفضت الوساطة البريطانية فلن يكون فى وضع يسمح له بأن يؤكد بأن الحكومة البريطانية لن تتوسط فى موضوع احتلال البحرين (١) . غير أن كل تلك الحجج لم ينجح فى تبديد مخاوف الشاه ووزرائه . وجاء فى تقرير ويلوك أن اعتزاز الفرس ببلدهم قد جعلهم يعتبرونها أحسن بلاد العالم قاطبة ، وان بلادهم قد أصبحت هدفا للأطماع ومحطا لانظار جميع الدول المجاورة .

لم يرد اى ذكر لموضوع القاعدة مرة أخرى من جانب الشاه لمدة شهرين، ويعود السبب فى ذلك حسب معلومات ويلوك الى تعقد الشاه من هذا الموضوع غير انه فى يوم ٥ مايو أبلغ الصدر الأعظم ويلوك ، بأن الشاه لايزال متمسكا بموقفه فى عدم التنازل عن اى جزيرة للحكومة البريطانية وان هذا يشمل أيضا جزيرة قشم التى كان السيد سـعيد يهيمن عليهـا باعتبارها منطقة تابعة لبندر عباس ، وأضاف الصدر الأعظم فى حديثه بأنه لن يسمح للطرادات البريطانية بتفتيش الموانى الفارسية وسفنها او لتعقب نشــاط القراصنة كما يحدث فى الموانى الواقعة على ساحل القرصنة ، وقد كلف الشاه امير شيراز باعداد القوانين الملاحية لتطبيقها على الموانىء والسفن الفارسية ، التى سيتعين عليها اعتبارا من ذلك التاريخ بأن ترفع اعلامها المميزة ، وبعث ويلوك بهذه المعلومات الى السلطات المسئولة فى بومباى دون التعليق عليها غير أن الفنستون لم يحملها محمل الجد . فقد كان يشك فى

(١) فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى كير ١٨٢٠/٣/١٠ . ومرفق لخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٠/٣/١٧ .

ما اذا كان أمير شيراز سوف يصدر بالفعل تلك الأنظمة والاعلام المميزة ، وكان يعتقد بأن الشاه سوف يقتنع فى النهاية بالفوائد التى سيجنيها من الوجود العسكرى البريطانى فى جزيرة قشم ، وعلى الرغم من أن الفنستون قد سبق أن طلب من ويلوك فى بداية ابريل ، اى بعد أن تلقى تقرير كير عن جزيرة قيس الاتصال بالشاه والحصول على موافقته على احتلال جزيرة قيس بدلا من جزيرة قشم الا انه قد اتضح الآن من خلال تقرير ويلوك الموقف العدائى لطهران ، بأن يصرف النظر عن اى شىء وعلى هذا الأساس فعندما كتب ويلوك فى يوليو يقول انه بالنظر الى الملابسات التى تحيط بالعلاقات الفارسية البريطانية فى الوقت الحاضر ، فليس من الصواب أن نطلب من الشاه التنازل عن جزيرة قيس ، وبالتالى اقترح بعدم اثارة موضوع القاعدة كليا ، وكل ما كان عليه أن ينقل للحكومة فى بومباى أى مطالب يتقدم بها الشاه بالنسبة لجزيرة قشم ، وقد تم نقل الوحدة العسكرية التى عينها كير فى راس الخيمة الى جزيرة قشم فى شهر يوليو ، خصوصا وأن كير قد أكد على وجوب نقل القوة بأسرع ما يمكن لأن المناخ فى رأس الخيمة لم يكن صحيا ، وكانت البلدة تعانى من نقص فى مياه الشرب ، وذكر أنه كلما طال بقاء القوة هناك كلما كان تورطنا فى نزاعات مع أصحاب البلاد أكثر احتمالا ، وفى منتصف ابريل وصلت تعليمات من بومباى الى الكابتن طومسون قائد الفصيلة بنقل القوة الى جزيرة قشم بمجرد موافقة السيد سعيد موافقة رسمية على مرابطة القوة فى الجزيرة ، وقد كلف قائد الفصيلة بأن يدمر كل التحصينات فى راس الخيمة عند اخلائه المنطقة وأن يحرق أو يسلم الى سلطان مسقط جميع السفن التى تم الاستيلاء عليها من القرأصنة ولم تعد فى حاجة اليها ، وبأن يسلم مهام الحكم فى رأس الخيمة الى سلطان بن صقر او اى شخص آخر يراه صالحا لذلك المنصب (١) .

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٦ رقم ١٢ فى ١٨٢٠/٤/١٩ من واردن الى طومسون ١٨٢٠/٤/١٧ .

بدأ طومسون عملية اجلاء القوات فى أوائل يوليو ، وقبل ان ينتهى من هذه العملية بدأت محاولة للحصول من سلطان بن صقر على تعهد يلتزم فيه بالشروط التى تحدد حجم وتسليح سفن القواسم وغيرها من الاجراءات الخاصة بتفتيش الموانى ، كما وردت فى التعليمات الأصلية الصادرة من الفنستون ، فى مقابل تسليم الحكم الى سلطان بن صقر ، غير أن سلطان طالب بالمقابل بالابقاء على التحصينات فى رأس الخيمة كما هى. وبالرغم من أن طومسون كان يعلم تمام العلم ، أنه بمجرد أن تغادر القوة العسكرية سيجد القواسم أنفسهم أحرارا مرة أخرى فى اعادة بناء تحصيناتهم بالطريقة التى تلائمهم ، الا أن التعليمات التى لديه كانت صريحة ، ولذلك قام بتدمير جميع التحصينات قبل ابحاره الى جزيرة قشم يوم ١٨٢٠/٧/١٨ ، ولكنه ما كاد ينزل فى منطقة ديرستان على الناحية الجنوبية من جزيرة قشم المواجهة لجزيرة هنجام ، حتى صدر الأمر اليه بالتوجه للتحقيق فى حوادث القرصنة التى كانت قد وقعت فى أوائل شهر مايو بالقرب من سواحل عمان الجنوبية ، وكان ذلك أول حـادث يقع بعـد الحملة ، وكـاد أن يؤدى الى سلسلة من الحوادث تجعل من موضوع الاحتفاظ بقوة عسكرية فى الخليج أهم الموضوعات .

وقد ذكر الكابتن بروس المقيم البريطانى فى بوشهر عند وصوله الى بومباى فى اجازة خلال الاسبوع الأول من يونيو ، بأنه قد علم عند توقفه فى مسقط فى شهر مايو بأن بعض أفراد قبيلة بنى بوعلى قد هاجموا احدى سفن كراتشى وقتلوا معظم بحارتها ، وقد وقع الحادث فى بداية الشهر ، وذكر بروس بأن بنى بوعلى هى احدى القبائل العمانية التى تقطن مقاطعة جعلان ويبلغ عددها ٤٠٠٠ شخص ، وهى تقيم فى الغالب فى منطقة الأشخرة على الساحل ، وفى بلاد بنى بوعلى بداخلية عمان حيث تملك بعض مزارع النخيل وخـلال الغزو الوهابى للمنطقة اعتنق افراد هـذه القبيلة المذهب الوهابى ، كما أنهم فى عام ١٨١٨ ثاروا على السلطان السيد سعيد ، ومنذ

ذلك الوقت أخذوا يمارسون القرصنة ، فهاجموا سفينة تابعة لكراتشى وسفينتين (١) وعند وصول هذا التقرير الى الفنستون أصدر تعليماته الى طومسون باجراء تحقيق فى ذلك الحادث ، فان صحت المعلومات التى وردت فى تقرير بروس فيتعين عليه ان يوجه خطابا الى شيوخ قبيلة بنى على يشرح لهم فيه السياسة البريطانية المعلنة بالنسبة لأعمال القرصنة ، وينصحهم بالكف عن هذه الأعمال ، وفى شهر أغسطس وجه طومسون خطابا بهذا المعنى الى مشايخ بنى بوعلى حمله الطراد كرلو ، وقد توقف الطراد وهو فى طريقه الى الأشخرة فى مسقط حيث أخذ معه شيخ رأس الحد ليتولى عملية ارشاد الطراد على المنطقة . وفى يوم ٢٠ سبتمبر وصل الطراد الى الأشخرة ، ولما كان البحر هائجا فى ذلك اليوم فقد استحال على الزورق الوصول الى الشاطىء ، وهنا تطوع شيخ رأس الحد بأن يذهب الى الشاطىء سباحة حاملا رسالة طومسون ، وبمجرد أن وطأت قدمه الشاطىء فوجىء بمجموعة من قبيلة بنى بوعلى تهاجمه بالسكاكين والرماح فتصرعه ، ولم يتمكن بحارة الطراد من انقاذ حياته ، على الرغم من أنهم أطلقوا النار على المهاجمين وقتلوا ثلاثة منهم .

لم يعلم طومسون بالحادث قبل نهاية سبتمبر ، وقد تأكد له أنه لابد من القيام باجراءات انتقامية فورية ؛ فقرر أن ينقل جزءا من القوات المرابطة فى ديرستان على الطراد كرلو ، الذى كان وقتها فى مكان ما من الخليج ، وطرادين من البحرية واقلع بهم الى مسقط يوم أول اكتوبر . وقد كان السيد سعيد أبلغ مساعد طومسون انه ينوى أن يعيد تثبيت سلطته على قبائل بنى بوعلى وانه كان يزمع الخروج اليهم فى نهاية سبتمبر ، وهو الوقت الذى يتجمعون فيه لجنى المحصول . وذكر السيد سعيد انه لما كان طومسون قد قرر اتخاذ اجراء ضد بنى بوعلى جزاء اعتدائهم على سفينة كراتشى ، فانه

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من بروس الى واردن ١٨٢٠/٧/٣ .

يقترح التنسيق بين الجانبين .. واعتقادا من طومسون بأن التعليمات التى وصلته من حكومة بومباى تخوله اتخاذ مثل تلك الخطوة ، وقد تم الاتفاق على أن تتحرك قوات السيد سعيد برا الى جعلان ، وأن يتحرك طومسون باسطوله عن طريق البحر وأن تتقابل القوتان فى صور .

وقد وافق الفنستون على الخطة بعد الاطلاع عليها واشترط أن يلتزم طومسون بعدم التعرض اطلاقا للمناطق الداخلية من البلاد . غير أن هذه الأوامر التي ارسلت فى أواخر اكتوبر لم تصل فى وقتها، وقد التقت قوات طومسون بقوات سلطان مسقط فى صور يوم ٢٦ اكتوبر وفى أول نوفمبر بدأت الحملة المشتركة زحفها الى المنطقة الداخلية وكانت القوات العمانية تتألف من الف مقاتل و ٦٠٠ من راكبي الجمال . أما القوات البريطانية فكانت تتألف من ٦ سريات من الجند من الفصيلتين الأولى والثانية ، ومن الفرقة الثانية ، ومن مشاة بومباى ، ومن الفصيلة الأولى والفرقة الحادية عشرة وبطارية مدفعية مكونة من ٦ مدافع وسرية استطلاع . وفى يوم ٨ نوفمبر وصل الجيش الى بلاد بنى بو حسن وهى قرية تبعد نحو ثلاثة اميال من بلد بنى بوعلى . وكانت القبيلة فى هذه القرية من القبائل الموالية للسيد سعيد. وقد وصلت معلومات مفادها أن بنى بوعلى قد ركزوا قواتهم المقاتلة والبالغ عددها ٩٠٠ رجل فى بلدتهم ، وداخل مزارعهم وأنهم احرقوا بلدة الأشخرة وأخلوها بعد أن علموا بوصول القوات البريطانية العمانية المشتركة .

وفى يوم ٨ نوفمبر بعث السيد سعيد الى مشايخ بنى بو على يطلب منهم تسليم قتلة شيخ رأس الحد ، واخلاء حصونهم وتسلم أسلحتهم فأجابوا بأنهم مستعدون لتنفيذ المطلبين الاولين ؛ فيما عدا المطلب الثالث الخاص بتسليم سلاحهم . ولما كان طومسون لم يحضر الى المنطقة لمساومة بنى بوعلى فقد قرر مهاجمتهم ، وفى صباح يوم ٩ نوفمبر زحفت القوات المشتركة على بلاد بنى بوعلى مع القوات القبلية التى كان يزيد عدد أفرادها على ٢٠٠٠ رجل ، وكانت هذه القوات فى المقدمة بينما كان الجنود الهنود

وعددهم نحو ٣٨٠ رجل فى المؤخرة ، وكانت خطة طومسون تقوم على محاصرة البلدة ، وتدمير حصونها بالمدفعية ثم الزحف لاحتلالها بعد ذلك ، وبينما كان الفيلق لايزال يواصل تحركه نحو هدفه قام رجال بنى بوعلى الذين اتخذوا مواقع الدفاع على ربوة خارج البلدة حيث أخذوا يطلقون النيران ، وقد أمر طومسون الوحدة الهندية التى كانت نيران بنى بوعلى موجهة اليهم بأن يزحفوا ، ولكنهم رفضوا ، ثم أمرهم بالبدء فى اطلاق النار الا انه لم تنطلق الا طلقات متقطعة قليله من بنادقهم . وفى تلك اللحظة كان السيد سعيد قد نقل بعض رجاله الى خطوط العساكر الهنود لدعم موقفهم . وعندما وصل رجال بنى بوعلى الى نقطة لا تبعد بأكثر من عشرين ياردة من قوات طومسون عاد طومسون فأصدر أوامره الى جنوده بالزحف ، وبدلا من اطاعة الجنود لأوامر طومسون تفرقوا ، ولاذوا بالفرار شاقين طريقهم وسط قوات السيد سعيد التى كانت ترابط خلفهم ، وعندما شاهد رجال المدفعية الذين كانوا يرابطون على الجانبين الأيمن والأيسر من المعسكر هذا المشهد لاذوا هم ايضا بالفرار ، تاركين مدافعهم وراءهم ، وقد حاول طومسون اعادة الجنود الى مواقعهم ، ولكنهم كانوا قد احتلطوا بقوات السيد سعيد ، وعندئذ قامت البقية من رجال بنى بو على الذين كانوا على الربوة تشن هجوما على هذا الجيش وهكذا اضطرب الوضع ، واضطر كل من الجنود العمانيين والهنود الى الفرار فى ذعر ... وعندما رأى رجال بنى بو على الذين لم يستخدموا سلاحهم حتى ذلك الوقت الحال الذى عليه الجيش ، اخذوا يطلقون النار على جموع الجيش المتقهقر ويطعنونهم بالسيوف والخناجر .

وقد اصيب السيد سعيد بطعنة سيف عندما كان يحاول انقاذ أحد الضباط البريطانيين ، وكاد يفقد حياته هو الآخر ، لولا وجود بطال المطيرى القائد الوهابى السابق للبريمى وغيره من حرس السلطان الوهابيين الذين حموه وفتحوا له طريقا للنجاة عبر صفوف بنى بوعلى . ولقد حاول

طومسون تغطية الانسحاب عن طريق احضار وحدات الحرس المكلفة بحراسة معسكر بلاد بني بوحسن ، ولكن بالرغم من انه استطاع صد هجوم بني بوعلي لبعض الوقت ، الا انهم التفوا حول قواته واضطر الى التراجع الى بلاد بني بو حسن . وعلى امتداد السهل الذى يفصل المنطقتين كانت جثث القتلى من الجنود العمانيين وثمانية من الضباط البريطانيين ونحو ٤٠٠ عسكرى ملقاة على الأرض (١) .

فى ليل ذلك اليوم قام أفراد بنى بوعلى بالهجوم على المعسكر فى بلاد بنى بوحسن . ولكنهم صدوا على أعقابهم . وفى صباح اليوم الثانى اكتشف طومسون بأن اثنين من ضباطه، ومن بقى من طاقم المدفعية قد تسللوا من معسكرهم الى صور تحت جنح الظلام - كذلك اخذ رجال السيد سعيد يغادرون المعسكر غير عابئين بوجود السيد سعيد . وأصبح الانسحاب هو الحل الوحيد امامهم ، وبعد أن قام طومسون بتسمير المدافع (أى بسد فتحاتها لتعطيل مفعولها) والقاء مخزونه من البارود فى احدى الآبار واتلاف المؤن ، غادر مع السيد سعيد المعسكر الى مسقط ، متفاديا المرور بمدينة صور ، خوفا من أن يكون أفراد قبيلة بنى بوعلى قد سدوا مداخلها .

وبمجرد وصولهما الى مسقط يوم ١٧/١١/١٧٢٠ وجه طومسون نداء الى قائد أقرب وحدات الجيش فى السندوكتش يطلب امداده ببعض الجنود والمدافع بأقصى سرعة ممكنة ، كما أكد طومسون للسيد سعيد بأن امكانيات الحكومة البريطانية ستكون فى كل مكان تحت تصرفه اذا ما أراد ، ومن مسقط توجه طومسون الى جزيرة قشم لاعداد بقية القوات البريطانية المرابطة هناك للقيام بحملة أخرى على قبائل بنى بوعلى .

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من طومسون الى قائد القوات البريطانية فى السندوكتش ١٦/١١/١٨٢٠ . ومن خطاب طومسون الى واردن ١٨/١١/١٨٢٠ .

ومن الغريب حقا ان يتجاهل طومسون أنه كان الشخص المسئول عن الكارثة التى لحقت بالحملة على بنى بوعلى ، وعلى الرغم من أن تحذيرات الفنستون لطومسون بعدم التوغل الى داخلية البلاد قد صدرت بعد خروج الحملة ، الا ان طومسون كان ملما بها كما أن كير قد سبق ان نبهه اليها فى العام السابق عندما عينه قائدا للوحدة المرابطة فى رأس الخيمة . وحتى اذا افترضنا جدلا بأن الظروف التى احاطت بالحملة كانت تبرر له خرق تلك التعليمات ، وعلى الأخص الفقرة التى تنص على انه لا يمكن التغلب على بنى بوعلى الا بمقاتلتهم داخل اراضيهم — فقد كان يتعين عليه حصر العمليات ضمن اهدافها المشروعة — اى الحصول على التعويض عن مقتل شيخ رأس الحد وسفينة كراتشى ، ومن هنا فان موضوع تأكيد سلطة السيد سعيد على قبائل بنى بوعلى أوعدم تأكيدها موضوع خارج عن اختصاص طومسون، كما ان اشراك طومسون للسيد سعيد فى الحملة اجراء لم يكن توافق عليه السلطات الحاكمة فى بومباى ، مهما كانت الرغبة قوية فى وضع حد لتلك الأعمال ... ومع ذلك فان التقاء طومسون مع رغبة السيد سعيد فى أن يكون القائد للحملة وتجنب اعطاء انطباع عن وجود قوتين وقيادتين انـما يترك انطباعا من ان الهدف من الحملة هو تأكيد سلطة السيد سعيد على قبائل بنى بو على . ومما زاد هذا الانطباع تأكيدا ، هو رفض طومسون طلبا للسيد سعيد بتوجيه طلب مشترك الى قبيلة بنى بو على لتسليم الخصوم والاسلحة وقتلة شيخ راس الحد . وعلى حين اننا لا يمكن ان نلوم السيد سعيد على محاولته الظهور امام خصومه بمظهر من له حلفاء أقوياء ، فان رفض طومسون الاشتراك فى اصدار البيان مهما بدا ذلك سليما من الناحية النظرية ، بحكم ان قبائل بنى بوعلى هم رعايا السيد سعيد فان ذلك قد قلل الى حد كبير من مبررات الحملة ، بل انحدر بطومسون وبجنوده الى مستوى المرتزقة . كما ان اية مبررات أخرى لاجراءاته قد تبددت برفضه الرد

المعقول الذى تلقاه من شيوخ بنى بوعلى لتسليم تحصيناتهم وقتلة شيخ رأس الحد دون تسليم أسلحتهم ، وإن قوله بأنه لم يكن يريد أن يظهر بمظهر القائد المتهافت على التفاهم حجة مرفوضة .

لقد كان طومسون يعرف انه يتعامل مع وهابيين مهووسين كما كان فى استطاعته لو انه فكر قليلا ، أن يدرك بأن الحاح قبائل بنى بو على لاحتفاظهم بأسلحتهم انما كان بدافع الخوف ، وهو نفس ما حدث فى شناص قبل بضع سنوات عندما قاتل الوهابيون قتالا مستميتا ضد القوات العمانية البريطانية المشتركة كما انهم كانوا يتوقعون لو أنهم سلموا أسلحتهم أن يبادوا عن بكرة ابيهم ، وكان فى امكان طومسون أن يتجنب الكارثة لو أنه تصرف كما تصرف ليونيل سميث فى عام ١٨١٠ فأعطاهم الضمان على أرواحهم غير أنه لا يبدو أن هذا الاحتمال قد خطر على طومسون ، والواقع أن طومسون على ما يبدو ، قد أساء التصرف فى قراره بالهجوم على قبائل بنى بوعلي لأن طومسون كان قائدا ذكيا وعنيدا ولكنه كان محبا للمغامرة وكان رجلا يعتقد بأن له رسالة فى الحياة وقد تلقى طومسون دراسته فى جامعة كامبردج ، وكان ترتيبه السابع فى الرياضيات ، وبعد تخرجه التحق بالاسطول الملكى عام ١٨٠٩ ، وكان اذ ذاك فى التاسعة عشرة من عمره برتبة ضابط صف ، ولكن حياة الأسطول لم ترق له فتحول عنها الى الجيش الذى عين فيه ملازم اول فى فيلق الرماة ، وقد اشترك فى الحملة على بوينس أيرس عام ١٨٠٦ ووقع هناك فى الأسر . وعند بلوغه الخامسة والعشرين من العمر عين حاكما على سيراليون ، ولكن لم يمض عامان على وجوده فى هذا المنصب حتى ثار فيه الحماس لقضية تحرير الزنوج مما أدى الى اصطدامه بالمستوطنين البيض هناك فاستدعى من هناك ، وبعد عودته الى الجيش اشترك فى القتال الذى نشب فى الجنوب الفرنسى عام ١٨١٤ ، ثم بعد ذلك رافق فرقته السابعة عشرة الى بومباى .

ولما كان طومسون يجيد اللغة العربية التى تعلمها خلال الفترة التى التى أعقبت عودته فقد عين مترجما للجنرال كير فى سنة ١٨١٩ بدلا من الكابتن سادلر ، والى طومسون يرجع الفضل فى اضافة المادة التاسعة الى معاهدة الصلح العامة التى تنص على أن الاتجار فى الرقيق يعتبر عمـلا من أعمال القرصنة . كان طومسون يومئذ يمتلىء بالحيوية والشجاعة والعزم ، وهى الصفات التى كان يمازجها قدر من الغرور والزهو . وكان قد تعود على تحمل المسئولية ووجد فى تعيينه كمعتمد بريطانى فى المنطقة السفلى من الخليج فرصة لاستغلال مواهبه وكان يثق بنفسه ثقة عمياء ويؤمن بالمثل الانسانية. واذا اخذنا هذه الجوانب من شخصيته فى الاعتبار فاننا نجد صعوبة فى فهم الدوافع التى أملت عليه بأن يتغير من موقفه الذى كان يهـدف الى الحصول على تعويض من قبائل بنى بوعلى عن الأعمال الاجرامية التى اقترفوها والى القيام بأعمال انتقامية ضدهم واخضاعهم لسلطة حاكم مسقط كخطوة لادخالهم الى الحضارة .

وأيا كانت الأسباب التى دعت طومسون الى اتخاذ تلك الاجراءات فانه مما لا شك فيه أن هزيمته النكراء قـد قضـت على الهيبـة التى اكتسبتها العسكرية البريطانيـة من خـلال الحملة الأخيرة على القواسـم ، وكان من الطبيعى أن لا تسمح الحكومة البريطانية بالهزيمة التى لحقتها على يد بنى بوعلى بأن تستمر ، ولذلك بادرت بعد أيام من وصول أخبار الهزيمـة الى تجميع قوة عسكرية أخرى فى بومباى لمقاتلة قبائل بنى بوعلى ، وقد عقد لواء هذه القوة الى اللفتنانت كولونيل ان.بى واردن من الفرقة الخامسة والستين . وقد أبحر من بومباى فى منتصف ديسمبر قبل أن تتحرك قوته، وكلف بالاتصال بالسيد سعيد لمعرفة ما اذا كان فى استطاعته الاشتراك فى هجوم آخر على قبائل بنى بوعلى ، فان وافق فقد كان ينبغى على وارن أن يطلب منـه الخـروج الى جعـلان بأسرع ما يمكن وأن يرابط على خطوط

الدفاعات الواقعة بين الساحل وبلاد بنى بو حسن ، أما فيما يختص بالتوغل فى داخلية المنطقة ، فقد طلب الى وارن أن يرابط فى صور ، وان لا يسمح بحال أن تختلط قواته بقوات سعيد فى ميدان المعركة ، اماطومسون فقد صدرت الأوامر اليه بأن يضع نفسه تحت تصرف وارن ، واما بالنسبة لجنود طومسون التابعين للفصيلة الأولى والفرقة الثانية فكان لابد من رد الاعتبار اليهم (١) .

وصل وارن الى مسقط يوم ١٨٢٠/١٢/٢٨ وكان السيد سعيد قد شفى من جروحه وكان متلهفا للعودة الى القتال ضد قبائل بنى بوعلى مرة اخرى كما انه لم تقع اى مضاعفات عن هزيمة طومسون كما كانت تخشى حكومة بومباى ، فلم تتمرد اى قبيلة اخرى على سلطة السيد سعيد ، كما أن بني بوعلى انفسهم لم يحاولوا استغلال الانتصار الذى تم لهم ضد القوات المشتركة .

وفى الوقت الذى كانت حكومة بومباى تقوم باستعداداتها للحملة وتعكف على دراسة تقرير طومسون الذى استنتجت منه انه لابد من مضاعفة قوات الحملة لتفادي هزيمة مشينة اخرى ، ولهذا زيد عدد الجنود الى اكثر من ٣٠٠٠ نفر ، واسندت قيادته الى الكولونيل سميث الذى رقى الى رتبة لواء ليحل محل وارن ، وأبلغ بهذا التغيير فى شهر يناير ١٨٢١ وأمر بالتوجه بقواته التى كانت متجمعة فى جزيرة قشم لمقابلة سميث والاشراف على الامدادات التى أرسلت الى صور من بومباى . وقد وصل عدد رجال الحملة الى ١٢٦٣ جنديا اوربيا و ١٦٨٦ جنديا (سيوى) هنديا ، وكانت القوات تتألف من الفرقة السابعة وجناح الفصيلة الأولى ومن الفرقة الثالثة

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٢ من واردن الى وارن ١٨٢٠/١٢/١٢ . والى طومسون ايضا بنفس التاريخ .

والفصيلة الاولى والفرقة الرابعة ومن الفصيلة الثانية والفرقة التاسعة ومجموعة من فصائل المدفعية والخيالة والمهندسين وفصائل الاستطلاع.

غادرت الحملة ميناء بومباى بقيادة الجنرال سميث يوم ١٠/١١/١٨٢١ وبعد ثمانية عشر يوما من خروجها التقت بقوات وارن فى صور ، وكان من اهداف الحملة كما أوضحها سميث هو اعتقال قتلة شيخ راس الحد واعدامهم ، وتسليم سلطة المنطقة المحررة الى السيد سعيد ، واطلاق سراح الأسرى وتسليم الأسلحة التى وقعت خلال الحملة السابقة فى يد قبائل بنى بوعلى ، واخيرا استكتاب القبائل تعهدا بالكف عن مزاولة القرصنة ، فاذا تبين لسميث ان السيد سعيد لا يستطيع فرض سلطته بشكل فعال على القبائل يتعين على سميث أن يطلب من شيوخ بنى بو على التوقيع على تعهد بالامتناع عن بناء سفن مسلحة فى موانيهم بالاضافة الى فرض قيود اخرى على حجم تلك السفن واعطاء الحق للأسطول البريطانى بتفتيش تلك السفن ومصادرتها اذا لزم الأمر ، فاذا نجح سميث فى عقد لهذه الاتفاقية فينبغى ان تشمل نصوص اتفاقية الصلح العامة المعقودة عام ١٨٢٠، الافيما يتعلق بالاحتفاظ بالسجلات واذون السفر ، فاذا وافق شيوخ بنى بوعلى على هذه الشروط فعلى سميث أن يبلغهم بأن الهجوم الذى شنه طومسون على جعلان كان اجراء مخالفا لسياسة الحكومة البريطانية التى لم تخوله بذلك ، كما طلب اليه بأن يبلغ السيد سعيد ايضا ، بأن يتعهد طومسون له بوضع امكانيات الحكومة البريطانية تحت تصرفه ثم بغير موافقة حكومة بومباى ، وان الالتزامات التى تضمنها ذلك التعهد كانت تتعارض مع السياسة البريطانية فى الخليج . وكان الفنستون مهتما بصفة خاصة بمعرفة الأسباب التى دعت طومسون الى التعاون مع السيد سعيد ولذلك طلب الى سميث ، بأن يتأكد ما اذا كان قد تم بناء على طلب من السيد

سعيد ، أو انه كان بمبادرة من طومسون لدعم موقف السيد سعيد ضد القبائل (١) .

بعد يومين من وصول سميث الى صور ، وصل اليها السيد سعيد بمجموعة محدودة من القبائل ، وعند وصوله علم من السيد سعيد بأن القوات الرئيسية من القبائل سوف تصل خلال ١٠ او ١٢ يوما . وقد شعر سميث أنه بالنظر الى مشاكل النقل والتموين فانه سيكون من الصعب عليه تطبيق التعليمات التى صدرت اليه من وارن بعدم دمج قواته مع قوات السيد سعيد، وبالتالى فقد قرر الانتظار حتى تصل بقية قوات السيد سعيد قبل زحفه على داخلية البلاد (٢) . وفى ليلة ١٠ فبراير ١٨٢١ ، شن رجال بنى بوعلى هجوما مفاجئا على المعسكر البريطانى بعد أن التفوا على التلال المحيطة بالمعسكر عن طريق ملتو ، لكى يتفادوا رجال الحراسة وقد انقض ٤٠٠ من هؤلاء على مؤخرة فرقة بومباى الاوربية وقتلوا عددا منهم قبل استيقاظ افراد المعسكر وتبع ذلك التحام رهيب بين الطرفين حيث كان يجرى القتال وسط الظلام الدامس وصيحات رجال الجيش المذعورين وصهيل الخيل التى هبت مذعورة من الحادث ولم يخل الحادث من لحظات المرح ، كما ذكر فيما بعد أحد افراد فرقة بومباى الذى قال « كان هناك عدد من الضباط التابعين لسلاح النقل وكانوا يقضون بضعة أيام على الشاطىء مع بعض اصدقائهم من افراد الجيش ، وقد شوهدوا يندفعون وهم عراة الاجسام من مخيماتهم فى اتجاه المعسكر . وكان بينهم جندى شاب حديث الالتحاق بالجيش ، كان يجرى للنجاة بحياته وكان يلاحقه عربى قوى البنية

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية رقم ٣ مجلد ٤٩ س ١٨٢١/١/١٠ — من واردن الى سميث بنفس التاريخ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميث الى واردن ١٨٢١/٢/١ .

يوجه اليه طعنات من رمحه الحاد (١) . غير أن القوات تمكنت فى النهاية من ارغام قبيلة بنى بوعلى على الانسحاب مخلفين وراءهم اثنى عشر قتيلا بينما قتل من الجانب البريطانى ضابط و ١٦ جنديا وجرح ثلاثة ضباط وأربعون جنديا (٢) .

اما قوات السلطان فقد وصلت فى الأسبوع الأخير من فبراير ، وفى يوم ١٤ منه بدات القوات المشتركة تقدمها الى داخلية المنطقة يوم ٢ مارس، فوصلت الى مشارف بلاد بنى بوعلى . وفى المساء شن سميث هجومه على البلدة ونشب قتال دموى حاد، خصوصا على الجناح الايمن للقوات البريطانية، حيث ركز رجال بنى بوعلى هجومهم ، شاقين طريقهم وسط الفرقة الخامسة والستين والفصيلة الأولى ثم الفرقة السابعة حتى آخر القوات . وكانت حدة القتال فى هذا القطاع فى منتهى الشدة ، حيث استردت الفرق التى قاتلت فى الحملة السابقة مكانتها وهيبتها بجدارة اذهلت احد الضباط الذى شهد بنفسه البسالة التى ابداها مقاتلونا فى تلك المعركة .

وقد كتب فى ذلك يقول ،

« كانت المذبحة رهيبة على الجانبين : وان قوات العدو التى كانت فى المؤخرة اضطرت الى شق طريقهـا وسـط لوائنـا فى محـاولة لاستعادة مزارعها ، وكل الذين شاهدوا ذلك الهجوم الفريد ، قالوا بأنهم لم يشهدوا

---

(١) رحلة شتوية عبر روسيا وجبال القوقاز وجورجيا مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٣٩ جزء ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٥ تأليف الكابتن آرمجنان .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميث الى الادجوتانت جنرال للجيش ١٨٢١/٢/١١ . علم سميث فيما بعد ان بنى بوعلى قد اصيب منهم ٢٠ رجلا بجروح بما فيهم شيخ القبيلة نفسه .

في خيالهم جيشا قاتل بتلك البسالة التي لا نظير لها ، ولم نستطع ايقاف تقدمهم رغم قصفنا المتكرر لمواقعهم والذى كان يبيدهم باعداد غفيرة متحدين الحراب المصوبة اليهم (١) . وهكذا ابدوا صمودا في القتال وكانوا ينقضون على سياراتنا وينتزعون بنادقنا من أيدينا في محاولة لشق صفوفنا وابادتنا حتى بعد أن كانت حرابنا قد انغرست في اجسادهم » .

قبل حلول الظلام سقط اكثر من ٢٠٠ قتيلا من رجال بنى بوعلى وجرح نحو ٣٠٠ شخص ، كانت جراح ٩٦ منهم خطيرة . كما سقطت بلاد بنى بوعلى بعد التهديد بقصفها ، كما استسلم لقواتنا ٢٣٦ مقاتلا مع عائلاتهم . وكانت خسائر البريطانيين في القتال هى ٢٨ قتيلا و ١٦٩ بالاضافة الى خمسة ضباط جرحى (٢) .

وان المشكلة التى واجهت سميث فى أعقاب القتال هى كيفية التصرف بالأسرى وعائلاتهم ، وقد رفض السيد سعيد الذي لم يغادر بلاد بنيبوحسن طوال القتال ، أن يتولى أمرهم وطلب الى سميث بأن ينقل غير المصابين الى بومباى ، وبعد أخذ ورد ، وافق سميث على نقل ١٥٠ معه الى بومباى بما فيهم زعيما القبيلة اللذان اصيبا بجراح خطيرة ، بالاضافة الى خمسين صبيا يزيد عمرهم على عشر سنوات ، أما من بقى من النساء والرضع وكبار السن فقد قدمت لهم الاسعافات فى بلاد بنى بوحسن ، اما بقية الأسرى وعددهم ١٨٢ رجلا بينهم ٦٣ جراحهم خطيرة و ٣٣ من الشيوخ ، ٢٤ صبيا تقل اعمارهم عن العاشرة سلموا الى السيد سعيد ، وبما ان السيد سعيد قد رفض الاشراف على اراضى بنى بوعلى فقد امر القائد سميث بدك القلاع والتحصينات وتسويتها بالأرض . كما سمح لرجال السيد سعيد باتلاف المزارع وتغيير مجاري المياه كما اشعلت النار فى مساكن القبيلة فى الأشخرة

---

(١) رحلة شبتوية فصل ٢ ص ٢٦٧ تأليف نجمان .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من سميث الى واردن ١٨٢١/٣/٣ .

الواقعة الى الجنوب يوم ٢ مارس ، وقد قام بهذه العملية مجموعة من بحارة الطراد سيش الذين استولوا ايضا على ثلاثة من قوارب بنى بوعلى كانت تبحر غير بعيدة من الشاطىء ، وفى نهاية الاسبوع الأول من مارس تحرك سميث بالقوات والمعدات التى تركها طومسون الى الشاطىء للابحار الى بومباى مصطحبا معه الأسرى (١) .

ومنذ البداية حتى النهاية كانت الحملة على رجال بنى بوعلى مخزية ومؤلمة ، وقد ذهب ضحيتها من الرجال اكثر مما ذهب فى معركتى ١٨٠٩ ، ١٨١٩ . معا ، وأسفرت عن نتائج لا قيمة لها وقد يكون طومسون مسئولا الى حد كبير عما حدث لمخالفته للتعليمات الصريحة بشأن العمليات العسكرية داخل المنطقة العربية ، وتحول الحملة التأديبية الى حرب سافرة كل هدفها هو استعادة سلطة السيد سعيد على قبائل جعلان . وقد دفع طومسون ثمنا غاليا على تلك الأخطاء ، فقد فصل من منصبه كمعتمد سياسى بريطانى فى الخليج فى نفس اليوم الذى ابحر فيه سميث الى بومباى ، كما حوكم محاكمة عسكرية بعد عودته الى مقر عمله في بوشهر ، وكانت التهم الموجهة اليه هي عصيانه للأوامر بالتوغل الى بلاد بنى بوعلى والاهمال والتقصير فى عدم اتخاذه الاحتياطات اللازمة قبل المعركة ، وانه كان مقصرا فى جهوده الذاتية ، وانه قد تصرف بطريقة مخزية لا تليق بضابط مثله حين القى مسئولية الهزيمة الى الضباط والجنود العاملين معه ، وقد جاء فى حكم

---

(١) كان الاشتباك مع رجال بنى بو على هو آخر عملية عسكرية تقوم بها الفرقة الخامسة والستون بتكليف من حكومة الرئاسة . وقد ظلت هذه الفرقة فى عمليات عسكرية متتالية منذ وصولها الى الهند فى شهر مايو ١٨٠٣ ، وكانت بعض تلك العمليات موجهة ضد الامراء الهنود فى ولايات كتش وكيتاور ، وفى الهجوم على جزر موريشيس وفى كل الاشتباكات الثلاثة فى الخليج ، وبعد ان استمرت هذه الفرقة فى العمل الى مايقرب عشرين عاما فى الهند ، ابحرت الى انجلترا يوم ١٨٢٢/٨/١٩ .

المحكمة بأن طومسون مسئول عن جزء من التهمة الأولى وبرىء من التهمتين الاخريين ، كما ادين عن التهمة الأخيرة وبرىء من تهمة اساءة التصرف ، وقضت المحكمة ببطلان التهم التى وجهها طومسون الى ضباطه وجنوده كنتيجة لاستنتاجاته الخاطئة ، وقد صدر الحكم ، بتوجيه اللوم العلنى اليه .

واذا نحينا الجانب العسكرى من سلوك طومسون ، فان ادانة الحكومة له كانت فى محلها . فبعد ان كلفته الحكومة بالتعاون مع السيد سعيد ضد قبائل بنى بوعلى ، عادت فوجهت اللوم اليه على اعطائه انطباعا بأن الأسلحة البريطانية كانت تستخدم لمصلحة السيد سعيد لاخضاع القبائل المتمردة عليه ، ومن الصعب ان نتصور كيف كان الناس فى الخليج ينظرون الى ذلك التعاون خصوصاً بعد ارسال الحملة الثانية التى كان الهدف منها هو رد الاعتبار للقائد طومسون . ومهما أصرت حكومة بومباى على أن الهدف الأساسى من الحملة الثانية هو معاقبة قبائل بنى بوعلى على أعمال القرصنة ومصرع شيخ رأس الحد ، فان الحملة يمكن اعتبارها ايضا وبنفس القدر على انها لم تكن تهدف الى الأنتقام لهزيمة طومسون فحسب ، بل وعن هزيمة السيد سعيد ايضا كذلك فان تصرف سميث مع رجال بنى بوعلى بعد الهزيمة ، وعلى الأخص طريقته فى معاملة الأسرى ، انما تؤكد ذلك الأنطباع .

واذا كان ثمة طرف له الحق فى ان يفخر بنتيجة الحملة فهو قبائل بني بوعلى أنفسهم لدفاعهم الباسل عن اراضيهم ومواطنهم ، وهذا هو ما اعترف به اعضاء مجلس الادارة لشركة الهند الشرقية عندما اجتمعوا لتقييم نتائج الحملة ، فقد اعترفوا بأنه لم تتخذ الاجراءات اللازمة منذ البداية عن طبيعة اعمال القرصنة التى كان متهما فيها قبائل بنى بوعلى ، وان حكومة بومباى قد اكتفت برأى السيد سعيد فى هذا الموضوع وان اعضاء مجلس الادارة لم يقتنعوا بهذا الراى . كما اقر مجلس الادارة على ان تصرف طومسون تصرف لا يغتفر ، وانه لابد من توجيه اللوم له وان أمر تكليفه

بالتعاون فى الحملة مع السيد سعيد كان اجراء خاطئا . أما معاملة سميث للأسرى فقد تبين لرجال الشركة بأنها معاملة ليس لها ما يبررها ، فقد إنتقدوا بشدة قرار سميث بتكليف رجال السيد سعيد باتلاف وحرق مزارع القبيلة وتحويل قنوات المياه واعتبروا ذلك الاجراء تصرفا فى منتهى القسوة لم يكن له ما يبرره على الاطلاق (١) ، أما نقل الأسرى الى بومباى حيث توفى أحد الشيوخ وعدد من رجال القبيلة فيما بعد فقد كان تصرفا أحمق ، وقد تلقى أعضاء مجلس الادارة تظلما من الشيخ الوحيد الذى بقى على قيد الحياة وهو محمد بن على ، الأمر الذى جعلهم يشعرون بالخجل من ذلك .

كما أن تسليم بقية الأسرى الى سعيد والتصرف بهم فى عمان ، فيعتبر اكثر الأعمال خزيا ، وأن الأسباب التى أبداها سميث لتصرفه هذا كانت أسبابا مرفوضة كما أن الخطر على السيد سعيد كما تصوره سميث ممن بقى من رجال القبائل المتمردة ، فيبدو أنه تصور خاطىء ، وقد اختتم اعضاء مجلس الادارة مداولاتهم بالاعتراف بوجوب تقديم المساعدات والاسعافات الى قبائل بنى بوعلى ، ولذلك فقد أصدروا أوامرهم الى الفنستون باطلاق سراح الأسرى ، واعادة توطينهم فى أراضيهم وتقديم كل المساعدات الممكنة لاعادة الحياة الطبيعية اليهم .

فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢١ . أفرج الفنستون عن الأسرى وأجرى الترتيبات اللازمة لهم للعودة الى جعلان قبل وصول الأوامر بعام واحد ، أما بالنسبة للأسرى الذين سلموا الى السيد سعيد فلم يكن فى مقدور الفنستون أن يعمل شيئا ، فقد أودع هؤلاء سجن الجلالى فى مسقط حيث توفى ثمانية منهم جوعا (٢) اما الذين عادوا من بومباى الى بلاد بنى بوعلى فقد حصلوا على مساعدات كبيرة من السلطات فى بومباى استمرت لبضعة

---

(١) التقارير السياسية الى حكومة بومباى مجلد ٣ من مجلس ادارة الشركة الى مجلس الحاكم ١٨٢٢/٨/٧ رقم ٣٨٣ .

(٢) ابن رزيق ائمة وسلاطين عمان (ص ٣٤٤) .

سنوات ، وبعد وقت قصير عادت هذه القبيلة الى ممارسة أعمالها السابقة حتى أنها اشتركت فى بعض عمليات القرصنة وفى سنة ١٨٢٧ قام كبير شيوخ هذه القبيلة محمد بن على برحلة الى بومباى لتقديم الشكر الى الحاكم شخصيا على المساعدات التى قدمها اليه .

على أن ما كان يثير القلق فى نفس الفنستون من مغامرة طومسون الأخيرة هو ما سوف تتركه من انطباع فى أوساط القبائل الخليجية عن السياسة البريطانية ، ان تلك السياسة ، كما ذكر الفنستون فى تقريره الأول عن تصرف طومسون كانت تنطلق من مبدأ القضاء على القرصنة اينما وجدت، وعدم الاشتراك فى الخلافات التى تنشب بين دول الخليج حتى ولو كانت فى مناطق تعتبر فى متناول قواتنا البحرية ، الا اذا كان ذلك بقصد مكافحة أعمال القرصنة ومن ناحية اخرى فان تعاون طومسون مع السيد سعيد سلطان عمان انما يوحى بأنه محاولة منا للتدخل فى الشئون الداخلية للمنطقة بهدف حماية مصالحنا من الأخطار التى تهددها فى مياه الخليج (١) .

وللحيلولة دون انتشار مثل هذا الانطباع عن سياستنا فقد كلف الفنستون الجنرال سميث بزيارة ساحل الخليج فى محاولة لازالة اى انطباع عن السياسة البريطانية لديهم . وعلى الأخص بالنسبة لعلاقة بريطانيا بحكومة مسقط . كما طلب الفنستون الى سميث بأن يعيد البحث فى امكانية مرابطة قوة عسكرية فى منطقة الخليج وبابداء رأيه فى تكوين هذه

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ١ — ١٨٢١/١/٣ .
من جى.بى سمسون (سكرتير الحكومة) الى واردن معسكر كرينا ١٨٢٠/١٢/٢٧ .

القوة ، وفيما اذا كانت جزيرة قشم تصلح كمقر لها (١) وان الهزيمة التي منى بها طومسون فى جعلان جعلت الفنبستون يتساءل ما اذا كان الاحتفاظ بحامية فى قشم قد يضر بمصالح الحكومة البريطانية اكثر مما ينفعها . لأن الخطر من تورط هذه القوة فى حروب اخرى كحرب بنى بوعلى سيشكل خطرا مستديما على المصالح البريطانية الى جانب الاعتبارات الاخرى لحالة المناخ الصحى للجزيرة الذى كان يودى بحياة عدد كبير من افراد الحامية . بالاضافة الى كل هذا فان هنالك احتمالا آخر وهو ان يؤدى الاحتلال الدائم للجزيرة الى خلافات مع حكومة فارس .

وقد برز هذا الاحتمال بشكل قاطع فى ختام سنة ١٨٢٠ ، عندما قطعت حكومة فارس صمتها حول هذا الموضوع منذ شهر مايو . ففى ٩ من ديسمبر سلم رئيس وزرائها هنرى ويلوك طلبا رسميا بجلاء الحامية البريطانية من قشم ، وقد استند فى طلبه هذا الذى عجلت به أخبار هزيمة طومسون ، على أن سلطان مسقط لم يكن له الحق فى السماح للقوات البريطانية بالمرابطة فى الجزيرة ، وان مسقط كما جاء فى خطاب الصدر الأعظم ، هى الأخرى تابعة لفارس ، وان الامام لا يملك حق السماح للقوات البريطانية بالبقاء فى مسقط ، فكيف والحالة هذه يملك السلطان حق السماح للقوات البريطانية بالمرابطة فى قشم وهنجام وهما جزيرتان تابعتان لبندر عباس الفارسية . كما رفض الصدر الأعظم الحجة القائلة بأن وجود القوة العسكرية البريطانية فى الخليج أمر ضرورى لتحقيق الاستقرار فيه . فاذا كان من الضرورى اتخاذ خطوات اخرى للقضاء على القرصنة فى الخليج الفارسى فان امير فارس فى مقدوره اتخاذ مثل هذه الاجراءات الفعالة دون الحاجة الى عون خارجى ، واضاف الصدر الأعظم بأن الشاه يزمع ايفاد مبعوثين الى قشم والهند للمطالبة باخلاء الحامية من البريطانيين،

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤١، رقم ٢ — ١٨٢١/١/١٠ . من واردن الى سميث بنفس التاريخ .

وسحب الكابتن بروس المقيم البريطانى فى بوشهر بوصفه المسئول عن تدمير السفينتين الفارسيتين «اسالو» وكاندون فى شهر يناير من عام ١٨٢٠ وفى التواطؤ الذى تم بين شيوخ آل خليفة فى البحرين والسيد سعيد ، وهو عمل فيه افتراء على حقوق فارس فى البحرين . (١) .

لم يكد يمضى اسبوعان على تقديم الصدر الأعظم مطالبه الى ويلوك ، حتى بعث رئيس الوزراء بمذكرة الى وزير الخارجية الفايكونت كستكر تتضمن احتجاج الشاه على حكومة الشركة في الهند واستهلها بتحليل للاحداث الاخيرة فى الخليج .

« عندما كانت السلطة فى السابق فى يد الوهابيين كان القواسم يقترفون ما شاءوا من الأعمال المنافية للقانون ، غير أن أمير فارس لم يول تلك الأعمال اى أهمية . غير أنه رغبة من الحكومة البريطانية فى تحقيق الاستقرار فى البحار قررت اتخاذ اجراءات ضد المخلين بالأمن فأرسلت حملة الى المنطقة ، وقام القائم بأعمال صاحب الجلالة باطلاع حكومة فارس بقرار الحكومة البريطانية ، وتقديرا من حكومة فارس لقرار الحكومة البريطانية فى الهند فقد رحبت به اعتقادا منها بأن مكافحة القرصنة أصبحت مسألة ملحة وأنها سوف تعود بالفائدة على الدولتين ولهذا فقد وافقت حكومة فارس على مشروع الحملة » (٢) .

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ٧ فى ١٨٢١/٢/٢٨ . من ويلوك الى هستنجز ١٨٢٠/١٢/٢٠ رقم ٢ وقد ارفق معه الرسائل المتبادلة مع الوزراء الفرس .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٤ من الحاج محمد حسين خان الى كستلر ربى وقد ارفق نسخة منه فى خطاب ويلوك الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٢٠/١٢/٢٦ .

كانت بصفة عامة الرسالة منطقية، وكانت تعبر عن قلق حقيقي عن اجراءات وأهداف السياسة البريطانية تجاه فارس ، ومنذ شهر نوفمبر من عام ١٨١٥ بقيت السياسة البريطانية فى طهران فى يد القائم بالاعمال ، وهو اجراء رأت فيه حكومة مغرورة كحكومة طهران انتقاصا لها ، على أحسن الفروض ، ويتسم بالخبث على أسوئها ، فمنذ انتهاء الحروب الفرنسية كان اهتمام الحكومة البريطانية بعلاقاتها بحكومة فارس قد قل وأخذ تبادل الرسائل بين بريطانيا وحكومة فارس يتسم بالطابع الروتينى ، وفى الوقت الذى كان ويلوك قد أبلغ وزراء الشاه بأمر الحملة فقد شكا هؤلاء الوزراء من أن مشروع هذه الحملة كانت تنقصه روح المجاملة والاحترام من جانب الحكومة البريطانية تجاه حكومة فارس ، وقد وافقهم ويلوك على هذا الرأى (١) . وكان لمخاوف الشاه ما يبررها من قلة اهتمام بريطانيا بفارس ، وفى اعتراضه على اقامة قاعدة بريطانية فى جزيرة قشم كل هذه المسائل تضمنها فى رسالة الصدر الأعظم الى كستلربى . وبعد أن أشار الصدر الأعظم الى أن احتلال قشم قد لا يكون سببا لخلافات بين فارس وبريطانيا ، اضاف بأنه سيكون أمرا مؤسفا لو عرفت به « الدول الاجنبية » وبعبارة اخرى فان روسيا قد تستغل ذلك كذريعة للحصول على امتيازات مماثلة فى منطقة قزوين غير انه لم يكن فى وسع ويلوك أن يعمل شيئا ليثنى الصدر الأعظم عن موقفه بالنسبة لانشاء قاعدة فى جزيرة قشم ، ولكنه على كل حال نجح فى اقناع الصدر الأعظم بتأجيل ايفاد مبعوثيه الى الهند وقشم ، ريثما يتلقى ويلوك ردا على رسالته الى الحاكم العام حول هذا الموضوع (٢) .

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٥ رقم ٨ فى ١٨٢١/٣/١ من ويلوك الى كير ومرفق بخطاب كير الى واردن ١٨٢١/٢/٧ . راجع ايضا ص ١٦٠ اعلاه .

(٢) فيما يتعلق بالرسائل المتبادلة بين ويلوك والصدر الأعظم راجع فارس والخليج مجلد ٣٤ من ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٤٠/١٢/٢٦ ومرفقات لرسائل سكرتير حكومة بومباى مجلد ٧ ومرفق بخطاب السكرتير رقم ١ فى ١٨٢٠/٥/٢٥ .

وعندما علم الفنستون برسالة الصدر الأعظم الى كنستلربى تأثر كثيرا بما تضمنته الرسالة من اشارة الى مخاوف الشاه من احتلال جزيرة قشم، لدرجة أنه أبدى استعداده للتخلى عن الفكرة نهائيا ، هذا على الرغم من انه لم يكن موافقا على اعتبار الجزيرة تابعة لفارس ، فلم يكن يستطيع تجاهل آراء الضباط البريطانيين الذين خدموا فى الخليج من انه لا يمكن القضاء على القرصنة قضاء تاما بدون وجود قاعدة . فاذا تعذر الحصول على موقع آخر للقاعدة ولم تلق معارضة قوية كمعارضة الحكومة الفارسية ، فان على الفنستون أن يختار بين الجلاء عن قشم وما سوف يستتبعه من عودة القرصنة او الاحتفاظ بالجزيرة وما يعقبه من استياء من جانب حكومة فارس ، ولكن الفنستون لم يكن فى وضع يسمح له بالاختيار بين الأمرين ، ولذلك فقد قام فى شهر مارس ١٨٢١ باحالة الموضوع الى الحاكم العام ، كما كتب الى الجنرال سميث فى الخليج ، يستشيره فى الحصول على موقع مناسب على الساحل الغربى يصلح أن يكون كمحطة بحرية عسكرية .

وقد أجاب سميث على سؤال الفنستون عند عودته الى دار المقيم فى أواخر ابريل وكان رأيه ، انه لابد من وجود قوة عسكرية لمواجهة القرصنة، واقترح ان تكون قوة صغيرة متحركة ومسلحة تسليحا جيدا ، واقترح ان تتألف مثل هذه القوة من ٢٠٠ أوربى مشاه و٤٠ مدفعيا وفصيلة بحرية من ٣٠٠ افريقى ، وكان سميث يحبذ الافريقيين على الهنود لان العرب يحترمون الجنود الاوربيين والافريقيين وليس الهنود ، وكان سميث يحبذ ايضا شأنه شأن كير ، ان ترابط القوة فى جزيرة قيس او هنجام ، فاذا تعذر هذان الموقعان فلتكن جزيرة قشم بدلا عنهما ، لان ذيرستان ، على اى حال ، مناخها غير صحى ، وانه قد سبق له ان امر بنقل الفصيلة الى الجانب الشرقى من الجزيرة بالقرب من بلدة قشم ، كما قال سميث انه لا توجد منطقة اخرى بديلة تصلح ان تكون قاعدة . وقد استنتج الفنستون من تقرير سميث حول هذا الموضوع بانه يتعين بذل محاولة اخيرة للبحث من نقطة التقاء بين بريطانيا وحكومة فارس حول الاحتفاظ بالخامية ، فى جزيرة

قشم ، لأن مخاوف الشاه من نوايا بريطانيا لاحتلال الجزيرة انما ترجع في معظمها الى التقارير التى كان يوافيه بها نجله حسين على ميرزا، أمير اقليم فارس ، فقد سبق لميرزا أن أوفد فى شهر مارس مبعوثا الى جزيرة قشم يطلب سحب الجنود البريطانيين منها ، كما قيل انه دعا الزعماء القبليين للاقليم لحشد قواتهم للقيام بهجوم على الجزيرة . ولهذا راى الفنستون انه لكى يتم اقناع الشاه بالموافقة على احتلال جزيرة قشم ، فانه يتعين عليه ان يسعى الى تبديد مخاوف أمير شيراز من وجود مثل هذه القاعدة . وبحكم مركز ويلوك فانه لم يكن فى استطاعته الاتصال بميرزا مباشرة وانما عن طريق حكومة فارس . وكان بروس المقيم البريطانى فى بوشهر يعتبر شخصا غير مرغوب فيه فى شيراز . وبالتالى لم يبق امام الفنستون طريق اخر سوى ارسال مبعوث خاص ، وقد اختار لتلك المهمة الجراح اندرو جيوكس الذى سبق ان عمل مع مالكولم فى فارس والذى يرجع الفضل اليه فى تعاون السيد سعيد مع حملة كير فى شهر نوفمبر ١٨١٩ .

تلقى جيوكس الأمر بالتوجه الى فارس يوم ١٠ مايو من سنة ١٨٢١ . وكلف بأن يتوجه اولا الى مسقط ليحاول التأكد من حقوق كل من السيد سعيد وفتح على شاه فى جزيرة قشم . وكان الوزير المسئول للسيد سعيد قد ابلغ الكابتن طومسون فى شهر اكتوبر من العام السابق ، بأن مبعوثين من فارس قد زارا مسقط فى مستهل ذلك الشهر لجمع الهدايا ، وتحصيل ايجارات قشم وبندر عباس (١) . كما تساءل الفنستون عما اذا كان الطلب الذى تقدم به مالكولم لحكومة فارس للتنازل عن قشم قبل خمسة وعشرين عاما قد لا يفسر على انه اعتراف ضمنى بتبعية قشم للشاه ، وبالتالى يصعب

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من طومسون الى ويلوك مسقط ١٨٢١/١٠/١٣ ومرفق بخطاب ويلوك الى جوزيف وارت (شركة الهند الشرقية) ، ١٨٢١/٢/٨ . والتأكيدات واردة فى الاصل .

موقف هذه الحكومة فى معالجتها للقضية الآن (١) . ومن جهة اخرى فقد كانت قشم تعتبر من ممتلكات مسقط قبل استيلاء السيد سلطان بن احمد على بندر عباس الذى أخذ يدفع عنها وعن توابعها ايجارا سنويا لحكومة فارس ، وعلى النقيض من ذلك لم تكن فارس تتمتع بملكية الجزيرة وحتى استيلاء البرتغاليين على هرمز فى سنة ١٥١٤ ، كانت قشم تابعة لهرمز . وبقيت تحت الحكم البرتغالى حتى عام ١٦٢٢ ، عندما أجلى البرتغاليون من هرمز وعندئذ ولأول مرة فى تاريخها خضعت لحكم فارس ، وبعد مضى ربع قرن احتلها الهولنديون لفترة قصيرة ، ثم انتقلت منهم إلى الامام اليعربى فى عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، وبقيت تحت حكم اليعاربة حتى الفترة الواقعة فيما بين ١٧٣٥ و ١٧٤٣ ، عندما استولى عليها وعلى الجزر الاخرى على الساحل الفارسى نادر شاه . وكان يحكمها بالنيابة عنه زعيم ، ولكن هذا الزعيم رفض بعد وفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧ ان يعترف لخلف نادر شاه بالسلطة . وعندما كان الرحالة كرستين ينبهور فى الخليج سنة ١٧٦٤ وكانت قشم فى يد راشد بن مطر القاسمى شيخ رأس الخيمة ، الذي كان حتى ذلك الوقت تابعا لإمام عمان أحمد بن سعيد ، وقد طرد القواسم من قشم فى نحو عام ١٧٧٠ ، وقاد الحملة عليهم احد زعماء القبائل الذى كان يسمى «عبد الله بن معين» ، وقد ظل يدفع الزكاة لحكومة فارس لفترة من الوقت ، وبعد وفاته عاد القواسم إلى احتلال الجزيرة ولكن آل بو سعيد كانوا ينازعونه على حكمها . وقد نشب صراع طويل للسيطرة عليها انتهى لصالح آل بو سعيد ، وقاد الحملة ضدهم السيد سلطان بن احمد عام ١٧٩٤ — ١٧٩٥ ، منذ ذلك الوقت ظلت قشم اسميا على الأقل تابعة لمسقط ، ويبدو من كل ذلك ، كما تصور الفنستون ، ان ادعاء فارس بسيادتها على قشم انما كان يقوم على أساس ان جميع الجزر فى الخليج كانت فى

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ٩ — ١٨٢١/٣/٢١ . من سمسون الى واردن ١٨٢١/٣/٤ .

وقت من الأوقات تابعة لفارس وان هذا الوضع لا يزال مستمرا بضرف النظر عما جد من أحداث ، وبالتالى فقد كان الفنستون يعتقد بأن تلك الدعوى لم تكن منطقية مثل دعاوى الشاه بتبعية عمان له على اساس الاحتلال الفارسى لها فيما بين ١٧٣٧ و ١٧٤٤ (١) .

بعد ذلك وافق السيد سلطان على دفع ايجار سنوى عن بندر عباس وملحقاتها ، ولكن ليس عن جزيرة قشم ، على الرغم من ان جيوكس لم يتمكن من الاطلاع على المرسوم الأصلى المتضمن هذا الاتفاق ، الا انه كان واثقا من ان السيد سعيد كانت له الأحقية فى جزيرة قشم ، وعلى الأخص فيما سمعه من الوزير السلطانى وهو يعكس ما ذكره لطومسون بأن قشم لم تكن مدرجة فى قائمة ايصالات الايجار التى كان الشاه يحرزها عن بندر عباس (٢) . وعند مغادرة جيوكس لمسقط متوجها الى قشم لم يتلق اخبارا

---

(١) سجلات الرسائل لبومباى مجلد ٥ (١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٢١/٥/٢٥ (رقم ١ سرى الادارة السرية) انظر ايضا ص ١٩٠ ادناه .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٥ من جيوكس الى واردن (يوليو ١٨٢١) وقد ارفق نسخة منه لخطاب ويلوك الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٢٢/١/٢٥ . وكان ويلوك من الناحية الأخرى يعتقد بأن قشم كانت تابعة لبندر عباس، كما كان يعتقد أن سلطان بن احمد قد فقد حقه بالاحتلال للجزيرة بعد موافقته على دفع ايجار مقابل احتلال السلطان لهـــا (انظـر فارس والخـليج مجلد ٣٥ من ويلوك الى الفنستون ١٨٢٢/١/٢٢ ومرفق بخطاب ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٢/١/٢٥) غير أن قشم على ما يبدو لم تضم رسميا الى ملحقات بندر عباس حتى عقب المعاهدة العمانية الفارسية لسنة ١٨٥٦ وان كلا من كرزن وسكايز يحددان توابع بندر عباس ضمن ميناب وغيرها من المناطق الواقعة على الارض الرئيسية من فارس . (انظر فارس والمسألة الفارسية فصل ٢ ص ٤٢٣ ، وكتاب تاريخ فارس « تأليف السير برسى سكايز المجلد الثانى الفصل الثانى ص ٤٥٦ ص ٤٥٧ طبعة لندن ١٩١٥).

جديدة عن هجوم متوقع على الجزيرة . وقد وصل شيراز يوم ٦ اكتوبر ، وبدلا من أن يجد فيها استعدادات للحرب وجد المدينة فى هلع وفزع فقد اجتاحت الكوليرا شيراز واخذت تمتد لتشمل اقليم فارس كله ، وكان الكل يحاول الفرار من المدينة للنجاة بنفسه من الوباء ، وقد مر أسبوعان قبل ان يتمكن جيوكس من مقابلة الأمير وتسليمه الرسالة التى حملها اليه .
وقد كان على ميرزا فى غاية الود ، واصغى باهتمام بالغ لشرح جيوكس عن حقيقة الوجود البريطانى فى جزيرة قشم ، واعرب فى النهاية عن موافقته لوجهة نظر جيوكس،هذا بالرغم من انه قداكد لجيوكس تبعية الجزيرةلفارس، وانه لم يكن من حق سلطان مسقط ان يسمح بمرابطة القوةالبريطانية فى جزيرة قشم ، وفى نهاية المقابلة ذكر الأمير بأنه سوف يوصى فى خطابه الى والده بالسماح ببقاء الحامية البريطانية فى الجزيرة ، غير ان جيوكس ساوره الشك فى أقوال الأمير ، وبالتالى قرر التوجه الى طهران ، واثناء سيره مرض بالكوليرا وتوفى فى اصفهان يوم ١٠ نوفمبر . وقد حل محله الللفتنانت فريزر الذى حمل الوثائق وسلمها الى ويلوك فى طهران (١) .

بذل القائم بالأعمال محاولات اخيرة خلال الاسابيع القليلة التالية لاقناع الشاه بالطبيعة السلمية للسياسة البريطانية فى الخليج ، غير ان ذلك لم يؤد الى نتيجة ، ولذلك تعين على ويلوك ان يبعث الى الفنستون بتقرير فى يناير سنة ١٨٢٢ ذكر فيه ، انه ليس هناك امل فى زحزحة الشاه عن الموقف الذى اتخذه بالنسبة لاحتلال جزيرة قشم ، وجاء فى هذا التقرير :

« بأن جلالته لا يخفى مخاوفه من الوجود البريطانى فى المناطق القريبة من فارس ، ولما كانت سياسته تقوم منذ البداية على مقاومة اى نفوذ أجنبى فى اراضيه فانه لن يسمح بمثل هذا الاجراء الذى يعد فى رأيه مصدرا

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من ويلوك الى اللجنة السرية طهران ١٨٢٢/١/٢٥ ومرفق خطاب جيوكس لواردن شيرزا ١٨٢١/١٠/٢٣ انظر ايضا كتاب فريزر « رحلة الى خراسان » فصل ٦ .

لخطر يهدده فى المستقبل . كذلك فانه لا فائدة من محاولة اقناعه بالمكاسب التجارية التى ستعود عليه من الوجود البريطانى فى الجزيرة ، وان نتقدم اليه بمقترحات تبرر الحماية البريطانية بما يؤثر على الحكام الآخرين . ان دخل فارس دخل مقطوع ، وسواء ازدهرت التجارة او تدهورت فان هذا الدخل لا يتغير على الاطلاق ، ولذلك فانى اعتقد بحق ان صاحب الجلالة لن يتردد عن التنازل عن جميع المصالح التجارية مع الهند بدلا من ان يبقى فى قلق دائم من وجودنا المباشر فى مناطق تعتبر ضمن سيادته(١).

وحتى قبل ان يتسلم الفنستون هذا التقرير كان قد قرر انهاء احتلال قشم ، وكان قراره السابق بالاحتفاظ بقوة عسكرية فى الخليج قد تبدد بنتائج الحملة على بنى بوعلى وبمعدل الوفيات بين جنود الحامية بسبب رداءة الطقس ، وفيما بين يوليو ١٨٢٠ و فبراير ١٨٢٢ نقلت الحامية معداتها واخذت تبحث عن منطقة صالحة للاقامة فى الجزيرة . وعندما زار المنطقة كل من جيوكس وفريزر فى شهر اغسطس ١٨٢١ صدما من الحالة المزرية للجنود (... اننا لم نر قط حالات تثير الرعب والاشمئزاز من حالة الجنود المرضى والناقهين فى جزيرة قشم) هذا ماجاء فى تقرير فريزر (٢) فان الجنود الأوربيون يعانون من مرض الحمى بينما كان الجنود الهنود يعانون من مرض خطير آخر ، فالقوة التى أرسلت الى الجزيرة لكى تضرب بشدة على اى نشاط للقراصنة لم يبق منها اكثر من ٣٠٠ جندى هندى وثلاثة ضباط أوربيين صالحين للخدمة ، كما ان الحامية كانت تعانى من نقص فى المواد الغذائية والأدوية بشكل خطير ، كما كان الماء غير صالح للاستعمال ، ولم يكن بالجزيرة بناية واحدة نظيفة فى المعسكر ، اما المنطقة المحيطة بالمعسكر فقد كانت عبارة عن اراضى رملية ومناطق صخرية ، ومعرضة لهبوب الرياح الشمالية الجافة والشديدة الحرارة طوال

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٥ من ويلوك الى الفنستون ١٨٢٢/١/٢٢.
(٢) رحلة الى خراسان ص ٢٩ .

اشهر الصيف (١) . وجاء فى تقريرهما بأنه لتفادى خسائر جديدة فى الأرواح والجنود ، فانه ينبغى الانسحاب من الحامية قبل حلول صيف عام ١٨٢٢، وكان الفنستون على وشك أن يصدر الأوامر باخلاء الجزيرة فى اوائل شهر مايو ، عندما وصله خبر عن ان ويلوك قد طلب جواز سفره وترك طهران وأصبح الصدام مع فارس قضية حتمية ، ومع ذلك فقد قرر الفنستون عودة الحامية الى قشم ، وبدلا من الانسحاب أمر بارسال تعزيزات الى الجزيرة ، خوفا من ان يركب أمير فارس رأسه فيشن هجوما عليها ، ومرت اسابيع دون أن يقع الهجوم ثم علم الفنستون بأن سفر ويلوك المفاجىء كان بسبب الخلاف على دفع جزء من المعونة المالية البريطانية لفارس بموجب معاهدة ١٨١٤ ، وبالتالى قام الفنستون بالغاء الأمر الخاص بارسال التعزيزات الى الحامية ، وارجأ موضوع الانسحاب منها ريثما تتطور العلاقات البريطانية الفارسية نحو الأحسن . (٢) .

---

(١) راجع كتاب فريزر « رحلة الى خراسان » والواقع ان الفنستون طلب من ويلوك فى اوائل ١٨٢٢ بأن يطلب من حكومة فارس بأن تسمح بنقل الحامية من جزيرة قشم الى جزيرة قيس، غير انه من المحتمل ان يكون ويلوك قد غادر طهران قبل وصول خطاب الفنستون من بومباى او انه لم يجد الوقت مناسبا لعرض الاقتراح على الشاه. اذ لم يرد ذكر لهذا الخطاب بعد ذلك . (راجع سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٨ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٢/٣/٢ رقم — ١ الادارة السياسية —) . فى اكتوبر سنة ١٨٢٢ قدم اللفتنانت جى.اتش جرب من ضباط البحرية والكابتن تى.ريمون من سلاح المهندسين تقريرا الى حكومة بومباى بخصوص جزيرة قيس ، وكان الاثنان قد قاما بجولة استطلاعية للجزيرة للبحث عن صلاحيتها كقاعدة (انظر مختارات بومباى مجلد ٢٤ ، ٤٨) .

(٢) الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٥ جزء (١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٢٢/٦/٢٠ (رقم ٢ الادارة السياسية) كان موضوع المعونة المالية لفارس والذى كان يعكس الحد الادنى للعلاقات البريطانية =

ولو أن الفنستون تمسك بموقفه وظل ينتظر تحسن العلاقات الفارسية البريطانية قبل الانسحاب من جزيرة قشم لبقيت الحامية هناك الى أجل غير مسمى ، غير أنه اضطر فى أواخر صيف ١٨٢٢ وكنتيجة لاجراءات غير قانونية قام بها المقيم البريطانى فى بوشهر الكابتن وليم بروس الى اتخاذ تلك الخطوة . وكان بروس متغيبا عن عمله فى النصف الأخير من عام ١٨٢١ بسبب مرافقته للحملة البريطانية الى مخا بوصفه المترجم العربى للحملة ، ولم يعد للخليج قبل ربيع عام ١٨٢٢ ، وفى شهر يونيه وصلت رسالة الى بوشهر من حسين على ميرزا يدعو فيها بروس للحضور الى شيراز لبحث المسائل التى تهم البلدين ، وشعر بروس انه بالنظر الى العلاقات التى تربط فارس وبريطانيا فمن الأفضل تلبية الدعوة التى وجهت اليه . وبمجرد وصول اخبار دعوة بروس الى بومباى تلقى تعليمات بعدم تلبيتها ، على أساس ان العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين البلدين كانت متوقفة منذ رحيل ويلوك الى انجلترا .

ولكن تلك التعليمات وصلت متأخرة بعد أن كان بروس فعلا قد سافر الى شيراز ، وهناك وبغير تصريح من حكومته عقد اتفاقا مكتوبا بتاريخ ٣٠/٨ مع ميرزا زكى خان احد وزراء أمير شيراز ، وقد تناول الاتفاق جميع المسائل المختلف عليها بين حكومة بومباى وحكومة فارس مثل احتلال قشم ،

= الفارسية بعد سنة ١٨١٤ ، وقد اقنع ويلوك بان الحل الوحيد لهذه المشكلة هو احالة الموضوع الى وزير الخارجية الذى فى استطاعته وحده ان يتخذ موقفا اكثر ايجابية تجاه فارس . غير ان كاننج كان يعتقد بأن ويلوك كان يبالغ فى تصوراته للموضوع وانه ، كما قيل ، قد ابدى بعض الملاحظات عند وصول القائم بالاعمال الى وزير الخارجية لمقابلة كاننج وما جاء فى ملاحظاته ، بانه لا يجهل بان ويلوك شخص له اهميته غير ان ذلك فى طهران وليس فى لندن (انجلترا وروسيا فى الشرق ص ٣٨ تاليف رولنسون) .

ووضع البحرين وتدمير بعض سفن فارس من جانب فصيلة ويلوك فى يناير

ان هذه الاتفاقية التى يطلق عليها احيانا خطأ (معاهدة شيراز) (١)، تتضمن الى جانب الديباجة خمس بنود ، ففى الديباجة أعرب الطرفان عن رغبتهما فى توثيق أواصر الصداقة بين حكومتهما ووصفا حملة كير بأنها انتهاك لبعض مظاهر هذه الصداقة ، كما أشارت الديباجة ايضا الى أن مبعوث الأمير قد توصــل الى نوع من التفــاهم (٢) . أما البنـد الأول من الاتفاق فليست له أهمية ، غير ان البند الثانى قد شدد على حق فارس

---

(١) انظر على سبيل المثال (جزر البحرين تأليف آف.ادميات) : دراسة دبلوماسية وقانونية للنزاع البحرينى الفارسي طبعـة نيويورك عـام ١٩٥٥ وكتاب (غلوم رضا تاجبخش) «وعنوانه مسألة الجزر البحرانيـة» طبعـة باريس ١٩٦٠ ، وقد جاء فى وصف لبروس لهذه الوثيقة بانهـا (ترجمـة للاتفاق المقترح من جانب السمو الملكى حسين على ميرزا عن طريق وزيره زكى خان ونوقشت بينه وبين بروس المقيم البريطـانى الموقر فى بوشـهر بتاريخ ١٨٢٢/٨/٨) انظر مرفقات للرسائل مجـلد ٧ مرفقـات لخطـاب السكرتير رقم ٣ فى ١٨١١/٩).

(٢) توجه المبعوث ميرزا باقر قبل وصول جيوكس الى شيراز ووصل بومباى يوم ١١/٥ وعلى الرغم من أن الفنستون قد وافق على الاجتماع به فقد شعر بانه ليس هناك نقاط يمكن بحثها معه . (انظر سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٨ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ١٨٢١/١١/١٤ (رقم ٨ الادارة السياسية) . ويؤكـد تاجبخش (ص ٦٩) أن ميرزا باقر قد نجح فى انتزاع حقوق فارس فى البحرين من الفنستون غير أن سجلات حكومة بومباى لا تشير الى ذلك الاتفاق ، كما أنه ليس من المحتمل ان يكون مثل هذا الاتفاق قد وقع بالفعل نظرا لتسلسل الأحداث كما ذكرنا آنفا .

فى البحرين (ان جزيرة البحرين كانت دائما من الاقطار الخاضعة لاقليم فارس (١) . وطالب بسحب علم لآل خليفة بمقتضى المادة الثالثة لمعاهدة الصلح العـــام ١٨٢٠ ، كما نصت المادة الثـالثة على دفع تعويضات للرعايا الفرس الذين دمرت سفنهم فى شهر ينـــاير ١٨٢٠ خلال حملة ويلوك . أما المادة الرابعة فقد نصت على سحب حكومة فارس اتهاماتها السابقة الى بروس ، بأنه المسئول عن تدمير سفن الرعايا الفرس وعقد المعاهدة المسقطية البحرانية فى شهر فبراير ١٨٢٠ ، كما ورد فى الاتفاق ذكر لرغبة بروس فى الاحتفاظ بمنصبه كمقيم بريطانى فى بوشهر . ولعل البند الأخير هو أهم بنود الاتفاق على الاطلاق وينص على :

« ان القوات البريطانية التى اتخذت لها موقعا فى جزيرة على ساحل فارس وطلب سحب القوات البريطانية منها ـ وبما ان صاحب المقام الرفيع حاكم بومباى قد أعرب عن رغبته فى السماح لهذه القوات بالبقاء لفترة من الوقت وذلك حفاظا للمظهر والفائدة المتوخاة من ذلك ـ وعليه فان صاحب السمو الملكى الذى يرى أنه من الافضل بالنسبة لأمن الخليج واستقراره المحافظة على المواصلات حرة ومأمونة ، قد وافــق على الخمس سنوات التى نصت عليها المعاهدة ريثما يتم تنظيم القوة البحرية اللازمة لهذا الغرض من جانب فارس وذلك على الشروط التالية ....

وقد اشتملت الشروط على سحب القوات البريطانية من جزيرة قشم خلال فترة الخمس سنوات فى حالة تمكن الأمير من تنظيم قواته البحرية الخاصــة بفــارس وعلى تخفيض حجـم القــوات ، لو زادت عن المعــدل الاقتصادى ، واستبدال الجنود البريطانيين الذين يتم سحبهم بعدد مماثل

---

(١) مرفقات رسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطـــاب السكرتير رقم ٣ بتاريخ ١٨٢٢/١١/٩ ترجمة الاتفاقية المقترحة من جانب السمو الملكى حسين على ميرزا »

من الجنود الفرس ، ونقل الحامية البريطانية الى جزيرة اخرى اذا ما طلب الأمير ذلك ، وتقديم عون بحرى الى الأمير اذا ما طلب ذلك من بريطانيا ، على أن يكون الأمير مسئولا عن تموينهم فى حالة استبقائهم أكثر من أربعين يوما فى خدمته ، وأخيرا نص الاتفاق على حق الأمير فى شراء السفن والمؤن من موانى الهند البريطانية ».

ولم يقدم بروس اى توضيح عن الدوافع التى حملته على ابرام هذه الاتفاقية حين بعث بنصوصها الى حكومة بومباى ، وعلى العكس فقد تركزت تعليقه حول نقطتين اثنتين من الاتفاقية :

اولا : ان حسين على ميرزا سوف يخوله بموجب البند الخاص بتموين السفن الافادة من الخدمات التى يقدمها الأسطول البريطانى .

ثانيا : إن إعادة سيادة فارس على البحرين سوف يساهم فى تحقيق مزيد من الاستقرار على الجانب العربى من الخليج اكثر من اى عمل او اجراء آخر ...(١) . وحتى بدون هذا التوضيح الذى قدمه بروس ، يمكن اكتشاف الأسباب التى دعت بروس الى عقد ذلك الاتفاق ، فقد اتهم أكثر من مرة من حكومة فارس بأنه المسئول شخصيا عن تدمير السفن الفارسية فى يناير ١٨٢٠ وعن التواطؤ فى التسوية التى تمت بين آل خليفة والسيد سعيد فى الشهر الذى اعقب تدمير السفن الفارسية ، كما أن الصدر الأعظم قد استدعاه الى شيراز فى شهر ديسمبر سنة ١٨٢٠ ، وبالتالى فان استدعاءه الى شيراز أتاح له الفرصة لازالة ذلك الانطباع من ناحية وتحقيق بعض التحسن فى العلاقات المتوترة بين البلدين من ناحية اخرى، وربما يعود ذلك الى التأثير الذى كانت تمارسه شيراز مع المبعوثين

---

(١) مرفقات لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ ـ ١٨٢٢/١١/٩ من بروس الى الفنستون ١٨٢٢/٩/٣ (رقم ٣٥ الادارة السياسية) .

البريطانيين ، حيث كانت تدفعهم الى معالجة المسائل الدبلوماسية الخارجة عن سلطتهم فى المناطق التى يعملون فيها . ومهما كانت المبررات التى دعت بروس الى ذلك التصرف الا انها لم تنقذه من غضب الفنستون فقد انتقد الحاكم اجراءاته بحذافيرها ، وفصله من العمل وطلب منه العودة فورا الى الهند ، كما ندد بالاتفاق واعتبره انتهاكا لمبادىء السياسة البريطانية فى الخليج. كما رأى الفنستون فى تعويض بريطانيا لسكان لنجة وخرك عن الاضرار التى لحقت بهم اعتبر ذلك الفنستون تنازلا من الحكومة البريطانية وليس عملا وديا تجاه فارس (١) »

أما البند الخاص برغبة الأمير فى بقاء بروس فى منصب المقيم البريطانى فى بوشهر فقد جعل موضوع تعيين المسئولين البريطانيين فى بوشهر خاضعا لرغبة فارس ، وأما عن الاعتراف بسيادة فارس على البحرين فلم يكن لذلك الحق اى أساس ، وان النص المذكور قد أضر باستقلال كل من آل خليفة وحقوق سلطان مسقط صديق حكومة بومباى وحليفها فى الجزيرة (اما كيف نجح الفنستون فى أن يوفق بين هذين المطلبين فهو موضوع يحيطه الغموض ، والاعتراف بحق فارس فى قشم لم يجعل من الاحتلال (عدوانا ظالما فحسب) ولكنه قضى أيضا على حقوق السيد سعيد فى الجزيرة ، وأما البند الخاص بالجنود الفرس فانه لو طبق سوف يؤدى

---

(١) صدر قرار دفع التعويضات قبل ان يطالب به الفرس فقد اصدر الفنستون امرا الى بروس فى شهر مارس ١٨٢٢ ليدفع مبلغ ٢٠٠٠ روبية فى اى وقت يراه القائم بالاعمال مناسبا لدفعها (انظر فارس والخليج مجلد ٣٥ من واردن الى بروس مارس ١٨٢٢ ومرفق لخطاب جورج ويلوك الى اللجنة السرية تبريز ١٨٢٢/٨/٢٧) . وكان الميجر جورج ويلوك شقيق هنرى ويلوك ينوب عن القائم بالاعمال فى الاشراف على البعثة البريطانية التى نقلت الى تبريز خلال غياب شقيقه فى انجلترا.

الى اجبار الحكومة البريطانية على تسليم الجزيرة التى تسلموها من سلطان مسقط الى أمير شيراز (١) .

وبصرف النظر عن أى اعتبار آخر فان تهور بروس قد احرج الحكومة البريطانية بالنسبة لجزيرة قشم ، وبالتالى فقد أصدر الفنستون فى يوم ١٨٢٢/١٠/٢٧ — أوامره بانسحاب بريطانيا من الجزيرة ، ونفهم من السرعة التى تم بها اصدار أوامر الانسحاب — بعد مضى أسبوع واحد من استلام نصوص اتفاقية بروس ، ومن الأسباب التى قدمها بروس — (فان الاتفاقية كما قال الفنستون سوف ترغمه على اتخاذ القرار بسحب الجنود البريطانيين من تلك الجزيرة التى ربما بقيت كما هي) — فانه من الواضح أن الفنستون قد حبذ بالفعل ذلك القرار . ولهذا كتب الى أمير شيراز يتنصل من الاتفاق الذى وقعه بروس ويعلن عن قراره بسحب قواته من جزيرة قشم بأسرع وقت ، وتسليمها الى ممثل عن حاكم مسقط . كما بعث برسائل الى كل من شيوخ آل خليفة والسيد سعيد يوضح فيها الموقف البريطانى الذى لم يتغير بالرغم من الاتفاقية التى عقدها بروس ، كما كلف الضابط المعين خلفا لبروس بأن يسعى الى أن يزيل من أذهان هؤلاء الحكام أى شكوك اومخاوف تكون قد ساورتهم من جراء تصرف بروس المقيم السابق (٢) .

وكان على شاه يتفق فى الراى مع الفنستون بالنسبة لاتفاقية شيراز، فقد علم بأن الشاه قد استاء استياء شديدا من نجله على الاتفاقية التى

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ — ١٨٢٢/١١/٩ من واردن (سكرتير الحكومة) الى فريش الامين الأول بالوكالة) بونا ، ١٨٢٢/١٠/٢٧ (رقم ١١٧ الادارة السياسية.).

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ — ١٨٢٢/١١/٩ وصيغة خطابات لولى عهد اقليم فارس ، وامام مسقط ، وشيخ البحرين ، وصيغة التعليمات المرسلة الى اللفتنانت جون ماكلويد .

وقعها مع بروس دون موافقته ، ورفض التصـــديق عليهـا (١). ولهـذه الأسباب فان حسين على ميرزا لم يحاول فى غضون السنوات التالية أن يتخذ من تلك الوثيقة حجة للمطالبة بالبحرين أو لمساومة حكومة بومباى فى عدم معارضة خططه الكثيرة للسيطرة على الجزيرة (٢) . ولكن النجـح لم يتحقق له فى كلتا الحالتين ، وعلى سبيل المثال ففى بداية عام ١٨٢٣، عندما علمت حكومة بومباى بأن الشاه كان يتآمر مع السيد سعيد وشيخ القواسم سلطان بن صقر لشن هجوم مشترك على البحرين وجهت الحكومة البريطانية تحذيرا صريحا الى حسين على ميرزا ووالده قالت فيه : « انه اذا ما اختل أمن الخليج وعادت القرصنة من جديد فان الحكومة البريطانية سوف تجد نفسها مضطرة الى اعادة وضع قوات عسكرية فى الخليج (٣) . الا أن هذا الهجوم لم يقع ، كما ان محاولة الأمير فيما بعد عام ١٨٢٤ لاحياء هذا المشروع لم يكتب لها النجاح ، وهكذا اصبحت تهديدات الشاه للبحرين مجرد اقوال ، وبمضي الوقت اتخذ موضوع الاستيلاء على البحرين طابع المسرحية التى يقوم بتمثيلها امير فارس امام امبراطور فارس ، كما كان لهذه القضية فى الواقع وجوه اخرى فان هذه المسرحية التى اصـبحت تمثل ضد العتوب جزءا لا يتجزأ من سياسة حكومة شيراز لم تكن تقتصر على المطالبة باستقطاع جزء من المعونة السنوية التى تدفع لطهران فحسب ولكنها ايضا تهدف الى ابتزاز الاموال من المناطق التابعة لها ، كما جاء ذلك فى تقرير المقيم البريطانى فى بوشهر .

---

(١) انظر فارس والخليج مجلد ٣٥ من جورج ويلوك الى اللجنة السرية ١٨٢٣/١/٢٠ .

(٢) وبالمثل فان حكومات فارس المتعاقبة وغيرها من المطالبين بتبعية البحرين لفارس لم يترددوا حتى ذلك الوقت من استغلال هذه الاتفـاقية لدعم قضيتهم وهناك حالتان يمكن الرجوع اليهما فى مؤلف (قضية جزيرة البحرين (وهى من تأليف تاجبخش (وجزر البحرين تأليف ادميات .) .

(٣) سجل الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم ١ الادارة السياسية) .

وفى الاسبوع الاول من يناير ١٨٢٣ تم جلاء الحامية البريطانية من جزيرة قشم ، الأمر الذى بعث الارتياح لدى حكومة الهند البريطانية ومجلس ادارة الشركة ، فقد كان الطرفان ينظران الى وجود القاعدة منذ البداية بشيء من عدم الارتياح . خوفا من التورط فى الشئون الداخلية لمنطقة شبه الجزيرة العربية واحتمال عبء النفقات المتزايدة للاحتفاظ بالحامية وبعد الحملتين على قبائل بنى بوعلى اعرب أعضاء مجلس الاذارة عن معارضتهم لمجمل فكرة إنشاء قوة عسكرية للقضاء على القرصنة ، وعلى حين كانوا يقرون بضرورة وجود محطة بحرية للتموين ، وبصلاحية جزيرة قشم لهذا الغرض ، الا انهم كانوا يعارضون فكرة تحويلها الى قاعدة عسكرية .... (اننا يجب ان ننظر بشيء من الحذر الى الالتزام بأى نفقات كبيرة فى سبيل تحقيق فائدة غير مضمونة (١) ولهذا السبب وعندما وصلتهم انباء الجلاء عن القاعدة لم يخفوا ارتياحهم من ذلك الاجراء ، الذى جنبهم التورط فى مشاكل مع حكومة فارس من أجل (هدف كنا مترددين فى السعى اليه لأسبابه الواضحة) ومنذ ذلك الوقت انتقلت مسئولية حماية تجارة الهند البريطانية فى الخليج الى الاسطول ، وقد اقتنع اعضاء مجلس الادارة فى أن ذلك لن يؤدى الى منع القرصنة فحسب ، بل والى الاحتفاظ بقوة من الطرادات ستكلف الحكومات نفقات اقل من تنظيم حملات عسكرية دورية(٢)

---

(١) من التقارير السياسية لحكومة بومباى مجلد ٢ من مجلس ادارة الشركة الى مجلس الحاكم فى ١٨٢٢/٨/٧ (مسودة رقم ٣٨٣) .

(٢) من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٢٢/٨/٧ (مسودة رقم ٣٨٣ ، أما ما اذا كان اعضاء مجلس الادارة على حق فى تقديراتهم المالية فان هذا موضوع قابل للمناقشة ، ان تكاليف حملة كير قد بلغت ٧٦٦ر٩٩٩ روبية هندية بمجموع يبلغ ٨٦٢ر٧٨٩ر١ أو مايزيد على ١٨٠ الف جنيه استرلينى ، اما تكاليف الاحتفاظ بوحدة الاسطول فى عام ١٨٢٣ والتى تتألف من ٧ طرادات لا تزيد على ٧٥٥ر٤١٣ روبية منها ٨٦١ر٢٠٦ رواتب للضباط والبحارة و ٨٩٤ر٢٠٦ للمؤن ، أو ما يزيد على ٤٠ الف جنيه استرلينى ، وبهذا المعدل يكون مجموع نفقات الوحدة البحرية لمدة ثلاث سنوات اكثر من التكاليف الاجمالية للحملة الواحدة (انظر رسائل حكومة بومباى السياسية مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة فى ١٨٢٤/١/٢٤ (رقم ١ الادارة — السياسية) .

الفصل السادس

التفتيش والرقابة : الحفاظ على الامن البحرى

١٨٢٣ - ١٨٢٤

فى نهاية الحملة على قبائل بنى بوعلى أعرب الميجور جنرال سميث عن رايه لحكومة بومباى وملخصه، بانه على الرغم من ان مرابطة الفصيلة العسكرية فى الخليج سيعطى مفعوله على قبائل القرصنة ، الا ان الاستقرار فى الخليج سوف يعتمد فى النهاية على دوريات الاسطول فيه ، وانه عن طريق ممارسة الاسطول لهذه الدوريات يمكن للحكومة ان تعتمد بصورة رئيسية على الاحتفاظ بالمكاسب التى كلفتها كثيرا من الجهود والأموال(١) ولم يكن سميث راضيا عن الطريقة التى مارسها الاسطول حتى ذلك الوقت، فقد كانت الطرادات تقضى نصف وقتها فى البصرة وبوشهر، حسب نظام تموينها عن طريق الوكلاء المقيمين فى تلك الموانى أولا ، وبسبب اضطرارها الى نقل عوائد السلع الى حكومة بومباى ثانيا . وكان نظام التموين يستغرق فترات طويلة تزيد عن الحد ، بسبب تباطؤ الوكلاء المحليين فى توفير المواد التموينية ، كما ان نقل عوائد السلع يرغم ربابنة الطرادات بأن يحضروا اكثر من مرة الى البصرة وبوشهر للقيام بهذه المهمة . وكان هذا النظام فى مجموعة يحول بين ممارسة التفتيش والاشراف الكامل على ساحل القرصنة . وفى راى سميث أن هذا النقص يمكن تلافيه باعطاء ربابنة الطرادات مسئولية تموين سفنهم ، لأن الربابنة غير مسئولين من هذه الاجراءات التى يتطلبها تحويل عوائد السلع الى حكومة بومباى ؛ كما أوصى سميث ايضا بوجوب تعيين احد الضباط من الرتب العالية لقيادة

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم (١٤) ١٨٢١/٥/١٦ من سميث الى واردن ١٨٢١/٤/٢٣ .

اسطول المراقبة فى الخليج وان يكون بدرجة كومندور ، وأن يكون مقره العام فى جزيرة قشم ، على ان تكون مهمته الأساسية ضمان بقاء الطرادات دائما وابدا فى تادية المهمة الموكلة اليها ، اما بالنسبة لتعويضهم عن دخلهم من مبيعات السلع كتشجيع لهم على البقاء فى مراكزهم أطول فترة ممكنة فينبغى أن تدفع لربابنة الطرادات مخصصات اضافية بمعدل ٢٠٠ روبية كل شهر ، اثناء وجودهم فى الخليج . وبهذه الطريقة يرى سميث انهم سيتمكنون من الالمام بمنطقة الساحل العربى التى (يجهلونها جهلا تاما) كما يجهلون وبنفس الدرجة خليج البصرة (١) .

بدأ العمل فى الساحل العربى فى أواخر عام ١٨٢٠ ، عندما بدأت سفينة المسح (وسكفرى) ومعها السفينة (شيش) بقيادة الكابتن بى نوهان ، العمل على الجهة الغربية من شبه جزيرة مسندم ، وبتقدم عمليات المسح اتضح وجود مئات من الخلجان الصغيرة التى تضمها المنطقة الواقعة بين رأس مسندم ورأس الخيمة والتى كانت مجهولة لديهم فى السابق . وفى هذه الخلجان بالذات كانت سفن القواسم تكمن فى انتظار ضحاياها من السفن التجارية التى تعبر مضيق هرمز أو الاختفاء بها للانقضاض بها على

---

(١) محادثات بومباى السرية مجلد ٤٩ رقم ١٤ فى ١٨٢١/٥/١٦ من سميث الى واردن ١٨٢١/٤/٢٣ وكانت لسميث كلمة نقد أخيرة لاعمال الطرادات نفسها فقد قال عن هذه الطرادات (بانها صممت بطريقة غريبة) كما كان فى مقدوره أن يشكك فى صلاحيتها للخدمة وضرب مثلا على ذلك لسفينة اريل التى استغرقت رحلتها من البصرة الى بوشهر فى شهر مارس وقتا طويلا لدرجة انها تسببت فى وفاة ٨٧ شخصا من العاملين عليها ؛ وحسب أقوال المؤرخ البحرى الرسمى ان السفينة اريل تنتمى الى الفصيلة المعروفة باسم (اكفان) او (الموتى) وذلك بسبب كثرة عدد من ماتوا فيها . وقد اعتبرت اريل غير صالحة للخدمة قبل ان يرسلها المستر مارتون مامور الاسطول فى رحلتها الاخيرة. وعند وصولها الى مسقط تبين ان السارية

الطرادات ، وربما كان اهم تلك الخلجان جميعا هو خور الشم الذى يقع على بعد أميال من جزيرة مسندم وهو خليج يمتد الى شبه الجزيرة ، وتقطعه نتوءات يبلغ ارتفاعها من ٨ الى ٥٠٠ قدم ، وتفترش مساحة قطرها ٩ اميال ، وقد أعاد اللفتننانت جى.أن جيه الذى خلف الكابتن نيوهان فى الاشراف على عمليات المسح فى شهر نوفمبر ١٨٢١ تسمية هـذا الخليج باسـم (خليج الفنستون) وقد واصل عمليات المسح من ساحل القرصنة حتى آخر شبه جزيرة قطر ، ولم تصادفه اى مقاومة من القبائل الساحلية وانما على العكس لقى هو ورجاله الحماية والمساعدة من حكام المنطقة ، وعلى الأخص من طحنون ابن شخبوط شيخ ابوظبى (١) ، اما المنطقة الواقعة أسفل دبى ، فقد اخذت السفن ترتطم بالمناطق الضحلة والرؤوس الصغيرة التى تزداد كثرة وتعقيدا فيها كلما اتجه الانسان نحو الغرب من ابوظبى حتى المناطق التى يتعذر فيها المسح أو رسم الخرائط . وفى فبراير سنة ١٨٢٣ سلم جى قيادة السفر الى اللفتننانت جى.بى.بروكس قائد السفينة سيش ، وقد تولى بروكس اتمام عمليات المسح للسـاحل العربى حتى شـط الغرب خلال العامين التاليين ، وفى مستهل عام ١٨٢٦ بدأ عملية مسح الساحل الفارسى ، وقد تبين ان هذه المهمة كانت اصعب بكثير مما توقع ولهذا أوقف بروكس عمليات المسح فى عام ١٨٢٨ ، وتوجه الى رأس مسندم للقيام بعمليات مسح

=الرئيسية كانت بالية جدا ، لدرجة ان اخذ الناس يتساءلون ما بها حيث كانت توفر على البحارة رفع أشرعتها ... الأسطول الهندى الجزء الأول ص ٣٦٩ — ٣٧٠ (تأليف لو) .

(١) انظر مختارات بومباى المجلد الرابع والعشرين ص ٥٤٧ — ٥٤٨ (مذكرات عن الملاحة فى الخليج) تأليف بروكس : .. ان الشيخ طحنون شخصية جذابة ويتمتع بكثير من خصال الكرم والصراحة التى جبل عليها العربى ، وانه كما اعتقد من المتعاطفين جدا مع الحكومة البريطانية سواء من ناحية الميول او المصالح .

الساحل العمانى ، وقد خلفه بعد ذلك مباشرة اللفتنانت اس.بى.هينز ، الذى قام بمسح الساحل العمانى حتى منطقة رأس الحد ومن هناك انتقل الى ساحل مكران الذى قام برسم خريطته حتى المنطقة الواقعة الى اقصى الشرق من كراتشى . وعندما انتهت عملية رسم الخرائط للساحل الفارسى، والجزر الواقعة بين جزيرة قشم وجزيرة جاسك وذلك فى عام ١٨٢٩ تكون عملية مسح الخليج باستثناء شق من الساحل الفارسى ، والذى سبق أن رسمت خريطته قبل ذلك ببضعة سنوات ، قد انتهت تماما . وعلى الرغم من بعض الأخطاء والسقطات بسبب عدم توفر المعدات والأجهزة العلمية ، وما وقع من خطأ فى حساب دائرة خط الطول لبوشهر الذى اعتمدت عليه أرقام خطوط الطول ، فان عملية المسح تعد انجازا عظيما ومفخرة لمهارة وصبر رجال وضباط البحرية البريطانية ، وعلى الأخص فى ما جمعته من معلومات شاملة عن قبائل المنطقة ومناطقها وامكانيات الساحل العربى، فقد كان لكل ذلك أهمية خاصة للسلطات فى بومباى فى تعاملها مع القبائل الساحلية خلال السنوات التى اعقبت ذلك (١) .

---

(١) للاطلاع على تفاصيل عمليات المسح هذه راجع (مذكرات بقلم جى وهوتن (وكتاب مذكرات وصفية للملاحة فى خليج فارس) تاليف بروكس وقد اعيد طبعها فى مختارات بومباى المجلد ٢٤ ص ٥٣١ — ٦٤٣ ، وكتاب دراسة عن العرب القاطنين ساحل القرصنة و صورة وصفية للجزر والساحل الواقع على مدخل الخليج ، ترجمة الجمعية الجغرافية فى بومباى مجلد ١ — ١٨٣٨) ، ص ٣٢ ٥٤ من ١١٣ — ١٢٧ ، ملاحظات عن عمليات المسح للشواطىء الشرقية للخليج التى تمت عام ١٨٢٨ : مجلد الجمعية الجغرافية الملكية مجلد ٥ (١٨٣٥) ص ٢٦٣ ، ٢٨٥ وكتاب (مدينة الخلفاء تأليف ولستد الفصل الأول ص ١٢٥ — ١٢٦ مذكرات عن عمليات المسح الهندية (الطبعة الثانية ، لندن ١٨٧٨ ص ١١—٣٠ ، الاسطول الهندى فصل=

وقد تبنى الفنستون مقترحات سميث حول القــوة العســكرية فى الخليج وقام بتنفيــذها على الفــور ، وبعث بأوامره الى وكلاء الشركة فى الخليج بعدم تأخير الطرادات فى الموانىء وقتا أكثر مما يجب على الاطلاق، كما امر بتحويل المكافآت عن حمولات الســـلع الى خزينة الدولة ، كما رفع المخصصات التى تدفع لربابنة الطرادات وفقا لاقتراح سميث كتعويض لهم عن الجهود التى كانوا يبذلونها وقــد تبين لالفنســتون بأن تعيين عميــد بحرى لقيادة الوحدة العسكرية اصبح مسألة اكثر صعوبة مما كان متوقعا، وكان هنرى مريتون قائد البحرية فى بومباى على وفاق تام مع سميث على أن تعيين عميد سوف يسد نقصا كبيرا فى الترتيبات الارتجالية الراهنة ، حيث تسند المهمة الى القائد الأرفع فى الرتبة بصورة تلقائية ، ولكنه توقع ان تنشأ تعقيدات من كون ان ضباط البحرية يتعين عليهم اطاعة أوامر قادة السفن الحربية البريطانية التى قد تزور الخليج . والى حد ما فان احتمال تضارب السلطة بين الجهتين قد تضاءلت بالقرار الذى أصدره القائد العام للاسطول فى الهند الشرقية فى ديسمبر عام ١٨٢٢ والذى امر فيه جميع ربابنة السفن الحربية بالامتناع عن اصدار التعليمات الى ربابنة طرادات الشركة فى الخليج ، مما كان يؤدى الى الاضرار بالترتيبات الخاصة بحماية التجارة ، مالم يتلقوا طلبا بذلك من أحد المعتمدين السياسيين للشركة فى الخليج . ولكن بقيت حقيقة واحدة فيها ، وهى ان ضباط البحرية الهندية يعتبرون خاضعين فى رتبهم لضباط الأسطول الملكى ، ومعنى ذلك أن العميد البحرى الهندى المعين للاشراف على القوة سوف يندرج تحت هذا النظام، وفضلا عن ذلك فان حكومة الهند لا تملك السلطة فى تعيين عميد من البحرية الهندية لأن ذلك يعتبر افتئاتا على سلطة قباطنة السفن الحربية الملكية

= واحد ص٤٠٣ــ٤٠٨، تأليف لو ، ملخص للابحاث العلمية فى الخليج تأليف البروفوسير ولسن ، مجلد جمعية التاريخ الطبيعى لبومبــاى مجــلد ٣١ (نوفمبر ١٩٢٦) .

البريطانية غير ان الفنستون تمكن من ايجاد حل لهذه العقدة ، عندما عين في شهر مارس ١٨٢٢ ضابط البحرية الأكبر في الرتبة وكان في ذلك الوقت بالخليج لقيادة القوة البحرية مع تزويده بتعليمات تنص على عدم الرجوع الى رئاسة الحكومة في الهند دون تصريح محدد من حكومة انجلترا الا في الحالات الطارئة (١) . وقد تم تعيين عدد من ضباط البحرية خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك وقد مارسوا كل السلطات التي يتمتع بها العميد دون ان يحملوا ذلك اللقب . وفي نهاية عام ١٨٢٨ وبموجب مرسوم أصدره الملك وليم الرابع بمساواة ضباط البحرية في الرتب تم تعيين عميد لذلك المنصب (٢) وفي عام ١٨٢١ تولى هنري ماريتون اعداد الخطط اللازمة لتوزيع وانتشار القوة البحرية في الخليج على أساس مقترحات سميث ، وقد وضعت موضع التنفيذ قبل ان ينتهي العام وقد اعتمد هذا النظام الذي تطور فيما بعد الى ما يعرف بنظام (القوة المتجولة) على أساس ستة طرادات (٣) ثلاثة من هذه الطرادات ، كل من نوع معين ، ترابط بصفة مستمرة بالقرب من السواحل العربية التي تتطلب المراقبة — كرمس — وراس الخيمة ، والشارقة ، ودبي — حيث تقوم بزيارات الموانيء من حين لآخر ، وطرادان من الثلاثة الباقية يرابطان حول مسار السفن العابرة من مسقط إلى البصرة وبالعكس لحماية السفن الجارية والمناطق البرية ، بينما يقوم الطراد السادس بالمحافظة على خطوط المواصلات المتجهة الى بومباى ، وبموجب هذا النظام الدورى فانه لم يكن يسمح لأى طراد بأن يبقى في العمل لفترة طويلة من الوقت (٤) . وفي شهر اغسطس سنة

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٥٣ محادثة رقم ١٢ في ١٨٢٣/٣/١٩ من ماريتون الى الحاكم ١٨٢٣/٢/١٨ ومن وليم نيو هام (سكرتير الحكومة) الى ماريتون ١٨٢٣/٣/١٥ .

(٢) « سلسلة موضوعات متفرقة عن البحرية » المجلد ٤٦١ ملخص لخطاب من بحرية بومباى في ١٨٢٨/١٠/٣ .

(٣) ان نوع الطرادين يتحدد بحجم التسليح وليس بصنف السفينة .

(٤) ملخص رسائل الخليج ، ١٨٠١ — ١٨٥٣ ص ١٢٨ من ماريتون الى الحاكم ١٨٢١/١١/٢٦ .

١٨٢١ صدرت تعليمات الى ضباط البحرية تحدد لهم طريقة تصرفهم مع السفن العربية العابرة للخليج ، وقد حذروا من ايقاف أي سفينة مالم يشتبهوا فيها ، فاذا امتنعت تلك السفينة عن ابراز هويتها فيمكنهم فى هذه الحالة اطلاق رصاصة تحذير لارغامها على الامتثال للأوامر ، وبهذا يتعين عليهم الانتقال اليها وتفتيشها ، فان كانت تابعة لاحدى القبائل الموقعة على معاهدة الصلح العامة لعام ١٨٢٠ فيتعين أن تبرز اوراقها فان تبين ان الاوراق مزورة فعندئذ يطلب من ربانها تصحيح تلك الأوراق ، أما اذا لم تكن تحمل أى اوراق فيتعين تحذير ربانها بأنه لو تكرر منه هذا العمل فسوف تحجز سفينته كما ان اى سفينة يتم حجزها على أساس الاشتباه فى هويتها أو بسبب عدم حملها لاوراق فانه يتم ارسال ربانها الى المعتمد السياسى فى جزيرة قشم لكى يقوم بعرض الموضوع على الشيخ التابعة له السفينة . ولكى يضع الفنستون هذه القوانين موضع التنفيذ قرر بأن لا يسمح لأى سفينة تشترك بلدها فى معاهدة الصلح العامة ولا ترفع الاعلام المميزة المتفق عليها ان تزور موانى الهند البريطانية .

وكنتيجة لخبرة المسئولين السابقة ادخلت بعض التغييرات على توزيع وانتشار القوة البحرية المرابطة فى الخليج وذلك فى شهر نوفمبر ١٨٢٢ أما الطرادات الثلاثة فقد استمرت فى اداء عملها فى مراقبة الساحل غير انه تم سحب احد الطرادات العاملة على خط مسقط بوشهر البصرة وخصص لاعمال الدورية فى خليج عمان فى المنطقة الممتدة من راس مسندم الى مسقط ، على ان يقوم بالعمل فى فترة الرياح الموسمية الشمالية عندما تصل حركة الملاحة التجارية الى ذروتها ، واما اعمال التفتيش المنتظمة لموانى ساحل القراصنة فقد استمرت كما هى ، ولكن لم يكن يسمح لأكثر من سفينة

---

(١) الرسائل السياسية لحكومة بومباى رقم ٤٩ حلقة ٣٨٦ مجلد ٣٣ بتاريخ ١٨٢٧/١٢/١٢ من واران الى ماريتون ١٨٢١/٨/١ ٩

واحدة من سفن القوة أن تعود الى بومباى لاجراء الصيانة والعمره عليها(١).
فى نفس ذلك الشهر أى نوفمبر ١٨٢٢ ، وتم نقل مخازن الاسطول من جزيرة قشم الى مسقط ، غير أن مريتون كان يعارض ذلك ، وان الانسحاب من القاعدة العسكرية فى قشم قد ادى الى فشل هذا الاجراء وظهر على الفور أن مسقط هى المكان الأصلح لاقامة محطة لتموين الطرادات وبالتالى أصدر الضابط المسئول أوامره فى شهر يناير ١٨٢٣ بنقل المخازن الى خليج مغو الواقع على الساحل الفارسى المواجه لجزيرة قشم ، وطلب من الطرادات بأن تتوجه للتموين الى تلك المحطة ، غير أن الحكومة الفارسية احتجت على ذلك الاجراء بعد صدوره مباشرة ، وبالتالى فقد اضطرت السلطات البريطانية المسئولة الى الانسحاب منه فى شهر سبتمبر ١٨٢٣ ، اما مريتون فقد كان يفضل نقل المحطة الى جزيرة قيس القريبة من ساحل القراصنة غير ان الفنستون لم يكن يرغب فى اثارة مشكلة جديدة مع الشاه . وقد بذلت محاولات كثيرة لايجاد بديل للمحطة الا ان كل هذه الآراء تركزت حول جزيرة قيس أو جزيرة قشم وبالتالى لم يجد الفنستون بدا من اصدار أمره لاعادة المخازن الى جزيرة قشم رغم تعارض ذلك القرار مع حكومة فارس ، وفى نهاية عام ١٨٢٣ فوض الفنستون المقيم البريطانى فى بوشهر بنقل المخازن الى باسيدو فى الطرف الغربى للجزيرة ، ومن الغريب حقا أن الحكومة الفارسية لم تعارض ذلك الاجراء وبقى المستودع فى مكانه كمحطة لتموين القوة البحرية المرابطة فى الخليج على امتداد الفترة الباقية من القرن .

---

(١) نفس المصدر مجموعة التعليمات التى صدرت الى الضابط البحرى المسئول لاسطول الشركة فى الخليج حول تنظيم وتوزيع القوة البحرية التى تحت قيادته للعمل ضد القراصنة ومراقبة السفن التى تعبر تلك المنطقة أعداد . اتشه . مريتون ١٨٢٢/١١/٢٠ .

وخلال الاعوام الثلاثة التى اعقبت توقيع معاهدة الصلح العامة مع شيوخ الساحل اصبحت العلاقات السياسية بينهم وبين الحكومة البريطانية بواسطة المعتمد السياسى المقيم فى قشم وهو المسئول عن الاشراف على تلك العلاقات . وقد بدات هذه الفكرة وقرار تعيين الكابتن توماس فى شهر مارس ١٨٢٠ عندما عينه الجنرال كير للاشراف على الفصيلة التى تخلفت فى راس الخيمة ، وقد لاقت هذه الفكرة فى البداية معارضة من حكومة بومباى على أساس انه سيكلف نفقات لا لزوم لها خصوصا وان الشركة كان لها من يمثلها بالفعل فى الخليج فى شخص المقيمين البريطانيين فى البصرة وبوشهر وعلى أية حال فعندما تقرر نقل طومسون وفصيلته الى جزيرة قشم فى يوليو ١٨٢٠ تقرر تثبيت هذا التعيين وبذلك اسند الى طومسون منصب المعتمد السياسى البريطانى فى الخليج مع تفويضه سلطة

على العلاقات مع شيوخ القراصنة فى جميع المسائل المترتبة على معاهدة الصلح العامة كذلك نظمت على هذا الأساس العلاقات السياسية بحاكم مسقط وان كان هذا قد حدث عرضا ، وأن بريطانيا لم تعين ممثلا لها فى مسقط منذ ان توفى الكابتن سيتون عام ١٨٠٩ ويشرف على الشئون الرسمية لحكومة بومباى المقيم البريطانى فى بوشهر ، ومنذ شهر يونية ١٨٢٠ حتى بداية صيف ١٨٢٢ كان المقيم البريطانى الكابتن بروس متغيبا عن بوشهر ولما كان المقيم البريطانى مسئولا فى الدرجة الاولى بمباشرة مصالح الشركة فى بغداد فقد كان من الطبيعى ان يتولى هذه الشئون المعتمد السياسى البريطانى فى قشم .

ومن بين الأهداف التى تشملها مهمة المعتمد السياسى فى الخليج هى علاقاته مع القبائل العربية الساحلية وقدرته على منعها من ممارسة أعمال القرصنة والالتزام بسيادة القانون ، غير ان هزيمة طومسون فى معاركه مع

قبائل بنى بوعلى قد قللت الى حد كبير من هذا التأثير ولم يفعل خلفاؤه شيئا لاستعادة ذلك المركز نظرا للقيود التى كانت تضعها حكومة بومباى والغموض الذى كان يحيط بالأحكام البحرية الواردة فى معاهدة الصلح العامة التى دفعت الى عودة بروس الى مقر عمله فى صيف ١٨٢٢ والى اعادة النظر فى موضوع التمثيل السياسى للشركة فى منطقة الخليج وتحديد سلطات وواجبات وأوضاع المقيم السياسى فى كل من البصرة وبوشهر والمعتمد السياسى البريطانى فى الخليج بشكل أوضح .

كما شمل البحث اوضاع المثلية البريطانية فى بغداد والتى انشئت ابان الحرب مع فرنسا ، ولكنها أغلقت فى شهر مايو ١٨٢١ عندما قام المقيم كلوديوس ريش بالانسحاب منها بعد خلافه مع الوالى داود باشا وقد استقر ريش فى بوشهر وتوفى فى اكتوبر من عام ١٨٢٢ بعد اصابته بالكوليرا خلال وجوده فى شيراز (١) . لقد كان مجموع نفقات كل من الممثلية فى بغداد والبصرة ٦٠ الف روبية فى العام أما نفقات الممثلية فى بوشهر فقد كانت تربو على ١٥ الف روبية فى العام ، ونفقات الوكالة السياسية فى الخليج كانت بنفس المقدار تقريبا ، واذا اضيف الى هذه النفقات نفقات الوحدات الطبية فى كل هذه المثليات فان المجموع الاجمالى لنفقات التمثيل السياسى للشركة كان يزيد على ١٠٠ الف روبية سنويا وقد رأى الفنستون أن هذه النفقات لم يكن لها مبرر وعلى الأخص بالنظر الى تضاؤل حجم مسئوليات المقيمين فى بوشهر والبصرة ولذلك فقد اقترح فى شهر اغسطس ١٨٢٢

---

(١) وقد اغلقت ممثلية البصرة فى ديسمبر ١٨٢١ ونقلت الى الكويت ريثما تستأنف العلاقات الطبيعية مع ولاة بغداد وقد اعاد فتحها الكابتن روبرت تايلور فى ابريل ١٨٢٢ (انظر دليل الخليج تأليف لورمار فصل واحد ص ١٣٢٧ — ١٣٢٩ .

اجراء تغيير فى بنية التمثيل السياسى للشركة فى الخليج وقرر اغلاق ممثلية بغداد ودمج الممثلتين فى ممثلية واحدة تسمى ممثلية الخليج الاعلى ، أما ممثلية قشم فبقيت كما هى لخدمة منطقة الخليج السفلى وقد خصصت نفقات شهرية لممثلية البصرة وبوشبهر فى حدود ٣٥٥٠ روبية ولممثلية قشم ١١٥٠ روبية فكان مجموع النفقات السنوية للاثنتين هو ٥٦ الف روبية أو اكثر قليلا عن نفقات الممثليات الحالية كما قرر الفنستون أن يجرد الممثلين من ممارسة الاعمال التجارية الخاصة (١) على أن القرار بالانسحاب من قاعدة قشم قد حال دون وضع هذه الاجراءات موضع التنفيذ . وقد قرر الفنستون اغلاق الوكالة السياسية وسحب القوة العسكرية التابعة لها التى انتقلت مسئوليتها الى المقيم البريطانى فى بوشهر وبالنظر الى المسئولية المضاعفة التى كانت ستترتب (٢) على الممثل فقد تعذر تنفيذ عملية الادماج كما كان يتعين تحديد سلطات ومسئوليات المقيم البريطانى من جديد وبخاصة اذا اخذنا فى الاعتبار المعاهدة غير المصرح بها التى عقدها بروس مع أمير شيراز .

كان بروس الذى تدهور مركزه من جراء مخالفاته لتعليمات حكومة بومباى آخر المجموعة القديمة من ممثلى الشركة فى بوشهر وان كان هو فى

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٢/٨/٣١ (رقم ٣ الادارة السياسية) ان هذا الاجراء لم يكن اكثر من اعتراف رسمى بأوضاع كانت قائمة سابقا .

(٢) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٧ مرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ فى ١٨٢٢/١١/٩ محضر اجتماع الفنستون بونا فى ١٨٢٢/١٠/٣١ .

نفس الوقت أحد رواد المجموعة الجديدة فعندما كان بروس قائدا بحريا حديث العهد عين مساعدا لنيكولاس هنكى سميث فى الحقبة الاولى من القرن ، وكانت المثلية فى ذلك الوقت مقصورا نشاطها على الأعمال التجارية ، والمثلون ومساعدوهم كانوا ضمن الموظفين المدنيين لشركة الهند الشرقية وكانت مسئولياتهم السياسية محصورة فى نقل البريد من الهند الى شيراز أو طهران وكان وجود بروس فى بوشهر كمساعد للمقيم ثم كنائب للمقيم واخيرا كمقيم — قد امتد عبر سنوات التغيير الذى حدث ابتداء من بعثة مالكولم الثانية الى فارس عندما كان النشاط الفرنسى فى تلك البلاد يضفى على المثلية أهميتها السياسية من خلال الاتصالات المتزايدة مع قبائل الساحل العربى وامارة الوهابيين فى نجد بانتهاء ممارسة الحكومة البريطانية لمسئوليتها كحامية لأمن الخليج ، وبعزل بروس من منصبه وتعيين خلف له بدات المرحلة الأخيرة لهذه التغييرات واكتسبت المثلية الطابع الذى ظلت تحتفظ به حتى نهاية القرن الأمر الذى اقتضى ان تكون مهمة كل مقيم ضابطا بحريا او عسكريا فى سلك الشركة او فى سلك القوات الملكية فى الهند هى ، مراقبة النشاط البحرى للقبائل العربية والاشراف على أمن الخليج ككل وعلى هذا الأساس أصبح المقيم البريطانى فى الخليج الفارسى(١) من الناحيتين الاسمية والفعلية .

وقد أختير اللفتنانت ماكليود اول مقيم ، وكان من سلاح المهندسين فى بومباى وكان ضابطا شابا وذكيا ويتمتع بالكفاءة وقد سبق ان عمل مع الفنستون وقد صدرت التعليمات اليه فى نهاية اكتوبر ١٨٢٢ وكانت أهم

---

(١) ان اصطلاح المقيم السياسى بالمقارنة الى اصطلاح المقيم وحده لم يتبلور قبل منتصف القرن .

تعليمات تصدر لأى مقيم بريطانى فى ذلك الوقت حتى نهاية القرن هى ايضاحات شاملة لسياسة حكومة بومباى فى المنطقة والتى استمر العمل بها فى السنوات التى أعقبت ذلك ، وكان من أهم هذه التعليمات هى ان الحفاظ على أمن الخليج والقضاء على أعمال القرصنة بالطرق السلمية مع استعراض للقوة البريطانية والنفوذ البريطانى هى أهم المبادىء التى تقوم عليها السياسة البريطانية فى الخليج وكان على مكلويد بعد تقلد منصبه فى بوشهر أن يركزا جهوده على حماية التجارة البريطانية مع جنوب فارس كما كان عليه ان يتأكد من أن السلطات المحلية هناك لا تميز بين سفن وبضائع وتجارة الدول الأخرى وسفن بريطانيا ، كما كلف بأن يهتم بالاوضاع السياسية فى فارس ســـواء ما كان يتعلق بالداخل أو فى علاقة فارس بـدول الخليج الأخرى ، كذلك يتعين عليه ان يتجنب التدخل فى خلافات هذه الدول او فى شئونها الداخلية الا فى الحدود التى يتطلبها عمله لمكافحة القرصنة بطريقة فعالة ، وبالتالى فقد كانت مكافحة القرصنة هى اهم واجباته وكان نجاحه فيها يعتمد الى حد كبير على طبيعة العلاقات التى تربطه بشيوخ الساحل الذين يتعين عليه أن يتعامل معهم بالحزم والأسلوب الودى فى نفس الوقت ، كما كان يتعين عليه أن يقوم بزيارات منتظمة لهم لكى يتأكد من التزامهم بتطبيق نصوص معاهدة الصلح العامة . كذلك كلف بان يعد تقريرا عن الامكانيات البحرية للقبائل كقوتهم البحرية والعسكرية وعلاقات بعضهم بالبعض ، وعما اذا كان هناك نفوذ لأى دولة اخرى . مع اعداد نظام فعال لتزويد سفن هذه القبائل بالأعلام والوثائق التى تنص عليها المعاهدة كما أن حكومة بومباى سوف ترحب بأية آراء أو تعليقات لمكلويد بشأن تجارة الرقيق والحروب البحرية ، واذا ما اضطر الى أتخاذ أى اجراء ضد اى شيخ من شيوخ القراصنة فيتعين عليه ان يقتصر ذلك الاجراء على تدمير

السفن فقط . ولما كانت الحكومة الفارسية تعتبر أنهـا المسئولة عن أية مخالفات بحرية تقوم بها قبائل الساحل الفارسى فانه يتعين على مكلويد فى حالة وقوع مثل هذه المخالفات ان يكتفى بابلاغ أمير فارس عن تلك المخالفات وأن يطلب منه توقيع القصاص عنها واذا لم تسفر هذه الخطوة عن أى نتيجة فيتعين عليه احالة الأمر الى المبعوث البريطانى فى طهران ، والى حكومة بومباى للحصول على تعليماتهم ، وقد تحدد لمكلويد راتبه ومقداره ١٢٠٠ روبية شهريا بالاضافة الى علاوات أخرى تبلغ ٦٠٠ روبية فى الشهر كما يسمح له بسحب علاوة اضافية مقدارها ٥٠٠ روبية شهريا عند القيام بأى مهمة (١) .

وصل مكلويد الى منطقة الخليج فى أواخر عام ١٨٢٢ وقد جاء وصوله فى الوقت المناسب ليشرف على انسحاب الحامية من قشم . ومن هناك ابحر الى ساحل القراصنة فى اليوم الثانى عشر من يناير ١٨٢٣ على السفينة ترنيد يرافقه الكابتن فيشفل الضابط البحرى المسئول فى الخليج والسفينتان اورورا وانتيلوب ، وكانت رحلة مكلويد أشبه برحلة استكشاف لأن السفن التى سبق لها أن تواجدت فى تلك المنطقة منذ حملة عام ١٨١٩ — ١٨٢٠ كانت سفنا للمسح وكان أول ميناء يصل اليه هو ميناء رمس ، وهناك علم مكلويد بأن زعيم القراصنة الأسبق حسين بن على الذى قاد معركة الدفاع ثم وقع على المعاهدة قد احتجزه السكان ، وعند وصول مكلويد الى رأس الخيمة كانت البلدة لا تزال انقاضا كما تركها طومسون فى شهر يوليو عام

---

(١) مرفقات لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٧ ومرفق لخطاب السكرتير رقم ٣ بتاريخ ١٨٢٢/١١/٩ مسودة التعليمات المرسلة الى مكلويد (اكتوبر ١٨٢٢) .

١٨٢٠ ، وقد ظهرت بجانبها بلدة جديدة كانت لا تزال عبارة عن مجموعة من الاكواخ ، وكان حاكم البلدة محمد بن صقر شيخ القواسم الذى كان يحكم بالنيابة عن اخيه سلطان بن صقر حاكم الشارقة ، وقد اعجب مكلويد بشخصية سلطان بن صقر الذى رأى فيه أقوى وأقدر شيوخ منطقة الساحل من رمس الى البحرين ، ولم يكن حكمه يقتصر على الشارقة ورأس الخيمة فحسب وانما يتجاوزه الى الجزيرة الحمراء وأم القوين أيضا ، وقد انتهز راشد بن حمد شيخ عجمان وكان من الشخصيات الهامة فى المنطقة الشمالية لساحل القراصنة والذى لم يكن يعترف بسلطة صقر عليه انتهز فرصة زيارة مكلويد فطلب حمايته من زعيم القواسم . وعلى الرغم من أن مكلويد لم يوافق على طلبه الا انه أثار هذا الموضوع مع سلطان بن صقر خلال المقابلة التى حاول فيها شيخ القواسم الحصول على اعتراف رسمى بسيادته على ساحل القرصنة وعلى استمرار الحكومة البريطانية فى اعتبار جميع الشيوخ مسئولين عن التزاماتهم بالنسبة للمعاهدة التى وقعوا عليها بصرف النظر عن الصراعات التى قد تنشب فيما بينهم على السلطة ، وقد أشار مكلويد فى تقريره الى رؤسائه بأنه لابد أن يأتى الوقت الذى يتوجب فيه الحد من سلطة ونفوذ سلطان بن صقر .

ولعل مما ازعج مكلويد اكثر هو حجم اسطول القواسم فقد شاهد اكثر من ٣٠ سفينة شراعية راسية فى الشارقة كلها صالحة للعمل ويستطيع كل منها أن يحمل أكثر من ٥٠ الى ١٠٠ رجل كما كان العمل يجرى فى بناء سفينة كبيرة حمولة ١٢٠ طن ولم يكن من المعقول أن يكون القواسم قد تمكنوا من بناء ذلك الأسطول خلال فترة الثلاثة أعوام التى انقضت على

الحملة ، وكان التفسير الوحيد الذى توصل اليه مكلويد هو ان أغلب تلك السفن كان مختبئا فى الخلجان والمناطق الخلفية قبل وصول حملة كير كما حدث فى عام ١٨٠٩ كما كان من المحتمل ان يكون بعض تلك السفن جزءا من الستين سفينة التى استولى عليها البريطانيون خلال الحملة وتم تسليم عدد منها الى السيد سعيد سلطان مسقط أو أن بعضها يتبع لأشخاص لاعلاقة لهم بالقرصنة ، ثم وجدت طريقها الى القواسم فيما بعد . وفى الشارقة حضر لزيارة مكلويد زعماء بنى ياس سكان ابوظبى ودبى وهما طحنون بن شخبوط وزيد بن سيف وأكدوا له صداقتهم ورغبتهم بالالتزام بشروط معاهدة كير وبالمقابل أكد لهم مكلويد مشاعر الود والصداقة من جانب حكومة بومباى طالما انهم ظلوا ملتزمين بالمعاهدة ، ومن الشارقة ابحر مكلديد الى الدوحة او بدعة على الساحل الشرقى من قطر ، وكانت خاضعة لشيوخ آل خليفة حكام البحرين واكتشف بأن الاهالى لا يعرفون اى شىء عن معاهدة الصلح العامة ، وقد أعربوا عن رغبتهم على اى حال بعد ان أوضح لهم المقيم البريطانى الهدف من المعاهدة بالانضمام اليها والالتزام بشروطها وعلى العكس من ذلك كان سكان البحرين التى وصل اليها مكلويد فى اليوم السابع والعشرين من يناير حيث لمس اهتماما عظيما من شيخها عبد الله بن احمد بالمعاهدة الذى كان يرى فى المعاهدة تعبيرا عن الروابط الوثيقة القائمة وبين الحكومة البريطانية وسندا له ضد خصومه السيد سعيد حاكم مسقط ، ورحمة بن جابر شيخ خور حسن ، وحسين على ميرزا أمير فارس ، وعندما رد عليه مكلويد بأن العلاقة لم تكن بالقوة التى أشار اليها لم يعلق بشىء وقال بأن خصومه لا يشكلون أى خطر عليه وانه باستطاعته الانتصار عليهم (١) .

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى رقم ١٣ حلقة ٢٨٥ مجلد ٣٣ فى ١٨٢٣/٢/١٦ من مكلويد الى نيون هام ١٨٢٣/٢/٢٧ .

وانهى مكلويد زيارته للخليج فى بوشهر فى اليوم العاشر من فبراير ١٨٢٣ وفى نهاية الشهر بعث الى حكومته فى بومباى بتقرير مفصل وشامل عن رحلته بالاضافة الى ملاحظاته على بعض النقاط التى وجهت حكومته نظره اليها ومن خلال المناقشات التى اجراها مع ضباط البحرية فى الخليج تبين لمكلويد بأن العقبة الرئيسية أمام الحملة ضد القرصنة هى استمرار الحروب والاشتباكات البحرية بين قبــائل الخليج « ان خروج سفن مسلحة الى البحر بقصد الحرب مهما ارتكزت على أسباب شرعية لابد وأن تنحرف الى ممارسة القرصنة عند أول بادرة تســـنح لها ممارسة تلك الأعمال » . ويبدو أن فى البند الرابع من المعاهدة فقرة غامضة تحد من احتمال نشوب حروب بين قبائل القرصنة غير ان الهدف من البند المذكور هو حظر القرصنة نفســـها وليس حظر الحروب المشروعة . وعلى أى حال فقد طلب سلطان بن صقر من مكلويد اثناء اجتماعه به أن يوضح له ما اذا كان هذا البند من المعاهدة يعنى أن الحكومة البريطانية سوف تتولى حمــاية السفن التى ترفع أعلام المعاهدة من اى اعتداء خارجى عليها وانها تتعهد برد السلع المنهوبة، وقد رد مكلويد بانه لا يعتقد بأن البند المشار اليه من المعاهدة يحمل ذلك التفسير ولكنه وعده بالحصول على تفسير واضح للبند المذكور من حكومة بومباى ، وقد عرف مكلويد أن الذى يثير قلق صقر هو احتمال تعرضه الهجوم من السيد سعيد حاكم مسقط ، الذى كان على الرغم من ضعف قواته البرية ، الا أنه كان قويا فى البحر ، وكان الاثنان يتبادلان شعور العداء وكان احتمال نشوب حرب بينهما قائما باستمرار ، وقد رأى مكلويد الحل الوحيد لمنع انفجار الموقف أو الحرب بين القبائل الموقعة على معاهدة الصلح وعلى غيرها من المعاهدات هو تقديم مجرد الاحتجاجات ومحاولة الحصول على تعويضات للاطراف المتضررة (١) .

---

(١) رسائل حكومة بومباى السياسية رقم ١٣/١ حلقة ٣٨٥ مجلد ٣٣ فى ١٨٢٣/٣/٢٦ من مكلويد الى نيوهام ١٨٢٣/٢/٢٧ .

وقد اثار مكلويد موضوع تطبيق بنود المعاهدة وقبل مغادرته الى منطقة الساحل العربى كان مكلويد قد اقتنع بأن نظام التصاريح والسجلات الذى نصت عليه المعاهدة قد يكون اجراء كافيا لقمع القرصنة ، بشرط أن يمنح السجلات للسفن التجارية وليس للسفن المسلحة غير أن هذا الافتراض قد واجه اعتراضين ، الاعتراض الأول هو ما اشار اليه الكابتن طومسون قبل ثلاث سنوات من أنه لا يمكن رسم خط فاصل بين السفن المسلحة والسفن التجارية اما الاعتراض الثانى فهو أن الحكومة البريطانية وحدها لا تستطيع تحديد هوية السفن عند اصدارها التصاريح لها والنتيجة التى يمكن أن نخرج بها من ذلك هى أن اى محاولة لفرض شروط المعاهدة بالقوة سوف تكون لها اضرار وخيمة . ونفس الراى ينطبق على البند التاسع من المعاهدة الخاص بحظر تجارة الرقيق .

ترك تقرير مكلويد انطباعا ملحوظا لدى الفنستون الذى وافق على اراء المقيم البريطانى بوجه عام . فبالنسبة للمادة الرابعة من المعاهدة اتفق الاثنان على انها تعنى دعوة القبائل الى العيش فى سلام مع بعضها البعض ، كما انها بمثابة التعهد من الحكومة البريطانية بعدم التدخل فى شئون القبائل أو خلافاتها ، وبالتالى فلا يجوز تفسيرها على أنها تعنى حظر العلميات الحربية فى البحار . أن ثمة اعتراضات قوية على فرض قيود على السكان العرب الذين تربطنا بهم معاهدات أو اتفاقيات ، وهى اعتراضات ناشئة عن استحالة فرض نفس تلك القيود على الدول الاخرى كما أشار الفنستون الى انه فى حالة نشوب نزاع بين العرب انفسهم فان هذا النزاع لن يخلو من وجود مشكلات ، لأن كل زعيم من هؤلاء الزعماء يجد نفسه مغبونا أو مظلوما لابد انه سيطالب الدولة التى تحد من حريته فى الحصول على حقه بوسائله الخاصة أو بتعويض . وبعد ان فرغ الفنستون من هذا الموضوع

بدأ البحث فى موضوع آخر يتعلق بفرض الحظر على بناء التحصينات فى الموانىء الخاصة بالقبائل الساحلية ، التى وردت فى معاهدة كير ، وفيما اذا كان من الممكن أن يستمر العمل بها ، وكان سلطان بن صقر الذى كان حريصا على اعادة بناء التحصينات فى رأس الخيمة والشارقة قد سأل مكلويد ، عما اذا كان ذلك الحظر لا يزال سارى المفعول من حيث أن المعاهدة لم تتضمنه ، وقد اضطر مكلويد الى الاعتراف بأن ثمة بعض الغموض يشوب هذا الموضوع ، ولكنه عاد فحذر سلطان بن صقر بأنه على الرغم من انه من حقه اعادة بناء التحصينات فى رأس الخيمة والشارقة ، الا ان عليه أن يمتنع عن اقامة تحصينات على الناحية البحرية للموانىء وقبل ان يمر وقت طويل استغل سلطان بن صقر غياب الطراد المسئول عن مراقبة ساحل رأس الخيمة فقام ببناء قلعة مربعة الشكل ارتفاعها ٣٠ قدما فى مواجهة الساحل ، فما كان من الكابتن فيثفول القائد المسئول عن الاسطول فى الخليج والذى رأى فى آراء صقر تحديا لتحذيرات المقيم الا انه ابحر بخمس طرادات الى رأس الخيمة ، وقام بقصف وتدمير القلعة دون ابلاغ مكلويد مقدما بذلك (١) وعلى اثر ذلك اصدر الفنستون قرارا لم يصل الى مكلويد الا فى شهر مارس ١٨٢٣ ويتضمن رفع الحظر على اعادة بنـاء التحصينات ولكنه طلب الى مكلويد ابلاغ شيوخ المنطقة بذلك القـرار على أن يؤكد لهم بأنه فى حـالة أستخدام تلك التحصينات لأعمال القرصنة فان الأسطول سوف يقـوم بتدميرها (٢) .

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم الادارة السياسية).

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٣٣ حلقة ١٨٥ رقم ١٣ ١٨٢٣/٣/٢٦ من نيو هام الى مكلويد فى ١٨٢٣/٣/٢٦ وقد قدم زكى خان رئيس وزراء امير شيراز احتجـاجا على اجـراءات فيثفـل الى =

وقد وافق الفنستون على آراء مكلويد فيما يتعلق بالبند الخاص بتجارة الرقيق على أنه سوف يكون غير قابل للتطبيق ، كما كان الفنستون يدرك ان البند الخاص بسفن وأعلام المعاهدة وتصاريح السفن لا يمكن الاعتماد عليه فى تحديد هويات السفن وعلى الرغم من انه اعترف بأن الحكومة البريطانية لا تملك بموجب المعاهدة حق التمييز بين السفن المشروعة وغير المشروعة عند اصدار التصاريح الا انه أكد على أنه لابد من ذلك الاجراء لما سوف له من أثر على النظام ، غير أن هذا النظام لم يوضع موضع التجربة ، وحتى بداية شهر مايو ١٨٢٣ لم يتقدم ربان اى سفينة من الموانى التى وقعت على المعاهدة للحصول على تصريح كما لم يصدر آى شيخ ورئيس تصريحا لأى سفينة ، وبالتالى فقد ابلغ مكلويد الفنستون فى نفس الشهر أنه من الأفضل صرف النظر عن هذا الموضوع نهائيا ، لأنه ليس هناك أمل فى أن يسعى العرب من تلقاء انفسهم للحصول على سجلات وتصاريح وأن اى ضغط من جانب السلطات البريطانية عليهم سوف يؤدى الى استفزازهم ، وقد اعترف الفنستون بصحة هذا الرأى فكلف مكلويد فى شهر يونيو بالغاء هذا النظام (١) .

= مكلويد ، على اساس انه اجراء يعد افتئاتا على سلطة حكومة فارس على منطقة الخليج باسرها وعلى سكانها . وقد أخبر الفنستون مكلويد بأن يرد على رسالة زكى خان بأن الحكومة البريطانية غير معترفة بحق أى دولة فى التدخل فى تعاملها مع قبائل الساحل الغربى (سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد رقم ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة فى ١٨٢٤/١/١٤ (رقم ١ الادارة السياسية) .

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ رقم ٢٥ مجلد ٣٦ فى١٨٢٣/٦/١٨ من مكلويد الى نيو هام فى ١٨٢٣/٥/٥ ومن نيو هام الى مكلويد فى ١٨٢٣/٦/١٧ .

وهكذا فبعد انقضاء ثلاثة أعوام على معـــاهدة كير اصـبحت معظم نصوصها غير سارية وغير ضرورية وينطبق هذا على غيره من الاجراءات القسرية التى فرضت للحد من اعمال القرصنة كمنع تصدير الأخشاب من الهند الى ساحل القراصـــنة واغلاق موانى الهنـد البريطـانية فى وجه السفن القادمة من ساحل القرصنة ، كذلك صرف النظر عن موضوع رفع السفن لأعلام المعاهدة ، ورغم أن بعض الشيوخ كانوا يرفعون تلك الأعلام على سفنهم احيانا فان الأكثرية منهم لم تكن تكترث بذلك ، مفضلة رفع أعلامها التقليدية الحمراء (١) وهكذا تغيرت الأمور من سياسة التهديد الى سياسة التعقل والحكمة المقرونة بالحزم على غرار ما اقترحه كل من واردن وكير سابقا ، وأخيرا مكلويد ، وعلى الرغم من ان فترة عمل مكلويد فى الخليج كانت قصيرة فقد توفى بالحمى فى بوشهر فى سبتمبر ١٨٢٣ وأن تأثيره فى علاقات بريطانيا بقبائل الساحل فى الخليج بقى مستمرا ، كما ان المسار الذى تصوره مكلويد لتلك العلاقات قد تحدد بوضوح فى ختام تقريره الشهير المؤرخ ١٨٢٣/٢/٢٧ والذى استمر العمل به على امتداد الفترة الباقية من القرن فيما عدا بعض تغييرات طفيفة ادخلت عليه . حيث جاء فيه :

« وينبغى علينا تشجيعهم بقدر الامكان على مزاولة أعمال التجارة ، وان نحاول تشجيعهم على الميول السلمية عن طريق تقديم ما فى وسعنا من الحماية ، على ان نؤكد لهم فى نفس الوقت حقنا فى الحفاظ على الأمن فى البحار . غير ان الأحقاد ونزعة النهب والسلب وحياة الفقر التى كانت تعانى منها هذه القبائل والتى كانت نزعات متأصلة فيها بقيت عقبـة فى تحقيق هذه الأهداف ، وبالتالى فلم يكن من المعقول ان نتوقع اصلاحا كاملا وسريعا كما لم يكن ينبغى ان نعتمد على أى شيء سوى قوتنا لارغامهم على

---

(١) لقد تغيرت اعلام المعاهدة فيما بعد الى اعلام المصالحة وهذه الأعلام لا تزال قيد الاستعمال من جانب اغلبية شيوخ ساحل الصلح .

احترام التعهدات ، ان هدفنا الرئيسى كما أتصوره هو الحد من الاشتباكات البحرية التى تنشب بين هذه القبائل بقدر المستطاع كما ينبغى أن نحول بين قيام صراعات داخلية فيما بينها حتى لا تؤدى الى انتشار الفوضى من جديد كما أنه علينا فى الوقت نفســـه أن لا نتدخل فى شئونهم الداخلية وأن نكون حذرين كل الحذر فى تجنب ما يسىء اليهم . وثمة مجال واسع للعمل بموجب سياسة الضبط للمنطقة مضمونة بالأسلوب الودى الذى التزمت بها الحكومة فى سياستها ، وعلى أى حال فقد يكون لنا الخيار فى تجنب استعمال الشدة مع الشيوخ تجنبا لاستفزازهم ، ويجب الا يغرب عن بالنا أن أى اجراء يتسم بالشدة والتسرع سوف يتمخض عن قيام توتر بين هذه القبائل الفوضوية اليائسة .

كان اول عمل للقرصنة ارتكبه رجال القبائل فى منطقة الساحل منذ التوقيع على المعاهدة فى بداية عام ١٨٢٤ عندما هاجمت ثلاث سفن تابعة لقواسم الشارقة بالقرب من جزيرة سقطرة احدى السفن التابعة للمهرة على الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة وقاموا بنهب السفينة وذبح بحارتها، وكانت السفن الثلاثة فى طريقها الى ممباسا ، لمساعدة قبيلة المزاريع التى تقيم هناك ، وكان هؤلاء أعلنوا تمردهم على السيد سعيد حاكم مسقط (١) وعلى اثر ذلك وجه اللفتننانت كولونيل اى.جى ستانوس الذى خلف مكلويد فى منصب المقيم وكان ضمن رجال حملة كير السابقة، رسالة الى سلطان بن

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد رقم ١٣ بتاريخ ١٨٢٣/٣/٢٦ من مكلويد الى نيو هام ١٨٢٣/٢/٢٧ .

(٢) عن ثورة المزاريع يمكن الاطلاع على كتاب كويلاند « افريقيا الشرقية وغزاتهـــا » ص ٢١٧ — ٢٢٦ بالنسبة لمزاريع أفريقيا الشرقية يســـتخدم كويلاند كلمة المفرد اى المزروعى فى كتابه ولعل هذه القبيلة تمت بصـــلة الى قبيلة المزاريع المنتشرة على ساحل القرصنة .

مسقر يطلب فيها احتجاز اصحاب السفن الثلاث عند عودتهم ريثما يتم التحقيق فى الموضوع ، كما بعث بتعليمات الى الضابط البحرى المسئول فى «خور باسيدو» بالبحث عن تلك السفن ، واحتجازها اذا استطاع (١) أما كيف سيتم التصرف بأولئك القراصنة فى حالة القاء القبض عليهم فقد كان هذا موضوعا آخر ،وحتى تسلم استانوس لمنصبه لم تصدر اية أوامر من ذار المقيم الى ضباط البحرية بكيفية معاملة القراصنة باستثناء ما صدر منها فى شهر اغسطس ١٨٢١ . وكانت هذه القوانين قد صرف النظر عنها وبقى ضباط البحرية بغير تعليمات تحدد لهم كيفية التصرف بالقراصنة، وبمجرد وصول استانوس للخليج أدرك أنه لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر ، ولهذا أصدر فى شهر ابريل ١٨٢٤ مجموعة من القوانين الجديدة ليعمل بها ربابنة الطرادات وتنص على أنه فى هجوم احدى السفن على سفينة ترفع العلم البريطانى او سبق لها أن هاجمت السفن البريطانية فيجب اغراقها على الفور اما أذا وقع الهجوم على سفن غير بريطانية فيجب اعتقال الجناة وحجزهم ، وبالنسبة للسفن المشتبه فى انها تمارس أعمال القرصنة فيجب حجزها وتسليمها للمقيم مع كافة الأدلة التى تدينها بذلك ، اما اذا لم يكن هناك من الأدلة ما يبرر الاستيلاء عليها أو حجزها فينبغى ارسال مواصفات السفينة وتفاصيل عن بحارتها الى المقيم البريطانى للعلم (٢) ، وقد صادق الفنستون على هذه القوانين دون ادخال اى تعديل عليها وقال بأنه فيما يختص باغراق السفن فلا ينبغى ان يفسر بعدم اعطاء الفرصة لأصحاب السفن

---

(١) سجلات الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

(٢) محادثات حكومة بومباى السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٨ رقم ٢٠ فى ١٨٢٤/٥/١٩ من استانوس الى الكابتن سيلى ١٨٢٤/٤/١٨ .

الدفاع عن انفسهم كما يجب ارسال تلك السفن وبحارتها الى بومباى وليس الى بوشهر لاجراء محاكمتهم (١) .

عندما وصلت أنباء عملية القرصنة التى قامت بها سفن القواسم بالقرب من سقطرة الى الفنستون راى انه من الافضل اعادة النظر فى قرار احضار القراصنة الى بومباى للمحاكمة ، فقد نشأت صعوبات حول هذا الموضوع حتى أن المدعى العام بدأ يشك فيما اذا كانت المحكمة العليا فى بومباى ، بوصفها المحكمة المختصة بقضايا الامبرالية البريطانية ، تملك حق المحاكمة فى القضايا التى تمس الرعايا والسفن غير البريطانية ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك ملاحظات أعضاء مجلس ادارة الشركة على حجز أسرى بنى بوعلى فى بومباى التى لاتزال ذكراها ماثلة فى الأذهان . وقد بدا ان هناك حلين امام السلطات فى بومباى فى معالجة موضوع المتهمين ، الحل الاول هو تسليمهم الى القبيلة المعتدى عليها ، والحل الثانى هو تسليمهم الى رئيس قبيلتهم لمحاكمتهم ثم اصدار العقوبة المناسبة ضدهم ، أما بالنسبة لتسليمهم الى خصومهم فقد كان يعنى الحكم المسبق عليهم بالاعدام ، وقد قال الفنستون بأن مثل هذا الاجراء سيعد تطرفا قاسيا لكل الجرائم التى ارتكبوها ، واما عن الاجراء الآخر فقد قال بانه قد يسمح للقراصنة بالافلات من العقوبة ، اذ لم يكن من المعقول أن يعاقبهم زعماؤهم وبخاصة فى قضية كهذه القضية وانه من المحتمل ان يكون لسلطان بن صقر ضلع فى ارسال السفن الى ممباسا للتحرش بعدوه القديم السيد سعيد . وعلى أى حال فقد كان هذا الاجراء هو الاجراء الوحيد أمام السلطات البريطانية ، وبالتالى فقد أيد الفنستون هذا الحل عند عرضه على الحاكم العام اللورد امهرست على اساس انه يمس مسالة لا علاقة لها

---

(١) من نيو هام الى استانوس ١٨٢٤/٥/١٨ عن نفس المحادثات .

بالسفن والرعايا البريطانيين (١) . غير أن أمهرست عارض الفنستون في حيثياته وقال بأن القراصنة لا ينبغي تسليمهم الى القبيلة المعتدى عليها خوفا من المصير الذى سوف ينتظرهم عند تلك القبيلة (. . . اننا غير ملزمين بأن ندقق في نوع العقوبة التى قد يفرضها الطرف المعتدى عليه(٢). وعلى أى حال ، اضاف أمهرست بأن الضابط الذى يقوم باعتقال اى متهم له الخيار سواء من حيث الجريمة أو من حيث أدلتها في اتخاذ القرار الذى يراه ، سواء بتسليم المتهم الى الطرف المعتدى اليه أو الى شيخ قبيلته ، وقد اضطر الفنستون الى الاذعان لتعليمات الحاكم العام فأبلغ استانوس في شهر يوليو ١٨٢٤ بادخال تلك التعديلات على القوانين التى قد أصدرها استانوس .

أما السفن الثلاثة التابعة للقواسم فقد عادت من افريقيا الشرقية وما أن علمت بعزم الحكومة البريطانية على الاستيلاء عليها حتى غيرت طريق رحلتها وقد عثر على احداها فيما بعد في خليج خرك على الساحل الفارسي وقد عثر على احدى تلك السفن في حالة غير صالحة للعمل وتم تدميرها ، وفي أواخر ١٨٢٤ تناهى الى علم استانوس أن احدى السفينتين موجودة في مطرح شمال مسقط حيث كانت تختبىء منذ عدة اشهر بسبب تساهل احد ربابنة السفن البريطانية معها ، وبمجرد أن عرف استانوس بهذه الحادثة الغريبة أبحر الى مسقط لمقابلة السيد سعيد وعلم منه بأن السفن الثلاثة موضوع البحث قد استوقفها أحد الطرادات البريطانية «اريادين» وقد

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد /٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٩ رقم ٣٠ في ١٨٢٤/٧/٢٨ م من جورج سونيتون (سكرتير الحاكم العام) الى نيو هام في ١٨٢٤/٦/٢٥ م

قام ربانه الكابتن هورسم بنقـــل الحمولة المنهوبة من سفينة المهرة واعادها الى أصحابها واعتقادا من الربان بأن بحارة الســفن المذكورة قد نالـوا ما يستحقون من العقاب فقد سمح لهم بالعودة الى الشــارقة . وقـد رأى استانوس بأنه لو أصر على تسليم السفينة الموجودة فى مطرح فان ذلك سيكون تصرفا غير ودى منه وسوف يلقى ظلا من الشك على نوايا الحكومة البريطانية كما سيؤدى الى تفاقم العداء بين السيد سعيد وسلطان بن صقر كما كانت هناك اعتبارات أخرى وهى أن الحكومة البريطانية لم يكن من حقهـا أن تطالب بتسليم السفينة ولذلك فقد أبلغ استانوس الفنستون بأنه من الأفضل صرف النظر عن ذلك الموضوع وقد وافقه الفنستون على رأيه .

كانت نهاية هذا الحادث عائقا فى سبيل وضع تعليمات الحاكم العام موضع التنفيذ ، الأمر الذى تكرر فى حادث خطر آخر من حوادث القرصنة .

وفى صيف ١٨٢٥ تعرضت احدى سفن البحرين وكانت بالقرب من جزيرة هنجام لهجوم من سفن القواسم قتل خلاله ثلاثة من بحارتهـــا كما استولوا على حمولة كبيرة من التوابل . وعند وصول الضابط البحرى المسئول الى مكان الحادث على راس قوة بحرية للمطالبة باعادة البضائع المنهوبة ودفع التعويضات عن الخسائر التى نجمت عن الاعتداء أذعن سلطان بن صقر لطلبه وتعهد له بمعاقبة الجناة ، كما تعهد بدفع الفدية عن ضحايا الحادث ، ولم يرد أى ذكر فى تلك المقابلة عن تسليم الجناة الى القبيلة المعتدى عليها ، كما ان هذه المسألة لم تثر مع شيوخ المنطقة خلال الأعوام

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠١ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٢٦/٤/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) .

الثلاثة التالية ، وفى أواخر ١٨٢٨ تعرضت احدى سفن عمان التابعة لصحار(١) لهجوم من سفينة تابعة لراس الخيمة وكان يقودها شخص يدعى مسلم بن راشد ، وكانت تبحر من ساحل الباطنة وقد ربط جميع بحارتها وعددهم اربعة عشر شخصا على مرساة السفينة وقذف بهم الى البحر وبالنظر الى ما كان متوقعا أن تحدثه تلك الجريمة الشنعاء من ردود فعل لدى الحكومة البريطانية ، فقد قام سلطان بن صقر بارسال سفينته الخاصة لتعقب مسلم بن راشد وكانت سفينة مسلم وأتباعه قد ارتطمت بساحل لنجه فأمكن انتشالهم ثم احضارهم الى راس الخيمة ، كما تم اعادة حمولة السفينة الى حاكم مسقط ، بما فى ذلك القراصنة كتعويض عن مقتل بحارة السفينة وقد اودع مسلم بن راشد سجن راس الخيمة ثم نفذ فيه حكم الاعدام (٢) فيما بعد .

وفى هذه المرة أيضا لم يرد ذكر لموضوع تسليم المتهمين وهكذا فان هذا القانون لم يطبق منذ اللحظة التى صدر فيها لأن المسئولين السياسيين والبحريين البريطانيين فى الخليج بحكم معرفتهم للظروف السائدة قرروا عدم العمل بالقانون لأنه كان سيسىء فى اعتقادهم لموقف بريطانيا من العرب، وراوا من الأفضل أن يلتزموا بقوانين العرف السائدة فى المنطقة وهو فرض تعويضات عن عمليات القتل والنهب التى ترتكب ، الأمر الذى كان يتفق اكثر مع مفهوم العدالة العربية بدلا من ادخال مفاهيم شرعية غريبة مستمدة

---

(١) كان هناك أكثر من ١٢ نوعا من السفن المحلية فى الخليج خلال القرن الأخير وهى تختلف اساسا فى الحجم والشكل والمقدمة والطول والقاعدة . وهناك نوع اسمه البقرة اكبر انواعه البغله ولها ساريتان ، سارية رئيسية وسارية داخلية وكلاهما يحمل شراعا واحدا .

(٢) مختارات من ارشيف حكومة بومباى المجلد ٢٤ ص ٣٢٢ ، من كتاب اللفتنانت اس هنل (لمحة تاريخية عن قبيلة القواسم العربية ١٨١٩، ١٨٣١ .

من التجارب البريطانية . وقد قام بالتصديق على القانون السير جون مالكولم، الذى خلف الفنستون كحاكم على بومباى وذلك فى شهر سبتمبر ١٨٢٨ وكلف المقيم البريطانى الخليج بقصد تدخله فى قضايا القرصنة التى لاتمس الرعايا البريطانيين فى طلب التعويض فحسب ويترك أمر معاقبة الجناة الى زعمائهم أما اذا ما تطلب الحصول على التعويضات واستعمال القوة ففى تلك الحالة يمكن للمقيم ان يستعين بالقوة البحرية المرابطة فى الخليج لتنفيذ ذلك كما طلب عدم ارسال المتهمين الى بومباى للمحاكمة الا فى حالة وقوع الإعتداء على الرعايا البريطانيين (١) ، وقد استمر العمل بأحكام هذا القانون طوال الفترة الباقية من القرن .

وفى عام ١٨٢٨ تغير مفهوم استعمال القوة البحرية المرابطة فى الخليج لقمع القرصنة من دور الهجوم حسبما تضمنه شعار (المراقبة والتفتيش) الى دور الدفاع اى الزيارات الدورية لموانىء المنطقة والزام حكامها بالتعويضات عن الاعتداءات التى يقترفها رعاياهم فى البحار . والواقع أن التعديل الذى أدخل على القانون قد فرضته الضرورة الناتجة عن الصعوبة فى الاحتفاظ بالقوة البحرية فى الخليج بكاملها وعلى الأخص فى الفترة الواقعة فيما بين سنة ١٨٢٤ وسنة ١٨٢٦ عندما اضطرت البحرية الى توفير سفن للحملة المرسلة الى بورما . على أن الهدوء النسبى للخليج خلال تلك الفترة قد ساعد هو الآخر على تخفيض حجم القوة المرابطة فى الخليج دون أن يؤثر على أمن المنطقة ، وفى شهر يناير من سنة ١٨٢٧ ابلغ الكولونيل ستانوس

---

(١) من مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٢٢ « لمحة تاريخية عن قبيلة القواسم العربية » تأليف اللفتنانت اس هنل .

حكومة بومباى بأنه يمكن الاستغناء عن أحد الطرادات العاملة فى الخليج (١) وفى شهر مايو من سنة ١٨٢٨ تقدم خلفه الماجور ديفيد ويلسون بمشروع لقصر أعمال المراقبة فى الخليج على أربعة طرادات فقط . وقد وافقه رؤساؤه على المشروع غير ان العنصر الغالب فى مفهوم وظيفة القوة البحرية فى الخليج أصبح يرتبط بالادراك المتزايد لعدم امكان القضاء على القرصنة قضاء مبرما طالما بقيت الاشتباكات والنزاعات بين سكانه قائمة .

كانت القرصنة الوباء الذى يشكو منه الخليج لانها كانت تعوق حركة الملاحة التجارية وتؤدى الى الفوضى وتستنزف الموارد الضئيلة للمنطقة وعلى طول ساحل الخليج من الكويت حتى مسقط لم تكن توجد دولة او بلد واحد على الأقل لم يكن متورطا فى صراع أو نزاع مع جيرانه ، فكان رحمة بن جابر زعيم فرع قبيلة الجلاهمة من العتوب فى قتال مستمر ضد آل خليفة حكام البحرين ، ولم يقتصر تورط شيوخ البحرين على صد الهجمات التى كان يشنها رحمة على سفنهم فى المناطق الواقعة بين الساحلية القريبة من البحرين فحسب ، وانما كان عليهم ان يواجهوا تمرد رعاياهم فى كل من الوكرة والدوحة شرقى قطر ، بالاضافة الى مواجهة المحاولات التى كان يقوم بها امير اقليم فارس لانتزاع البحرين منهم . كما أن بنى ياس سكان أبو ظبى ودبى كانوا على عداء مستمر مع القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة ، كما كان هؤلاء بدورهم على عداء مع آل بو سعيد حكام مسقط الى حد دفعهم الى التحالف مع كل من يجرؤ على تحدى جبروت السيطرة البحرية لمسقط كما دفعهم ذلك الوضع الى التدخل فى شئون عمان بانحيازهم لقبيلة الغافرية فى عمان ، فكان آل بو سعيد يرون على عكس ذلك مع آل بو فلاح . وكانت هذه الاحقاد والخلافات تؤدى فى أغلب الأحيان الى اشتباكات بحرية بين تلك

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٤٠ حلقة ٣٨٦ رقم ٧ — ١٨٢٧/٢/١٤ من رمستانوس الى نيو هام ١٨٢٧/١/٢٠ .

الاقطار ، وكانت النتيجة الحتمية هى أن الاشتباكات كانت تساعد على انتشار أعمال القرصنة ، أما الاوربيون فانهم لم يكونوا يستطيعون التمييز بين القرصنة والخلافات السياسية وكما أشار كل من طومسون ومكلويد فان أى سفن تخرج الى البحر للقتال لابد وان تتحول الى ممارسة القرصنة ، غير أن المشكلة التى كانت مثار نزاع منذ عام ١٨٢٨ هى الى أى مدى كان فى امكان السلطات البريطانية أن تمضى فى وقف الاشتباكات الحربية بين تلك الدول البحرية ؟ لقد صرح مكلويد بأن « الهدف الأكبر » للسياسة البريطانية هو وقف الحروب البرية بين قبائل المنطقة ، غير أنه حذر من استغلال الصداقة لتهديد الشيوخ أو التأثير عليهم ، وكانت هناك أسباب حقيقية ، عملية وقانونية تحتم عدم اعتبار الحروب البحرية أعمالا محظورة ليس بين الدول المشتركة فى توقيع المعاهدة وبين غيرها فحسب ، بل فيما بين تلك الدول نفسها ايضا ، وحتى فى حالة نشوب نزاع بين العرب انفسهم فان نشوء مثل هذا النزاع كما إشار الى ذلك الفنستون فى مارس ١٨٢٣ لن يخلو من مشـــكلات ، لأن الزعماء القبليين الذين يجدون أنفسهم مغبونين فى أى صراع سيطالبون بحقهم فى التعويض من الدولة التى تقف حائلا بينهم وبين الحصول على حقوقهم بوسائلهم الخاصة (١) . وكنتيجة لهذا الوضع المائع ظل المقيمون البريطـــانيون يفتقدون التوجيه الصـحيح عن الكيفية التى يمكنهم التدخل فيهـــا فى الاشتباكات البحرية بين قبـــائل المنطقة . اذ أن التعـــليمات كانت تطالبهم بالعمل على وقف تلك الاشتباكات حتى لا تعكر صـــفو الملاحة التجارية .

ويشكل التجمع السنوى لسفن صـــيد اللؤلؤ صيف كل عام مرتعـــا خصبا للفتن والاضطرابات ، ولهذا فقد اقترح الكولونيل ستانوس فى شـــهر مارس ١٨٢٤ بأن يرابط طرادان فى المنطقة لمنع الحوادث وقد تم تنفيذ هـــذا

---

(١) محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٥ مجلد ٣٣ رقم ١٢ — ١٩ مارس ١٨٣٢ من نيو هام الى مكلويد ١٥ مارس ١٨٢٣ ٠٩٠

الاقتراح ، وان كان قادة السفن الحربية قد حذروا باتخـــاذ كل الاحتياطات عند تدخلهم فى مثـل تلك المنازعات (١) . ونظرا لوجود تلك الحمـــاية التى تقدمها السفن البريطانية كل عام فانها سوف تمنع نشوب صراعات فى منطقة المصايد خلال موسم اللؤلؤ ، وان اى فئة تخالف تلك التعليمات تعتبر ضـمن الفئات التى تمارس القرصنة وقد أصبح هذا القانون سارى المفعول ، وان كان قد فسر غياب الطرادات البريطانية من منطقة المصـــايد سنة ١٨٢٩ كنتيجة للاشتباكات القـــائمة بين البحرين ومسقط على أنه اجـراء تأديبى للأطراف المعنية .

وكان هذا بالفعل هو المقصود منه (٢) أما بالنسـبة للاشتباكات البحرية نفسها فان مالكولم لم يبد اى استعداد لوضـع حد لتلك الأعمال فيما عدا الأوامر التى ارسلها الى المقيم البريطانى باستخدام نفوذه فى اقناع زعمـــاء المنطقة بالتعايش السلمى وبعدم اللجوء الى القوة فى حل الخـلافات . كما عارض مالكولم التزام حكومته بتقديم ضمانات عن التسويات التى قد يتوصل اليها زعماء المنطقة لخلافاتهم ، أما فيما يتصل بالمسائل العـــامة للخليج فقـد ذكر ما لكولم بأنه ينبغى علينا أن نعتبر انفسنا مسئولين عن استخدام قوتنا البحرية فى القضاء على القرصنة فى المنطقة ، وانطلاقا من هذا التصـور فان تفوقنا فى هـــذا المجال يخول لنا أن نتقلد مسئولية توجيه الأطراف المعنية

---

(١) محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٥، مجلد ٤٧ رقم ١٩ — ١٨٢٤/٥/١٢ من ستانوس الى نيو هام ١٨٢٤/٣/١٦ (من نيو هام الى ستانوس ١٨٢٤/٥/٨) .

(٢) ملخص لرســائل الخليج ١٨٩١ — ١٨٥٣ ض ١٨٥ من السـكرتير السياسى لحكومة بومباى الى المقيم ١٨٢٩/٧/١ (رقم ٦٩٣) .

لتســوية خلافاتهم بالطرق السلمية كما علينا أن نقبل نتائج هــذه المسئولية سلبا كانت أو ايجابا .

والواقع أن مالكولم لم يكن أكثر رغبة من الفنستون فى أن يتولى دور الحكم فى منازعات الخليج فقد سبق لمالكولم أن واجه نفس المشكلة عندما تورطت احدى الدول المشتركة فى المعــاهدة فى نزاع مع دولة لم تكن مشتركة فى التوقيع على المعاهدة ، وقد نشــأ النزاع نتيجة لحرب الاستنزاف التى كان يشــنها رحمة بن جابر ضد آل خليفة وكان رحمة قد ترك قاعدته فى خور حسن على الساحل الغربى من قطر سنة ١٨١٦ بعد أن اختلف مع الوهابيين وقام بتدمير قلعة للوهابيين تقــع فى الأحســاء ، وعلى ذلك اضطر الى نقل مقره العام الى بوشهر حيث بقى فيهــا عامين كمواطن فارسى ، وبعد اندحار الوهابيين على يد ابراهيم باشــا فى عام ١٨١٨ عاد الى الدمام مع اتباعه وأعاد بناء القلعة واستأنف حملاته ضــد آل خليفة .

فى ابريل ١٨٢٨ طولب رحمة بن جابر بأن يلتزم بشروط المعاهدة العامة غير أنه رفض بحجة أنه من رعايا فارس ، غير أن السبب الحقيقى لرفضه يعــود الى خصــومه فى البحرين لأنهم كانوا شركاء فى التوقيع عــلى المعاهدة . وخــلال موسم صيد اللؤلؤ عام ١٨٢١ هاجم رحمة اســطول الصيد البحرينى ، واستولى على سبع سفن وقتــل عشرين شخصا من بحارتها ، وقد طلب شيوخ آل خليفة من المقيم البريطانى التدخل لمعاقبة رحمة بن جابر الذى قدم احتجاجا الى السلطات الفارسية يطالبها باتخاذ الاجراءات اللازمة ، غير أن رحمة تخلى عن جنسيته الفارسية ولجــأ الى السيد سعيد فى مسقط ، وفى بداية عام ١٨٢٢ وافق على الاجتمــاع بالشيخ عبد الله بن احمد اكبر مشايخ آل خليفة ، وتم الاجتماع بحضور المعتمد الســياسى للخليج . وبذلت فى الاجتمــاع محاولات لتســوية الخلافات بين الطرفين وعلى الرغم من أن الاجتماع قد تم فى باسيدو غير ان مطالب الجانبين

كانت متباعدة جدا لدرجة ان المعتمد السياسى البريطانى اعلن استحالة التوفيق بينهما . وفى شهر نوفمبر من العام التالى رفع السيد سعيد حمايته عن رحمة بعد آن فقد الأمل فيه فعاد رحمة الى الدمام من حيث اخذ يمارس أعمال القرصنة ضد سفن البحرين (١) .

قبل ان يعين الكولونيل ستانوس الذى كان خبيرا فى سلوك بن رحمة مقيما بريطانيا فى الخليج سنة ١٨٢٤ قرر القيام بمحاولات لايجاد تسوية للخلاف بين آل خليفة ورحمة ، وكان رائده فى ذلك هو تحقيق الامن والاستقرار فى الخليج . وفى بداية شهر فبراير سنة ١٨٢٤ اثناء أول جولة قام بها للسواحل العربية حاول الاجتماع بجابر وفى ٧ من فبراير وبحضور كل من رحمة وعبد الله بن احمد إتفق الجانبان بوقف العمليات الحربية بينهما واعادة السلع المنهوبة وتحقيق السلم الدائم بينهما (٢) غير ان هذا السلم الدائم لم يستمر أكثر من عامين ، ففى أواخر عام ١٨٢٥ طالب رحمة بن جابر اهالى القطيف باستئناف دفع الزكاة التى كانوا يدفعونها اليه مقابل عدم الاعتداء على سفنهم ، وانهم اذا رفضوا دفع الزكاة فان رحمة سوف يهاجم جميع السفن الداخلة او الخارجة منه ، وقد قام استانوس بارسال طرادين الى الدمام لحماية السفن التجارية وحذر رحمة مسئولية اعماله وطالبه بالكف عن الاعتداءات على السفن

(١) من مجموعة مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٢٣ — ٥٢٦ ، (صورة لمحادثات رحمة بن جابر شيخ خور حسن) اعداد أف . واردن واس هنل .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٥ مجلد ٤٧ رقم ١٧ مؤرخ فى ١٨٢٤/٤/٢٨ من ستانوس الى نيو هام فى ١٨٢٤/٢/٧ ومرفق معه نص الاتفاق المشار اليه .

غير أن رحمة تجاهل الانذار وقد شجعه على ذلك الوهابيون الذين كانوا قد استغلاوا مركزهم في نجد ، وأخذوا يسعون الى تقويض نفوذ بنى خالد حكام الاحساء ، وهما محمد وماجد العيار ، اللذان يحكمان القطيف فى ذلك الوقت ، وعند عرض الموضوع على الفنستون قرر انه مهما كانت أعمال رحمة تهدد أمن المنطقة فقد كانت اعمالا حربية مشروعة وانه طالما انحصرت تلك الأعمال فى المنطقة القريبة من القطيف فلم تكن هناك اسباب تبرر منعه ولذلك ارسلت الأوامر الى استانوس بسحب الطرادين من القطيف (١) .

غير ان رحمة لم ينتفع من سحب الطرادين لأن الكويت والبحرين عبأتا امكانياتهما البحرية واخذنا تهددان جابر بعد أن انتهك الاتفاقية المعقودة مع آل خليفة وهاجم السفن التنابعة لهم . كما هاجم سفن آل صباح أقارب آل خليفة وفى نهاية عام ١٨٢٦ تقريبا قام شيخ آل خليفة وبنو خالد حكام القطيف بمحاصرة الدمام وقد خرج رحمة الى المنطقة السفلى من الخليج لجمع امدادات بعد أن ترك ابنه للدفاع عن الدمام غير ان السيد سعيد رفض مده بأى مساعدة ، وذلك بسبب الاتفاق الذى كان قد عقده مع آل خليفة والذى كان السيد سعيد يعتقد بأنه اضر بحقوقه فى البحرين ، وعند وصول رحمة بن جابر الى بوشهر فى بداية شهر ديسمبر عرف بأن حكومة فارس قد أصبحت هى الأخرى تعتبره رجلا خارجا على القانون ، فكان ذلك بمثابة الصدمة له وبخاصة وانه قد اصبح شيخا كبيرا يناهز السبعين وانه فقد كلتا عينيه ولا توجد منطقة من جسمه الا وعليها آثارالجروح والندوب من أثر المعارك التى خاضها وبما

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٢/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) ومجموعات مختارات بومباى المجلد ٢٤ ص ٥٢٧ (صورة تاريخية لرحمة بن جابر) .

أنه لم يبق له من كل اسطوله سوى سفينة واحدة وبما ان اتباعه الذين كان دائما يقودهم الى الموت والدمار قد هربوا فانه لم يجد مفرا من اللجوء الى الكولونيل تشانوس لالتماس المساعدة . لقد كانت النهاية فاجعة . غير أنه تحمل الموقف فى شجاعة واعتزاز دفعت كل من استانوس ومساعده الشاب اللفتنانت صمويل هنل الى النظر اليه نظرة احترام وليس نظرة شفقة ، وخلال اجتماع الرجل العجوز بالمقيم البريطانى لمس الأخير فيه نفس صفات الصرامة والشجاعة التى طبعت سلوكه طوال حياته كما أظهر نفس الشراسة والاحتقار ازاء اعدائه العتوب (١) .

بعد بضعة أسابيع تلقى هنل خبر وفاة رحمة من احد شهود العيان . لقد توجه رحمة الى الدمام وفى الطريق اصدر امره الى سفينة باطلاق طلقة من أحد مدافعها كعلامة احتقار لشيوخ البحرين الذين استفزهم ذلك فتطوع أحمد بن سليمان ابن أخ الشيخ الحاكم بمهاجمة رحمة بن جابر وهو فى سفينته . وكان قد وافق حاكم البحرين على ذلك فخرج أحمد بن سليمان وأخذ يسير بجانب سفينة رحمة وفى هذه الأثناء وقع صراع شرس بين الاثنين وعلى أى حال فان بحارة سفينة العتوب تعرضت لخسائر كبيرة نتيجة للنيران الكثيفة التى كانت تصبها عليهم بحيث اضطرت السفينة الى أن تنحرف وتعتلذ لكى تأتى بامدادات جديدة من السفن البحرانية الأخرى القريبة منها ، وبعد حصول أحمد بن سليمان على الامدادات عاود هجومه على رحمة بن جابر ، وبما أن رحمة قد اصابه الانهاك هو وبحارته فقد احس بانه لا يستطيع مواصلة القتال وادرك بانه لابد

---

(١) من مجموعة مختارات بومباى المجلد ٢٤ ص ٥٢٧ .

وأن يقع أسيرا فى يد خصمه الا اذا إستسلم اليهم ، غير أن هذا الخيار لم يكن واردا بالنظر الى الحروب الشرسة الطويلة التى كان يشنها على اهل البحرين ، وبعد أن اعطى أوامره لرجاله بمواصلة الاشتباكات أخذ ابنه الصغير (وكان صبيا لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره) بين ذراعيه ، ثم انتزع عود ثقاب وطلب من حاشيته مرافقته الى مخزن الذخيرة . ولما كان اتباعه يعرفون صلابة زعيمهم ، ويدركون المصير الذى أصبح ينتظرهم فقد نفذوا أوامره على الفور وفى ثوان قليلة تناثرت شظايا السفينة المتفجرة وامتلأ سطح البحر باشلاء رحمة بن جابر واتباعه ، وقد دمر الانفجار السفينة برمتها ، غير أنه امكن انقاذ الربان والبحارة بقوارب النجاة . وبهذه الصورة انتهت حياة رحمة بن جابر ، الرجل الذى ظل ينشر الارهاب والرعب سنوات طويلة فى هذا الجزء من العالم ، وكان لمصرعه ارتياح كبير فى نفوس سكان الخليج ، وهكذا اتسمت نهاية هذا الرجل بنفس البشاعة والقسوة التى طبعت حياته بروح الشجاعة وتحدى الاخطار (١) .

وعلى الرغم من العنف والقسوة التى اتسمت بها طبيعة هذا الرجل الا انه لا يمكن اعتباره قرصانا أو من الخارجين على القانون بل على العكس من ذلك فقد كانت تصرفاته ضمن القانون ، أى قانون الثار والانتقام الذى كان جزءا لا يتجزأ من مبادىء عرب الجزيرة كما كانت هجماته على السفن تتحدد دائما على أساس واحد ، وهو ما اذا كان اصحابها على وفاق مع خصومه أم لا . لقد كان زعيما مستقلا رغم انه كان يعتبر نفسه تحت حماية الأمير الوهابى تارة والسيد سعيد تارة أخرى ، كما كان يعتبر نفسه فارسيا أو من

---

(١) من مقتطفات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٥٢٨ كذلك راجع سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٧/١/٢١ (رقم ٤ الادارة السياسية) .

رعايا الفرس ، ورغم أنه قد رفض التوقيع على المعاهدة العــامة فلم يكن من مصــلحة الحكومة البريطانية ان تعده مسئولا عن أعمــال القرصنة التي كان يقترفها وحتى لو كان رحمة قد وقع على المعاهدة العامة فلم يكن في غير مقدور الحكومة البريطانية أن تمنعه من مزاولة الحروب ضد أعدائه إذ لو فعلت ذلك كما كان يعتقد الفنستون في البداية فستكون الحكومة البريطانية مسئولة عن دفع التعويضات اليه كما أنه لا يكتفي في هذه الحالة بأقل من اذلال آل خليفة.

وعلى أي حال فان موضــوع رحمة بن جابر الذى انتهى بمصرعه لم يكشف عن الموقف الحقيقي لحكومة بومباي تجاه الحروب البحرية ولعل الأهم من ذلك كله القرارات التي اتخذتها حكومة بومباي عام ١٨٢٥ــ١٨٢٦ في قضيتين تمس احداهما أبوظبي ودبي، وتتعلق الثانية بالقواسم والسيد سعيد، ففي شهر ابريل من عام ١٨٢٥ ابلغ الكولونيل ستانوس الحكومة عن وقوع اعتداء على سفينة من دبي بالقرب من منطقة الهويلة على ساحل قطر . وقد وقع الاعتداء من بعض أفراد قبيلة بني ياس اتباع محمد بن شخبوط حاكم أبو ظبي السابق الذى خلعه أخوه عن الحكم في عام ١٨٢٠ وظل منذ ذلك الوقت يشن حربا انتقامية ضد طحنون شقيقه، وبما أنه قد قتل عدد كبير من بحارة السفينة نتيجة لذلك الاعتداء ، فقد اقتنع استانوس بأن الحادث يستدعى القيام باجراء فعال بموجب البند الثامن من المعاهدة التي تنص على تحريم قتل الأسرى ، وحذر ستانوس الفنستون في رسالته من أي موقف يتسم بالتردد في معاقبة المعتدين سوف يجعل القبائل العربية تعتقد بأن الحكومة البريطانية كانت في حالة حرب مع محمد بن شخبوط وبأنه ليس شخصا متمردا ضــد الحكم القائم في أبو ظبي ، وبالتــالي فقد كان من حقه مهاجمة كل من يتحالف مع شقيقه طحنون . فلو قدر لهذا الانطباع أن يسود المنطقة حسب رأي ستانوس فانه قد يشجع القبــائل على الانقضاض على زعمائهم تحت ســتار الدفاع عن النفس أو لممارسة القرصنة في البحار .

غير أن الفنستون لم يوافق على تفسيرات ستانوس ثم خلع محمد بن شخبوط من مشيخة أبو ظبي عن طريق تدخل حاكم مسقط السيد سعيد الذي كان في ذلك الوقت يطالب بالسيادة على ابو ظبي وسواء كان محمد بن شخبوط أو والده لم يكن معروفا غير أن الفنستون يتصور بأن العكس هو الصحيح ، وذلك على أساس تصرف محمد بن شخبوط منذ ذلك الوقت . لقد كانت كل هذه الأعمال تعتبر ضمن الحروب المشروعة سواء ضد ابو ظبي نفسها أو ضد دبي التي كانت خاضعة لها وان كانت لم تتحول الى فوضى شاملة في المنطقة . وقد يكون قتل الأسرى في حادث السفينة اجراء مشروعا الا انه في ظل الحضارة العربية الراهنة لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تلتزم بشرط اعلان الحرب على شيخ كل قبيلة موقعة على المعاهدة يذبح انتزاه . الا أن الفنستون لم يقتنع من أن ستانوس قد بحث موضوع الاعتداء على السفينة بحثا جيدا . اذ تبين من التحقيق أن الاعتداء قد وقع بتحريض من زيد بن سيف حاكم دبي ، وفي هذه الحالة يعتبر الاعتداء اجراء مشروعا كعمل من أعمال الحرب ، الأمر الذي لا يتطلب التدخل البريطاني في الموضوع، اننا اذا قمنا بمعارضة كل زعيم في استعادة حقوقه المشروعة بالقوة فان هذا سوف يلزمنا بالتحقيق في كل دعوى من دعاوى الاعتداء ، وبأن نفرض العقوبة على الطرف المعتدي في حالة ثبوتها وهذا سوف يورطنا لا محالة في كثير من المنازعات التي تشهدها المنطقة وقد نجد انفسنا في المدى القريب أو البعيد في موقف معاد لسلطان مسقط (١) .

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباي مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

ولقد اثبتت التطورات صحة رأى الفنستون عندما تأكد بأن محمد بن شخبوط لم تكن له أى علاقة بحادث الاعتداء الأخير ، بل ان الحادث المذكور لم يقع اطلاقا وان القصة كلها من تلفيق خصوم الشيخ .

وفى أواخر عام ١٨٢٥ وقع حادث اكثر خطورة عندما انفجر القتال بين زعيم شيوخ القواسم سلطان بن صقر والسيد سعيد وطحنون بن شخبوط وكان السبب المباشر للقتال النزاع الذى كان قائما حول تحصينات واحة البريمى فى أقصى الطرف الغربى من حدود عمان ، وبعد انسحاب الوهابيين أخذ نفوذ كل من طحنون بن شخبوط حاكم أبو ظبى وسلطان بن صقر يتزايد فى البريمى وكان من عادة والد الشيخ شخبوط الشيخ طحنون أن يقضى معظم أوقاته فى واحة البريمى وكان يحظى بنفوذ واسع بين قبيلة الظواهر ، غير أن القبيلة الرئيسية الأخرى وهى النعيم لم تكن تعارض امتداد نفوذ آل بو فلاح الى واحة البريمى فحسب بل كانت أيضا تستظل بحكم السيد سعيد الذى كانت له حامية فى البريمى ، فكان يؤيدها فى موقفها نعيم عجمان وسلطان بن صقر الذى كانت منطقة عجمان تخضع له ، وبعد اخذ ورد طويل وعلى الأخص فيما يتعلق باحتلال العديد من القلاع والحصون فى الواحة ، اتفق الثلاثة وهم طحنون بن شخبوط والسيد سعيد وسلطان بن صقر على هدم التحصينات وعدم اعادة بنائها ، وقد وقع هذا الاتفاق فى شهر ديسمبر ١٨٢٤ غير انه لم تتخذ اى خطوات من جانب الأطراف المعنية لتطبيقه ، وبعد أن قام ستانوس بمحاولات يائسة للتوسط فى النزاع فى شهر مايو ١٨٢٥ نشب القتال بين المجموعات المتصارعة ، ثم امتد هذا الصراع الى البحر ، فادى الى تعطيل عمليات استخراج اللؤلؤ من البحر ، واغتصاب سفينة بحرانية بالقرب من جزيرة قشم من جانب القواسم الذين ظنوا بأن السفينة تابعة لأبو ظبى ، وعلى الفور أرسل ستانوس الضابط البحرى المسئول الى الشارقة لطلب التعويض عن الاعتداء ، وبعد تردد وافق سلطان بن صقر على

الطلب . وفى تلك الاثناء ابحر السيد سعيد الى ابو ظبى على راس ثلاث سفن وعدد من السفن التى تسمى (البغله) لدعم موقف الشيخ شخبوط وكان لوجود السيد سعيد على راس تلك القوة سبب فى حمل سلطان بن صقر على عقد هدنة فى شهر سبتمبر . وفى هذا الاتفاق لم يرد ذكر لتحصينات البريمى (١) .

وقد استاء السيد سعيد من حياد ستانوس فى النزاع اذا استثنينا موضوع السفينة البحرانية بسبب عدم تدخله لحماية سفن مسقط وابو ظبى وكتب رسالة الى المقيم البريطانى فى نهاية شهر سبتمبر قال فيها بأن أهل الشمال يعتقدون بانهم فى حل من مهاجمة رعاياى ولم يحدث قبل هذه الواقعة ان يقع، كما اتذكر ، اى خلافات بينكم وبيننا وعلى هذا الأساس فان العرب منذ الأزمنة القديمة متفاهمون مع بعضهم البعض وهم أدرى بمصلحتهم (٢) .

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٤/١٩ (رقم ٥ الادارة السياسية) ومن مجموعات مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ١٩٢ ــ ١٩٣ ودراسة بعنوان لمحة تاريخية لحكومة مسقط (١٨١٩ ــ ١٨٣١) اعداد اللفتننانت أس هنل ، ويذكر هنل أن التأخير فى تنفيذ اتفاق ديسمبر السابق لهدم التحصينات انما يعود الى مؤامرات السيد سعيد اكثر مما يعود الى مؤامرات سلطان بن صقر.

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧ فى ١٨٢٦/٢/١٥ من السيد سعيد الى ستانوس بتاريخ ١٧ صفر ١٢٤١ الموافق ١٨٢٥/٩/٣٠ .

ولكن مثل هذه الشكاوى لم تكن بذات أهمية فقد سبق فى مناسبتين سابقتين على الأقــل أن أعرب السيد ســـعيد عن خيبة أمله فى الحكومة البريطانية التى لم تفعل شيئا فى منع القواسم وغيرهم من القبائل الموقعة على المعاهدة العامة من الاقتتال فى البحر ، كما أعرب عن أسفه بنـــوع خاص لزيارة مكلويد لساحل القراصنة فى شــهر فبراير ١٨٢٣ واخفاقه فى ازالة الانطباع الذى تركه انسحاب الحامية البريطانية من قشم قبل ذلك بشـــهر واحد ، الأمر الذى فتح المجــال واسعا أمام القبائل البحرية للصراع فيمـــا بينها بلا ضابط ، كما أعرب السيد سعيد عن نفس المخاوف والشـــكوك لستانوس فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ عندما زاره المقيم البريطانى فى مسـقط وهو فى طريقه الى بومباى لازالة بعض الانطباعات السيئة حول الســـياسة البريطانية والتى أشار اليها السيد سعيد فى رسالته . وقد ذكر الســـيد سعيد لستانوس بانه كان يعتقد دائما ، بأن رعاياه يتمتعون بحماية الحكومة البريطانية . ولذلك ســأل ستانوس : من الذى سمح للقواسم بالقيـــام بعمليات عدوانية فى البحار ؟ وقد أوضح له ستانوس بأن الحكومة البريطانية لم يكن لها الحق بموجب المعاهدة العامة أن تمنع الحروب البحرية وأن مجال تدخلها محصور فى تقديم المشورة والنصيحة ، غير أن السيد ســـعيد لم يرض عن ذلك الرد ، ولم يحاول الاسترسال فى الموضوع أثناء الزيارة ولكنه بعد سفر المقيم البريطانى وجه رسالة الى الفنســـتون يحتج فيها على موقف الحكومة البريطانية الذى قال أنه يساعد على انتشار الفوضى والعنف فى كل أنحاء الخليج .

والواقع أن السيد سعيد كان يعمــل تدريجيا على التحرير من أوهامه فى السياسة البريطانية وفى البداية كان متصورا بأن حكومة بومبـــاى قد تؤيد مطــالبه وعلى الأخص بالنســـبة للبحرين لو أنه اســـتطاع أن يقنعهم

بمقدرته على تحقيق الأمن والاستقرار فى الخليج وعنــــدما تأكد ان حكومة بومباى لن تسايره فى هـذا الاتجاه خاب أمله فى الحصـــول على التأييد البريطانى لخططه ، وعلى أى حال فقـد ظل السيد سعيد يتذكر الحمـــلة البريطانية على قبـائل بنى بوعلى ، على الرغم من أن البريطانيين قد أكدوا له له أكثر من مرة بأنهم لن يسمحوا بتكرار ذلك التدخل وكان اهتمام ســـعيد بعد عام ١٨٢٠ يتركز أساسا على نشاط القواسم ووجد نفسه حرا فى بنـاء السفن لتحقيق اهدافه فى البحرين وأفريقيا الشرقية ورغبة منه فى اضعاف نفوذ القواسم على البر ســـعى الى التحالف مع أبو ظبى التى كانت فى ذلك الوقت اقوى المشيخات الساحلية عسكريا كما أعتمد على البريطانيين فى كبح جماح القواسم فى البحر (١) وبالتالى فقد صـــدم صدمة كبيرة عندما ابلغه مكلويد فى مارس ١٨٢٣ بأن حكومة بومبـــاى لا تنوى التدخل فى موضـــوع الحروب البحرية التى تنشب بين القواسم وغيرهم من القبائل كما كانت تنتظر للسيد سعيد حاكم مسقط خيبة أمل أخرى على يد الفنستون الذى عرف من مكلويد بمطالب السيد سعيد فكتب يقول : انه ليبدو من حديث امام عمـــان انه يتصور بأن الحكومة البريطانية قد ربطت مصالحها به فى الخليج ، وانهـــا سوف تقف دائمـــا الى جانبه فيما ينشب من خلافات بينه وبين الحــكام الآخرين ، الأمر الذى يضطرنا الى أن نوضح لسموه أنه كنتيجة للاتصـــالات التى جرت معه فى أعقاب حملة طومسون ، كان من المتوقع ان يكون عند سموه

---

(١) مما لا شك فيه أن موافقة السيد سعيد على ما يسمى بمعـــاهدة (مورسبى) فى شهر سبتمبر ١٨٢٢ كانت تهدف الى تحديد موقف الحكومة البريطانية من امن الخليج اما المعاهدة المشار اليها فتتعلق بحظر تجارة الرقيق فيما بين زنجبار وجزر موريشيوس .

نكرة صحيحة عن سياستنا نحوه بدلا من ان يعيش علي أمل أن نقدم له العون والمساعدة ضد خصومه (١) .

وقد تضاعفت خيبة الأمل هذه فى شـــهر فبراير ١٨٢٤ عندما علم أن سكان ممباسا (المزاريع) قد أعلنوا التمرد ضد السيد سعيد ، وكان هؤلاء الثوار يحتمون بالكابتن وليم اوين (من ضابط البحرية الهندية) الذى كان فى ذلك الوقت يجرى عمليات المسح للساحل الأفريقى (٢) ويبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تكتفى بسحب تاييدها من السيد سعيد فى شئون الخليج فحسب وانما كانت تعمـــل على انتزاع ممتلكاته فى افريقيا خفية . ونتيجة لاستيائه وغضبه من الحكومة البريطانية خرج فى صـــيف عام ١٨٢٤ الى الحجاز لأداء فريضة الحج واجراء اتصالات بمحمد على باشا ، ولما عاد من الحجاز ووجد أن أوين يحيك المؤمرات والدسائس ضـــد ممتلكاته بافريقيا الشرقية ، وجه احتجاجا رســـميا الى الفنستون ، كما بعث فى نهـــاية العام برسالة الى ملك بريطانيا جورج الرابع عن طريق الفنستون (٣) وعندما التقى بستانوس فى شهر فبراير ومايو من عام ١٨٢٥ شكا له مر الشـــكوى من أعمال الكابتن أوين ، غير ان المقيم البريطانى لم يكن فى وضـــع يسمح بالادلاء برد مقنع حول هذا الموضوع بعد أن رفع الأمر الى ملك انجلترا ، ولكن الحكومة البريطانية لم تتمكن من اتخاذ قرارها فى الموضوع قبل نهـــاية عام ١٨٢٧ وعلى الرغم من أن القـــرار قد جاء في صـــالح السـيـد سـعيد وندد

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ (رقم ١ الادارة السياسية) .

(٢) للاطلاع على عمليات أوين راجع كتاب (افريقيا الشرقية وغزاتها) تاليف كوبلند فصل ٧ و ص ٤٢٦ - ٤٢٨ ادناه .

(٣) كوبنلد ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

باجراءات الكابتن أوين الا ان القرار وصل متأخرا الى أوين بحيث لم تكن منه فائدة فى تخفيف استياء السيد سعيد .

كانت هذه هى الأسباب وراء احتجاجات السيد سعيد لستانوس فى ديسمبر عام ١٨٢٥ ورسالته الى الفنستون فى نفس الشهر ، غير أن رسالة الحاكم لم تتضمن اى تأكيدات له ، فقد كان موضوع العلاقات بين بريطانيا ومسقط فى تلك المرحلة يخضع للدراسة كنتيجة للاجراء غير القانونى الذى قام به الكابتن أوين فى ممباسا وتدخله فى تجارة الرقيق فى أقاليم افريقية الشرقية ، وربما كون السيد سعيد رأيه عن علاقته ببريطانيا ومدى التأييد الذى كان يتوقع ان يحصل عليه منهم على قراءته لاتفاقية عام ١٧٩٨ (القولنامه) وعلى الأخص البند الثانى منها الذى ينص على أن أصدقاء وأعداء احدى الدول يعتبرون بموجب المعاهدة اصدقاء وأعداء الدول الأخرى الموقعة على المعاهدة ، وكان هذا هو الانطباع الذى خرج به استانوس من عند السيد سعيد ، وهكذا عندما قام الفنستون بدراسة الموضوع فى شهر يناير ١٨٢٦ لم يستطع أن يقطع ، ما اذا كانت القولنامة سارية المفعول أم لا حتى ذلك الوقت ، فإن كانت لا تزال سارية المفعول فقد كان لاحتجاجات السيد سعيد من الاجراءات الأخيرة فى الخليج وافريقيا الشرقية ما يبررها دون شك ، فهل كانت المعاهدة لا تزال سارية المفعول لانه لم يرد اى ذكر للمعاهدة المذكورة فى المراسلات المتبادلة بين السيد سعيد وسلطات حكومة الهند لعدة سنوات كما أن السيد سعيد نفسه قد أشار فى خطابه المؤرخ ديسمبر ١٨٢٥ الى الفنستون والذى خصص اغلبه لموضوع تجارة الرقيق الى انه يعتبر الاتفاق منتهيا أو على الاقل لا يتعدى مضمونه الشئون البحرية الأسطولية ، كما أنه قد اشترط مقابل حظر تجارة الرقيق أن تتعهد الحكومة البريطانية بعدم المساس بأى ضرر لأراضيه واذا اعتبرنا (القولنامه) وثيقة منتهية وان بريطانيا غير ملزمة بتقديم المساعدات الى السيد سعيد ضد معارضيه فان الحكومة

البريطانية فى رأى الفنستون لم يكن لها حق التدخل فى شئونه (١) .

اما فرانسيس واردن ، السكرتير الأول السابق وعضو المجلس الآن فلم تكن تساوره اية شكوك حول وضع هذه الوثيقة التى كانت تتناول موضوع الحرب مع فرنسا فقط ، وعندما سمحت حكومة الهند لمسقط فى عام ١٨٠٧م بالوقوف موقف الحياد فى تلك الحرب فقدت معاهدة (القولنامة) مفعولها ، زد على ذلك أن السيد سعيد لم يصادق عليها كما فعل خلفه بدر بن سيف ، كما لم يشر اليها فى العديد من رسائله الى حكومة الهند التى كان يناشدهم فيها المساعدة ضد الوهابيين ، وكان واردن يوافق الفنستون على انه اذا رفض طلب السيد سعيد للمساعدة فى حربه ضد خصومه فى شبه الجزيرة العربية فقد كان من حقه أن يمارس شئونه دون تدخل من جانبنا بشرط الا تؤدى اجراءاته الى تهديد الأمن فى مياه الخليج ، وعلى اية حال كما حذر واردن فاننى كنت أتصور دائما انه لابد من وضع حد لأطماع امام مسقط لأن مثل هذا الاجراء ضرورى لتامين سلامة الخليج ، وان علينا أن نحذر كثيرا من تذمره السياسى أكثر مما نحذر من سلوك الدول الصغرى فى تلك البقعة ، كما انى لا أرى سببا فى الاشادة به اذ ان أكثرية المعتمدين السياسيين الذين اتصلوا به قد تأثروا بشخصيته .

غير أن الفنستون كان يختلف فى الراى مع واردن حول الطابع المؤقت للمعاهدة فقد عكف على دراسة الوثائق الخاصة بالمعاهدة ، وللتأكد من ان الغرض من ابرامها هو أن تصبح اتفاقا دائما وليس مؤقتا ، فلم اذن نصت المعاهدة فى بنودها على عمليات انقاذ السفن البريطانية التى تتحطم

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧ فى ١٨٢٦/٢/١٨ محضر الفنستون ١٨٢٦/١/١٤ .

على حدود سواحل عمان واقامة مركز تجارى لشركة الهند الشرقية فى بندر عباس ؟ وعلى كل فقد كان واضحا من التحفظات التى أبداها والد السيد سعيد عند ابرام المعاهدة هو احتمال تورطه فى حرب مع الفرنسيين وأن عبارة الأصدقاء والأعداء الواردة فى المعاهدة كانت مجرد عبارة مكملة ولا تعنى عقد حلف هجومى أو دفاعى بين الطرفين . على أن الحكومة البريطانية لم تكن ملتزمة بموجب تلك المعاهدة بمساعدة السيد سعيد ضد معارضيه وقد تم ايضاح هذه النقطة للسيد سعيد فى مناسبات كثيرة وعلى الخصوص فى عام ١٨١٠ ، ١٨١١ ، ١٨١٢ وبالمثل لم يكن من حق الحكومة البريطانية مساعدة خصوم السيد سعيد وأن كل طرف من أطراف المعاهدة كان ملتزما بموقف الحياد من الحرب التى قد تنشب بين الاطراف الأخرى، وبالتالى لم يكن الفنستون فى وضع يسمح له بمنع السيد سعيد وبخاصة القواسم من شن الحروب عليه فى البحر ، لأنها لو فرضت مثل هذا الحظر على القواسم الذين تكمن قوتهم أساسا فى امكانياتهم البحرية لوضعهم تحت رحمة جيرانهم الأقوى عسكريا وعلى الأخص بنى ياس حلفاء السيد سعيد الذين يستمدون قوتهم من ممتلكاتهم الاقليمية ومن ارتباطاتهم بالقبائل البدوية كالمناصير والعوامر (١) .

فى فبراير ١٨٢٦ كلف الكولونيل ستانوس بابلاغ هذا الموقف للسيد سعيد كما طلب اليه بأن يؤكد له انه فى الوقت الذى لا تستطيع الحكومة البريطانية مساعدته على تحقيق مطالبه الا انها لن تقف عثرة فى طريقه اذا حاول تحقيق تلك المطالب بطرقه الخاصة وأن الشىء الذى تود ان توجه

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٤ رقم ٧ فى ١٨٢٦/٢/١٥ محضر الفنستون ١٨٢٦/١/٣٠ .

نظره اليه هو ان المصالح المشتركة للدولتين هى فى استتباب الأمن فى الخليج ووضع نهاية دائمة لأعمال القرصنة ، وعلى ضوء تلك الإعتبارات فقد كان يهم الدولتين ان تتحاشيا إى عمل من شأنه ان يعكر صفو الأمن فى الخليج ، وان تكونا على استعداد للقيام بعمل مشترك ضد اى دولة تحاول احياء اعمال القرصنة ، وقد أبلغ ستانوس هذه الرسالة الى السيد سعيد فى شهر ابريل ١٨٢٦ بعد عودته من اجازته فى الهند ، وعلى حين لم يكن للسيد سعيد مفر من قبول وجهة نظر إلفنستون فى الاتفاقية الا انه عاد فكشف عن موقفه الحقيقى عندما رفض مقترحات الحاكم حول تصرفاته المقبلة ، وفى شهر مايو أعلن السيد سعيد الحرب على حاكم بوشهر الشيخ عبد الرسول خان بحجة ان الشيخ عبد الرسول قد طعن فيه امام محكمة شيراز بهدف منع زواجه من احدى شقيقات امير شيراز لكى يتزوجها لنفسه .

وفى أواخر شهر يوليو ظهر السيد سعيد على راس إسطوله أمام مدينة بوشهر غير أن عبد الرسول خان كان متغيبا عن البلاد فى رحلة لتأدية فريضة الحج ، فأبحر سعيد الى البصرة ليصفى حسابه مع داود باشا والى بغداد ، بعد أن ادعى أن داود باشا لم يلتزم بتسديد الزكاة السنوية لمسقط مقابل المساعدة التى قدمتها مسقط لتركيا فى عهد أحمد بن سعيد جد السيد سعيد وقت حصار البصرة فى عام ١٧٧٥ — ١٧٧٦ ، وعندما أعلن السيد سعيد عن اعتزامه فرض حصار على البصرة عرض عليه استانوس خدمات الكابتن روبرت تايلور المقيم البريطانى فى البصرة لحل النزاع ، ولكن بعد أن صرح داود باشا أنه لن يدفع اى شىء للسيد سعيد لعدم أحقيته فى ذلك قرر تايلور وستانوس الانسحاب من الوساطة غير أن الحصار الذى فرضه السيد سعيد على البصرة قد أرغم داود باشا على

تلبيته لطلبات السيد سعيد فرفع الحصار عن المدينة فى شهر نوفمبر (١) وفى هذه الاثناء نجح السيد سعيد فى شهر سبتمبر فى اعتقال عبد الرسول خان بالقرب من جزيرة قشم ، وكان عبد الرسول عائدا من مكة ، فأخذه أسيرا هو وسفينته ، وفى شهر مايو ١٨٢٧ أفرج عنه مقابل دفع فدية مقدارها ٨٠ الف ريال نمسوى ، ثم بعد شهرين تزوج السيد سعيد من شقيقة امير شيراز (٢) وفى نهاية ذلك العام أبحر السيد سعيد الى افريقيا على رأس قوة من ١١ سفينة و ١٢٠٠ جندى لقمع ثورة المزاريع فى ممباسا (٣) .

لقد كان الهدف من الزواج بشقيقة حسين على ميرزا هو تحسين علاقة السيد سعيد بأمير شيراز ، وهى العلاقة التى تصدعت خلال السنوات الاربع السابقة ، كما كان لها هدف آخر أيضا وهو تمهيد الطريق لاحتلال البحرين ، ولما كان حسين على ميرزا قد فشل فى الحصول على اعتراف بريطانى بمطالبه فى البحرين عام ١٨٢٢ فقد حاول فى عام ١٨٢٣ الاستعانة بكل من سلطان بن صقر والسيد سعيد للقيام بهجوم مشترك على الجزيرة، وبما عرف عن أمير شيراز من المناورات فقد أرسل مبعوثا الى السيد سعيد يدعوه الى زيارة بندر عباس للاجتماع بزكى خان رئيس وزرائه بينما أرسل مبعوثا آخر الى سلطان بن صقر برسالة يمنحه فيها رتبة دريا بيجى اى « القائد الأعلى للاسطول » ويطلب مساعدته فى طرد حامية السيد سعيد

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٧/٦/٢١ (رقم ٤ الادارة السياسية) .

(٢) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، لمحة تاريخية لحكومة مسقط ١٨١٩ — ١٨٣١ تأليف هنل .

(٣) افريقيا الشرقية وغزاتها تأليف كوبلند ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

وواليه من كل من بندر عباس وجزيرة قشم ، وربما يكون خشين على ميرزا قد استهدف من هذه الخطوة وجود قوات سعيد فى بندر عباس ارغامه على الاشتراك فى مهاجمة البحرين ثم اذا تحقق ذلك يعود بتماطله فى اعادة بندر عباس اليه كوسيلة للضغط عليه بالانسحاب من البحرين ، بعد أن يحتلها الفرس ، وعلى اى حال فقد وصل السيد سعيد الى بندر عباس قبل وصول الفرس ، واستطاع أن يكسب زكى خان الى صفه مقابل وعد بدفع الف تومان ايجارا اضافيا على مدى السنتين القادمتين (١) .

عندما وصل خبر المؤامرة الى السلطات البريطانية فى الهند كلفت القائم بالأعمال البريطانى فى طهران بأن يطلب من حكومة فارس الامتناع عن اى عمل قد يعكر الامن فى الخليج وأن أى محاولة لاحياء أعمال القرصنة فى المنطقة سوف يرغم حكومة بومباى الى انشاء قاعدة عسكرية لها فى الخليج ولكن قبل ان يتسلم القائم بأعمال الممثلية البريطانية فى الخليج ، الذى عين بعد وفاة مكلويد هو الكابتن اتش هاردى ، وكان المذكور قد سبق أن وجه رسالة الى زكى خان يذكره فيها بأن آل خليفة شيوخ البحرين احد الأطراف الموقعة على المعاهدة وينصحه بأن لا يبدأ بأى أعمال عسكرية ضد البحرين قبل أن يطلع حكومة بومباى على ما ينوى عليه .

وعندما علم الفنستون بالاجراء الذى قام به هاردي خشى ان يؤدى ذلك الى اثارة مشكلة البحرين من جديد ؛ ولذلك فقد كلف ستانوس عند تعيينه بأن يعمل كل ما فى وسعه لتسوية هذه المشكلة . وقد زار ستانوس شيراز

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٤/١/١٤ رقم ١ الادارة السياسية .

فى النصف الأخير من عام ١٨٢٤ وهناك عرف عن التعاون بين السيد سعيد وأمير شيراز ، وأن قوة من ٣٠٠٠ خيال و ٢٠٠٠ من المشاة على وشك ان تغادر بوشهر الى البحرين تحت قيادة حسين على ميرزا نفسه وقال لستانوس بأنه اذا كان يرغب فى الاشتراك فى الحملة فعليه أن يقوم بتوفير سفن النقل وتحذير شيوخ آل خليفة بألا يتوقعوا اى مساعدة بريطانية لهم فى الدفاع عن بلادهم ، وقد أجاب المقيم بأن الحكومة البريطانية لا تعتبر نفسها ملزمة بحماية البحرين من اى عدوان ، وانه يمكن للأمير ان يطمئن بأن بريطانيا سوف تلتزم الحياد التام فى هذا النزاع . غير أن هذا لم يكن الرد الذى كان يتوقعه حسين على ميرزا فبدون وجود سفن كافية للنقل فان الأمير لم يكن يستطيع ان يرفع اصبعا واحدا ضد البحرين . وأن الحديث المتداول عن تعاون السيد سعيد فى تلك الحملة لم يكن أكثر من ستار (١) وعلى اى حال فقد كان ستانوس متأكدا من أن هذه الحملة كغيرها من الحملات السابقة لن تتحرك من مكانها ، وبأنه لم تكن هناك رغبة جدية منذ البداية للقيام بها . (٢) .

وقد اثبتت الأحداث صدق تنبؤات ستانوس ، اذ لم تذع اى أخبار عن حسين على ميرزا عن هجومه على البحرين ليس فيما تبقى من عام ١٨٢٤

---

(١) قام السيد سعيد فأمر بايداع وكيله فى بندر عباس السجن فى قلعة الجلالى التى بقى فيها الى أن توفى هناك (انظر سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٠ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٦/٤/١٩ . (رقم ٥ الادارة السياسية) .

- (٢) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ٩ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٢٥/٧/٢ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

فحسب وانما للسنوات المقبلة أيضا ولم يكن الحظر على البحرين ينطلق من شيراز وانما كان ينطلق من مسقط ويؤيد ذلك اعتقاد واردن من أن الامن فى الخليج لن يستتب مالم يوضع حد لاطماع السيد سعيد .

وفى عام ١٨٢٥ توفى الشيخ سليمان بن أحمد شقيق عبد الله وشريكه فى الحكم ولقد برهن عبد الله الذى كان الحاكم الأوحد للجزيرة انه ينوى الاحتفاظ بالحكم . بينما اتجه أبناء سليمان يطلبون المدد من السيد سعيد للاطاحة بعبد الله واحتلال المركز الذى كان لوالدهم . وعلى الرغم من أن السيد سعيد تبنى طلبهم لفترة من الوقت ، الا انه عاد فتنصل عندما اخطره الفنستون بأن السلطات البريطانية فى الهند سوف تنظر الى اى تدخل من جانبه فى شئون البحرين على النحو الذى يخل بالأمن فى منطقة الخليج باستياء شديد وقد بطلت حجة سعيد فى التدخل بعد أن حقق عبد الله مصالحه مع الجال سليمان بعد أن قبل اشراك احدهما فى الحكم وهو خليفة على مدى السنوات الثلاث المقبلة ، وبعد ان بذل هو وأعضاء مجلس ادارة الشركة قصارى جهدهم للتنصل من تحالفهم مع مسقط ، وأنهم تحملوا تبعة ذلك التنصل وان هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه نظرا لأن الفنستون قد أحيل على المعاش فى ذلك الوقت .

وعندما واجه خلفه مالكولم وضعا اكثر خطورة وجد انه لا يستطيع ان يفعل شيئا لموقف السيد سعيد بسبب القرارات السابقة حول السياسة البريطانية .

فى صيف ١٨٢٨ انتشرت اشاعات فى الخليج عن قرب قيام السيد سعيد بهجوم شامل على البحرين ، ولكن السيد سعيد نفى هذا

الخبر عندما سئل عنه وقام بارسال هدايا الى الشيخ عبد الله بن حمد اتفتيت تلك الاشاعة ، غير أن عبد الله لم يقتنع بمبادرة السيد سعيد وطلب من المقيم البريطاني الكابتن ديفيد ويلسون الذى حل محل ستانوس سنة ١٨٢٧ أن يتدخل، وعلى الرغم من أن المقيم لم يتمكن من اجابة عبد الله الى طلبه الا أنه بعث برسالة الى طحنون بن شخبوط شيخ دبى ، الذى قيل أنه كان هو الآخر يقوم باستعدادات شبه عسكرية ، ينصحه فيها بعدم التورط فى النزاع حتى لا ينضم القواسم الى العتوب . الا أن الشيخ طحنون تجاهل نصيحة المقيم فى شهر اغسطس بعد أن أعلن سعيد الحرب على البحرين ، وفى شهر سبتمبر ابحر من مسقط الى أبو ظبى ، وهناك انضم اليه طحنون بفرقة من بنى ياس وبعض القبائل الأخرى ، ووصل الأسطول المشترك الى ساحل البحرين فى نهاية أكتوبر ، وبدأ فى فرض الحصار على قلعة المنامة ، وفى اليوم السادس من نوفمبر قصفت المنامة وهوجمت جزيرة مستره على بعد نحو نصف ميل على الجانب الشرقى للساحل . وكان سعيد يعتزم شن هجوم مباشر على المنامة بعد أيام قليلة ، غير أن بنى ياس قاموا يوم ٩ نوفمبر بالهجوم على الجفير الواقعة على الساحل الشرقى (١) .

وقبل أن يتمكن السيد سعيد من طلب عودتهم كان العتوب قد شنوا عليهم هجوما كاسحا ، ثم توجه السيد سعيد الى البر بمن معه من القوات فى محاولة لانقاذهم ولكنه اضطر الى الانسحاب ثانية الى البحر لينجو بنفسه من الموت . وقد دب الفزع فى قوات السيد سعيد من هول الكارثة التى لحقت برجالهم على الشاطىء فأسرعوا عائدين الى سفنهم بعد أن فقدوا سفينتين ، وبالرغم من الخسائر التى منى بها السيد سعيد فى الجفير وتقدر ب ٥٠٠ رجل ،

---

(١) راس الجفير بروز يقع على بعد قليل الى الشرق .

كما ذكر ، فقد واصل حصاره للمنامة وإخذ يعيد تنظيم قواته لمعاودة الهجوم على العتوب غير أن ظهور وباء الكوليرا بين أفراد جيشه وخوفه من ظهور وباء الكوليرا بين أفراد جيشه وخوفه من أن يخونه بعض الصاره قرر رفع الحصار والعودة الى مسقط (١).

وقد طلب عبد الله شيخ البحرين من المقيم البريطاني تعويضات عن الاعتداء الذي وقع عليه وذكره بأن اشتراك طحنون بن شخبوط في الهجوم يتعارض مع البند الرابع للمعاهدة العامة التي تحظر على الأطراف المشتركة ان تعتدي على بعضها البعض .

ولكن ويلسون رد عليه بأنه لابد من الأخذ بنظر الاعتبار قرار مالكولم الذي كان قد صدر في بداية الصراع بين البحرين ومسقط ، بوجوب التزام البريطانيين بمبدأ عدم التدخل في الاشتباكات البحرية بين دول الخليج وأوضح لعبد الله بأن البند الرابع للمعاهدة ينطبق على حروب القرصنة فقط . واتخذ عبد الله من رد ويلسون ذريعة لشن حملة انتقام على مسقط وابو ظبي فأرسل سبع سفن حربية الى الخليج سنة ١٨٢٩ لمهاجمة سفن مسقط وبني ياس . وبعد ان يئس الأسطول البحريني من العثور على اي سفن لمسقط وبني ياس اعتدى على احدى السفن التابعة لمرباط على الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة ونهب حمولتها واعتراض أسطول للقراصنة سفينتين من السفن التابعة لمسقط وقاموا بنهبها . وقد اعتبر ذلك عملا سافرا من اعمال القرصنة، وعندما علم به ويلسون بعث بطرادين الى البحرين مع طلب باعادة البضائع المنهوبة ودفع

---

(١) مختارات بومبي مجلد ٢٤ ص ١٩٦ — ١٩٧ ، و (لمحة تاريخية لحكومة مسقط ١٨١٩ ، — ١٨٣١) و « دليل الخليج » تاليف لوريمر فصل / ١ ص ٨٥٢ — ٨٥٤ .

تعويض لأصحاب السفن المعتدى عليها فاضطر عبد الله الى الاذعان لطلب المقيم بسبب ما أسفرت عنه العملية من نتائج مؤسفة .

هذا الحادث أقنع حكومة بومباى باحتمال وقوع أعمال جديدة من أعمال القرصنة فيما لو استمر العداء بين مسقط والبحرين ولهذا طلب الى ويلسون فى شهر مايو ١٨٢٩ بأن يتوسط بين الأطراف المتنازعة لحل المشاكل بينهما سلميا . وقد بذل ويلسون أقصى ما فى وسعه غير ان جهوده تعثرت بسبب اصرار عبد الله على أن تلتزم الحكومة البريطانية بحماية الأطراف المعنية وبالرغم من الحاح سعيد على التزام بريطانيا بحماية الاتفاق الا أن ويلسون لم يكن يملك الخروج على سياسة عدم التدخل التى وضع أسسها كل من الفنستون ومالكولم كما تبين ايضا بأن تقديم ضمانات عن الاتفاقات التى تعقد بين أقطار المنطقة تلاقى معارضة بين دول الخليج لأنها تدفع بالحكومة البريطانية الى التدخل كطرف فى قضايا ظالمة بطبيعتها (١) وكنتيجة لذلك قرر ويلسون الانسحاب من الوساطة ، ولما كانت مطالب عبد الله غير معقولة فقد اقترح ويلسون على مالكولم أن تسحب الحكومة البريطانية سفن الحراسة من منطقة مصايد اللؤلؤ والتى تقرر ان ترابط فيها فى أشهر الصيف، وقد وافقه مالكولم على ذلك ، وتم سحب الوحدات فى موسم ١٨٢٩ ، وقد حل السلام أخيرا بين الأطراف المتصارعة فى ديسمبر من عام ١٨٢٩ عن طريق وساطة شيخ بوشهر ، واحتوى الاتفاق على عدم تدخل أى من الأطراف فى شئون الطرف الآخر ، وعلى أن يتنازل السيد سعيد عن الزكاة التى كانت تدفعها له البحرين ، وقد حصل

---

(١) محادثات حكومة بومباى السياسية حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣٣ فى ١٨٣٠/١٠/٢٧ من ويلستون الى جى .ه. موريس (سكرتير الحاكم) يوليو ١٨٣٠

السيد سعيد على شروط افضل من الشروط التى سبق أن اقترحها ويلسون ، مما أدى بالمقيم البريطانى الى أن يعلق على ذلك الاتفاق بقوله ، ان الوساطة البريطانية قد تسببت فى اطالة أمد الصراعات بين هذه الدول ، أكثر مما ادت الى انهائها (١) على ان فشل السيد سعيد فى البحرين قد ترك آثارا عكسية عليه فهو ان لم يكن قد تخلص من عقدة السيطرة على البحرين فانه على الأقل قد تلقى درسا لن ينساه نتيجة لحملته على البحرين ولكى يعوض سعيد الفشل الذى منى به فى البحرين وجه اهتمامه الى ممتلكاته فى افريقيا ، وكان التمرد الذى وقع فى ممباسة ضده نذيرا بفقده لتلك البقعة أيضا ، ومن هنا أخذ يفكر فى اعتزال الحكم منذ بداية عام ١٨٢٦ ليعيش بقية حياته فى مستعمراته الافريقية وبالتالى أصبحت هذه المنطقة شغله الشاغل حتى أنه كان يقضى معظم أوقاته فى زنجبار الا أن غيباته الطويلة عن عمان بعد ١٨٢٩ أضعفت سيطرته على البلاد وشجعت زعماء القبائل المعارضة على تحدى سلطته الى درجة انها حرضت القواسم ثم الوهابيين على الاعتداء على عمان .

اما الأسلوب الذى اتبعه السيد سعيد فى مواجهة هذه التحديات فهو تهديد تلك القبائل التى يفيد فيها التهديد ، ومما طلة الوهابيين بغية ابعادهم عن عمان والاستعانة بحلفائه بنى ياس فى كبح جماح القواسم .

ان الصراع على التفوق والسيطرة بين هذه القوى المتصارعة كان السمة البارزة التى طبعت تاريخ ساحل القراصنة منذ سنة ١٨٢٩ حتى سنة ١٨٣٥ وهو صراع كانت نتيجته استنزاف قوى جميع الأطراف المشتركة فيه ونضوب

---

(١) من ويلسون الى موريس يوليو ١٨٣٠ انظر كذلك مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ (لمحة تاريخية لحكومة مسقط) ١٨١٩ ـ ١٨٣١ اعداد هنل ودليل الخليج اعداد لورمر فصل واحد ص ٥٥ ـ ٥٦ .

مواردها وامكانياتها الاقتصادية والبشرية فضلا عن تعريض أمن المنطقة للتهديد والخطر ، كما امتد ذلك الصراع الى المناطق البحرية مما عرض تجارة المنطقة الجنوبية من الخليج للخطر .

وعلى الرغم من ان سياسة الحياة التى انتهجتها الحكومة البريطانية ازاء الصراعات البحرية بين قبائل المنطقة وهى السياسة التى شرعها الفنستون وصادق عليها مالكولم كانت تحتم على حكومة بومباى أن تقف بمعزل عن تلك الصراعات منذ عام ١٨٢٩ ، الا انه قد تعذر وضع تلك السياسة موضع التنفيذ .

ولو ان البريطانيين مارسوا تلك السياسة لما استطاعوا حماية السفن البريطانية العاملة فى هذه المنطقة(١) أو المحافظة على الكيان الاقليمى والسياسى لمسقط باعتبارها عنصر استقرار بالنسبة لأمن الخليج ، وفى أوائل عام ١٨٢٩

---

(١) بعد ان تورط بحارة السفينة البريطانية لمشادة فى الشارقة فى شهر يونيه عام ١٨٢٩ عندما حاول بعض أفراد قبيلة القواسم الاستيلاء على بعض الأسلحة والمؤن من السفينة والتى كانت متجهة من مسقط الى ابوظبى اللتين كانتا محاصرتين من جانب القواسم قررت حكومة بومباى بأن تصادق على تصاريح السفر للسفن التابعة لها مع تقييدها بأن ترسو فى موانى مسقط وصحار والبصرة وبوشهر فقط وبالرغم من ان الحكومة العليا كانت تقدر دوافع السلطات فى بومباى الى اتخاذ هذا الاجراء فقد قررت منع ذلك على أساس ان السفن البريطانية غير مطلوب منها ان تتزود بهذه التصاريح لزيارة الموانى للدول المتحالفة مع بريطانيا باستثناء الصين حيث كانت الشركة تمارس اعمالها . وقد اضطرت حكومة بومباى الى الاكتفاء بمطالبة ربابنة السفن البريطانية التى تزور موانى الخليج بأن تحصل على موافقة المقيم السياسى=

حذر ويلسون مالكولم بأن الخطر قد يحيق بالسياسة البريطانية المتبعة فى المنطقة اذا ما تصدع مركز السيد سعيد كنتيجة لهزيمته على يد آل خليفة ، وقد وافقه مالكولم على رايه وكتب اليه يقول : انه مهما ارتكب هذا الأمير من اخطاء لتحقيق اطماعه التوسعية ، ومهما كان التدخل فى الصراعات البحرية القائمة بينه وبين بعض زعماء منطقة الخليج غير مضمون النتائج ، فليس من الحكمة أن نسمح لنفوذ هذا الأمير ودولته الصغيرة الموالية أن تتحطم لكى تحل محلها مجموعة من الدول الأخرى ، ولو حدث شىء من هذا فسيكون له آثار ضارة لحليف لنا لا نزال نستمد منه العون فى تأمين المصالح التجارية للهند البريطانية ، تلك المصالح التى كان والد هذا الأمير من المدافعين عنها والعاملين فى سبيل تنميتها . وان الزعماء الذين جعلتهم الظروف يتألبون ضده قد

= البريطانى فى حالة زيارتها لموانى خلاف مسقط وصحار والبصره وبوشهر فاذا ما رفضت تلك السفن نصائح المقيم فعليها الا تنتظر اى مساعدة منها فيما لو تعرضت بعد ذلك لأى صعوبات تعترضها فى المنطقة .

للاطلاع على حادث السفينة سمبرى انظر «مختارات حكومة بومباى» مجلد ٢٤ ص ٣٢٣ الى ٣٤٢ وكتاب هنل « نبذه تاريخية عن القواسم » ١٨١٩ — ١٨٣١ والمراسلات المتعلقة بالموضوع — محادثات بومباى السياسية حلقة ٣٨٦ مجلد ٦١ رقم ١٠ فى ١٨٣٠/٣/١٠ من ويلسون الى موريس انسكرتير الأول لحكومة بومباى ١٨٣٠/١٢/٢٢ مجلد ٦٤ رقم ١٧ فى ١٨٣٠/٦/٢٣ من جورج سونتن (سكرتير الحاكم العام) الى موريس ١٨٠/٣/٢٦ وسجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٥ من مجلس الحاكم العام الى مجلس ادارة الشركة ١٨٣٠/١١/١٦ (رقم ٧ الادارة السياسية) .

يستغلون الفرصـــة التى قد تحققها لهم تلك النجاحات لممارسة القرصـــنة بدلا من استغلالها فى الأغراض التجارية (١) .

بعد وقت قليل تعرضت آرء مالكولم للاختبار ، ففى شـــهر ديسمبر من عام ١٨٢٩ قام السيد سعيد بمحاولة غير موفقة لضم ظفار فى أعقاب وفاة محمد عقيل الذى كان يحكمها فى ذلك الوقت ، وقد أبحر السيد سعيد الى افريقيا الشرقية لقمع ثورة أهالى ممباسا وقبل ســـفره حاول ان يتخذ الاحتياطات لعدم قيام اى تمرد ضد حكمه فى عمان فأودع ابن عمه هلال بن محمد أقوى زعماء القبائل الرئيسية فى عمان ووالى السويق السجن بقلعة الجلالى ، ولكنه ما كاد يغادر البلاد حتى قامت شقيقة هـــلال السيدة خوخة بالاستيلاء على السويق وتحريض القبائل على التحرك لاطلاق سراح شقيقها . وقد اســـتغل السيد حمود بن عزان زعيم الركن الأصغر لآل بوسعيد الفرصة فأعلن نفســه حاكما على صحار التى كان يعتبرها الاقطاعية الوراثية لعائلته قبل أن يستولى عليها السيد سعيد قبل وفاة عزان بن قيس والد السيد حمود سنة ١٨١٤ (٢) ولم يستطع السيد محمد بن سالم ابن أخ السيد سعيد والذى عينه نائبـــا عنه قمع ذلك التمرد ، فبعث برسالة عاجلة الى ويلسون واخرى الى مالكولم مباشرة يطلب فيهما مساعدته ، وكان أول ما طرأ على ذهن ويلسون هو أن القواسم قد يستغلون الوضع لاجتياح عمان والاعتداء على السفن العمانية ،

---

(١) ملخص لرسائل الخليج ص ١٨٥ ، من سكرتير حكومة بومبـــاى الى المقيم السياسى البريطانى فى ١٨٢٩/٧/١ .

(٢) عزان بن قيس هو ابن قيس بن احمد واحد انجال مؤسس أسرة آل بوسعيد والذى اعطيت له الولاية على صحار بعد دمج بركا اليها سنة ١٧٩٣

ولهذا اوعز الى الطراد افريتيس بالتوجه الى ساحل القرصنة فى أوائل شهر فبراير سنة ١٨٣٠ ومعه رسالة موجهة الى سلطان بن صقر وغيره من شيوخ الساحل يحذرهم فيها من الاعتداء على عمان أو السفن العمانية وبعد أن سلم الطراد الرسائل الى زعماء الساحل توجه الى مسقط لتدعيم موقف السيد محمد بن سالم(١) وقد أثنى مالكولم على التحرك الفورى لويلسون وعلى الأخص انه قد جاء بالغاية المنشودة دون أن يؤدى الى الخروج على السياسة المرسومة ، وهى التمسك بسياسة الحياد وعدم التدخل الا فى الحالات الهامة وبطريقة فعالة . كذلك كلف مالكولم ويلسون بأن يحذر حمود بن عزان بوجوب احترام سلطة السيد سعيد وبأن يبقى طرادات الوحدة فى حالة استعداد للدفاع عن مسقط اذا اقتضت الضرورة .

وفى ٩ مايو ١٨٢٣ عاد السيد سعيد من أفريقيا وبعد أن فشل فى استرداد ممباسا من المزاريع ولم يعرب عن شكره لويلسون على المساعدة التى قدمها دعما للحكم أثناء غيبته ، وانما على العكس من ذلك فقد حاول أن يقلل من خطورة الأحداث التى وقعت فى البلاد خلال سفره ، وطلب الى الطراد افريتس بالسفر كما أعرب عن استيائه الى المقيم البريطانى حول الأوضاع السيئة التى وصلت اليها البلاد (٢) ومهما كان شعور السيد سعيد فى تلك اللحظة فمن المحتمل على اى حال ان يكون استياؤه من ويلسون نتيجة الاحراج الذى وقع فيه بعد ان انكشف ضعف مركزه من وجود الطراد البريطانى فى

---

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٣٩٨ مجموعة رقم ٥٥٤٤٠ من ويلسون الى نوريس ١٨٣٠/٢/٦ .

(٢) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣١ — ١٨٣٠/١٠/١٣ من ويلسون الى نوريس ١٨٣٠/٨/٣١ .

ميناء مسقط ــ فان الحقيقة التى لاشك فيهـا أن نفوذه في عمان قد تدهور كثيرا ، وأن الهزائم التى منى بها فى البحرين وممباسا قد هزت القـوة التى كانت ترتكز عليها دعائم حكمه وعلى العكس من الامام أحمد بن سـعيد وائمة اليعاربة الذين كانوا يستمدون سلطتهم أساسا من تحالفهم مع القبائل الداخلية فقد كان السيد سعيد مثل والده سلطان بن احمد يعتمد فى حكمه اساسا على التجارة والأعمال التجارية ، وكان يعتمد بالتالى فى سلطته على موارده التجارية والملاحية ، وفى عام ١٨٣٠ اتسعت الفجوة بينه وبين القبائل الداخلية ، ويعود ذلك فى لمقام الأول الى تعيينه لولاة لم يكونوا يتمتعون بتأييد كبار زعماء القبائل كذلك فان قضية دفع أموال الى شيخ آل بوفلاح فى أبو ظبى لقاء اشرافهم على المداخل الشمالية لعمان كان سياسة غير فعالة لدعم الحكم فى مسقط ، ومع ذلك فقد كان السيد سعيد يفضل الجري وراء أوهام الفتوحات الخارجية بدلا من الاضطلاع بمهمة دعم الكيان الداخلى لحكمه .

وقبل أن يغادر السيد سعيد الي افريقيا الشرقية فى ديسمبر عام ١٨٢٩ ذكر لويلسون بأنه ينوى الذهاب الى مكة بعد تسوية مشـــكلة ممباسا وانه سيتغيب عن البلاد لمدة ثلاثة سنوات ، وعلى الرغم من أنه عاد من أفريقيا فى شهر مايو ١٨٣٠ الا أنه ما كاد يصل الى العاصمة حتى أبلغ المقيم السياسى بأنه ينوى مساعدة أمير اقليم فارس على اخضاع الشيخ عبد الرسول حاكم بوشهر بفرض حصار على ميناء تلك المدينة ، وبالرغم من ان ويلسون حاول ان يصده عن ذلك الاجراء الأحمق الا أنه فشل ، وبقى سعيد متمسكا بأذيال مغامراته ، وقد تنبأ ويلسون أيضا انه فى حالة انهيار مركز السيد سعيد أمام خصومه فى عمان كالوهابيين مثلا فمن المحتمل أن ينقل مقر الحكم الى زنجبار حيث سيظل هناك يعانى من تأنيب الضمير الذى سببه له سوء تقديره للأمور

في السنوات الأخيرة (١) ولم يكشف شيء عن ضعف السيد سعيد كما كشف اخفاقه فى ازاحة حمود بن عزان عن صحار وغيرها من المناطق الواقعة على ساحل الباطنة التى استولى عليها حمود ، وفى أواخر عام ١٨٣٠ أرغم السيد سعيد على الاعتراف بحمود واليا على صحار مقابل زكاة سنوية قدرها ٨٠٠٠ ريال نمسوى يدفعها اليه ، وعلى الرغم من أن السيد سعيد قد نقض هذا الاتفاق فى أوائل عام ١٨٣٠ وقام بفرض حصار على صحار فقد بقى حمود متحصنا داخل المدينة وتمكن من انزال خسائر جسيمة بقوات السيد سعيد ثم جدد هذا الاتفاق .

وعلى اثر ذلك غادر السيد سعيد فى شهر ديسمبر الى الساحل الافريقى للقيام بمحاولة أخرى لاخضاع ممباسا (٢) وكما حدث فى عام ١٨٢٩ فقد اسفر غيابه عن عمان الى قيام ثورة فيها ، وكان أول من رفع علم هذه التمرد هو السيد سعود بن على بن سيف والى بركا وابن أخ بدر بن سيف الذى كان سلف السيد سعيد فى الحكم ، وكان سعود أحد الثالوث الذى أوكل السيد سعيد اليه مقاليد الحكم فى السلطنة اثناء غيابه أما الاثنان اخران فكانا نجله الأكبر هلال والى السويق ، وابن أخيه محمد بن سالم والى مسقط ، وقد قام سعود باعتقال زميليه فى الحكم فى ابريل عام ١٨٣٢ وزج بهما فى سجن ببركا . وقد استغل حمود بن عزان الظروف فقام بحصار الرستاق بالاشتراك مع هلال بن محمد الذى كان لاعتقال السيد سعيد له سبب فى التمرد السابق .

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٤ رقم ٣١ ـ ١٣ اكتوبر ١٨٣٠ من ويلسون الى موريس بتاريخ ٣١ اغسطس ١٨٣٠ .

(٢) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٢٠١ ، ٢٠٢ وكتاب « نبذة تاريخية عن حكومة مسقط » (١٨١٩ ـ ١٨٣١) تأليف هانيل .

وقد أمكن فك الحصار عن الرستاق بمساعدة محمد بن ناصر شيخ بنى جابر ومستشار السيد سعيد الذى حشـــد نحو ١٥٠٠ فرد من الغافرية لمهاجمة البلدة ، وفى هذه الاثناء تولت شئون الحكم فى مسقط السيدة موزة بنت أحمد عمة السيد سعيد . وقد أظهرت هذه السيدة الشجاعة والطاعنة فى السن كفاءة وروحا أكثر من أقاربها الذكور وبعثت بنداء للمساعدة الى حاكم بومباى ايرل اوف كلير والى المقيم البريطانى الجديد فى الخليج دى اى يلين الذى كان قد خلف ويلسون لتوه ، وقد تحرك يلين بنفس السرية التى تحرك بها خلفه ويلسون قبل عامين فأوفد مساعده اللفتنانت هانيل الى مسقط مـع طرادين هما تيجريس والفنستون كما كتب الى شيوخ القراصنة يحذرهم من التدخل فى القتال الدائر فى عمان (١) .

غير أن ذلك التحذير وصل متأخرا فعند وصول هانيل الى باسيدو علم أن سلطان بن صقر تحرك عند أول سماعه بالامدادات فى عمان أرسل اسطوله الى شبه جزيرة مسندم واحتل دبا وخور فكان على ساحل الشميلية شمال صحار ، كما كان راشد بن حمد شيخ عجمان وأحد عمـلاء القواسم قد خرج هو الآخر بسفنه الحربية الى البحر واستولى بالفعل على مجموعة من السفن العمانية وبعض سفن ساحل مكران ، أما هانيل فقد واصل رحلته بالطرادين من باسيدو الى مسقط وفى طريقه توقف فى كل من صحار وبركا حيث علم

---

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ رقم ٦٧٢٦ من السيدة موزة الى حكومة بومباى ٨ ابريل ومن يلين الى نوريس ٧ مايو سنة ١٨٣٢ ومن يلين الى هانيل بنفس التاريخ انظر كذلك مجموعة بومباى المجلد ٢٤ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ للفتنانت راى بى كامبل نبـذة تاريخيـة لحكومة مسـقط ١٨٣٢ — ١٨٤١ .

هناك أن نجل السيد سعيد وابن أخيه قد افرج عنهما بفضل جهود السيدة موزة بعد دفع فدية عنهما . وعند وصول هانيل الى مسقط يوم ٢٦ مايو كان الثالوث الحاكم هناك فأخبروه بأن المرحلة الخطرة من التمرد قد انتهت ، ومع ذلك فقد قرر هانيل أن يترك أحد الطرادين وهو الفنستون فى مسقط للدفاع عنها (١) وحتى فى هذه المرة لم يعرب السيد سعيد عن تقديره للمساعدة التى قدمت اليه غير أن يلين تصور أن السيد سعيد لم يكن يقصد شيئا من ذلك وحتى لو كان السيد سعيد قد تعمد ذلك فانه يعتبر المساعدة البريطانية له مسألة بديهية .

بعد ستة اعوام على تدمير ابراهيم باشا للدرعية مقر الوهابيين سنة ١٨١٨ بقى المصريون مسيطرين على نجد (١) وعلى اى حال فقد كانت المعركة الفعلية على السلطة خلال هذه السنوات تدور بين الاحياء من الأسرة السعودية

---

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٢٩ (نبذة تاريخية عن قبيلة القواسم العربية) ١٨٣٢ — ١٨٤٤ تأليف اللفتنانت ايه بى كمبل .

(٢) (افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٢٧٤) كوبلاند الفصل الثانى ص ١٨٩، ١٩٠ فى تحديد تاريخ الثورة السعودية لسنة ١٨٢٨ ويذكر أيضا ان عودة السيد سعيد قد حسمت الموضوع وقد قام غولين بمسح الساحل الشرقى لافريقيا بناء على تعليمات من وزارة البحرية الفرنسية وكان على ظهر الفرقاطة دورسيدى سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٤٨ وتضم هذه الوثائق بيانا عن عملية المسح هذه ووصفا مفصلا للمسائل التاريخية وغيرها حول علاقة عمان بزنجبار ويعتبر غولين من أكثر المطلعين حول هذا الموضوع وأكثرهم صحة عن تاريخ هذه الفترة .

وزعماء القبائل التى كانت تعارضهم وفى أواخر عام ١٨١٩ أو بداية عام (١) ١٨٢٠ كان مشارى بن سعود شقيق الامير السابق عبد الله هو المسيطر على الدرعية ولم يدم حكمه الا بضعة أشهر وانتهى بظهور الرجل الذى كان يؤيد عودة السعوديين الى الحكم وهو تركى بن عبد الله حفيد محمد بن سعود أول أمير اعتلى دست الحكم (٢) وابتداء من ١٨٢٠ حتى سنة ١٨٢٤ ظل تركى يشن حروبا متواصلة ضد المصريين والقبائل المعادية له وانتهى هذا الصراع بانسحاب المصريين من الرياض فى شهر اكتوبر ١٨٢٤ وخضوع معظم مناطق نجد لتركى بعد ذلك ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت الرياض التى لا تبعد الا بضع أميال الى الجنوب من الدرعية عاصمة السعوديين وقد أمضى سعود السنوات الخمس الأولى من نجاحه فى تثبيت حكمه لنجد ، ولم يتمكن من الاستيلاء على الاحساء من شيوخ بنى خالد محمد وماجد العيار قبل خريف عام ١٨٢٩ وقد نجح هو ونجله فيصل فى سحق مقاومة بنى خالد عبر سلسلة من المعارك انتهت بسقوط الهفوف والمناطق الساحلية خلال ربيع سنة ١٨٣٠ (٣) . وبعد وقت قصير من استرجاع الوهابيين للأحساء بدأت

---

(١) يختلف المؤرخون حول هذا التاريخ ففى الوقت الذى يحدد لوريمر فى « دليل الخليج » فصل ١ ص ٢٠٩٣ سنة ١٨١٩ يرى فلبى فى مؤلفه « السعودية العربية » ص ١٥١ على غرار ابن بشر أنها حدثت فى شهر مارس ١٨٢٠ .

(٢) لم يكن كما يذكر كثرة من المؤرخين نجل الأمير عبد الله بن سعود الذى اعدم فى القسطنطينية سنة ١٨١٨ .

(٣) افضل مرجع لهذه الأحداث هو كتاب تاريخ نجد جزء ٢ ص ١ — ٣٨ تأليف ابن بشر الذى اعتمد عليه فلبى بعد حذف بعض المقاطيع فى مؤلفه =

تظهر آثار ذلك على امتداد سواحل الجزيرة العربية وقد توقع راشد بن حمد شيخ عجمان الذى سر بتلك الأحداث أن تلك التطورات سوف تؤدى الى العودة الى القرصنة البحرية بتحريض من الوهابيين وانطلاقا من هذا التصور طلب الى تركى أن يعينه نائبا عنه فى المنطقة الساحلية ، ولكنه كما يذكر لوريمر تسلم ردا فاترا على اقتراحه يفيد ، بأن الأمير الوهابى يعتبر ، وسوف يظل يعتبر ، سلطان مسقط وشيخ الشارقة الزعيمين الوحيدين لقبائل عمان ، وكان تركى قد عقد العزم على أن لا يعيد أخطاء أسلافه من الأمراء ، وكان كما أشار اللفتنانت هانيل المقيم البريطانى بالنيابة شخصا أكثر ثقافة من الأمراء السابقين ، وانه كان متقيدا فى خطواته بمبادىء السياسة على العكس من الزعماء الوهابيين السابقين الذين كان حماسهم لنشر العقيدة الوهابية اكثر من حماسهم للحكم (١) ولكى يؤكد رفضه القاطع لمقترحات راشد بن حمد كلف شيخ عجمان فى منتصف سنة ١٨٣١ بابلاغ حكومة بومباى رسالة منه يعبر فيها عن رغبته فى اقامة علاقات ودية مع الحكومة البريطانية ، وقد ردت الحكومة البريطانية عليه برسالة تبادله فيها نفس الرغبة وارسلتها اليه عن طريق المقيم البريطانى فى الخليج . وعلى أية حال فقد ظل راشد بن حمد مصمما على العودة الى القرصنة سواء بتأييد من الوهابيين او بدونهم ، وفى مستهل عام ١٨٣٢ انتهز فرصة التمرد فى عمان فشن هجوما على سفن مسقط وقام بنهب بعض السفن التابعة لساحل مكران وسفينة

= « السعودية العربية » ص ١٤٩ - ١٦٣ كذلك انظر مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٩٧ - ٤٩٩ ، ونبذة تاريخية عن قبيلة الوهابيين العربية ١٨١٩ - ١٨٣١ ودليل الخليج تأليف لوريمر مجلد ١ ص ١٠٩٣ - ١٠٩٥ .

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٣٩ .

تابعة لكتش وقد قام اللفتنانت هانيل بزيارة الى ساحل الخليج فى بداية يوليو سنة ١٨٣٢ للحصول على تعويض لأصحاب السفن المتضررة ، وعند وصوله الشارقة أبلغه حاكمها القاسمى سلطان بن صقر شيخ عجمان بأن راشد بن حمد لم يعد يخضع لسلطته ، وانه على هانيل أن يحصل على التعويض من راشد مباشرة ، وقد وافق هانيل على ذلك وان كان قد لاقى صعوبات كثيرة فى محاولته (١) ومما لاحظه هانيل فى مقابلته للشيخين أنهما كانا يختلفان فى موقفيهما من دعوة الوهابيين الى الحكم وبخاصة من احتمال عودتهم الى غزو عمان مرة أخرى ، وعلى حين كان راشد يرحب بعودة النفوذ الوهابى بدون تحفظ كان سلطان يبدى مخاوفه من ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان يفضل وجود حليف قوى الى جانبه فى صراعه ضد آل بوفلاح شيوخ ابوظبى غير أنه لم يكن يطمئن الى الوهابيين الأقوياء والى وجودهم على مقربة من حدوده ، وكان سلطان فى شهر نوفمبر ١٨٢٥ قد استفسر من الكولونيل ستانوس بشىء من اللباقة السياسية ما اذا كانت الحكومة البريطانية ستساعده فى الاحتفاظ باستقلاله لو استعاد الوهابيون نفوذهم السابق فى شبه الجزيرة ، وبماذا يرد عليهم لو انهم طلبوا أن ينضم اليهم للقيام بهجوم مشترك على مسقط ، وقد أجابه ستانوس بأنه لو فكر فى اقامة علاقات مع الوهابيين فان البريطانيين لن يؤيدوه ، وقد يؤدى ذلك الى عودة أعمال القرصنة ، كما أنه لن عقد أى اتفاقات معهم تهدد مركز السيد سعيد فسوف يعتبر عمله موقفا عدائيا ، وقد أكد الفنستون هذا الموقف حين ذكر بأنه على الرغم من أن القيام باجراء ضد الوهابيين لم يكن واردا طالما أنهم يحصرون نشاطهم على البر الا أن

---

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ رقم ٦٧٢٦، من هانيل الى بلين ١٨٣٢/٧/٣ .

حكومته لا يمكنها أن تغض الطرف فى حالة وقوع غزو لعمان كما إنها لن تشجع مثل هذه الأعمال العدوانية لعدم اعلان اهتمامها بهذا الأمر ، ولم يثر سلطان بن صقر هذا الموضوع مرة اخرى حتى شهر يوليو ١٨٣٠ عندما اقترح على المقيم البريطانى فى أعقاب استيلاء تركى بن عبد الله على الأحساء بأن تشترك الحكومة البريطانية مع قبائل الساحل الغربى فى وقف التوسع الوهابى وقد رفض اقتراحه هذا وقيل له بأن السياسة البريطانية فى الخليج مبنية على مكافحة القرصنة فحسب ، ولا شأن لها بالسياسات الداخلية لسكان المنطقة . وبعد فترة قصيرة تجددت مخاوف سلطان حول نوايا تركى بعد ان رفض الأمير الوهابى مقترحات راشد بن حمد (١) .

ولما كان تركى مشغولا باهتمامات اخرى فانه لم يفكر بعد فى الاهتمام بسواحل القرصنة ، ولكنه فى نهاية عام ١٨٣٠ دعا عبد الله بن احمد حاكم البحرين الى الاعتراف بسلطته ودفع الزكاة بالاضافة الى دفع مبلغ ٤٠,٠٠٠ ريال تمساوى عن بعض الخيول التى تركها الوهابيون فى البحرين اثناء انسحابهم كما إنه طالب بتسليم قلعة الدمام التى كانت فى يد آل خليفة فى ذلك الوقت الى بشير نجل رحمة بن جابر الذى اصبح احد صنائع الوهابيين . وقد طلب عبد الله تأييد البريطانيين فى رفضه لطلب الوهابيين ، ولكنه تلقى نفس الجواب الذى تلقاه سلطان بن صقر سابقا ، وفى عام ١٨٣٠ اوفد عبد الله مبعوثا خاصا لمفاوضة تركى ، وتوصل الجانبان الى اتفاق تعهد بموجبه عبد الله بالاعتراف بالأمير الوهابى كسلطة عليا وبأن يدفع له الزكاة المقررة

---

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٣١٩ و ٣٢٤ــ ٣٢٥ نبذة تاريخية عن القواسم ١٨١٩ ـــ ١٨٣١ اعداد هانيل .

مقابل ضمان الأمير الوهابي للسيادة الاقليمية لحاكم البحرين ، وهكذا صرف النظر كما يبدو عن موضوع تسليم قلعة الدمام ، أما بشير بن رحمة بن جابر فقد عين مسئولا عن الطاروت بدلا من القطيف (١) .

كما اجرى السيد سعيد اتصالا هو الآخر بتركي بعد احتلاله للأحساء يعرض عليه الخضوع لسلطته مقابل مساعدته فى الهجوم على البحرين (٢) ورغم أن تركي رفض العرض مفضلا ان يعالج موضوع البحرين لحسابه الخاص الا ان ذلك قد أثار اهتمامه كدليل على عدم اكتراث السيد سعيدبمصلحة عمان كما ظهرت أدلة أخرى على هذا الموقف ، فقبل عامين من ذلك التاريخ قامت قوة بقيادة عمر بن عوفيصان حاكم الأحساء بالاغارة على واحة البريمى ولم يعترض السيد سعيد أو يتحرك ضد الوهابيين . وفى سنة ١٨٣٠ غادر بعض المبعوثين العمانيين موفدين من بعض زعماء القبائل المعادية للسيد سعيد للاتصال بالأمير تركي فى الأحساء (٣) كما كشفت حركات التمرد التى وقعت بعد ذلك عن ضعف مركز السيد سعيد بصورة أكثر . وهكذا أصبح الوقت ملائما للانقضاض على عمان لانتزاع ما يمكن انتزاعه من الحاكم . وفى أواخر

---

(١) مختارات بومباى ص ٣٨١ نبذة تاريخية عن قبيلة العتوب العربية. ١٨١٩ — ١٨٣١ ودليل الخليج « اعداد لوريمر مجلد ١ ص ٨٥٦ — ٨٥٧ .

(٢) دليل الخليج مجلد ١ صفحة ٨٥٦ — ٨٥٧ اعداد لوريمر .

(٣) راجع « تاريخ نجد جزء ٢ صفحة ٣٨ تاليف ابن بشر » وعلى الرغم من أن هذا المؤرخ يحدد القبائل التى انضمت الى القائد الوهابى فقد يكون بعضها جاء من راشد بن حمد حاكم عجمان ومن الزعماء الآخرين ربما يكونون من امثال حمود بن عزان والى صحار .

سنة ١٨٣٢ أصدر الأمير تركى أمرا الى عمر بن عوفيصان لاعداد حملة ضد عمان .

زحف عمر بن عوفيصان من الأحساء بقوات قوامها ٣ آلاف رجل فى منتصف شهر يناير سنة ١٨٣٣ وبعد أن اجتاز منطقة الظفرة وصل الى واحة البريمى يوم ١٨ فبراير ، وبمجرد وصوله احتل القلعة الرئيسية قصر الخندق وبعد ذلك طالب القبائل المجاورة بدفع الزكاة وقد اشتمت القبائل من هذا الطلب أن الانضمام الى القائد الوهابى سوف يجلب لهم الغنائم ، ولهذا التفوا حوله ، كذلك زاره رسل من راشد بن حمد وسلطان بن صقر (١) وكان يبدو أن عمر بن عوفيصان لم يكن على عجلة من امره ليتحرك ضد السيد سعيد ، ولهذا بعث برسل الى مسقط يؤكد له بأن مجيئه الى عمان هو لمساعدة السيد سعيد على معارضيه (٢) لكن بن عوفيصان كان يخشى شيئا واحدا ، وهو أن يتعرض لهجوم من قبل طحنون بن شخبوط شيخ ابو ظبى الذى كان فى وضع يسمح له بقطع خطوط مواصلاته مع الأحساء . غير أن طحنون بن شخبوط لقى هو الآخر نفس المصير الذى تعود أن يلقاه حكام آل بو فلاح ، ففى شهر ابريل من عام ١٨٣٣ اغتاله شقيقاه خليفة وسلطان ، ثم تولى خليفة بعد

---

(١) نفس المصدر صفحة ٤٤ وملفات المثلية البريطانية فى الخليج ومن وكيل المثلية فى الشارقة الى المقيم لبريطانى ١٣ يناير ، ١٥ ، ٢٤ فبراير ١٨٣٣ .

(٢) ملفات المثلية البريطانية فى الخليج الكتاب ٣٧ من الوكيل فى مسقط الى المقيم ٢٢ مارس ١٨٣٣ كذلك فانه لم يتردد بأن يتبادل الرسائل مع عدو سعيد الاكبر ونعنى به حمود بن عزان وان يقبل منه منحة مقدارها ١٥٠٠ ريال دمسوى (نفس المصدر) .

ذلك المشيخة، غير أن آل بو فلاسه وهم أقوى الفئات فى قبائل بنى ياس رفضت الاعتراف بسلطته وهاجرت الى دبى الأمر الذى أضعف مركز خليفة كما أن خوفه من أن يواجه سخطا عاما نتيجة اغتياله للشيخ طحنون الذى كان يعد من أكفأ الحكام واشجعهم قد اضطره للاذعان الى عمربن عوفيصان(١) . وقد بدأ القائد الوهابى فى تشديد الضغط على السيد سعيد مطالبا بخضوعه لسلطة تركى بن عبد الله وبدفع الزكاة المقررة للأمير الوهابى . ولكن السيد سـعيد كتب فى شهر يوليو الى بلين المقيم البريطانى فى ذلك الوقت يذكره بأنه فى وضع خطير جدا وبأنه غير واثق فيما اذا كان يمكنه الصمود أمام عمر بن عوفيصان أم لا . ورغم تعاطف بلين مع السيد سعيد الا انه لم يكن متأكدا من أن التعلميات التى لديه تسمح له بمساعدة السيد سعيد ولهذا نصحه بمحاولة التفاهم مع الوهابيين (٢) ، وبعد شهر أبلغ السيد سعيد بلين انه قد توصل الى اتفاق مع عمر بن عوفيصان على أن يحترم كل طرف حدود الطرف الآخر على اساس أن تمتد حدود السيد سعيد الى جعلان وتمتد حدود الوهابيين الى القطيف ، وان يتعاون الطرفان على قمع أى حركات للتمرد والثورة فى أراضيهم ، غير أن سعيد أخفى عن بلين موضوعا آخر وهو تعهده بدفع زكاة

---

(١) سجل الرسائل الرسمية لحكومة بومباى مجلد ١٦ من مجلس الحاكم الى مجلس ادارة الشركة بتاريخ ١٤ اغسطس ١٨٣٣ (رقم ٣١ الادارة السياسية) ومختارات بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٤٧١ وكتاب نبذة تاريخية عن قبيلة بن ياس العربية ١٨٣٣ — ١٨٤٣ تأليف اللفتنانت كمبل .

(٢) مجموعة مجلس الادارة مجلد ١٤٣٥ رقم ٥٦٧٢٦ من بلين الى السكرتير السياسى بحكومة بومباى ٢٥ يونيو ١٨٣٣ .

سنوية بواقع ٥٠٠٠ ريال نمساوى الى حكومة الرياض (١) ، وبعد ذلك مباشرة سافر بن عوفيصان الى الأحساء محملا بالغنائم التى قدرت بـ ١٥ ألف ريال نمساوى و ٣٠٠ بعير وقد ترك وراءه نائبه محمد بن عبد العزيز على رأس حامية قوامها ٧٠ جنديا ».

ومن الصعب ان نفهم ما الذى حمل السيد سعيد الى ذلك الاستسلام للوهابيين، صحيح أن مركزه داخل عمان لم يكن قويا كما ينبغى لكنة كانت لديه كل الامكانيات لدحر هجوم بن عوفيصان كما لا يمكن أن تكون عمان فريسة سهلة كما تصور السيد سعيد ، وكان السيد سعيد نفسه مقاتلا وشجاعا وهى الصفة التى اكتشفها فيه كل الأوربيين الذين قابلوه ، وقد كتب اللفتنانت جى آر ولستد من الأسطول الملكى فى سنة ١٨٣٥ يصف السيد سعيد بقوله « طويل القامة مهيب ذو ملامح رقيقة ولكنها مؤثرة دمث الاخلاق وقور المحيا » ، وكان السيد سعيد فى ذلك الوقت فى الخامسة والأربعين من عمره واضاف ولستد فى حديثة عن السيد سعيد يقول :

لقد احتفظ الامام فى سلوكه الشخصى ببساطة البدوى ، فهو متقشف فى اعتدال ، ولا يرتدى المجوهرات وان قميصه اذا استثنينا جودة القماش ليس افخر من قمصان كبار مواطنيه وهو يقابل المواطنين من غير أبهة او برتوكولات وأن حكومة هذا الأمير تتميز بالبعد عن الضرائب المجحفة والقوانين العرفية وذلك لما يبديه الحاكم من روح التسامح تجاه أصحاب الأعمال الوافدين الى مسقط من الدول الأخرى وللتسامح العام أزاء كافة المذاهب والمعتقدات ومن ناحية أخرى فان نزاهة هذا الحاكم واستقامة خلقه وعدالته وعدم مغالاته

---

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ صفحة ٢٠٦ (نبذة تاريخية عن مسقط. ١٨٣٢ — ١٨٤٤) اعداد كمبل .

فى العقوبات التى يفرضها على مواطنيه فضـــلا عن الحرص الذى يبديه فى سبيل تحقيق الخير لرعاياه قد اكسبه اعجـــاب واحترام سكان المدن مثلما اكسبته ليبراليته وشجاعته حب الوطنين البدو (١) .
غير أن شعبية سعيد لم تكن تمتد الى المناطق الداخلية من البلاد الامر الذى يفسر بلا ادنى شك اعراض تلك القبائل عن انتخابه اماما لهم ، ولا توجد أسباب مقنعة عن فشل السيد سعيد فى تولى الامامة ، وقد يكون عزوفه عن الامامة هو أحد تلك الأسباب ، ولكنه من المؤكد الى حد كبير أنه لم يكن ليتولى الامامة لو أنه سعى لها ، ذلك ان المفاهيم النظرية لبعض القبائل الاباضية المتطرفة قد اهتزت بسبب المعتقدات الوهابية الجديدة الوافدة على المنطقة وكانت النتيجة انهم أصبحوا اقل حماسا لانتخاب امام جـــديد وان كانوا لا يخفون اهتمامهم بالنتائج التى بدت تنتشر عن انتخاب خلف للامام احمد بن سعيد والى تحديدهم للخصائص التى يجب أن تتوفر فى الامام المرشح ، واذا نظرنا الى الموضوع من زاوية عملية فقد كان غياب السيد سعيد المتكرر عن البلاد يحول بينه وبين ممارسة الوظيفة الاساسية للامام وهى قيادته لصلاة الجماعة . كما كان اختياره لمســقط كعاصــمة لحكمه

---

(١) « رحلات الى الجزيرة العربية » فصل ١ ص ٦ — ٨ للاطلاع على نموذجين لهذا التقييم للسيد سعيد من قبل اثنين من الرحالة الامريكيين رحلة الى العواصم الشرقية لكوشين والصين وسيام ومسقط ... خـــلال اعوام ١٨٣٢ و ١٨٣٣ و ١٨٣٤ طبعة نيويورك ١٨٣٧ ص ٣٥١ — ٣٦١ وقصة رحلة بحرية حول العالم خلال الأعوام ١٨٣٥ و ١٨٣٦ و ١٨٣٧ مجلدين طبعة لندن ١٨٣٨ فصل ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ .

وتفضيلها على الرستاق قد اضاف صعوبات أخرى الى المشكلة (١) .

ان التقديرات التى أعدت عام ١٨٣١ لقوات السيد سعيد المسلحة تحددها (٣٠٠٠) جندى نظامى تحت السلاح يضاف اليهم عشرة آلاف يمكن حشدهم من القبائل فى حالات الطوارىء (٢) اما الجيش فكان جنوده النظاميون مسلحين بالبنادق والرماح والسيوف .

غير ان قبائل الداخلية كانت تنظر بازدراء الى جيش السيد سعيد بل ان السيد سعيد نفسه لم يكن يفخر بجيشه وبالدور الذى كان يقوم به لصالحه وكان يدفع للجندى الواحد من ٣ الى ٥ ريالات فى الشهر ، وكان على الجنود أن يشتروا السلاح بانفسهم ، ويشمل اهمال السيد سعيد للجيش الثكنات والقلاع التى كانوا يرابطون فيها على امتداد ساحل عمان وقد تدهورت حالة القلعتين الرئيسيتين فى مسقط وهما الجلالى والميرانى نتيجة لذلك الاهمال . فالقلعة الشرقية (الجلالى) كانت متآكلة ومهترئة ومن وصفه لهذه القلعة جاء فيه « ان القلعة محاطة بثلاثين مدفعا كانت كلها مليئة بالثقوب والخدوش فيما عدا اثنين او ثلاثة من المدافع النحاسية التى خلفها البرتغاليون وكانت مرفوعة فوق عربات رديئة الصنع .

وعلى أى حال كانت معدات السيد سعيد الحربية معدات متواضعة فقد كان اسطوله البحرى على العكس من ذلك . فقد شاهد اللفتننانت أج هارت

(١) لا تختلف رواية بادجر عن هذه الا اختلافا بسيطا فى كتابه «ائمة وسلاطين عمان» ملحق (١) ورغم التحقيقات التى اجراها فى كل من مسقط وزنجبار لم يجد احدا يمكنه ان يلقى ضوءا على هذا الموضوع .

(٢) رحلة خمسين شهرا فصل أول ص ٦ ملحق ١ .

ز من الاسطول الملكى) بعض قطع ذلك الاسطول فى ميناء زنجبار فى شـهر فبراير حيث كانت راسية هناك سفينة حربية مسلحة بـ ٧٤ مدفعا تسمى ليفربول وفرقاطة مسلحة بـ ٥٠ مدفعا ، واخرى بـ ٣٦ مدفعا ، وطراد بـ ٢٠ مدفعا وسفينة طراز (برك) مسلحة بـ ١٠ مدافع بالاضافة الى سفينة اخرى وكل هذه السفن بنى فى بومباى (١) وعلى اى حال فخلال شهر سبتمبر الماضى قام زائر امريكى بعد السفن الراسية فى ميناء مسقط فوجد بالاضافة الى السفينة ليفربول خمس سفن اخرى بواقع ٣٠ مدفعا فى كل منهـا الى جانب ست سفن أخرى من مختلف الحمولات كانت احداها تحمل ٢٢ مدفعـا اثنتان أخريان ١٨ مدفعا فى كل منهما واثنتان ١٢ مدفعا فى كل منهما .

والى جانب القوة البحرية كان السيد سعيد يمتلك سفينتين تجاريتين من صنع بومباى واربع سفن شراعية (طراز البغلة) نسبة الى البغلا وترمز الى الضخامة وكان كل من هذه السفن مسلحا ببعض المدافع كما كان يمتلك

---

(١) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ، ص ٢٨٢/٢٨٣ مقتطفات من ملخص ملاحظات لرحلة الى زنجبار على السفينة الملكية ابوجين ... يناير وفبراير ١٨٣٤ افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٢٩٠ وقد اقتبس معلوماته من بعثة الى الحكومات الشرقية فى الصين وكوشن وسيام ومسـقط ص ٣٦١ — ٣٦٣ وقد اجرى ستوكلر نفس التقديرات لأسطول السيد سعيد سنة ١٨٣١ انظر زيارة خمسة عشر شهرا فصل ١ ض ٦ من كتابه كما حدد الكابتن غليوم نفس العدد تقريبا سنة ١٨٤٦ — ١٨٤٨ (انظر وثائق تاريخية لافريقيا الشرقية فصل ٢ ص ٢٤١ .

عددا من السفن التجارية الصغيرة (١) .

إن مكانة اقتصاد السيد سعيد لم تكن موضع شك فقد كان دخله السنوى من الرسوم الجمركية يتراوح بين ٠٠٠ر١٦٥ و ٠٠٠ر٢٠٠ (٢) ريال نمسوى . وعلى أساس الأرقام القديمة فان رقم الواردات لمسقط يصل الى ما قيمته ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ريال نمسوى مما يعنى ان مسقط تأتى فى المرتبة الثانية بعد جدة من حيث الاهمية التجارية للموانى التجارية فى شبه الجزيرة . أما دخل السيد سعيد من جمارك زنجبار فكان أقل من دخل مسقط ، غير أنه ابتداء من ثلاثينيات القرن التاسع عشر أخذ هذا الرقم يتزايد

---

(١) فارس والخليج مجلد ٣٧ من ستانوس الى ويلوك بتباريخ ١٨٢٣/٦/٣ ، ومرفق به صورة من خطاب ويلوك الى كاننج ، سلطانية ١٨٢٤/٧/٧ وقد ذكر هارت أن السيد سعيد كان يمتلك عشرين سفينة تجارية من مختلف الانواع (مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٢٧٩) كما أبلغ ولستد فى عام ١٨٣٥ ان نحو ٨ الى ١٠ سفن تجارية وضعفها من السفن الاصغر حجما كانت تعمل فى التجارة مع مناطق البحر الاحمر والهند وتركيا والعراق « رحلات الى الجزيرة العربية فصل ١ ص ٤٣» .

(٢) الرقم الأول لو لستد وقد حددها على أساس مدفوعات الرسوم الجمركية (وبواقع ٥٪ من القيمة) منها ٠٠٠ر١٠٥ من جمرك مسقط و ٠٠٠ر٦٠ من جمرك مطرح (رحلات الى شبه جزيرة العرب فصل ١ ص ٢٢) ويذكر ستوكلر انه بالاضافة الى الـ ٥٪ كان يدفع رسوم اخرى بواقع ١٠٪ عن المنتجات التى تدخل مسقط ولا يفرق ستوكلر بين مسقط ومطرح عن المناطق الداخلية وان الجمارك كانت مؤجرة لأحد الهنود التجار مقابل ٠٠٠ر١٠٠ عن كل من المدينتين (رحلة خمسة عشر شهرا) فصل ١ ملحق١ .

بشكل سريع وكان يأتى معظم هذا الدخل خلال تلك الفترة من تجارة الرقيق. ولقد قيل للفتنانت هارت فى عام ١٨٣٤ ان دخل السيد سعيد من جمارك زنجبار كان يصل الى ١٥٠,٠٠٠ ريال نمسوى فى العام ، غير أنه قبل زيارة السيد سعيد لزنجبار فى عام ١٨٣٣ كان يحصل على ٣٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوى (١) وقد تكون الأرقام التى ذكرها الثلاثة هارت وولستد وستوكلر مبالغا فيها غير انه من المؤكد ان دخل السيد سعيد من مسقط وزنجبار لم يكن اقل من ٢٥٠ الف ريال نمسوى فى العام أو قد نقول بأن مجموع دخله اذا اضيف اليه دخل من بندر عباس والارباح التى تأتيه من معاملاته التجارية الخاصة لا يمكن ان يقل عن ٣٥٠ الف ريال نمسوى أو سبعين الف جنيه استرلينى فى العام (٢) .

---

(١) مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٢٨١ مقتطفات من ملاحظات لرحلة الى زنجبار .

(٢) كوبلاند افريقيا الشرقية وغزاتها ص ٣١٧ — ٣١٨ ويعتقد كوبلاند أن تقديرات هارت مبالغ فيها أما هو فيقدر مجموع الدخل من زنجبار بما لا يقل عن ٢٠ الف جنيه استرلينى كل عام او ١٢٠ الف ريال نمسوى اذا حسبنا السعر على اساس ٦ وليس على اساس ٥ ريالات للجنيه الاسترلينى وهذا على عكس جوابن الذى يقدر الدخل فى عام ١٨٤٦ — ١٨٤٨ من زنجبار وملحقاتها بمبلغ ٢٤٩ الف ريال نمسوى سنويا وذلك فى كتابه وثائق تاريخية عن افريقيا الشرقية . وهذه الدخول مضاف اليها دخل عمان وتقدر ١١٦ الف ومائة ريال و ٢٠ الف و ٥٠٠ ريال من جوابر وبندر عباس وملحقاتها و ١٠٠ الف ريال من المعاملات التجارية الخاصة بالسيد سعيد كانت تعطيه دخلا سنويا عن ٤٨٠ الف و ٦٠٠ ريال نمسوى او نحو ١٠٠ الف جنيه استرلينى .

وهكذا لم يكن ينقص السيد سعيد شيء فقد كان المال والقوة البحرية وارادة القتال فى رجاله متوفرة لصد الوهابيين عن حدود عمان ولم يتردد السيد سعيد فى استخدام هذه العوامل الثلاثة فى حملته التى شنها على البحرين وممباسا ، فما هى الأسباب التى جعلته يحجم عن استخدام قوته البحرية كما استخدامها فى قمع التمرد ضد حكمه فى ممباسا لفرض حصار على القطيف والعقير لكى يصرف اهتمام الوهابيين عن عمان ، ولماذا فضل ان يخضع لهم خضوعا مشينا يهدد حكمه وبلاده والأجيال القادمة من أسرته ؟ أن الرد على هذه الأسئلة هو أن السيد كان قد عقد العزم بعد سنة ١٨٣٣ على أن يكرس امكانياته لمستعمراته الافريقية ، وأن يجعل من زنجبار العاصمة الفعلية لحكمه ، أما ان السيد سعيد لم يكن يفكر فى التخلى نهائيا عن عمان فهو أمر لا يمكن أن يجادل فيه انسان غير انه منذ ذلك الوقت كانت عمان بالنسبة اليه اقليما بعيدا متمردا عليه بدلا من ان تكون روح وقلب مملكته ، وفضلا عن ذلك فقد كان سعيد على يقين انه اذا احتاج الى مساعدة سواء للدفاع عن البلاد ضد الوهابيين أو لقمع حركات داخلية فأنه سوف يحصل بسهولة على تلك المساعدة من الهند البريطانية ، ولهذا أبحر من مسقط فى شهر نوفمبر عام ١٨٣٣ الى ممباسا لقمع التمرد هناك وهو مطمئن كل الاطمئنان .

ويبدو أن السيد سعيد كان متفائلا اكثر مما يجب ، وبالتالى فان ما حدث فى عمان فى سنة ١٨٣٣ قد حتم على الحكومة البريطانية فى الهند وفى انجلترا بأن تعيد تقييم علاقتها بمسقط من جديد ، وقد بدأت دراسة الموضوع بتقرير بلين المؤرخ فى شهر يونيو سنة ١٨٣٣ عن ضعف مركز السيد سعيد أزاء اطماع عمر بن عوفيصان ، لقد غدا وجود عمان كدولة مستقلة

على حد راي بلين فى كفة الميزان فلم يكن بلين يطمئن الى الوهابيين فاذا قدر لعمان ان تصبح مستعمرة وهابية ، وتصبح مسقط واسطولها التجارى تحت رحمتهم يصبح التدخل البريطانى المسلح امرا لا مفر منه فاذا اضطرت بريطانيا الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات فان من الأفضل ان يكون التدخل العسكرى تدخلا مباشرا وليس عن طريق السيد سعيد (١) ، وقد وافق حاكم بومباى أرل اوف لكير على مقترحات بلين ، ودعا كلير الى ابلاغ تركى بن عبد الله بأن اى اعتداء على اراضى السيد سعيد لن يكون تصرفا مقبولا من بريطانيا كما قام بتعزيز الاجراءات بالاتصال بمحمد على باشا والى مصر ، اذ كان لا يزال يمارس نفوذا على تركى باعلان تأييده للسيد سعيد الذى كانت تربطه به علاقات صداقة ، اما اذا لم يكن تركى خاضعا لباشا مصر فقد يفكر الباشا فى اخضاع الوهابيين لسلطته مرة أخرى ، وهذا سوف يتيح لبريطانيا فرصة لصنع سياستها الجديدة بالنسبة لهذه المشكلة .

ولما كان موضوع التدخل المسلح لا يدخل ضمن اختصاص بلين بنفسه فقد قرر احالة الموضوع الى الحاكم العام اللورد وليم بيتنك للنظر فيه غير ان بيتنك لم ير ضرورة للتدخل وأوضح هذا الأمر لكلير ايضاحا تاما فى أوائل شهر فبراير ١٨٣٤ ، بأن الحاكم العام غير مستعد لأن يوافق على استخدام الأسلحة البريطانية من اجل المحافظة على ممتلكات امام مسقط. لاننا اذ تورطنا مرة فى سياسة تأييد هذا الحاكم او ذاك فسيكون لابد لنا من متابعة هذا الخط السياسى مهما يكن الثمن ، وبالتالى سيكون من الصعب

---

(١) مجموعة مجلس ادارة الشركة مجلد ١٤٣٥ مجموعة ٥٦٧٢٦ من بلين الى السكرتير السياسي لحكومة بومباى ١٨٣٣/٦/٢٥ .

علينا أن نضع حدا لعمليات سفك الدماء واهدار الأموال التى سوف تترتب على هــــذه السياسة وعلى العكس من كلير وبلين لم يكن اللورد بنتنك يعتقد بأن استقلال عمان كان على وشك الانهيار بل على العكس كان واثقا على ضوء الانفـاقية المبرمة اخيرا بين الأمير تركى والسيد سعيد أن روح المصـــالح المشتركة سوف تحول بينهم وبين الوصول بخلافاتهم الى حد الاصطدام . وان الحكومة البريطانية ليس لديها أسباب مباشرة مع الوهابيين كما لاتعنيها الخلافات الكثيرة القائمة بين دول شبه الجزيرة بأى شكل من الأشكال .

ان اهتمامنا ينحصر فى التجارة البحرية للخليج وطالما بقيت هـــذه التجارة فى امان فلا يهمنا من الذى يسيطر على الدول الواقعة على سواحل الخليج وحتى لو قدر للوهابيين أن يستولوا على ميناء مسقط وهى مسألة لايبدو ان امام مسقط تساوره اى شكوك نحوها فان هذا لن يتطلب بالضرورة شروعهم فى ممارسة القرصنة . ومما يبدو أكثر احتمالا ان الوهابيين قد وعوا دروس الماضى القريب فى الخليج بالنسبة لتفوقنا البحرى وانهم بالتالى لن يجرؤوا على استفزازنا وانهم على ضوء هـــذه الاعتبارات فانهم ســــوف يحرصون على العلاقات الودية التى تربطنا بهم مثلما تربطنا بالسيد ســـعيد ولكن حتى اذا ساءت الأمور وقدر للوهابيين ان يستولوا على مسقط وان يمارسوا أعمـــال القرصنة ضد تجارة الخليج فمن المعتقد باته سيكون من الأسهل لنا مطاردتهم فى هذه المنطقة بدلا من ان نتبنى سياسة التدخل فى شئون الخليج ونجعل من انفسنا حراسا لمستعمرات حاكم مسقط .

وعلى العموم فان معالى الحاكم العام يرى بأن الموضوع قد تبلور بوضوح من خلال المناقشات السابقة والتى منعتنا من التورط فى اتفاقات دفاعية مع حاكم مسقط ، وانه لمن المرغوب فيه ان تخطر السلطات البريطـــانية فى الخليج

بالتقيد الدقيق بسياسة الحياد فى المنازعات التى قد تنشأ فيما بين السـيد سعيد وأى من الدول المجاورة له فى قارة شبه الجزيرة العربية (١) .

وفى شهر مارس ١٨٣٤ أبلغ قرار الحاكم العام الى السيد سـعيد عن طريق وكيله فى بومبـاى ، وعلى الرغم من ان القـرار لم يكن اكثر تأكيدا للسياسة المتبعة منذ قيام الحملة على قبائل بنى بوعلى فان السيد سـعيد عزا ذلك الموقف الى أستياء حكومة الهند البريطانية من المعاهدة التجارية التى عقدها السيد سعيد فى شهر سبتمبر السابق مع الولايات المتحدة وليس الى رغبة حكومة الهند فى تجنب التوريطات العسكرية فى شبه الجزيرة العربية (٢) وكان السيد سعيد قد استقبل فى زنجبار خلال شهر فبراير ١٨٣٤ اللفتنانت أتش هارت قائد السفينة الحربية ايموجين من أسطول الهند الشرقية الذى توجه للاستفسار عن نصوص وهدف المعاهدة المذكورة وكان اللفتنانت هارت قد أوفد من قبل الفيلد ادميرال السيرجون جور القائد العام لأسـطول الهند الشرقية للتحقيق فى اشاعة انتشرت ، ومفادها أن السيد سعيد قد عرض على الأمريكان منحهم قاعدة على الساحل الافريقى مقـابل تأييدهم له على اخضاع ممباسا ، والواقع كما اكتشف هارت ان المعاهدة لم تتضمن شـيئا من هذا القبيل ، وقد تم عقد هذه المعاهدة بمبادرة من احد تجار ولاية سالم الذين يتعاملون مع زنجبار واقترح على الحكومة الأمريكية ابرام معاهدة تجارية

---

(١) مجموعة وثائق مجلس الادارة مجلد ١٥١٦ المجموعة رقم ٥٩٨٥٩ من س . أى تريفليان سكرتيرة الحكومة بالنيابة الى جون باكس سكرتير حكومة بومباى ، وفورت ويليام ١٨٣٤/٢/١ .

(٢) بعد تعديل الميثاق فى عام ١٨٣٣ اطلق على حكومة الهند (الحكومة العلية) .

مع السيد سعيد خدمة للمصالح التجارية لأمريكا ، وكان التاجر الذى يدعى الكابتن اوموند روبرتس قد عين وكيلا خاصـــا لحكومة الولايات المتحدة فى الصين ومسقط ، وقد خول صلاحيات لعقد اتفاقيات تجارية مع حكام هـذه الدول، وقد غادر وشنطن فى الولايات المتحدة فىشهر مارس ١٨٣٢ على الطراد الأمريكى بيكوك ووصل الى مسقط فى سبتمبر ١٨٣٣ . وفى يوم ٢١ سبتمبر وقع هو والسيد سعيد على معاهدة للصداقة والتجارة تنص على استيفاء رسم لا يزيد على ٥٪ عن البضائع التى ترد على السفن الأمريكية الى مســـقط (وهى نفس النسبة التى تستوفى على البضائع الواردة على السفن البريطانية). وذلك على اساس معاملة للتجار والسفن التابعة للطرفين المتعاقدين، وعلى تعيين قناصل لحكومة الولايات المتحدة فى الموانى الرئيسية لعمان ، على أن يمـارس هؤلاء القناصل الصلاحيات الاقليمية على رعايا الولايات المتحدة ، ولم تتضمن المعاهدة أى بند عن تنـــازل السيد سعيد عن أى جزء من عمان أو تقـــديم مساعدات عسكرية الى السيد سعيد تساعده على اخضـــاع سكان ممباسا لحكمه (١) .

---

(١) للاطلاع على نص هذه المعاهدة راجع مجلد المعاهدات الرقم ١١ اعداد اتيشسون ملحق رقم ٥ اما تقرير روبرتس عن مهمته فيمكن الرجوع اليه فى كتابه مهمة الى حكومات الشرق والصين وســـيام ومسقط (١٨٣٢ - ١٨٣٤ التصديق على تلك المعـــاهدة من جانب حكومة الولايات المتحدة فى يونيه ١٨٣٤ ، اما بشأن القناصل التى نصت عليها المعاهدة فقد عينوا فى زنجبار حيث كانت تتركز المصالح الأمريكية ولم يتم تعيين قنصل فى مسقط قبل عام ١٨٨٠ وقد بقيت المعاهدة سارية المفعول حتى شهر ديسمبر ١٨٥٨ عندما استبدلت بمعاهدة جديدة للصداقة والشئون الاقتصادية والقنصلية .

وعندما سئل هارت السيد سعيد عن المعاهدة أعرب عن استعداده لتعديلها أو الغائها اذا اعتقد هارت أنها تسبب ضررا للحكومة البريطانية (١) كما عرض السيد سعيد أيضا على هارت تقديرا منه للحكومة البريطانية بأن يهدى الى الأسطول الملكى سفينة القيادة « ليفربول » (٧٤ مدفعا) التى بنيت فى بومباى . وقال لهارت بأن السفينة لا تزال فى حالة جيدة وانها تزيد على حاجة مسقط فاذا كان ملك انجلترا يقبل منى تلك الهدية فانى سأكون سعيدا (٢) وقد أبدى الادميرال جور الذى أبلغه هارت بموضوع الهدية استعداده لقبولها ، وأن كان قد راوده الشك فى أن يفسر قبوله لها كتعهد باسم الملك لتأييد السيد سعيد فى فسخ معاهدته مع أمريكا والتى كان يبدو عليه انه كان نادما على ابرامها (٣) وقد وافق بنتنك عندما أبلغه جور على قبول

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلة ١٧ من الحاكم الى مجلس الادارة — ١٨٣٤/٩/٣٠ « رقم ٢٦ الادارة السياسية » وقد اعيد طبع تقرير هارت وصدر فى مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٢٧٣ — ٢٨٣ ويبدو ان السيد سعيد كان يحاول ان يحصل على ٢٠٠٠ جندى من الملكة رنا فولتا ملكة مدغشقر لضمهم الى قواته التى تحارب فى ممباسا وقد عرض على الملكة ان يتزوجها مقابل هذا الطلب ولكن الملكة رفضت الطلبين (تقرير هارت ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٢) مختارات حكومة بومباى ٢٤ مجلد ص ٢٧٦ و « افريقيا الشرقية وغزاتها » تأليف كويلاند .

(٣) مجموعة مجلس ادارة الشركة والمراسلات والسياسية العامة مجلد ٢ واحد من جور الى الكابتن جورج اليط (سكرتير الادميرالية) ١٨٣٤/٤/١٠ . ومرفق لخطاب اليط الى سكرتير مجلس حكومة الهند ١٨٣٤/٨/١ .

الهدية وان كان قد اعرب عن اسفه لابرام السيد سعيد معاهدة مع الأمريكيين على الرغم من انه لم ير فيها اى شىء يتعارض مع السياسة البريطانية كما أنه شك فى جدية السيد سعيد لفسخ المعاهدة (١) .

وعلى أى حال فان عرض السيد سعيد رغم شكوك الأميرال جور لم يكن عرضا جديا ، فقد كان السيد سعيد يدرك الفوائد التجارية التى سيجنيها من تلك المعاهدة ، وبالتالى فليس من المتصور أن يقدم السيد سعيد على الغائها وبالأحرى كان فى نية السيد سعيد أن يترك انطباعا حسنا فى نفس الحكومة البريطانية فى انجلترا التى كان يعلم أن عرضه لفسخ المعاهدة وهديته الى الأسطول الملكى سوف تترك لها اثرا حسنا لدى الحكومة البريطانية وفى مقابل ذلك كان يأمل سعيد أن يتم الضغط على السلطات فى الهند لتدعيم حكمه فى عمان فى الوقت الذى تفرغ هو لمستعمراته فى افريقيا وقد وصل عرض السيد سعيد فى اللحظة التى كان مجلس ادارة الشركة قد بدأ فى اظهار اهتمامه بالخطوط العامة لسياسة حكومة بومباى تجاه عمان فى الأعوام القليلة الأخيرة .

وفى يوم ١٨٣٤/٤/١٦ لخص اعضاء مجلس الادارة رأيهم فى تقرير رفعوه الى الحاكم وأشاروا فيه الى أنه ابتداء من تحذير ميجر ويلسون لشيوخ القراصنة فى شهر فبراير ١٨٣٠ بعدم التورط فى مشاكل عمان فى ذلك الوقت لاحظ اعضاء مجلس الادارة أن هناك انحرافا تدريجيا عن سياسة عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدول الجزيرة العربية ، وهى السياسة التى كانت متبعة منذ الحملة على قبائل بنى بوعلى كما أن أرسال الطرادات الى مسقط

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٧ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٤/٩/٣٠ (رقم ٢٦ الادارة السياسية) .

فى نفس ذلك الشهر ، ثم مرة أخرى فى شهر مايو ١٨٣٢ يعد تصعيدا لهذا الاتجاه ، وقال أعضاء مجلس الادارة بأنه من حسن الحظ أن السيد سعيد قد رفض هذه المساعدة بعد عودته من أفريقيا، كما أشاروا الى أن السيد سعيد لو قبل المساعدة لأضاف الينا عبئا جديدا فى كبح جماحه عن القيام بمغامرات طائشة جديدة ضد الدول الأخرى ، وبما أنه من الخطر أن نسمح بوقوع مثل هذه الاعتداءات من حاكم نعتبر نحن مسئولين عن حمايته (١) وعلى أية حال فان الدروس المستفادة من تلك الأحداث دروس واضحة فنحن لا نعتقد بأنكم ملزمون بأى شكل من الأشكال على ضوء الالتزامات السابقة بأن تقدموا الى السيد سعيد نفس المساعدة اذا تعرض لأزمة مماثلة فى المستقبل تمس مصالحه: وبما أن السيد سعيد قد أعرب بنفسه عن قبول المساعدة سابقا فان رفضه لها الآن يعتبر سببا وجيها لعدم تقديمها اليه من جديد. وبعد وقت قليل على ارسال تقرير مجلس ادارة الشركة علم أعضاؤه بالاضطرابات الجديدة فى عمان سنة ١٨٣٣ وبعودة الوهابيين الى البريمى وبالمقترحات التى قدمها كل من بلين وكلير بخصوص التدخل المسلح فى عمان وبالتالى لم يكن أمام بلين وكلير الا أن يكررا وفى عبارات شديدة اللهجة تحذيراتهما الى حاكم بومباى فى شهر اغسطس ١٨٣٤ والتى جاء فيها ، انه فى حالة اصراركم على هذا الموقف بعد الآن فقد يجد السيد سعيد نفسه فى حاجة الى حماية الحكومة البريطانية ، وبالتالى سوف تعتبرون المسئولين عن كل تصرفاته تجاه الدول الأخرى . ومن هنا فان تمتعه بهذه الحماية دون أن يلتزم بالكف عن ارتكاب الأعمال العدوانية ضد الأطراف الأخرى يعنى تشجيعه على اقتراف المظالم ضد غيره من الحكام (٢) .

---

(١) تقرير سياسى الى بومباى مجلد ٤ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٤/٤/١٦ (رقم ٦ الادارة السياسية) .

(٢) التقرير السياسى الى حكومة بومباى مجلد ٤ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٤/٨/٢٠ (رقم ١ الادارة السياسية) .

اما اذا قلنا ان حكومة بومباى كانت تتصرف فى المقام الأول من منطق اللامبالاة بما يجرى من اضطرابات تهدد الأمن فى الخليج فان أعضاء مجلس الادارة لا يخامرهم الشك انطلاقا من تجارب الماضى بأن استيلاء الوهابيين على عمان من شأنه أن يصيب المصالح البريطانية فى الخليج بأضرار بالغة ، وان أعضاء مجلس الادارة ليتساءلون عما اذا كانت السلطات المسئولة فى بومباى قد فكرت فعلا فيما كانت تنطوى عليه مقترحاتها للحاكم العام من أن التدخل المسلح قد يكون أمرا لا مفر منه فى يوم من الأيام ؟ غير أن أعضاء مجلس الادارة لا يشاركونهم هذا الرأى ، وسواء كانت الاجراءات التى اعتدناها قابلة للتنفيذ ام لم تكن فانها قد وضعتنا من غير شك فى موقف جديد بالنسبة لدول الخليج، وهو موقف لو تصرفنا على أساسه فالنا لن نستطيع ان نتراجع عنه فاما ان نتراجع عنه وأما أن نكون على استعداد لتحمل نتائجه وهو ان نقــوم بدور الحكم فى جميع المنازعات التى تقع بين دول المنطقة وان النتيجة الحتمية لهذه السياسة لن تكون فى صالحنا ، ان الحكومة البريطانية لا دخل لها بالخلافات التى تنشأ بين الزعماء العرب الا فى حالة واحدة وهى الا تحول تلك الخلافات الى ذريعة لارتكاب أعمال القرصنة كما أنه لايهمها اطلاقا من الذى تكون له الغلبة فى الخليج طالما بقيت تجــارة المنطقة حـرة ومأمونة من أى اعتداء يســودها الاستقرار .

ان أعضاء مجلس الادارة لا يتصورون بأن هناك خطرا من وجــود الوهابيين وانما على العكس يشـعرون بأن امتداد سـيطرة الوهابيين الى الساحل العربى كله قد تكون فى النهاية فى مصلحة الأمن والتجارة فى المنطقة، وبناء عليه فانهم يرون بأنه من الضرورى أن نعارض أى اجراء يهدف الى اتخاذ أى اجراءات معادية من جانبنا ضد شـعوب هذه المنطقة كمــا انه ليس من مصلحتنا التدخل لحماية أمام عمان او أى زعيم آخر من الوهابيين طالما ظل

سكان المنطقة يحترمون العلم البريطانى ولا يرتكبون اى أعمال عدوانية ضد حكومتنا أو رعايانا ».

كان هذا هو موقف اعضاء مجلس الادارة من عرض السيد سعيد بالغاء المعاهدة الأمريكية وتقديم السفينة ليفربول كهدية الى الأسطول الملكى عندما احيل اليهم هذا العرض ، ولذلك لم ينظروا الى العرض بارتياح ، ولما كان من المتعذر عليهم توجيه لومهم الى السيد سعيد فقد صبوا جام غضبهم على اللفتنانت هارت على اثارة مثل هذه المسائل السياسية مع السيد سعيد وعلى سؤاله عن تلك المعاهدة التى أتاحت الفرصة للسيد سعيد ليتقدم بعرضه الذى سبب حرجا لشركة الهند الشرقية فى علاقتها بمسقط ، فالى اى حد كانت هذه المعاهدة تهم الشركة؟ لقد سألت اللجنة السرية لمجلس الادارة حكومة الهند هذا السؤال فى خطابها المؤرخ ٢٧ أغسطس «ان الأمريكيين ليسوا طرفا سياسيا منافسا لنا فى الهند والأعمال التجارية المحدودة التى قد يقومون بها بسفنهم الصغيرة مع ممتلكات سلطان مسقط لاتتعارض فى تصورنا مع مصالحنا فى تلك البلاد»(١) ان هارت قد تدخل فى موضوع هو من اختصاص السلطة العليا لحكومة الهند كما جاء فى التعديل الذى وافق عليه البرلمان لميثاق الشركة اى بشأن تنظيم العلاقات مع الدول المجاورة للهند البريطانية ، وكما هو واضح من هذا فقد كان يتعين على حكومة الهند أن تكون على دراية أفضل بالظروف التى يمكنها على أساسها اتخاذ اجراءات سلمية فى أى مسألة من المسائل التى تخص الدول الأخرى .. كما لا يجوز اجراء الاتصالات مباشرة مع تلك الدول فى أى

---

(١) مجموعة مجلس الهند والمراسلات السياسة العامة مجلد ٢ جزء (من تى ال . بكوك المفتش المساعد لشركة الهند الشرقية إلى جى . ايه ستيوارت ماكنز (سكرتير مجلس الهند) بتاريخ — ١٨٣٤/٨/٢٤) .

مسألة من المسائل العامة الا عن طريق الحاكم العام وقد طلب القائد العام لأسطول الهند الشرقية موافاته بالتعليمات التى تمكنه من أن يعالج بموجبها هدية السيد سعيد ، وكما ذكرت اللجنة فان هناك تعليمات عامة يتوجب على القائد العام أن يتصرف على أساسها وهى احالة مثل هذه الموضوعات الى حكومة الهند مشفوعة بالمعلومات والمقترحات اللازمة لتكون موضع التنفيذ وعلى الأميرالية وحدها أن تقرر ما اذا كانت ستقبل السفينة الهدية من السيد سعيد وفى حالة قبولها الهدية أن تقرر ما اذا كان من الضرورى رد تلك الهدية بهدية مناسبة . ولكن اللجنة تلاحظ ، انه مهما قدم للأمام من هدية مقابل هديته فان ذلك لن يمحو الفكرة المسيطرة عليه وهو أنه قد أهدى حكومة صاحب الجلالة هدية تجعلها مدينة اليه ويمكنه فى مقابلها ان يطالب الحكومة البريطانية بالتأييد والمساعدة .

وقد كان لهذه الآراء صداها بين اعضاء مجلس الهند الذين أعربوا عن أسفهم لما قد تسفر عنها من نتائج اذا قبلت هدية السيد سعيد خصوصا وأن حكومة بومباى على حد رأى المجلس قد سبق أن تدخلت بالفعل لصالح امام مسقط أكثر من مرة الى مدى أبعد مما يحتمله ذلك التدخل وعلى أى حال فقد أستاء المجلس من زيادة التورط فى شئون مسقط فقد كان يتعين عليه بأن ينظر الى العلاقات البريطانية مع مسقط من زاوية أوسع من مجرد كونها سياسة خاصة بالجزيرة العربية وقد صادف ان كان مجلس وزراء الخارجية البريطانية والأميراليه البريطانية فى هذه الأثناء يدرسون قضية ادخال الملاحة البخارية الى الهند وأن اللجنة الخاصة بالملاحة البخارية قد تقدمت بتوصية الى البرلمان فى شهر يوليو سنة ١٨٤٣ ببذل الجهود الممكنة لتحقيق هذا المشروع ، وذلك عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وقد كانت أهمية مسقط بالنسبة للطرفين بديهية ، وكان معروفا أن محمد على باشا يقدر

اهمية مسقط الاستراتيجية كما كان يبدى اهتماما بالمناطق الشرقية للجزيرة العربية وبالتالى لم يكن من المصلحة اغفال هذه الاعتبارات عند اتخاذ قرارات تمس السياسة البريطانية تجاه السيد سعيد .

فى بداية نوفمبر عام ١٨٣٤ بعث الملك وليم الرابع برسالة الى شارلس جرانت رئيس مجلس الهند يحثه على العمـــل على فتح طريق البحر الأحمر والخليج الفارسى كطريقين للملاحة التجارية الى الهند ، وكان الملك يعلق اهمية بالغة على مشروع الملاحة البخارية ، وقد شجعته المقترحات التى قدمهـــا الأدميرال جور لجلالته بشأن طريق البحر الأحمر واهمية موقع مسقط ، وعلى الأخص فى تسهيل عملية احتلال محمد على باشا لهذا الطريق وما ســـوف يجنيه من فوائد من سيطرته على مخا وجدة وبما أن الملك لم يكن يتصور أن يتم المشروع بسرعة الا أنه مع ذلك كان يشعر بأن الأوضاع القائمة كانت تكفل له النجاح الى حد كبير وبالتالى يصبح موضوع ابرام معاهدة مع سلطان مسقط يبـــدو أنه كان أمرا ضروريا لمنع وقوع المنطقة تحت ســـيطرة محمد على باشا (١) وردا على رسالة الملك بعث جرانت اليه بتقرير كير الذى أعده خلال زيارته للسيد سعيد وما أعقب التقرير من مراسلات تتصل بالموضوع ، وقد ذهل وليم الرابع من الضجة التى اثارتهـا شركة الهند الشرقية حول زيارة هارت لمسقط فكتب الى جرانت رسالة بتاريخ ١٠ نوفمبر يعرب فيهـــا عن استيائه من رأى اللجنة السرية فى أن الشركة هى وحدها صاحبة الحق فى التخاطب مع الولايات الهندية . وأن على حكومة الملك أن تدرك بأن المنطقة

---

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (جزء ١) من السير هربرت تايلور (السكرتير الخاص للملك) الى جرانيت ١٨٣٤/١١/٢ .

الشرقية من شبه الجزيرة العربية والسواحل الواقعة عليها تعتبر جزءا من الهند وهى تشكل أى جزء من شـــبه الجزيرة تمارس شركة الهند الشرقية « السيادة عليه » .

ومن ثم فان الملك لا يفهم الأسباب التى منعت السير جور من ايفـــاد الكابتن هارت الى مسقط أو لماذا تحرم حكومة صاحب الجلالة من مزايا وجود سفن لها فى المنطقة أو من المعلومات التى قد تجمعها من ضباط أسطولها عن طريق اتصالاتهم وزياراتهم لمناطق الخليج ، كما لا يتصور صاحب الجـلالة أن الزيارة التى قام بها الكابتن هارت لامام مسقط اجراء يدعو الى الأسف حتى وان كان هارت لا يوافقه على قبول الهدية (السّفينة ليفربول) من امام مسقط .

لقد وقعت تطورات كثيرة على حد رأى الملك تجعل من مسقط وغيرها من المناطق الواقعة على سواحل شبه الجزيرة العربية وشواطئها موضـــع اهتمام مباشر لحكومة الملك وشركة الهند الشرقية على السواء كما ان محمد على باشا باعتراف السلطات الهندية نفسها قد أصبح القوة الفعالة الأولى فى منطقة شبه الجزيرة العربية ، وانه قد أخذ يوجه اهتمامه الى الســـاحل الممتد الى مسقط ولعله يطمع فى السيطرة على هذا الجزء كما أن هنـــاك اعتقادا بأن امام مسقط ينظر الى باشا مصر بالحترام اكثر مما ينظر به الى شركة الهند الشرقية طمعا فى التأييد والمساعدة التى قد يحصل عليها السيد سعيد من محمد على باشا .

وقد أعرب الملك وليم الرابع عن تأييده لموقف شركة الهند التى رفضت ان تتبنى سياسة تدفعها الى التورط فى المنازعات الصغيرة التى تنشب بين حكام شبه الجزيرة ، كما كان يشاطر أعضاءها الرأى عموما حول هذا

الموضوع غير انه لم يكن مقتنعا بسبب أطماع باشا مصر لسياسة عدم الاهتمام بوضع مسقط الاستراتيجي بالنسبة للصراع فى شبه الجزيرة العربية وسيطرة محمد على باشا على مصر والجزء الأكبر من سوريا وسواحل البحر الأحمر بحيث أن يكون خط المواصلات المقترح انشاؤه عن طريق الفرات والخليج الفارسى يمر عن طريق سوريا ، وخط البحر الأحمر يمر عن طريق مصر، فضلا عن أن الحكومة البريطانية المساهم الأكبر فى هذا الخط فان كل هذه الاعتبارات اقنعت وليم الرابع ورجال حكومته بتوجيه اهتمامهم الى سواحل شبه الجزيرة العربية وولها والذى كان دورها فى السابق مقصورا على رجال شركة الهند الشرقية وحدهم . وربما كان استياء وليم الرابع من الموضـــوع يعود الى حبه للاسطول وغضبه من توجيه اللوم الى أحد ضباط ذلك الاسطول على قيامه بتنفيذ الاوامر الصادرة اليه كما أن امتعاض كل من اللجنة السرية ومجلس الهند من التطفل على اختصاصاتهم السياسية كان امرا بديهيا ، فقد كان هؤلاء لا يزالون يتذكرون قصة الكابتن أوين على ساحل افريقيا الشرقية منذ بضع سنوات كما أن أوين عاد فأثار هذه المخاوف عندما تقدم عام ١٨٣١ بطلب الى وزارة الخارجية لتعيينه قنصلا عاما لبريطانيا فى افريقيا الشرقية والمنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية (١) .

لهذه الاعتبارات لم يكن شارلس جرانت يؤيد ايلاء اى أهمية لاعتراضات الملك . وقد لقنه دروسا دستورية فى المسئولية الأساسية للشركة بالنسبة لعلاقاتها مع الدول التى تقع ضمن مجالات حكومة الهند .

---

(١) انظر مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٣٠ (١) من أوين الى الفايكونت بالمرستون ١٨٣٤/٩/٨ .

لقد تقرر بدافع المصلحة القومية أن تسند الى الشركة مسئولية رعاية المصالح القومية فى الخارج ، واستنادا الى هذا القرار فقد عهد الى الشركة بالاشراف على الاتصالات مع فارس والعراق ودول الخليج الفارسى الواقعة على سواحل الجزيرة العربية ... والهدف من هذا واضح ، وهو ان السلطة المسئولة مباشرة عن رعاية الاتصالات السياسية مع الدول سالفة الذكر من حقها أن تمارس حقوق الاشراف الكامل على مسئولياتها هذه . فاذا كانت الهند الشرقية تتمتع بهذه المسئولية فينبغى عليها القيام بذلك لأنه ليس من حق الحكومة البريطانية ان تجرى اتصالات سياسية مباشرة مع تلك الدول الا بعد موافقة الشركة (٢) .

لقد كانت زيارة اللفتنانت هارت لسلطان مسقط زيارة سياسية فى الأساس كما ذكر جرانت ولهذه الأسباب اعترضت الشركة عليها ومهما كانت طبيعة الاتصالات فان الشركة لن تعترض ولا حق لها أن تعترض طالما أن تلك الاتصالات ليس لها طابع سياسى كما أن توجيه السياسة البريطانية تجاه أى دولة من الدول هو مسئولية الحكومة البريطانية وحدها . ولايجوز لشركة الهند الشرقية أن تصدر اى تعليمات تمس علاقاتنا بدول كدول شبه الجزيرة العربية او أى دولة من دول الشرق بغير موافقة المفوضين السياسيين (لشئون الهند) والذين يعتبر رئيسهم عضوا فى البرلمان أو بعبارة اخرى لايجوز اصدار تعليمات من اى نوع مالم تنسجم تلك التعليمات مع السياسة العامة للحكومة البريطانية ، وأيا كان شكل وطبيعة السلطة فالهند باعتبارها

---

(٢) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد (١) من جرانت الى تايلور بتاريخ ١٨٣٤/١١/٢٥ .

جزءا من الامبراطورية البريطانية تخضع لحكومة الملك شأنها شأن كندا أو جامايكا ، وأن سلطة الشركة مستمدة من سلطة الملك وبين السلطتين لا يوجد خط فاصل ولا تعارض فى المصالح وكل ما يمس سلطة الشركة فى مجال صلاحياتها وكل من ينتقص من هذه السلطة ، أو يفرض عليها سلطة اخرى أو سلطة منافسة فانه بالتالى يمس من سلطة الملك نفسه (١) .

وعلى أى حال فقد وضع هذا الخطاب نهاية لخلاف حول زيارة هارت، فلم يعد الملك بعد ذلك يتدخل فى المناقشات الدائرة بشأن الموضوع كما أن الاميرالية بعثت برسالة الى جور تطلب منه تحذير الضباط العاملين تحت قيادته من اجراء اتصالات حول المسائل السياسية مع الحكام الشرقيين (٢) .

---

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (١) من جرانت الى تايلور ١٨٣٤/١١/٢٥ .

(٢) مجموعة المجلس والرسائل السياسية العامة مجلد ٣ (١) من جى برو سكرتير الاميرالية) الى جور فى ١٨٣٤/٩/١٢ وعند عودة هارت الى انجلترا فى عام ١٨٣٥ أحتج لدى جورج تكر الذى كان أحد رئيس مجلس ادارة الشركة عام ١٨٣٤ ضد ما اعتبره هارت ملاحظات قياسية وغير صحيحة جاءت فى تقرير اللجنة السرية حول سلوكه ، وقد لاحظ تكر أن لهجة احتجاج هارت كانت تتسم بالتشدد ، فرفع الأمر الى الأميرالية البريطانية ومنذ ذلك الوقت نشب خلاف بين تكر وهارت وبين الشركة والأميرالية وأستمر الخلاف لمدة شهرين وانتهى بتقديم هارت اعتذاره الى الرئيسين ولكنهما رفضا قبول الاعتذار وعندئذ تدخل اللورد اكولن الاميرال الأول للبحرية البريطانية وحاول اقناع تكر بقبول الاعتذار والتغاضى عن الموضوع وفى النهاية قدم هارت اعتذارا شخصيا لتكر (انظر أيضا مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٤ (١) .

غير أن القضية الأساسية وهى موضوع العلاقة بمسقط بقيت على أى حال دون أن يبت فيها وقد أوضح أعضاء مجلس الادارة موقفهم من هذه المسألة فى التقارير التى بعثوا بها الى حاكم بومباى بتاريخ ١٨٣٤/٤/١٦ وعلى الأخص بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٣٤ وأعربوا عن موافقتهم على تصريح بنتنك الصادر أول فبراير ١٨٣٤ الذى جاء فيه : أن السلاح والأموال البريطانية لايجوز استخدامها للدفاع عن ممتلكات السيد سعيد ، كما وافقوا أيضا على رأى جور الذى سبق أن أعلنه عما يمكن أن يحدث من سوء تفاهم اذا قبلت هدية السيد سعيد وانتقلت ملكية السفينة المهداة الى الأسطول الملكى . وقد وافق مجلس الهند على ذلك القرار . وفى نهاية عام ١٨٣٤ اعلنت الأميرالية أنها لن تقبل الهدية . ومن هنا يبدو أن لعبة السيد سعيد قد فشلت . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن السيد سعيد من الذين يستسلمون بسهولة ، ولما لم يصله رد قاطع على عرضه حتى شهر ابريل عام ١٨٣٥ قرر أن لا ينتظر وقام بارسال السفينة الى انجلترا مباشرة وقد سلمت الى عهدة الكابتن روبرت كوجان من الأسطول الهندى وكلف ببيعها اذا رفض الملك قبولها كهدية (١) وعند وصول كوجان الى انجلترا عام ١٨٣٦ كان مجلس الهند قد أجرى تعديلا على موقفه من السيد سعيد فعلى الرغم من أن الاعراض عن التورط فى مشاكل شبه الجزيرة العربية ظل قائما

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس الادارة ــ ١٨٣٥/٧/٢٩ (رقم ٢٠ الأدارة السياسية) والواقع أن السفينة كانت عبئا على السيد سعيد وكان سعيد يبحث فى الأصل عن فرقاطة غير أن المواصفات التى سلمت الى أحواض بناء السفن فى بومباى أثناء بناء السفينة ليفربول كانت خصوصا فيما يتعلق بعدد المدافع والتى كان من المفروض أن تضم ٧٤ مدفعا .

وان كانت هذه المشاكل قد خفت حدتها نتيجة ضعف النفوذ الوهابى بعد وفاة الأمير تركى بن عبد الله فى عام ١٨٣٤ . الا أن الأهمية الاستراتيجية لمسقط قد تعاظمت فى التصور البريطانى ليس فقط من جراء القرار الحاسم بشأن اجراء مسح لنهر الفرات وطرق البحر الأحمر بهدف انشاء مواصلات بخارية مع الهند فحسب وانما أيضا كما سيأتى شرح ذلك فى فصل جديد من هذا الكتاب بسبب بدء مرحلة جديدة من النشاط المصرى فى المنطقة . ومن هنا فقد ترتب على ذلك استرضاء السيد سعيد وبذلك قبل الأسطول الملكى هديته وأسماها «الامام» كما أرسل الى السيد سعيد مقابلها يختا بخاريا « البرنس ريجنت » ردا على هديته (١) غير ان هذه الهدية لم تكن كل ماكان يطمع فيه السيد سعيد وان كانت بمثابة تشجيع مؤقت له من الحكومة البريطانية (٢) .

استغرقت زيارة السيد سعيد الثالثة لأفريقيا عاما ونصفا ابتداء من نوفمبر ١٨٣٣ حتى ربيع ١٨٣٥ وقد فشل فى هذه المرة أيضا فى استعادة ممباسا واثناء غيابه أخذت عمان تتداعى من بين يديه ، وقد عين نجله السيد هلال وابن أخيه محمد بن سالم نائبين عنه وكان كلاهما فى أوائل العقد

---

(١) من التقارير السياسية لحكومة بومباى مجلد (٥) من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٦/٦/٨ (رقم ٣ الادارة السياسية) .

(٢) أن السفينة برنس ريجنت التى اهديت للسيد سعيد فى بريطانيا قد تبين انها هى الأخرى قد اصبحت بمثابة عبء عليه مثل السفينة ليفربول حتى أنه فى عام ١٨٤٠ سمح له بأن يقدمها كهدية للحاكم العام .

الثالث من عمره ، كما كان كلاهما على حد رأى بلين غير صالح للحكم (١) وقد دب الضعف فى نظام حكم السيد سعيد حتى أصبح مقصورا على مجرد الاحتفاظ بالمدن الهامة على ساحل الباطنة عن طريق الولاة الذين كان يعينهم السيد سعيد ، وعن طريق الاعتماد على عدد من زعماء القبائل الموالين له ولاء تاما لكى يحافظوا على بقايا نفوذ اسرة آل بوسعيد فى المنطقة الداخلية. وفى عام ١٨٣٤ تلقى هذا النظام المهتز ضربتين قويتين ، ففى بداية تلك السنة اغتيل والى الرستاق السيد سعود بن على وعلى أثر ذلك الحادث تحرك خصم السيد سعيد حمود بن عزان والى صحار واحتل الرستاق ، كما توفى فى نفس العام محمد بن ناصر شيخ بنى جابر وهو أقدم الزعماء الموالين للسيد سعيد وأخلصهم ، وبعد وفاته أصبحت مسقط معرضة لأى هجوم يقوم به حمود بن عزان على المدينة لأن تلك العاصمة كانت تعتمد فى الماضى على الأموال التى كان يجمعها الشيخ محمد بن ناصر للانفاق منها على وسائل الدفاع عن المدينة .

كما أصبح من المحتمل ايضا أن يستولى حمود على المقاطعات التى كان يدير شئونها المرحوم الشيخ محمد بن ناصر وهى مقاطعة الظاهرة ومنطقة تجمع مياه الرى شمال جبال الحجر ، كما كان هناك أيضا خطر آخر وهو أن ينتهز نائب الأمير الوهابى فى البريمى وفاة الشيخ الموالى للسلطان سعيد لمد حدوده الى منطقة سفوح الحجر .

---

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥١٦ رقم المجموعة ٥٩٨٥٩ مرفقات لخطابات حكومة بومباى السياسية حلقة ٣٩ فى ١٨٣٤/١٢/٢٤ من بلين الى نوريس ١٨٣٤/٧/٣ .

ولم يظهر أى دليل على أن نائب الأمير محمد بن عبد العزيز قد أصبح يعتبر الاتفاقية التى عقدت بين السيد سعيد والأمير تركى فى العام السابق وتنص على احترام كل من الطرفين لحدود الطرف الآخر كشىء يمنعه من التدخل فى شئون عمـــان بل على العكس من ذلك كان ينظر اليها حسبما أبلغ بلين فى رسالة بتاريخ ١٠/٤/١٨٣٤ بأنها وثيقة تؤكد امتداد الحـكم الوهابى على عمان كله وقد أصبح تركى بن سعود صاحب النفوذ المطلق فى شبه الجزيرة العربية ، وقد اعترف له جميع المواطنين من البدو والحضر والقبائل الداخلية بالسيادة وكان فى الواقع هو الزعيم الفعلى للبلاد بما فى ذلك منطقة الحجر فى عمان ومنطقة الساحل من جعلان الى القطيف (١) كان هذا مضمون رسالة من محمد بن عبد العزيز الى بلين يحتج فيها على رفض احتجاج سابق من جانبه ضد الحملة التى أرسلها المقيم البريطانى لمعاقبة قواسم راس الخيمة على اقترافهم بعض أعمال القرصنة ، وجاء أيضا فى رســالة محمد بن عبد العزيز أن القواســم هم من رعايا الوهابيين وأن أى شكوى ينوى المقيم البريطانى تقديمها ضدهم يجب أن توجه الى الأمير تركى أو اليه شخصيا بوصفه ممثل الأمير الوهابى وقد تكون هناك بعض المبررات لادعاء الوهابيين السيادة على القواسم ولكن ادعاء ممثل الأمير الوهابى بهذا الشأن لم يكن صحيحا كما ذكر محمد بن عبد العزيز فى رسالته ، فقد جاء فى تقرير من الوكيل البريطانى فى الشارقة بتاريخ ابريل ١٨٣٤ أن سكان

---

(١) مختارات حكومة بومباى المجلد ٢٤ ص ٤٤٢ (نبذة تاريخية عن القبائل الوهابية العربية) ١٨٣٢ — ١٨٤٤ (تأليف ايه.ب.كمبل وللاطلاع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة انظر مجموعة المجلس مجلد ١٤٣٥ رقم ٥٦٧٢٦ من محمد بن عبد العزيز الى بلين بتاريخ ١ ذى الحجة ١٢٤٩ .

راس الخيمة موالون للأمير عبد العزيز . الذى تقوم سياسته على بث الفتن والايقاع بين شيوخ المنطقة ومهما كان شيوخ هذه المنطقة فسوف يستحيل على حفنة من الجنود الوهابيين ان يفرضوا سيطرتهم على عمان كلها كما يفرضونها الآن ، أما فى السر فقد كان الشيخ سلطان شيخ القواسم ينظر الى اجــراءات محمد بن عبــد العزيز بشىء من الاشـــمئزاز غير أنه لم يــكن يستطيع أن يجاهر بمعارضته خوفا من تمرد مواطنيه عليه (١) .

بعد شهر أصبح هجوم الوهابيين على عمان فى عام ١٨٣٤ غير وارد وذلك بسبب مصرع الأمير تركى وما وقع بعد ذلك من فوضى واضطرابات فى نجد والاحساء ، وقد ذبح تركى فى الرياض فى بداية شهر مايو من جانب ابن عمه مشارى بن عبد الرحمن بن ســعود الذى نصــب نفسه أميرا على البلاد ، أما فيصل أكبر انجال تركى فقد كان مشغولا فى ذلك الوقت بمحاولة فك الحصار الذى فرضه آل خليفة شيوخ البحرين على القطيف والعقير ، وكان آل خليفة قد نقضوا اتفاقية عام ١٨٣١ مع الأمير تركى واعلنوا الحرب عليه (٢) .

---

(١) ملفات المثلية البريطانية فى الخليج المجلد ٣٧ من الملاحين الى بلين ١٨٣٤/٤/١ .

(٢) يذكر فلبى (السعودية العربية ص ١٠٨) أن مصرع تركى كان نتيجة تحريض من اسماعيل بك القائد المصرى فى المدينة غير أن الرأى السائد فى الخليج فى ذلك الوقت يرى أن المســئول عن اغتيــال تركى هو عبد الله بن أحمد شيخ آل خليفة (انظر مجموعة المجلس مجلد ١٨١٦ رقم المجموعة ٥٩٨٥٩) من بلين الى كبير سكرتارية حكومة بومباى ١٨٣٤/٦/١١ ومختارات بومباى مجلد ٢٤ .

وقطع فيصل العمليات الحربية مع آل خليفة وتوجه الى الرياض بصحبة عمر بن عوفيصان حاكم الأحساء وفرقة من رجال القبائل . وقد تمكنوا فى أوائل شهر يونيو من الوصول الى العاصمة وذبح مشارى ثم نصب فيصل أميرا على البلاد الا أنه كان لابد لفيصل من اخضـــاع بقية المناطق وعلى الأخص الاحساء حيث كانت أسرة العيار تحاول استرداد نفوذها السابق مستغلة حالة الفوضى التى عمت المنطقة اثر اغتيال تركى (١) .

انتهت خدمة بلين كمقيم بريطانى فى صيف عام ١٨٣٤ وقد توقف فى مسقط وهو فى طريقه الى الهند ليرى ما اذا كان حمود بن عزان لايزال يحتل الرستاق أو انه تخلى عنها لنائبى السيد سعيد وعندما أبلغه نائبا السيد سعيد بأن حمود مازال يرفض تسليم المدينة قام بلين بتوجيه رسالة الى حمود يحذره فيها من محـاولة القيام بأى اعتـداءات جديدة والا فان الحكومة البريطانية سوف تعتبره طرفا معاديا لها وعند وصول بلين الى الهند تعلل بأنه اضطر الى ذلك الاجراء لعدم كفاءة المسئولين الذين عينهم السيد سعيد للاشراف على الحكم فى مسقط وذكر بأن السيد سعيد كان لا يميل الى تسليم شئون الدوله الى الاكفاء من رجاله ربما خوفا منهم او ربما لأن الحكم كان يفتقر الى العناصر ذات الكفاءة ، وانطلاقا من هذا يمكن القول انه اذا كان السيد سعيد لا يحبذ أن يعهد بالسلطة الى الرجال الأكفاء فما كان ينبغى له أن يتغيب كثيرا ولفترات طويلة عن البلاد ، غير أن بلين لم يكن ميالا لتوجيه اللوم للسيد سعيد على هذا التصرف لسبب بسيط وهو أن السيد سعيد كان يحصل عى الجزء الأكبر من دخله من مستعمرات فى افريقيـا

---

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥١٦ رقم ٥٩٨٥٩ من هانيل الى نوريس ١٥/٧ . ١٨٣٤/٩/٢٢ .

الشرقية بما في ذلك الأموال التي كان يدفعها كرشوة للوهابيين لابعادهم عن مسقط ، وبالتالي فقد كانت مصلحة السيد سعيد الفعلية تقضي بتدعيم تلك المستعمرات والحفاظ عليها ، واذا ما سلمنا بهذا الرأى عن السيد سعيد وكان لاحتفاظ بتحالفنا مع مسقط لا يزال مرغوبا فيه يصبح دعم السيد سعيد قضية بديهية ، ويضيف المقيم بأن سبب بقاء السيد سعيد لفترات طويلة في أفريقيا الشرقية يعود في الواقع الى التشجيع الذي كان يتلقاه المتمردون ضد حكمه في ممباسا من ضابط الأسطول البريطاني هناك ورغم أن كلير كان يتفق في الرأى مع بلين وكان يتعاطف مع السيد سعيد الا أنه كان مضطرا الى الالتزام بالسياسة التي وضعها بنتنك في شهر فبراير السابق وصادق عليها مجلس ادارة الشركة في شهر ابريل ، وعلى هذا الأساس أصدر أوامره الى مساعد بلين الكابتن هانيل المقيم البريطاني بالوكالة بالالتزام بتلك السياسة ورفض اى طلب يأتيه سواء من السيد سعيد أو من المسئولين في حكومته ويبدو أن ما اغفله بنتنك ثم أعضاء مجلس ادارة للشركة (حتى لو كانوا قد تنبهوا اليه ولكنهم رفضوا الاعتراف به) هو أن مطالبة بلين وكلير بتدعيم موقف السيد سعيد سواء من ناحية ثورة داخلية أو من اى اعتداء خارجي عليه لم يكن كافيا في حد ذاته وانما لا بد وأن يرتبط بقضية تدعيم السلام في الخليج والمناطق المجاورة ولو قدر أن تعود الاضطرابات الى عمان نتيجة لأطماع ومؤامرات حمود بن عزان ، أو غيره من الزعماء المحليين فان حكم السيد سعيد سوف ينهار وسيعقبه تفتت عمان الى مشيخات ودويلات ، وينقض القواسم على منطقة الشميلية والموانى الواقعة شمالا كخور فكان وخور كلبه ، ودبا، الأمر الذي سيفتح لهم موانىء ينطلقون منها لممارسة أعمال القرصنة في خليج عمان والمناطق الخلفية . وقد يسمح وضع كهذا لحمود بن

عزان أو غيره من فروع أسرة آل بوسعيد بأن ينصبوا أنفسهم حكاما على بعض المناطق الداخلية من عمان والباطنة بل وعلى مسقط نفسها .

كان الخطر الأكبر الذى كان يهدد عمان هم الوهابيون فلو نجح فيصل فى الاستيلاء على نجد والأحساء واستعاد نفوذ والده فانه لن يمر وقت طويل حتى يتجه الى الزحف على عمان ولو قدر للسيد سعيد أن يتدهور حكمه فان ذلك سوف يسهل عملية احتلالها بواسطة السياسيين البريطانيين العاملين ولو أصبحت سفن مسقط تحت رحمة الوهابين فان الخليج سوف يتعرض لوجه جديدة من الأرهاب البحرى تعادل ان لم تكن تفوق الارهب الذى شهدته المنطقة خلال العقدين الأول والثانى من القرن . ولم تظهر دلائل تشير الى أن الوهابيين قد غيروا من أسلوبهم وأن هناك تغيرا نسبيا فى نفوذ الأمير فيصل وقبله تركى ومن سبقوهما من حكام نجد ، وعلى حين كان أعضاء مجلس ادارة الشركة يميلون الى الاعتقاد بأن قيام سيطرة الوهابيين على السواحل العربية الخليج لا تمليه عليهم دوافع شريرة وانه يمكن الاعتماد على حسن نية الأمير الوهابى فى منع القراصنة من العودة الى سابق أعمالهم فقد كان بلين والمسئولون البريطانيون فى بومباى يرون بأن الاعتدال الذى أظهره كل من تركى ونجله انما يعود الى انحسار قوة الوهابيين أكثر مما يعود الى تغيير فى طبيعة سياستهم ، ومن المؤكد ان سجل الوهابيين فى المناطق الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية حتى ذلك الوقت لم يكن يدعو الى التفاؤل ، فبدلا من أن يحاول هؤلاء التقريب بين زعماء القبائل كانوا يبحثون عن كل السبل التى تؤدى الى الايقاع فيما بين تلك القبائل واستغلالها بهدف توطيد أقدامهم فى المنطقة ، وحتى لو كانت نوايا فيصل حسنة فانه لم يكن يملك الامكانيات اللازمة لتحقيقها ، كما أن نائبه فى البريمى لم يكن عاجزا عن تسوية الخلافات بين القواسم وبنى ياس فحسب ، بل كان عاجزا حتى عن تحصيل الزكاة من

تلك القبائل (١) فاذا صحت وجهة نظر بلين عن احتمال اتجاهات فيصل السياسية فى المستقبل ، فان الحكومة البريطانية سوف تجد نفسها مدفوعة الى التدخل للحيلولة دون اضطراب الأمن فى الخليج مرة أخرى ، وكان رأى بلين يدعو الى سرعة القيام بمثل هذا التدخل حتى يكون له أثره فى دعم حكومة السيد سعيد (الصديقة) من ناحية ومنع خصومه من استغلال وضع السلطنة لتقويض وحدتها من ناحية أخرى . لأن التأخير فى اتخاذ ذلك الاجراء قد يضطر السلطات البريطانية الى الدخول فى مواجهة مباشرة مع الوهابيين .

وفى النصف الأخير من عام ١٨٣٤ لم يكن التهديد المباشر لأمن الخليج ناتجا عن الاجتياح الوهابى لعمان وانما عن الحرب التى نشبت بين القواسم وبنى ياس نحتى نهاية عام ١٨٣٣ كانت الاشتباكات بين القبيلتين مقصورة بوجه عام على النزاع على مصائد اللؤلؤ أو نتيجة للغارات التى كان يقوم بها المناصير حلفاء آل بوفلاح على المراعى ومزارع النخيل غير أنه فى شهر سبتمبر من عام ١٨٣٢ خرج سلطان بن صقر على راس قوة مقاتلة من القواسم يقدر عددها بنحو ٥٠٠ مقاتل و ٧٥٠ من قبيلة بوفلاسه سكان دبى لشن هجوم بحرى على ابو ظبى ، وعند نزول القوة الى الساحل وجدوا فى انتظارهم قوات محتشدة من بنى ياس والمناصير ، فعادوا الى سفنهم بعد ان قتل منهم نحو ٤٥ فردا خلال عمليات الانسحاب وأسر ٢٣ فردا من قبيلة آل بوفلاسه ، وأرغموا على العودة الى موطنهم وقد كاد أن يغرق الشيخ سلطان بن صقر اثناء عملية الانسحاب وقد تم الاستيلاء على ٦٦ سفينة من مجموع ١٠٢ سفينة كان يتألف منها اسطول الغزو ، ورغم هزيمة سلطان فقد كان

---

(١) ملفات الممثلية البريطانية فى الخليج مجلد ٣٧ من الملاحين (وكيل الممثلية فى الشارقة) الى المقيم البريطانى ٢/١١/١٨٣٤ .

مصمما على أن يعيد الكرة فقام بجمع أسطول جديد بمساعدة عميله شـــيخ عجمان وقريبه شيخ لنجه وابحر الأسطول الى ابو ظبى فى شهر نوفمبر ، وبهذا الأسطول حاول اقتحام المدينة بحرب خاطفة وعندما فشلت خطته قرر ان يحاصر ابو ظبى . ومن هذا العام وبسبب الحصار المفروض على البلدة من البحر والبر ،كادت قبائل بنى ياس سكان أبو ظبى أن يهلكوا جوعا ، ومع ذلك فقد نجحوا في الحصول على ثلاث سفن وأبحروا بها للاستيلاء على عجمـــان وسفن القواسم . اما فى البر فقد نجح خليفة بن شخبوط فى طرد حلفاء الشيخ سلطان الذين كانوا يحاصرون طرق تموينه من داخل واحة البريمى ، وبعـد ذلك بوقت قصير بدأ بحارة السفن الذين كانوا يحاصرون أبو ظبى يعـــانون من المتاعب بقدر ما كان يعانى بنى ياس مما اضطر سلطان بن صقر فى النهـــاية الى الاعتراف بالفشل ، وقد عقدت هدنة بواسطة شيخ لنجة : تعهد القواسم بموجبها برفع الحصار كما تعهد بنو ياس باعادة السفن التى استولوا عليهـــا من القواسم (١) ودامت الهدنة حتى شهر يونيه عام ١٨٣٤ عندما نقضـــها المناصير بغـــارتهم على منطقة تابعة للقواسم ، وقد رد القواسم على المناصير باغتصاب عشرة من سفن بنى ياس كانت متجمعة فى مصايد اللؤلؤ واخـذوا بحارتها ومعهم محصول اللؤلؤ . وفى نهاية الصيف عقدت هدنة أخرى باشراف الشيخ خليفة والد الشيخ شخبوط وقد تعهد زعيم بنى ياس بالاعتراف بسلطة آل بو فلاسه على دبى على اساس الأمر الواقع واصبحوا منذ ذلك اليوم تابعين

---

(١) مختارات بومباى ٢٤ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ (نبذة تاريخية عن القواسم ١٨٣٢ — ١٨٤٤ ص ٤٧٠ — ٤٧٣ و (نبذة تاريخية عن بنى ياس ١٨٣١ — ١٨٤٣) انظر أيضا دليل الخليج جزء / ١ ص ٦٩٠ — ٦٩٣ تأليف لورمار .

لسلطان بن صقر (١) وقد عز على خليفة بن شخبوط أن يضطر الى الخضوع وكاد ان ينفجر الموقف مرة أخرى من جانب بنى ياس .

وفى الشهور الأخيرة من عام ١٨٣٤ أخذ التوتر يسود الأوساط القبلية الى دول ساحل القراصنة فقد انخفض مستوى المعيشة لهذه القبائل الى حد الكفاف واصبح المواطنون على شفا اليأس نتيجة لحروب الاستنزاف التى كانت تدور بين زعماء القواسم وآل بوفلاح كما تلفت المزروعات والمحاصيل ودمرت المبانى ونفقت المواشى بسبب الغارات المسلحة كما تأثرت الدورات الزراعية والرعوية من جراء الحروب المتتابعة التى فرضت على سكان هذه الأقطار . والأدهى من كل ذلك أن المواطنين فى هذه المناطق لم يتمكنوا من الخروج الى صيد اللؤلؤ لثلاثة مواسم متتالية مما حرمهم من الحصول على المواد الغذائية الضرورية من الخارج . وكان رأى الأغلبية أن المخرج من تلك الأوضاع لا يكون الا بالاعتماد على السلب والنهب . وخلال الصيف وقعت بعض الأحداث التى ساعدت على أن يتحول الأمر من حرب مشروعة بين هذه القبائل الى قرصنة وفوضى فآل بوفلاسة سكان دبى الذين كانوا ناقمين من نتيجة الحرب مع أبوظبى لم تتح لهم الفرصة للانتقام من خصومهم آل بوفلاح، فقرروا العودة الى أعمال القرصنة ، فخرجوا بأعداد كبيرة للاعتداء على سفن مسقط والبحرين ونابند على الساحل الفارسى وقاموا بسلب ونهب تلك السفن كما اغاروا على بركا الواقعة على ساحل الباطنة وقد انضم اليهم بعض افراد قبيلة السودان التى انفصلت عن عجمان وانضمت الى ابوظبى فاعتدوا على سفينة تابعة لمطرح (فى عمان) واخذوا كل حمولتها ويقدر ثمنها

---

(١) مختارات بومباى ٢٤ ص ٤٧٣ « نبذة تارخية عن بنى ياس » ١٨٣١ — ١٨٤٣ تاليف كامبل .

بـ ١٠٠٠ ريال بمساوى . وقد رافق معظم هذه الاعتداءات أعمال ارهابية وقتل وعنف . وقد قدم المقيم البريطـانى طلبا الى حاكم دبى وأبو ظبى لدفع فدية القتـلى . وقد ترتب على ذلك توجيه انذار الى حاكم دبى بفرض حصـار على بلاده ما لم يوافق على توقيع العقوبات على المتهمين ودفع تعويضـات لأصحاب السفينة ورغم ذلك فان بعض أولئك القراصنة قد افلتوا من العقاب بعد أن تمكنوا من الهرب الى البريمى (١) وهكذا كلما طال أمد الاشتباكات بين بنى ياس والقواسم أو تكرر وقوع مثل هذه الاعتداءات فى منطقة الخليج الأمر الذى سبب زعزعة فى موقف أعضاء ادارة شركة الهند الشرقية بسبب رفضهم المستمر القيام بدور البوليس فى المنازعات القبلية بين دول الخليج ، ولما كانت القرصنة هى السبب فى الحروب البحرية بين القبائل الساحلية فلا يكون فى الامكان القضاء على أعمال القرصنة ما لم يتم القضاء أولا على هذه الحروب ، ومع أن أعضاء مجلس ادارة الشركة كانوا يقرون هذا المنطق ، الا أنهم كانوا يرفضون مبدأ العمل به وكان تصورهم يقوم على أساس أن الحكومة البريطانية ليست بالضرورة طرفا فى تلك المنازعات ، الا اذا أدت تلك المنازعات والحروب الى عودة القرصنة الى الخليج (٢) ولكى تحقق الحكومة البريطانية الهدف من هذا فينبغى عليها أن تدلل على أن تلك الاشتباكات هى عمليات قرصنة، الأمر

---

(١) سجل المراسلات السياسية لبومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس ادارة الشركة ١٨٣٥/١٢/٧ رقم ٥٧ الادارة السياسية) مختارات بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٩٨ ــ ٤٩٩ نبذة تاريخية عن قبيلة ابوفلاسه العربية (دبى) . من ١٨٣٤ الى ١٨٤١ ودليل الخليج تأليف لوريمار ص ٦٨٣ — ٦٨٤ .

(٢) من التقارير السياسية لبومبـاى مجلد ٤ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٤/٨/٢٠ (رقم ١٠ الادارة السياسية) .

الذى سوف يتفق مع الدور الذى يريده لها اعضاء مجلس الادارة كما كان عليها أن تتحمل النتائج المترتبة على ذلك الدور . وفى هذا الصدد كتب مونستورت الفنستون فى عام ١٨٢٥ يقول :

«اذا لم نسمح لأى فرد بأن يسترد ما يعتبره حقا من حقوقه فانه يتعين علينا ان نقوم بالتحقيق فى كل الادعاءات التى تنشأ وأن نعمل على تسويتها اذا ثبت صحتها » — . وبعبارة اخرى فان على الحكومة البريطانية أن تقوم بدور « المحكم » وهو الدور الذى كان يعترض أعضاء مجلس الادارة عليه ، فرد على ذلك ما جاء فى تقرير الفنستون ، أنه اذا تعين فرض حظر كامل على الحروب البحرية فان الحكومة البريطانية ستكون ملزمة بالدفاع عن مشايخ المنطقة ضد أى هجوم تشنه عليها دولة اخرى لا تشملها المعاهدة ، ووفقا لهذا المنطق فقد كان لابد من نرض نوع من القيود خلال الفترة الواقعة فى منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر على الحروب البحرية التى كانت تنشب من وقت الى آخر بين شيوخ المنطقة والتى كانت سببا فى الأوضاع المعيشية المتردية فى المنطقة . اما عن دور بنى ياس فى الموضوع فسوف نتطرق اليه فى فصل آخر من الكتاب، أما الآن فنختتم قصة الأحداث فى الخليج خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٢٣ ، وعام ١٨٣٤ باعطاء بيانات عن الأوضاع التجارية للمنطقة فى تلك الفترة والتعبيرات التى طرأت على الادارة فى الممثلية البريطانية فى الخليج خلال تلك السنوات .

ان السمة البارزة للحالة التجارية فى الخليج بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٥ هى أن الحالة التجارية واصلت تدهورها تدريجيا بعد الصعود الذى حققته خلال ذروة نشاط القرصنة قبل حملة البروليم كير بعامين فقد كان مجموع قيمة النشاط التجارى لمحافظات بومباى ومؤسسات فورت وليم وفورت سان جورج مع بلدان الخليج الفارسى والبحر الأحمر فى حدود ٢٣ر٢٥٣ر٩٣٠ روبية (أو ما يعادل ٠٠٠ر٣٠٠ر٢ ج س) فيها ٢٤٩ر٧٧٢ر١٠

روبية للصادرات و ١٢٫٤٥٣٫٦٨١ روبية للواردات (١) وبعد عامين على الحملة انخفض الرقم الى ١٧٫٢٩٥٫٣٤٤ روبيـة أى (١٫٧٠٠٫٠٠٠ ج س) أو ما نسبته ٢٥٪ وكانت نسبة الانخفاض أكثر من الواردات من الخليج الى الهند التى انخفضت من ١٢٫٠٤٠٫٠٠٠ الى نحو ٧٫١٠٠٫٠٠٠ ويعود هذا الانخفاض بلاشك الى انتشار وباء الكوليرا الذى اجتاح الخليج عام ١٨٢٠ — ١٨٢١ .

وليس هناك أدني شك فى ان التدهور فى تجارة الخليج الذى استمر خلال السنوات التالية يمكن رد اسبابه الى الدمار الذى أحدثه الوباء فى المنطقة. وكان مجموع قيمة الواردات الى الهند من الخليج فى عام ١٨٢٤ — ١٨٢٥ بنحو ٥٫٣٠٠٫٠٠٠ و ٥٫٤٠٠٫٥٠٠ سنة ١٨٢٥/١٨٢٦ و ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ سـنة ١٨٢٦/١٨٢٧ و ٥٫٣٠٠٫٠٠٠ سـنة ١٨٢٧ — ١٨٢٨(٢) كمـا هبطت أرقام الصادرات من الهند الى الخليج عن نفس المدة من ١٠٫١٠٠٫٠٠٠ روبية فى ١٨٢١ — ١٨٢٢ الى ٧٫٦٠٠٫٠٠٠ روبيـة عـام ١٨٢٢ — ١٨٢٤ ثم الى ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ روبية عام ١٨٢٥ وعام ١٨٢٦ الى نحو ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ روبية، ثم عاد فانخفض خلال العامين التاليين عندما اشتبكت فارس فى حرب ضد روسـيا الى ٦٫٤٠٠٫٠٠٠ روبية عام ١٨٢٦ — ١٨٢٧ و ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ روبية فى عام

---

(١) تقارير اللجنة (١٨٢١) مجلد ٦ ورقة رقم ٧٤٦ التقرير الثالث للجنة المنتخبة عن التجارة الخارجية ملحق ١ ج(أ—١) .

(٢) بيانات ووثائق ١٨٣١ — ١٨٣٢ مجلد ١٠ ورقة ٧٣٥ ملحق ١٤ غير أن الأرقـام الصحيحة هى ٦٫٥٦٠٫٤٩٩ روبيـة و ٥٫٣٧٧٫٢٨٩ روبية و ٥٫٤٩٨٫٠٧٥ روبية و ٤٫٥٨٦٫٧٦٥ روبية و ٥٫٣٥٠٫٦٧٠ روبية .

١٨٢٧ — ١٨٢٨ وهكذا كان المجموع الكلى لقيمة تجارة الخليج مع الهند عن تلك الفترة هو ١١ر٣٩٧ر٢٥٤ روبية أو ثلثى أرقام ١٨٢١ — ١٨٢٢ وأقل من نصف أرقام ١٨١٧ — ١٨١٨ .

وان الأرقام المتوفرة لدينا عن تجارة الخليج خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر قليلة وغير مؤكدة ، ويبدو على أى حال انه لم يطرأ أى تحسن ملموس على الوضع التجارى فى تلك الفترة . وقد قدر السيرجون مالكولم قيمة تجارة الهند مع البصرة وبوشهر فى عام ١٨٣٠ بثمانية عشر مليون روبية ، وكان هذا رقما مبالغا فيه (١) . وكان مجموع تجارة الخليج مع الهند عن عام ١٨٣١ — ١٨٣٢ حسب تقدير الكولونيل اف . ار . تشيزنى قائد بعثة الفرات هى ١١ر٤٢٣ر٣٥١ روبية منها ٤ر٦٠٠ر١٢٨ عن الواردات و٦ر٨٢٣ر٢٠٣ روبية عن الصادرات (٢) وفى ذلك العام اجتاح مرض الطاعون

---

(١) فى ذلك الوقت كان مالكولم يحاول البحث عن وسيلة للاستيلاء على جزيرة خرك لانشاء قاعدة بريطانية فيها وقد وردت تقديراته هذه فى بيان أعده بتاريخ ١٨٣٠/١٠/٢١ عن الأسطول الهندى وقد أشير اليه فى الخطاب الموجه من اللفتنانت هنل الى السكرتير الأول لحكومة الهند بوشهر ١٨٣١/٥/١٩ كما اشير اليه فى المحادثات السياسية لبومباى الخلقة ٣٨٧ مجلد١٣ الرقم المسلسل ٣١ المؤرخ٣١/٧/٢٧ وقد تعذر الحصول على النسخة الأصلية للبيان فى كل من المحادثات السرية والسياسية لحكومة بومباى أو فى مرفقات المراسلات السرية الصادرة من بومباى او فى مجموعة المجلس . أما فيما يتعلق بالمحادثات الخاصة بالأسطول فقد اتلف الجزء الأكبر منها ، ولم يعثر على البيان فى الملفات المتفرقة للبحرية .

(٢) تشكلت هذه البعثة للقيام بعمليات مع نهرى دجلة والفرات مجلد ٢ طبعة لندن ١٨٥٠ مجلد ٢ ص ٥٩٩ اما بالنسبة لبعثة الفرات يراجع الفصل السابع من هذا الكتاب .

سواحل الخليج وامتد الى المنطقة الجنوبية من فارس وتركيا والعراق بوجه خاص وفي شهر يونية ١٨٣٤ رفع المقيم البريطاني في الخليج تقريرا الى حكومته أشار فيه الى ما أصاب تجارة بوشهر من أضرار بالغة وبالتالى فقد انخفضت أرقام التجارة عن عام ١٨٣٢ - ١٨٣٣ بنحو ٥٠٪ عن ارقام ١٨٢٩ - ١٨٣٠ كما انخفضت الواردات من٢٩٨ر٣٧٤ر٨ روبية الى٥٢٤ر٢٥١ر٤ روبية والصادرات من ٣٧٧ر٣٢١ر٣ وبية الى ٥٤٤ر٢٧٠ر٢ (١) ومعنى ذلك انه لم يطرا تحسن على تجارة الخليج بوجه عام فى غضون الأعوام الخمس التالية ، وربما يكون سبب ذلك هو التدهور الذى سببه مرض الطاعون والاضطرابات الداخلية فى فارس فى اعقاب وفاة فتح على شاه وظهور الوهابيين على المسرح على الجانب الغربى من الخليج وأخيرا الحروب التى ظلت مشتعلة بين بنى ياس والقواسم والتى أضرت بصناعة اللؤلؤ(٢) وهذه الأرقام تنطبق على تجارة الخليج مع الهند

---

(١) ملخص من مواصلات وتجارة الخليج عن الفترة ١٨٠١ - ١٩٠٥ ومع ذلك فالواردات من الخليج الى مؤسسة فورت وليم عن نفس العام كانت ٨٨.ر٥٦١ر١ والواردات ٧٢٠ ر ٧٣٥ ر ٢ روبية وهذا يعنى لو كانت أرقام تشيزن عن ١٨٣١ - ١٨٣٢ صحيحة - أى ٧٣٣ر٩٥٦ روبية فى الواردات من الخليج الى المؤسسة المذكورة ٨٥٥ر٨١٦ر١ عن الصادرات فمعنى ذلك انه لم تكن هناك زيادة فى تجارة الهند مع الخليج بوجه عام خلال ١٨٣٢ - ١٨٣٣ .

(٢) الأرقام التى يحددها شزن (تقرير البعثة فصل ٢ هى ٤٠٢ر٤٧٢ر٤ روبية عن الواردات و ٨٢٣ر٢٧٦ر٥ روبية عن الصادرات وهى تشمل تجارة البنغال وبومباى مع منطقة الخليج عن عام ١٨٣٦-١٨٣٧ وهو لم يدخل مدراس فى هذه التقديرات ولكن اذا كانت تجارة مدراس مع...

وان كانت تشكل فى الواقع القسم الأكبر من تجارة الخليج ، أما ما هى قيمة تجارة الخليج عن كل عام فذلك يستحيل تحديده وهنـاك رحالة معاصر يبدو انه اشار ببعض التخمينات حول هذا الموضوع ولكننا لا نسـتطيع التأكد من الرقـم الذى حدده وهو ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك او مليون جنيه اسـترلينى تقريبا .

والنتيجة من كل ذلك انه لا يمكننا أن نحدد بشكل مباشر من المعلومات والأرقام المتوفرة لنا عن تجارة الخليج والأثر الذى أحدثه الحملات البريطانية على القرصنة فيما بين عام ١٨٢٨ — ١٨٣٥ ومن المعروف عموما أن القرصنة كان لها انعكاس سيىء على التجارة رغم أن الوضع لم يكن بذلك السوء قبل ١٨٢٠ كما لا يمكن تأييد الرأى القائل بأن انخفاض نشاط القراصنة قد أعقبه تحسن فى الأحوال التجارية وبأن هذا ينطبق على المرحلة التى جاءت بعد عام ١٨٢٠ ،ويمكن القول بأن الهـدف من العلاقة التى كانت تربط بين التجـارة والقرصنة على غرار ما كان قائما بين القواسم وآل خليفة قبل حلول عام ١٨٢٠ هو استثناء الخليج من القوانين التجارية السائدة وهنـاك تفسير آخر لهـذا الموضوع وهو أن القرصنة التى كانت تؤثر على سير التجارة فى الخليج خلال تلك المرحلـة لم تكن هى السبب المبـاشر فى تدهور التجـارة كما يعتقد الأوربيون وانما سببها هو تصاعد الأعمال الحربية فى مياه الخليج.

= الخليج قد مرت بأى تغيرات كما حدث لتجارة البنغال وبومباى فيما بين ١٨٣١ — ١٨٣٢ ، ١٨٣٦ — ١٨٣٧ (٢٫٥٧٥٫٥٨٨ و ٢٫٦٩٩٫٣٩٥ عن البنغال و ٨٫١٩٨٫٣١٨ و ٧٫٠٤٩٫٠٨٨ عن بومباى) وظلت محتفظة برقمها وقدره ٦٠٠٫٠٠٠ روبية ، فان المجموع الكلى لقيمة تجارة البنغال وبومباى ومدراس من الخليج عن العام التالي ربما لم تزد عن ١٠٫٣٠٠٫٠٠٠ روبية .

فى هذه الفترة كان وضع الممثلية البريطانيه فى الخليج موضع مناقشة بين حكومتى الهند وانجلترا، وليس فيما يختص بالشئون الادارية فحسب وانما بالنسبة الى انشاء قاعدة فى الخليج أيضا ، وهو الموضوع الذى كان يشغل اسياسة البريطانيين فى تلك الفترة ، فبعد الجلاء عن القاعدة العسكرية فى جزيرة قشم فى يناير ١٨٢٣، لم تبرز هذه المسألة للبحث خلال حكم الفنستون لبومباى وبالتالى لم يكن من المتوقع اطلاقا ان يعمد خليفة مالكولم الذى ظل ينادى لعشرين عاما برايه حول الأهمية الاستراتيجية والتجارية للخليج واهمية وجود قاعدة للبريطانيين فيه ، الى اغفال هذا الموضوع فترة أطول .

وعندما تسلم مالكولم منصبه كحاكم على بومباى كان النقاش يدور بشكل واسع حول موضوع الملاحة البخارية بين انجلترا والهند عن طريق البحر الاحمر والخليج الفارسى ، وبعد وصوله الى بومباى مباشرة بدأ مالكولم فى دراسة انشاء قاعدة فى الخليج الى جانب نقل الممثلية البريطانية من بوشهر الفارسية الى الخليج . وفى أواخر عام ١٨٢٧ (١) استدعى مالكولم الميجور ويلسون المقيم البريطانى فى الخليج الى بومباى لبحث الموضوع معه ، وفى بداية العام أخطر الكولونيل ستانوس المستر مالكولم الذى خلف ويلسون فى منصب المقيم ، انه بالنظر الى نشوب اضطرابات سياسية فى فارس بين حين وآخر فسيكون من الافضل أن لو استأذنت حكومة فارس فى نقل الممثلية البريطانية الى ضواحى البلدة . وقد ذكر ستانوس بأن أمير فارس كان

---

(١) المحادثات السياسية لبومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ٢٢ رقم ١٨ فى ١٨٢٧/٥/٢ من ستانوس الى السكرتير الأول لحكومة بومباى من بوشهر ١٨٢٧/٣/٢٦ ومن نيوهام الى المقيم من بومباى ١٨٢٧/١/٢٨ .

يمارس سلطة غير كاملة على بوشهر ، وانه فى حالة استياء الأهالى من المقيم يتعذر على الأمير الحاكم توفير الحماية اللازمة له كما اضاف بأن مبنى المثلية يقوم على حراسته مجموعة صغيرة من الحراس الهنود ، وليس بها مورد خاص للماء ، ولهذا فقد كان يشك ان تستطيع المثلية ان تقاوم اى هجوم عليها لأكثر من ٤٨ ساعة . وعلى الرغم من أن الفنستون اقر راى ستانوس الا انه لم يكن يرغب بالنظر الى الحرب الروسية الفارسية والاضطرابات السياسية فى الاقاليم الجنوبية فى أن يضيف متاعب أخرى الى الوضع غير المستقر فى المنطقة ، بنقل المثلية من بوشهر ، غير أن مالكولم لم يقر الفنستون على ذلك الراى ، وعندما استدعى ويلسون الى بومباى فى شهر ديسمبر ١٨٢٧ طلب منه أن يقترح عددا من المناطق على الساحل الفارسى تصلح كموقع للممثلية، وبين فبراير ومايو ١٨٢٨ قام ويلسون بمعاينة باسيدو وكنج (الموقع السابق للمركز الهولندى) ولنجه واسالو . وقال فى تقريره ، انه لايوجد بين هذه المواقع التى زارها موقع يصلح للممثلية كجزيرة خرك التى تقع بمواجهة بوشهر وذلك لما تنفرد به من المزايا السياسية الى جانب صلاحيتها كمنطقة لتجميع وتوزيع السلع والمنتجات . وقد ارتاح مالكوم من هذا القرارلانه هو نفسه قد سبق أن اختار تلك الجزيرة قبل عشرين عاما ولنفس الأسباب وفضلها على باسيدو الواقعة فى جزيرة قشم حيث كانت ترابط الوحدة العسكرية فى الخليج ، اما باسيدو فقد كانت فى نظره غير صالحة كمركز تجارى لأن تجارة الخليج تتركز فى المنطقة الشمالية ولهذا السبب كانت جزيرة خرك موقعا نموذجيا للقاعدة وان احتلالها فى رأيه لن يسهل بنقل المثلية من بوشهر فحسب وانما قد يسهل أيضا دمج ممثليتى البصرة وبوشهر فى ممثلية واحدة، هذا رغم أن مالكولم لم يكن يرغب فى اغلاق ممثلية البصرة حتى ذلك الوقت ، نظرا للحرب القائمة بين روسيا وتركيا

والمكاسب التى حققتها روسيا فى أذربيجان . والنتيجة أن مالكولم لم يفعل شيئا فى هذا الصدد ، ربما لانه كان لايزال واقعا تحت تأثير الموقف العدائى لفتح شاه ضد وجود قاعدة بريطانية من قبل ، كما أنه من المحتمل أن يكون مالكولم واقعا تحت تأثير فشل الحكومة البريطانية فى الوقوف الى جانب الشاه فى خلافاته مع الروس فى سنة ١٨٢٦ ، مما لم يشجع الشاه على اتخاذ موقف مؤيد لاقامة القاعدة فى خرك .

ولم يعد مالكولم الى بحث هذا الموضوع مرة أخرى قبل شهر نوفمبر من عام ١٨٣٠ فقد بحث موضوع ارتفاع نفقات الاحتفاظ بالمثليتين . فقد بلغت نفقات المثلية فى بوشهر عن العام المنتهى فى ٣٠ ابريل سنة ١٨٣٠ — ٥٢٤ر٧٨ روبية ، بينما بلغت نفقات ممثلية البصرة عن العام المنتهى فى ٣١ يناير ١٨٢٩ مبلغ ٢٠٢ر٥٤ روبية ، وقد بلغ مجموع نفقات كلتا المثليتين عن عام ١٨٢٩ بما فيها المصروفات الاضافية للحرس بلغ ٥٩٠ر١٣٨ روبية

---

(١) المجموعات مجلد ٤١ رقم ٣٧ مؤرخ ١٨٢٨/٩/٢٤ محضر مالكولم بومباى ١٥ ، ١٦ سبتمبر ١٨٢٨ ، رغم انى مازلت اتصور احتمال اجراء تخفيض فى نفقات وكالتنا فى فارس وتركيا وذلك فيما يختص بحجم الاعمال فاننى لا اعتقد أن ذلك ممكن فى الوقت الحاضر ما دامت الحرب قائمة كما يقال بين روسيا والباب العالى والقوات الروسية تحتل اذربيجان اننا نستطيع إستدعاء الميجور تايلور من البصرة دون أن يترك هذا الاجراء انطباعات ليست فى مصلحتنا فى ذلك الجزء من آسيا . وعلى الرغم من أن المثلية البريطانية فى تركيا العربية كان مقرها من الناحية الرسمية فى البصرة الا ان المقيم الكابتن تايلور يقضى معظم اوقاته فى بغداد ، الأمر الذى يتيح له بأن يكون على اتصال اقرب لحكومة الباشا .

او ١٤٫٠٠٠ سترليني . وحسب تقرير المستر شارلس نوريس ، السكرتير الأول للحكومة كان الانفاق الشهري لمثلية بوشهر بـ ٥٫١٨٨ روبية ولمثلية البصرة ٣٧٩٧ روبية . وكان مجموع النفقات الشهرية للممثليتين هو ٨٩٨٥ روبية . وبالمقارنة الى نفقات ممثلية واحدة في خرك مكونة من مقيم ومساعد مقيم وطبيب وحارس فانها لم تكن تزيد على ٤٠٠٠ روبية كل شهر . وبذلك يكون المبلغ الذي يمكن توفيره من اندماج الممثليتين هو ٤٩٨٥ روبية كل شهر او ٥٩٨٢٠ روبية سنويا .

وعلى ضوء هذه الدراسة كلف صمويل هانيل الذي كان مقيما بالوكالة في الخليج في ذلك الوقت بمعاينة منطقة خرك . وقد قضى هانيل عدة ايام في الجزيرة في أوائل شهر مايو ، وقد عاد فقدم تقريرا يفيد بصلاحية الموقع وعلى أساس تقرير سابق أعده ويلسون تبين ان اقامة حامية مكونة من ١٧٨ جنديا اوربيا و ٦١٠ جنديا هنديا تكفي لتوفير الحماية للقاعدة ، ولن تتعدى نفقات انشاء معسكرات لهم ٣٨٫٣٠٠ روبية كما أن قلعة الجزيرة وتحصيناتها لن تتعدى ٧٠٠٫٠٠٠ روبية . أما نفقات الاحتفاظ بالحامية في تقديرات هانيل فسوف تتطلب ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ روبية كل عام، غير انه كان واثقا من أن تحويل الجزيرة الى مركز تجاري سوف يضمن تحصيل نصف هذا المبلغ من الرسوم الجمركية التي في تقديره ستصل من ٩٠٫٠٠٠ الى ١٣٥٫٠٠٠ روبية في السنة .

وكان مالكولم قد غادر الهند عند وصول تقرير هانيل حول هذا الموضوع، ولم يتخذ بشأنه أي قرار لمدة عام واحد . غير ان ظهور الطاعون في سنة ١٨٣٢ وانتشار هذا الوباء على طول الساحل الفارسي أدى في ذلك العام الى نقل الممثلية الى جزيرة أصغر الى الشمال من جزيرة خرك تسمى خاركو، وفي شهر

يونيو اقترح كلير حاكم بومباى الجديد على الحاكم العام التحرك للاتصال بالحكومة الفارسية لكى تتنازل عن جزيرة خرك أو خاركو (١) وكان رد الحاكم العام هو أن البت فى هذا الموضوع من اختصاص السلطات فى انجلترا، وبناء عليه فقد بعث كلير فى أكتوبر ١٨٣٢ بمذكرة الى اللجنة السرية ، ضمنها التعليقات والمناقشات التى كانت تدور منذ سنة ١٨٢٨ حول الحصول على جزيرة خرك ودمج ممثليتى البصرة وبوشهر فى ممثلية واحدة ، وقد شدد بصفة خاصة على امكانيات خرك كمركز تجرى واستعان بتقرير هانيل بتاريخ مايو ١٨٣١ لتوضيح المسألة بالتفصيل (٢) .

ومن المسائل التى ظلت تشغل بال حكومة بومباى قبل سنة ١٨٢٢ واستمرت تشغلها لفترة تالية من الوقت ، هو ما يتعلق بالنظام الادارى لممثلية الخليج وموضوع اختيار المقيمين البريطانيين ومساعديهم . فقد كانت التعليمات التى تلقتها الهند من الحكومة البريطانية سنة ١٨٢٥ تطالب حكومة الهند باجراء تخفيض فى عدد العسكريين العاملين فى الوظائف المدنية ، وقصر الوظائف الجديدة على الموظفين المدنيين ، وفى اكتوبر سنة ١٨٢٦ أبلغ الكولونيل ستانوس الفنستون أنه كان ينوى العودة الى انجلترا على الطراد ذولو ، وأنه سوف يقدم استقالته من منصبه بعد ذلك بقليل . وقد قبل الفنستون الاستقالة مع ابداء أسفه عليها ، وعين خلفا له الكابتن دافيد

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ مجلد ٢٧ رقم ٢٥ فى ١٨٣٢/٦/٢٧ من نوريس الى سكرتير الحاكم العام بومباى ١٨٣٢/٦/٢١ .

(٢) سجل الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٦ (١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٣٢/١٠/١٧ (رقم ٣ الادارة السرية) .

ويلسون من الفرقة السابعة لمشاة بومباى (١) غير أن اختيار ويلسون لقى معارضة من احد اعضاء المجلس وهو ريتشارد جودون بحجة انه كان يتعارض مع التعليمات التى أصدرها اعضاء مجلس الادارة فى العام السابق واشار جودون الى انه قد سبق ان خولفت هذه التعليمات فى شهر فبراير عندما تم تعيين الكابتن هانيل من الفرقة الثانية عشرة مشاة بومباى فى منصب مساعد المقيم الجديد وهى الوظيفة التى انشئت حديثا ، وكان رأى الفنستون انه فى الوقت الذى تشمل تعليمات مجلس الادارة بخصوص تعيين العسكريين نصف جملة المناصب السياسية فى حكومته ، الا ان المثلية تعتبر التعيين فيها قضية خاصة بمعنى أن الوظيفة ذات طابع عسكرى فى الأساس ، باعتبار أن وظيفة المقيم هى مراقبة النشاطات العدوانية التى تجرى بين القبائل البحرية للخليج واتخاذ الاجراءات التأديبية ضدها اذا كانت تهدد الأمن فى الخليج . وبالاضافة الى ذلك فانه لا يوجد أى موظف له فى الخدمة اكثر من سبع سنوات لشغل الوظيفة التى شغرت باستقالة ستانوس ، بينما الكابتن ويلسون يعتبر من الأشخاص المطلعين على شئون الخليج حيث انه شغل منصب السكرتير العسكرى للسير وليم كير خلال حملة ١٨٢٨ ، كما ان ستانوس نفسه رشحه لهذا المنصب ، وقد أيد فرانسز واردن السكرتير الأول السابق لحكومة بومباى واحد اعضاء المجلس أيد جودون فى هذه المسألة بحجة ان النقص الشديد فى ضباط جيش بومباى لا يسمح بالاستغناء عنهم لشغل مناصب سياسية ، غير أن الفنستون رفض هذا النقد وكان

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٦ مجلد ١٧ رقم الوحدة ٣ فى ١٨٢٧/١/١٧ من ستانوس الى نيوهام ١٨٢٦/١٠/٢٠ ومحضر الفنستون ١٨٢٦/١١/٢٢ .

احد عشر ضابطا فقط من جهاز حكومة بومباى يشغلون الوظائف المدنية وأن ثلاثة من هؤلاء فقط عينوا أثناء حكم الفنستون وقد ظل هذا الموضوع رهن النقاش طول شهر ديسمبر ١٨٢٦ ، ولكنه لم يمنع حاكم بومباى من تعيين ويلسون كمقيم فى الخليج فى يناير ١٨٢٧ .

وقد أعيد بحث هذا الموضوع بعد اربع سنوات عندما قدم ويلسون استقالته لأسباب صحية ولما كان مالكولم يرى أن الأوضاع فى فارس تتطلب أن يكون المقيم المعين ذا خبرة بشئون المنطقة فقد اختار الدكتور جون مكنيل طبيب البعثة البريطانية فى طهران لشغل المنصب ، وقد ثبت كلير هـذا التعيين عند وصوله الى بومباى فى شهر مارس ١٨٣١ ثم صادق الحاكم العام عليه فيما بعد ، لكن عضوين من المجلس وهما جون رومر وجيمس سزرلاند اعترضا على اختيار طبيب لشغل منصب عسكرى فى الوقت الذى يحرم فيه الموظفون المدنيون من هذه المناصب ، وذكرا أنه بالنظر الى كثرة الموظفين المدنيين الشبان فى بومباى لم يتح لأى منهم شغل أى منصب فى الممثلية البريطانية فى الخليج (١) وكان لهذا الاعتراض أثره فقد قرر كلير احالة موضوع تعيين مكنيل الى اعضاء مجلس الادارة فى اغسطس سنة ١٨٣١ ولكن سبق وصول رسالته الى اعضاء مجلس الادارة ان تلقى خطابا من اعضاء مجلس الادارة يأمرونه فيه بدراسة موضوع تعيينات الضباط العسكريين فى الوظائف المدنية واستعادة الأشخاص الذين لم يعد هناك سبب لاستمرارهم فى وظائفهم من تلك التعيينات ، وفور تلقيه رسـالة أعضاء مجلس الشركة ودون انتظار رد منهم على رسالته الغى كلير تعيين

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٥ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣١/٨/٢٣ رقم ٢٢ الادارة السياسية) .

مكنيل واختار بدلا منه دى . ايه . بلين وكان قبل ذلك يشغل منصب المعتمد السياسى فى كاثياوار ، ولكنه لم يوافق على استبدال اللفتنانت هانيل المعين مساعدا مقيما بالنظر الى خبرة هانيل بالخليج ومعرفته بأهل البلاد وبعاداتهم وعلى العكس فالبرغم من المحاولات التى كانت قائمة يومئذ لضغط مصروفات الممثلية فى بوشهر قرر كلير رفع مرتب هانيل الى درجة تتناسب مع مركزه ومؤهلاته (١) وكان بلين هو اول وآخر الموظفين المدنيين الذين عينوا فى الممثلية البريطانية فى الخليج وعندما اضطر لأسباب صحية الى تقديم استقالته فى ديسمبر ١٨٣٤ عادت حكومة بومباى الى اسلوب تعيين ضباط عسكريين لمنصب المقيم فاختارت جيمس موريسون من الفرقة الثانية لخيالة مدراس وبقيت متمسكة بهذا الأسلوب طوال بقية القرن (٢) .

فى فبراير سنة ١٨٣٤ اصدر مجلس الادارة قراره بشأن دمج ممثليتى البصرة وبوشهر وفى موضوع الاستيلاء على خرك كموقع لممثلية مشتركة ولم يتنبه أعضاء مجلس الادارة الى أن المكاسب التى سوف تنتج

---

(١) من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣١/١٢/٣٠ (رقم ٤١ الادارة السياسية) ويبدو أن كلير قد غير موقفه تجاه الممثلية فى الخليج . فعلى حين انه قد انتقض ارتفاع نفقات الممثلية عند وصوله فى مارس ١٨٣١ (وكانت فى حدود ٤١٥٠ روبية فى الشهر) فانه عاد نفس العام فوافق على الكادر الجديد للمرتبات والمصروفات السياسية لبومباى مجلد ١٥ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣١/٨/٢٣ (رقم ٢٢ الادارة السياسية) و ١٨٣١/١٢/٣٠ رقم ٤١ الادارة السياسية .

(٢) سجل الرسائل السياسية لبومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٥/١٢/٨ (ورقم ٥٨ الادارة السياسية) .

من الاستيلاء على خرك سوف ترجح تكاليفها ولهذا فقد رفضوا الاقتراح(١) وقد رأى الاعضاء أن الأحوال المضطربة فى بغداد لم تكن تسمح فى تلك الظروف بالتفكير فى نقل مقر الممثلية من البصرة وانه عندما تعود الأحوال فيها الى وضعها الطبيعى فعندئذ يمكن التفكير فى دمج المقرين فى مقر واحد. وعلى هذا الأساس فقد تقرر أن تبقى المفوضية فى بوشـهر حيث هى ، غير أن اعضاء مجلس الادارة كانوا قلقين من احتمال وهو الاحتمال الذى تنبه اليه كل من مالكولم والسير جون مكدونالد أحد الوزراء المفوضين السابقين فى فارس ، أن يؤدى وجود ممثل بريطانى مستقل على الساحل الفارسى مع وجود مفوض لها فى طهران الى تداخل العلاقات مع السلطات الفارسية وعلى الأخص مع أمير فارس . وكحل لذلك اقترحوا تعيين الممثل فى بوشـهر مسـاعدا للمفوض فى طهران الأمر الذى يخضع المصالح البريطانية فى فارس والخليج لاشراف واحد وسيمنح المقيم قدرا من الصلاحيات فى الاشراف على الشئون الأخرى فى قضايا القرصنة التى فوض بالتصرف فيهـا دون الرجوع الى طهران غير أنه لم يخول سـلطة التخاطب المباشر مـع أمير فارس أو مع اى سلطة فارسية أخرى فى المسائل التى لا تتعلق بالقرصنة او سلامة الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم .

وفى التقرير الذى اعـده كلير لتقييم اقتراحات اعضـاء مجلس الادارة لخص موقفه فى الفقرة الأولى من التقرير الذى جاء فيها « أنه يبدو أن أعضاء مجلس اداراتكم قد وضعوا تقييما موضوعيا للمهام التى سـوف

---

(١) من التقارير السياسية الى بومباى مجلد ٤ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٤/٢/٢٦ (رقم ٤ الادارة السياسية) .

تضطلع المثليه بها فى بوشهر غير اننا نعتقد أن الاقتراح الخاص بتغيير وظيفة المقيم الى وظيفة مساعد مفوض للمفوض العام فى طهران يتعارض مع هـــذا التقييم (١) وعند استلام كلير رسالة اعضاء مجلس الادارة قام بتحويلها الى بلين المقيم المتقاعد لابداء الراى فيها غير أن بلين وجد فيها كثيرا من الصعوبات فى فهم الأسباب التى جعلت أعضاء مجلس الادارة يتصورون أن وجود ممثلية مستقلة فى بوشـــهر قد يؤدى الى تعقيد العـــلاقات البريطانية مع فارس ، وتساءل بلين عن الأســـباب التى تبرر تعيين المقيم البريطانى فى بوشـــهر مساعدا للوزير المفوض فى طهران فقد كانت طبيعة العمل فى الممثلية تختلف اختـــلافا كليا عن العمـــل الدبلوماسى للوزير المفوض فى طهران ، كما أن التعليمات الخاصة بعمل المقيم كانت تمنعه من التدخل بأى شكل من الأشكال فى سياسة الحكومة الفارسية. واضاف بلين بأنه من المشكوك فيه أن يستطيع مجرد موظف بدرجة مساعد وزير مفوض أن يقـــوم بالاشراف على الأمن فى منطقة الخليج بصورة مرضية لأن هذه المهمة تتطلب فى المقيم أن يكون لشاغرها الخبرة والرتبة والموهبة التى لا تتوفر فى الموظفين من ذوى الرتب الأصغر . ان المحافظة على الأمن فى منطقة الخليج يعتمد بدرجة كبيرة على توقيع العقوبات الفورية على المعتدين الأمر الذى يتعذر تحقيقه فيما لو تعين على المقيم أن يحيل الموضوع الى طهران . والمعروف أن ايفاد رسول لهذه المهمة يستغرق شهرا واحدا لقطع المسافة من بوشهر الى طهران وقد يستغرق وقتا اطول فى فصل الشتاء بينما فى امكان الطراد اذا غادر بومباى أن يصل الى بوشهر فيما بين ١٢ ، ١٥ يوما تقريبـــا ويعود فى خلال شهر وعلى عكس طهران فان بومباى

---

(١) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٨ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٥/٩/١٦ (رقم ٣٣ الادارة السياسية) .

هى المركز الذى تصـــدر منه الأوامر والتعليمات والمســاعدات الى منطقة الخليج أما الاعتراض الآخر الذى رآه بلين — وهو اعتراض له أهميته بالنظر الى مطالبة فارس بالبحرين والمحاولات اليائسة لأمير شيراز لاحتلالها — هو أن الوزير المفوض قد يعـــانى كثيرا من الحرج اذا عهد اليه بالاشراف على الحامية فى الخليج خصوصا وأن الاشراف على الحامية سوف يعهد به اليه فى الوقت الذى يقــوم بالاشراف على أعمـــال الممثلية فى الخليج . وقد اســتطاع الوزير حتى ذلك الوقت ارجاء النظر فى طلب الحكومة الفارسية الحصول على بعض السفن التابعة للأسطول الهندى بحجة انه لا سلطة له على طـرادات الشركة (١) وقد وافــق كلير على رأى بلين وقال « أنه من الأفضــل لنا بأن نعيد النظر فى الموقف الذى اتخـذناه فى الخليج حتى لا يتسبب فى الاضرار بكفاءة النظام المتبع حاليا ، وكان ذلك فى أغسطس ١٨٣٤ .

الى هذا الحد كان كلير يعارض اقتراح مجلس الادارة وكان مصمما على أنه فى حالة وضعه موضع التنفيذ أن يتقدم باقتراح بنقل مســئولية الاشراف على الخليج الفارسى الى حكومة الهنـــد التى كانت تشرف على المفوضيه فى طهران أيضا ولعدم تدخل حكومة بومباى بعد ذلك فى شــئون الممثلية فى بوشهر ، فاذا كان الهدف من اقتراح مجلس الادارة هو اخضاع الممثلية لسلطة المفوضية فى طهران من أجل التوفير فى النفقات فانهم سوف

---

(١) مجموعة المجلس مجـــلد ١٥٣٩ رقم ٦١١٦٥ من بلين الى كلير ١٨٣٤/٦/٤ وقد تم تغيير اســـم بحرية بومباى الى اسم (الأســـطول الهنـدى وذلك فى يوم ١٨٣٠/٥/١ تقديرا لدورة الشجاعة فى الميـــاه الشرقية لأكثر من مائتى عام .

يمنون بخيبة اذا تبين أن المبالغ التى يمكن توفيرها من هذا الاجراء لا يتجاوز ١٠٠ روبية فى العام .

ونتيجة للتغيير الذى طرأ على المسئوليات السياسية فى الخليج وفقا لأحكام القانون الصادر فى سنة ١٨٣٤ فقد أضيف عنصر جديد الى القضية. وعملا بالصلاحيات الواردة فى أحكام هذا القانون تولى بنتنك سلطة مباشرة على الممثلين فى بوشهر والبصرة بعد اقتناعه برأى كلير فاصدر تعليماته الى المقيمين البريطانيين بالتخاطب مباشرة مع حكومة الهند (١) وقد شجع قرار الحاكم العام فى أعقاب وصول مقترحات مجلس الادارة شجع كلير الى أن يصرح بأن شئون ممثلى البصرة وبوشهر لم تعد من اختصاص حكومته وأنه اعتبارا من ذلك اليوم سوف يحيل مراسلات المقيمين البريطانيين الى حكومة كلكتا ، ويحتفظ بنسخ منها لديه (٢) وعندما علم بنتنك بقرار كلير كتب يطمئنه على أن اشراف حكومة الهند على الشئون السياسية للممثلتين لا يعنى تجريد حكومة بومباى من صلاحيتها فى توجيه وتنفيذ السياسة البريطانية فى الخليج وسوف يستمر الحاكم فى بومباى فى تصريف الشئون المحلية البحته كمكافحة القرصنة وغيرها مما يراها فى المصلحة العامة فيما عدا المسائل التى تمس العلاقات السياسية بدول

---

(١) مجموعة المجلس مجلد ١٥٣٩ رقم ٦١١٦٥ من سكرتير الحاكم العام الى الحاكم فى بومباى وفورت وبليام ١٨٣٢/١١/٢٠ .

(٢) مجموعة المجلس مجلد ١٥٣٩ محضر كلير ١٨٣٤/١٢/٣١ .

الخليج عموما والتى يتعين عليه اطـــلاع الحكومة بشأنها (١) ولم يعترض السير روبرت جرانت الذى حل محل كلير فى منصب الحاكم العام فى شهر مارس ١٨٣٥ على هذا النظام ، وان كان قد أخطر المقيمين البريطانيين فى كل من بوشهر والبصرة بأنه على الرغم من أن قد يتلقون أحيانا التعليمات من حكومة بومباى الا انه يتعين عليهم بأن يبعثوا بطلباتهم الى حكومة الهند عن طريق بومباى (٢) ومن الواضح أن الوضع لم يكن ليبقى على ما كان عليه فعلى الرغم من عناد كلير وتردده فى العمل بمقتضى النظام الجديد فلم يكن ثمة أدنى شك فى أن الحق كان فى جانبه .

وفى أوائل شهر أبريل ١٨٣٥ عندما تقرر تعيين موظف ليخلف بلين فى منصب المقيم فى بوشهر عكف السير شارلس متكاف الحاكم العـــام على دراسة وضع الممثلية وادارتها من جديد ، وقد خرج من تلك الدراسة بأن النظام الذى أدخله بنتنك يمكن أن يستمر مالم يرفضه مجلس ادارة الشركة، وفى الوقت نفسه ، ولما كانت حكومة الهند لا تزال تمارس اشرافهـــا على ممثلية الخليج رأى متكاف بأن من حقه تعيين خلف لبلين وبالتالى وافق على اختيار ميجر جيمس موريسون من ادارة مدراس لهذا المنصب أما فيما

---

(١) المجموعة من دبليواتشه مكاناتم الى ال ٠ ارد ٠ ريد (سكرتير حكومة بومباى) وفورت ويليام ١٨٣٥/١/٢٨ ومرفقات الخطاب السياسى لحكومة بومباى رقم ٣٣ فى ١٨٣٥/٩/٢٦ ٠

(٢) المجموعة من تشيز نوريس (سكرتير الحكومة) الى المقيم بالوكالة فى بوشهر بومبـــاى ١٨٣٥/٣/٢٣ ومرفق الخطاب الســـياسى لحكومة بومباى رقم ٣٣ فى ١٨٣٥/٩/١٦ ٠

يتعلق بموضـــوع تحول المقيم الى مساعد وزير مفوض لطهران فقد وافق متكاف على رأى الأغلبية فى حكومة بومباى بأن الأجراء لم يكن سليما واقترح بأن تكون رتبة المقيم فى المرتبة الثانية بعد الوزير المفوض وذلك فيما يختص بشئون منطقة فارس أما الشئون المحلية التى تمس الخليج وقضية القرصنة فعلى المقيم أن يتخاطب ، كما كان الأمر سابقا ، مع حكومة بومباى مباشرة بسرط أن تحال المسائل ذات الأهمية الى حكومة الهند ، أما اذا طرات أمور تستوجب اجراء فوريا يستطيع المقيم وعلى مسئوليته الخاصـــة أن يتخذ الاجراءات الكفيلة للبت فيها دون الرجوع الى حكومة الهند (١) .

ولقد قطع مكتاف شوطا طويلا فى وضع التنظيمات الادارية الخاصة بممثلية الخليج ومسئولياتها غير أنه لم يتم وضع نظام فعال ومرن قبـــل النصف الأخير من عام ١٨٣٦ ففى مستهل ذلك العام انتقلت عملية الاشراف على المفوضيه البريطانية فى فارس الى وزارة الخارجية مما وضع نهـــاية للاقتراحات التى دعت الى تعديل منصب المقيم الى منصب مساعد للوزير المفوض فى طهران وعلى خلاف ذلك فقد وافق أعضـــاء مجلس الادارة على التنظيم الذى اقترحه مكتاف للاشراف على المقيم وكالمعتاد لم يكن يجوز للمقيم بموجب ذلك التنظيم أن يتخابر مع السلطات الفارسية مباشرة الا فى

---

(١) المحادثات السياسية لحكومة بومباى حلقة ٣٨٧ رقم ١٩ مجلد ٧٤ فى ١٨٣٥/٥/٢٠ ومقتطفات من محادثات الادارة السياسية للحـــاكم العام بتاريخ ١٨٣٥/٤/٦ كما عرض متكاف انه يمكن توفير نفس المبـــالغ فى نفقات الممثلية عن طريق الغاء منصب مساعد المقيم بعد ســـفر هانيل وتركه للوظيفة غير أن هذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ مما اضـــطر هانيل أن يستمر لفترة من الوقت فى عمله .

اطار المسائل الخاصة بالقرصنة أو بسلامة الرعايا البريطانيين فى اقليم فارس . اما اذا رأى المقيم نفسه مضطرا فى أى وقت من الأوقات الى التخاطب بشأن أى موضوع من الموضوعات فسوف يتعين عليه فى هذه الحالة الرجوع الى الوزير المفوض فى طهران والتقيد بتعليماته (١) وبعد قليل عادت حكومة الهند فأبدت استعدادها للعودة الى النظام المعمول به سابقا ، حيث كان لحكومة بومباى الاشراف المباشر على المصالح البريطانية فى الخليج وأن يكون لها الحق فى اختيار المقيم وفى تعيينه ، وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٦ أعيد العمل بالنظام القديم وقد أشار السير روبرت جرانت فى وقت ما من ذلك الشهر بقوله (يجب أن نعمل بأنفسنا لأنفسنا) فى جميع القضايا الهامة أو التى تتعلق بالأمور السياسية فيجب أولا ان نحيل المسائل الى حكومة الهند اذا كان الوقت يسمح بذلك ، أما اذا لم يكن الوقت يسمح فيتعين علينا أن ندرس وننفذ على مسئوليتنا الخاصة .

وربما كان لثورة بنى ياس فى سنة ١٨٣٥ ومبادرة السلطات المسئولة فى بومباى لقمعها — رغم أنه لم يرد ذكر مباشر لذلك فى المراسلات الخاصة بالمثلية والتى تم تبادلها بين بومباى وكلكتا فى سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٣٦ — تأثير كبير فى اقناع حكومة بومباى بصواب ابقاء ادارة شئون الخليج فى أيدى الذين كانوا مسئولين عنها فى السنوات السابقة .

---

(١) من التقارير السياسية المرسله الى بومباى مجلد ٥ من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٦/٦/١٨ (رقم ٣ الادارة السياسية) .

الفصل الســـابع

الطريق الى الهنـد
١٨٢٦ — ١٨٣٦

« يمكن اعتبار كل من تركيا وفارس منطقتين عازلتين بالنسبة للهند البريطانية ، وبالتالى فان وقوع أى من هذين البلدين فى أيدى دولة أوربية سوف يعرض الهند للخطر من حيث أنه سيجعلها منطقة مكشوفة أمام أى غزو تقوم به تلك الدولة للهند ، وانطـلاقا من هـــذا فان سياسة الحكومة البريطانية تقوم على دعـم وتأييد هاتين الدولتين وعلى خلق وتقوية دول اخرى يتحقق من جرائه نفس الغرض » (١٨٠٧) (١) .

جون مالكولم ١٨٠٧

بعد عام ١٨١٥ ، أخذت المصالح البريطانية فى فارس تتقلص بدرجة سريعة ، وذلك أن الأسباب التى أملت تلك العلاقة مع حكومة فارس قبـــل بضعة أعوام ، عندما كانت فرنسا تحتل مركزا هاما لدى حكومة الشـــاه ، وكان الروس يتوغلون داخل الأراضى الفارسية باقليم القوقاز ، هذه الأسباب قد تبخرت بعـــد هزيمة نابليون وتوقيع معاهدة جولســتان بين فارس ،

---

(١) متفرقات فى رسائل الحكومة البريطانية مجلد ٧٣٧ من مالكولم الى بى . امون ستون سكرتير الحاكم العام ميسور فى ١٨٠٧/٨/١٢ .

وروسيا عام ١٨١٣ • وبالرغم من أن روسيا كانت فى ذلك الوقت الدولة الكبرى التى يمكن أن ينطلق الخطر منها على الهند الا أن هـــذا الخطر قد تلاشى بعد ابرام معاهدة طهران لعام ١٨١٤ ، والتى ألزمت الشاه بالتصدى لأى جيش أوربى يحاول العبور من بلاده لغزو الهند • وفى مقابل هـــذا الشرط وعدت بريطانيا بتقديم مساعدتها الى الشاه فى حالة تعرض فارس للهجوم من أى دولة أوربية • وقد تحسنت علاقات بريطانيا بروسيا بعد عام ١٨١٥ ، وأصبح الرأى السائد فى الدوائر الهندية أن قيـــام الروس بمثل هذا الغزو لم يعد أمرا واردا فى تصوراتهم ، وحتى لو كان هـــذا الافتراض فرضا صحيحا فقد كان فى الامكان مواجهة ذلك الغـــزو عند نهر ستلج ، والواقع أن بريطانيا لم تكن ترغب فى انتهاج (سياسة المواجهة مبم • عن طريق مد حدود الهند البريطانية الى ما وراء نهر ستلج أى الى حدود الهند الطبيعية عند سلسلة الجبـــال التى تحيط بالهنـــد من الغرب (١) والشمال كما أنه لم تبذل جهود فعلية من جانب الحكومة البريطانية فى الهند لتدعيم الأحلاف الدفاعية مع الدول الواقعة فى منطقة شمال غرب نهر ستلج والتى كانت على حد رأى ويلسلى تمثل المنطقة العازلة بين الهند وجاراتها • وكانت فارس وهى أهم تلك الدول قد وصلت بسبب ســـياسة التواكل والاهمال الى حالة من اليأس والتذمر • وقد فشلت البعثات التى أوفدها الشاه الى انجلترا فى اقناعهم بالمصلحة المشتركة التى تربط بين الدولتين

---

(١) سياسة التهدئة والاكتفاء وهى السياسة التى أعلنتها حكومة الهند عام ١٨١٨ وهى سياسة تخدم مصالح الشركة وأهدافها فضـــلا عن كسبها للرأى العام بجانب تطبيق القوانين الدستورية وفقـــا لما تقضى به حكومة الهند •

فى مقاومة الأطماع الروسـية فى القوقاز وبحر قزوين . وفى عام ١٨٢٣ كشف قرار نقـل عملية الاشراف على المفوضية البريطانية فى طهران من الحكومة الى الشركة ، عن استخفاف بريطانيا لمصالحها فى فارس .

غير أن اندلاع الحرب أو بعبارة أدق استئنافها بين روسيا وفارس عام ١٨٢٦ لم يغير فى ذلك الموقف كثيرا . وقد توافق نشوب الحرب مع تولى جورج كاننج وزارة الخارجية البريطانية ، كما توافق مع وصول طلب الشاه للمساعدة من الحكومة البريطانية ، بموجب نصوص المعاهدة . وقد كان كاننج يسعى الى الوصول الى التفاهم مع الروس حول المسألة اليونانية ، ولم يكن يرغب أن يقضى على فرص النجاح فى مساعيه لتحقيق اسـتقلال اليونان ، وفى نفس الوقت أن يحول بين قيصر روسيا وتفتيت الامبراطورية العثمانية ، باضطرارها الدخول فى حرب ضد روسيا فى آسـيا . وقد توصل الى مخرج من هذه الورطة باعتبـار حكومة فارس هى المسئولة من الناحية التكنيكية عن بدء الحرب ضد الروس ، وقد أدلى بهـذا التصريح حتى لا تطالب فارس بالمعونة البريطانية . وبعد عامين من هـذا التاريخ حذفت الفقرة الخاصة بالمعونة فى معاهدة طهران بعـد أن تعهدت بريطانيا بتقديم دعم مالى الى حكومة فارس .

وقد كتب رولنسون فى هـذا الصدد يقول : لقد نزلنا عليهم نزول الصاعقة وبسرعة تمكنا من ابرام صفقة غير عادية ومريبة فى نفس الوقت ، لقد كان الفرس فى حالة يائسة تشـبه دانيا فى الأسـطورة الاغريقية (١)

---

(١) اسطورة اغريقية مفادها ان فتاة عذراء اسمها دانيا كانت مسجونة من قبل والدها اكلسيوس فى قبة من النحاس وكان والدها ملك ارجوس وقد عاشرها زيوس فى هيئة وابل من الذهب وأصبحت اما لبرسيوس .

على أن الصفقة التى فازت بها روسيا بموجب معاهدة تركمان شاى المعقودة فى شهر فبراير ١٨٢٨ والتى وضعت حدا للحرب بينها وبين فارس كانت ضربة قاسية على فارس ، فقد أرغمتهـــا على تأكيد تنازلها عن المنطقة التى اقتطعتها روسيا بموجب معاهدة جولستان بالاضافة الى التنازل عن أرض جديدة لروسيا ودفع تعويضات باهظة لها • وما كادت أخبار معاهدة تركمان شاى تصل الى لندن فى نهاية ابريل ١٨٢٨ حتى أعلنت روسيا الحرب على تركيـــا بسبب المشـكلة اليونانية واكتسحت الجيوش الروســية ولايات الدانوب • وقد بدأ فى اللحظة الأولى كما لو كانت روسيا على وشـــك أن تنقض على العالم الاسلامى فى أوروبا وآسيا(١) وقد أحيت هذه التطورات احتمال غزو أوروبى للهند ، كما أطلقت العنـــان لسلسلة من التحركات الســـياسية الناجحة فى الشرق من جانب المسئولين البريطانيين وانتهت بقيام بريطانيا بقصف منطقة النقب والهجوم على كابل فى أفغانستان . وكان طبيعيا أن يصاحب مخاوف البريطانيين من غزو على الهند تكهنات جـــول الطريق الذى سوف يسلكه مثل هذا الغزو • ولعل نظرية دى لاس ايفـــانز السى وردت فى مؤلفيه « الأطماع الروسية » الصادر عام ١٨٢٨ و «احتمالات غزو الهند البريطانية » الصــــادر ١٨٢٩ قد لقيت رواجا كبيرا فى كل من من انجلترا والهند فى أواخر العشرينات ومستهل الثلاثينات من القـــرن التاسع عشر • وعلى الرغم من أن ايفـــانز كان يشك فى قدرة الروس على

---

(١) « اللعبة الكبرى فى آسيا » ١٨٠٠ — ١٨٤٤ من محاضرة آتشه • دبليو • س • دافيز فى قاعة رالى عام ١٩٢٦ وقد اعيد طبعها فى محــاضر الأكاديمية عام ١٩٢٧ ص ٩ •

تسيير جيش الى منطقة بعيدة عنهم كالهند • فقـد كان يعتقد بأن هـذه المحاولة لو تمت فان الطريق المحتمل أن يسلكها الجيش هى طرق كيفا وبخارا ثم نهر الاندس • أما الاحتمال الثانى فهـو طريق فارس ، الحيرة فقندهار ولقد وجدت آراء ايفانز صـدى عند اللورد الينبورو الذى تولى رياسة مجلس الهند فى شهر سبتمبر ١٨٢٨ خلال وزارة ديوك اوف ولنجتون . ومنذ أن تولى الينبورو منصبه وهو يبدى معارضته للمحافظين من أمثـال كاننج الذين كانوا لا يمانعون فى اخضـاع المصـالح البريطانية فى آسـيا لسياستهم الأوروبية . وكان رأيه بأن دعاة سياسة أسـيوية لن يسكتوا لو قدر للروس أن يحتلوا الصين غير أن المنادين بسياسة أوروبية لن يتمكنوا من التحرك فيما لو دخل الروس كابل (١) اما الينبورو فلم يكن يخـامره الشك فى ان الروس واصلون فى النهاية الى كابل • فبعد قراءته لكتاب أيفانز الثانى كتب فى مذكراته يوم ٣٠ أكتوبر ١٨٢٩ يقول :

« حول موضوع غزو الهند فان هذه الفكرة ليست ممكنة فحسب بل وسهلة أيضا الا اذا عقدنا العزم على أن نتصرف كدولة اسيوية • ففى مقابل احتلال الروس لمنطقة كيفا يجب أن نحتل نحن لاهور أو كابل •• ان مواجهة العدو لن تكون على نهر الاندس فاذا لم نواجهه فى كابل وعلى سفوح جبال هندوكوش وفى ممراتها فالأفضل لنا ان نبقى فى ستلج • لأن الروس اذا نجحوا فى احتلال كابل فان وجودهم هنـاك يجعلهم امام الأندس ريثمـا

---

(١) «مذكرات سياسـية» ١٨٢٨ — ١٨٣٠ ادوارد لو البارون الثانى وارف الينبورو الأول تصنيف اللورد كولسنشتر مجلدان طبعة لندن ١٨٨١ فصل ص ١٢٢ — مذكرات يوم ١٨٢٩/١٠/٢٦ .

يتمكنون من تنظيم وحدات للعمل وراء خطوطنا واعادة تسليح قواتهم » (١) ·

وعلى اى حال فان الخطر المباشر كما تبين الينبورو انما يكمن فى الامتيازات التى حصلت عليها روسيا الآن بحكم معاهدة تركمان شاى . وكان السير جون مالكولم قد أشار عام ١٨٢٦ قبيل بدء الحرب الفارسية الى أن أى سيطرة روسية على حكومة طهران سيكون له تأثير سلبى على الحكم البريطانى فى الهند · وقد يكون الوقت لايزال بعيداً لشن هجوم خطير على ممتلكاتنا فى الهند ولكن هذه الممتلكات قد تتعرض لتهديدات وأخطار كثيرة لا وجود لها فى الوقت الحاضر ، مما سيضاعف من تكاليف وصعوبة السيطرة على هذه الممتلكات الى حد كبير ، وعلى حد رأى مالكولم فان القوة البحرية وحدها غير كافية لحماية الهند من الغزو ، ولا يمكن لأى دولة أن تجنى أى فائدة من الهند أو بالأحرى تحتفظ بها دون أن تكون لها السيادة على البحر ، غير أن هذه الاعتبارات قد لاتعوق روسيا اذا كانت فى حرب مع انجلترا ، من محاولة اضعافنا عن طريق الضغط علينا فى تلك البلاد · ان خط الدفاع عن الهند هو فارس . ولهذا فانه لزاما على انجلترا أن تحمى استقلال فارس من روسيا · وانه لمن الخطأ الجسيم أن نتصور بأننا لا نمتلك الوسائل لمساعدة فارس حتى تستطيع مقاومة الروس

---

(١) كان الينبورو متأثرا برأى السكرتير المساعد لمجلس الهند بنجامين جونز الذى كان ينادى منذ زمن بمد النفوذ البريطانى الى ما وراء الأندس : ان كابل وقندهار هما بوابتا هندوستان (راجع شركة الهند الشرقية ص ٤٦٨ فيليب) ١٣ من تقارير ومراسلات ومذكرات الفيلد مرشال آرثر ديوك اوف ولنجتون جمع نجله ديوك اوف ولنجوت ٨ مجلدات طبعة لندن ١٨٦٧ ــ ١٨٧٣ فصل ٣ من مالكولم الى ولنجتون ١٨٢٦/٢/١٦ ·

فنحن نسيطر بالكامل على الخليج ، وهو بالنسبة لنا كبحر قزوين بالنسبة للروس • ولدينا رصيد محلى من الثقة يفوق كثيرا الرصيد المالى •

على أن ولنجتون الذى وجه اليه مالكولم هذه الملاحظات عجز عن تحديد موقفه من حقيقة التهديد الروسى للهند• صحيح أن ولنجتون كان يكره روسيا وكان متفقا من حيث المبدأ مع وجهة نظر مالكولم (١) الا أنه لم يكن يحبذ النفقات المالية التى اقترحها مالكولم (٢) أما الينبورو فلم يكن يعانى من تلك العقدة. لقد كان الروس فى تقدمهم الى نقطة لا تبعد أكثر من ٣٠٠ ميل من الموصل حيث يلتقى نهر الفرات مع الخليج الفارسى ، مما أثار مخاوف ولنجتون من ألا يتوقف الزحف الروسى عند ذلك الحد، وازاء اعتراضات ولنجتون أرسل الينبورو تعليمات الى الحاكم العام فى شهر أغسطس ١٨٢٩ ليزود شاه فارس بـ ١٢,٠٠٠ بندقية وايفاد ضباط من الجيش البريطانى الى فارس على نفقة الحكومة البريطانية اذا أقتضى الامر لتدريب الجيش الفارسى • وفى الشهر التالى أعلن أنه لو حاول الروس الزحف نحو الخليج عن طريق العراق

---

(١) اننا مهمتون جدا بالحفاظ على استقلال فارس هذا ما ذكره مالكولم الكانتج فى يناير ١٨٢٧ ونحن ملتزمون بذلك من الناحية السياسية والمحافظة على الشرف « تقارير ومراسلات ولنجتون » فصل ٣ ص ٥٣٩ — ٥٤٠ •

(٢) انظر العلاقات البريطانية الفارسية « من ١٨١٥ — ١٨٤٠ » بقلم سى.جى.كورلى فى المجلة التاريخية لجامعة كمبريدج الجزء الثالث ص ٥٠ — ٥١ (١٩٢٩ — ١٩٣١) •

هسوف يحتل جزيرة خرك واغلاق الفرات فى وجههم (١) ٠

وعلى أى حال فان التكهنات فى غزو الروس للهند ، لم تكن هى السبب فى بحث المصالح استراتيجية البريطانية فى الخليج ، وفى أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ، وانما يعود ذلك الى تطور الملاحة البخارية ومحاولة استغلال تلك الوسائل لانشاء طريق للمواصلات يربط الهند بانجلترا ٠ وكان ثمة طريقان واضحان لانشاء تلك المواصلات ، الطريق البرى عبر مصر والطريق المباشر عبر روسيا والعراق والخليج وقد أستخدم الطريق الثانى كثيرا فى غضون القرن الثامن عشر لنقل البريد الى الهند ٠ فالمظاريف كانت ترسل بانتظام من لندن الى بيت اخوان سمتنر فى فينا ، ومن هناك كانت تجد طريقها الى القسطنطينية وحلب ودمشق والبصرة وأخيرا بومباى (٢) وخلال الاحتلال الفرنسى لمصر من ١٧٩٨ الى ١٨٠١ لم يستخدم طريق الصحراء

---

(١) جزء ٢ ص ٩٢ — ٩٣ مذكرة يوم ٣ سبتمبر ١٨٢٩ ٠ كان مالكولم أول من نادى بهذه الفكرة وقد تبناها فى شهر سبتمبر ١٨٢٨ أما فى الهند فلم يكن أحد يتوقع وصول الروس وفى شهر يوليو عام ١٨٢٨ كتبت احدى صحف بومباى تطمئن قراءها وتقول (ان الروس لم يصلوا بعد) وسوف ينقضى بعض الوقت حتى يضطر المواطنون الى تخزين موادهم الغذائية ومجوهراتهم عندما تكف ضفادع الليل من تشنيف أسماع السكان وتسمع صهيل خيول أبناء القوقاز وهم بالقرب من مضاجعهم (مقتبسة من كتاب « لمحات من بومباى القديمة والهند الغربية » ص ٥٨ طبعة لندن ١٩٠٠ تأليف جيمس دوجلاس) .

(٢) راجع شركة جون واعمالها « تأليف هولدن فرير طبعة كامبردج ١٩٤٨ ص ٣٤٢ وبحث بعنوان الطريق البرى الى الهند فى القرن السابع عشر والثامن عشر مجلة تاريخ الهند مجلد ٢٩ ١٩٥١ ص ١٢١ — ١٢٤ ٠

السورية الا بصفة نادرة (١) وعندما أثار ادخال الملاحة البخارية خلال العقد التالى من القرن احتمال نقل البريد بشكل أسرع بين انجلترا والهند تركز الاهتمام فى أول الأمر على طريق البحر الأحمر . وفى شهر مايو ١٨٢٢ اقترح كل من مونستورت الفنستون واللورد امهرست الحاكم العام للهند على مجلس ادارة الشركة أن تقسم الملاحة على جانبى برزخ السويس لكى تكون هناك خدمة بريدية شهرية الى بومباى . فاذا حال وقوع اضطرابات فى مصر من ارسال البريد بالطريق البرى فى أى وقت من الاوقات فيمكن ارساله عن طريق البصرة . أما رجال الشركة فلم يحبذوا المشروع وبالتالى لم يوافقوا على تخصيص الاعتمادات اللازمة لذلك المشروع (٢) .

عند تولى مالكولم منصب الحاكم فى بومباى خلفا لالفنستون تحمس لمشروع الملاحة البخارية الى حد كبير وبرغم أنه كان يفضل الطريق البحرى الا أنه لم يكن يفضل أهمية الطريق الثانى وعلى الأخص من الوجهة السياسية . وفى عام ١٨٢٩ أرسل مالكولم اثنين من خبراء المسح هما بو . وانز . واليوت للتأكد من صلاحية الخليج ، وان أمكن نهر الفرات للملاحة البخارية . وقد أكد بو . وانز فى تقريره حول هذا الموضوع أن الخليج صالح للملاحة فى جميع الأوقات ولا خطر حتى فى أسوأ الأحوال الجوية ، ولهذه الأسباب فقد فضل هذا الطريق على البحر الأحمر (٣) وكنتيجة لتقرير بو . وانز تم ايفاد

---

(١) الطرق البريطانية الى الهند . اتشه . ال هوسكنز طبعة لندن ١٩٢٨، ص ٢١ يونيه ١٩٤٧ .

(٢) هوسكنز ص ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) فارس والخليج مجلد ٤٦ آراء حول الخليج والبحر الأحمر وصلاحيتها للملاحة البخارية بغداد فى ١٨٣٠/٦/١٧ .

اللفتنانت هنرى اورمسبى من الاسطول الهندى فى أواخر العام للقيام بمسح لموانىء الساحل السورى ، وفى نفس الوقت توجه فريق صغير برياسة جيمس تايلور ، شقيق المقيم البريطانى فى بغداد من بومباى بتشجيع من مالكولم لتعزيز محاولات بو·بونزا وأورمسبى لمسح طريق الفرات . وبعد بضعة أشهر لقى تايلور ورفاقه ومن بينهم بوانز مصرعهم على يد بعض قطاع الطرق العرب . وفى شهر أبريل ١٨٣١ خرج اليوت الذى بقى من أفراد البعثة للتوجه الى سوريا لمسح طريق الساحل السورى واصطحب معه اور·مسبى . وقد وصل الاثنان بيروت فى شهر يونيو بعد عبور الصحراء الكبرى من منطقة حتى على نهر الفرات الى دمشق ، وهو طريق لم يكن يستعمل كثيرا . وفى بيروت تسلم اورمسبى التعليمات التى أرسلت اليه أثناء رحلته ، وتطلب منه استكمال عمليات المسح للموانىء السورية بدءا من بيروت حتى الاسكندرونة وأن يسافر بعد انتهاء مهمته عن طريق حلب الى بيروت على نهر الفرات ثم الى الحلة وخلال ذلك عليه أن يفحص بدقة صلاحية المنطقة للملاحة البخارية (١) ولقد تمكن اورمسبى من استكمال الجزء الأول من مهمته ، غير أن عداء السكان العرب فى الفرات الاعلى حال بينه وبين اتمام العمل الذى أوفد من أجله (٢) .

فى الوقت الذى كانت حكومة بومباى تبذل جهودها للتأكد من القيمة العملية للطريق المباشر كانت الحكومة فى انجلترا قد بدأت تعى الأهمية السياسية والاستراتيجية للمشروع . وهذا الادراك لأهمية المشروع يعود

---

(١) مختارات المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد (١) ملخص من خطاب موجه من القنصل البريطانى فى بيروت ١٨٣٠/٦/١٨ .

فى المقام الأول الى جهود توماس اوف بيكوك ، المكلف بفحص بريد شركة الهند الشرقية والذى اشتهر أخيرا بمواهبه كشاعر روائى . ففى أواخر عام ١٨٢٩ سلم بيكوك الى الينبورو مذكرة مطولة تتناول موضوع الملاحة البخارية ، زعم فيه بأن تطوير الطريق المباشر قضية حيوية بالنسبة للمصالح السياسية فى الشرق (١) وقد أبديت بعض الاعتراضات على قيام السلطات البريطانية بعمليات مسح للطريق المباشر كى لايؤدى ذلك الى استفزاز الروس ودفعهم الى الاهتمام بالعراق على حساب الوجود البريطانى فى الهند « ان الروس يتقنون معرفة الجغرافيا كما يعرفون المزايا النسبية للطرق الى الهند معرفة تامة حتى أنهم لا يحتاجون الى من يعلمهم ذلك وعلى اى حال فان طريق كيفاه على حد رأى بيكوك أكثر اغراء للروس فيما لو فكروا فى الوصــــول الى الهند فما الذى يجعلهم يتآمرون بالزحف عبر الخليج الفارسى ومواجهة التفوق البحرى البريطانى هناك ، وقد ارتأى بيكوك بأن ذلك الاحتمال لا يمكن تجاهله بأى حال ، كما لا يمكن تجاهل التسهيلات المتاحة للروس فى العراق . اما المعدات العسكرية والبحرية فيمكن نقلها بسهولة من الموانى الجنوبية الشرقية للبحر الأسود الى تلك المواقع التى يلتقى فيهــــا نهر دجله والفرات ومن ثم يمكن تعويمها من هناك فى صنادل يمكن بناؤها بأعداد كبيرة من الأخشـــاب

---

(١) كان النيبورو معجبا جدا بالمذكرة التى ارســلها بيكوك لدرجة انه بعث بنسخة منها الى ولنجتون فى ديسمبر ١٨٢٩ ثم اعيد طبع تلك المذكرة كملحق « لتقرير اللجنة المنتخبه للنظر فى الملاحظة البخارية للهند عام ١٨٣٤ وتختلف الصيغتان احداهما عن الأخرى ولكنه اختلاف طفيف والاشـــارة هنا هى للنسخة التى أرسلت لولنجتن وتم نشرها فى تقارير ومراسلات ولنجتون الجزء السادس — ص ٣٣٠ — ٣٤٣ .

التى تنمو فى جبال أرمينيا . فاذا قرر الروس الاستيلاء عليهـــا فان كل المنطقة الممتدة من البحر الأسود الى الخليج الفارسى ستكون تحت سيطرتهم، ولهذا فاذا نحن سبقناهم فى الاستيلاء عليهـــا فانها سوف تكون لنـــا . أما الموانى فيمكن انشـــاؤها فى بغداد والبصرة وفى المنـــاطق الساحلية من البلاد وكذلك يمكن بناء سفن من مختلف الأحجام ، واذا نشبت حرب بيننا وبين الروس وافترضنا أن الروس قد قاموا فعلا بغزو الهند فلابد فى هـــذه الحالة من الاحتفاظ بأسطول قوى فى الخليج كما يتعين علينـــا أن نبحث الوسائل والامكانيات التى تمكننا من منع ذلك الغـــزو من تحقيق أهدافه . وربما كان احتلال الروس لبغداد والبصرة هو الخطوات التمهيدية للهجـــوم على الهند . وعلى أساس هذا الافتراض فانه يتعين علينا أن نحتل أى منطقة تقع بالقرب أو عند مدخل الفرات ... كذلك فان اهتمامنا بالملاحة فى نهـــر الفرات سوف يكون ذريعة لنا لمقاومة أى تيارات قادمة .

وكتأييد لهذا الرأى أشار بيكوك الى رسالة الكولونيل مكدونالد كينبر الذى سبق له أن عبر نهر دجله على أحد الصنادل قبل ذلك ببضع سنوات (١) وقد أبدى كينبر فى تلك الرسالة مخاوفه من أن يفطن الروس قبل وقت طويل الى أهمية دجله لنقل المؤن والجنود اذا ما فكروا فى تحدى النفوذ البريطانى فى الهنـــد « أما نهر دجلة فانه يصلح لســـير القـــوارب الكبيرة من منطقة دياربكر ، كما أن القلعة الموجودة فى هذه المنطقة قد أنشئت من الأحجـــار البركانية وتصلح كقاعدة عسكرية . غير أن منطقة الجزيرة هى الأفضـــل لأن النهر هناك واسع جدا والمسافة من أرض روم ليست بعيدة عنها . ويتعاطى

---

(١) لم يحدد بيكوك بالاسم صاحب الرسالة ، وان كان قد تبين فيمـــا بعد من الملاحظات التى دونها بان كينبر هو صاحب تلك الرسالة .

السكان في تلك المنطقة بناء الصنادل التى يصنعونها من الجلود والأخشاب وفى امكان هـــذه الصنادل أن تبحر بشحنات كبيرة فوق المناطق الضحلة للنهر ، أما أنا فقد قطعت هذا النهر من الموصل الى بغداد بمعدل ثلاثة أميال فى الســـــاعة وكانت حمولة الصندل الذى انتقلت به بما فى ذلك الأمتعة والركاب ثلاثين طنا وقد بنى هذا الصندل فى أقل من ١٢ ساعة .

على الرغم من أن الينبورو كان يرى أن طريق البحر الأحمر عمليا أكثر بالنسبة للملاحة (١) البخارية الا أنه قد اقتنع بوجهة نظر بيكو لكى يصدر تعليماته الى الحاكم العام فى شهر مارس ١٨٣٠ بأن يضغط على انهاء عملية المسح للطريقين (٢) البرى والمباشر . وفى نفس الوقت بعث وزير الخارجية البريطانية اللورد ابردين قائمـــة بمجموعة من الأسئلة أعدها بيكوك حـــول صلاحية الطريقين الى القنصل البريطانى العام ووكيل شركة الهند الشرقية فى مصر ارنست باركر وطلب منه أن يحصل على اجابة الأســـئلة ، وبطريق الصدفة كان باركر قد تلقى فى اللحظة نفسها التى تلقى باركر رسالة وزير الخارجية حضر لزيارته فى الاسكندرية الكابتن اف . ار . شيزنى الذى كان قد وصل لتوه من القسطنطينية وكان شيزنى هذا من أشد المتحمسين لاختيار

---

(١) انظر مذكراته الســـياسية الجزء الثـــانى ص ٧٧ مذكرة يوم ١٨٢٩/٧/٢٨ (*)

(٢) مسودات المجلس من تقارير ومختارات الى الهند مجلد ٧ مسودة الحاكم العــــام ١٨٣٠/٣/١٤ وكان شارلى جرانت الذى خلف الينبورو فى رياسة مجلس الهند قد أصدر تعليمات مماثلة الى حاكم بومباى وذلك فى شهر يونيو ١٨٣١ (نفس الحلقات مجـــلد ٨ مسودة الى الحاكم بومبـــاى ١٨٣١/٦/١٨) (*)

الخط المباشر ، وكان قبل وصوله قد تطوع للعمل فى القوات التركية فى حربها مع روسيا عام ١٨٢٩ ولكنه عند وصوله الى القسطنطينية وجد أن الحرب على وشك الانتهاء ولأنه كان مترددا فى العودة الى انجلترا بتلك السرعة بعد وصوله الى تركيا فقد وافق على القيام بالمهمة التى كلفه بها السير روبرت جوردون السفير البريطانى لدى الباب العالى ، وذلك للتعرف على الاقاليم التركية فى آسيا وبنوع أخص على امكانيات مصر . وعند وصوله الاسكندرية فى مايو ١٨٣٠ حيث علم بأن باركر قد كلف بمعاينة الطرق الى الهند تطوع شيزنى بأن يقوم بتلك المهمة بدلا منه وقد قبل باركر تطوع شيزنى وبدأ شيزنى أول رحلاته الكبرى عبر الطرق الدولية الى الهند (١) .

وقد قام شيزنى أولا بمسح برزخ السويس واقتنع بأن طريق مصر والبحر الأحمر لها مزايا عديدة وأخيرا تنبأ بأن كل النظريات عن طريق السويس سوف تؤدى الى تحقيق تلك « الأمنية الكبرى » عن شق قناة عبر البرزخ (٢) من مصر توجه شيزنى الى سوريا لمحاولة الوصول الى الفرات للتأكد من صلاحيته للسفن البخارية وفى يوم عيد الميلاد عام ١٨٣٠ شاهدت عيناه لأول مرة النهر العظيم وفى اليوم الثانى من يناير ١٨٣١ بدأ جولته فى

---

(١) حياة الجنرال اف . ار . شيزنى بقلم زوجته وكريمته اعداد اس . لين بول طبعة لندن ١٨٨٥ ص ١٦٧ — ٢٠٨ انظر كذلك بعثة مسح نهرى الفرات ودجله بقلم اف . ار . شيزنى .

(٢) مسودات المجلس تقارير ومختارات الى الهند مجلد ٨ مسودة للحاكم العام ١٨٣١/٣/١٤ (رقم ٢٢٩) ومرفق به صورة من خطاب شيزنى لجوردون يافا ١٨٣٠/٩/٢ .

النهر من قرية اناح ، وقد استغرقت جولته أربعة شهور بكاملها وكاد يقطع مهمته عندما علم من تايلور فى بغداد عن وصول كل من اور . مسبى واليوت، ولحسن الحظ أن اور. مسبى واليوت لم ينزلا الى الفرات ولذلك استطاع تايلور أن يقنع شيزنى بالاستمرار فى عمله حتى وصل فى النهاية الى البصرة . وبعد أن بعث تايلور بتقريره الى جوردون رحل عائدا الى القسطنطينية عن طريق فارس وكردستان وشمال سوريا حيث قام بمعاينة المشارف العليا لنهر الفرات . وقد وصل تايلور الى العاصمة التركية فى فى ابريل ١٨٣٢ ، وهناك التقى بالسير ستافورد كاننج الذى كان موفدا فى مهمة خاصة . وقد أبدى كاننج اهتماما بالغا بالمنطويات السياسية لمهمة تايلور . وبعد عودة شيزنى الى انجلترا فى شهر سبتمبر ١٨٣٢ وقدم تقريره عن عمليات المسح الى مجلس الهند ، وبعث بصورة منه الى كاننج . أما كاننج الذى كان وقتها فى باريس فقد أرسلها مع مذكرته الشهيرة المؤرخة ١٨٢٣/١٢/١٩ حول وضع الامبراطورية العثمانية الى الفايكونت بالميرستون من وزارة الخارجية البريطانية (١) .

ان الآراء التى تضمنتها مذكرات شيزنى كانت تؤيد الطريق المباشر تأييدا شاملا . وقد أقر شيزنى بالأفضلية المطلقة للطريق البرى لاعتبارات تكتيكية ، غير أن الاعتبارات السياسية فى نظره كانت ترجح الطريق المباشر، اى احتمال لأن يؤدى استعمال هذا الطريق الى نشر الحضارة بين العرب وتعزيز فرص التجارة وتدعيم موقف الباشا فى العراق عن طريق تشجيع

---

(١) حياة شيزنى ص ٢٢٣ — ٢٥٣ تأليف لين بول وأما بالنسبة لمذكرة كاننج فيمكن الرجوع الى ص ٢٧٢ من الكتاب .

السكان والباشا على الدفاع عن دجلة والفرات لأنهما بوضعهما الحالى يمثلان هدفا سهلا لأى غزو من الشمال (١) .

فبالاضافة الى المزايا التجارية والدفاعية ضد أى غزو محتمل ، فان خط الفرات على حد تعبير شيزنى سوف يوسع من الاتصالات بفارس سواء من فارس أو من انجلترا عن طريق انشاء خط المواصلات أما من طهران أو تبريز الى الفالوجه أو مقدم (٢) وكلا الخطين على أساس المستعجل حيث يتم نقل الرسائل خلال سبعة أيام وهكذا فبدلا من أن تتخلف الرسائل وتسلم فى الفالوجة ، فانها سوف تصل الى البعثة فى بومباى خلال ٢٠ أو ٢٢ يوما ، ثم تسلم الى الرئاسة فى ١٧ يوما ، كما تنقل من فارس الى فلموث خلال ٣٤ يوما وفى العودة خلال ٣٢ يوما (٣) .

ولعل نقطة الضعف الكبرى بالنسبة لطريق الفرات كما اعترف شيزنى هى غارات القبائل العربية غير أنه كان واثقا من الاحتكام التدريجى بالأوربيين سيحمل القبائل الى التصرف بأسلوب أكثر حضارة ومدنية ، ان هذا ليس هو الوقت لمناقشة ما هو فى مقدورنا أن نقوم به ، وأن نحققه بغير تكاليف ، وذلك باتباع الخطط القانونية لدعم نفوذ الباشا فى بلاد ما بين النهرين ، وأن نشجع الوالى على تنظيم وسائل الدفاع عن البلاد على نطاق واسع ، وعلى الأخص المداخل الحصينة للنهرين ، اللذين نستطيع نحن

---

(١) مجموعة التقارير حول الملاحة فى الفرات اعداد أف . أر . شيزنى ١٨٣١ — ١٨٣٣ .

(٢) كلتا المنطقتين تقع على نهر الفرات بالقرب من بغداد .

(٣) تقارير شيزنى .

تعزيزها ودعمهـــا عند الضرورة ، وذلك بارســـال الجيوش الجرارة الى مداخلها ، وبالتالى فينبغى أن نلاحظ أنه اذا كانت المواصلات البخـارية عن طريق البلاد العربية سوف تدعم من نفوذها فى تلك البلاد فان ذلك يشجعنا ويقوى من عزيمتنا لمواجهة مصاعب طريق الفرات وبالتالى نفضل طريق مصر والباهظ للتكاليف فى نفس الوقت ، أما الى أى حد كانت تلك الآراء هى آراء شيزنى وحده والى اى حد كانت آراء غيره فى الموضوع ، فمن الصعب أن نحدد ذلك فلقد تم اطلاع باركر بآراء شيزنى عن طريق قائمة الاستفسارات النى سلمها اليه باركر فى الاسكندرية كما أنه أعجب جدا بشخصية بيكوك عندما التقى به فيما بعد فى وزارة شئون الهند (١) كما ان جى ٠ دبليو ٠ فارين الذى كان قد عين قنصلا عاما فى سوريا فى بداية عام ١٨٣١ والذى التقى به شيزنى كثيرا فى تنقلاته ، كان من أشد المتحمسين لافتتـاح طريق الفرات ٠ وعندما كتب فارين الى شارلس جرانت رئيس مجلس الهند فى شهر يناير ١٨٣١ يطلب تعيينه وكيـــلا لشركة الهنـد الشرقية فى سوريا حاول اقناع الأخير أن تطوير طريق البحر الأحمر لن يخدم مصالح الشركة «ان الاقطار الواقعة حواليه أقطار متخلفة وغير منتجة ، ولا ترحب بوجود مثل هذه المشروعات فى مناطقها وعلى العموم فان الطريق الى الهند الذى لا تعتبره الشركة مشروعا سياسيا وتجاريا مرتبط بهذه الاجراء ٠٠ (٢) كما صح

---

(١) (لقد اكتشفت انه كان عميق الاطلاع بالتاريخ القديم للفرات) هذا ما سجله شيزنى فى مذكراته يوم ١٨٣٣/١/١ وانه كان أول من دفع بهذا المشروع الى حيز الوجود ٠٠ لين بول ص ٢٦١ ».

(٢) مسودات المجلس ومختارات وتقارير للهند مجلد ٨ . مسودة الى الحاكم العام ١٨٣١/٣/١٤ (رقم ٢٢٩) ومرفق نسخة من خطاب فارين الى جرانت ١٨٣١/١/٢٦ ٠٠

فارين بأنه بالمقارنة الى الخط الثانى فان الخط الأول لن يتم الا بتطوير الملاحة البخارية عن طريق سوريا والعراق »

« ستقوم شركة الهند الشرقية بالتوجيه والاشراف على الخط الأول من أوربا الى آسيا الغربية ومع المناطق الواقعة على هذا الطريق التى يتطلب بحث موضوعها ، وكذلك فان الأمر البالغ الأهمية للشركة هو أنها ستعالج الموضوعات الخاصة التى تتصل بجميع علاقاتنا ومصالحنا مع فارس وما يتصل منها بمراسلات الحكومة الهندية معها ومع مجلس الادارة وكذلك مع كل من تبريز وطهران وبغداد واصفهان والبصرة وبوشهر » (١) •

وقد دعا شيزنى الى نفس الرأى ولكنه ربما كان مستقلا فى رأيه هذا، وقد كون آراءه هذه عن مزايا طريق الفرات فى وقت مبكر ، كما عاد فأدخل تعديلات عليها • وفى أواخر عام ١٨٣١ كتب الكابتن جى • ان • او • كمبل القائم بالأعمال البريطانى فى فارس الى اللجنة السرية بعد زيارة شيزنى له فى تبريز ومما جاء فى رسالته (من الفوائد الكثيرة التى قد تنجم عن قيام اتصالات عادية مع السكان العرب فى هذه المنطقة هى احتمال تحقيق نفوذ سياسى قد يكون بمثابة توازن ضد أى أطماع تبيتها روسيا تجاه العراق •

وصل تقرير شيزنى الى مجلس الهند فى وقت كان أعضاء المجلس يساورهم قلق شديد حول تدهور النفوذ البريطانى فى الأقطار الواقعة بين منطقة البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين والحدود الشمالية الغربية

---

(١) نفس المصدر •

(٢) فارس والخليج مجلد ٤٦ من كامبل اللجنة السرية ١٨٣١/١٢/٢٢ •

للهند البريطانية ، وبناء على ايعـــاز من جرانت قدمت مذكرات عديدة الى المجلس خلال عام ١٨٣٢ وفى الشـــهور الأولى من عام ١٨٣٣ وقد جاءت تلك المذكرات من السياسيين البريطانيين الذين يعملون فى تلك الأقطار ومن بينهم السير هنرى ويلوك والسير جور أوزلى والمستر (السير فيما بعد) هنرى اليس وكافة الوزراء المفوضين والقائمين بالأعمـــال فى طهـــران والكابتن (السير فيما بعد) جون كامبل مساعد المشرف على المفوضية البريطانية فى فارس ، والميجور دافيد ويلسون المقيم السياسى البريطانى فى الخليج أخيرا والميجور روبرت تايلور المقيم فى بغداد (١) وأن جميع هؤلاء السياسيين بدون اســـتثناء أكدوا على أن الخطر الكامن على النفوذ البريطانى فى الهند هو ازاء التوسع الروسى فى آسيا وبنوع خاص فى فارس وذلك منذ الحملة على كينيفا عام ١٨٢٠ وقد نبه كل من أوزلى واليس وكامبل الى أن أى توسع جديد يأتى من جانب الروس لابد من التصدى له عن طريق تطبيق السياسة التى رسمها الينبورو تجاه فارس بعد معاهدة تركمان شاى ، أى تقـــديم الأموال والأسلحة والضباط الذين يحتاج اليهم جيش فارس حتى يصل الى مستوى يمكنه من مقاومة الروس (٢) . أما أليس فقد كان يرغب بالاضافة الى هذه الاجراءات أعادة البنود الملغاة الى المعاهدة المذكورة ، أما ويلوك فقد

---

(١) انظر فارس والخليج مجلد ٤٨ (والمذكرة المتعلقة بفـــارس التى أعدها فى الدرجة الأولى المستر اليس وذلك بشأن اتخاذ بعض الاجراءات الحاسمة فيما يتعلق بالمعاهدة مع تلك الدولة كنتيجة لالغاء البند الثـــالث والرابع من معاهدة طهران الموقعة فى نوفمبر عام ١٨١٤) .

(٢) مذكرة ويزلى ومذكرات اليس ٤/٢١ ، ١٨٣٢/٦/١٤ أما الاطلاع على رأى كامبـــل فيمكن الرجوع الى تقـــريره رقم ٣٨ (السرى) المؤرخ ١٨٣٢/٩/٤ وقد جاء فى المجلد ٤٧ من نفس الحلقة .

كان يرى من ناحية أخرى أن الخطر الحقيقى لا يكمن فى الضغط الروسى على فارس ، بقدر ما يكمن فى أطماع الروس الى استعمار المنطقة الواقعة شرق بحر قزوين (ذلك أن احتلال تلك المنطقة يحرم فارس فورا من التمكن من صد التوسع الروسى صوب الهند ويتعين علينا ألا نعلق أهمية كبرى على تحالفنا مع الشاه وأن نبحث عن ايجاد سبل لاثارة أفغانستان وحكامها لانشاء خط دفاعى ضد الخطر الروسى (١) وعلى أى حال فقد كان الراى الأرجح هو الذى ينادى بدعم فارس ، وتأسيسا على ذلك فقد اضطر الملك وليم الرابع نفسه بأن يتدخل فى المحادثات فى شهر يونيه ١٨٣٠ حيث صرح جلالته .. (اننى من المؤيدين بشكل قاطع بتعزيز الاتصالات مع فارس والحفاظ على الاسلوب الودى كوسيلة لتقوية وتعزيز نفوذنا هناك ولاحباط محاولات روسيا لفرض نفوذها على فارس (٢) وكان تايلور هو الوحيد من بين الذين أعدوا المذكرة فى بغداد الذى نبه الى الأوضاع المهتزة للامبراطورية العثمانية فى آسيا وضعف وسائل الدفاع فى كل من العراق والخليج الفارسى .

وكان جرانت وغيره من أعضاء المجلس واثقين من أن الزحف الروسى الى الهند لو قدر له أن يتبلور فانه سيأتى عن طريق فارس وليس عن طريق العراق والخليج ، وبالتالى فان الامبراطورية العثمانية على أى حال هى موضع اهتمام وزارة الخارجية البريطانية وليس مجلس الهند ، وفضلا عن ذلك فان زملاء تايلور كانوا يعتقدون انه ليس جديرا بالحكم على تطورات الأحداث ، فمنذ اندلاع الحرب الروسية التركية ظل يوجه تحذيراته الى

---

(١) مذكرة ويلوك ١٨٣٢/٣/٦ .

(٢) مذكرة الملك وليم الرابع قصر وندسور ١٨٣٢/٧/١٦ .

الحكومة الهندية عن هجوم روسى وشيك الوقوع على العراق يتبعه زحف القوات الروسية الى الهند عن طريق البصرة وبوشهر ، وانه فى عام ١٨٣٠ وضع تايلور رؤساءه فى موقف حرج جدا بتأييده داود باشا آخر حكام المماليك فى العراق والذى كان السلطان التركى قد أمر بخلعه (١) من منصبه وكان تايلور فى ذلك الوقت يعتقد بقرب انهيار الامبراطورية العثمانية بسبب الانحلال الداخلى الذى كان يسرى فيها، وبأن روسيا التى كانت تراقب الموقف سوف تتحرك لتتمركز على حدود الهند، ولاحباط هذه الخطة دعا تايلور الى اقامة دولة مستقلة فى العراق تحت حكم داود باشا تعمل كمنطقة عازلة بين روسيا والخليج (٢) غير أن خطة تايلور لم تكتسب تأييدا فى الهند ولا فى انجلترا وقيل له بأن العراق جزء لايتجزأ من الامبراطورية العثمانية وأن السياسة البريطانية تسعى الى الاحتفاظ بالامبراطورية ، كما أبلغ تايلور بألا يحاول أن يزج نفسه فى مسائل هى من إختصاص السفير البريطانى فى تركيا (٣). أما النقاط التى كان مجلس الهند على استعداد للموافقة

---

(١) انظر سجل الرسائل السرية لبومباى مجلد ٦ من الحاكم الى اللجنة السرية فى ١٨٣١/١٠/١٧ — (رقم ٤ الادارة السرية) .

(٢) كان مالكولم قد تقدم بخطة مماثلة فى عام ١٨٠٧ ..

(٣) مسودات المجلس ، التقارير السرية للهند مجلد ٨ مسودة الى الحاكم بومباى ١٨٣١/٧/١ (رقم ٢٣٧) .. (وقد علق اليس فى خطاب له الى جرانت بعد اطلاعه على بعض التقارير التى كان يبعث بها تايلور أن شيئا فى جو بغداد والبصرة يكسب جميع ممثلى الشركة هناك عقلية دبلوماسية (فارس والخليج) مجلد ٤٨ من اليس الى جرانت بولون ١٨٣٣/٩/٢).

على مقترحات تايلور فهى اقتراحه ايفاد ضباط بريطانيين للعراق للقيام بتدريب جنود الباشا، وبالفعل أرسلت تعليمات بهذا الشأن الى الهند فى شهر يوليو ١٨٣٢ غير أن ظهور وباء الطاعون فى العراق حال دون سفر الضباط من الهند (١) ومهما كان تصور جرانت وزملائه لكفاءة تايلور وبعد نظره فقد كانت الامبراطورية العثمانية عام ١٨٣٢ أقرب الى الانهيـــار والتمزق من حكومة فارس • أما النقطة التى أساء تايلور تقديرها فيما يتعلق بهذا الموضوع فهى اعتقاده بأن تكون روسيا هى السبب فى انهيار الحكومة التركية ، وفى الواقع فقد كانت سياسة روسيا تجاه تركيا بعد ابرام معاهدة أدريان بـول سياسة تتسم بالحذر • وكان القيصر نيكولاس الأول يعتقد بأن ســـقوط الامبراطورية العثمانية لن يكون فى صالح روسيا ، فان حدث هذا فقد تضم النمسا أقاليم بوسينا، وألبانيا، وهنتجزو كما قد تستولى على مصر وتستولى بريطانيا على جزيرتى بخر ايجة وكريت ، وقد تصبح القسطنطينية ميناء حرا ويصبح البحر الأســـود مفتوحا أمام السفن البريطانية والفرنسية • والنتيجة من كل ذلك أن تصبح روسيا محاطة بثلاث دول قوية بدلا من دولة واحدة ضعيفة ، وبالتالى فان تمركز النفوذ العثمانى فى آسيا يهدد روســـيا فى منطقة القوقاز • وهكذا فمنذ عقدت معاهدة ادريان بول التزم الروس بسياسة الحذر متحاشين أي خطوة قد تعجل بانهيار النفوذ العثمانى وبأنه ما كانت تامل روسيا فى الحصول عليه من تركيا سوف يتحقق لها بالتدريج بدلا من أن تسعى للحصول عليه بالقوة •

---

(١) فارس والخليج مجلد ٥٠ مذكرة حول الســـياسة البريطانية فى تركيا العربية اعداد وليم كامبل (رئيس كتاب مجلس الهند) ١٨٣٤/٦/٢ انجلترا والشرق الادنى تأليف اتشه دبليو فيه تمبل لندن ١٩٣٦ ص٥٧ — ٥٨ •

وعليه فان التهديد الذى كانت تتعرض له الامبراطورية العثمـانية لم يكن ينطلق من الشمال ، وانما كان ينطلق من الجنوب من جانب محمد على باشا فى مصر ، فلقد كانت عيون الوالى مصوبة بشراهة على سوريا منـــذ وقت طويل وكان يعتقد فى البداية أنه سوف يحصل على سوريا كمكافأة للقضاء على الوهابيين . وعندما خاب هذا الأمل تصور محمد على بأنه سوف يحقق ما كان يسعى اليه عن طريق قمع التمرد اليونانى فى موريا الذى وقع بين عام ١٨٢٥ ــ ١٨٢٧ ، ومرة أخرى خاب أمله ، ولهـذا فقد عقد العزم فى خريف عام ١٨٣١ أن يحقق بالقوة ما عجز عن تحقيقه بالوسائل السلمية. وفى أكتوبر ١٨٣١ امر نجله ابراهيم باشا بأن يزحف على الحـدود الفلسـطينية ويستولى على النقب بعد أن لفق زعما بأن اهانة قد وجهت اليه من والى دمشق . وقد أبلغ محمد على باشا الباب العالى بأنه على استعداد لسحب قواته من سوريا فى مقابل تعيين نجله ابراهيم باشا واليا على دمشق والنقب . غير أن السلطان محمود الثانى اعتبر ابراهيم باشا شخصا متمردا ، وقام بارسال جيش الى سوريا لقمع قوات ابراهيم باشا . غير أن النقب سقطت فى يد ابراهيم باشا فى شهر مايو ١٨٣٢ ، ثم بعد شهرين أصيبت القوات التركية فى حمص وحلب بهزيمة ساحقة ، كما أصيب الجيش الآخر الذى أرسله السلطان محمود بهزيمة مماثلة ، وذلك فى معركة كينه فى يوم ٢١ ديسمبر وهكذا اصبحت سوريا كلها خاضعة لابراهيم باشا ، بينما أخـذت بعض عناصر من جيشه تتقدم نحو الأناضول الغربى حتى وصلت فى تقدمها منطقة برصه .

فى بداية نوفمبر وجه محمود الثانى نداء الى كل من بريطانيا وفرنسا المطالبة بمساعدة بحرية لمواجهة محمد على باشا ، غير أن الدولتين رفضتا

الطلب . والواقع أن رفض بريطانيا كان مثيرا للدهشة ، والذى يمكن استنتاجه من هذا الموقف هو أن البرلمان البريطانى فى ذلك الوقت كان مشغولا طوال عام ١٨٣٢ بالمناقشات الدائرة حول القوانين الاصلاحية ، كما كان بالمرستون نفسه مشغولا بمشكلتى بلجيكا وهولندا ، ولهذا لم يستطع أن يوجه اهتمامه الى موضوع التوسع الروسى فى آسيا ، كما لم يكن يهتم بمصير الامبراطورية العثمانية أو بأطماع والى مصر (١) خصوصا وأن هذه الأطماع كانت معروفة من قبل ، ففى شهر مارس ١٨٣٠ اقترح محمد على باشا على ارنست باركر فى أن مساعدة بريطانيا له سوف تساعد على الحفاظ على الامبراطورية العثمانية تجاه الأطماع الروسية ، وقال له فى هذا الصدد ، (وبمساعدتكم لى سوف يكون لدى السلطان جيش نظامى مكون من ١٢٥ ألف مقاتل ومستعد لاقامة سد منيع ضد روسيا سواء فى تركيا أو فى فارس ، لأن فارس هى الميدان الذى يتعين على بريطانيا أن تواجه فيه روسيا (٢) ، لقد طرح الوالى نفس الاقتراح على مالكولم فى يناير التالى ، عندما كان مالكولم فى طريقه الى انجلترا فى نهاية فترة عمله كحاكم لبومباى ، وقد قال محمد على لمالكولم أثناء اللقاء بأنه من الأهمية بمكان أن يكون لبريطانيا دولة صديقة تقع حدودها بين أوربا والهند ، وأن مصر تعتبر تلك الدولة ، خصوصا وأن مصر خلال حكم محمد على قد قطعت أشواطا واسعة فى طريق التقدم ،الأمر الذى ساعد بريطانيا على تأمين طريق

---

(١) انظر السياسة الخارجية فى عهد بالمرستون ، ١٨٣٠ — ١٨٤١ المجلدين طبعة لندن ١٨٥١ تاليف السير شارلس وبستر .

(٢) من باركر الى ابردين ١٨٣٠/٣/٨ وقد استقى منه دودويل فى كتابه « مؤسس مصر الحديثة » ص ١٠٥ .

المواصلات الى الهند ، وأن أنهيار الامبراطورية العثمانية فى أوروبا أصبح حقيقة مؤكدة وقريبة ، وبالتالى فان من مصلحة بريطانيا أن تؤمن نفسها ضد أىخطر قد ينجم عن التوسع الروسى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، وذلك باتخاذ الاجراءات الضرورية بالنسبة للأقاليم الأسيوية للامبراطورية العثمانية ، وقال محمد على بأن هذه أمور لا تحتاج الى شرح من جانبه ، وقد قال مالكولم فيما بعد بأنه قد اتضح له من حديث محمد على باشا بأنه كان يأمل فى الحصول على تأكيدات من جانب بريطانيا باستعدادها للموافقة على توسعات محمد على باشا (١) وقد أثبت سير الأحداث فى بلاد الشام فى صيف ١٨٣٢ بما لايدع مجالا للشك بأن الوالى كان مصمما على المضى فى تحقيق أهدافه حتى ولو كان ذلك على حساب الامبراطورية العثمانية ، ورغم ذلك فان جميع تلك الأحداث لم تثر اهتمامات بالمرستون ، رغم انه كان يطلع عليها من التقارير التى كان يبعث بهـا اليه كل من باركر وفارين ، وكان يكتفى بتحويل تلك التقارير الى مجلس الهند (٢) حيث كان يطلع عليها هنرى اليس لأنها كانت تعبر عن خطر حقيقى على المصالح البريطانية . وفى نهاية العام بعث اليس بمذكرة الى بالمرستون وذلك فى الأسبوع الأول من شهر يناير ١٨٣٣ أى بعد فترة لا تزيد على ثلاثة أسابيع من وصول مذكرة استرادفورد كاننج حول أوضاع الامبراطورية العثمانية ، بالاضافة الى تقرير شيزنى حول الملاحة فى الفرات ، غير أن تلك التقارير الثلاثة أثارت ثائرة بالمرستون ، فلقد كشف تقرير كاننج عن حقائق صارخة ، فقد قال كاننج

---

(١) حياة مالكولم فصل ٢ ص ٥٥٧ تأليف كى .

(٢) بالمرستون وأزمة بلاد الشـام ١٨٣٢ بقلم ام . فريت فى مجلة التاريخ الحديث ص ١٤٢ ــ ١٤٧ .

فى تقريره : أن الامبراطورية العثمانية قد وصلت فى انهيارها الى مفترق الطريقين فاما أن تهب من جديد وتبدأ مسيرة من الازدهار أو تتساقط وتهوى الى منحدرات الانحلال والتدهور (١) ان هذه الامبراطورية قد أخذت تتدهور على يد محمد على باشا ، وأن استقلال الأسرة العثمانية الحاكمة أصبح الآن فى كلفة القدر ، ولو سمح محمد على باشا بأن يمضى فى خططه فمعناه أن تركع هذه الامبراطورية تحت أقدام روسيا. ويقول كاننج بأن مصير هذه الامبراطورية مسألة تهم بريطانيا العظمى لأنها سوف تؤثر على مصالحها التجارية مع الهند الشرقية حتى ولو لم تكن هناك علاقة بالمحافظة على نفوذها النسبى فى أوروبا . لقد كان الخطر على حد رأى كاننج كبيرا جدا بحيث أنه طالب بشن هجوم فورى على مصر تشترك فيه بريطانيا وتركيا لمنع ذلك الخطر ، وأضاف كاننج فى مذكرته يقول : لينجح محمد على فى تكوين دولة مستقلة الأمر الذى سيتبعه تفتيت الامبراطورية العثمانية (٢).

وقد أفاض هنرى أليس فى ذكر النتائج التى سوف تنجم من مضى

---

(١) من كاننج الى بالمرستون باريس ١٨٣٢/١٢/١٩ .

(٢) نفس المصدر . فى المذكرة بعض التعليقات المؤشر عليها بالقلم الرصاص الأمر الذى يدل على ان الذى كتب التأشيرات لم يكن مقتنعا بقوة رأى كاننج والمعروف عموما ان تلك التعليقات هى تعليقات بالمرستون ويستنتج من ذلك ان بالمرستون كان مترددا فيما اذا كان يساعد السلطان أو يترك محمد على باشا يبتلعه غير ان الدكتور فريت يتحدى هذا الرأى على أساس أن الكتابة ليست بخط بالمرستون ويرى أنها من المحتمل أن تكون الكتابة بخط اللورد هولاند ، وقد يكون (وكان هولاند عدوا لتركيا طوال حياته) هذا صحيحا وان رأى فريت بان بالمرستون لم يكن فى الواقع فى حيرة بقدر ماكان يجهل الظروف التى حملت محمد على باشا على ضم سوريا وهو الرأى الأقرب الى الصحة من الرأى الثانى .

محمد على باشا فى تحقيق أطماعه فى آسيا دون ردع (١) وقد استهل تقريره فى تلخيص الآراء التى كان ينادى بها الوالى فى ذلك الوقت لاقناع الحكومة البريطانية بان امتداد سلطته سوف يكون فى مصلحة الطرفين . وكانت حجته كالآتى :

ان قيام دولة اسلامية تسعى الى اكتساب خبرة الدول الأربعة فيما يختص بالتجارة والسلاح ، ويشمل نفوذها سوريا وبلاد ما بين النهريين ، وتتمتع بامكانيات بلد كمصر سوف يضع حدا للأطماع الروسية فى الاقاليم الاسيوية للباب العالى وبانشاء هذه الدولة ويكون بها علاقات للدفاع المشترك مع حكومة الشاه سيجعل فى مقدورها أن تقدم مساعدات فعالة لشاه فارس ضد الاعتداءات الروسية ، وبالتالى تحبط خططها لغزو الهند ، والخلاصة أنه لو نفذت خطة محمد على باشا فسوف يتمخض عنها قيام حلف رباعى يضم السلطان التركى أولا ، والوالى الجديد لمصر وسوريا والعراق ثانيا وشاه فارس ثالثا والحكومة البريطانية بوصفها الدولة المسيطرة على الهند رابعا ، وذلك بهدف اقامة دفاع مشترك فى الأقطار الآسيوية الخاضعة لهم ضد روسيا (٢) .

---

(١) لقد تم طبع المذكرة بكاملها فى الملحق الأول للكتاب أما النسخة الاصلية فهى فى وزارة الخارجية البريطانية وتحمل رقم ٧٨٢٣٣ فى ١٨٣٣/١/٩ كما توجد نسخة غير مؤرخة فى وزارة شئون الهند (فارس والخليج مجلد ٤٨) .

(٢) اليس يستقى من حديث دودويل الذى كان يعتقد بأن محمد على باشا كان فى مقدوره أن يحقق هذا الحلم فهو اليوم يمثل القوة التقدمية الحقيقية فى العالم الاسلامى وانه يمكنه بمساعدة بريطانيا ان يؤسس فى ظل الخلافة العثمانية دولة على غرار دولة شركة الهند الشرقية فى ظل امبراطورية دلهى (مؤسس مصر الحديثة ص ١٠٦) .

وعلى الرغم من أن مقترحات اليس كانت مقنعة الى حد كبير الا أن اليس لم يكن مقتنعا بأن المصالح البريطانية سوف تتأثر بالفعل لو تم العمل بموجب هذه المقترحات :

وانى لأعتبره مبدأ بأن أقـــرر أنه ليس من مصلحة الدولة الأوربية الحاكمة فى الهند ان تقوم على أرض الفرات دولة اسلامية قوية ، اذ أنه من المحتمل جدا أن تتحد تلك الدولة مع روسيا لاقتسام فارس بنفس الصـــورة التى قد تتحد بها مع فارس لمقاومة الأطماع الروسية (١) كما أن أية دولة تنشأ فى هذه المنطقة سوف يمتد نفوذها بلا أدنى شك الى جميع أقطار شبه الجزيرة العربية ، وقد تصبح فى مدى قصير دولة بحرية هامة ، وان عدم وجود دولة كهذه فى الوقت الحـــاضر لهو خير ضامن ضد غزو الهند من جنوب نهر الاندس ، ان منطقة آسيا الوسطى بأسرها يمكن اعتبارها منطقة اسلامية وانها تشكل حلفا اسلاميا هدفه طرد الدولة المسيحية ، وهـــذا الكلام ليس وهما فلو توحدت كل ممالك الخليفة الاسلامى فى دولة و حدة قوية يتزعمها حكام طموح فانها ستصبح خطرا على المصالح الأوربية وعلى الرغم من أن الفرس ينتمون الى المذهب الشيعى وبقية السكان فى الأقطار الأخرى التى يضمها هذا الحلف من المذهب السنى فان هناك احساسا دينيا مشتركا بينها يدفعها الى الاتحاد مع بعضها البعض فى تلك المهمة المقدسة .

---

(١) ان التأشير بالقلم على هذا الموضوع يوجد فى النسخة التى تحتفظ بها وزارة الخارجية البريطانية فقط ويرى الدكتور جى . آتشه بولصوفر أن تلك التأشيرات يمكن أن تكون من وضع بالمرستون (انظر كتاب بريطانيا العظمى وروسيا والمسألةالشرقية) ١٨٣٨ — ١٨٤١ (النسخة الخطية لرسالة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن ١٩٣٣ الملحق رقم ١) .

واضاف اليس يقول : بأنه لا مجال للانكار أن هذا المشروع سوف يوجد أيضا تحالفا ضد روسيا بهدف تحرير الأقاليم التى يقطنها المسلمون فى روسيا غير أنه من المحتمل ، وقد يتم ذلك سريعا ، أن قيام اتصالات مستمرة بين دولة بحرية فى العراق وسكان الهند والأرخبيل الشرقى قد يهم أهل تلك البلاد أكثر مما يهمهم من التحالف ضد روسيا .

وقد اختتم اليس ملاحظاته بنقطة هامة : «هل سيستطيع ابراهيم باشا بأن يحتفظ بما حققه محمد على باشا أو بالأحرى هل سيحتفظ به الى الوقت الذى يخلفه فيه غيره سواء من أسرته أو من اختياره ؟ » .

وما لم توجد اجابة حاسمة لهذا السؤال فلن يكون من المصلحة لبريطانيا أن تقوم بتشجيع توسع سلطات محمد على لتشمل سوريا والعراق .

لقد تركت مقترحات اليس انطباعا سريعا على بالمرستون وهى انطباعات لم تفقد حدتها كما سوف تثبت الأيام ذلك ، وفى نهاية يناير ١٨٣٣ أثبت بالمرستون آراءه حول المشكلة السورية فى الخطاب الذى وجهه الى اللورد جرانفيل حيث قال فيه : بأنه يجب المحافظة على الامبراطورية التركية ، كما ينبغى ارغام محمد على باشا بحصر نفوذه على مصر فقط ، لأن احتلال سوريا سوف يؤدى بالضرورة الى احتلال بغداد ، وان اقامة دولة واحدة من مصر وسوريا والعراق بزعامة محمد على باشا لن تفيد بريطانيا فى شىء ، أما السلطان التركى فسوف يزداد ضعفه فى مقاومة روسيا وأنه من المحتمل ان تتألب تلك الدولة مع الوالى للتحرش بفارس وذلك على حساب الوجود البريطانى فى الهند . ان تفتيت الامبراطورية العثمانية سوف يكون ثمنا باهظا لرسالة الحضارة التى ينوى محمد على باشا فى ادخالها على الاقاليم العربية للامبراطورية العثمانية (٥٢)

ان الضرر الذى سوف ينجم عن هذا لمصـــالح دول أوربا عن طريق وضع حكام تركيا الأوربية تحت مظلة الحماية الروسية سوف لا يتوافق مع الفوائد التى سوف تجنيها من وجود معاهد علمية فى هذه الأقطار ومن ضم سوريا والعراق الى حكم محمد على باشا (١) .

وقد أشار بالمرستون الى نفس النقاط فى خطاب بعث به الى شقيقه الوزير المفوض فى نابولى بعد ذلك بشهرين ، وحول تعليقه على الجهود التى يبذلها الفرنسيون لايجاد تسوية بين السلطان وواليه قال بالمرستون :

ان الشروط التى سوف تفرض على الباشا هى شروط معقولة طالما أن دمشق وحلب لا تنضم الى حكم محمد على وكذلك العراق ، وفوق ذلك فانه سوف يحتفظ بالولايات العراقية بمثل احتفاظه بمصر ٠٠ ان هدفه هو انشاء مملكة عربية تضم جميع الأقطار التى لغتها العربية وقد لا يكون فى هــذا أى ضرر فى حد ذاته ، أما اذا اشتمل هذا المشروع على تقسيم تركيا فاننــا سوف نعارضه ، كما أن تركيا ليست أقل صلاحية لحماية الطرق الى الهند من أى حاكم عربى (٢) .

وعلى الرغم من تقدير بالمرستون للمشاكل التى كانت تنطوى عليهــا تحركات محمد على باشا الا أنه لم يكن يرغب أو بالأحرى لم يكن يســتطيع أن يحمل البرلمان على اتخاذ قرار بالوقوف الى جانب السلطان العثمانى .

---

(١) « وثائق جرانفيــل » رقم ٤١٥ من بالمرستون الى جرانفيــل ١٨٣٣/١/٢٩ .

(٢) « حياة هنرى تمبل » الفايكونت بالمرستون فى ثلاث مجلدات طبعة لندن ١٨٧٠ — ١٨٧٤ ص ١٤٥ المجلد الثانى من بالمرستون الى وليم تمبــل ١٨٣٣/٣/٢١ .

ومن ناحية أخرى فشل محمود الثانى فى الحصول على تأييد من فرنسا ، وأخيرا بعد أن يئس اتجه الى روسيا . وعلى الرغم من أن قيصر روسيا كان يعى تماما ما قد يسببه تدخله من قلق فى أوساط الدول الكبرى ، الا أنه كان يدرك فى نفس الوقت الأزمات الخطيرة التى سوف تنشأ فى الوضع الدولى فيما لو مضى محمد على باشا فى تنفيذ مخططاته حتى تصل قواته الى مشارف القسطنطينية ، وتأسيسا على ذلك فقد قرر القيصر الاستجابة لطلب محمود الثانى . وقبل نهاية شهر فبراير تحركت قوة من الأسطول الروسى ، ثم تبعتها وحدات من الجيش الروسى ، تحركت فى اتجاه الشاطىء الآسيوى للبوسفور . أما ابراهيم باشا فقد أوقف تقدمه وقرر التراجع عن الاناضول . وقد قامت كل من فرنسا والنمسا بمبادرة لتحقيق تسوية بين محمد على باشا والسلطان التركى ، على أساس انسحاب القوات الروسية من الأراضى التركية وبموجب الاتفاق الكتابى المعقود فى ١٨٣٣/٥/٦ وافق السلطان بأن يتنازل عن ولايتى سوريا وأطنة لمحمد على باشا وفى مقابل ذلك عاد الوالى فأكد ولاءه للسلطان العثمانى . وفى شهر يونيه انسحبت القوات الروسية وتبع هذا الانسحاب عقد معاهدة « هنكيار اكسليس » بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا يوم ٨ يوليو ، وقد تعهد الطرفان بموجب تلك المعاهدة بالدفاع عن ممتلكات الطرفين ضد أى هجوم يقع عليها ، فقد تعهد القيصر بتقديم مساعدات للسلطان فى حالة وجود تهديد لاستقلاله ، بينما تعهد السلطان من ناحيته باغلاق مضيق البوسفور فى وجه السفن الأجنبية اذا اشتبكت روسيا فى أى حرب (١) وكانت مدة

---

(١) لتفسير هذا البند من المعاهدة انظر كيميا تأليف تمبرلى ص ٧٠ — ٧١ وص ٤١٤ وملاحظة رقم ١٠٩ .

هذه المعاهدة ثمانية أعوام ، وقد لاحظ بالمرستون أن المعاهدة المذكورة تعطى لروسيا الحق فى التدخل فى شئون الامبراطورية العثمانية كما أيقظت هذه الاتفاقية مخاوفه من الأطماع الروسية فى تركيا وأوجدت فى نفسه كراهية مستديمة لمحمد على باشا الذى كانت سياسته سببا فى اعطاء الروس الفرصة التى كانوا يبحثون عنها منذ زمن بعيد .

ولقد كان من غرائب الأزمة السورية لسنة ١٨٣٢ — ١٨٣٣ هو المحادثة التى بعث بهـا المندوب السامى النمساوى الى مصر فى شـهر ابريل ١٨٣٣ ويطلب فيها وضع مواد التسوية بين محمد على والسلطان التركى وبموجب معلومات حصل عليها القنصل البريطانى العام فى مصر عن تلك الرسالة أن المندوب وهو الكولونيــل بروكيش فون اوشــتن ، أبدى تحمســا كبيرا فى محادثاته مع محمد على حول امكانية اقامة مملكة عربية تمتد حدودها من النوبة الى سوريا وتضم أقطـار الخـليج والعراق (١) . . . . أن اقامة مثل هذه المملكة كما ذكر اوشتن سوف يرفع من قيمة محمد على فى نظر العالم الاسلامى للانتقام من السلاطين العثمانيين فهو الرجل الذى قيضه الله لرفع شأن المسلمين . وبالتالى كان يجب البدء فى مفاوضة والى بغداد ورؤساء قبائل الضفة الغربية للفرات بعدم معارضة البريطانيين فى محاولاتهم للتقارب مع الحكام فى منطقة المحيط الهندى والخليج (٢) .

---

(١) موضــــوع رقم ٣٤٣/٧٨ وزارة الخارجية من الكولونيل بى. كمبل (القنصل العام) الى بالمرستون القاهرة ١٨٣٨/١١/٢٧ (رقم ٧٨) ومرفق ملخص المحادثات بتاريخ ١٨٣٣/٥/١٧ الاسكندرية .

(٢) من الكولونيل كمبل (القنصـــل العام) الى بالمرستون القــاهرة ١٨٣٨/١١/٢٧ (رقم ٧٨) ومــرفق معه ملخص للمحادثات الاســكندرية ١٨٣٣/٥/١٧ .

غير أن محمد على لم يكن فى حاجة الى تشجيع فون اوشتن ، وقد كان يعرف كل المعرفة الاتجـاه الذى كانت تسير فيه أطماعه بعد اسـتيلائه على سوريا ، ولم يكن محمد على باشـا يفكر بصـورة جدية أن يكون خليفة للمسلمين ، صحيح أنه قد فكر فى هذا الموضوع قبل خمسة عشر عاما أثر هزيمة الوهابيين وتحرير الأماكن المقدسة ، غير أنه سرعان ماصرف النظر عنها (١) غير أن محادثة فون اوشتن قد تثير الفضـول وقد يكون لها علاقة وان كانت واهية بتحركات محمد على القادمة .

ففى أواخر عام ١٨٣٣ أوفد مبعوثا سريا يدعى سيد خالد افندى الى بغداد عن طريق الخـليج وقد زار المبعوث فى طريقـه بوشـهر فى مارس ١٨٣٤ ، وهناك أبلغ المقيم البريطانى بأنه يحمل رسائل من محمد على باشا الى سلطان مسقط وأمير شيراز ومشايخ المنتفك وقبائل بنى كعب سكان شط العرب والعراق الأسفل ، وقال المبعوث للمقيم بأن محمد على باشا قد فوض من جانب الباب العالى للتحدث باسم بغداد وسواحل وجزر الخليج التى كانت أصلا خاضـعة للنفوذ العثمانى ابتـداء من عام ١٢٥٠ بعـد الهجرة (١٨٣٥/٤/٢٨) وأن على باشا والى بغداد قد اطلع على هذه الخطة وأنه قد وافق عليها وقد بعث تايلور المقيم السياسى فى بغداد يومئذ بتقرير عن مهمة سيد خالد افندى الى القنصل البريطانى العام فى مصر الكولونيل ناترك كامبل وقام هذا بدوره فى يونيه ١٨٣٤ بالاتصال بمحمد على باشا للاستفسار عن الموضوع وعن رأيه عموما بالنسبة للوضع فى بغداد ، غير أن الوالى حاول أن يتنصل من الموضوع وقال لكامبل بأنه من المعروف أن سكان بغداد

---

(١) من كمبل الى بالمرستون بالاسـكندرية ١٨٣٣/١٠/١ (رقم ٦٩ سرى) انظر أيضا تمبرلى ص ٤١٩ — ٤٢٢ .

متذمرون جدا من الحكم التركى ، وأنهم قاموا بالاتصال بواليه فى سوريا شريف بك يطلبون منه أن يتحرك للاستيلاء على بغداد بالنيابة عن الوالى ، أما محمد على باشا فلم يفكر فى شىء من هذا القبيل ، أما بالنسبة لسيد خالد فقد قال الوالى بان هذا من أتباع داود باشا والى بغداد السابق والموجود حاليا فى المنفى ، وأن المذكور قد تقدم الى الوالى يطلب العمل عنده ، ولكى يتخلص منه الوالى قام بارساله الى سلطان مسقط مزودا بخطاب توصية منه (١) .

غير أن كمبل لم يقتنع بتفسيرات محمد على لأن محمد على لم يتعود اعطاء خطابات توصية الى الأجانب دون أن يكون وراء ذلك هدف محدد وبالاضافة الى ذلك فقد كان هناك فى نفس ذلك الوقت مبعوث من السيد سعيد فى دار الوالى ، وان الوالى نفسه قد ذكر لكمبل أن السيد سعيد قد عاتبه على شراء سفن لحملته على اليمن فى الوقت الذى كان السيد سعيد على استعداد لأعارته تلك السفن ، ولهذا كان كمبل على يقين من أن سيد خالد قد توجه الى بغداد لأسباب هامة ، حتى ولو كان ذلك لجمع المعلومات عن البلاد ، خصوصا وأن محمد على باشا كان يعرف الكثير عن التذمر الذى يسود سكان بغداد . وعلى الرغم من ادراك بالمرستون للأهمية الاستراتيجية لبغداد ادراكا تاما الا أنه كان مترددا لاتخاذ أى أجراء يهدف الى تدعيم الوجود البريطانى هناك ، لئلا يخلق لروسيا وفرنسا الفرصة للتدخل فى شئون الامبراطورية العثمانية وطوال عام ١٨٣٣ كان بالمرستون يتجنب مقابلة شيزنى حتى لا يثير تكهنات حول اعتزامه تبنى مشروع شيزنى الخاص بالملاحة

---

(١) مختارات المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ رقم (١) من كمبل الى بالمرستون ١٨٣٤/٦/٢٤ (رقم ٢٨) ومرفق لخطاب بالمرستون لجراند ١٨٣٤/٨/٢٩ .

البخارية عن طريق الفرات . وكان كل من حكومة الهند ومجلس الحاكم يشاطرون بالمرستون شكوكه بشأن التدخل البريطانى فى العراق ، وكان رأى المجلس أن التدخل البريطانى سوف يضعف من نفوذ السلطان التركى ، وبالتالى يساهم فى تقوية دعائم الامبراطورية ، كما أنه سوف يعطى الروس الحجة لاثارة موضوع معاهدة هنكيار اكلسيس (١) أما حكومة الهند فقد كانت تعارض التدخل من زاوية أخرى فقد كانت هذه الحكومة تتوقع انهيار الامبراطورية التركية وبالتالى فانه سيكون من الأفضل فى نظرها أن يحتلها محمد على باشا بدلا من احتلال الروس لها(٢) وهكذا تركت بغداد لتلقى مصيرها المحتوم حتى منتصف عام ١٨٣٤ عندما أصبحت الأوضاع لاتحتمل السكوت ، ففساد الحكم فى العراق قد دفع أهلها الى دعوة محمد على باشا لاحتلالها ولانقاذ بغداد من ذلك المصير . وكان لابد من البحث عن طريقة لتدعيم الحكم التركى فيها داخليا دون اظهار ذلك التدخل ، وقد دعت تلك الاعتبارات بالمرستون وزملاءه الى تغيير موقفهم من خطة شيزنى لارسال بعثة للتحقيق فى صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية .

لقد عرضت هذه المسألة على البرلمان فى شهر يونيه ١٨٣٤ ثم أحيلت الى لجنة منبثقة من مجلس العموم البريطانى وعهد اليها بالبحث فى موضوع

---

(١) فارس والخليج مجلد ٥٠ مذكرة كمبل ١٨٣٤/٧/٢ .

(٢) محادثات بومباى السياسة حلقة ٣٨٧ مجلده رقم ٢٢ فى ١٨٣٤/٦/١١ من مكنائن (سكرتير حكومة الهند) الى السكرتير الأول لحكومة بومباى ١٨٣٤/٥/١٤ ويبدو أن هذا الرأى كان يسود أوساط المجلس فى الهند . وقد أشار كمبل فى مذكرته هذه بأن تايلور المقيم فى بغداد كان يعتقد بأن الطريقة الوحيدة لابعاد الروس عن العراق هى فى قيام بريطانيا أو مصر باحتلالها وتضم المذكرة على هامشها تعليقا بالقلم الرصاص . ويبدو أن هذا التعليق كان بخط توماس ماكولى سكرتير المجلس .

الملاحة البخارية برمته . ولم يغب عن أذهان المؤيدين لطريق الفرات النواحى السياسية والاستراتيجية للمشروع ، وكان شيزنى فى مقدمتهم و من أكثرهم معرفة بالمشروع كما أن الأهمية التى يوليها أعضاء اللجنة وتوصيات شيزنى كانت تسمح للحكومة بتجاوز اعتراضات الذين كانوا يفضلون طريق البحر الأحمر لأسباب عملية وسياسية (١) .

وقد ظل شيزنى يلح على هذا الموضوع منذ عودته الى انجلترا عام ١٨٣٢ غير أن اتصالاته بيبكوك قد هيأت الفرصة لادخال بعض التعديلات على المشروع (٢) بالنسبة لشيزنى كان طريق الفرات هو الطريق الأسهل والمحتمل أن يسلكه الجيش الروسى لو فكر فى غزو الهند ، وعلى الرغم من وجـــود خمس طرق أخرى يمكن للروس أن يسلكوها للوصول الى الهند ، الا أن طريق الفرات كان أقرب الطرق الى الهند ، فهناك غابات أرمينيا وفارس التى يمكن للروس أن يصنعوا من أخشابها الصنادل اللازمة لنقل الجنود والمعدات ، وخلال شهرين من العام أى من أبريل حتى نهاية ارتفاع منسوب الميـــاه فى الفرات أن يتمكن من نقل المعدات العسكرية والمدافع الثقيلة ، كما أنه يمكن خلال ثمانية أشهر على الأقل من كل عام نقل المؤن فى ميـــاه النهر بمنتهى السهولة ، وأن أربعة الى خمسة أسابيع تكفى لنقل جيش بكامله الى شط

---

(١) انظر الطرق البريطانية الى الهند ص ١٥٤ — ١٥٥ تأليف هوكنز .

(٢) تضمنت هذه التعديلات فى المذكرة التى أعدها شيزنى وقدمها الى مجلس الهند بتاريخ ١٨٣٤/١٢/٢٣ (انظر المراسلات السرية والســياسية العامة للمجلس) مجلد ٣ .

العرب ، وهى منطقة تصلح لاقامة قاعدة بحرية (١) وأن أى جيش يملك قاعدة فى شط العرب يمكنه أن يزحف عبر ساحل الخليج حتى رأس جاسك التى تقع على بعد ٢٦٥ ميلا من حدود الهند ، وعلى هذا الأساس فانه يمكن لاى قوة عسكرية روسية أن تصل الى حدود الهند فى ظرف ثمانية أو عشرة أسابيع من خروجها من العراق ، فاذا استطاع الروس أن يتحركوا على هذا الطريق فانهم سوف يغلقون خطوط الدفاع عن الهند ويصبح من المستحيل ايقاف الزحف الروسى من رأس جاسك ، ويمكنهم فى هذه الحالة أن يقوموا بنقل المعدات العسكرية فى مجموعات من القوارب بالقرب من المناطق الساحلية واذا ما اعترضتهم أى قوة بحرية معادية فيمكنهم سحب تلك القوارب الى الشاطىء تحت حماية الجيش .... وقد ذكر شيزنى « بأنه اذا قدر للروس ان يستولوا على منطقة الفرات فسوف يكون فى مقدورهم الاشتباك معنا على حدود نهر الأندس أو يرابطون فى جاسك ليتقدموا منها تدريجيا الى الهند ، ولو حدث ذلك فانه سوف يؤثر على الروح المعنوية للجنود أمام سكان

---

(١) مقتبس من مذكرة شيزنى مؤرخة ١٨٣٤/١٢/٢٣ : (من القرنة عند تقاطع نهر دجلة والفرات الى الخليج لاتزيد المسافة عن ١٠٤ أميال ويمكن اعتبار مجرى النهرين كميناء كبير تتوسطه البصرة ويتراوح عرض النهر من ٥٠٠ ياردة الى ميلين وعمقه من اربعة الى سبعة قامات وقد وصلت احدى السفن الى القرنة وأما السفن الأصغر فترسو مقابل البصرة (فى حدود ميلين) كما ترسو قريبا من المحمرة وهى ميناء ممتاز يقع عند تقاطع نهرى قارون وشط العرب كما أن الضفاف والتربة القوية تصلح لانشاء مراسى وبناء السفن واقامة مراكز بحرية على شط العرب كما يمكن تقوية جزره وضفافه عن طريق اقامة بروج وبطاريات بحيث أن أى محاولة للسيطرة عليه فى منتهى الصعوبة ...) .

الهند ، فضلا عن النفقات التى ستتكبدها من جراء وضع قوة بحرية لمراقبة العدو ومرابطة مزيد من الجند على الحدود الشمالية الغربية لفارس (١) أما اذا اختارت بريطانيا أن تتمركز فى منطقة الفرات وانشاء أسطول من البواخر فانها سوف تسد الطريق الوحيد أمام الروس لغزو الهند وبالتالى ارغامهم على أن يسلكوا الطريق الشاق والخطر عبر فارس ، وبالاضافة الى كل ذلك تستطيع بريطانيا اذا أقتضى الأمر الحصول على امدادات عاجلة لقواتها فى الهند وأن تقوم بنقل تلك الامدادات بسرعة من منطقة البحر الأبيض المتوسط عن طريق الفرات (٢) .

وقد أيد شيزنى فى هذا الراى عدد من أعضاء اللجنة الذين ادلوا بشهاداتهم أمام اللجنة حول هذا الموضوع ومن بين هؤلاء جون هاين ، مساعد المقيم البريطانى السابق فى بغداد واللفتنانت كولونيل كوك بروك وبيكوك ، أما كول برولت الذى كان من الخبراء البريطانيين فى منطقة الخليج فانه يرى أن التحرك الروسى عن طريق الفرات أمر محتمل وان كان ذلك التحرك سوف يعتمد الى حد كبير على قوة أو ضعف الامكانيات البحرية البريطانية فى مياه الهند .

---

(١) بيانات ووثائق (١٨٣٤) مجلد ١٩ وثيقة ٤٧٨ تقرير اللجنة المنتخبة للنظر فى الملاحة البخارية للهند وتتضمن شهادة الكابتن شيزنى فى ١٨٣٤/٦/٩ .

(٢) الشهادة التى أدلى بها الكابتن شيزنى ١٨٣٤/٦/١١ وان فكرة ان نهر الفرات يصلح لنقل الجنود الى الهند يشاطر شيزنى فيها الكابتن الكسندر برنس (انظر حياة شيزنى ص ٢٦٨ ويشير الى فقرات من مذكرات شيزنى مؤرخة ١٨٣٤/٦/٩ تأليف لين بول .

ولم يختلف رأى بيكوك هذ هالمرة عن رأيه فى عام ١٨٢٩ رغم أنه أصبح مقتنعا بأن غزو الهند عن طريق الخليج لم يكن أقل احتمالا من غزوها عن طريق بحر قزوين . وبسؤاله عمـا اذا كان يتصور بأن هناك احتمـالا لهجوم الروس على الهند من بحر قزوين عبر نهر الاكسس أكثر منه عن طريق الفرات والخليج حيث التفوق البحرى البريطانى أمر لا جدال فيه فأجاب : (ولكن التفوق فى البحر ليس طلسما فلابد من الاحتفاظ برقابة مستمرة عـلى المنطقة وتوفير وحدات كافية من القوات للرقابة ، كما ذكر بأنه لا يجهـل الخطر المحتمل من نهر الأكسس ، غير أن هناك خطرا محتملا لهجوم من العراق وأو أستطيع لقمت بايقاف الخطرين معا ، ثم دعا بيكوك الى البت بسرعة فى مشروع طريق الفرات قبل أن تقوم روسيا بدعم نفوذها هناك ، وهو الحلم (١) الذى كان يداعبها منذ زمن بعيد ، واختتم بيكوك شهادته بأن أكد على الأهمية البالغة لطريق الفرات بالنسبة لبريطانيا وقال : ان جميع مصالحنا وعلاقاتنا مع فارس وما يحتاج اليه التبادل التجارى مع بومباى انما يقع ضمن هذا الطريق وليس على طريق البحر الأحمر كما أتصور أن المصالح السـياسية لهذه البلاد تتطلب أن تبقى روسيا بعيدة عن منطقة الخليج أكثر مما تبقى بعيدة عن منطقة البحر الأحمر ، حيث لا مصلحة لنا هناك فى ابعاد أى دولة عن منطقة البحر الأحمر (٢) .

---

(١) وقد علم شيزنى أن داود باشا قد تقـدم بعرض خـلال الحـرب الروسية التركية بان يضع الاقليم تحت سلطة الجنرال باسكفيتش القائد الروسى فى القـوقاز (انظر مجموعة المجلس السياسـية والسرية العـامة مجلد ٣ .

(٢) تقرير اللجنة وشهادة بيكوك .

أما المعارضون لانشاء طريق الفرات والذين ادلوا بشهاداتهم أمام اللجنة منهم الأمير السـير بلتنى مالكولم (شقيق جون مالكولم) وجى • اس • بانتجهام الرحالة البريطانى وعضو البرلمان وصاحب مجلة اورينتل هيرالد والكولونيل ستانوس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ، والسير هارفورد جونز المقيم البريطانى السـابق فى بغـداد والوزير المفوض فى فارس • أما جونز فقد استخف بفكرة احتمال قيـام الروس بغزو الهند عن طريق الخليج وقال للجنة : اننى على استعداد لأن أقدم لهم البصرة ، ولكن بأى طريقة سوف يصلون الى الهند وكيف يدخلون الخليج اذا لم يكونوا يتمتعون بتفوق فى القوة البحرية على الأسـطول البريطـانى ؟ واذا كان لروسـيا أسطول أقوى من الأسطول البريطانى فى منطقة الرجاء الصالح فما الذى يضطرها الى دخول الهند عن طريق الفـرات ؟ (١) وفى ١٨٣٤/٦/١٤

---

(١) تقرير اللجنة وشهادة جون بردج هارفورد ١٨٣٤/٦/٢٧ وكان جون يتوقع وقوع هجوم على الهند عن طريق العراق وعندما كان فى بغداد فى أوائل القرن كان يعتقد ان نابليون كان يستطيع ان يقوم بمحاولة لغـزو الهند عن طريق البحر الأحمر وذلك بالاستفادة بالمكانيات المصرية والبحرية أكثر مما كان يمكنه ان يقوم بالهجوم عن طريق البصرة وبوشهر ، كما حـدد جونز منطقة استرا باد كقاعدة للانطلاق فى الهجوم على الهند وقد ظـل جونز متمسكا برأيه هذا لمدة أربعين عاما وفى نشرة اصدرها جونز فى عام ١٨٣٨ خاطب الماركويس ويلسلى المصمم الأول لخط دفاعات الهند فى منطقة الشمال الغربى وجاء فى هذه النشرة حول الموضوع ما يلى : (خلال عمـلى هنا فقد تلقيت عـددا من المشروعات من الدبلوماسيين الهنود الذين زاروا الخليج •• وقد سئلت مرة وهى المرة الوحيدة التى سئلت فيهـا عن=

؛صدرت اللجنة توصياتها وأكدت على سرعة انجاز خطوط الملاحة البخارية مع الهند عن طريق البحر الأحمر ، كما أوصت بايفاد بعثة لاختيار صلاحية نهر الفرات للملاحة البخـــارية وتخصيص اعتماد بمبلغ ٢٠ ألف جنيه استرلينى (١) ، وفى ٨/١٤ وافق مجلس العموم البريطانى على توصـــيات اللجنة وكلف مجلس الهند بالاشراف على تشكيلها وأعمالها ٠ وقد أحست الحكومة انها كلما أسرعت فى تنفيذ هذا المشروع كما تضاءل أمل محمد على باشا فى التحرك الى العراق عن طريق الشام ٠ وفى صيف ذلك العـــام كان اللورد بونسوبى السفير البريطانى فى القسطنطينية آنذاك يتوقــع أن يتحرك محمد على الى الشام فى أى لحظة الى درجة انه كلف القنصـــل البريطانى فى بيروت ريتشارد وود بأن يقوم باستطلاع الأوضاع فى العراق وارسال تقرير اليه عن أى تحرك قد يقوم به المصريون فى اتجاه العــراق لتنفيذ مشروع امبراطورية مستقلة فى شـــبه الجزيرة العربيـــة ، وهو المشروع الذى كان يسعى اليه محمد على باشا (٢) وقد تأكدت تكهنـــات السفير بونسوبى فى شهر سبتمبر عندما أفضى محمد على باشا الى قناصل

= احتمال غزو الروس للهند عن طريق دجلة والفرات وشط العرب والخليج ولعل اللورد ويلسلى يستطيع ان يتكهن عن طبيعة ردى على ذلك السؤال خطاب الى الماركويس ويلسلى بشأن المصالح والشئون البريطانية فى فارس طبعة لندن ١٨٣٨، (٥)

(١) التقرير ص ٣ — ٤ ٠

(٢) مذكرة وود فى أعماله وقد أشار اليها تمبرلى فى كتابه «كريميا» بالملحق رقم ١ من الكتاب ٠

الدول الأوربية فى الاسكندرية بنيته فى اعلان انفصاله عن الباب العالى ، ولكن بالمرستون حذره من تنفيذ هذ المشروع ، كما اتصل بجراند يحثه على التعجيل فى أنهاء الاستعدادات الخاصة بسفر البعثة الى العراق ٠

وفى نوفمبر استقالت وزارة ملبون وخلف بالمرستون فى وزارة الخارجية ولنجتون ، بينما خلف جرانت فى الهند اليمبورو ، وعلى الرغم من أن اليمبورو كان ميالا الى روسيا الا أنه لم يكن يحبذ مشروع ارسال البعثة الى العراق كما لم يكن يؤيد الاسس التى شكلت البعثة عليها ، وبالتالى فقد حاول جهده بأن يوقف سفر البعثة ٠ غير انه لحسن حظ شيزنى فشل الينبورو فى هذه المحاولة لأنه عين رئيسا لتلك البعثة ٠ وقد كتب شيزنى خطابا الى والده بهذا الشأن قال له فيه : (عندما عدت الليلة الماضية الى ليفربول وهو الميناء الذى ستغادر منه البعثة الى العراق يوم ١٨٣٥/١/١٦ ، وخلال تغيبى صدر الأمر للبعثة للابحار الى بومباى ، ولكن سرعان ما تفرقت ثم عادت واستأنفت رحلتها الى البحر الأبيض المتوسط بأقصى سرعة ممكنة ٠٠ وقد انتهز اللورد الينبورو بعض المتاعب التى صادفت البعثة فى تركيا لصرف النظر عن المشروع الذى كان يعتبره مشروعا متطرفا ، كما كان يعتبرنى أنا صنيعة لأصحاب المشروع وأننى الشيطان الذى سوف أقود البعثة الى الهلاك المحقق ، غير أن زملاء الينبورو فى البرلمان انتقدوه على هذا الموقف من المشروع ، وفى مقدمتهم العضو ابردين ٠٠) ٠

غادرت البعثة الفرات ميناء ميناء ليفربول يوم ١٨٣٥/٢/٤ وكانت وجهتها الأولى خليج أنطاكيا حيث كان مقررا أن تنضم اليهـــا السفينتان الصغيرتان دجلة والفرات ، ثم تعبر نهر ارنستوس وذلك قبل أن تبحر الى الفرات فى فصل الربيع عند ارتفاع المد ٠ اما الباخرة دجلة فلم تتمكن من السير فى النهر بسبب التيار وبالتالى تقرر فك أجزائها ، وبعـــد ذلك بدأت الرحلة العملية الطويلة المضـــنية لنقلها وبقية الســـفن وغيرها الى الفرات ٠ وعلى أية حال فانه مما يبعث على السخرية أن يعتمد نجـــاح مشروع الفرات على موقف ابراهيم باشا ٠ وعلى هـــذا الأساس فقد تم اصدار مرسوم من السلطان فى شهر ديسمبر يصرح للبعثة فيه بمزاولة نشاطها فى الشام والعراق ويطـــالب ولاة الأقاليم المذكورة بتسهيل مهمة البعثة ٠ غير أن المرسوم لم تكن له أية قيمة عند ابراهيم باشا أو عند محمد على باشا ، فبالنسبة لمحمد على باشا فقد كان ينظر الى موضوع البعثة بشىء من الاستياء ، وكان له عذره فى ذلك لأن نجاح المشروع البريطـانى سـوف ينـــال من أهمية مصر كطريق رئيسى الى الشرق ، كما أن وجود النفـوذ البريطانى فى العراق ســـوف يقضى على أطماع محمد على فى العراق ٠ وبالتالى فلم يكن من الغرابة فى شىء أن يبذل ابراهيم باشا كل ما فى وسعه لافشال مهمة البعثة ، ومن هذا المنطلق كان اللقاء فى الأهداف بين محمد على باشا والسفير الروسى فى القسطنطينية ، فقد بذل هـــذا السفير جهودا مستميتة فى شهر ديسمبر ١٨٣٤ لكى يحول بين السلطان واصـدار ذلك المرسوم ٠ وعندما فشـــل السفير « اوفر الى » القنصـــل العام لروسيا فى مصر بالاتفاق مع محمد على باشا على الوسائل التى يمكن بها احباط مهمة

شيزنى (١) وكان ابراهيم باشا قد نجح بالفعل فى عرقلة موضوع تزويد البعثة بالعمال والجمال وغيرها من وسائل النقل ٠

وكانت المعاكسات التى تعرضت لها البعثة منذ وصولها الى سوريا كثيرة بحيث لا يمكن أن نعتبرها قضاء وقدرا ٠ فوسائل النقــل والبواخر التى كان شيزنى قد قدر بأن الحصول عليها لا يستغرق أكثر من شـــهر لم تتوفر قبل ربيع ١٨٣٥ ، كما عانت البعثة من الأمراض وعلى الأخص بين الأوربيين من أعضائها ٠ وقد أضاف وصول الكونت موديم السفير الروسي فى تركيا الى المكان الذى ترابط فيه البعثة مشكلة جديدة ، لقد صادف هذا الوقت أن عاد بالمرستون كوزير للخارجية فى وزارة ملبورن الثانية ، وقد أبلغه بونسوبى بانه لا شىء يمكن أن يضع حدا لمتاعب البعثة الا بصدور مرسوم خاص من محمد على باشا ٠

وحتى ذلك الوقت كان الباب العالى يرفض اصدار مثل هذا المرسوم حتى لا يغضب روسيا ، غير أن بالمرستون كان يتذمر من هذا الوضع ، وكان غاضبا على محمد على لدرجة أنه أخذ يفكر فى فرض حصار بحرى على الأسكندرية لارغام الوالى على تغيير موقفه (٢) غير أن وصول أنبــــاء

---

(١) انظر خطــــاب بونسوبى الى بالمرستون ١٨٣٥/٦/٣٠ رقم ١١٦ وخطاب كامبل الى بالمرستون ١٨٣٥/٧/٣٠ (رقم ٢٦ وخطاب كامبل الى بالمرستون ١٨٣٥/٩/١٨ — وقد أشار الى هذا الخطاب الأخير بولصـــوفر فى كتابه « **بريطانيا العظمى والمسألة الشرقية** » ١٨٣٢ — ١٨٤١ ص ١٦٨ ٠ ١٧٠ ٠

(٢) من بالمرستون الى كامبل ١٨٣٥/٦/٣٠ وقد أشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٧١ ٠

من كامبل لخضوع الوالى لاحتجاجات بالمرستون واصدار أوامره الى ابراهيم باشا بتقديم مساعداته الى شيزنى قد غير من هذا الموقف (١) ٠

وعلى الرغم من أن موقف ابراهيم باشا من المشروع البريطانى قد تحسن الا انه هو ووالده محمد على باشا استمرا فى محاولتهمـــا لعرقلة أعمال البعثة حتى ان السير جون هوب هاوس رئيس مجلس الهند آنذاك استاء من هـــذه التصرفات وطلب من بالمرستون : (بأن يلقن الاسكندرية درسا لن تنساه وقال له : بانه لا يمكننى أن اتحمل الفشل فى مشروع خط الفرات بحجة أن هذا تدخل فى شئون العراق كما يتصـــور محمد على ونجله (٢) وقد حدث تغيير فى موقف الوالى مع بداية العام الجديد ، حتى ان ابراهيم باشا طلب من شيزنى بأن يرافقه فى جولته عبر الفرات ، غير أن شيزنى شك فى طلب الوالى ٠٠ وربما نصحه أصدقاؤه فى الشـــمال باتخاذ موقف مضاد من المشروع ولكن بما أنه لم يستطع ايقاف العمل فى المشروع ، وكان يتعين عليه أن يسهل عمل البعثة ، فقد أصبح الآن حريصا او من دعاة شق الطرق وفتح القنوات (٣) ، أما شيزنى فكان واثقا من أن الدافع وراء رغبة ابراهيم باشا فى مرافقة البعثة هو انه كان ينوى القيام

---

(١) من كامبل الى بالمرستون فى ١٨٣٥/٥/٢٦ (رقم ١٥) وقد اشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٧١ ٠

(٢) من هوب هاوس الى بالمرستون ١٨٣٥/١٢/٢٩ وقد اشار اليه بولصوفر بالصفحة ١٨٤ ٠

(٣) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٣ من شيزنى الى هـــوب هاوس ١٨٣٦/٢/٢٧ ٠

بهجوم مفـــاجىء على قبيلة عنزة فى بغداد والمنطقة الشمالية من شـــبه الجزيرة العربية ، وكان يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لاخضاع تلك القبائل لطاعته .

وقد يكون شيزنى مصيبا فى تكهناته هذه الى حد ما ، غير أن شيزنى فى تلك الفترة كان يعانى من حالة اضـطراب وكانت نفسيته متوترة نتيجة المرض الذى كان يعانى منه والمعاكسات التى كان يتعرض لها كل يوم فى مهمته ، وكان قد مضى على وصوله الى الشام عام كامل ، ومع ذلك فلم يتمكن من القيـــام بجولته الاستطلاعية عبر الفرات ، كمـــا كان يتعرض لانتقادات لاذعة فى انجلترا بسبب التـأخير الذى تعرضـت له البعثة فى برنامجها ، وحتى يوقف تلك الحملات عليه ، وافق زملاءه أعضاء البعثة على نشر بيانات فى الصحف والمجلات يتحدثون فيها عن متاعبهم ، ممـــا كان له أسوأ الأثر لدى السلطات التركية والمصرية والسورية ، بالاضافة الى ردود الفعل التى أحدثتهـا تلك التصريحـات فى الهنـد وانجلترا ، فقد سببت تلك البيانات احراجا لبالمرستون وهوب هاوس اللذين اضطرا الى الدفاع عن البعثة فى البرلمان واقناع مجلس العموم وأعضـاء مجلس ادارة الشركة بزيادة اعتمادات البعثة ، وكانت البعثـة قد أنفقت المبـــالغ التى سبق أن خصصت لها كما كان مجلس العموم وأعضـاء مجلس ادارة الشركة غير راغبين فى التصويت على اعتمادات أخرى لمشروع أصبح مصيره فى كفة الميزان ، غير أن هوب هاوس تمكن أخيرا من الحصول على جزء من المبلغ الاضافى المطلوب ومقداره ١٨ ألف جنيه استرلينى من أعضـــاء مجلس الادارة بعد أن تعهد لهم بأنه سوف يحمل البرلمان على الموافقة على اعتماد المبلغ الاضافى ، وفى يوم ١٨٣٦/٣/٣١ بعث هوب هاوس بتعليماته الى الكولونيل شيزنى يطلب منه التأكد من أن البعثة ســـوف تنتهى من

أعمالها فى أواخر شهر يونيو ، وبعد ذلك يتعين على شيزنى ، اذا كانت الظروف مواتية ، أن يعبر الفرات بمجرد وصوله الى البصرة ، ثم يعود فيعبره للمرة الثانية الى الخليج ، فاذا تعذر هذا الاسلوب من الناحية العملية فيتعين على شيزنى أن يسافر الى بومباى بعد أن يكون قد أنهى العبور الأول للفرات ويقوم بتسليم السفن التى فى عهدته الى الرئاسة(١)٠

وقد أطلق شيزنى سفينته الأولى عبر الفرت يوم ٣/١٦ وأطلق السفينة الثانية بعد ذلك بوقت قصير ثم بدأت عملية العبور فى شهر مايو ، وفى يوم ٢١ مايو انقلبت السفينة دجلة فى النهر بعد أن هب عليها تيار هوائى وغرقت ومعها عشرون من طاقمها ، بما فيهم شقيق مساعد ربان البعثة اللفتنانت لنش غير أن لنش استطاع هو وشيزنى أن يسبحا الى الشاطىء وعندما كانت السفينة الفرات تبحر بمفردها كادت آن تتحطم عند مستنقعات منطقة لملون الواقعة فى منتصف الطريق ، وفى يوم ١٠ يونيه وصلت الى البصرة حيث كان من المفروض أن يتزود رجال البعثة بالمؤن لرحلة العودة ، غير انهم لم يجدوا شيئا ، وبالتالى قرر شيزنى أن يسافر الى بوشهر اعتقادا منه بأن المؤن قد تكون قد أرسلت الى بوشهر ، حيث كان يأمل اجراء بعض الاصلاحات على السفينة ، غير انه لم يجد فى بوشهر شيئا من المؤن ولهذا قرر أن يبقى هناك فى انتظار وصولها ، وقد استغل فرصة وجوده فى بوشهر فقام بجمع المعلومات عن أهل الخليج وعن تجارته وعن امكانياته ، وأخذ يرسل التقارير التفصيلية الى هوب هاوس ، وكان يؤكد فى تلك التقارير على الأهمية السياسية والاستراتيجية لخط

---

(١) مجموعة المجلس والمراسلات السياسية العامة مجلد ٢ (١) من هوب هاوس الى شيزنى ١٨٣٦/٣/٣١ ٠

الفرات بالمقارنة الى خط البحر الأحمر وعلى الأخص بالنظر الى احتمال تحرك يقوم به الروس أو المصريون فى اتجاه العراق ، كما تحدث فى تلك التقارير برغم ما فى ذلك الحديث من غرابة عن السهولة والسرعة التى يمكن أن يتم بها نقل الجيش من شمال سوريا عن طريق الفرات وأن غابات طوروس يمكن ان تستغل فى توفير الأخشاب لصنع الصنادل اللازمة التى يمكن أن تنقل مالا يقل عن مائة الف جندى ، وأنه لا يوجد على طول المسافة الممتدة الى البحر ما يمكن ان يعوق تحرك مثل هذا الجيش لا من جانب المصريين ولا من جانب الروس (١) ، والى تلك الدرجة كان شيزنى واثقا من نجاح مشروع الملاحة البخارية فى الفرات .. (وانى أقرر بأن كل من أتيح له بأن يعبر الفرات بعينين مفتوحتين لابد وان يقتنع بأن هذا النهر صالح للملاحة للسفن العادية ، وان هناك احتياطيا كبيرا من الوقود على ضفاف النهر ، أما ما بقى فيعتبر ذلك من التفاصيل .

وصلت المؤن الخاصة بالبعثة فى شهر يوليو ، غير أن شيزنى قرر البقاء هناك فى انتظار وصول البريد من بومباى ليحمله معه وبذلك يضفى على عمله أهمية أكبر . وقد حل شهر اغسطس وانقضى بدون أن يصل البريد ، وفى هذه الأثناء توجه شيزنى الى الكويت حيث اكتشف وجود بعض المبعوثين المصريين هناك ، الأمر الذى أكد له بأن حملة محمد على باشا على الخليج على وشك أن تبدأ . وعند وصول أخبار بدء الحملة المصرية على بغداد فى نهاية أغسطس خشى شيزنى من أنه اذا ذهب الى العراق فقد

---

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من شيزنى الى هوب هاوس ١٨٣٦/٧/١٦ بوشهر .

يقع أسيرا فى يد ابراهيم باشا»، ولهذا رأى بأن يقوم أولا بعملية مسح لنهر دجلة واذا أمكن نهر قارون وذلك قبل أن يبدأ عمله فى الفرات (١) ٠

وفى يوم ٢٨ سبتمبر وصل شيزنى الى بغداد قادما من بوشهر ، وهناك وجد رسالة تنتظره من هوب هاوس بتاريخ ١ يونيه ، تكلفه بالقيام بعبور نهر الفرات وقد حاول هوب هاوس فى تلك الرسالة أن يؤكد بأن وقوع حرب بين محمد على باشا والسلطان التركى احتمال مستبعد وبالتالى فانه لا خوف عليه من المصريين فى تنفيذ مهمته (٢) ٠ غادر شيزنى بغداد فى طريقه الى دجلة وأخذ يبحر ببطء شديد حتى أنه لم يتمكن من الوصول الى القرنة وهى تقاطع الفرات قبل يوم ١٦ أكتوبر ٠ وقد وجد هناك الباخرة « هيولنس » التى تحمل البريد من بومباى فى انتظاره ، وبعد تسلمه للبريد بدأ شيزنى رحلة الفرات ، غير أن الرحلة كانت بطيئة بحيث انه لم يتمكن من الذهاب الى أبعد من مستنقعات للمون فى نهاية اكتوبر حيث توقف هناك بسبب عطب أصيبت به ماكينة الباخرة بسبب تسرب الرمل الى أنابيب الهواء ، كما كسر الكباس ولهذه الأسباب توقفت الرحلة ، ثم عاد شيزنى الى البصرة حيث سلم قيادة البعثة الى الكابتن ايست كورت وكلفه بمواصلة عمليات المسح لنهرى دجلة وقارون وبانتهاء مهمة البعثة فى بغداد يوم

---

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من شيزنى الى هوب هاوس ١٨٣٦/٩/٢٧ ٠

(٢) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودة الى الحاكم فى بومباى ١٨٣٦/٧/١ (رقم ٣٣٧) ومرفق معها خطاب هوب هاوس الى شيزنى مؤرخ ١٨٣٦/٦/١ ٠

١٨٣٧/١/٣١ غادر شيزنى بغداد فى طريقه الى بومباى (١) ٠

وفى بريطانيا ساد الاعتقاد بأن البعثة قد منيت بالفشل التام فى مهمتها رغم أن كلا من هوب هاوس وبالمرستون ـ لأسباب واضحة لم يستطيعا الاعتراف بذلك : (اننا هنا فى بريطانيا لا نعتقد بأن البعثة التى توجهت الى الفرات قد فشلت فى مهمتها ، كما أننا من ناحية اخرى لا نعتقد بأنها حققت نجاحا كاملا فى هذه المهمة) ٠ هذا ما جاء فى رسالة هوب هاوس الى السير روبرت جرانت حاكم بومباى فى شهر فبراير ١٨٣٧ ٠ أما الرأى العام فى الهند فقد كان أكثر وضوحا وحسما ، فقد لخصت احدى صحف بومباى نتائج أعمال البعثة فى الأبيات الشعرية الآتية :

فلننشىء ثلاث خطوط بدلا من خط واحد ٠
قبل أن يبدأ خط البحر الأحمر
أيها الناس اذرفوا الدموع عند مياه بابل
على ماضاع من نفوذ وماسوف يضيع
وعلى البريد الذى فقدناه فى هذه العملية (٢)

---

(١) البيانات الخاصة بتلك البعثة وردت فى كتاب « شيزنى » (بعثة لنهرى الفرات ودجلة) مجلدين طبعة لندن ١٨٥٠ وكتابه الثانى (قصة بعثة الفرات) طبعة لندن ١٨٦٠ أما الأول فيضم المعلومات التى كانت البعثة قد جمعتها عن جغرافية المناطق التى زارتها وعن سكانها وعن الحالة التجارية فيها أما الكتاب الثانى فانه يضم قصة البعثة نفسها وقد صدر بعد تأخير وجدل كثير حول هذا الموضوع ٠

(٢) « لمحات عن مدينة بومباى القديمة » ص ١٣٤ وقد أشار اليه دوجلاس ٠

كان جرانت أحد كبار المسئولين الذين تحمسوا لمشروع الفرات كما كان أحد الذين تبنوه فى انجلترا • وكان ينطلق فى تأييده للمشروع من أسباب عملية وفنية ، فلقد كانت تقارير شيزنى السابقة واللاحقة كلها تشيد بالمشروع وتدعو اليه ، ولهذا كانت تقلل من عيوب خط الفرات ، بينما تبالغ فى ميزاته ، ولسوء الحظ فان آراء شيزنى ذهبت أدراج الرياح ، مما حمل هوب هاوس الى استغلال أخطاء شيزنى ويبرهن على أن فشل البعثة يعود الى عدم صلاحية رئيسها وليس الى عيب فى الخط نفسه ، وقد انتهز هوب هاوس الفترة التى كان يقضيها شيزنى فى بوشهر فى انتظار البريد من بومباى قبل بدء الرحلة ليهاجمه فى رسالة كتبها اليه فى شهر نوفمبر ١٨٣٦ ويقول له فيها (ان الهدف الأساسى من مهمتك ليس هو نقل البريد من البصرة الى سوريا وانما عليك أن تثبت بالتجربة العملية بأن فى وسع بحارتك ن تقطع النهر فى نفس الفترة التى حددتها لذلك ، واننى سوف أشعر بخيبة الأمل لو عرفت أنك قد فوت تلك الفرصة لانجاز الجزء الهام من مهمتك والصعب منها بانتظارك رسائل السيد روبرت جرانت (١) ومما ضاعف خيبة الأمل هذه هو أن المبلغ الاضافى وقدره ٨ آلاف جنيه استرلينى الذى ساهمت به شركة الهند الشرقية لاتمام المشروع قد تم دفعه بشرط واحد ، وهو أن يتم عبور النهر الذى هو مفتاح المشروع وبما أن هذا لم يتم حسبما كان مقررا ، فلا توجد هناك مبررات لاظهار الأسباب التى صرفت بموجبها المبالغ التى رصدت للمشروع وهى ٤٠ الف الى ٤٢ الف جنيه استرلينى ، ورغم فشل المشروع فقد كان هوب هاوس مصمما على تنفيذه ، كما كان مصمما على استبعاد شيزنى كليا من المشروع ففى رسالته الى

---

(١) متفرقات وزارة الخارجية من هوب هاوس الى شيزنى ١٨٣٦/١١/٣٠ •

الكولونيل اوكلاند الحاكم العام للهند فى‌شهر فبراير ١٨٣٧ ذكر هوب هاوس: « بأنه ليس من المناسب بأن نعهد الى الكولونيل شيزنى برئاسة هذه البعثة مرة أخرى فقد كانت اجراءاته تتسم بسوء التصرف والتى أعتقد بأنها هى من الأسباب الرئيسية وراء فشل البعثة ، وبالتالى فان اللوم يقـع ألى حد كبير فى السماح لمعاونيه من الضباط بالاتصال بالصحف والاساءة الى السلطات المسئولة فى كل من الهند وانجلترا ».

وعندما علم هوب هاوس بعد شهرين أن شيزنى بمبادرته الخاصة كان يقوم بنقل البريد من الهند عن طريق الفرات وأنه امتنع جرانت بالموافقـة على ذلك فكتب رسالة الى اوكلاند يقول فيها (لايجوز اطلاقا تعيين شيزنى مرة ثانية فى سوريا وأن اللفتنانت لينش الذى تقرر أن يتوجه الى بغداد فى ١٥ من الشهر هو الرجل المناسب لهذه المهمة .... لقد طغى شيزنى على جرانت ويبدو أنه أصيب بمس من الجنون (١) وكانت خطة هوب هاوس ان يستمر فى عمليات مسح نهرى دجـــلة والفرات باستخدام البـــاخرة الفرات وان يقوم فى الوقت نفسه بنقل البريد من وقت الى آخر . وعلى أية حال فلم يكن من المفروض أن يحتفظ لينش باتصالات منتظمة بين منطقتى البحر الأبيض المتوسط والخليج عن طريق الفرات وأن القسم الأكبر من هذا البريد كان يجرى ارساله عن طريق البحر الأحمر ، فاذا ما أريد ارسال نسخ اضافية من هذا البريد عن طريق العراق فهذه النسخ يمكن ارسالها عن طريق القوافل ، وهو النظام الذى أدخله فارين أخيرا لنقل البريد بين دمشق وبغداد (وبين بيروت ودمشق) أو عن طريق النظام الذى كلف تايلور

---

(١) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٨ من هوب هاوس الى اوكلاند ١٨٣٧/٤/١ .

بانشائه لنقل البريد بين البصرة والمحمرة حيث سيتم نقل ذلك البريد مع بريد حمص ــ دمشق (١) أما اذا تصادف وجود الباخرة الفرات فى بغداد أو فى أى منطقة أخرى من العراق عند وصول البريد فيمكن لهذه السفينة أن تنقله عن طريق الفرات كما يمكن أن تنقله أيضا اذا سمحت الظروف من البصرة • ومن الواضح كل الوضوح أن طريق البحر الأحمر سوف يبقى الطريق الرئيسى للموصلات بين انجلترا والهند (٢) •

وعندما اتخذت الحكومة البريطانية هذه القرارات لم يغب عن بالها الاعتبارات السياسية التى دفعتها فى الدرجة الأولى الى تشكيل بعثة الفرات ، لقد كانت هذه الاعتبارات معروفة تماما فى الأشهر الأولى من عام ١٨٣٧ أكثر منها فى عام ١٨٣٤ ــ ١٨٣٥ • وكان شبح الأزمة يخيم على كل من شاه فارس ومحمد على باشا ، وهما يعدان العدة للدخول فى مغامرات جديدة للغزة والتوسع ، الأول بتأييد مستتر من روسيا ، والثانى بتأييد علنى من فرنسا ، ولتلك الأسباب ان لم يكن لأسباب أخرى كان من الأفضل أن تبقى البعثة فى منطقة عملها لتقوم بمراقبة نشاط الروس والمصريين فى المنطقة من ناحية وتدعيم خطوط المواصلات مع فارس من ناحية أخرى (٣) •

---

(١) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودات الحاكم العام ١٨٣٦/١٢/١ ، ١٨٣٧/٣/٣ ، رقمى ٣٤٤ ، ٣٥٤ •

(٢) متفرقات وزارة الخارجية مجلد ٨٣٧ من هوب هاوس الى جرانت ١٨٣٧/٢/٢٣ •

(٣) لقد أقام تايلور محطات اعادة فى كل من كورمنشاه وهمذان وذلك فى عام ١٨٣٨ وذلك لنقل البريد من المفوضية فى طهران الى بغداد (انظر مسودات المجلس) التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودة الحاكم العام ١٨٣٨/٨/١ (رقم ٣٩٤) •

استأنفت البعثة عملها برئاسة لينش بعد تغيير اسم البعثة واستمرت فى عملها هذا على امتداد فترة الخمس سنوات التالية ، حتى عام ١٨٤٢ .

وقد ثبت من خلال وجود البعثة فى العراق أن دجلة والفرات لا يصلحان فى أى وقت من الأوقات كطريق دولى بين أوروبا والشرق ، غير أن تشكيل البعثة وما حققته فى مهمتها الى جانب الاكتشافات التى توصلت اليها والمعلومات السياسية والتجارية التى جمعتها قد أكدت صحة آراء شيزنى بالنسبة لتشكيل هذه البعثة .

وقد توفى فتح على شاه عام ١٨٣٤ وخلفه فى الحكم حفيده محمد نجل ولى العهد السابق عباس المتوفى عام ١٨٣٣ ، وبالرغم من أن الفضل فى اختيار محمد شاه لتولى الحكم يعود الى الجهود البريطانية فى اقناع الشاه الأكبر والدعم الذى لقيه من السفير الروسى والبريطانى فى طهران والى الحملات الناجحة التى خاضتها القوات الملكية الفارسية بقيادة الضباط البريطانيين ضد منافسيه على الحكم ، فقد أعلن الشاه الجديد بوضوح أنه لا يهتم بنصائح بريطانيا . ونظراً لكون الشاه الجديد قد نشأ فى منطقة أذربيجان فقد كان يحترم روسيا ويخشاها أكثر مما كان من بريطانيا ، كما أنه لم ينس اقدام بريطانيا على الغاء البنود الخاصة بمسألة الدفاع عن فارس فى معاهدة طهران المعقودة عام ١٨٢٨ . كما لقيت أطماعه فى الفتوحات والتوسع تساهلا من جانب الروس الذين كان يهمهم أن تبقى فارس ضعيفة ومفككة ، وأن — ينصرف اهتمام الشاه عن التطلع لاسترجاع أقاليم القوقاز وعلى العكس من ذلك كان البريطانيون ينفعلون بأن يهتم الشاه باجراء الاصلاحات الداخلية ، غير أن الشاه لم يعد يستمع الا لمشورة شخصين من مستشاريه هما الكونت سموينيش السفير الروسى

فى طهران الذى ظل يحثه على العمـــل الى استعادة الامبراطورية نادر شاه ، والحاج ميرزا اغاس رئيس وزرائه الذى كان قصير النظر (١) ·

ان التغيير الذى طرأ على نظام الحكم فى فارس والاضطرابات السياسية التى كان من المتوقع أن تصاحب ذلك التغيير ، حملت مجلس الهند فى نهاية ١٨٣٤ الى الاقتناع بضرورة نقل الاشراف على المفوضية البريطانية فى طهران من شركة الهند الشرقية الى حكومة التاج ، وذلك للمحافظة على المصالح البريطانية فى فارس ·

وفى شهر يناير ١٨٣٥ وافقت اللجنة السرية لمجلس الادارة على هذا الاقتراح وأعربت عن رغبتها فى أن يقوم الممثل البريطانى فى طهران بتكييف اجراءاته وفق هذا النظام وأن تحدد اجراءاته منذ ذلك الوقت فصاعدا فى اطار العلاقات البريطانية الروسية · ولهذه الاعتبارات ارتأى مجلس الادارة أن علاقات بريطانيا بفارس ، وهى علاقات كانت ترتبط بسياسة أوروبا أكثر منها بسياسة الهند ، هذه العلاقات يمكن توجيهها بأسلوب أفضل من داخل بريطانيا بدلا من الهند (٢) ، وعند عودة بالمرستون الى وزارة

---

(١) كان مغرورا الى حد الحماقة وجاهلا بالسياسة والشئون المالية والعلوم العسكرية جهلا تاما ومع ذلك فقد كان يشعر بالزهو لتلقى المعلومات وكان يشعر بالغيرة الى حد كبير ، كما كان جافا فى حديثة ومتغطرسا فى سلوكه وكسولا فى عمله وقد أدت تصرفاته الى جعل الخزانة البريطانية على وشك الافلاس كما كانت ستؤدى بالبــلاد الى الثورة . هكذا كان حكم رولنســون على الحاج ميرزا أغاس (انجلترا وروسـيا فى الشرق ص ٨١) ·

(٢) مذكرة رقم ٢١٤/٦٥ وزارة الخارجية حول الأسباب التى دعت الى نقل الاشراف على المفوضية فى فارس من سلطة الشركة الى سلطة التاج ٩/٥/١٨٥٦ ·

الخارجية فى شهر ابريل ١٨٣٥ تم تنفيذ هذا الاقتراح فعين هنرى اليس وزيرا مفوضا فى طهران وممثلا للتاج البريطانى وقد عهد اليه بالسفر الى فارس وتقديم تهانى الحكومة البريطانية للشاه الجديد بمناسبة اعتلائه عرش فارس ، كما عهد اليه بالادلاء بآرائه حول افضل الطرق لتقدم العلاقات البريطانية الفارسية · وقد اصبح بالمرستون هذه المرة أكثر ادراكا بخطر قيام الروس باحتلال فارس مما كان فى السابق ···· وفى شهر أكتوبر ١٨٣٥ صرح بالمرستون : (ان استقلال فارس هدف من الأهداف الكبيرة للسياسة البريطانية ليس لارتباط ذلك بالهند فحسب وانما لارتباطه باستقلال الباب العالى أيضا لأن الروس يمارسون نفس الاستراتيجية السياسية تجاه كل من فارس والباب العالى) فروسيا كانت تتوغل فى منطقة البحر الأسود وتنوى أن تقوم بنفس الشىء فى منطقة قزوين والهدف هو الاستيلاء على كل من فارس والباب العالى (١) ·

كذلك كان بالمرستون يعرف أن عداء الشاه الجديد يعود الى حد كبير الى قيام بريطانيا بالغاء البنود الخاصة بالدفاع فى معاهدة طهران ، وأن ثقة الفرس فى تأييد هذه البلاد ومناصرتها لهم قد حل محلها اليأس من مساعدة انجلترا لهم فى صراعهم للاحتفاظ باستقلال بلادهم ضد روسيا ، كما أن اعتقاد فارس بأنها لاتستطيع الوقوف فى وجه روسيا بغير مساعدة من بريطانيا قد دفعهم أكثر للانصياع لأطماع روسيا (٢) . فاذا قام الروس فى توسيع حدودهم شرقا نحو افغانستان فان ذلك سيقرب الروس أكثر الى حدود الهند . ولهذه الاعتبارات كان هدف بريطانيا ذا شقين :

---

(١) من بالمرستون الى اللورد درهم السفير البريطانى لدى روسيا ١٨٣٥/١٠/٢٧ وقد أشار الى ذلك ونستون فى كتابه (سياسة بالمرستون الخارجية) فصل ٢ ص ٧٤١ — ٧٤٢ .

(٢) متفرقات الخارجية البريطانية مجلد ٨٣٣ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٦/٥/٦ ·

تعديل معاهدة ١٨١٤ بحيث تتعهد بريطانيا بمساعدة الشاه اذا تعرضت بلاده لأى هجوم من الخارج ، والثانى هو الحيلولة دون قيام الشاه بهجوم على أى دولة أخرى . والواقع أن الشق الثانى كان الشق الأكثر أهمية فى تلك المرحلة ، ليس لمنع الشاه من التفكير فى خلق صدام مع روسيا فحسب بل ان ذلك سيحول بينه وبين غزو افغانستان ، وان خير ضمان لكلا الاحتمالين هو أن تتعهد بريطانيا للشاه بالدفاع عن فارس بشرط ألا يقوم الشاه بالاعتداء على أى دولة قبل استشارة الحكومة البريطانية فى ذلك .

وقد اختير الدكتور جون مكنيل الطبيب السابق للمفوضية البريطانية فى طهران والوزير المفوض الجديد بتنفيذ تلك المهمة وذلك عند تعيينه فى ذلك المنصب فى شهر مايو ١٨٣٦ ، وقد طلب منه بأن يعرض على الشاه ابرام اتفاقية دفاعية جديدة وفقا للصيغة التى اقترحها بالمرستون بالاضافة الى اضافة فقرات جديدة للاتفاقية تنص بالمساعدة وتختلف عن الفقرات التى وردت بمعاهدة طهران السابقة ، على أن تحل الفقرات الجديدة محل الفقرات الواردة فى الاتفاقية السابقة أو عقد معاهدة جديدة (فاذا وافق الشاه على عقد معاهدة جديدة فيتعين على مكنيل أن يحذف منها البنود التى تحظر على الحكومة البريطانية التدخل فى أى صراع ينشب بين فارس وافغانستان مالم يطلب اليها الطرفان المتنازعان ذلك) كما يتعين على الدكتور مكنيل اضافة ملحق للمعاهدة فى شكل اتفاق تجارى جديد يمنح بريطانيا نفس الامتيازات التى حصلت عليها روسيا بموجب معاهدة تركمان شاى والتى تنص بتعيين قناصل بريطانيين فى أى جزء من الأراضى الفارسية .(١)

والواقع أن هذه الأهداف كانت على جانب كبير من الأهمية فاذا كان لابد من الدكتور مكنيل أن يحققها فعليه أن يتحرك بسرعة لأن جميع القرائن

---

(١) مسودات المجلس التقارير السرية للهند مجلد ٩ مسودات الى الحاكم العام بتاريخ ١٨ مايو ، ٧ يونيه ، ١٥ يونيه ، ٧ يوليه ١٨٣٦ (أرقام ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٨) ومرفق معها صور من تعليمات مكنيل .

فى النصف الثانى من عام ١٨٣٦ كانت تدل على تحرك وشيك يقوم به الجيش الفارسى فى اتجاه الشرق • وكان احد الدلائل هو ابعاد الضباط البريطانيين من القصر الملكى ، الأمر الذى اعتبر كمقدمة لابعادهم من الجيش الفارسى كليا ، وكان هذا يعنى شيئا واحدا ، وهو ان الشاه ادرك أن وجودهم فى فارس يشكل عائقا للخطة التى كان ينوى القيام بتنفيذها •

وفى شبه الجزيرة العربية كانت هناك تيارات أخرى • وحتى قبل ان تصطدم خطة محمد على باشا فى التحرك الى سوريا بوجود البعثة البريطانية فى العراق كان محمد على باشا يتطلع الى الجنوب كطريق بديل الى العراق التركى ، وكان فيصل بن تركى الأمير الوهابى الجديد يلاقى صعوبات كبيرة فى اخضاع أهالى الأحساء لسلطته بعد أن تمرد شيوخ بنى خالد عليه ، كما كان عبد الله بن أحمد حاكم البحرين يحاصر المناطق الساحلية للاحساء • وفى صيف عام ١٨٣٥ قام أحمد باشا والى الحجاز بايفاد وكيله عبد الله بن مشارى الى الاحساء وكان هذا من تجار البحرين السابقين ، وقد سافر مشارى عن طريق مسقط حيث رحب به السيد سعيد وقدم له كل المساعدات الممكنة • وعند وصول مشارى الى القطيف أعلن أنه قد جاء ليتولى البلاد باسم أحمد باشا الذى عينه هناك مقابل دفع ايجار سنوى قدره ٢٠ ألف الى ٢٤ الف ريال نمسوى • غير أن اقامة مشارى فى القطيف كانت قصيرة ، فقد قام جنود فيصل بطرد مشارى من القطيف وتأكيد سلطة فيصل على المنطقة (١) •

لقد تردد فى أرجاء الخليج بأن القصد من مهمة مشارى هو صرف أنظار فيصل عن اليمن حيث كان أحمد باشا يحاول استكمال سيطرته على

---

(١) متفرقات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ (لمحة تاريخية عن الوهابية من ١٨٣٢ — ١٨٤٤ تأليف كمبل) •

قبائل عسير اليمنية (١) كمـا كان من الممكن أن تكون مهمة مشـارى هى لاختبار سيطرة فيصل على الأحساء وفى نفس الوقت جس نبض السيد سعيد فى التعاون على القيام بعمل مشترك لاخضـاع كل من البحـرين والاحساء للسلطة المسقطية المصرية المشتركة •

وكان محمد على باشا قد عرض مثل هذا المشروع على السيد سعيد عام ١٨٣١ غير أن اهتمام محمد على فى ذلك الوقت كان مركزا على الاستيلاء على سوريا أكثر مما كان مركزا على مغامرات بعيدة من هذا النوع ، ولهذا حاول أن يخدع السيد سعيد بعرض اقتراح مضاد يضم الأحساء والبحرين الى سلطة السيد سعيد ، ووضع قوات كافية فى البلدين لتمكين السيد سعيد من الاحتفاظ بهما فى مقابل دفع زكاة سنوية مقدارها ٣٠٠ الف ريال نمسوى • غير أن السيد سعيد رفض الفكرة رفضا باتا(٢) أما ما اذا كانت مهمة مشارى تتعلق باحياء تلك الخطة أم لا فان ذلك كله كان نذيرا بمـا يخبئه الغيب من أحداث •

* * *

---

(١) من مستهل عام ١٨٣٤ تحرك أحمد باشا ضد عناصر من الحامية المصرية فى الحجاز التى سبق أن تمردت على سلطته قبل ١٨ شهرا من ذلك التاريخ وأقاموا لهم سلطة فى اليمن فى كل من مخا والحديدة .وبنهاية ربيع ١٨٣٤ تمكن أحمد باشا من اخضاع المتمردين عليه كما تمكن فى نفس الوقت من ارغام اليمن فى صنعاء على الاعتراف بسلطة محمد على باشا •

(٢) سجل الرسائل السياسية لحكومة بومباى مجلد ١٥ من الحاكم الى مجلس الادارة ١٨٣٢/٤/١٣ (رقم ١٠ الادارة السياسية) •

الفصـــل الثامن
الأزمتان المصرية والفارسية (١)
١٨٣٧ - ١٨٤٠

في أواخر عام ١٨٣٦ أفرج محمد علي باشا عن خالد بن سـعود أحد افراد الأسرة السعودية ، وكان الأخير قد أخذ أسيرا من جانب القوات المصرية مع أخيه الأمير عبد الله الذي نفذ فيه ابراهيم باشا حكم الاعدام في القسطنطينية بعد سقوط الدرعية عام ١٨١٨ ، ومنذ ذلك الوقت كان خالد يقيم في القاهرة تحت الاقامة الجبرية لدرجة انه تطبع بالطبـاع المصرية . وها هو الآن يتم اعداده لاسقاط حكم فيصل واخضـاع نجد والاحساء لسلطة محمد علي باشا . وكانت الأوامر قد صدرت الى اسماعيل باشا حاكم المدينة لتزويد خالد بما يحتاجه من الجنود والعتاد .

وفي أوائل عام ١٨٣٧ بدأ خالد تحركه نحو منطقة القـاسم . وقد حاول فيصل في البداية ان يقنع محمد علي باشا بالكف عن تأييده لخالد ، وعرض مقابل ذلك الأعتراف به كحاكم على نجد ، غير أن الوالي لم يكترث لطلب فيصل ، وفي أواخر ابريل أخذت قوات خالد تقترب من الرياض واستطاع بسرعة الاشـتباك مع القوات التي يقودها فيصل وهزيمته في

---

(١) ان الجزء الأكبر من هذه المعلومات والأخرى الى وردت في الفصل السابق قد ظهرت في مقـال كتبته في شهر يوليو وأكتوبر عام ١٨٦٥ في مجلة دراسات الشرق الأوسـط « بعنوان » حملة محمد على الى الخليج الفارسي « ١٨٣٧ - ١٨٤٠ » واني لادين بالشكر الى رئيس تحرير هـذه المجلة البروفسور ايلي خضوري وناشرها المستر فرنك كاس لسماحهما لي لاعادة نشر هذه المعلومات في هذا الكتاب .

المعركة . وتراجع فيصل الى الاحساء بعد أن أخلى العاصمة لخصمه (١) .

وقد تلقى الكابتن هانيل المقيم السياسى البريطانى بالوكالة نبأ سقوط الرياض فى الأسبوع الثانى من شهر مايو واقترن هذا النبأ بانتشار اشاعة عن القوات المصرية المساندة لخالد بأنها كانت أكثر عددا مما كان معروفا فى البداية ، وعلى الفور أرسل هانيل أحد الطرادات الى البحرين برسالة عاجلة الى حاكمها عبد الله بن احمد وبرسالة أخرى الى المقيم البريطانى هناك لاستيضاحهما عن صحة تلك الاشاعة وعن التحركات المصرية . وقد رد عبد الله بن أحمد على رسالة المقيم بأن ذكر له بأن القوات المصرية التى هاجمت الرياض تتألف من الف فارس والف من المشاة ، وأن هذه القوات قد وصلت الى ما وراء مدينة الرياض بمسيرة سبعة أو ثمانية أيام . اما وكيل المقيم البريطانى فقد حدد عدد القوات الراكبة بـ ١٥٠٠ والمشاه بنحو ٥٠٠ رجل كلها بقيادة اسماعيل باشا نفسه ، وكان مع القوات اثنا عشر مدفعا وأربعة مدافع من طراز مورتر ، وكانت هذه الأسلحة الميكانيكية تحت اشراف راشد باشا وكانت قوات الاحتياط ترابط فى القطيف وتتألف من ٨٠٠٠ خيال بقيادة خورشيد باشا ، وفى جميع المناطق الواقعة بين الرياض والمدينة قد اصبحت حاميات عسكرية كدليل على ان هذا الجيش ينوى البقاء بصفة دائمة فى البلاد . وكان الشيخ عبد الله بن احمد كما جاء فى رسالة وكيل المقيم البريطانى قلقا من الهدف النهائى للحملة وكان اكثر ما يخشاه ان يقوم تعاون بين محمد على باشا والسيد

---

(١) مجموعات مجلس الادارة مجلد ١٦٩٩ رقم ٦٨٧٧٢ من هانيل الى ويلومى ، ٢/٢٥ ، ٣/١٥ ، ٨ ، ١٥/٥/١٨٣٧ كذلك راجع مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٤ مقالة كامبل « لمحة تاريخية عن الوهابية » ١٨٣٢ — ١٨٤٤ .

سعيد سلطان عمان ، وذلك لاحتلال البحرين عن طريق أساطيل السـيد سعيد (١) :

وقد قام هانيل بارسال التقارير التى تلقاها حول هذا الموضوع الى حكومة بومباى الى ماكنيل فى طهران ، ومن طهران أرسلها ماكنيل الى لندن حيث وصلت الى وزارة الخارجية البريطانية يوم ١٣ نوفمبر (٢) ، غير أن بالمرستون فضل التربث فى الموضوع ريثما ينجلى له الموقف فى شـبه الجزيرة العربية (٣) ، وفى أول ديسمبر تلقى بالمرستون مذكرة من بونسونبى وكانت هذه المذكرة قد تسلمها من اللفتنانت لينش من بغداد ، وتاريخهـا أغسطس ، وتتضمن الرسـالة معلومات على جانب كبير من الخطورة ، اذ يذكر فيها : (انه من الصعب تحديد صورة الأوضاع الراهنة والذى أود أن انبه اليه هو انه لا توجد أى قوة فى هذه المنطقة تستطيع التصـدى لمحمد على باشا او أن تضع حدا لمحاولته الرامية الى الاستعانة بالقبائل العربية فى العراق لتحديد أهدافها . فالعرب بوجه عام اما منقسمون ضد بعضـهم البعض أو انهم فقراء . ورؤساء عشائر المحمرة يعارضون نفـوذ الباشا

---

(١) نفس الحلقات والمجلد والمجموعة ، من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٧/٦/٨ (رقم ٧٨ الادارة السياسية) ومرفق معه خطاب عبد الله بن حمد الى هانيل المؤرخ ١٧ صفر ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٧/٥/٢٣ ، وخطـاب ميرزا محمد على الى هانيـل أيضـا المؤرخ ١٨ صـفر ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٧/٥/٢٤ .

(٢) انظـر فارس والخليج المجلد ٥٧ من ماكنيل الى بالمرسـتون ١٨٣٧/٨/٣١ ورقم (٦٧) .

(٣) مراسلات مجلس الادارة السياسية السرية والعامة المجلد الثامن من جى باك هاوس (السكرتير المسـاعد بوزارة الخارجية) الى سكرتير مجلس الهند ١٨٣٧/١١/٣ .

بصورة علنية ، ولا يمكن لهذه الأحوال أن تستمر لأجل غير مسمى ، كما أن دخل العراق لا يشكل الا جزءا ضئيلا من ميزانية الحكومة التركية ولعلكم أعلم منى بمدى علاقة محمد على بهذه الأوضاع ، ورغم ذلك فان تحركات الباشا تتطلب اتخاذ قرار فورى بشأن مصير الامبرطورية العثمانية ، ومدى تأثر مصالحنا المباشرة فى الهند اذا استولى محمد على على ضفاف أنهار العراق وموانى الخليج الفارسى فضلا عن سواحل البحر الأحمر التى سمح له للأسف الشديد باحتلالها ، فقد كان من مصلحة الباشا أن يستولى على هذه المناطق جميعها فذلك أمر يعتبر حيويا بالنسبة اليه لأنه سوف يدعم موقفه وبالتالى يمكنه من تحدى بريطانيا الا اذا تورط فى حرب منهكة وطويلة فى صحراء شبه الجزيرة العربية ٠٠ وعلى حين يخفى محمد على نواياه بالنسبة للعراق فان جيوشه تتقدم فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، كما انه نجح فى نشر بذور الخلاف بين الوهابيين وفرض نفوذه على هؤلاء الزعماء الى حد ما ، مستغلا مساندة أحد خصوم الأمير الوهابى فى نجد ، وقد سمعنا (وهذا أمر مشكوك فيه) أن مرشح الباشا موجود بالفعل فى الاحساء وهى أحدى المقاطعات الخصبة فى نجد ولا تبعد كثيرا عن حدود الخليج الفارسى (١) ٠

بعد مضى ثلاثة أيام من استلام بالمرستون لهذا التقرير ، علم من كامبل الموجود يومئذ فى الاسكندرية بأن ابراهيم باشا قد غادر مصر الى سوريا فى يوم ٢٥ اكتوبر ، وذلك بعد مناقشة طويلة جرت بينه وبين كامبل ، وتناولت عجز باشا بغداد عن كبح جماح القبائل البدوية التى كانت تتحرش بسوريا (٢) ٠ وكان هذا شيئا واضحا ٠ وفى يوم ٨ ديسمبر أوعز بالمرستون

---

(١) وزارة الخارجية — خطاب من لينش الى بونسوبنى ، أغسطس ١٨٣٧ ومرفق بخطاب بونسوبنى الى بالمرستون ١٨٣٧/١٠/٣٠ (رقم ٢٦٠)٠

(٢) وزارة الخارجية — من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٧/١١/٣ ٠ (رقم ٧١) ٠

الى كامبل بالاتصال بمحمد على باشا وبحث هـذا الموضوع معه بطريقة ودية ، وطلب اليه بأن يوضح للباشا بأن حكومة صاحب الجلالة سوف تشعر بالأسف حيال اى خطوة يقوم بها الباشا لمد سلطته الى بغداد(١)، وفى اليوم نفسه قرن بالمرستون توجيه تحذير عنيف : وكتب الى كامبل يقول له : « انه ينبغى عليك أن تبلغ الباشا بأن لدى الحكومة البريطانية معلومات عن تحركات لقوات محمد على باشا فى سوريا وشبه الجزيرة كمحاولة منه لمد نفوذه الى الخليج الفارسى والعراق ، وبناء على ذلك يقتضى أن توضح له فى صراحة تامة بأن الحكومة البريطانية لا يسعها أن تتجاهل مثل هـذه الأحداث .

سلم كامبل هـذا التحذير فى أوائل شهر ابريل عام ١٨٣٨ ، وقد انكر محمد على انكارا تاما بأن له أطماعا فى العراق وأما بالنسبة للخليج الفارسى فليس من حق كامبل التدخل فى هذا الموضوع ، وأن البلد الوحيد الذى يحق له التحدث فى ذلك هو حكومة مسقط وأن محمد على يكن لها كل احترام ومودة خصوصا وأن حاكمها قد أعلن عن رغبته فى ادخال الاصلاحات الحديثة الى بلده وبالتالى فان احتلاله لمسقط حتى لو تسنى له ذلك فانه لن يعـود عليه بأية فائدة ، لأن هـذه البلاد تتمتع بحكم مستنير (٢) ، غير أن كل هـذه التأكيدات لم تنجح فى تبديد شكوك بالمرستون ، أما كامبل فلم يجد من المناسب فى ذلك الوقت بالتوسع فى محادثاته مع الوالى حول نشاطات الأخير فى نجد لعدم وجود ما يبرر ذلك . وفى نهاية الأسبوع الثالث من شهر مايو أبلغ

---

(١) وزارة الخارجية — من بالمرستون الى كامبل ١٨٣٧/١٢/٨ . (رقم ٢٣) .

(٢) وزارة الخارجية من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٨/٢/٧ .

محمد على كامبل بأن نجد كلها قد أصبحت خاضعة له وبأن شبه الجزيرة العربية من مكة الى المدينة ثم الى سواحل الخليج قد أصبحت تحت نفوذه ، كما ذكر الوالى لكامبل بأن السيد فيصل بن تركى قد أعلن اعترافه بسلطة الوالى كما تعهد له بتوقيع العقوبات على المعارضين للوالى ، كما عرض السيد فيصل استعداده بتقديم المساعدة العسكرية ضد قبائل عسير اذا رأى الوالى ذلك وفى احتلال البصرة أيضا (١) . وبعد أربعة أيام على هذا الاجتماع ، وفى يوم ٢٥ من شهر مايو بالتحديد أعلن الوالى استقلاله عن الباب العالى وتأسيس حكم أسرة محمد على لمصر وسوريا (٢) .

وطبيعى ان يستأثر هذا الاعلان باهتمام بالمرستون أكثر مما استأثر باهتمامه خبر خضوع نجد لوالى مصر . وقد جاءت هذه الأخبار الى بالمرستون فى الوقت الذى كان مشغولا بأزمة أخرى مع حكومة فارس . وعلى الرغم من احتجاجات ماكنيل فقد قرر محمد شاه حاكم فارس التحرك بقواته من طهران صيف ١٨٣٧ للهجوم على الحيرة وهى الولاية الجبلية الواقعة على أقصى الطرف الغربى لأفغانستان ، وكانت هذه الولاية فى ملتقى الطرق الشرقية المتجهة الى كابول وقندهار ، وتمتد منها الى حدود الهند ، وتأسيسا على ذلك فان سيطرة الفرس على هذه المنطقة سوف تعطى الروس مركزا متقدما يسمح لهم بحبك المؤامرات ضد البريطانيين فى مناطق الحدود بين أفغانستان والهند ، ولم يكن من المستبعد أن يكون هجوم فارس على الحيرة قد تم بتحريض من السفير الروسى فى طهران الكونت سيمونيش ، وقد تجلى ذلك فى القرض الذى قدمه الروس الى

---

(١) وزارة الخارجية من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٨/٥/٢١ رقم (٣٥) . ومرفق به خطاب فيصل بن تركى الى خورشيد باشا ٩ ذو القعدة ١٢٥٣ الموافق ١٨٣٨/٢/٤ .

(٢) « مؤسس مصر الحديثة » دودويل .

فارس ويبلغ نحو ٥٠ ألف تومان أى (٣٥ ـ ألف جنيه استرلينى) كما وعدوا الحكومة الفارسية باسقاط الديون الروسية عليها فى حالة احتلالها للحيرة ، وكانت هذه الديون قد تراكمت على فارس كنتيجة للحرب الأخيرة بينها وبين روسيا (١) ٠

كان اقليم الحيرة خاضعا للأمير كرمان ميرزا من أسرة سادوزاى من فرع أسرة الدرانية فى افغانستان ٠ وقبل قيام الشاه بهذه الحملة كان قد عقد مفاوضات مع رؤساء أسرة البراكارى الحاكمة ، الأعداء التاريخيون لأسرة سادوزاى ، وهم دوست محمد خان حاكم كابول ، وكوهنديل خان حاكم كابول ، وكوهنديل خان حاكم قندهار ٠ وقد أسفرت تلك المفاوضات بالنسبة لحاكم قندهار عن عقد اتفاقية تحت اشراف الروس تنهى استقلال الحيرة ، وأما دوست محمد فلم يكن ينظر الى مسألة ضم الحيرة الى فارس بشيء من الارتياح خوفا من أن يؤدى ذلك الى اضعاف مركزه ، غير أن عداءه لكرمان ميرزا حاكم الحيرة ورغبته فى استعادة اقليم بشاور من رانجدت سنج حاكم البنغال الذى كان حليفا لحكومة الهند البريطانية جعلته يستقبل مبعوثى حكومتى فارس وروسيا ٠ كذلك فان احتمال عقد حلف بين أمراء أفغانستان وشاه فارس بتأييد من روسيا كان يشكل كابوسا لحكام الهند البريطانية ٠ ومن هنا أصبحت مهمة اللورد اكولند الحاكم العام للهند بعد عام ١٨٣٧ هى العمل على افشال قيام مثل ذلك الحلف والحفاظ على استقلال الدويلات الأفغانية كمناطق عازلة للهند ٠

وعلى الرغم من وصول ماكنيل الى طهران الا انه فشل فى محاولته لاقناع الشاه على تعديل معاهدة ١٨١٤ التى كانت تخول للحكومة البريطانية التدخل فى آى نزاع بين فارس وافغانستان ، كما أنه أخفق ايضا فى منع الشاه من الهجوم على الحيرة ، ولم يبق أمامه بعد ذلك الا أن يلجأ الى

---

(١) دليل الخليج فصل ١ ص ١٨٦٣ تأليف لوريمر ٠

أسلوب الحوار ، أو اذا فشل فى ذلك فليستخدم أسلوب التهديد لكى يقنع الشاه بعدم اللجوء الى الحرب • وهكذا وفى شهر مارس ١٨٣٨ غادر ماكنيل طهران الى معسكر الشاه الواقع بالقرب من الحيرة ، ولكنه قبل أن يغادر طهران كتب الى الحاكم العام فى الهند والى بالمرستون يذكر لهما بأن عملية استعراض القوة فى فارس أصبحت أمرا ضروريا لارغام الشاه على الاحتكام الى المنطق • وفى الأسبوع الثانى من شهر مارس أعرب اللفتنانت كولونيل جوستن شيل سكرتير المفوضية البريطانية فى طهران عن نفس الآراء تقريبا، وذلك بعد عودته من اجازته فى انجلترا ، وأكد بأن تدهور مركز بريطانيا فى فارس لا يمكن معالجته بقطع العلاقات الدبلوماسية مع فارس لأن الفرس قوم لايفهمون شيئا اسمه الاعتدال ، ولايمكن لغير القوة أن تزعزعهم عن موقفهم ، واقترح على غرار ماكنيل ، أن تقوم الحكومة البريطانية باحتلال جزيرة خرك بالقوة والاحتفاظ بها حتى يستجيب الشاه للمطالب البريطانية، وكتعزيز لهذا الاجراء اقترح شيل احتلال بريطانيا لبوشهر والاحتفاظ بالمنطقتين أو باحداهما لأهميتهما التجارية والاستراتيجية ، وقد قال فى هذا المعنى : « بأن مداخل الفرات سوف تصبح بعد ذلك تحت اشراف بريطانيا كما ستخضع منطقة شبه الجزيرة العربية والجزء الجنوبى من فارس لنفوذنا (١) ولكن المشكلة الوحيدة بالنسبة الى اقتراح شيل هو أنه قد يشجع روسيا على القيام بخطوة مماثلة باحتلال بعض المناطق الشمالية من ايران وقد يدفع الشاه الى توثيق علاقته بروسيا • ولكن هذه الاحتمالات على حد رأى شيل كانت احتمالات بعيدة بينما سيؤدى اتخاذ موقف سلبى من استفزازات الشاه الى نتائج عكسية على الفور (٢) •

---

(١) المراسلات السياسية والسرية العامة لمجلس ادارة شركة الهند الشرقية مجلد ٨ مذكرة شيل ١٨٣٨/٣/١٢ •

(٢) المراسلات السرية والسياسية لمجلس الادارة مجلد ٨ مذكرة شيل ١٨٣٨/٣/١٢ •

كان كل من بالمرستون وزميله هوب هاوس على استعداد لانتهاج سياسة متشددة مع شاه فارس وأن تطبق هذه السياسة المتشددة على ساحل الخليج • وفى منتصف شهر ابريل كتب هوب هاوس الى اوكلاند يقول : « اننى أتصور أنه فى امكانك أن تقوم باحتلال بوشهر واحداث قلاقل واضطرابات فى تلك المنطقة اذا تبين لك أن ذلك ضرورى(١) وتضمن الخطاب الذى كتبه الى بالمرستون فى هذا الشأن مايلى : « ان الوقت قد يأتى قريبا عندما يتعين عليك مخاطبة الشاه بلغة تختلف عن اللغة التى تعود سماعها منك قبل الآن، وقد يستدعى الأمر أن تقوم بعملية لاستعراض القوة البريطانية لارغام الشاه بأنه اذا كان يعرف الطريق الى الهند فاننا نعرف أيضا الطريق الى أصفهان (٢) غير أن وصول أخبار من الاسكندرية فى أوائل شهر يونيو عن خضوع نجد لمحمد على باشا وعزم الوالى على اعلان استقلاله عن الباب العالى قد حسم هذا الموقف ، فقد كتب هوب هاوس الى اوكلاند يقول : « اننا بالطبع سوف ننحاز الى جانب السلطان العثمانى ، ونحن لدينا بلا أدنى شك الامكانيات اللازمة لهذا الأمر أكثر من أية دولة من الدول الكبرى ، وقد لا يقتصر عملنا على منطقة البحر الأحمر وحدها وانما العراق سوف يكون فى متناول الجيش الهندى ، وأعتقد أنه فى امكانك أن تقوم بارسال بعض القوات الى كل من المنطقتين ، وعلى أى حال فان مهمتك الفورية هى أن تقوم باحتلال عدن فهى المنطقة التى كنت تساوم عليها منذ وقت طويل ، وهى ليست تابعة لمحمد على باشا ، وأتوقع حتى قبل وصول هذا الخطاب اليك أن — تكون قد قمت انت أو السير روبرت جرانت (حاكم

---

(١) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٨ خطاب من هوب هاوس الى اوكلاند ١٨٣٨/٦/٩ •

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ خطاب من هوب هاوس الى بالمرستون ١٨٣٨/٤/١٧ •

بومباى) بالاجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الخطة ، ولا يسعنى والحالة هذه إلا أن أفكر فى النتائج التى قد تسفر عنها خطوة محمد على باشا باعلان استقلاله عن العثمانيين ، الأمر الذى يبرر لنا احتلال جزيرة خرك ، اذ لابد لوالى مصر أن يتبع اعلانه الاستقلال بمهاجمة العراق فاذا حدث هذا فان القوات البريطانية سوف تكون فى أمس الحاجة الى قاعدة لها فى الخليج الفارسى للتصدى لقوات محمد على • وجزيرة خرك هى المكان الوحيد الذى يصلح كقاعدة عسكرية •. وصحيح أن خرك تابعة للشاه ، غير انه فى ضوء تصرفات الشاه الأخيرة فان الأمر بالنسبة لبريطانيا لايحتمل التردد أو الانتظار ، ومن الأفضل أن نقوم أولا باحتلال هذه الجزيرة ، ثم نفاوضه فى شرائها منه ، كما أن هذه الخطوة التى هى فى رأينا خطوة حاسمة قد تدعم موقف ماكنيل فى مفاوضاته مع شاه فارس بشأن الحيرة ، لقد أردت بهذا الشرح أن أضعك فى دائرة الضوء • أما اذا كان باشا مصر سوف يعلن استقلاله عن الباب العالى بالفعل فان هذه الحكومة لاتستطيع أن تترك هذا الأمر لتتصرف فيه كيف تشاء ، وانما ينبغى أن توجه اليك أوامر محددة تتصرف بمقتضاها حول هذا الموضوع (١) •

غير أن اوكلاند كان قد قرر قبل أن يصله هذا الخطاب أن يتصرف •، ففى أول مايو أرسل تعليمات الى جرانت فى بومباى يطلب ارسال أكبر قوة ممكنة من الأسطول البريطانى الى منطقة الخليج بالاضافة الى كتيبة من المشاة لأى اجراء قد يتخذه ماكنيل (٢) •

---

(١) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٨ من هوب هاوس الى اوكلاند ١٨٣٨/٦/٩ •

(٢) بيانات ووثائق (١٨٣٨) مجلد وثيقة ١٣١/٤ خطاب رقم ٢ من ماكناتن (سكرتير حكومة الهند الى ويلوبى ١٨٣٨/٥/١ •

كانت القطع الاحتياطية المتوفرة من الأسطول الهندى في ذلك الوقت تتكون من الطراد كوت ـ والفرقاطة الفرات والفرقاطة البخارية سميراميس والسفينتان برنيس وهولندس وكانت الفرقاطة الفرات قد أبحرت بالفعل الى برسائل الى ماكنيل تتضمن الخطوات التى قررت حكومة بومباى القيام بها ، كما صدرت الأوامر الى برنيس بالاستعداد للسفر بأسرع وقت ممكن . ولما كان من المقرر أن تبحر برنيس بالبريد الصحراوى الى السويس يوم ٢١ مايو ، ولم تكن هويلندس صالحة للعمل خصوصا فى ذلك الفصل الذى يصادف هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، فقد كانت السفينة الوحيدة المتوفرة للعمل فى الخليج هى سميراميس ، ففى بداية شهر يونيو أبحرت هذه السفينة بـ ٥٠٠ جندى من بومباى ، وبمدفعين عيار ٦ ، بالاضافة الى سفينة نقل أخرى الحقت بالقوة ، وقد أبحرت هذه القوة من بومباى بقيادة الكوموندور جى . بى . بركس (من الاسطول الهندى) مساء يوم ٤ يونيه ، وقبل أن تتحرك القوة أصدر قائدها أمرا الى الكابتن هانيل بوجوب انزال الجنود فى جزيرة خرك لأنه اعترض على بقاء الجنود فى السفينتين لفترة محدودة من الانتظار ، كما طلب اليه تحذير السلطات الفارسية فى بوشهر بأن القوة العسكرية الموجودة فى جزيرة خرك على أهبة الاستعداد للعمل فى أى لحظة ، واذا لمس هانيل ان الفرس يستعدون لمقاومة هذه القوة فى حالة نزولها للجزيرة فعليه أن يختار بين مواصلة الخطة أم لا (١) .

---

(١) نفس المصدر خطاب رقم ٤ وخطاب رقم ٨ مداولات اللجنة الطارئة لحكومة بومباى وخطاب من بركس الى ملفيل (سكرتير) شركة الهند الشرقية) سميراميس : ١٨٣٨/٦/١٩ وقد شكل الجيش من بعض جنود الفرقة ١٥ والفرقة ٢٣ والفرقة ٢٤ ومن الفصيلة البحرية .

وصل ماكنيل الى معسكر الفرس الواقع بالغرب من الحيرة يوم ٦ ابريل ، وقد وجد الشاه ممتعضا من فشله فى ارغام حامية الحيرة على الاستسلام . وبالنظر الى تدهور روحه المعنوية فقد رحب الشاه باقتراح ماكنيل للتوسط بينه وبين سكان الحيرة ، ولكن ماكاد المبعوث البريطانى يغادر المعسكر لمفاوضة أهل الحيرة على تسوية النزاع مع الشاه حتى وصل الكونت سيمونيش الى المعسكر ، وكنتيجة لذلك رفض الشاه مشروع الصلح الذى اقترحه ماكنيل واخذ يضاعف من عملياته لاحتلال المنطقة وقد أدى ذلك الى ازدياد الموقف سوءا بين ماكنيل والشاه وبذلك توترت العلاقات بينهما . وفى منتصف شهر مايو تاكد ماكنيل من أن الشاه لا ينوى رفع الحصار عن الحيرة الا اذا قامت بريطانيا بارسال تحذيرات اليه واتخاذ خطوات أشد من جانبها ، ومع ذلك فقد شعر ماكنيل بأن لابد من بذل محاولة اخيرة مع الشاه للاستماع الى صوت العقل . والى جانب موضوع الحيرة كانت هناك مسائل اخرى وكان يهم ماكنيل أن يصل الى حل مرض بشأنها . ومن هذه المسائل ما حدث لساعى المفوضية البريطانية فى طهران الذى تعرض لاعتداء من قبل المسئولين والجنود الفرس بينما كان الساعى فى طريقه من الحيرة الى طهران وقد استولى الجناة على البريد الذى كان يحمله ، ثم بعد ذلك بشهرين ، اى فى شهر ديسمبر ١٨٣٧ ، نشأ نزاع بين طبيب المثلية البريطانية فى بوشهر واحد الدراويش ، وعلى اثر ذلك طلب حاكم بوشهر من المقيم البريطانى بالوكالة تسليم الطبيب للمحاكمة امام محكمة البلدة ، غير أن المقيم رفض طلب السلطات الفارسية التى أرسلت تهديدات ضمنية الى المقيم بأنها سوف تنزل اشد العقاب بالمقيم ورجال المثلية وأنهم سيلاقون المصير الذى سبق أن لقيه السفير الروسى لدى فارس الذى هاجمه الأهالى هو

وأعضاء سفارته ومزقوهم اربا فى طهران فى فبراير ١٨٢٩ (١) ، وقد رد ماكنيل بعنف على تهديد السلطات الفارسية وارسل مذكرة لرئيس وزراء فارس يحتج فيها بشدة ويتهم السلطات الفارسية بأنها تقف وراء تصرفات حاكم بوشهر وأكد له بأن هـذه التهديدات لا تخيف المسئولين البريطانيين الذين يستطيعون الرد عليهـا بقوة (٢) • وقد أيد بالمرستون مذكرة ماكنيل حول هذا الموضوع وأوعز فى شهر ابريل ١٨٣٨ الى ماكنيل بأن يتصل بالحاج ميرزا أغاسى وتحذيره بأن حكومة صاحب الجلالة تطالب وتتوقع الحماية للمقيم البريطـانى فى بوشهر وأنهـــا تعتبر الحكومة الفارسية مسئولة عن سلامته (٣) •

وفى مقابلة لماكنيل مع الشـــاه بتاريخ ٥/١٦ سلمه مذكرة بريطانية تحدد فيها الشروط التى توافق بريطانيا بمقتضاها على عودة العـــلاقات الودية مع فارس ، وأهم ما فى تلك الشروط مطالبة بريطانيا بعقد « اتفاق متكافىء » بين حاكم الحيرة وشاه فارس بالاضافة الى توقيع العقوبات اللازمة على المسئولين الفرس عن الاعتداء على ساعى المفوضية البريطانية فى فارس وتخلى حكومة فارس عن طلبها بمعاقبة الموظفين العاملين فى الممثلية قبل

---

(١) فارس والخليج مجلد ٥٠٩ من الدكتور مكنزى الى ماكنيل بوشهر ١٨٣٧/١٢/٢٧ ومرفق مع خطـــاب ماكنيل الى بالمرســـتون طهـران ١٨٣٨/٢/١٧ (ورقم ١٧) •

(٢) بيانات ووثائق (١٨٩٠) مجلد ٤٠ وثيقة رقم س/١٧١ وخطاب رقم ٧٢ من ماكنيل الى الحاج ميرزا اغاسى ومرفق معه خطاب ماكنيل الى بالمرستون الذى أرسله من طهران بتاريخ ١٨٣٨/٢/٢٨ (٢) خطـاب وزارة الخارجية البريطانية رقم ٦٠/٥٥ من بالمرستون الى ماكنيل ١٨٣٨/٤/١٤

(٣) ٦٠/٥٥ من بالمرستون الى ماكنيل ١٨٣٨/٤/١٤ (رقم ٢٠) •

عرض الأمر على الوزير البريطانى فى طهران ، كما طالبت المذكرة بعقد معاهدة تجارية تمنح الوكلاء التجاريين البريطانيين فى الأراضى الفارسية نفس المعاملة التى يلقاها قناصل الدول الأخرى وابعاد الموظفين المسئولين عن توجيه الاهانات والاتهامات الى المقيم البريطانى من مكتب حاكم بوشهر (١) • وفى الرد الذى تلقاه ماكنيل على مذكرته حاول رئيس الوزراء التملص بأسلوب ذكى من المطالب البريطانية ، غير أن ماكنيل لم يتردد فى الاعراب لهم عن هذا الرأى • كما لم تسفر المقابلة الثانية لماكنيل مع حاكم فارس والتى تمت يوم ٣٠ مايو عن نتائج أفضل من نتائج المقابلة السابقة ، وأخيرا أدرك ماكنيل بأنه لافائدة من البقاء فى معسكر الشاه حتى لايتعرض لمزيد من الاهانات وبعد أن قام ماكنيل بتوجيه تحذير نهائى الى الشاه من أن الحكومة البريطانية لن تبقى مكتوفة اليدين ازاء حصار الشاه لاقليم الحيرة • حمل ماكنيل علم المثلية وغادر المعسكر الى مشهد وغادر طهران يوم ٦/٧(٢) •

بعد عشرة أيام على هذا الحادث وصلت الحملة البحرية القادمة من بومباى الى ميناء بوشهر ، وفى يوم ١٩/يونيه نزلت القوات البريطانية منها الى جزيرة خرك (٣) أما ماهى الخطوة التى تخطوها بريطانيا بعد هذه العملية فان ذلك الأمر كان ينتظر البت فيه • لقد كان اوكلاند منذ بداية الأمر يظهر

---

(١) فارس والخليج مجلد ٦٠ من ماكنيل الى بالمرستون من معسكر الشاه فى الحيرة ١٨٣٨/٥/١٧ (خاص) •

(٢) فارس والخليج من ماكنيل الى بالمرستون من مشهد بتاريخ ١٨٣٨/٦/٢٥ رقم (٣٠) •

(٣) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٠ ومرفق معه خطاب السكرتير رقم ١٤ المؤرخ ١٨٣٨/٧/١٤ من هانيل الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى بتاريخ ١٨٣٨/٦/٢٠ (رقم ٣٨ الادارة السياسية) •

حماسا شديدا لاتخاذ اجراء ما فى الخليج ، وقد كتب فى هذا الصدد خطابا الى هوب هاوس بعد خروج الحملة جاء فيه « اننى لا أميل الى الموافقة على هذه الحملة لانى اعارض الأعمال العسكرية الصغيرة التى لا تقوم على هدف محدد ، واذا كان لابد من مثل هذه الاجراءات فانه يتعين على أن أكون أكثر وضوحا فيما سأرسله من تعليمات الى حكومة بومباى حتى تقوم بوضع السفن والطرادات على أهبة الاستعداد فى بوشهر ، والا ففى امكانها الاحتفاظ بقوة عسكرية صغيرة تبقى على أهبة الاستعداد هناك . وعلى اى حال فانه من المحتمل أن يؤدى هذا الاستعراض للقوة ، رغم صغره ، الى دعم موقف ماكنيل خلال مفاوضاته مع حكومة فارس ، وأن الخطاب الذى تلقيته منه حول هذا الموضوع يتضمن رغبته الأكيدة فى اتخاذ اجراء كهذا (١) وكان اوكلاند يرى بأن أفضل عمل نقوم به لارغام الفرس على الانسحاب من اقليم الحيرة واتقاء الأخطار التى تأتينا من تلك الجهة هو أن نقوم باجراء عسكرى ضد افغانستان . وهذا يقتضى تثبيت حكم رانجت سنج فى بشاور والاتفاق معه على خلع دوست محمد حاكم كابول وتنصيب شاه شوجا المطالب بالحكم مكان دوست محمد ، وذلك بسبب غموض موقف روسيا ، واذا تم هذا فان من المتوقع أن يوافق شاه شوجا على عقد حلف مع حاكم اقليم الحيرة السودازى. وقد أبدى بالمرستون ميلا الى تبنى هذا الاقتراح وصرح : « بأن الخطوة السليمة أمامنا هى القيام بعملية عسكرية كبرى فى افغانستان وبعدها نقوم باعادة تنظيم تلك الدولة تحت زعامة حاكم واحد ، على أن يتم تعويض رانجت سنج باعطائه بشاور وكشمير . وبالتالى فان وجود دولة صديقة مرتبطة بعلاقة مع حكومة الهند البريطانية فى افغانستان سيكون أنضل لنا من حكومة فارس لأن تلك الحكومة سوف تكون تحت سيطرتنا

---

(١) خطاب من اوكلاند الى هوب هاوس شيملا ١٨٣٨/٦/١٧ .

وسوف يتيح لنا وجود مثل هذه الدولة مركزا جغرافيا لايقل عن المركز الجغرافى الذى تتمتع به روسيا فى فارس (١) ٠

ومن ناحية أخرى فقد كان ماكنيل يتصور وجوب ممارسة ضغط أكبر على حكومة الشاه كاجراء لدفعها على الانسحاب من اقليم الحيرة، وقد كتب الى اوكلاند وهو فى تبريز حيث توقف بعض الوقت ، وهو فى طريقه الى الحدود التركية ، كتب يقترح ارسال مابين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ جندى الى الخليج للقيام بزحف على شيراز وطهران ٠ ولم يرفض بالمرستون الاقتراح رفضا مباشرا الا أنه أبدى اعتراضات هامة عليه » . . . . اذا كان يتعين علينا أن نقوم بعملية زحف على شيراز فانه من المحتمل أن ننجح ومن المحتمل ان نفشل ، فان فشلنا فاننا سوف نعطى انطباعا مؤسفا عن انفسنا ، أما اذا نجحنا فان هذه العملية سوف تؤدى الى اهتزاز عرض الشاه وحكمه بدرجة تتجاوز مصالحنا ٠ ان هدفنا بالطبع ليس الاحتفاظ بجنوب فارس وانما ارغام الشاه على التسليم بمطالبنا بالنسبة الى اقليم الحيرة وغيره من المسائل ، غير أن وجود قوات غزو فى فارس قد يؤلب الرأى العام ضدنا كما قد يؤدى الى انقسامات خطيرة بين الفرس انفسهم بحيث يضطر الشاه الى الاعتماد أكثر وأكثر على الروس ، وهذا شىء لانسعى اليه اطلاقا ، أما القيام بعمليات عسكرية فى افغانستان فانه سوف يحقق لنا الهدف المنشود وسوف نتمكن من الاحتفاظ بها، لهذا فلاينبغى أن نسدد ضربة فى منطقة ما كى تحدث نتائج عكسية فى منطقة أخرى ٠

كان الشعور الذى يسود البرلمان البريطانى خلال شهرى أغسطس وسبتمبر يكاد يكون نفس الشعور ، وان كان الراى الغالب فيه أن الخيار قد

---

(١) متفرقات حكومة بريطانيا مجلد ٨٣٨ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٨/٨/٢٥ ٠

أسبح فى يد اوكلاند ، وقد تحدث مالبورو فى هذا الصدد الى هوب هاوس فقال : « بأنه لايعتقد بأن اوكلاند سوف يقوم بمثل هذه العملية فى أصفهان ولكنه اذا قام بها فينبغى علينا أن نسانده ، وانى أميل الى الاعتقاد بأن القيام بعمليات عسكرية فى أفغانستان سيكون أضمن لنا من القيام بعمل ضد فارس من الخليج خصوصا وأننا لا نملك قاعدة ننطلق منها غير السفن البحرية

غير أن فكرة اعداد هجوم على فارس من الخليج ظلت تسيطر على ذهن بالمرستون ، وفى أواخر شهر سبتمبر كتب الى هوب هاوس يقول « بأنه اذا كان فى الامكان ارسال حملة عسكرية الى الخليج للهجوم على طهران وخلع الشاه وتنصيب حاكم جديد مكانه موال للحكومة البريطانية، واذا استطاعت هذه الحملة أن تتحدى الشاه وحلفاءه الروس فانها تعتبر خطوة جريئة تستحق أن تقوم بها ، غير أنى أعتقد أن هذا الاجراء فوق امكانياتنا ، وبالرغم من ان نجاح مثل هذه العملية سيكون نجاحا عظيما ، فان فشلها سيكون فشلا قاتلا . غير أن هوب هاوس عارض هذه الفكرة كما عارض موقف البرلمان وعلى الأخص موقفى مالبورو وبالمرستون اللذين تركا الأمور لاوكلاند لتقريرها : « اننا ملزمون بتحديد موقفنا من التحركات الجارية على سواحل الخليج لأن هذه التحركات ان تقتصر على احتلال جزيرة خرك لوحدها وعلى العدد القليل الذين تتألف منهم الحملة ، اننا نعرف أن ماكنيل طلب ارسال ٥٠٠٠ جندى . وأنه طلب من الكابتن هانيل المقيم البريطانى العمل على احتلال بوشهر ، واذا قدر للقوات العسكرية أن تصل الى الشاطىء وترفع العلم البريطانى على جزء من أراضى فارس فان الشاه فى هذه الحالة سوف يخير بين أن يخضع لشروطنا أو أن تقوم الحملة بالزحف على البلاد .. ان التردد فى هذه القضية أو التراجع عنها سوف يصيبنا بالعار الأبدى ليس بين جيراننا الشرقيين فحسب بل فى أوروبا كلها . وبالتالى فان علينا أن نعد أنفسنا لاتخاذ قرار حاسم وأن نعلنه على الرأى العام وذلك على ضوء الاقتراح القائل بغزو فارس » .

فى جلسة البرلمان المنعقد فى وندسور يوم ٦ أكتوبر تم اتخاذ القرار النهائى فى هذا الموضوع وقد تم ابلاغ أوكلاند به بموجب المذكرة المؤرخة ٢٤ اكتوبر (١) ، وقد تضمنت هذه المذكرة العدول عن القيام بأى عملية لغزو فارس من الخليج لأن عملية كهذه ستعتبر حربا سافرة . ولما كان من المتوقع أن ينضم عدد كبير من سكان المنطقة الجنوبية من فارس الى القوات البريطانية فان الحملة سوف تظهر وكأنها محاولة لخلع الشاه ، ومهما تكن هذه الخطوة مفيـدة لخلع حاكم ، كان ولايزال مسـتعدا لفتح بلاده لأى دولة تغذى فيه نزعات الفتح والتوسع، فان هناك احتمالا بأن يدفع هذا الغزو حكومة الشاه الى طلب العون من روسيا ، الأمر الذى سيؤدى الى نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا فى آسيا ، لهذه الأسباب ينبغى أن تنحصر المطالب البريطانية من حكومة فارس فى الحصول على تعويضات عن الأضرار التى لحقت بالمفوضية البريطانية فى طهران ، وتخلى الشاه عن أطماعه فى أفغانستان ، كما تقرر بقاء الحملة العسكرية فى خـرك حتى يتم الوصول الى اتفاق حول هـــذا الموضوع ، وبعد أن يتحقق هذا المطلب يمكن أن يطلب من الشاه الموافقة على بقاء خرك كقاعدة للأسطول البريطانى فى الخليج .

أما الشاه فقد قرر رفع الحصار عن اقليم الحيرة قبل أن يعلم البرلمان البريطانى بذلك ، ففى منتصف شهر يوليو تسلم ماكنيل فى تبريز مذكرة من بالمرستون تاريخها أواخر مايو ، وقد أوعز اليه فيها بأنه فى حالة فشـــله فى اقناع الشاه برفع الحصار عن اقليم الحيرة يتعين عليه أن يوضح له الآتى: أن الحكومة البريطـــانية لا تستطيع بأى حال أن تغض الطرف عن مخطط الشاه لاحتلال أفغانستان ، وبأن حكومة صاحب الجلالة لديها من الأســباب ما يجعلها تعتقد بأن خطة الشاه هذه قد تمت بالاتفاق مع روســيا ، وأن

(١) من مسودات مجلس ادارة الشركة التقرير السرى المجلد العاشر المسودة المرفوعة للحاكم العام ١٨٣٨/١٠/٢٤ .

الحكومة البريطانية لذلك ينبغى أن تنظر الى هـــذه الخطة باعتبارها مظهرا عدائيا من مظاهر الســـياسة الفارسية ضد حكومة الهنـد البريطانية .. وبالتالى فانه لو قدر لخطط الشاه أن تحقق النجاح فان ذلك سوف يضـع حدا لعلاقات الصـــداقة التى ظلت حتى الآن قائمة بين بريطـانيا العظمى وحكومة فارس ، وبأن الحكومة البريطانية سوف يتوجب عليها تبعـا لذلك أن تتخذ من الخطوات ما تراه ضروريا لتأمين مصلحتها والحفاظ على ممتلكات التاج البريطانى فى الهند (١) .

وقد قرر ماكنيل تسليم هذا التحذير الى حكومة الشـاه ولذلك فانقد أوفد أحد أعضاء هيئة المفوضية البريطانية الكولونيل استودارت ليقـــوم بتسليم التحذير الى الشاه شخصيا فى معسكره القريب من اقليم الحيرة . وقد شعر ماكنيل بأن الشـاه قد تلقى من الدروس ما فيه الكفاية من تطورت الأحداث التى مرت عليه منذ خروج ماكنيل . فقد تحطم الهجوم الكبير الذى قام به الشاه يوم ١٨٣٨/٦/٢٣ على دافعات الاقليم وتكبد الفرس من جـراء ذلك خسائر جسيمة كما ان الانزال البريطانى فى جزيرة خرك واحتشـاد القوات البريطانية فى الهند استعدادا للهجوم على افغانســتان لتأييد أسرة السادوزى قد أشـــاع القلق فى صفوف الفرس مما أرغم الشـــاه على الاستماع الى مبعوث ماكنيل وعلى موافقته بعد تردد على جميع المطالب التى سبق له ان رفضـــها قبل ثلاثة أشهر . وفى اليوم التـــاسع من سبتمبر

---

(١) مذكرة الخارجية البريطـــانية رقم ٦٠/٥٥ من بالمرســتون الى ماكنيل ١٨٣٨/٥/٢١ وقد عاد بالمرستون فبعث بتحذير آخر شديد اللهجة وذلك فى شهر يوليو (انظر نفس المجلد من بالمرستون الى ماكنيل رقم ١٣٩ المؤرخ ١٨٣٨/٧/٢٧ .

انسحب الجيش الفارسى من اقليم الحيرة متجها الى الغرب (١) غير ان رفع الحصار عن اقليم الحيرة لم يؤد تلقائيا الى الغاء خطة غزو أفغانستان فقد عاد ماكنيل فأكد بان هذه الخطة يجب أن تمضى قدما حفاظا على المصالح البريطانية فى الهند مستقبلا • وكان هذا يعنى على اى حال عدم التفكير فى غزو فارس من منطقة الخليج لأنه اجراء لم يكن يتلاءم مع تفكير ماكنيل كما أكدت ذلك المذكرات التى وصلت حول قرار البرلمان الذى اتخذ فى شهر اكتوبر ، واذا وضعنا فى الاعتبار معارضة اوكلاند لحملة الخليج والنهاية التى انتهت اليها سياسته الأفغانية فان ذلك يجعلنا نتساءل عما اذا كان احتلال جزيرة خرك من جانب القوات البريطانية يخدم الغرض المطلوب منه ، وعلى الأخص اذا كان له تأثير على انسحاب القوات الفارسية من اقليم الحيرة • أما هوب هاوس فقد كان يعتقد بأن ذلك الاحتلال لم يخدم شيئا على الاطلاق ، وذكر رأيه هذا لجرانت : « اننى أخشى أن تكون الحملة على الخليج قد بدأت متأخرة بينما قال لاوكلاند » بأن الحملة جاءت فعلا متأخرة جدا ، كما كانت صغيرة فى حجمها فاذا اتفقنا مع هوب هاوس على أن : « الحملة تبدو له صغيرة ومحدودة جدا وتتعارض مع رأيه الذى يقوم على اساس أننا اما أن نتخذ اجراء فعالا وعنيفا أولا نتخذ أى اجراء » أما اوكلاند فكان يعتقد ، وهذا ما يدعو الى الغرابة ، بأن الحملة كانت فعالة وقد كتب فى هذا الشأن يقول : .... « بأن حملة الخليج قد ساهمت الى حد كبير فى تعزيز موقف ماكنيل فى مفاوضاته مع الشاه (٢) • أما الكابتن هانيل الذى كان قريبا من

---

(١) بيانات ووثائق (١٨٣٩) مجلد ٤٠ وثيقة رقم س ١٧١ وخطاب رقم ٩٨ وخطاب رقم ١٠٠ من ماكنيل الى بالمرستون بتاريخ ١٨٣٨/٩/١١ ، ١٨٣٨/١٠/٦ •

(٢) متفرقات من أرشيف حكومة الوطن مجلد (٨٣٨) من هوب هاوس الى جرانت ١٨٣٨/٨/٢٨ وخطاب الى اوكلاند بنفس التاريخ •

مسرح الأحداث فقد كان يرفض الراى وهو : « أن خوف الشاه من قيـــام البريطانيين من اجتياح المنطقة الجنوبية من فارس هو الذى جعله يقرر رفع الحصار عن الاقليم والعودة الى طهران، كما قيل أيضا ، بأن الشاه كان يحس بانزعاج بسبب اضطراره الى التخلى عن مكسب اقليمى كان فى متنـــاول يده وذلك بسبب ذلك الاستعراض التافه للقوة البريطانية . وكان شـــيل سكرتير المفوضية البريطانية فى طهران يؤيد نفس هذا الرأى (١) . ثم جاء هنرى رولنسون فأعرب عن رأيه هو الآخر فى هذا الشأن وقال، بأن انسحاب الشاه من اقليم الحـــيرة لم يكن بسبب الاحتلال البريطانى لجزيرة خرك وانما يعود الى فشل الهجوم الفارسى يوم ٦/٢٣ والذى قرر المصير لتلك الحملة ، ويضيف هنرى رولنسون بأنه اذا كان وجـــود كتيبة من ٥٠٠٠ جنـــدى ومدفعين من عيار ٦ هو الذى أدى الى رفع الحصار عن الحيرة وتخلى شاه فارس عن أطماعه فى ذلك الاقليم فان هـــذا يعطينا فكرة واضحة عن قوة هذا البلد الذى كنا نتوقع أن يأتينا الخطر منه (٢) ».

لقد وقع الاحتلال البريطانى لجزيرة خرك والهجوم الفارسى الكبير الآخر على اقليم الحيرة خلال بضعة أيام من احدهما الى الآخر ، وبالتـــالى فمن المرجح أن يكون تأثيرهما على الشاه تأثيرا جماعيا . فليس المهم حجم الحمـــلة العسكرية ، وعلى أى حال فان كلتا النتيجتين كان يمكن أن تثير القلق والانزعاج للشاه . ومن المؤكد أن الحملة قد احدثت ارتباكا للروس . ففى أول نوفمبر قام الكونت فوزودى بورجا الســـفير الروسى فى لندن بتسليم مذكرة من الكونت نسلرود الى بالمرستون يحتج الأول فيها بشدة على أحتلال البريطانيين

---

(١) مسودات مجلس ادارة الشركة التقرير السرى الى حـــكومة الهند مجلد ٢١ مسودة مرفوعة الى الحـــاكم بتاريخ ١٨٥٦/١٠/٢٥ ومرفق معه مذكرة من هانيل من شلتهنهام فى انجلترا بتاريخ ١٨٥٦/١٠/٢٢ .

(٢) فارس والخليج مجلـــد ٦٤ من شـــيل الى باك هاوس ارض روم ١٨٣٩/٢/١٢ .

لجزيرة خرك ويقول نسلرود فى مذكرته بأنه يتكلم باسم الشاه ويقـــدم الاحتجاج بالنيابة عنه ، كما يقول وزير خارجية روسيا ، بأن وجود القوات البريطانية فى خرك انتهاك صريح لسيادة فارس ، ويتعين سحبها فـورا هى والأسطول العامل فى الخليج ، فاذا تم ذلك فان روسيا سوف تؤيد بريطانيا فى جهودها لاقناع شـاه فارس بالبقاء ضمن حدود بلاده وعدم القيـــام بعمليات عسكرية جديدة كتلك التى قام بها على اقليم الحيرة (١) ، وقد ذكر بالمرستون لهوب هاوس بأن الروس تنتابهم الحساسية تجاه خرك فقد ركز السفير الروسى تركيزا شديدا على هذا الموضوع ، ربما لأنهم يدركون الأهمية التى تتميز بها هذه القاعدة ، وقد قال بوزدى ، انكم سوف تنسحبون منهـا ولكنكم يمكنكم العودة اليها متى شئتم ، والذى استنتجته من هذا القول هو أنه بمجرد انسحابنا من هـذه الجزيرة فانهم سوف يقنعون الشـــاه بوجوب تحصينها بحيث يتعـــذر علينا الاستيلاء عليهـــا مرة أخرى (٢) ، غير أن بالمرستون لم يكن يرغب فى الانسحاب من جزيرة خرك فى تلك الفترة على الأقل كما أنه لم يكن يهتم بتهدئة المشاعر لوزير الخارجية الروسية ، وقـال بأن الاحتفاظ بالقاعدة سوف يستمر كضمان لوفاء حاكم فارس بالوعـود التى قطعها لستوردرت ، بل من المحتمل أن تطلب انجلترا من الشاه التخـلى عن تلك الجزيرة بصفة دائمة لكى تتخـذها بريطانيا قاعدة للأســـطول فى الخليج ، ولكن بالمرستون لم يكن يتوقع اطلاقا بأنه ستكون لاحتلال بريطانيا

---

(١) انظر متفرقات اضافية رقم ٣٦٤٦٩ من نسلرود إلى بوزدى بورجا ١٨٣٨/١٠/٢٠ ومتفرقات وزارة الهند مجـلد ٨٣٩ من هوب هاوس الى بالمرستون ١٨٣٨/١١/١٦ والى اوكلاند ١٨٣٨/١١/٢٤ ٠

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٨/١١/١٤ ويكمن الاطلاع على رد بالمرستون على بوزدى من الخطاب المؤرخ ١٨٣٨/١٢/١٠ ٠

لخرك تلك الأهمية العظيمة ، لا فى مساومة الفرس على تحقيق تسوية نهائيةللمشاكل المعلقة فحسب وانما كمرساة فى خضم العاصفة الهوجاء التى كانت على وشك أن تهب من سواحل الخليج . وفى شهر مايو عهد الى خورشيد باشا بقيادة الجيش المصرى فى نجد الذى كان قد اقام مقر قيادته العامة على بعد نحو مائتى ميل الى الشمال الغربى من الرياض (١) وامضى خورشيد باشا طوال فصل الصيف فى تدعيم نفوذه فى شبه الجزيرة وانشاء مراكز لتموين الجيش ، كما تلقى تعزيزات من الجنود تقدر بنحو الفى جندى، وبهذه القوات مجتمعة تحرك فى شهر سبتمبر نحو الرياض . وعند وصوله اليها انضمت اليه قوات الأمير خالد ، ثم بعد فترة قصيرة تحركت كل هذه القوات فى طريقهـا الى الأحساء . وكان خورشيد باشا قد قام بمبادرة بارسال وفود الى شيخى الكويت والبحرين يخطرهما فيهـا بتقدم جيشه ويطالبهما بتقديم ما يحتاجه الجيش من تموين عند وصوله الى ســاحل الخليج . أما فيصل الذى يبدو أنه كان يعارض الخضوع لمحمد على فقد أخذ

---

(١) كان مالبورو على عكس بالمرستون يبدى ضيقا شديدا من النتائج غير المرضية التى قد تترتب على التمسك بجزيرة خرك خاصة على ضوء احتجاج وزير خارجية روسيا وقد قال لهوب هاوس : ان الخروج يبدو ضعيفا بالنسبة لجزيرة خرك ولما كانت الحملة قد حققت هدفها بالنسبة لغزو شاه فارس لاقليم الحيرة فانى اشك فى مبدأ التمسك بهذه الجزيرة بعد التطورات الأخيرة لأن استمرارنا فى جزيرة خرك سوف يضفى على ذلك الاجراء الدفاعى طابع الغزو العدوانى (وزارة الهند — متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ مجلد ٨٣٩) من مالبورو الى هوب هاوس ١٨٣٨/١١/٣٠) ونزولا على راى مالبورو فقد ادخل هوب هاوس بعض التعديلات التى أرسلها الى اوكلاند بخصوص خرك راجع خطـاب هـوب هاوس الى اوكلاند ١ ، ١٨٣٨/١٢/٥ نفس المجلد .

يستعد لمواجهة عسكرية مع خورشيد باشا عند مشـــارف الرياض ، وقد وضع خطته على أساس أن يقوم بقتال انسحابى الى الأحساء التى أســـند الدفاع عنها الى القائد عمر بن عوفيصان والى الأحساء (١) ، وطوال شهرين تمكن فيصل بما كان يتميز به من الشجاعة والحنكة العسكرية من الصـــمود أمام المصريين وخالد ، غير أن خورشيد تمكن فى بداية شـــهر ديسمبر من محاصرة الامير فيصل فى ديلم على بعد خمسين ميلا جنوب الرياض بينما واصل خالد زحفه الى أن وصل الى ساحل الاحساء فى القطيف . وقبل نهاية الشهر اضطر فيصل الى الاستسلام بينما أوقف بن عوفيصان العمليات العسكرية وفر هاربا الى البحرين (٢) .

ان أول خبر تلقاه بالمرستون عن تحرك قوات خورشيد باشا من عنزة جاءت من كامبل فى القاهرة ، أما المعلومات الخاصة عن عزم خورشيد باشا الزحف الى الخليج ومنه الى البحرين فقد تلقـاها من اللفتنانت كولونيـل تايلور المقيم البريطانى فى بغداد ، وفى ٢٩ نوفمبر بعث بالمرستون بالرسالة التالية الى كامبل : ـ

« ان المعلومات التى تلقتها حكومة صاحب الجلالة مؤخرا من بغداد تفيد بأن القوات المصرية على وشك الوصول الى الاحساء والقطيف بهدف

---

(١) وزارة الخـارجية رقـم ٧٨/٣٤٣ من كامبـل الى بالمرســـتون ١٨٣٨/٧/٢ ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى حسين باشا الياور الاول لمحمد على عنزه فى ربيع الأول ١٢٥٤ الموافق ١٨٣٨/٥/٢٨ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٣ من هانيل الى ماكنيل ١٨٣٨/١١/١ والى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٨/١٢/١٥ ومختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٤٤٥ « ولمحـة تاريخيـة عن الوهابيين » ، ١٨٣٢ ـ ١٨٤٤ تأليف كامبل .

الاستيلاء فى النهاية على جزيرة البحرين الواقعة فى الخليج الفارسى .

لهذا فاننى أطلب منك بأن تقوم باستفسار محمد على باشا عن صحة هذه المعلومات وبأن تبلغه بأن حكومة صاحبة الجلالة تثق وتأمل انه بعد التفكير فى الأمر أن تتخلى تلك القوات عن نواياها فى احتلال الخليج ، لأن مثل هذا العمل كما سبق أن تم توضيحه اليه سوف تنظر اليه الحكومة البريطانية نظرة جادة (١) .

كان بالمرستون متأكدا من ان ذلك التحذير سوف يأتى مفعوله لمنع الوالى من القيام بمغامرات عسكرية فى شبه الجزيرة العربية ليس فقط على جانبها الشرقى وانما على جانبها الغربى أيضا . وعندما كتب بالمرستون الى هوب هاوس يوم ١٢/٢٤ يقترح استخدام القوات العسكرية فى جزيرة خرك اذا لم يكن بد من سحبها فى احتلال عدن ، وقد أشار اليه فى هذا الصدد بأنه يتعين على اوكلاند بأن لايبدى أى ارتياح تجاه محمد على باشا ، كما لا ينبغى أن يخشاه لأن الوالى لن يجرؤ على اتخاذ موقف مضاد لانجلترا بأى حال من الأحوال أو بأى اجراء خطير قد تقوم به للمحافظة على مصالحنا ، وان قائد الحامية فى خرك سوف يقوم بتوضيح هذه النقطة والنقاط المتعلقة بالخلاء القاعدة لسلطان عدن حتى لاتساوره أى شكوك حول هذا الموضوع (٢) ، وبعد شهرين أى فى شهر يناير ١٨٣٩ استولت بريطانيا

---

(١) رسائل وزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨/٣٤٣ من بالمرستون الى كامبل بتاريخ ١٨٣٨/١١/٢٩ .

(٢) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٣٨/١٢/١٢ وقد ورد نص هذه الرسالة فى خطاب هوب هاوس الى اوكلاند بتاريخ ١٨٣٨/١٢/٢٦ بنفس المجلد وقد جاء فى هذه الرسالة : « اننى اعتقد بانك سوف تواجه بعض الصعوبات بالنسبة لاحتلال عدن فارجو الا تضيع الوقت وانما ان تبادر الى استخدام القوة لاحتلال تلك المنطقة ولا تحاول أن تجامل باشا مصر اطلاقا » .

على عدن بالرغم من معارضة حاكمها على هذا الاجراء ، وقد قامت باحتلالها قوة من الجيش الهندى فى بومباى .

وفى بداية الشهر كان كامبل قد انتهى من تسليم احتجاج بالمرستون الى الحكومة المصرية ، غير أن محمد على باشا كان متغيبا عن مصر فى السودان وقد حصل كامبل على وعد من وزير محمد على باشا باغوص بك بابلاغ رسالته الى الوالى كما أنكر باغوص بك بأن للوالى أطماعا فى البحرين ، غير أن كامبل لم يتعرض فى مذكرته الى موضوع الاحتلال المصرى للاحساء (١) . وفى بداية شهر يناير كان خورشيد باشا قد أقام حاميات عسكرية فى الموانى الهامة الواقعة على ساحل الاحساء كالقطيف والعقير وسيحات ، كما أوفد مبعوثين منه الى الكويت والبحرين والى زعماء قبائل المنتفك فى العراق للحصول منهم على امدادات وتموين ، أما خورشيد نفسه فقد أقام معسكره فى السليمية على بعد بضعة أميال شمال ديلم بين الرياض والهفوف . وفى نهاية فبراير وصل يوسف أرتون الطبيب الخاص لخورشيد باشا الى بوشهر يحمل رسائل للكابتن هانيل المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر والى قائد الحامية البريطانية فى جزيرة خرك ، وقد ذكر هذا الطبيب الذى يعتبر نفسه فرنسيا، ولكنه ربما يكون سوريا، بأنه قد جاء للحصول على مشروب البراندى وغيرها من الاشياء والمواد التى يحتاج اليها الباشا ، وقد أنكر خورشيد باشا فى رسالته الى هانيل ما ادعى به سابقا ، من ان حملته الى وسط وجنوب شبه الجزيرة العربية من أجل خالد بن سعود ، واضاف فى رسالته بأن نجد قد خضعت له وأصبحت تحت السلطة الشرعية لمحمد على باشا ، كما ان البحرين التى كانت تابعة للوهابيين

---

(١) من رسائل وزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨/٣٧٣ من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٩/١/٢٦ .

سوف ترغم على الخضوع للوالى وبأن فيصل بن تركى قد أخذ أسيرا وهو الآن فى طريقه الى القاهرة ، أما اتباع الأمير وعلى رأسهم عمر بن عوفيصان فقد لجأوا الى البحرين ولكن الترتيبات جارية للقبض عليهم والاستيلاء على الأموال التى هربوا بها، وأما أهل البحرين الذين يرتبطون بعلاقات تجارية ببريطانيا فلم يمسهم اى سوء كنتيجة للاحتلال المصرى للجزيرة (١) . كما ان هدف خورشيد من ارسال هذا الخطاب الى هانيل هو مواجهته بالأمر الواقع . ففى يناير بعث خورشيد برسول يدعى محمد افندى الى شيخ البحرين يطالبه بتسليم عمر بن عوفيصان والأموال التى يقال انه استولى عليها ، كما طلب الى الرسول ابلاغ الشيخ بوجوب حضور نجليه الى معسكر الباشا ليأخذهما كرهينة وان يطالبه باستئناف دفع الزكاة التى كان يدفعها للرياض مع المبالغ المتأخرة . ولم يعرف ما اذا كان الجزء الأخير من هذه المطالب قد أرسل بالنيابة عن الأمير خالد بن سعود أم بالنيابة عن الوالى نفسه ، وقد حاول شيخ البحرين رشوة المبعوث المصرى وعرض عليه (١٣ الف ريال نمسوى) ولكن عندما رفض المبعوث المبلغ صارحه الشيخ بعدم استطاعته الاستجابة لمطالب خورشيد باشا ، لأنه على حد قوله تابع لفارس فى السلطة . وعلى اثر ذلك بادر شيخ البحرين الى ارسال خطاب الى أمير فارس يعرض عليه وضع البحرين تحت حمايته ودفع الزكاة السنوية للأمير (٢) .

---

(١) مرفقات لرسائل حكومة بومباى مجلد ١٢ مرفق لخطاب السكرتير رقم (٤) بتاريخ ١٨٣٩/٤/١٣ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٣/٢ (رقم ١٤ الادارة السرية) ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى هانيل بتاريخ ٢٤ ذى القعدة ١٢٥٤ الموافق ١٨٣٩/٢/٩ .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من هانيل الى اللجنة السرية ١/٢٤ ، ١٨٣٩/٢/١٧ ومن تايلور الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٩/٣/٢١ .

وقبل ذلك بحوالى شهرين وفى الوقت الذى كان المصريون يتقدمون نحو الاحساء وكان شيخ البحرين الذى يراقب تقدمهم بكثير من القلق قد قدم طلبا مماثلا الى المقيم البريطانى فى بوشهر ، وقد أحال المقيم طلبه الى حكومة بومباى دون أن يعلق عليه ، وعندما استشير فى رأيه بعد ذلك ذكر ، بأنه فى الوقت الذى يعتبر فيه وضع البحرين تحت الحماية خطوة مقيدة لنا فى مقابل تصاعد نفوذ محمد على بين القبائل الساحلية لشبه الجزيرة بعد احتلاله لنجد والاحساء ، كما أن الاحراج الذى سوف يسببه انشاء تحالف رسمى مع الخليفة وبالأخص التزام بريطانيا بالدفاع عن ممتلكات البحرين فى قطر يفوق فى خطورته المزايا التى قد تحصل عليها بريطانيا من القيام بهذه الخطوة . وكان من راى هانيل أن المحافظة على استقلال البحرين أمر جوهرى بالنسبة لأمن الخليج ولكنه كان يعتقد من ناحية أخرى بأنه يمكن اقناع خورشيد باشا بالكف عن تهديداته للبحرين مع توجيه تحذير له بهذا الشأن (١) .

وقد عاد هانيل فاضطر الى تغيير رأيه هذا أو على الأقل ادخال تعديل على الجزء الأخير منه وذلك بعد وصول يوسف ارتون مبعوث خورشيد باشا .

وقد ذكر أرتون لمساعد هانيل اللفتنانت تى ادمونز أن خورشيد على اهبة الاستعداد للهجوم على البحرين ، غير أنه يريد أن يعرف قبل قيامه بهذا الهجوم رد الفعل البريطانى ، كما أنه فى الوقت نفسه ينتظر وصول

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٢ مرفق للخطاب السرى رقم ٤١ مؤرخ ١٨٣٩/٤/١٣ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٢/٢٢ (رقم ١٣ الادارة السرية) .

امدادات عن طريق البحر الأحمر والتى يتوقع ان تصل فى أية لحظة . ومع ذلك فقد كان هانيل يعتقد بأن البحرين يمكنها أن تصمد لهجوم خورشيد باشا على الأقل الى أن تصل الامدادات التى ينتظر خورشيد وصولها ، غير أن ادموندز لم يكن يشاطره هذا الرأى فقد كتب يقول : « اننى لا أعتقد أن مغامرا مثل خورشيد باشا الذى قام بالزحف من شواطىء البحر الأحمر الى سواحل الخليج وأصبح يثير الرعب بين سكان تلك المناطق قد لا يلقى صعوبة فى الحصول على بعض السفن لعملية عبور المضيق الفاصل الذى يفصل بين جزيرة البحرين وأرض شبه الجزيرة العربية (١) كما لا أتصور أن أى قدر من الاحتجاجات قد يمنعه من تحقيق اطماعه .. على أن شيئا واضحا يبدو تمام الوضوح ، وهو أن الباشا وجيشه متلهفان للوصول الى البحرين طمعا فى وضع أيديهم على الأموال واللآلىء التى يعتقدون أنهم سوف يستولون عليها من البحرين ، وعلى الأخص المبلغ الذى يقدر ب (٤٠٠ الف ريال نمسوى) والذى يقال (وربما كان هذا رقما مبالغا فيه) أن وزير الأمير فيصل قد هرب به الى البحرين(٢) وقد ذكرادمونزبأنه بدلا منتقديم الاحتجاجات فانه سيكون من الأفضل تسوية تلك المشكلة عن طريق تسليم شيخ البحرين للمطلوبين أو الأموال التى اصطحبها معه عمر بن عوفيصان ، وذلك بدلا من المضى فى مطاردة الباشا وجيشه وفى رأيى أن هذا الباشا قائد موهوب لان جميع السكان العرب على امتداد المنطقة المبينة الى البحرين متحدون ومنضبطون تحت حكم هذا الباشا لدرجة أنهم يقومون بأنفسهم بحراسة المراكز العسكرية وابقاء الاتصالات مفتوحة مع مصر .

بالرغم من أن هانيل كان يزود رؤساءه بتقارير منتظمة عن تقدم قوات

---

(١) متفرقات من ادمونز الى ويلوبى بوشهر فى ١٨٣٩/٣/٥ .

(٢) اذا تصورنا ان خورشيد باشا يتسلم بريده فى مدة لا تتجاوز ٣١ يوما وقد اقترح ادمونز على الحكومة البريطانية باتباع نفس الترتيب .

خورشيد نحو الخليج خلال الشهور الثلاثة الماضية ، الا أنه لم تكن لديه التعليمات الخاصة بالخط السياسى الذى يتوجب عليه أن يتبعه فى حالة وصول قوات خورشيد الى الخليج . ومن هنا فقد حرص هانيل فى رده على خطـــاب خورشيد باشا على القول بأن حكومته سوف تنظر بشىء من القلق تجاه أى خطوة معادية يقوم بها ضـــد البحرين باعتبارها من الدول الموقعة على المعاهدة العامة لسنة ١٨٢٠ ، كما دعاه الى ارجاء هجومه على الجزيرة ريثما يتمكن من احالة القضية الى حكومة بومباى والحصول على تعليماتها فى هذا الشأن ، وفى حالة رفضه لهذا الاقتراح طلب منه أن يمهله بعض الوقت قبل أن يقدم على عملية الهجوم على الجزيرة ، وذلك لكى يتمكن المقيم البريطـانى من ارســال بعض القوات لحمــاية الرعايا البريطانيين والممتلكات البريطـانية فى الجزيرة (١) . وقد بعث هانيـــل بخطابه الى القطيف بيد ادمونز الذى توجه على الطراد دجلة وقد كلف ادمونز أيضـــا بعملية استطلاع لقوات خورشيد باشا وتحركاته . وصل ادمونز الى القطيف يوم ٢٤ مارس وقد علم من قائد الحامية هناك محمد الكاشف بأن خورشيد باشا لا يزال فى السليمية مع القوات الرئيسية من الجيش ويقدر عــددها بـ ٣٠٠٠ جندى وبانه قد بعث فى طلب امدادات وتعزيزات جديدة تقــدر بنحو الف جندى من الخيالة وألفين من الجنود المشاه ، وذلك من ضـمن الاحتياطى من القوات ويقدر عددها بنحو ١٥ ألف جندى والذين يرابطون فى المدينة بقيادة سليمان باشا وبأنه من المتوقع أن تصــل تلك التعزيزات الى السليميه فى بحر ١٥ يوما بالسير السريع وكان معقولا أن يستنتج ادمونز من ذلك كما ذكر لهانيل فيما بعد بأن الباشا لن يتمكن من الهجوم

---

(١) مرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ١٢ مرفق لخطاب رقم ٤١ بتاريخ ١٨٣٩/٤/١٣ من هانيل الى خورشيد باشا ١٨٣٩/٢/٢٨ .

على البحرين قبل وصول تلك التعزيزات اليه (١) .

من القطيف توجه ادمونز للاجتماع بعبد الله بن أحمد في البحرين وقد فوجيء ادمونز عند اجتماعه بالشيخ بأنه لم يكن يشعر بأى قلق بسبب تهديدات خورشيد باشا ، وأكد الشيخ لادمونز بأنه فى وسع البحرين أن تصمد فى وجه القوات المصرية لمدة عام واحد على الأقل ، غير أنه سيكون من الأفضل لو عمدت الحكومة البريطانية الى العمل على وقف تقدم القوات المصرية الى اكثر مما تقدمت اليه ، وذكر أيضا بأن محمد على باشا يهدف من احتلال البحرين الى اتخاذها قاعدة لشن هجوم على البصرة واستخدام السفن التابعة لآل خليفة فى نقل قواته الى البصرة كما ذكر له بأنه على الرغم من انه لا يفكر فى التحالف مع محمد على باشا الا أنه رغم ذلك قد عرض على محمد على باشا استعداده لدفع زكاة سنوية زهيدة فى حدود ٣٠٠٠ ريال نمسوى ترضية له ولكسب وده ولكن الشيخ عبد الله أخفى أمر الزيادة التى قدمها مبعوث أمير فارس للبحرين والذى كان يحمل للشيخ هدية رمزية عبارة عن عباءة حريرية وكان يأمل أمير فارس من تلك الهدية أن يعود المبعوث بوعد قاطع من الشيخ عبد الله بدفع الزكاة التى كانت تدفع سابقا للأمير الا أن عبد الله لم يكن فى الحقيقة يعنى ما يقول (٢) ، وواقع الأمر

---

(١) مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١٨ من ادمونز الى هانيل ومرفق بخطاب هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٢/١٠ (رقم ٢٢ الادارة السرية) .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من هانيل الى اللجنة السرية بتاريخ ١٨٣٩/٥/١٥ وكان هذا المبعوث هو الحاج قاسم رئيس عمال النقل البحرى وكان يصحبه عشرة من الحرس المسلح . راجع ملفات وزارة الهند مرفقات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ص ٣٨٨ .

أن المصريين كانوا فى ذلك الوقت يشكلون قوة عسكرية تقف غير بعيد من حدود البحرين ، كما أن البريطانيين لم يستجيبوا الى طلب الحماية ولم يقدموا اليه أى شىء يستطيع به التصدى لخورشيد باشا ، بينما الفرس لم يكونوا يملكون القوة البحرية التى يمكن للشيخ ان يستعين بها ضد المصريين، كما أن الشيخ لم يكن بأى حال من الأحوال يرغب فى استبدال نفوذ بنفوذ، كما كان هناك احتمال بأن ينتقل النزاع من فارس وبريطانيا الى مرحلة أكثر خطورة مما قد يؤدى الى تغيير الأوضاع السياسية فى الخليج .

وعلى الرغم من انقضاء وقت طويل على عودة محمد شـــاه من اقليم الحـــيرة الا أنه لم يبد أى بادرة لتحقيق الوعود التى كان قد قطعهـــا لاستودارت فى اغسطس ١٨٣٨ ، وعند وصول شيل سكرتير المفوضـــية الى طهران عائدا من تبريز فى نهاية العام لتقديم احتجاجه على التأخير الذى تعرض له لم يلق احتجاجه أى اهتمام من جانب الشاه الذى كان قد أوفد مبعوثا خاصا الى انجلترا لعرض الموضوع على الحكومة البريطانية مباشرة، وذلك كمحاولة منه للتهرب من الوفاء بالوعد ، وازاء ذلك كله ادرك ماكنيل أنه لا يستطيع العودة الى طهران ، وبالتالى فقد قرر نقل المفوضية الى تركيا وأصدر أمره الى الضباط البريطانيين المعارين للقوات الفارسية بمغـــادرة البلاد الى بغداد (١) . غير أن قطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة فارس لم يؤد تلقائيا الى اغلاق الممثلية البريطانية فى بوشهر لأنه كان قد تقرر من قبل انه فى حالة اتخاذ هذا القرار فلن يكون من الضرورى اغلاق المفوضية لأن وجود هانيل فى بوشهر سوف تبقى له فائدة كبيرة (٢) . وكان الدافع

---

(١) لمحة تاريخية عن قبيلة العتوب العربية ، ١٨٣٢ — ١٨٤٤ تأليف اللفتنانت ايه . بى . كامبل .

(٢) هذا الحـــادث توجد له سابقة وذلك عندما احتفظت بريطانيـــا بممثليها فى بوشهر عام ١٨٠٧ — ١٨٠٨ بعد ان قطعت علاقاتها الدبلوماسية احتجاجا على ما حدث فى اجتماع فتح على شاه ببعثة الجنرال جاردن .

الى ذلك القرار هو أن الحكومة البريطانية قد اقتنعت بأن وجـــود الممثل الرسمى البريطانى الوحيد فى أراضيها قد أصبح الوسيلة الوحيدة للشاه فى اظهـــار عدائه للحكومة البريطانية . وقد تأكدت هـــذه الحقيقة من المظاهرات التى قامت فى بوشهر عام ١٨٣٨ واسفرت عن هجوم المتظاهرين على أحياء اليهود ، وبالأخص على سمسار المثلية بحجة أن ذلك السمسار كان يتاجر فى الخمور ، وهو عمل يتعارض مع الشريعة الاسلامية ، وقد قام المتظاهرون بمهاجمة منزل السمسار وضربه ضربا مبرحا مما جعله يهـرب الى بيت أمير فارس فرهاد ميرزا ، وقد طلب السمسار من ماكنيل الاتصال بحكومة فارس للحصـول على تعويض ، وعلى الرغم من أن وزير خارجية فارس قد أبدى استعداده لارسال تعليماته الى أمير شيراز لاجراء تحقيقات فى الحـادث ، وبتعويض السمسار اذا ثبتت براءته الا أنه أوضح للمقيم بالوكالة بأنه يرى بأن السمسار كان على خطـأ ، لأنه كان يتخذ من منزله مكانا لبيع الخمور وتوزيعها ، وقد أعقب هـذا الحادث حادث آخر عندما أصـدر حاكم بوشهر مرسوما بحظر شحن الحبوب من داخلية البلاد الى الحامية البريطانية من خـرك بحجة وجود نقص فى المحصـول من المواد الغذائية وبرغم المحادثات التى أجراها هانيل مع حاكم الأقليم الا أن الأخير رفض الرجوع عن قراره ، مما اضـــطر هانيل الى ان يطلب من السلطات المسئولة فى بومباى القيام بفرض حصار على بوشهر لارغام حاكمها على رفع الحظر بتوريد الحبوب الى الحامية البريطانية فى خرك . ولكن اقتراحه أحيل الى الحكومة فى لندن ، بينما رفضه بالمرستون على أساس أن فرض حصار على بوشهر قد يسىء الى العلاقة القائمة بين بريطانيا والتجار الفرس الذين كانوا متمسكين بصــــداقتهم للبريطانيين . وعلى أى حـــال فان بالمرستون لم يكن يرغب فى تعريض ســـلامة الجنود البريطانيين فى خرك الخطر ولذلك فقد كلف هانيل بتوجيه تحذير الى حاكم بوشهر بأن الحكومة البريطانية سوف تلجأ الى التدابير الضرورية لتأمين المواد الغذائية للحامية

البريطانية هنـــاك وبأن عليه أن يقوم بتنفيذ هـذا القرار اذا لم تستجب السلطات الفارسية لطلبه (٥)

لكن قبل وصول هذه التعليمات الى هانيل كان قد تورط فى مشكلة جديدة مع السلطات الفارسية فى بوشهر حول امداد الحامية العسكرية البريطـانية فى جزيرة خـرك بالمواد الغـذائية ، ففى بداية ١٨٣٩ عينت السلطات الفارسية حاكما جديدا على بوشهر يدعى ميرزا أسد الله ، ولقد بدر هذا الحاكم بعد تعينه الى اظهار تحمس أكثر فى تنفيذ الأوامر التى أخذت تصدر اليه من طهران ، ومن سلفه فى شيراز ، وأصدر قرارا بفرض حظر شامل على جميع الصادرات من داخل البلاد الى جزيرة خرك ، ومنع المواطنين الفرس من التعاون مع رجال الحامية البريطانية أو العمل لديهم، وردا على ذلك بعث هانيل باحتجاج على القرار المذكور الى أمير شيراز الذى استجاب لطلبه فأصدر أمرا الى ميرزا أسد الله برفع الحظر ، ولكن هانيل شك فى جدية الأمر الصادر من شيراز ، وكان يعتقد بأن حاكم شيراز كان يشجع حاكم بوشهر سرا على اتخاذ مواقف متشددة ، اذ أنه عندما سلم ذلك الأمر الى ميرزا أسد الله رفض الأخير تنفيذه ، ولم يوافق عليه الا بعد أن هدد هانيل حكومة فارس باغلاق المفوضية البريطانية فى طهران ٠

وفى شهر مارس ١٨٣٩ لم يبق أمام هانيل ما يفعله للرد على حاكم بوشهر الا أن يطوى علم دولته ويرحل عن البـلاد ٠ فى ذلك الوقت كانت أعمال التمرد ضد الحكام الفرس كنتيجة لفشل الشاه فى حملته على اقليم الحيرة منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، ولذلك كان لابد لأمير فارس من أن يعد الى البحث عن طريقة يسترد بها ولو قليلا من هيبة أسرته الحـاكمة فأخذ يهدد بالهجوم على جزيرة خرك لصرف نظر الشعب عن الفشل الذى لقيته حملته على الحيرة ٠ وكان هانيل قد طالب فى شهر يوليو ١٨٣٨ بتعزيز الدفاع عن الحامية ، واقترح لذلك ارسال مجموعة من الجنود الأوربيين الى الجزيرة ٠ وفى شـــهر أكتوبر من نفس العام وصلت الى خرك كتيبة

عسكرية تتكون من ٣٠٠ جندى أوربى من وحدة مدفعية ، وقد أبلغ هانيل بأن الهدف من ارسال الجنود هو العمل على تقوية وسائل الدفاع عن جزيرة خرك ضد أى هجوم محتمل ، كما طلب اليه بأن يعتمد على نفسه فى تقرير الطريقة التى ستعمل بها تلك القوة بالتشاور فى ذلك مع اللفتنانت كولونيل شريف قائد الحامية (١) أما اذا تبين لهانيل وشريف بأنه لا يمكن الدفاع عن المثلية البريطانية فيمكنهما الانسحاب الى خرك (٢) وقد أصدر ماكنيل أمرا الى هانيل باحتلال بوشهر اذا اكتشف أى نوايا عدوانية من جانب أمير شيراز ضد الحامية فى خرك ٠ غير آن كلا من هانيل وشريف لم يكونا متأكدين من امكانية الاحتفاظ ببوشهر وبالمثلية نفسها فى حالة شن هجوم عنيف عليها من جانب الفرس ، كما كانا مترددين فى المجازفة بحياة الجنود الهنود فى أول اشتباك لهما مع قوات الفرس ، ولذلك اضطر هانيل الى ابلاغ ماكنيل بأن احتلال بوشهر يتطلب وجود قوات كافية من الأوربيين وبأنه اذا تعرض موقفه للخطر فانه سوف ينسحب الى خرك (٣) ٠

---

(١) ورد اسم هذا الضابط فى كتاب لوريمار (دليل الخليج) باسم شريف ولكنه يغطى عادة فى المراسلات المتبادلة فى ذلك الوقت « شريف » .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٠ مرفق بخطاب السكرتير رقم ٣٠ المؤرخ ١٨٣٨/١٠/٢٤ من ويلوبى الى هانيل بتاريخ ١٨٣٨/٩/١٣ (رقم ٢٣٢) الادارة السرية .

(٣) خطاب سرى رقم ١٥ مؤرخ ١٨٣٨/٩/١٠ من هانيل الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى بتاريخ ٧ ، ١٨٣٨/٨/١٣ ومرفق معه خطاب ماكنيل الى هانيل ١٨٣٨/٧/١٠ وخطاب هانيل الى ماكنيل أغسطس ١٨٣٨ والخطاب الأخير لم يرد ذكره فى المخابرات الخاصة بفارس والتى عرضت على البرلمان فى عام ١٨٣٩ وقد اوعز هانيل الى ماكنيل باغلاق المثلية اذا لم تقم حكومة اقليم فارس بدفع التعويضات عن حادث الاعتداء=

وقد ازدادت الأمور تعقيدا فى عام ١٨٣٩ ففى أواخر فبراير استفسر جيمس فاريش نائب الحاكم فى بومباى من القـــائد العام للهند الشرقية الريرادميرال الســير فريدرك مثلاند الذى كان فى ذلك الوقت فى زيارة لبومباى فيما اذا كان يستطيع الاستغناء عن بعض قطع الأسطول لارسالها الى الخليج لتدعيم مركز هانيل ٠ وقد أبحر مثلاند يوم ٢٣ فبراير على سفينة القيادة ويلسلى (٧٤ مدفعا) ترافقه الفرقاطة الجرين ، وفى يوم ٢٠ مارس وصل الى بوشهر ،. وبعد مضى ثلاثة أيام من وصوله توجه لزيارته على ظهر السفينة الحربية ميرزا أسد الله ، وقام القائد برد الزيارة فى نفس اليوم ، وخلال اجتماعه بميرزا أسد الله أخبره هــذا الحاكم بأنه يتعين على جميع القادمين للبلاد من السفن الحربية البريطانية النزول على رصيف الجمرك وليس على رصــيف المثلية كما كان يتم سابقا عندما كان الضـــباط البريطانيون وغيرهم من الزوار الرسميين يستعملون فى نزولهم رصــيف المثلية ، وقد اعتبر مثلاند طلب حاكم بوشهر النزول على رصــيف الجمرك اهانة له ، وأصر مثلاند على نزوله وصعوده الى البارجة عن طريق رصــيف المثلية وليس عن طريق الجمرك ، غير أن ميرزا لم يوافق على طلب مثلاند ، وبالتالى فقد أنهى مثلاند لقاءه مع حاكم بوشهر ، وقام بابلاغ هانيل بمـــا حدث ، وقد قام هانيل بارسال مذكرة الى الحاكم يطلب منه فيها تعهـدا كتابيا بالتصريح لمثلاند وغيره من الضباط البحريين باستعمال رصــيف المثلية ،وكنتيجة لرفض ميرزا أسد الله الموافقة على هذا الطلب لم يجد

= على سمسار المثلية غير ان الخطاب الذى يتضمن هذا الأمر فقد أثناء نقله بين تبريز وبوشهر ولم تصـــل نسخة منه الى هانيل قبل يوليو ١٨٣٩ — (انظر نفس الحلقات مجلد ١٥ مرفقات للخطاب السرى رقم ١٠٣ بتاريخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٩/٧/٢٥) ورقم ٦٩ الادارة السرية) ، ومرفق معه خطاب ماكنيل الى هانيل تبريز ١٨٣٨/١٢/٢٨ ٠

مثلاند مفرا من مغادرة بوشهر واستعمال رصيف المثلية عند مغادرته البلاد بواسطة قوة مسلحة من الطراد ويلسلى .

صباح اليوم التالى الموافق ٢٥ مارس وقف القائد مثلاند ومجموعة من الضباط البحريين على رصيف المثلية فى انتظار القوارب التى ستقلهم الى الطراد ويلسلى . وبالقرب منهم تجمهر عدد من أهالى بوشهر مع بعض الجنود الفرس الذين أنيطت اليهم مهمة الحراسة من قبل الحاكم ، وقد وقف أحد هؤلاء الجنود على الساحل عندما وصل القارب الذى يقل الكابتن توماس مثلاند أخ الأدميرال وعند وصول هذا القارب الى الشاطىء صوب الجندى الواقف ببندقيته على الكابتن مثلاند ليمنعه من النزول . وعندئذ تقدم السير فريدريك ودفع ببندقية الجندى وقبل أن يتمكن الجندى من القيام بأى حركة جرد من السلاح من جانب هانيل والمرافقين له من الضباط ، غير أن هذا التصرف أحدث رد فعل عنيف من جانب الأهالى الذين أخذوا يقذفون البريطانيين بالحجارة والعصى ولم يتوقفوا الا بعد أن تدخل بحارة القارب وصوبوا بنادقهم نحو الأهالى المتجمعين ، وتبين أن هناك مجموعة أخرى من الجنود كانت تكمن وراء أحد المتاريس واخذوا يطلقون النار على مثلاند وزملائه ، وقد أضطر البحارة الانجليز الى الرد بالمثل وقتلوا جنديا وأصابوا اثنين بجراح . وقد أرسل هانيل مذكرة احتجاج عاجلة الى قاضى بوشهر الذى كان هانيل يعتقد بأنه هو الذى كان يحرض الجنود . وقد حذر هانيل القاضى بأن البريطانيين سوف يردون عليهم باطلاق النار اذا لم يتوقف الاعتداء على الطراد دون حدوث عوائق (١) .

---

(١) خطاب الاميرالية رقم ١/٢١٩ من مثلاند الى وود (سكرتير الاميرالية) من الطراد ويسلى فى خرك ١ ، ١٨٣٩/٤/٧ ، ١٨٣٩/٥/١ (أرقام ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩) من مثلاند الى فاريش ، ١٨٣٩/٣/٣٠ (رقم ٢٥ ومرفقات رسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/٨ من هانيل الى ويلوبى جزيرة خرك ١٨٣٩/٣/٣٠ (رقم ٢٣ الادارة السرية) .

ولما لم يصل التعهد الذى طلبه هانيل فى اليوم السابق بعدم التعرض لقوارب الأسطول البريطانى فى استخدام رصيف المثلية للنزول والصعود من السفن البريطانية حتى ليل ٢٥ قرر هانيل فى ذلك اليوم انزال العلم البريطانى واغلاق المثلية . غير أن هذا القرار الذى اتخذه هانيل والذى أوضح أسبابه لميرزا اسد الله وللمسئولين فى بومباى لم يكن بسبب الاهانة التى تعرض لها مثلاند فى ذلك اليوم فحسب ، وانما بسبب العراقيل والاهانات الكثيرة التى وجهتها السلطات الحاكمة فى بوشهر الى مثلاند خلال الشهور السابقة . وقد خشى التجار فى بوشهر من أن يؤدى اغلاق المثلية الى نتائج ضارة على تجارة الميناء وناشدوا هانيل اعادة النظر فى قراره ، غير أن هانيل رفض الطلب .

وفى صباح يوم ٢٦ مارس أمر بنقل اثاث المثلية الى السفن الحربية البريطانية الراسية فى الميناء . وعندما فقد تجار بوشهر الأمل فى استجابة هانيل لطلبهم بعثوا بوفد منهم الى الطراد ويلسلى لتقديم الاعتذار عن سلوك الأهالى ويعدون بتقديم اعتذار كتابى من حاكم بوشهر عن أحداث يوم ٢٥ مارس . غير أن مثلاند أوضح لهم بأنه لايملك أى سلطة على قرار المقيم ، ولكنه رحب بوعدهم بارسال اعتذار من حاكم بوشهر فى هذا الشأن (١) . أما ميرزا اسد الله فانه لم يكن يفكر بالاعتذار للسلطات البريطانية عما حدث، وانما فعل العكس من ذلك ، فقد طلب من باقر خان حاكم تنجستان أن يشترك معه فى القيام باظهار عدائه للمقيم البريطانى . ففى الوقت الذى كان تجار بوشهر يحاولون تهدئة الموقف مع مثلاند كان حاكم بوشهر وتنجستان مشغولين ببناء منصة أمام رصيف المثلية ، وقد أضفى هذا الموقف بعدا جديدا الى سلامة القرار الذى اتخذه هانيل لمغادرة بوشهر .

---

(١) نفس المصدر من مثلاند الى وود ، الطراد ويلسلى الخليج ١٨٣٩/٥/١ (رقم ٣٩) .

وقد طلب من مثلاند حماية مسلحة لتغطية انسحاب موظفى المثليــة بينما قام هو بالاشراف على نقل الأمتعة الى السفينة وذلك فى يوم ٢٩ مارس • وفى ذلك اليوم كان هناك ٣٠٠ رجل مسلح تحت اشراف باقرخان يحتلون رصيف المثلية ، غير أن عملية الانسحاب تمت فى هدوء وبدلا من حدوث أى بادرة عدائية من باقرخان فان هذا أبدى استعداده لحماية عملية الانسحاب والمحافظة على المثلية الى أن يعود هانيل الى بوشهر مرة أخرى •

وقد غادر المقيم البريطانى بوشهر تحت حراسة السفن البريطانية وتوجه الى جزيرة خرك وكانت ترافقه فى هذه الرحلة ثلاث سفن حربية هى ويلسلى والجرين والفنستون بينما بقيت السفينة كوت (١) لمراقبــة الوضع هناك •

تسلم بالمرستون خبر اغلاق المثلية فى الاسبوع الثالث من يونيه أى بعد وصول حسين خان سفير فارس الجديد لدى حكومة بريطانيا ، ولم يتردد بالمرستون من مصارحة السفير بموقف بريطانيا ، وقد ذكر له فى الاجتماع الذى تم بينهما ... « حتى ولو أن الأميرال ضرب بوشــهر بالمدافع ودمرها لكان له الحق فى ذلك » (٢) • غير أن اوكلاند كان له موقف آخر فعلى الرغم من انه قال بأن اقامة المنصة فوق رصيف المثلية يعتبر عمــلا يشكل تهديدا مباشرا لسلامة أعضاء المثلية ، الا أنه كان يود لو أن هانيل

---

(١) مرفقات للخطاب السرية لحكومة بومباى السرية مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١ •

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٥ مذكرة بمحضر اجتماع اللورد بالمرستون وسفير فارس حسين خان بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٩ اعداد جى.بى. فريزر وكان فريزر الذى سبق له أن رافق الدكتور جوكسن فى مهمته فى شيراز سنة ١٨٢١ قد عين مترجما للقسم الشرقى لشؤون وزارة الخارجية البريطانية .

اتخذ موقفا وديا ازاء ذلك الاجراء ، ولو انه فعل ذلك لما اضطر الى اغلاق المثلية ، كما كان اوكلاند يعتقد بأن قرار هانيل باغلاق المثلية والانسحاب الى جزيرة خرك قد تم بتشجيع من مثلاند . غير أن هذا لايتفق مع التعليمات التى تسلمها هانيل من حاكم بومباى فى شهر سبتمبر ١٨٣٨ وكلفه فيها باغلاق المثلية اذا ما رأى أن الأوضاع تستدعى ذلك كما لايتفق أيضا مع التعليمات الأخرى التى أصدرها ماكنيل فى يوليو وتضمنت مطالبته باتخاذ موقف متشدد وانذار السلطات الفارسية بعزم البريطانيين على احتلال بوشهر اذا ظلوا متمسكين بموقفهم العدائى تجاه بريطانيا . غير أن اوكلاند نفسه لم ير من المناسب اصدار تعليمات على الاطلاق وبالتالى فان القيود التى عاد فرضها على هانيل لم تكن ضرورية . أما مثلاند فقد رفض الانتقادات التى وجهت اليه واستعمل لهجة تتسم بالخشونة وذكر بانه لم يتعود أن يتلقى اهانات كالاهانات التى تلقاها فى بوشهر من قبل السلطات الفارسية (١) . وان وجد أية شكوك حول التأثير الذى مارسه مثلاند على المقيم فى اتخاذ قراره باغلاق المثلية فقد تبددت بما قاله هانيل نفسه ، بأنه لو قدر له أن يتسلم تعليمات ماكنيل التى أرسلها فى ديسمبر الماضى فى وقتها لمضى فى تنفيذها دون ابطاء ولكان قد اضطر الى اغلاق المثلية تحت ظروف أسوأ مما كان عليه الحال فى اواخر شهر مارس (٢) واذا تأملنا فى الأمر نجد أن اوكلاند قد عاد فأدرك بأن انتقاداته السابقة لم يكن لها

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ رقم ١٢ للخطاب السرى رقم ٩٢٠ المؤرخ ١٨٣٩/٧/٣١ من مثلاند الى السير كرناك (حاكم بومباى) على الطراد ويلسلى خليج ترانكومالى ١٨٣٩/٦/٢٢ .

(٢) الخطاب السرى رقم ١٠٣ المؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى جزيرة خرك ١٨٣٩/٧/٢٥ (رقم ٦٩ الادارة السرية) .

ما يبررها ، كما اعترف بأن الأوضاع فى بوشهر كانت تحتم على هانيل بأن يغادر البلاد . واذا صرفنا النظر جانبا عن مضمون العدالة فى هذا الموقف نرى أن الظروف التى تم فيها اغلاق الممثلية تبدو ، بأن الاثنين قد اضطرا الى اتخاذ الخطوة التى اتخذاها للخروج من بوشهر (١) وعلى أى حال فقد كانت النتيجة أن هيبة الحكومة البريطانية قد تلقت ضربة شديدة فى نظر سكان الخليج فى نفس الوقت الذى كان فيه خورشيد باشا يصول ويجول فى شبه الجزيرة العربية .

فى أوائل شهر مارس ١٨٣٩ تسلم اوكلاند صورة من المذكرة التى بعث بها بالمرستون الى كامبل ، وتتضمن تعليمات بالمرستون لتوجيه تحذير الى محمد على باشا من محاولة التوسع نحو الخليج ، وفى ١٣ مارس بعث الحاكم العام فى الهند بأوامر الى هانيل عن طريق حكومة بومباى بضرورة استخدام كل ماله من نفوذ لوقف توسع خورشيد باشا فى المنطقة ، كما تضمنت التعليمات تكليف ماثلاند بتقديم كل مساعدة ممكنة لهانيل فى هذا الصدد ، وبتقديم كل تأييد ممكن الى شيخ البحرين فيما عدا المباشر مع المصريين . وقد ذكر ماثلاند بأن تلك الاجراءات هى الحد الأقصى لما يمكن أن يقوم به البريطانيون فى تلك المرحلة . حتى ذلك الوقت لم يكن من المحتمل أن يكون خورشيد باشا قد تلقى التعليمات التى أرسلها اليه محمد على باشا بعد استلام الأخير احتجاجات بالمرستون ، خصوصا وأن اوكلاند كان واثقا بأن محمد على باشا لابد أن يصدر تعليمات الى خورشيد باشا ، وان هذا

---

(١) كان هذا هو رأى اللفتنانت ادموندز المقيم البريطانى المساعد راجع مرفقات خطاب حكومة بومباى السرية مجلد ١٩ المرفق للخطاب السرى رقم ١٠ فى ١٨٤٠/٢/٢٨ من ادموندز الى ويلوبى ١٨٤٠/١/٢٢ رقم (٢، الادارة السرية) .

سوف يقوم بتنفيذها (١) ثم نقل تعليمات الحاكم العام الى هانيل على الطراد كروز الذى أبحر من ميناء بومباى فى اليوم الثانى من ابريل ، كما نقل الطراد مجموعة أخرى من التعليمات التى أصدرها جيمس فاريش حاكم بومباى بالوكالة ، وكانت هذه التعليمات قد صدرت قبل استلام هانيل لرسالة خورشيد باشا والتى هددت فيها خورشيد باشا باحتلال البحرين بالقوة المسلحة وقد طلب فاريش بمقتضى تلك التعليمات أن يقوم هانيل بتوجيه تحذير الى خورشيد باشا ، بأن العلاقات بين مصر وبريطانيا سوف تتدهور فيما لو حاول خورشيد تنفيذ تهديده باحتلال البحرين (٢) ، غير ان هانيل كان قد قرر اتخاذ اجراء قبل أن تصله تلك التعليمات . وكان القائد ماثلاند قد أبلغ هانيل خلال الأسبوع من ابريل بأن احتياطيهما من المؤن يفرض عليه التوجه الى بومباى للتزود بالتموين قبل نهاية الشهر وأنه اذا كان المقيم يريد منه القيام بعملية استعراض للقوة البريطانية على الساحل العربى فانه لا يستطيع ذلك قبل منتصف الشهر التالى ، واقترح على هانيل بأن يتوجه ماثلاند بالطراد الى البحرين أولا ، ومنها يبحر فى سرعة بطيئة بمحاذاة الساحل العربى على أن يبتعد عن مياه الخليج فى أواخر الشهر . وقد وافق هانيل على الاقتراح وسلم مثلاند رسالة الى خورشيد باشا تتضمن الاحتجاج الذى بعث به بالمرستون الى والى مصر بتاريخ ٢٩ نوفمبر والذى لم يتسلم هانيل صورة منه الا فى ذلك اليوم .

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى — محضر فاريش ١٨٣٩/٤/١ ومن ويلوبى الى هانيل بنفس التاريخ رقم «٦٧١ الادارة السرية».

(٢)مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٤/١٠ (رقم ٢٢ الادارة السرية) ومرفق به خطاب هانيل الى خورشيد باشا بنفس التاريخ .

فى يوم ١٧ أبريل أقلع ماثلاند من جزيرة خـــرك يرافقه ادموندز المقيم المساعد ، والكومندور جى.بى بركس قائد الوحدة البحرية فى الخليج وذلك على السفينة الفنستون ٠ وفى يوم ٢١ وصلوا الى البحرين ، وفى اليوم التالى زارهم على ظهر السفينة اثنان من انجـــال عبد الله بن أحمد شيخ البحرين وذكرا لمثلاند بأن والدهما قد سافر الى قطر ، وانه لم يتلق مطالب أخرى من خورشيد باشا منذ زيارة ادموندز له فى الشهر الماضى ، كما ذكرا له بأنهمـا لا يتوقعان هجوما يقــوم به خورشيد باشا على البحرين فى الوقت القريب وبالفعل لاحظ ماثلاند بعدم وجود أى مظاهر للهجوم على البحرين ٠ وفى يوم ٢٣ ابريل عندما كان الطراد ويلسلى يغادر منطقة المنامة وصل الشيخ سلطان بن شخبوط حاكم أبو ظبى لزيارة القـــائد ماثلاند وليؤكد له استمرار روابط الصداقة القوية التى تربط بين البحرين وأبو ظبى ، وفى اليوم التالى عندما كان الطراد المذكور يغادر مياه الخليج الى لنجة التقى بالسفينة كروزر وكانت متجهة الى الخليج لتسليم تعليمات اوكلاند وفاريش الى هانيل ، غير أن ذلك لم يغير شيئا من خطط ماثلاند ، لقد كان احتياطيه من المواد التموينية على وشك النفاد بحيث لا يسمح له بالبقاء فى الخليج فترة أطول . وعلى أية حال فقد كان ماثلاند يشعر بأنه قد قام فعلا بتنفيذ المهمة التى اوكلت اليه .

استقبل ماثلاند فى لنجة استقبالا حارا من حاكمها سعيد بن قتب ، وقد ذكر لمثلاند بأنه على الرغم من أنه لم يكن يخشى شيئا من المصريين الا أن مصلحة وأمن أبناء الخليج فى مقدمة الأمور التى تهمه ، كما اكتشف ماثلاند بان الشيخ سلطان بن صقر كبير مشايخ القواسم قلق هو الآخر من الوضع عندما التقى به ماثلاند يوم ٤/٢٧ فى مشيخة رأس الخيمة ، وقد صارح ماثلاند بأن السكان العرب لا يستطيعون وحدهم ايقـــاف خورشيد باشـــا ، وأنهم يتطلعون الى الحكومة البريطانية لحمايتهم وقد رد عليه ماثلاند فأبلغه بالتحذير الذى وجهه بالمرستون لمحمد على باشا وان كان قد أعرب له عن رأيه فى أن قبائل الساحل

العربى فى وسعها التصدى لخورشيد باشا لو انها وحدت صـــفوفها ، وذكر ماثلاند للشيخ بأنه علم من الكلونيل بركس بأن قبائل اتحاد القواسم وحدها والذى يضم رأس الخيمة وأم القوين ، وعجمان والشـارقة تستطيع تعبئة ١١ ألف مقاتل ، غير أن سلطان بن صقر لم يوافقه على رأيه ، وذكر له بأنه على الرغم من احتمال تعبئة هذه القوة من القبائل فى تجمع واحد تحت قيـادة بريطـانيا ، الا أن الحزازات القبيلية سرعان ما ستعمل على تحطيم هـذا الاتحاد ، وقد وافق ماثلاند فى قرارة نفسه على رأى الشيخ ، وقال ماثلاند « انه لما يحز فى النفس أن أرى زعماء القبـائل غير مدركين للخطر الذى يداهمهم وأنهم رغم المخـاوف التى يعربون عنها من حين الى آخر فانهم لم يتخذوا أى خطوة لمواجهة هذا الخطر (١) ولم تؤد الزيارة التى قام بها شيخ أبو ظبى للقائد ماثلاند فى صبيحة ٣٠ ابريل الى تغيير رأى هذا ، وقد غادر راس الخيمة فى وقت متأخر من صباح اليوم ، ثم عبر الخليج بسرعة بعـد الظهر (٢) .

وقد تخلف الكابتن ادمونز للاشراف على الاجراءات الخـاصة بتجديد

---

(١) من ماثلاند الى وود رقم ٢٢٠/١ بتاريخ ١٨٣٩/٥/٢ (رقم ٤٠) ومرفق به محاضر اجتمـاع الأميرال السـير ماثلاند مع شـيوخ الخـليج ، وقد قام بكتابة تلك المحاضر الكابتن ادمونز ــ المقيم البريطانى المساعد فيما بين ٢٢ ، ٣٠ ابريل ١٨٣٩ (ونشير بهذه المناسبة بأنه قد تمت ترقية ادمونز الى رتبة كابتن وهانيل الى رتبة ميجور فى ربيع ١٨٣٩ .

(٢) مذكرات ماثلاند ٣٠/١٧ ابريل ١٨٣٩ رقم ٢١٤/٥٠ ومرفقـات للخطابات السرية لحكومة بومباى المجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٦٩ فى ١٨٣٩/٥/١٨ من ماثلاند الى فاريش ١٨٣٩/٥/٣ .

معاهدة الصلح البحرية . وفى أول مايو استقبل جميع شـيوخ المنطقة على ظهر السفينة الفنستون (١) وقد أبلغ الشيوخ الكابتن ادمونز بأن جماعة من المسلمين تقدر بـ ١٥٠ رجلا قد دخلت الى الشارقة قادمة من نجد فى منتصف شهر ابريل ، وكان يقودهم سعد بن مطلق نائب الملك فيصل فىواحة البريمى سابقا ، وكان سعد هذا قد غادر البريمى الى نجد فى بداية العام ، بعد أن وصله نبأ استسلام الأمير فيصل لقوات خورشيد باشا ، وأن مطلق هذا يعتبر نفسه النائب لخالد بن سعود خليفة فيصل ، وخلال الفترة التى تغيب فيها سعد بن مطلق عن منطقة البريمى قام النعيم بطرد افراد الحامية للبريمى واحتلال القلعة الرئيسية قصر الخندق ، وقد أعلنوا بعد احتلالهم للقلعة بأنهم ان يتخلوا عنها حتى ولو دفنوا جميعا تحت أنقاضها (٢) وبعد احتلال النعيم للقلعة بعثوا بنداء الى السيد حمد بن عزام والى صـحار يطالبونه بالتأييد ، فأوفد أخاه على رأس ٢٠٠٠ رجل لمساعدتهم فى الدفاع عن الواحة . وعند وصول سعد بن مطلق الى الشارقة أبلغ سلطان بن صقر بأنه قد جاء الى المنطقة موفدا من قبل الأمير خالد بن سعود لاحتلال واحة البريمى ، وعلى الرغم من أن وصول هذا القائد قد سبب خيبة أمل لسلطان بن صقر كما ذكر فى حديثه لادمونز الا أنه اضطر الى استقباله والترحيب به حتى لا ينصرف عنه الى خليفه بن شخبوط حاكم أبو ظبى الذى كان يومئذ الخصـم اللدود لسلطان ، غير أن أدمونز نصح سلطان بالتخلص من سعد بن مطلق بأى شكل من الأشكال مهما تكن مخاوفه من رد الفعل لأنه من المحتمل أن يكون سـعد

---

(١) للاطلاع على الاتفاقيات المعقودة بين حكومة الهند ومشيخات ساحل الخليج انظر فصل ٩ ، ولقد كان الاجتمـاع الذى عقـده ماثلاند مع شـيوخ المنطقة بحضور المقيم هو أول اجتماع من نوعه .

(٢) مختارات من حكومة بومبـاى مجلد ٢٤ ص ٤٤٦ ـ لمحة تاريخية عن الوهابيين ١٨٣٢ ـ ١٨٤٤ تأليف كامبل .

بن مطلق قد جاء بتكليف من خورشيد باشـــا وليس بتكليف من الأمير خالد بن سعود (١) .

كان التوسع المصرى فى جنوب شرق وشـــمال شرق الجزيرة العربية الشغل الشاغل لهانيل طوال هذا الوقت وحتى قبل أن يكتشف ادمونز ما رآه فى رأس الخيمة كانت الاشاعات تملأ المنطقة بأن عمــلاء مصر منتشرون فى جميع أنحاء منطقة الخليج . وفى يوم خمسة مايو أوفد هانيل الدكتور تى . ماكنزى طبيب المثلية البريطـانية على ظهر أحــد المراكب للكويت والبصرة والمحمرة للتأكد من صحة تلك الاشاعات . وبعد يومين من ذلك أرسل الطراد كليف الى شيخ الكويت جابر بن عبد الله ومعه رسالة لخورشيد باشا لكى يطلب تسليمها الى القائد المصرى عن طريق حاكم الكويت ، وكانت هذه الرسالة عبارة عن نسخة مشمعة بالشمع الأحمر من الخطــاب الذى كان قد بعث به هانيل الى الباشا يوم ٢٩ ابريل الى القطيف فى موضوع التحذير الذى ورد فى تعليمات كل من اوكلاند وفاريش التى صدرت فى الشهر السابق ، وكان هدف المقيم من ارسال صورة من ذلك الخطاب الى حاكم الكويت هو أن يقــوم هذا باقناع خورشيد باشا بالتخلى عن أطماعه لأن الحكومة البريطانية كانت مصممة على منع القائد المصرى من التحرك بقواته الى أبعد من الاحساء (٢).

---

(١) الخطاب السرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ ومرفقات الخطابات السرية لحكومة بومبـــاى من ادمونز الى هانيل بتـــاريخ ١٨٣٩/٥/٤ ومن ملاحسين وكيل المقيم البريطانى فى الشارقة الى هانيــل بتاريخ ثالث ربيع الأول ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/١٧ .

(٢) الخطاب السرى رقم ٧٦ بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٢ ومرفقات الخطابات السرية لحكومة بومباى من هانيل الى ويولبى ٤/٢٩ ، ١٨٣٩/٥/٧ (رقم ٣٧، ٤١ الادارة السرية) ومرفق به نسخة من خطاب ــ هانيل الى خورشيد باشا بتاريخ ١٨٣٩/٤/٢٩ .

وقد اتضح لهانيل بصورة أوسع بأنه لابد من أن يعتمد على شخصيته الخاصة فى وقف تقدم الزحف المصرى أكثر من اعتماده على المساعدة التى قد تصل اليه من الهند . وعندما توجه ماثلاند عائدا الى بومباى ومنها الى ترانكومالى ترك السفينتين كروزر والجرين فى الخليج وطلب أن يلحق به بأسرع وقت ممكن ، وفى منتصف شهر مايو أصبح لديه قوة مؤلفة من أربع سفن بينهـا كلايف والفنستون ، وكان احتمال لقائه ببعض قطع الأسطول الملكى مرة أخرى احتمالا ضئيلا جدا ، وهذا ما أوضحه مثلاند لفاريش فى بداية شهر يوليو حيث قال : « ان الصلاحيات التى أتمتع بها صلاحيات واسعة ، وقد قال هذه العبارة ردا على طلب تلقاه من نائب الحاكم لارسال بعض قطع الأسطول أو سفينة حربية على الأقل الى منطقة الخليج فى أسرع وقت ممكن ، وقد أضاف ماثلاند فى رسالته يقول : لقد أصبحت الطلبات على السفن القليلة التابعة لقيادتى كثيرة وعاجلة ، بحيث لا أجد هناك مجالا لارسال بعض من هذه القطع الى الخليج الفارسى من وقت الى آخر (١) . لقد وضع هنا نهاية للتأييد الذى كان يلقاه هانيل من اوكلاند. وفى الاسبوع الثالث من شهر ابريل تلقى فاريش ردا من الحاكم العام للهند على الاستفسار العاجل الذى بعث به الى الحاكم حول السياسة البريطانية التى يتعين اتباعها مع خورشيد باشا فى حالة رفض الأخير للتحذيرات التى وجهت اليه ، وقال الحاكم العام فى رده ، بان

---

(١) من سجلات حكومة بومباى السرية مجلد ٩ (جزء ١) من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٨/٤ (رقم ٨٥ الادارة السرية) ومرفق به خطاب مثلاند لفاريش ترانكو مالى ١٨٣٩/٦/٣١ كانت هناك فى ذلك الوقت ١٤ سفينة تعمل فى مياه الهند الشرقية وتتألف من سفينة حربية وأربع فرقاطات وتسع سفن أخرى شراعية (انظر مطبوع سيلويد) ـ تقييم وتوزيع السفن الحربية البريطانية خلال القرن التاسع عشر مجلد مارنر ميرو عدد ابريل ١٨٤٩ ص ١١٤ .

خورشيد باشـــا لابد وأن يكون قد تلقى تبليغا من القـــاهرة حول احتجاج بالمرستون المرسل بتاريخ ٢٩ نوفمبر ، وتأسيسا على ذلك فقـد كان اوكلاند يتصور بأن خورشيد باشا اما أنه سوف يمضى فى فتوحاته باستخدام القوة بحيث تمتد تلك الفتوحات الى أقصى المنـاطق كى يواجه الحكومة البريطانية بالأمر الواقع أو أن يكون قد أوقف زحفه العسكرى بنـــاء على توجيهات من سيده والى مصر ، وقال اوكلاند بأنه فى كلتا الحالتين لا يرى هناك ما يمكن القيام به بالنسبة لجزيرة البحرين : « .. ان مسألة قيام هذه الحكومة بتدخل عسكرى لمنع ســـقوط البحرين فى يد القائد المصرى قد انتفت كلية نتيجة لاحتمالين الاحتمال الأول ، وهو أن يتمكن خورشيد باشا من احتلالها قبـل وصول الحملة اليها أو بوصول الحملة ونجاحها فى انقاذ الجزيرة من هجوم خورشيد عليها ، واذا كان مثلاند بالرغم من وجوده هناك قد فشل فى منـع خورشيد باشا من الهجوم على البحرين فانه يتعين عليه أن يستنبط أفضـل السبل لحماية البحرين ضد تهديد خورشيد باشا (١) .

قبل أن يتمكن اوكلاند من ارسال تعليماته الى مثلاند بهذا الخصـوص كان الأخير قد قطع المسافة عبر الخليج وفى ١٠ مايو كتب اوكلاند السـير ميثلاند رسالة ذكر فيها : « لقد وضعت للسير فريدرك ميثلاند مشروع خطة أعتقد انها ستلبى مطالب سياستنا الخارجية وانى أعتقد اننى بهذا العمـل قد مارست مسئوليتى ولسوف أشعر بأسف كبير لو نشبت خلافات جديدة ، غير أننى أخشى ان تصل هذه التعليمات الى ميثلاند قبل وصوله الى بومباى، وعلى أى حال فليس هناك ضرر من ارسالها وعلى الأخص أن لهجة خورشيد

---

(١) مرفقات للخطـابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ الخطـــاب السرى رقـــم ٥٥ المؤرخ ١٨٣٩/٥/٨ من مادوك الى ويلـوبى شـــيملا ١٨٣٩/٤/١٨ .

قد اصبحت أقل عداء ، وبعد أسبوعين علم أوكلاند بصورة مؤكدة بأن ميثلاند قد غادر الخليج بالفعل واعترف لهوب هاوس بأنه لم يكن يعرف ما الذى يتوجب عليه أن يفعله فى ذلك الوقت وكتب لهوب هاوس يقول : « كنت أفضل لو أنك زودتنى بالتعليمات اللازمة حول الاجراء الذى ينبغى أن أسلكه ازاء خورشيد باشا وموضوع البحرين لأنى كنت أخشى ان أتخذ اجراء فعالا أو أن لا أتخذ أى اجراءات على الاطلاق ، وبالتالى يسعدنى ان اتلقى منك تعليمات اخرى بعدم القيام باى اجراءات ، وقد استمر موقف التردد هذا حتى شهر يونيو ، وفى ١٦ من نفس الشهر كتب اوكلاند لفاريش رسالة يقول فيها « انه لمما يبعث السرور أنه ليس هناك احتمال بقيام خورشيد باشا بعدوان على البحرين وبأن التعليمات التى أصدرتها بشىء من التردد لحماية البحرين من أى اعتداء لم يعد لها لزوم ، كما كتب رسالة اخرى الى هوب هاوس يذكر فيها : « أننى حريص على أن أعرف منك عما يجرى من أحداث وتطورات على الجانبين الشرقى والغربى للخليج ، وعلى الرغم مما تحت أيدينا من امكانيات يتعين علينا أن نبقى مطمئنين بالنسبة للمشكلتين وان كان نفوذنا سوف يتأثر تبعا لذلك الى حد ما ، لقد أصدرت تعليمات مشددة الى طرادتنا العاملة فى الخليج بالدفاع عن جزيرة البحرين ضد أى هجوم يشنه خورشيد باشا على الجزيرة ، غير أن خورشيد باشا كما يبدو لا ينوى القيام بأى خطوة من هذا القبيل وسواء كان التصرف من جانبى سليما او خاطئا الا أنه لم يؤد الى أية نتائج عكسية وخيمة .

كان التردد الذى يعانى منه اوكلاند أو بالأحرى مواقفه السلبية من هذا الموضوع لا تعود الى عجز فى اتخاذ القرارات ، وانما لأن الامكانيات العسكرية والمالية للهند كانت قد نضبت بسبب العمليات العسكرية التى قامت بها هذه الحكومة فى أفغانستان . كما كان هذا الوضع يستدعى الاحتفاظ ببعض السفن والقوات فى عدن للدفاع عنها ضد هجوم القبائل الداخلية أو ضد أى هجوم قد يقوم به المصريون عليها من اليمن ، كما كانت الخلافات مع الصين

توجب مرابطة بعض السفن فى منطقة الشرق الأقصى ، ومن هنا فان القيام بعمليات عسكرية فى الخليج لم يكن أمرا واردا ، وقد ذكر اوكلاند لفاريش فى هذا الصدد : « قد تكون العمليات الحربية فى الخليج اجراء مرغوبا فيه ، غير أن هذا الاجراء لم يكن يتم بأقل من ١٠ الف جندى وست من السفن الحربية وملايين الروبيات ، وبالتالى ارى أن الظروف غير مواتية للقيام بهذه العملية (١) ورغم كل هذا لا يمكن اخلاء أوكلاند من المسئولية فى عدم اتخاذه أى اجراءات واسعة كانت أو محدودة لأنه بموقفه ذلك كان يعرض الوجود البريطانى فى الخليج للخطر ، وهو الوجود الذى حققته بريطانيا بعد ثلاثين عاما من الجهود والاجراءات .

وقد طرح ادمونز كبير سكرتيرى حكومة بومباى هذه المسألة فى شهر مارس على النحو التالى : « .. ان الوقت لن يكون بعيدا عندما يتوجب علينا أن نقرر ما اذا كنا سنقدم لشيوخ الساحل الحماية التى تستهدف بها لهم او نتخلى عن مسئوليتنا تجاه شئون الخليج ونقصرها على ابقاء طراد أو طرادين لحماية تجارتنا مع المنطقة ، ونترك الشيوخ والباشوات والفرس والمصريين يتقاتلون فيما بينهم (٢) ، كان هذا رأى فاريش فى الموضوع ، ولهذا أوعز الى اوكلاند فى بداية شهر ابريل باعادة النظر فى موضوع الحماية البريطانية بحيث تشمل البحرين ، وفى نفس الوقت أوعز الى الميجور هانيل بالعمل على اقامة علاقات أوثق بين الشيخ عبد الله بن أحمد حاكم البحرين والحكومة البريطانية (٣) وعملا بهذه التعليمات قام هانيل فأصدر أوامره الى

---

(١) من اوكلاند الى فاريش شيملا ١٨٣٩/٦/١٦ .

(٢) من ادمونز الى ويلوبى ١٨٣٩/٣/٥ .

(٣) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٢ مرفق للخطاب السرى رقم ٤١ المؤرخ ١٨٣٩/٤/١٣ ومحضر فاريش المؤرخ ١٨٣٩/٤/١ وخطاب من ويلوبى الى هانيل بنفس التاريخ (رقم ٦٧١ الادارة السرية) .

ميثلاند في يوم ١٨ ابريل بادخال البحرين ضمن مناطق الحماية غير ان ميثلاند لم يوافق على فكرة اعطاء الحماية صيغة رسمية وأستند في اعتراضه هذا على الأسباب التي سبق أن ذكرها لهانيل قبل شهرين سبقا .

وسواء ادرك اوكلاند الأخطار التي كانت تحيق بالوجود البريطـــاني في الخليج أو انه لم يدرك ، فانه لم يتمكن من العمل على هذا الأساس وعلى نقيض أوكلاند كان بالمرستون الذي كانت سلطاته واســعة . ففي يوم ٩ مايو علم بالمرستون من المذكرة التي بعث بها اليه هانيـــل عن تهديد خورشيد باشا باحتلال البحرين عن طريق القوة (١) كما تلقى بالمرستون في نفس اليوم تقريرا من كامبل لملخص حديث جرى بين القنصل البريطاني وبين محمد علي باشا يوم ٢ ابريل بعد عودة الوالي من زيارته للسودان . فقد حاول محمد علي التقليل من خطورة الحملة التي يقوم بها في شبه الجزيرة ، وذكر بأن الهدف الأساسي فيها هو حماية مكة والمدينة من سطوة الوهابيين والحصول على الجمال التي يحتاج اليها جيشه في الحجاز . كما ذكر الوالي لكامبل بأن قوات خورشيد باشا سوف تنسحب خلال بضعة أشــهر . وسوف يتم تسليم السلطة في الحجاز لخالد بن سعود ، وعندما استوضحه كامبل عن البحرين أجاب الوالي بأن البحرين كالكويت ولاية من ولايات نجد ، وأنها كانت تدفع الزكاة الى ابن سعود لسنوات عديدة . ولقد اتضح لكامبل من سير الحديث أن الوالي يعتبر نفسه الحاكم الشرعي لنجد وملحقاتها ، وتساءل كامبل في قرارة نفسه ما اذا لم تكن تصوراته للمشكلة سليمة على ضوء المرسوم الذي أصدره السلطان العثماني وفوض فيه والي مصر في اخضاع نجد كان لايزال ساري المفعول حتى تلك اللحظة (٢) .

---

(١) فارس والخليج مجلد ٦٤ خطـــاب من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٢/٢٨ .

(٢) من كامبل الى بالمرستون ٦ ابريل ١٨٣٩ (رقم ٢٠) وقد جاء ذكر كامبل في هذا الخطاب وصول الأمير فيصل الى القاهرة في ٢٦ مارس وتحديد اقامته في نفس المنزل الذي حددت فيه اقامة الأمير عبد الله في عام ١٨١٨ .

ولعل الاحتمال الأخير حال بين بالمرستون واتخاذ موقف أكثر تشددا ضد محمد على باشا • وفى يوم ١١ مايو بعث بالمرستون برسالة الى بنسوبنى بالقسطنطينية يكلفه ببحث الموضوع مع الباب العالى والتأكد مما اذا كانت فتوحات محمد على باشا الأخيرة فى نجد قد تمت بتأييد من السلطان ، كما كلفه بأن يوضح للحكومة العثمانية بأن أمن الولايات العثمانية فى العراق قد يتعرض للخطر فيما لو نجح محمد على باشا فى مد نفوذه الى مناطق الخليج (١) • وقد طلب بالمرستون من كامبل أن ينتظر نتائج الاتصالات التى كلف بنسوبنى باجرائها مع الحكومة العثمانية ، فاذا تبين أن الباب العالى يعارض هو الآخر امتداد النفوذ المصرى الى المناطق الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية فيتعين عليه تحذير الوالي بأن الحكومة البريطانية لن تسمح لمحمد على بمد سيطرته البحرية والعسكرية على شواطىء الخليج ، وانه اذا ما أصر الوالى على هذا التوسع فان القوات البريطانية سوف تقوم بمنعه من توطيد سيطرته على أى قاعدة من القواعد البريطانية على ساحل الخليج (٢) •

بعد اكثر من ثلاثة أسابيع على وجه التقريب وفى يوم ٦ نوفمبر تلقى بالمرستون تقريرا من تايلور المقيم البريطانى فى بغداد تطرق فيه الى تدهور حالة الولايات العثمانية فى العراق وقال بأنها قد أصبحت فى حالة خطيرة من الناحيتين الادارية والعسكرية ، كما علم بالمرستون من التقرير الذى بعث به هانيل عن وصول ماتيلاند الى الخليج على ظهر الطراد ويلسلى (٢) • وعلى

---

(١) من بالمرستون الى بنسوبنى رقم ٦٤ فى ١٨٣٩/٥/١١ •

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٤ من تايلور الى اللجنة السرية ٨ ابريل ١٨٣٩ (رقم ٢١ الادارة السياسية) وخطاب من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٥/٢١ •

الرغم من علم بالمرستون باحتمال مغادرة ماثيلاند منطقة الخليج الا أنه مع ذلك صدر أمره عن طريق الأمير اليه بوجوب الدفاع عن جزيرة البحرين بما كان لدى ماثيلاند من السفن وذلك اذا ما تعرضت البحرين لهجوم من المصريين ، كما كتب رسالة خطية الى كامبل كلفه فيها بتحذير محمد على باشا من انه فى حالة قيام خورشيد باشا بالزحف على البصرة فان ماثيلاند قد يضطر الى استخدام القوة لمنع خورشيد من ذلك (١) . كما أرسلت تعليمات أخرى تتسم بالحذر من هوب هاوس الى المقيم البريطانى فى بغداد تتضمن أنه فى حالة قيام خورشيد باشا بهجوم على بغداد وطلب باشا بغداد المساعدة من بريطانيا فيتعين على تايلور ألا يقدم أى تعهد باعطاء أى مساعدة بريطانية نظرا لعدم وجود امكانيات جاهزة يمكن وضعها موضع التنفيذ . وفى حالة احتلال خورشيد باشا للبصرة فانه يتعين على تايلور ايفاد ضابط من الضباط البريطانيين مزودا بمذكرة احتجاج الى خورشيد باشا وابلاغه باحتمال اتخاذ اجراءات عسكرية لارغامه على الانسحاب من البصرة (٢) .

---

(١) من شيز أدم وبليام باركر الى ماثيلاند ١٨٣٩/٦/١٤ وخطاب رقم ٧٨/٣٧٢ من الخارجية البريطانية وموجه من بالمرستون الى كامبل بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٥ (رقم ١٧) وقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها بالمرستون بتصريح عنيف ضد محمد على باشا وقد ورد هنا التصريح فى الرسالة التى بعث بها الى اللورد جرانفيل بتاريخ ١٠ يونيه وجاء فيه : أما بالنسبة لى فانى اكره محمد على باشا ... الخ (راجع كتاب كريميا) ص ٨٩ .

(٢) مسودات مجلس ادارة شركة الهند الشرقية مجلد ١٠ مسودة الى تايلور بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٣ (رقم ٦٧ سرى للغاية) كما كتب هوب هاوس رسالة خاصة الى اوكلاند يقول فيها : « لو أن الظروف سمحت لك بتوفير خمسة آلاف أو ستة آلاف بندقية نصفها من بريطانيا — لربما فكرنا فى رسالها الى بغداد أو على الأقل الى جهة ما من تلك المنطقة ولكنك كما اعرف سوف تحتاج الى قواتك بكاملها للعمل فى مياه الهند (وزارة الهند) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٣٩ من هوب هاوس الى اوكلاند ١٨٣٩/٦/١٥ .

وعلى الرغم من السرعة التى تصرف بها بالمرستون فى اتخاذ قراراته الا أن مفعولها قد تعثر بسبب الظروف التى طرأت فى منطقة الخليج خلال شهر يونيه ١٨٣٩ خصوصا فيما يتعلق بالبحرين ، وفى ٢ يونيه سلم كامبل الى محمد على باشا صورة من التعليمات التى أصدرها اوكلاند فى ١٨ ابريل الى مثلاند ، وعهد اليه فيها بالدفاع عن البحرين ضد أى هجوم يقوم به خورشيد باشا • وكان كامبل قد تسلم تلك التعليمات من بومباى فى ذلك اليوم • وقد اعترض الوالى على هذه الاجراءات بحجة أن هدفه الوحيد من التهديد باحتلال البحرين هو حماية نفسه من المؤامرات التى كان يحيكها اللاجئون الوهابيون فى البحرين ضد المصريين ، وقد أصر خورشيد من جانبه على استلام أوامر صريحة من محمد على باشا بعدم مهاجمة البحرين تحت أى شكل من الأشكال• وفى ١٢ يونيه سلم باغوص بك الى كامبل صورة من الأوامر التى ارسلت الى خورشيد باشا فى نفس اليوم يطلب اليه فيها عدم التدخل فى شئون البحرين حتى يتسنى للحكومة البريطانية بحث هذا الموضوع مع الجهات المختصة ، ومن ثم تقوم بالرد على التفسيرات التى أدلى بها الوالى لكامبل فى شهر ابريل (١) • وقد كان من السهل أن يذكر الوالى مثل هذا القول فهو مهما حاول اخفاء موقفه بالتصنع امام كامبل الذى حاول استغلال تردد الوالى فى موضوع البحرين وادعائه بتلبية رغبة الحكومة البريطانية فى هذه المسألة الا ان شيئا من هذا لم يحدث فقد كانت البحرين واقعة بالفعل تحت سيطرته •

---

(١) خطاب من وزارة الخارجية البريطانية موجه من كامبل الى بالمرستون بتاريخ ١٨٣٩/٦/١٥ رقم ٤٢ — ومرفق به صورة من خطاب محمد على باشا الى خورشيد باشا بتاريخ ٢٩/ربيع الاول ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٦/١٢ •

في ٢٧ مايو وصل الى خرك مبعوث سرى من خورشيد باشا للاجتماع بهانيل وكان يدعى محمد افندى ، وكان يحمل معه رد خورشيد باشا على تحذيرات هانيل المؤرخة ٢٨ فبراير والتى ذكر فيها بأن الحكومة البريطانية سوف تنظر نظرة خطيرة الى أى غزو مصرى للبحرين ، وكما قال الباشا فى رسالته بأنه ليس هناك سبب يدعو هانيل الى الاهتمام بالبحرين منذ الآن لأن خورشيد كان قد استولى عليها بالفعل بتكليف من والى مصر لكى يمنع من أن تتحول هذه الجزيرة الى وكر للمتمردين النجديين ، فالبحرين كانت ولاتزال من توابع نجد وليس لأية دولة حتى فارس سلطة عليها . كما حاول خورشيد أن يتهكم فى رسالته فقال بأنه سوف يكون سعيدا باعادة البحرين الى فارس اذا استطاعت هذه أولا أن تسترد كافة أجزاء الامبراطورية الفارسية القديمة والى أن يتم ذلك فسوف تبقى البحرين خاضعة للسيطرة المصرية(١).

وللتأكيد على هذه النقطة فقد أرفق خورشيد مع رسالته صورة من الاتفاق الذى وقعه مع عبد الله بن أحمد حاكم البحرين والذى يعترف فيه الشيخ بالسيادة المصرية على البحرين ودفع زكاة سنوية قدرها ٣٠٠٠ ريال نمسوى (يخصم منها مبلغ ٥٧٠ ريالا نظير الخدمات) كما تعهد الشيخ بتقديم كل مساعدة الى الوالى اذا ما احتاج الى مساعدته ، وفى مقابل ذلك اعترفت الحكومة المصرية بهذا الاتفاق بتاريخ ٢٢ صفر ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/٧ غير أن هانيل قد اكتشف بعد اتصال قام به مع شيخ البحرين بأن التاريخ المذكور ليس تاريخ التوقيع وانما تاريخ التصديق على الاتفاق ، لأن توقيع

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ خطاب سرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٥/٣٠ (رقم ٥٧ الادارة السرية) ومرفق به خطاب خورشيد باشا الى هانيل بتاريخ ١٨ محرم ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٤/٣ مع صورة من الاتفاق .

الاتفاق قد تم قبل زيارة مثلاند للبحرين والتى تمت فى ٢٢ ابريل بنحو ثلاثة أسابيع (١) .

وبالتالى فعندما كان محمد على يفاوض كامبل بشأن البحرين فى أوائل شهر يونيه كان الوالى يعلم بأن البحرين قد كانت خاضعة له بصورة رسمية ، كما كان يعلم بأن مطالبته بالسيادة على الجزيرة باعتبارها منطقة من المناطق الخاضعة لنجد لم تعد موضع نقاش ، ومنذ بداية ذلك القرن خضعت البحرين من الناحية الاسمية والفعلية لعدد من الغزاة ، وأن الزكاة التى كانت تدفعها البحرين للوهابيين انما كانت تدفعها عن طريق القوة ، ثم انها لم تعد تدفعها فى السنوات التى أعقبت عام ١٨٠٣ عندما كانت تؤخذ منها الزكاة عنوة واقتدارا ، ثم عادت البحرين فقطعت دفع هذه الزكاة فيما بين عام ١٨١٥، ١٨٣١ ، وعندما تولى الأمير تركى بن عبد الله الحكم قام بارغام البحرين على استئناف دفع الزكاة السنوية الا أنها توقفت عن دفعها قبل وفاة الأمير تركى فى عام ١٨٣٤ ، كما أن محاولات ذلك الأمير لارغام البحرين على استمرار دفع الزكاة لم تنجح ، الا أنه فى عام ١٨٣٦ وافق الشيخ عبد الله على دفع الزكاة

---

(١) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ١٤ مرفق بالخطاب السرى رقم ٨٩ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٧/١٠ عند اطلاع اوكلاند على الاتفاق لم يصدق بان هذا الاتفاق قد وقع فى شهر مارس وان كان مما لاشك فيه انه قد وقع فى ذلك التاريخ بالفعل كما أن خطاب خورشيد باشا — لهانيل والذى يبلغه فيه باستسلام البحرين له كان بتاريخ ١٨ محرم ١٢٥٥ الموافق ٣ ابريل ١٨٣٩ وكان عبد الله بن احمد حاكم البحرين قد ذكر لادمونز عندما التقى به فى الاسبوع الأخير من مارس بانه قد عرض على خورشيد باشا ان يدفع مبلغا قدره ٣ الاف ريال نمسوى كزكاة وانه كان مبلغا زهيدا .

وقدرها ٢٠٠٠ ريال نمسوى سنويا مقابل وعد من الأمير السعودى بمساعدة الشيخ ضد سلطان مسقط وامير فارس اللذين كانا يتآمران عليه كما كان يتصور الشيخ عبد الله . ومن المشكوك فيه أن يكون الشيخ عبد الله قد دفع شيئا من الزكاة قبل اندحار قوات فيصل والتى أدت الى الغاء الاتفاق (١) . وفيما يتعلق بدعوى محمد على باشا بنجد فان بنسوبنى لم تسنح له الفرصة

لد مما اذا كانت تلك الدعوة تقوم على أساس المرسوم الأصلى القديم الذى انقضى عليه ما يقرب من ثلاثين عاما أو أن هذه الدعوة كانت تقوم على أسس أخرى ، لأنه فى نهاية شهر يونيه وقعت العاصمة العثمانية فى فوضى نتيجة لوفاة السلطان محمود الثانى وهزيمة الجيش التركى على يد ابراهيم باشا .

وفى ربيع ١٨٣٩ قرر محمود الثانى على عكس نصيحة بونسوبنى القيام بهجوم عسكرى على محمد على باشا فارسل فى أواخر شهر ابريل جيشا الى سوريا غير أن المعارك لم تبدأ ضد الأتراك قبل منتصف شهر يونيه الذى منى الجيش التركى فى الرابع والعشرين منه بهزيمة ساحقة ، وذلك فى موقعة نصيب بالقرب من بريجيك الى الجانب الأعلى من نهر الفرت ، وفى ٢٢ يونيه توفى محمود الثانى وخلفه على الحكم عبد المجيد الذى لم تتجاوز سنه السادسة عشر ثم بعد ذلك بأسبوع ترك كبتان باشا القائد العام للأسطول العثمانى معسكر الأتراك وانضم الى محمد على باشا وابحر بالجانب الأكبر من الأسطول الى الاسكندرية ، وبذلك أصبحت الطرق ممهدة أمام محمد على لدخول القسطنطينية غير أن الوالى تلكأ فى الاستيلاء عليها وكلف قائده ابراهيم باشا بمرابطة قواته على مشارف جبل طوروس بينما اتجه هو الى احداث بعض التغيرات فى النظام القائم فى القسطنطينية عن طريق دفع الرشاوى السخية والوعود الكثيرة بالاصلاح .

---

(١) فارس والخليج مجلد ٦٥ من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٣٩/٧/٢٥ .

كانت هذه الفترة هى أنسب فترة لقيام ابراهيم باشا بهجومه على البصرة وبغداد لو ان محمد على باشا كان يفكر بالفعل فى الاستيلاء عليهما ، وفى بداية شهر يونيه اتصل القنصل الفرنسى العـــام المسيو كوشليت للاستفسار عن الاشاعات التى كانت تملأ العاصمة المصرية عن قيام خورشيد بالزحف على البصرة ولكن الوالى اجابه بأن هـــذه اشاعات وقال بأن خورشيد باشا مازال حتى تلك اللحظة فى الرياض وقد عـــاد كوشليت فأثار هـــذه المسألة فى ٢٤ يونيه بعد علمه بالتعليمات التى بعث بها بالمرستون الى بونسنبى بتـــاريخ ١١/مايو والتى حذر فيها بأن بريطانيا لن تقف مكتوفة اليدين ازاء توســـع نفوذ محمد على باشا فى الخليج • وفى التقرير الذى كتبه كوشليت عن محادثاته مع والى مصر ذكر ما يلى :

وقد كرر الوالى (١) تأكيده هذا لكامبل بعد أسبوعين من هـــذا التاريخ وذلك عندما قابله كامبل للاستفسار حول هذا الموضوع على أثر وصـــول تعليمات بالمرستون المؤرخة فى ١٨٣٩/٦/١٥ غير أن محمد على باشـــا لم يحاول التنصل من خططه فحسب وانما بعث برســـالة خطية الى بالمرســـتون تتضمن انكاره لأى شىء من هذا القبيل على الرغم من الحاح كامبل عليه بأن ذلك لم يكن ضروريا (٢) : ومن المؤكد أن خورشـــــيد باشـــــا لم يكن ينـــوى

---

(١) من كوشـــليت الى دلمانى ١٨٣٩/٦/٢٥ عن تســـلم ســـولت تقرير بوشليت الأول كلفه بان يوجه نظر محمد على باشا من محاولة تعقيد مشـــكلة هى بالفعل معقدة عن طريق القيام بمبادرات عدوانية ضـــد بغداد أو الخليج حتى لا يستفز البريطانيين لاحتلال البصرة أو أى منطقة اخرى (كتاب دريوت جزء ١ ص ١٢٧ ــ ١٢٨) من درماتى الى كوشليت ١٨٣٩/٧/٧ •

(١) من كامبل الى بالمرستون ١٨٣٩/٧/١١ رقم (٥١) ومرفق به خطاب باغوص بك الى كامبل بتاريخ ١٨٣٩/٧/٩ •

الانسحاب من نجد ، وكان الشيخ جابر حاكم الكويت قد أبلغ هانيل فى الأسبوع الثانى من شهر مايو بأن خورشيد ما يزال فى الرياض وأن رسله الذين حضروا الى الكويت للحصول على بعض المؤن لم يشيروا الى أن خورشيد باشا ينوى القيام بهجوم على البصرة فى المستقبل القريب . وقد أيد هذا الرأى كلايف قائد الطراد الذى كان هانيل قد أوفده فى بداية شهر مايو الى الكويت للتأكد من الاشاعات عن وجود نشاط للمصريين هناك ، كما أن ماكنزى طبيب المثلية الذى أوفده هانيل فى نفس المهمة الى كل من البصرة والمحمرة قد ذكرا بأنه على الرغم من كثرة تردد الاشاعات فى البلدين عن هجوم مصرى وشيك فانه لم ير أى دليل يؤكد ذلك (١) وكان من الواضح أنه فيما يتعلق بالقضايا التى تهم محمد على باشا فان التطورات فى كل من سوريا والقسطنطينية قد طغت على موضوع بغداد وان أى تفكير فى غزوها كان لابد وأن يؤجل النظر فيه ، وعلى أى حال فان الأزمة التى كان يعانى منها خورشيد فى ذلك الوقت لم تكن تسمح له بالبقاء فى نجد دون القيام بأى اجراءات ، فاذا لم يجد منفذا لتوجيه طاقاته الى منطقة الخليج العليا فلابد أن يوجهها الى منطقة الخليج السفلى .

وفى أواخر شهر يونيه تقريبا علم هانيل من وكيل المثلية فى الشارقة بان سعد بن مطلق واتباعه لا يزالون فى الشارقة وأن الشيخ سلطان بن صقر قد رحب بمقدم مبعوث خورشيد بدلا من أن يعترض على وجوده هناك ، كما أبلغ سعد بن مطلق شيخ القواسم بأنه لم يحضر الى المنطقة كمعتمد لخالد

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ مرفق للخطاب السرى رقم (٨٧) المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ من هانيل الى ديلوبى ١٨٣٩/٥/١٨ (رقم ٥٣ الادارة السرية) مرفق بخطاب جابر بن عبد الله الى هانيل بتاريخ ٢٥/صفر/١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٥/١٠ كممثل للحاكم المصرى فى المنطقة ولاثبات هذه الصفة ابرز سعد بن مطلق خطابا معتمدا من خورشيد باشا .

بن سعود فحسب وانما كممثل للحاكم المصرى كما قال بأنه لا ينوى مغـادرة الشـارقة الا بأمر خطى من المقيم البريطانى نفسـه وانه اذا خرج على ذلك الأساس فسوف يقدم احتجاجا على أمر المقيم (١) وقد أدرك هانيل بأنه اذا سمح لنائب الأمير بالبقاء فى منطقة السـاحل فلن يمضى وقت طويل حتى يكون جميع شيوخ السـاحل قد خضعوا لمحمد على بنفس الطريقة التى أخضعت له البحرين . فى ذلك الوقت كانت السـفينة البريطانية هيولنس فى طريقها الى البصرة بالبريد الصحراوى ، وقد اصدر هانيل أمرا بنقل البريد الذى كانت تحمله السـفينة الأخرى ثم قام هو بعـد أن تلقى تقريرا من وكيل المثلية فى الشارقة بالابحار بعد أربع وعشرين ساعة الى منطقة الخليج السفلى .

وصـل هانيل الى أبو ظبى يوم أول يوليو وقد حضر لزيارته على ظهر السفينة خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبى ، وقد بادره هانيل بالاستفسار عن رسالته التى قيل انه قد بعث بها الى سـعد بن مطلق ، غير أن الشيخ انكر ذلك بصورة قاطعة وأكد لهانيل بأنه لم يقم بأى خطوة تؤدى الى تشجيع وكيل المصريين فى مهمته كمـا عرض على هانيل بأن يكتب تعهدا بمقـاومة اطماع خورشيد باشا فى المنطقة ، وأنه تبعا لذلك يتوقع المشورة والتأييد من الحكومة البريطانية وقد قبل هانيل التعهد من الشيخ خليفة بن شـخبوط على الرغم من أنه لم يعلق عليه أهمية كبيرة وأقلع بسفينته فى نفس اليوم الى دبى ، وفى دبى علم من حاكمها الشيخ مكتوم بن بطى بأن هناك شـبه اجماع من المنطقة بوجود اتصال وثيق بين سعد بن مطلق وحاكم أبو ظبى .

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٤ خطـاب رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ انظر أيضـا نفس المجلد خطـاب رقم ٨٩ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٨ من ملا حسين الى هانيل بتاريخ ٧/ربيع الأول/١٢٥٥ الموافق ٢١ مايو ١٨٣٩ .

وكان موقف عبد الله بن راشد حاكم أم القوين نفس الموقف . وعند وصول هانيل الى الشارقة وتوقفه هناك وهو فى طريقه من دبى الى أم القوين علم بأن أحد الرسل قد وصل الى هناك موفدا من خورشيد باشا ، وأن هذا الرسول قد أفاد بوصول بعض الامدادات الى سعد بن مطلق ، كما قيل لهانيل ان الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة من المؤيدين لنائب الأمير ، وعندما اجتمع هانيل فى يوم ٣ يوليو بالشيخ سلطان فى رأس الخيمة أقسم له أغلظ الايمان بأن تأييده لسعد بن مطلق كان رغم انفه وانه لو طلب الى سعد بن مطلق بمغادرة الشارقة كما جاء فى نصيحة ادمونز له فان مطلق سيتوجه الى أبو ظبى وقال : شيخ الشارقة بن خليفة شخبوط على وفاق تام مع سعد بن مطلق وأبرز الشيخ كتأييد لقوله هذا خطابا كان قد بعث به خليفة بن شخبوط الى وكيل المصريين ، وأنه هو الذى تمكن من الاستيلاء على الخطاب ، وقد عرض حاكم أبو ظبى على سعد بن مطلق وضع امكانيات أبوظبى كلها تحت تصرفه ، وقد أثار هذا الخطاب دهشة هانيل ، لأنه كان يعرف بأن بنى ياس من الأعداء التقليديين للوهابيين ، ولكن ربما يكون السبب حسب اعتقاد هانيل يعود الى أطماع أبوظبى فى الاستيلاء على قلعة البريمى التى كانت فى يد النعيم ، وكان يتوقع أن يحصل على مساعدة سعد بن مطلق فى تحقيق هذا الطلب (١) .

كذلك ذكر سلطان بن صقر سرا لهانيل بأنه لو زوده بأمر خطى لطرد سعد بن مطلق من الشارقة ولما كان يتردد فى تنفيذ ذلك ، غير أن هانيل لم يكتف بتسيلم هذا الأمر لليه فحسب وانما بعث برسالته الى الوكيل المصرى مباشرة يستنكر فيها شرعية ولايته على المنطقة ويدعوه الى مغادرتها على الفور كما يحذره من التدخل فى شؤون النعيم سكان البريمى الذين يعتبرون تحت الحماية البريطانية ، طالما بقى النزاع قائما بين بريطانيا ومصر . وقد تكرر هذا

---

(١) المرفقات السرية لخطابات حكومة بومباى الخطاب رقم ٨٩ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٧/١٠ .

الطلب فى الرسالة التى بعث بها الى خورشيد باشا فى اليوم التالى وسجل فيها استنكاره لتعيين خورشيد باشا سعد بن مطلق حاكما على المنطقة ، وعلى الأخص بعد أن قام محمد على باشا باعطاء ضمانات مؤكدة بأنه لا ينوى توسيع سلطته فى منطقة الخليج ، كما طلب من خورشيد باشا سرعة سحب الوكيل من المنطقة . وقد حصل هانيل من سلطان بن صقر على تعهد خطى مماثل ومن خليفة بن شخبوط ومن غيره من حكام الساحل يعربون فيها عن رغبتهم فى التعاون مع حكومة بريطانيا فى مقاومة أى تدخل من جانب خورشيد باشا فى أراضيهم • وقد وافق هانيل على التعهد بالحماية لزعماء المنطقة وتعهد بتزويد سلطان بن صقر بالأسلحة اذا اضطر الى الدخول فى حرب مع المصريين نظير تعهد الشيوخ بعدم اجراء مفاوضات أو عقد اتفاقات مع الحكومات الأجنبية الا بموافقة الحكومة البريطانية ، واعتبار أعداء أو أصدقاء بريطانيا أعداء أو اصدقاء لهم ، وفى ختام جولته عقد هانيل اجتماعا مع رسول قبيلة النعيم الذى وصل خصيصا للاجتماع به وأمر له بمؤونةمن الارز والبارود كما أبلغه بأن الحكومة البريطانية بصدد تعيين وكيل لها فى البريمى •

ورغم ما قام به هانيل فى هذه الجولة الا أنه لم يكن متفائلا بالنتائج وذلك ان انتصار ابراهيم باشا على العثمانيين ، ورغم أن أخبار هذه المعركة لم تكن قد وصلت بعد الى هانيل ، ووصول تعزيزات من الأسلحة والمعدات الى سعد بن مطلق وعودة هذا الى المنطقة بدفعة جديدة من القوات . كل هذه الاحتمالات كان لابد وأن تكون لها عواقب وخيمة على نفوذ المقيم البريطانى فى المنطقة ، وبهذا المعنى بعث هانيل بتقرير عاجل الى حكومة بومباى وأبدى فيه شكه فى جدوى الاحتجاجات التى كان يقدمها السفير البريطانى فى مصر الى حكومة محمد على باشا كى تحد من التوسع العسكرى لخورشيد باشا فى الجزيرة العربية ، وأكد هانيل بأنه ليس هنـــاك اى شىء يمكن أن يوقف محمد على باشا عند حده غير التهديد بالقوة المسلحة كما طالب هانيل بتعزيز الأسطول العامل فى الخليج : ونبه أنه اذا حاول خورشيد باشا اعادة سعد بن مطلق

الى منطقة الساحل بمزيد من العتاد والرجال فينبغى فرض حصار بحرى على سواحل القطيف والعقير وسيحات ، كما أنه فى حالة قيام خورشيد بهجوم على البريمى التى تعتبر مفتاح الطريق الى عمان الشمالية ، وفى حالة اشتراك بعض شيوخ المنطقة فى هذا الهجوم يتعين توجيه انذار اليهم بالكف عن هذا العمل والا سيقوم الاسطول البريطانى بتدمير تحصيناتهم ، ولا ينبغى على أى حال أن يضيع الساحل منا كما ضاعت البحرين من قبل بسبب سياسة العجز والتردد التى نسير عليها . وكان حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد قد ذكر لهانيل فى أواخر شهر يونيه عند زيارة المقيم للبحرين وهو فى طريقه الى أبو ظبى بأنه فى الحقيقة كان ينوى التصدى لخورشيد باشا لو انه لم يكن قد فقد الأمل فى الحصول على التأييد من بريطانيا وأن الحكومة البريطانية لم توفر له اطلاقا الحماية التى يحتاج اليها كى يستطيع مجابهة خورشيد باشا . ولكن هانيل لم يكن يثق فى أقوال الشيخ وكان يرى أن السياسة الاستسلامية التى يسير عليها الشيخ تعود الى الشيخوخة والى رغبته فى حياة هادئة بالرغم من أن هانيل كان يعتقد بأن أحاديث الشيخ عبد الله لم تكن كلها عارية من الصحة، وذكرهانيل أيضا أن خورشيد باشا قد أصبح يتمتع بمركز مرموق بين سكان المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة واننا اذا لم نقم باجراء سريع لدرء هذا النفوذ فان خورشيد باشا سوف يجد المجال مفتوحا أمامه للتوسع كيف يشاء . ومن ناحية أخرى أشار هانيل بأنه لو وجه تحذير الى محمد على باشا باعتباره مسئولا عن أى اصابات أو تلف ينجم عن فتوحاته العسكرية فان مثل هذا التحذير سوف يدفعه على الانسحاب من سواحل الخليج .

ومن منطقة الساحل توجه هانيل الى مسقط لاستطلاع الرأى العام هناك عن وجود القوات المصرية فى شبه الجزيرة العربية . وكان مبعوث من سعد بن مطلق قد زار مسقط أيضا خلال الأسبوع الأول من يونيه مزودا بخطابات من نائب الأمير ومن خورشيد باشا للسيد سعيد ، بأنه أرسل سعد

بن مطلق الى البريمى للاشراف على شئون الحكم فى منطقة الساحل، وأنه لذلك يطلب من السيد سعيد تقديم المساعدة الممكنة اليه ، أما خطاب سعد بن مطلق الى السيد سعيد فقد كان شديد اللهجة ، وقد ذكر فيه بأن السيد سعيد لم يقدم اليه أى مساعدة فى مهمته ، كما طالبه بدفع الزكاة السنوية التى كان السيد سعيد يدفعها فى الماضى لحكومة الرياض(١) . وعند وصول هانيل الى مسقط وجد ان السيد سعيد متغيب عن البلاد وقد استقبله نجله ثوينى وابن أخيه محمد بن سالم اللذان كانا ينوبان عنه فى الحكم ، ولكن النائبين أكدا للمقيم البريطانى بأنهما لا ينويان تقديم أى مساعدة الى خورشيد باشا وانهما على العكس من ذلك يقفان الى جانب الحكومة البريطانية فى مواجهة الاعتداءات التى كان يقوم بها نائب الأمير ، غير أن معارضتهما لسعد بن مطلق لم تتحول الى عمل ايجابى ، وعندما اقترح هانيل عليهما تنفيذ وعودهما بمقاومة خورشيد باشا وذلك عن طريق تقديم العون الى مقيم البريمى رفض اقتراحه بطريقة مهذبة ويرجع السبب فى ذلك حسب اعتقاد هانيل الى الغيرة التى كانا يحسان بها من حمود بن عزام والى صحار واحد اقربائهما ، وكان هذا قد قدم بعض المساعدات للمقيم فى الربيع الماضى .

لقيت مقترحات هانيل تأييدا قويا من جانب السير جيمس كرناك حاكم بومباى بعد أن اطلع عليها من التقرير الذى بعث به اليه وقال : « انه يبدو ان انصاف الحلول قد تؤدى الى الفشل الذريع فاما أن نقف بكل ثقلنا الى جانب الحكام العرب فى تصديهم لاعتداءات خورشيد باشا أو ان نستسلم

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لبومباى مجلد ١٤ مرفق للخطاب السرى رقم ١٤ مرفق للخطاب السرى رقم ٨٧ المؤرخ ١٨٣٩/٧/١٦ من روبين اسلام (وكيل شركة الهند الشرقية فى مسقط) الى هانيل ٢٩ ربيع الأول ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٦/١٠ .

للسيطرة المصرية على الساحل العربى للخليج ، غير أن اوكلاند عارض هـذا الراى وأشـار الى كرناك فى بداية شهر اغسطس بأن اتخـاذ اجـراءات للمحافظة على نفوذ بريطانيا على الساحل الغربى انمـا تتوقف على الخط السياسى الذى تسير عليه حكومة بريطانيا ازاء محمد على باشا وعلى نتائج مباحثات كامبل فى القاهرة واضاف اوكلاند :

بأن من الواضح أنه ليس فى وسع حكومة الهنـد أن تقدم على أى اجراءات من قبيل استعراض القوة البحرية فى الخليج لمسـاعدة الحكام العرب الذين يرغبون فى التصدى لخورشيد باشا بالطريقة المتاحة لهذه الحكومة ، وقد تؤدى الى نتائج حاسمة كانسحاب جيش خورشيد باشـا من المنطقة انسحابا تاما ، والتخلى عن النفوذ الذى حققه مؤخرا لتشجيع محمد على باشا كما اننا لا نسستطيع أن نعتمد على السلوك المتقلب والمواقف الخادعة لكثير من هؤلاء الحكام والى تأييدهم للجهود التى نبذلها نحوهم . ان خورشيد باشا كما يبدو قد أصبح يمارس نفوذا كبيرا عليهم ، وفى الوقت الذى يستمر هؤلاء الحكام فى تخاذلهم فان محاولتنا لتشجيعهم على الحفاظ على استقلالهم سوف يتطلب منا حجما من القوة لتحقيقه ، الأمر الـذى لا يتفق مع الاعتبارات السياسية الراهنة التى تلتزم بهـا حكومة الهند فى الوقت الحاضر من هذه القضية .

كان احتلال خورشيد للبحرين يسبب خداعا شديدا لاوكلاند ومن ثم فقد رفض التفسيرات التى قدمها الشيخ عبد الله بن احمد لهذا الاحتـلال ويعتقد اوكلاند بأن الشيخ عبد الله بن احمد كغيره من شيوخ المنطقة ملزم تجاه الحكومة البريطانية بمقتضى معاهدة الصلح العامة المعقودة فى عام ١٨٢٠ وأن تعاونه مع خورشيد باشا يصبح تبعا لذلك خرقا لذلك الالتزام ، كما ينطبق هذا الراى على بقية حكام المنطقة كسلطان بن صـقر وخليفة بن شخبوط ، ويرى اوكلاند بأن الاجراء الوحيد الذى سوف يلزم هؤلاء الشيوخ بالتقيد بنصوص المعاهدة وعدم التمادى فى خضوعهم للمصريين هو الحصول منهم

على تعهد خطى بالاستمرار فى ذلك الالتزام مقابل تقديم بعض المساعدات العسكرية اليهم والتى تمكنهم من الوقوف فى وجه المصريين والحفاظ على استقلالهم ، غير أن اوكلاند عارض رأى هانيل بتقديم الحماية للمقيم وقال ان هذا يتعارض مع الخطوط الأساسية التى تقوم عليها العلاقات البريطانية مع تلك القبائل العربية ، وهو عدم التدخل فى شؤونهم الاقليمية ولكنه على أى حال وافق من حيث المبدأ على تقديم الحماية البريطانية للمقيم ، وأحال مقترحات هانيل باستعراض القوة الى القائد العام للأسطول البريطانى بالهند الشرقية للنظر فيها ، وان كانت الشكوك قد ساورته فى احتمال الموافقة على هذا الاجراء فى القريب العاجل . أما توفير السفن لهذه الحملة فقد كانت من اختصاص حكومة بومباى ، وأبدى أوكلاند موافقته على اقتراح هانيل بارسال أحد الطرادات البريطانية الى الخليج اذا استطاعت حكومة بومباى توفير هذا الطراد بالقيام بدوريات بحرية لمنع تسلل الجماعات المسلحة الموالية لخورشيد باشا الى ساحل الصلح .

ويبدو أن اوكلاند فى هذا الخطاب كان يحاول التملص من الموضوع لأنه كان يعلم علما اكيدا « .. كما أن خورشيد باشا فى انتظار أن تأتيه التعليمات من القاهرة كذلك فانى أنتظر التعليمات من لندن » .. وقد كتب هذا القول الى ماثيلاند فى شهر يوليو وأضاف أوكلاند « بأن الموضوع برمته يرتبط بالسياسة المصرية والتركية والأوربية مثلما هو مرتبط بالسياسة الشرقية ، وأن المعلومات القليلة التى فى حوزتى لا تكفى للارسترشاد بها فى هذا الموضوع (١) غير أنه لا يمكننا القاء اللوم على أوكلاند وذلك بسبب نقص الامكانيات التى كانت تحت تصرفه ، غير أن المبررات التى أبداها فى عدم اتخاذه أى اجراءات لاتبدو سليمة ، ولما كان يعتقد بأن الحل الوحيد هو انسحاب المصريين انسحابا تاما من الخليج فقد كان يتعين عليه أن يتخذ

---

(١) خطاب من اوكلاند الى ماثيلاند ١٨٣٩/٧/٢٩ .

الخطوات اللازمة لمواجهة هذا الوضع فضلا عن انه كان يعلم تمام العلم أن حكام المنطقة كانوا مترددين وغير جادين فى مواجهة التوسع المصرى ، هذا بالاضافة الى أن خورشيد باشا كان له نفوذ واسع على أولئك الشيوخ ومع ذلك فان اوكلاند لم يتخذ اى اجراء للرد على ذلك النفوذ كما لم يكن اوكلاند موفقا فى أحكامه على شيوخ الساحل ، وكان شيخا دبى وأم القوين قد رفضا استقبال سعد بن مطلق او الترحيب به فى منطقتهم .

وان تصرفه على أساس مبدأ عدم التدخل ، والتدخل العسكرى بوجه خاص فى شؤون شبه الجزيرة العربية لم يكن واقعيا ، وصحيح أن هذا المبدأ كان معمولا به منذ عام ١٨٢١ غير ان اوكلاند قد صرف النظر عنه منذ بداية عام ١٨٣٩ عندما أقر الحملة البريطانية لاحتلال عدن حتى لا تقع فى ايدى المصريين ، وبالتالى فان الأوضاع فى شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة كانت تشبه الوضع فى عدن . ومنذ بداية دخول النفوذ البريطانى الى الخليج فقد ظل يواجه تحديات مستمرة من الخارج كما أن مركز خورشيد باشا بين القبائل قد نشأ بحكم الانتصارات العسكرية التى حققها وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت انه رغم تفوق البريطانيين فى البحر الا أنهم لم يكونوا ندا للمصريين فى البر .

فى أول شهر أغسطس وصلت الى خرك أخبار عن اندحار الجيش التركى على يد ابراهيم باشا ، ثم أعقب ذلك وصول خبر عن وفاة السلطان العثمانى وانضمام الأسطول التركى لمحمد على باشا وخلال أيام قليلة كانت أخبار هذه التطورات قد وصلت الى منطقة الخليج السفلى ، غير ان سعد بن مطلق ورجاله كانوا قد غادروا منطقة الساحل الى نجد قبل وصول تلك الأخبار ، وقد أوفى سلطان بن صقر بوعده فأخرج نائب

الأخـــير من رأس الخيمة غير انه وعده سرا كما ذكر وكيل المثلية فى الشـارقة ، وعده بتأييد القواسم له لو عاد الى المنطقة بقوات أكبر (١) ، وقد وافق نبأ انتصارات خورشيد باشـا فى نجد وصـول خبر تسـليم خورشيد باشا سلطة الحكم فى نجد لخالد بن سعود تنفيذا لأوامر صريحة وصلت خورشـيد باشـا من محمد على باشـا (٢) ومن التفسيرات غير الصحيحة التى أضيفت على هـذا الحادث هو ان خورشيد باشا كان ينوى الزحف على بغداد بعد اعادة تنظيم قواته هنـاك ، وقد ضاعفت انتصارات المصريين فى سـوريا ووفاة السلطان العثمانى من خطـورة الوضع على بغداد ، ولم يعد هناك أدنى شك فى أن خورشيد يسـتطيع متى شاء احتلال العراق بكل سهولة خصوصا اذا جاءته مساعدات من جيش أحمد باشا فى الحجاز ومن قبائل المنتفك سكان المنطقة السـفلى للعراق وحسب تقديرات هانيل كانت قوات خورشيد لا تزيد عن ٣٠٠ فرد خيال و ٣٥٠٠ فرد من النظاميين وغير النظـاميين ونحو ٨ الى ١٠ مدافع ميدان يوجد أكثرها فى الثرمدة الواقعة فى منتصف الطـريق بين المدينة

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى خطـاب سرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيـــل الى ويلوبى بتاريخ أول اغسطس ١٨٣٩ (رقم ٧٣ ، ٧٨ سرى الادارة السرية) ومجلد ١٦ مرفق للخطـــاب السرى رقـم ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ من هانيـــل الى ريد بتاريخ ١٨٣٩/٨/٢٦ (رقم ٨٨ الادارة السرية) .

(٢) نفس المصدر مجلد ١٥ مرفق للخطـــاب السرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى بتاريخ ١٨٣٩/٧/٢٩ (رقم ٧١ الادارة السرية) انظر نفس الحلقات مجلد ١٤ ومرفق للخطاب السرى رقم ٩٢ مؤرخ ١٨٣٩/٧/٣١ من خورشيد باشا الى باغوص بك الموافق ١٨٣٩/٤/٨ ومرفق بخطاب كامبل الى ويلوبى فى ١٨٣٩/٦/١٦ .

وعنزة ، أما زميله احمد باشا فقد كان لديه جيش قوامه ٤٠٠٠ مقاتل في المدينة وان اندماج هاتين القوتين في جيش واحد سوف يمكن خورشيد من الزحف على العراق (١) ".

كان كامبل يعتقد بأن محمد على لم يتراجع عن العهد الذى قطعه على نفسه فى شهر يوليو بالتحرك الى البصرة وبغداد ، كما كان يعتقد بأن خورشيد باشا ، المعروف لديهم معرفة وثيقة كما ذكر فى رسالته وبأنه كان يكن له كل التقدير والاحترام، بأنه سوف يعصى أوامر محمد على باشا وبالاضافة الى ذلك فان ابراهيم باشا بعد الهزيمة التى منى بها مع الأتراك قد انسحب الى الضفة الغربية للفرات الأمر الذى لا يدل على أنه ينوى القيام بأى عمليات عسكرية ضد العراق (٢) .

ويبدو أن آراء كامبل بوصول خطاب خورشيد باشا الى هانيل فى نهاية اغسطس والذى أكد فيه القائد المصرى بانه لاينوى التحرك من قاعدته فى الشرمدة مالم تصله أوامر من مصر بذلك . وقد ابلغ المبعوث الذى حمل خطاب خورشيد الى هانيل أبلغ هذا الأخير بأن سعد بن مطلق قد توجه الى معسكر خورشيد بعد نزوله فى العقير مباشرة الأمر الذى استنتج منه هانيل احتمال تحركات جديدة يقوم بها المصريون ضد البريمى (٣) .

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٥ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٩/٩/١٠ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٨/١ (رقم ٧٣ الادارة السرية) ومجلد ١٦ مرفق للخطاب السرى ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ (رقم ٧٢ الادارة السرية) .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٦ مرفق للخطاب السرى ١١١ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ من كامبل الى ريد ١٨٣٩/٨/٢٧ .

(٣) نفس الحلقات والمجلد والمجموعة من هانيل الى ريد ١٨٣٩/٨/٢٨ (رقم ٨٩ الادارة السرية) - ومرفق به خطاب خورشيد باشا الى هانيل المؤرخ ١٧ جمادى الأولى ١٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٧/٢٩ .

وقد عزز هذا الاستنتاج وصول أخبــــار من ساحل القرصنة تفيد بأن خليفة بن شخبوط حــاكم أبو ظبى قد قام بهجوم في أواخر يوليو على قــلاع البريمى لاحتــلالها • وفى نفس الوقت تمكن وكيــل المثلية البريطــانية فى الشــارقة من الاســتيلاء على بعض الرســائل التي كان قد بعث بهــا كل من خورشيد باشا وخالد بن سعود الى سعد بن مطلق وسلطان بن صقر ، وبعث بها الى هانيل ، الأمر الذى يتضح منه بأن هدف خورشيد باشا من ايفاد سعد بن مطلق الى الشارقة هو لتوطيد نفوذه فى منطقة الساحل ، وقد حدا هــذا بهانيل الى تحذير خورشيد باشا بأن الحكومة البريطانية لن تحتمل تدخله بعد الآن فى شئون القبائل الساحلية ، وأن على خليفة بن شخبوط أن يعلم بأنه لا يمكنه التحلل من التزامه بمقتضى المعاهدة بهذه السهولة • وقد تقدم المقيم بمقترحات الى حكومة بومباى يطالبها بتوجيه تحذير الى شيخ بنى ياس بأن الحكومة البريطانية سوف تقوم بتدمير سفنهم وتحصيناتهم اذا لم يتوقف عن الاعتداء على النعيم أو يعوضهم عن الاضرار التي لحقت بهم من جــراء الاعتداء على منطقتهم • وقد انتهز هانيــل الفرصة فنبه رؤساءه الى المقترحات التى سبق أن بعث بها اليه فى نهاية شهر يونيه بوجوب مرابطة احــدى السفن البريطانية بالقرب من ساحل القطيف وتوجيه تحذير الى الوالى المصرى هناك بعدم ارسال أى سفن تحمل أسلحة الى منطقة الساحل (١) •

لم يبين اوكلاند مقترحات هانيل التى صيغت بلهجة شديدة فحسب • وانما طلب الى ميثلاند القيــــام بعملية الاستعراض لقوة بريطانيا كاجراء له

---

(١) نفس المصدر من هانيل الى ريد بتــــاريخ ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ اغسطس ١٨٣٩ (رقم ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١)الادارة السرية وانظر ايضا نفس المصدر مجلد ١٥ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٣ مؤرخ ١٨٣٦/٩/١٠ من هنيــل الى ويلوبى ١٨٣٩/٧/٣١ رقم ٧٢ سرى •

اهميته وقد قام هذا القائد البرى بتنفيذ ما طلب اليه بأقصى الحسم والسرعة الممكنة، فقد غادر قاعدة ترنكومالى فى أواخر سبتمبر الى مدراس للتموين من هناك ، ثم أبحر مسرعا الى بومباى التى وصلها يوم ٣ نوفمبر ، ترافقه السفن الحربية الملكية ويلسلى ولارن والجرين ، الا انه قبل مغادرته اضطر الى الانتظار فى بومباى ريثما تصله تعليمات من انجلترا بشأن الوضع فى الصين، وعند وصول تلك التعليمات وجد نفسه مضطرا الى الابحار على الفور الى الشرق الأقصى (١) وبسفر القائد الى الشرق الأقصى تلاشى كل أمل فى توفير جانب من القوة البحرية البريطانية للعمل فى الخليج . كما كانت السلطات الهندية فى النصف الثانى من سنة ١٨٣٩ تعانى من مشكلة أخرى ، هى حالة الوحدة البحرية المرابطة فى الخليج. ففى أواخر سبتمبر أبلغ الكومندور بركس القائد المسئول عن هذه الوحدة هانيل بأن السفينتين اللتين تحت قيادته لم تعودا تصلحان للأعمال المنوط بها ، والتى تتطلب مالا يقل عن أربع سفن شراعية وباخرة واحدة (أو سفينتان شراعيتان وباخرتان) تقوم احداهما بحراسة القاعدة فى خرك والأخرى لأعمال المراقبة فى بوشهر والثالثة للقيام بدوريات على ساحل القرصنة تمتد شمالا حتى الكويت ، وهذه العملية تستغرق مالا يقل عن شهر ، وبالاضافة الى حامية للاشراف على المواصلات مع بومباى . كما أشار بركس الى احتمال أن تطرأ ظروف فى منطقة الخليج العليا أو السفلى مما يتطلب وجود طرادين أو ثلاثة معا . غير أن حكومة

---

(١) من سجلات الرسائل السرية لحكومة بومباى المجلد العاشر رقم (١) من الحاكم الى اللجنة السرية فى ١٠/٢٦ ، ١٨٣٩/١١/٢٨ (قما ١١٨ ، ١٢٧ سرى) انظر أيضا خطاب رقم ١/٢٢٠ من ميشلاند الى وود فى ١٨٣٩/٩/١٥ (ورقم ١١٠) ومرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ١٨ خطاب سرى رقم ١١٣ مؤرخ ١٨٣٩/١٠/٥ من مدوك الى ريد شميلا ١٨٣٩/٩/١٦ .

بومباى لم تفعل شـيئا لسد العجز الذى يعانى منه أسطول الخليج • أما الباخرة هيوليدس التى كانت تقوم بأعمال الدورية فى الخليج خلال يوليو فقد تقرر سحبها لكى تستأنف عمليات نقل البريد الصحراوى الى السويس ، وكانت السفينة الوحيدة الموجودة يومئذ فى بومبـاى هى السفينة الفنستون ولكنها كانت تجرى عليهـا بعض الاصلاحات ولم تكن جاهزة للعمـل فورا ، ولحسن حظ هانيل لم يظهر خورشيد باشا أى دليل خـلال شهر سبتمبر لاستئناف عملياته العسكرية فى شرق شبه الجزيرة، وكان خورشـيد قد استاء من قيام وكيل المثلية بطرد سعد ابن مطلق من ساحل القراصنة ومن امتثال خليفه لمطالب هانيل وقام بدفع تعويضات الى النعيم عن الاضرار التى لحقت بهم بعد أن اتضح لهانيل بأنهم هم الذين اضطروه الى مهاجمتهم • وقد رد خورشيد على هذه الاجراءات بارسال قوة من القطيف للاغارة على الفرع الشمالى للنعيم فى قطر ، وذلك فى شهر سبتمبر تذرعا برفض النعيم دفع الزكاة المقررة عليهم عن طريق عبد الله بن أحمد شيخ البحرين • ولقد قـام المصريون باتلاف مزارع النعيم ، ولم ينسحبوا الا بعـد أن راجت اشاعة عن مقتل حاكم القطيف فى أوائل شهر أكتوبر (١) وفى ٢٧ أكتوبر وصل يوسف ارتون طبيب خورشيد باشا الى خرك برسالة من خورشيد باشا الى هانيـل ولم يتطرق فى الرسالة الى ابعاد سعد بن مطلق من منطقة الساحل وانمـا تركزت رسالته على البريمى التى ادعى أنهـا هى الأخرى تابعة لآل سـعود وبالتالى لمحمد على باشا (٢) •

---

(١) نفس المصدر مجلد ١٧ وخطاب سرى رقم ١٣٣ فى ١٨٣٩/١٢/٢٤ من هانيل الى السكرتير الأول ــ بالوكالة بومبـاى فى ٢٦ ، ١٨٣٩/١٠/٢٧ (رقم ١٠٩ ألف و ١١٠ سرى) •

(٢) نفس المصدر من هانيل الى رين ١٨٣٩/١٠/٢٨ رقم (١١١ سرى) ومرفق معه خطاب خورشيد باشا الى هانيـل المؤرخ ١٦ رجب ٢٥٥ الموافق ١٨٣٩/٩/١٥ •

ان الأهمية المتزايدة للبريمى من التطورات التى كانت تأخذ مجراها فى الخليج يومئذ قد اقنعت هانيل بانه يتعين أن يكون لديه المام بشئون المنطقة . فلم يقم اى أوروبى بزيارة البريمى اطلاقا ، كما كانت المعلومات عنها قليلة فى أرشيف المثلية . وفى منتصف نوفمبر طلب هانيـل من الكابتن اتكنسن هامرتدن من قوات مشاة بومباى الذى كان قائدا للكتيبة الميدانية فى خرك بالابحار الى الشارقة ومنها الى البريمى (١) بينما استقل هانيل نفس الباخرة الى مسقط ، وذلك للتعرف على ما أعلن ان السيد سعيد يقوم به وقد عاد لتوه من زنجبار لمساعدة حكام الحدود العمانية ضد المصريين . وفى لقائهمـا ذكر السيـد سعيد لهانيل انه لا يعتقد فى امكانه القيام بأى عمل لوقف تقـدم خورشيد باشا بالقوات القبلية الموجودة أو بالقوات التى يمكن أن يساهم بهـا السيد سعيد ، وبالتالى فهو ليس فى حاجة الى الأسلحة وغيرها من معدات الحرب التى عرض هانيل تقديمها لتسليح تلك القوات ، كما ذكر أنه لا جدوى من محاولة توحيد القبائل ضـد خورشيد باشا الا انهم يتقيدون بالتزامهم . وعندما ذكر له هانيـل بأن نعيم البريمى قد صمدوا لخورشيد باشا أجاب السيد سعيد بأن للنعيم وضعا خاصا لأنهم عانوا كثيرا من اضطهاد سعد بن مطلق لهم فى الماضى ويعتقد هانيل أن رغبة السيد سعيد عن تقديم المساعدة . وهو نفس الموقف الذى سبق ان اتخذه كل من نجله وابن أخية ، انما يعود الى غيرته من حمود بن عزان والى صحار .

لقد كان النزاع بين السيد سعيد والسيد حمود خطيرا بحيث بات يشكل خطرا على كيان السلطنة نفسها فى تلك الفترة الدقيقة من تاريخ المنطقة على حد تعبير هانيل الذى رأى أن يقوم بمحاولة لرأب الصدع بينهما . وقد وفق فى مسعاه هـذا وتم عقد اتفاق بينهما يوم ٢٣ ديسمبر يحقق سلاما دائما بين

---

(١) اعيد نشر المعاهدة فى كتاب « المعاهدات » تأليف ايتشيسون .

الزعيمين وحدهما وبين رعاياهم (١) وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور هانيل أن يتنبأ الى متى سيدوم ذلك السلم بينهما ، غير أن الأمل كان يحدوه بأن يستمر الالتزام بالاتفاق حتى تنتهى الأزمة المصرية البريطانية • أما فيما يختص بالهدف الأساسى من زيارة هانيل للسلطنة وهو اقناع السيد سعيد باتخاذ موقف أشد ضد أطماع خورشيد فقد كان نجاحه ضئيلا ، فقد أصر السيد سعيد على القول بأن الجهة القادرة على ردع خورشيد باشا هى بريطانيا وحدها • وأن أفضل وسيلة أمامها لتحقيق ذلك هى احتلال البحرين وارسال فصيلة من الجنود للمرابطة فى واحة البريمى • وعندما ذكر له خورشيد عدم وجود تفكير فى اتخاذ أى من الاجراءين ابدى السيد سعيد دهشته وقال بانه لابد من احتلال البحرين فان لم يقم البريطانيون بذلك فانه سوف يتولى هذا الأمر بنفسه (٢) •

ان التناقض بين اصرار السيد سعيد على احتلال البحرين وعدم اهتمامه بأمن عمان يبدو مثيرا للاهتمام أكثر مما يبدو مثيرا للدهشة . فمنذ ثلاثين عاما والسيد سعيد يحاول الاستيلاء على البحرين ولأنه فشل فى مشروعه هذا أكثر من مرة فقد اضطره ذلك الفشل الى الاعتكاف فى زنجبار وتكريس وقته لممتلكاته فى أفريقيا الشرقية • وأيا كانت دوافع السيد سعيد فى محاولاته لاحتلال البحرين فان هانيل لم يشأ ان يرفض هذه الفكرة من حيث المبدأ • وكما شرح فى تقريره لحكومة بومباى عن اجتماعه بالسيد سعيد

---

(١) اعيد نشر هذا الاتفاق فى كتاب « المعاهدات » تأليف اتشيسون ص ٨٧ — ٨٩ •

مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٧ خطاب سرى رقم ١٣٥ مؤرخ ١٨٣٩/١٢/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٣٩/١٢/١٠ (رقم ١١٧ الادارة السرية) •

فقد كان احتلال البحرين ليس اجراء هاما فحسب وانما سيضمن للحكومة البريطانية نفوذا اكبر فى سياسات الخليج. واذا أضفنا الى ذلك فكرة احتلال البريمى فان هذا الاجراء سوف يكون كفيلا بوضع حد لنشاط خورشيد باشا فى المنطقة . أما اذا اعتبر الاستيلاء على البحرين من جانب بريطانيا قضية غير واردة فانه يمكنها ان تقدم مساعدات الى السيد سعيد للاستيلاء على الجزيرة بدلا منها . ورغم ذلك فان هانيل نفسه لم يكن مقتنعا بهذه الفكرة كل الاقتناع ، فقد كانت الشكوك تساوره حول سلامة العلاقة التى تربط بريطانيا بحكومة مسقط ، ولم يكن نشاط اولئك الذين كانوا ينحون باللائمة على فتور تلك العلاقة فى الأعوام الأخيرة .. اننى لا أتصور أن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة لأن تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بحكومة مسقط كانت كما برهنت الأحداث مصدر أزعاج لنا ، لأنها كانت تؤدى الى توريط بريطانيا فى هذه المشاكل .

غادر هانيل مسقط فى الأسبوع الأخير من ديسمبر متوجها الى الشارقة، وعند وصوله اليها فىالسادس من يناير ١٨٤٠ علم هناك بأن الكابتن هامرتون لم يتمكن من الدخول الى المنطقة بسبب موقف سلطان بن صقر حاكم الشارقة . وعند وصوله كانت الاشاعات تملأ جو المنطقة عن قرب قدوم المصريين وانهيار النفوذ البريطانى فى المنطقة ، وانحياز الفرنسيين الى صف محمد على باشا . كما كانت لهجة سلطان بن صقر حين اجتمع به شديدة . كذلك فان المبعوث الذى اوفده هامرتون بخطاب الى شيوخ النعيم فى البريمى قد تعرض للاعتداء من جانب البدو الموالين لحاكم الشارقة، ولما تعذر على هانيل الوصول الى واحة البريمى قرر شيوخ النعيم التوجه اليه بأنفسهم فى النصف الأخير من شهر ديسمبر ومقابلته فى عجمان التى كان يحكمها شيخ من اقاربهم وعندما علموا أن هانيل سيصل فى الأسبوع الأول من شهر ينساير فقد فضلوا البقاء هناك حتى يصل ويجتمعوا به شخصيا (١).

---

(١) المداولات السرية لحكومة بومباى مجلد رقم ١٣٢ محادثة بتاريخ ١٨٤٠/٤/٢ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/١/٣٠ ومرفق به تقرير هامرتسونى.

استقبل هانيل حكام المنطقة بعد وصوله الى عجمان مباشرة وقد أشاد بهم المقيم على حسين موقفهم من أطماع خورشيد باشا ونائبه وسعد بن مطلق ولكنه أوضح لهم بأن الحكومة البريطانية فى الوقت الذى لا تنوى التدخل فى شئون الجزيرة أو فرض أى نوع من الحماية على القبــائل التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها فان بريطانيا يهمها جدا أن تتوحد قبائل المنطقة ضد الخطر المصرى ولهذه الأسباب فانه يأمل أن يرى نهاية للخلاف بين النعيم وجيرانهم الظواهر سكان البريمى لأن استمرار هذا الخلاف يعرض أمن الواحة للخطر ، وقد استجاب له النعيم فوافقوا على عقد حلف دفاعى بينهم وبين الظواهر ضد المصريين بشرط اقناع خليفة بن شخبوط بالكف عن التهديد بالهجوم عليهم ، وبعد مناقشة الموضوع مع شيوخ الظواهر الذين جاءوا للاجتماع بهانيل نجح المقيم فى عقد معاهدة دفاعية بين القبيلتين ضد الخطر المشترك وقد قدم هانيل الى كل من القبيلتين بعض الأموال والذخيرة وقبل أن يغادر عجمان أجــرى الترتيبات اللازمة لزيارة همرتون للبريمى تحت حماية قبائل النعيم (١) ٠

لم يغادر همرتون الشارقة الى البريمى قبل ٢١ من يناير بسبب موقف سلطان بن صقر ، ولم يتمكن من الوصول الى الواحة قبل أربعة أيام ، وبذلك كان أول أوربى تطأ قدمه هذه المنطقة وقد وجد همرتون أن البريمى مساحتها واسعة ، وفى حالة يرثى لها من التهدم ، فقد كان السور الذى يحيط بالبلدة مجرد أنقاض (٢) وكان ارتفــاع القلعة الرئيسية المطلة على البلدة من الجهة

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٩ مرفق للخطاب السرى رقم ١١٠ فى ١٨٤٠/٢/٢٨ من هانيــل الى ويلوبى ١٨٤٠/١/١٢ (رقم ٢ الادارة السرية) ٠

(٢) المحادثات السرية لبومباى مجلد ١٣ محــادثة بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٥ خطاب من همرتون الى هانيل ١٨٤٠/٣/٢٧ ٠

الجنوبية يبلغ ١٥٠ قدما ويحيط به أسوار يبلغ علوها ١٤ قدما ومن خمسة الى ستة أقدام عند القاعدة ومن ١½ الى ٢ قدم عند القمة وكانت تحيط بالقلعة بروج مستديرة يبلغ ارتفاعها من ٨ الى ١٢ قدما من قدم الأسوار بالاضافة الى سور آخر يبلغ ارتفاعه من ٥ الى ٦ أقدام ويحيط بالقلعة بمسافة تبلغ نحو ٣٠ قدما وخلف الحائط الخارجى للقلعة يوجد خندق عرضه نحو ٢٤ قدما ولهذا أطلق على هذه القلعة (قصر الخندق) وكانت على حد رأى همرتون فى حالة يرثى لها من القدم والاندثار ، ولا يمكن أن تصمد لأى هجوم بالمدافع ولو لساعة واحدة ، وكل ما فيهـا من الأسلحة عدد من المدافع القديمة ، ولكنها كانت تعتبر بمقاييس أهل المنطقة من القلاع الحصينة . ويعتقد همرتون بأنه يمكن للقلعة أن تصمد ضد عدو ليس لديه مدافع والى الشمال الغربى وعلى بعد ٣٠٠ ياردة كانت توجد قلعة أخرى لحماية قرية حماسة ، وكانت هذه القلعة مربعة الشكل وقطرها ١٢٥ قدما تحيط بها الأبراج من جميع الجهات والأسوار التى يصل ارتفاعها من ١٥ الى ١٦ قدما ، وهى بسمك ٥ أقدام عند القاعدة وقدم ونصف عند القمة والمدافع المسلحة بها القلعة غير مغطاة ولا أحد يعرف شيئا عن تاريخها .... ويتم اطلاق تلك المدافع بوضع صخرة أو قطعة من الخشب لرفع زناد المدافع عن الأرض وليس لهذه المدافع قذائف ولكن شيوخ المنطقة عثروا على بعض الأحجار المستديرة وكتل الحديد وذلك عندما جاء سعد بن مطلق الى الشارقة فى العام الماضى . ويقال ان مطلق المطيرى والد سعد ابن مطلق هو الذى بنى تلك القلعتين عندما كان نائبا للأمير فى واحة البريمى فيما بين عام ١٨٠٨ — ١٨١٣ (١) ، وكانت القلعة

---

(١) محادثات حكومة بومباى السرية مجلد ١٣٥ محادثة بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٠ خطاب من همرتون الى هانيل بتاريخ ١٨٤٠/٥/٢٧ وقد يكون من المحتمل جدا أن تكون قلعة رأس الخندق قد بنيت قبل ذلك التاريخ ولكن ربما اعيد بناؤها فى عهد مطلق .

والبريمى نفسها تخضعان لمحمد بن عبد الله ، بينما تخضع منطقة حماسة لحكم أحمد بن سرور ، وكان كلاهما من شيوخ آل بوشامس المتفرعين من النعيم • أما منطقة النعيم فكان شيخها على بن حمودة من فرع آل بوخريبان وكان مقره فى السينية ويبعد عن الواحة بضعة أميال جنوبا ، وقد ذكرها همرتون فى تقريره ، بأن عدد قبيلة النعيم قد تناقص وأنهم اندمجوا فى القبائل العمانية • وكان تعداد قبيلة بوشامس نحو ٤٠٠٠ شخص بينما انخفض التعداد حاليا الى ٨٠٠ نفر ، وقد عرف همرتون بأن كافة التقسيمات القبلية للنعيم كان لا يمكنها أن تعبىء اكثر من ٢٦٥ مقاتلا (١) •

غادر همرتون البريمى فى ٢٨ يناير برفقة محمد بن عبد الله وشقيقه وحرس مكون من خمسة أفراد ، وكانت وجهتهم صحار على ساحل الباطنة ليستقل من هناك الطراد • ولكنه شاهد فى وادى الجزى وهو فى طريقه الى صحار مدفعا عيار ١٨ وكان ذلك فى منطقة تسمى برج الشجيرة • وعندما سأل عن ذلك الموقع أخبروه بان السيد سعيد كان قد أرسله الى قلعة البريمى ، غير أنه تعذر سحبه الى ابعد من برج الشجيرة ، ولم يتمكن همرتون من معرفة التاريخ الذى أرسل فيه ذلك المدفع • وصل همرتون الى صحار يوم ٣٠ يناير وقد قال عند وصوله معلقا على رحلته « بأننى لو كنت وحشا من نوع لا يوجد له مثيل لما أثرت من الفضول بين أهل المنطقة ما أثرته • فقد تقاطر الناس لمشاهدة الرجل الانجليزى الذى زار البريمى (٢) •

---

(١) نفس المصدر والفرع الثالث من قبيلة النعيم هو الخواطر •

(٢) نفس المصدر ويوجد ملخص لتقرير همرتون (من مخابرات حكومة بومباى مجلد ٢٤) •

أثارت زيارة هانيل الى منطقة الساحل ومسقط والجولة الاستطلاعية التى قام بها همرتون لواحة البريمى عددا من القضايا التى كان يتوجب على حكومة الهند اتخاذ قرار بشأنها ، وعلى رأس تلك القضايا احتمال قيام بريطانيا باحتلال البحرين ، وتدعيم وسائل الدفاع عن واحة البريمى ، ثم العمل على حماية عمان من تعرضها لغزو المصريين ، ومما زاد الطين بلة هو وصول تقرير من ادمونز المقيم البريطانى بالوكالة بأن سفينة شراعية يعتقد أنها كويتية الجنسية قد دخلت مياه الخليج من البحر الأحمر وانها تتجه الى القطيف بحمولة من الأسلحة الحربية لخورشيد باشا ، وكان ادمونز يريد أن يعرف ما اذا كان يتعين عليه حجز السفينة وما اذا كان وصول الأسلحة والمواد الحربية الى المصريين عن طريق البحر يتوجب اتخاذ اجراء أو تدخل فى الأمر وكان من رأى كرناك بأنه طالما بقيت العلاقة بين مصر وبريطانيا علاقة طبيعية فلا مبرر للتدخل ، غير أن السلطة الحقيقية القادرة على البت فى ذلك الموضوع هو الحاكم العام للهند نفسه (١) ، غير ان الحاكم لم يتمكن من اتخاذ أى قرار فى هذه المشكلة عندما عرضت عليه ، وفى شهر فبراير ١٨٤٠ كتب الحاكم العام رسالة الى بالمرستون جاء فيها : « اننى حتى الآن لم أفهم بوضوح اتجاهات السياسة المصرية وكنت اتصور أن تصفية هذه المشكلة تقع فى اختصاصكم وأرى على أى حال أنه طالما ظلت لهجة حكام القاهرة معتدلة فيما يتعلق بتحركات خورشيد باشا فى منطقة الخليج فانه لايبدو أن هذا القائد سوف يتراجع عن خطته فى توسيع نفوذه فى تلك المنطقة وأنه من المحتمل سواء بكثير من الجهد او بقليل منه أن يمتد نفوذ هذا القائد اكثر ، كما سيزداد مركزه قوة فى هذه المناطق ، وهكذا ففى الوقت الذى

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٨ مرفق للخطاب السرى رقم ١٣٣ المؤرخ ١٨٣٩/١٢/٢٤ من ادمونز الى ويلوبى ١٨٣٩/١١/٣٣ (رقم ١٢٠ الادارة السرية) ومن ويلوبى الى المقيم ١٨٣٩/١٢/٢٦ (رقم ١٨٤٢ الادارة السرية) .

يتصاعد نفوذ محمد على باشا يزداد موقف حكام هذه المناطق ضعفا . وحتى اذا افترضنا ان الوالى سوف يواصل سياسته هذه فانى أحبذ احتلال البحرين لأنها حسب معلوماتى منطقة غير صحية وكبيرة المساحة الى درجة يتعذر الدفاع عنها بقوات محدودة ، والواقع أنى لا أعرف وسيلة من الوسائل يمكننا ان نحصل بها على قاعدة مناسبة فى الخليج تسمح لنا بالانطلاق منها بصورة فعالة بدلا من الارتباط بأحلاف دفاعية أو هجومية مع سلطان مسقط، غير أن احتلال البحرين سيكون خطوة على جانب كبير من الخطورة وليس من الحكمة تنفيذها قبل تقييم نتائجها الخطيرة (١) .

وكان اوكلاند قد أعرب عن نفس هذه الآراء في الشهر السابق عندما ذكر له بأن الحكومة البريطانية هى التى عليها ان تقرر السياسة التى تسير عليها ازاء القوات المصرية فى منطقة الخليج وان حكومته حتى ذلك الحين لم تزوده بتعليمات محددة حول هذا الموضوع (٢) وبالتالى كما يري اوكلاند فمن الأفضل تجنب أى صدام مع المصريين خصوصا وان محمد على باشا نفسه يفضل الوسائل السلمية على أن نحتفظ فى الوقت نفسه بتصميمنا على التصدى لخورشيد باشا ، وذلك عن طريق القيام بعملية استعراض لقوتنا البحرية

---

(١) خطاب من اوكلاند الى بالمرستون كلكتا فى ١٨٤٠/٢/١٦ .

(٢) فى شهر يوليو ١٨٣٩ صدرت بالفعل تعليمات محددة من هوب هاوس وقد جاء فيها : « اننا نترك لك اتخاذ القرار الذى تراه فى هذا الشأن مع اجراء التنسيق مع القائد العام لاسطول صاحب الجلالة وذلك فى حدود الامكانيات التى تحت تصرفك بطريقة تضمن المحافظة على استقلال حكام السواحل العربية للخليج (وزارة الهند مسودات مجلس الادارة — من التقارير السرية المرسلة للهند مجلد ١٠ مسودة الى الحاكم العام للهند بتاريخ ١٨٣٩/٧/١ (سرى جدا) .

كما ينبغى على حاكم بومباى بأن يخطر الجهات المعنية فى الحكومة البريطانية عن عدد السفن التى يمكن أن يساهم بها من ضمن الاسطول الهندى وعن مطالبه من الحكومة البريطانية لانجاح هذه الخطة ، اما تزويد سلطان مسقط وشيوخ الساحل بالأسلحة وتوفير الحماية البحرية لهم فأمر لا يمكن تنفيذه الا فى حالة قيام خورشيد باشا بتوغل سريع فى جنوب شبه الجزيرة ، وحتى فى هذه الحالة فان اوكلاند لم يكن يوافق على اعارة الضباط البريطانيين لسلطان مسقط لتدريب الجيش العمانى ، كما طرحت بعض الجهات ، الابعد التعرف على امكانية السلطان ومدى الخطر الذى يواجهه فى هذه الناحية : « .. وربما كانت الخطوة الأولى لاستعادة النفوذ البريطانى على سواحل الخليج والتصدى بشكل فعال لاعتداء المصريين على تلك المناطق هو تعيين ممثل بريطانى فى سلطنة مسقط وتخويله صلاحيات وسع مع اشراف الكابتن هانيل على شئوننا السياسية هناك (١) .

اما فيما يختص بالنعيم فلم يكن مطلوبا من اوكلاند بأن يفعل أكثر مما فعل فلقد كان فى الواقع يشعر بحرج كبير بشأن التعهد الذى قطعه هانيل لمبعوث قبيلة النعيم فى شهر يوليو العام الماضى عند اجتماعه به فى الشارقة بحماية حكام الساحل وذلك حتى لا يأخذه النعيم كتعهد رسمى ، ولهذا فقد شعر بالارتياح عندما أوضح لهم خلال اجتماعه بزعمائهم فى عجمان فى شهر يناير بأن الحكومة البريطانية لم تتعهد بحمايتهم وانما كان هدفها التعاون معهم لمقاومة التوسع المصرى فى شبه الجزيرة (٢) اما بالنسبة للبحرين فقد كان

---

(١) مرفقات لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ١٩ مرفق للخطاب السرى رقم ٥ فى ١٨٤٠/١/٣١ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤٠/١/١٣ .

(٢) نفس المصدر مجلد ١٩ مرفق للخطاب السرى رقم ٥ فى ١٨٤٠/١/٣١ من مادوك الى ويلوبى بتاريخ ١٨٤٠/١/١٣ ومجلد ٢٠ خطاب سرى رقم ١٥ بتاريخ ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبى فى ١٨٤٠/٢/١ (رقم ٩ الادارة السرية) .

هانيـــل يرى بأن الشيخ عبد الله بن أحمـد قد قضى بتصرفاته على علاقة الصداقة التى تربطه بالحكومة البريطانية غير أن اوكلاند لم يوافق على تأييد سـلطان مسـقط فى الهجوم على البحرين خوفا من التورط فى حرب مـع المصريين • وأخيرا فقد كان اوكلاند متفقا مع كرناك بأنه طالما ظلت العلاقة الطبيعية مستمرة بين مصر وبريطانيا فلا مبرر للتدخل فى موضوع ارسال الأسلحة الى الجيش المصرى وان كان يرى وفقا لاتفاقية السلم البحرى للخليج أنه من حق بريطانيا بأن تطالب السلطات المصرية فى شبه الجزيرة بتفسيرات عن تحركات السفن والعتاد فى مياه الخليج، وفى الوقت الذى كان الحاكم العام يناقش هذا الاقتراح كان هانيل قد قطع شوطا فى فرض حصـار على نقل الأسلحة الى خورشيد باشا عن طريق البحر وذلك بموجب تفويض اوكلاند له فى شهر سبتمبر بمنع نقل الجنود والأسلحة من الاحساء الى ساحل الامارات، ففى يوم ٢٧ فبراير بعث هانيل برسالة الى الحاكم المصرى فى القطيف يحذره من اى محاولة للتسلل الى عمان عبر المنطقة لان الأسطول البريطانى سـوف يقوم بمنعها • ولقى هذا الاجراء تأييد كارناك (١) كما سبق ان وافق هوب هاوس فى البداية على مثل هذه الاجراءات (٢) وعندما أدركت حكومة بومباى أن ذلك التحذير قد يفسر كتعهد بريطـانى لمقاومة أى غزو عسكرى لأراضى عمان (٣) • بعث بخطاب عاجل الى كرناك يلفت نظره فيه الى أن اجراء كهذا

---

(١) مرفق لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٢٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٥ فى ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/٢/٨ (رقم ١٤ سرى) •

(٢) نفس المصدر خطاب سرى رقم مؤرخ ١٨٤٠/٤/١٧ من مادوك الى الى ويلوبى ١٨٤٠/٢/٨ (رقم سرى ٥٦٧) •

(٣) ملحوظة هوب هاوس على خطاب هانيل تقول : « قل اننا نؤيد هذا الاجراء بالنيابة عن المقيم » •

سوف يكون بمثابة عمليات عسكرية لا يقرها القانون والتى سبق للمسئولين البريطانيين أن عارضوها (١) لكن هانيل اضطر آخر الأمر الى توضيح نقطة كانت واضحة منذ البداية ، وهى ان رسالته الى الحاكم المصرى للقطيف لم تكن ترجى الى أكثر من ابلاغ روح التعليمات التى كان قد تلقاها من الحاكم العام فى سبتمبر الماضى وأنها تمس ساحل الامارات وليس سلطنة مسقط . وقد وجد كثيرا من الصعوبة كى يفهم بأن الاجراء الذى اتخذه قابل لأن يفسر بكونه تعهدا من بريطانيا بالدفاع عن عمان (٢) .

فى الوقت الذى أوقف خورشيد نشاطاته العسكرية فى نجد فى الأشهر الأخيرة من عام ١٨٣٩ لم يبد بالمرستون اى اهتمام بهذا الموضوع . فقد كانت جهوده منصبة على الوصول الى صيغة وفاق مع روسيا والنمسا بشأن الخطوات التى يتعين اتخاذها فيما لو قام الوالى بشن هجوم على تركيا .

وعلى أى حال فان تخوف بالمرستون من نوايا محمد على فى منطقة الخليج لم تهدأ . فقد تجددت تلك المخاوف غداة تلقى بالمرستون فى شهر فبراير تقريرا من ادمونز حول موضوع نقل الامدادات العسكرية الى خورشيد عن طريق البحر بالاضافة الى تقرير آخر بعث به ادمونز فى شهر ديسمبر وذكر فيه أن الأوامر الأخيرة التى تلقاها خورشيد باشا من محمد على تحثه على مواصلة الزحف حتى سلطنة عمان . ويؤكد هذان التقريران، بالاضافة الى استمرار احتلال خورشيد باشا للقطيف والعفير وسيحات ، أن محمد على باشا لم يلتزم اطلاقا بتأكيداته على أنه لا ينوى توطيد اقدامه فى الخليج . وكان محمد

---

(١) مسودات المجلس ــ مسودة مرفوعة الى حاكم بومباى ١٨٤٠/٧/٤ .

(٢) مرفقات لرسائل حكومة بومباى السرية مجلد ٢٦ خطاب سرى رقم ٧ مؤرخ ١٨٤٠/١/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/١٢/٢ (سرى رقم ١١٤) .

على قد أدلى بهذه التأكيدات الى الكولونيل جي٠ال هودجز القنصل البريطانى العام في القاهرة وذلك يوم ١٢ فبراير (١) ٠ وفى أواخر فبراير ذكر بالمرستون لهوب هاوس انه يعتقد بأنه قد أصبح من حق حكومة الهند اللجوء الى القوة اذا دعت الظروف لارغام المصريين على الانسحاب من موانىء الاحساء ومن أية منطقة أخرى يحتلونها على سواحل الخليج وأن الحد الأدنى لمثل هذه الاجراءات هو كما اقترح هانيل فرض حصار على سواحل القطيف ٠ أما بالمرستون فقد كان على استعداد لاتخاذ اجراءات أشد لمنع محمد على من تزويد جيشه فى شبه الجزيرة بالأسلحة والمعدات عن طريق البحر ومن احتلال البحرين ولو لفترة مؤقتة وقال ، بأن هذا الاجراء سوف يتمخض عن نتائج ايجابية (٢) ٠

عند قيام هوب هاوس بابلاغ هذه التعليمات الى أوكلاند حذره من أن يستنتج مما قاله وزير الخارجية بأنه هناك رغبة فى استخدام القوة لاخراج المصريين من الاحساء أو أن يتصور بأن المسألة لاتستدعى القيام بأى اجراء على الرغم من أننا قد لانكون على استعداد لتحريك قوات برية الى النقاط التى يتمركز المصريون الآن فيها الا اننا قد نستعيض عن هذا الاجراء باستخدام أي قوة بحرية لدينا لحصار تلك الموانى أو منع الملاحة بها من موانى البحر الأحمر او الخليج الفارسى ٠ الأمر الذى قد يسمح للمصريين بالحصول على ما يحتاجون اليه من الأسلحة والمعدات (٣) وعلى أى حال فانه يوجب علينا

---

(١) خطاب وزارة الخارجية رقم ٧٨/٤٠٤ من هودجز الى بالمرستون الاسكندرية فى ١٨٤٠/٢/١٤ رقم ٢٤ ولقد حل هودجز محل كامبل فى شهر سبتمبر السابق ٭

(٢) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية لحكومة الهند مجلد ١٢ من بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٤٠/٢/٢٩ ٠

(٣) مسودات مجلس ادارة الشركة من التقرير السرى الى حكومة الهند مجلد ١٢ مسودة الى الحاكم العام فى ١٨٤٠/٣/٣ (رقم ٥٧٩) ٭

الا نسمح لمحمد على باشا بأن يكون فى وضـــع يسمح له بمنافسة النفوذ البريطانى فى الخليج ، ولو كان حجم هذا التنافس لايشكل خطرا فى البداية الا أنه بحكم تفوقنا البحرى فى تلك المنطقة قد يشكل فى النهاية خطرا على نفوذنا ومصالحنا هناك ، ولهذا فنحن نأمل أن يوضع حد لهذا الخطر فى اسرع وقت ممكن ، أما فيما يتعلق بالبحرين فان أى محاولة من جانب المصريين لاحتلالها بالقوة يبرر لنا اتخاذ نفس الاجراءات للاستيلاء عليها أيضا أو تقديم مساعداتنا الى سلطان مسقط لاحتلالها، ويضيف هوب هاوس فى رسالته بأننا لابد من الانسحاب من خرك بمجرد عودة العلاقات الطبيعية بين بريطانيا وفارس مما يتيح لنا بعد ذلك أن نوجه اهتماما أكبر الى البحرين ولكنه عاد فأوضح « بأنه لا يمكننا أن نعتبر قول اللورد بالمرستون فى هذا الصدد ، وكانت رغبة ضمنية لاعداد حملة عسكرية بريطانية لاحتلال البحرين مالم تطرأ ظروف تستوجب ذلك أو تحدث تطورات تتيح الفرصة والمبررات لك لاحتلالها ٠

وقد اتسمت التعليمات التى أصدرها هوب هاوس فى الأسابيع القليلة التالية بنفس اللهجة التحذيرية فيما يختص بسلطنة عمان ضد أى عدوان مصرى محتمل ٠ فقـد عقدت اتفاقية تجـارية بين مسقط وبريطانيـا يوم ١٨٣٩/٥/٣١ وأصبحت فى انتظار التصديق عليها بين آونة وأخرى وقد تضمنت الاتفاقية بندا بتعيين قنصل لبريطانيا فى السلطنة وقد جاءت التطورات التى مرت بالمنطقة بعد ابرام تلك الاتفاقية فأكدت على أهمية تعيين قنصل بريطانى فى سلطنة عمان ٠ ويبدو من المعقول على ضوء هذا التعيين أن يكون القنصل هو المعتمد السياسى الذى كان اوكلاند قد اقترح تعيينه فى بلاط السيد سعيد ، وكان الشخص الذى رشح لشغل هذا المنصب هو الكابتن

همرتون (١) وعلى أى حال فلم يكن بالمرستون او هوب هاوس يهدف من تعيين همرتون اعطاء انطباع عن وجود تحالف قوى بين مسـقط وبريطانيا فقد أوضح هوب هاوس هذه النقطة ايضاحا تاما فى التعليمات التى أرسلها حاكم بومباى وحدد فيها شكل السياسة التى يتعين على الحاكم العـام انتهاجها من حالة استشعار تحركات عدوانية من المصريين ضد السلطنة . فاذا ما قرر محمد على باشا أن يلجأ الى استخدام القوة ضد سلطنة مسقط فسيعتبر عمله هذا انتهاكا صريحا للاحتجاجات التى تقدمت بها اليه الحكومة البريطانية . غير اننا لا نعرف الطريقة التى يمكنكم بها استخدام الامكانيـات المتاحة لكم فى ردع مثل هـذا العدو انه لو وقع كما ذكر بأن مثل هـذه العمليات سوف تقتصر على الخليج وعلى غيره من المناطق الساحلية الواقعة فى متناول الأسطول البريطانى (٢) .

قبل وصول هذه التعليمات الى بومباى وردت رسالة من السيد سعيد تفيد عن زيارة قام بهـا مبعوثون من خورشيد باشا لمسـقط وان هؤلاء المبعوثين قد أبلغوه بأن خورشيد باشا لا ينوى القيام بأى عمل ضد البحرين أو البريمى أو البصرة مع أن خورشيد باشا نفسه كان قد ذكر للسيد سعيد فى احدى الرسائل عن نيته ارسـال حملة عسـكرية فى وقت قريب الى البريمى ولكنه أكد بأن الحملة لن تتعدى حدود الواحة كما ذكر بأنه مصمم

---

(١) مسودات مجلس الادارة من التقرير السرى الى حكومة الهند مجلد ١٢ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٤/٣ (رقم ٥٩٨) ومرفق خطاب بالمرستون الى هوب هاوس ١٨٤٠/٤/٢ انظر أيضا المكاتبات السرية مجلد ١١ من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٢/٢٨ رقم سرى (١٠) .

(٢) مسودات مجلس الادارة التقرير السرى لحكومة الهند مجلد ١٢ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٤/٣ (رقم ٦٠٨) .

على اخضاع كافة المناطق التى كانت خاضعة فى السابق لآل سعود لسلطته . كما عرض خورشيد باشا على السيد سعيد تقديم أى مساعدة قد يحتاج اليها فى مواجهة خصومه . وعندما نقل السيد سعيد هذه المعلومات الى كارناك أكد له بأنه قد رفض عرض خورشيد باشا الا أن كارناك قد اكتشف فيما بعد بأن السيد سعيد قد طلب من مبعوثى خورشيد بأن يطلبوا من الباشا امتناع عبد الله بن أحمد شيخ البحرين بتسليم منطقة الدمام اليه ، وكانت هذه المنطقة قد خضعت لبعض الوقت لسلطة عبد الله بن أحمد (١) ومن المشكوك فيه ما اذا كان خورشيد باشا جادا فى موضوع الحملة التى قال انه كان يعدها ضد البريمى . وقد ذكر محمد على باشا لهودجز فى نهاية شهر مارس بأنه لم يسمع قط عن سعد بن مطلق الذى كان مرشحا لقيادة الحملة المزمعة ضد منطقة الساحل ، كما ذكر له بأنه يكن كل احترام للسيد سعيد ، وأنه لم يفكر فى التآمر عليه اطلاقا(٢) ولم يكن ثمة ما يدعو هودجز الى التشكيك فى أقوال الوالى لأن السيد سعيد كان أكثر تلهفا فى خطب ود خورشيد باشا من خورشيد باشا له وعلى الأخص انه كان يرى فى وجود خورشيد باشا فى الجزيرة فرصته الأخيرة للاستيلاء على البحرين .

---

(١) مرفقات لخطابات حكومة بومباى السرية مجلد ٢٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٥ مؤرخ ١٨٤٠/٣/٣١ من سعيد الى كارناك ذى الحجة ٢٥ الموافق ١٨٤٠/٣/٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١١٦ فى ١٨٤٠/٤/٢٧ من سعيد الى كاناك فى محرم ١٢٥٦ فى ١٨٤٠/٣/٦ ومجلد ٤٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٣٧ الموافق ١٨٤٠/٦/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٥/٢٠

(٢) خطابات وزارة الخارجية من هودجز الى بالمرستون ١٨٤٠/٣/٣١ (رقم ٣٥) وقد ذكر خالد بن سعود لاحد الضباط البريطانيين فى ديسمبر ١٨٤١ ان خورشيد كان ينوى شن هجوم على البريمى ولكنة عدل عن هذه الخطة بعد ان تلقى أوامر من محمد علي باشا اصدرها بالحاح من الحكومة البريطانية .

لم يتخل بالمرستون نهائيا عن فكرة احتلال البحرين ففى أواخر شـــهر يناير أصدر تعليمات بوجوب اجراء تحريات عن امكانيات الجزيرة وقابليتها للاحتلال (١) ٠

بعد شهرين عاد بالمرستون فاقترح على هوب هاوس أن يقوم بمحـــاولة لعقد نوع من الاتفاق مع زعماء البحرين يسمح للكتيبة البريطانية المرابطة حاليا فى خرك أن تقضى فى البحرين بعض الوقت ، وحتى تكون فى مأمن من وقوع اى عدوان عليها من محمد على (٢) وقد أخذ بالمرستون يتفهم اكثر وأكثر ن الاســتيلاء على قاعدة دائمة فى الخليج سوف لا يعزز وضـــع الحكومة بريطانية فحسب ، وانما سيمكنها من أن تتصرف بفاعلية أكثر فى سياسات شبه الجزيرة وفارس ٠ واذا اردنا أن نحكم على موقف بالمرستون من خلال سير الأحداث فى الخليج قبل ١٨٤٠ وبعدها فيبدو أنه كان على حق ، وكان هانيل يشاطره هذا الرأى ، وفى بداية ١٨٣٩ طلب الى ادموندز وضباط آخرين من أسطول الخليج أن يقوموا بمسح لجزيرة فيلكه عند مدخل ميناء الكويت للتأكد مما اذا كانت تصلح كقاعدة بحرية وعسكرية ، غير ان نتائج هذه المهمة جاءت غير مشجعة فقـــد كان المرسى الرئيسى فى الجـــزيرة عرضة للرياح الشـــمالية الشرقية والجنوبية الشرقية ، الأمر الذى يجعـــل الجزيرة غير صالحة ٠

---

(١) مسودات المجلس التقرير السرى الى الهند مجـــلد ١٢ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/١/٢٥ (٥٦٨) ٠

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ١٧ مرفق للخطـــاب السرى رقم ١٣٥ المؤرخ ١٨٣٩/١٢/٣١ من هانيل الى كبير أمنـــاء بومباى بالوكالة ، بومباى فى ١٨٣٩/١١/١١ (رقم ١١٥ سرى) ومرفق تسعة تقارير ادموندز والليفتنانت جى ٠ تى ٠ جونز ١٨٣٩/١١/٥ وقد اعيد نشر تقارير جونز فى مجموعة مختارات حكومة بومباى مجلد ٢٤ ٠

أما هانيل فكان يعتقد بأن خرك هى المكان الأنسب للقاعدة وكان اوكلاند يؤيده فى هذا الرأى كما كان كلاهما يعارض احتلال البحرين أو ضمها : اوكلاند بسبب النفقات التى قد يتطلبها الاحتلال والثانى لاعتقاده بأن مناخها غير صحى أو خطر على صحة الأوربى. كانت البحرين تستخرج كمية من اللؤلؤ تصل قيمتها الى ٣٥٠٠٠٠ ريال نمسوى كل عام، وهذه الكمية بالاضافة الى محصول البحرين من البلح والذهب وغيرها من المنتجات كانت تشكل صادرات البحرين التجارية وتصل قيمتها الى ٨٠٠,٠٠٠ ريال نمسوى وثلاثة أرباع هذه السلع يعـــاد تصديرها الى مناطق أخرى من الخليج . فلو قامت الحكومة بضم البحرين فانها سوف تعطى ايرادا سنويا يقدر بنحو ثلاثمائة الف روبية ، وليس هنـــاك ادنى شـــك فى أن موقع جزيرة البحرين وبحارها وميناءها يجعل لنا ذكرا سياسيا وتجاريا غير أن مناخها اذا استثنينا مسقط وباسيدو هو اسوأ مناخ فى الخليج . الا أن وجود العتوب فيها يجعل احتلالها والاحتفاظ بها مشكلة صعبة (١) وعلى أى حال فان المسألة الملحة فى ذلك الوقت لم تكن هى الوصول الى قرار باحتلال البحرين وانما فى توفير السفن اللازمة لتنفيذ خطة حصار الموانىء التى كان يحتلها المصريون على ساحل الاحساء ومنع المؤن من الوصول الى خورشـــيد باشا عن طريق البحر . وعندما علم هانيـــل بأن الحكومة البريطانية قد وافقت على فكرة الحصـــار استفسر من القائد المسئول عن اسطول الخليج وهو الكومندور اى . ا . ج . نوث عن عدد السفن التى يحتاج اليها لتنفيذ خطة الحصار ، وكان تقدير نوث هو خمس سفن : سفينة لكل من القطيف والعقير وسيحات واثنتان لأعمال المراقبة الساحلية . ولما كانت الأعمـــال المعادية فى مياه الخليج تتطلب ثلاث سفن على الأقل فان العملية ستحتاج الى ٨ سفن وان كان القائد نوث يعتقد بأن ست سفن تكفى للعملية .

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ خطاب سرى رقم ٣٧ فى ١٨٤٠/٦/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٥/٢١ (رقم ٤٨ سرى) مرفقات خطاب هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٣/٢ :

وكان مجموع السفن التى لديه لا تزيد على ثلاثة وهى : كوت ودجلة وروبل تايجر (١) . ولهذه الأســباب لم يكن هناك أى معنى لفرض الحصار ورغم الاقتراحات العديدة التى قدمها هانيل فى هذا الشأن والمناقشات الحامية التى دارت حول هذا الموضوع فى كل من حكومتى الهند وانجلترا وجد هانيل نفسه فى نهاية شهر مايو غير قادر على اتخاذ أى اجراء ضد خورشيد باشا . ولقد كان من المفاجآت الغريبة ان يتلقى هانيل فى تلك اللحظة خبرا من ساحل شبه الجزيرة عن بدء المصريين عمليات الانسحاب من نجد والاحساء .

أشار باغوص بك عند اجتماعه بالكولونيل هودجز فى الاسـكندرية فى أواخر فبراير الى هذا الموضوع (٢) وبعد شـــهر تحدث الوالى بنفسه الى كوشليت بأنه قد أصدر أوامره بالفعـــل الى خورشيد باشا بالانسحاب من المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة غير أن محمد على لم يتطرق الى الموضوع عند اجتماعه بهودجز مرة أخرى (٣) وفى أواخر فبراير وصلت الى هانيل أخبار بأن الجنود المصريين بنيتهم فى الانسحاب . وفى هـــذا الوقت أيضا أخذت القبائل فى كل من نجد والاحساء تعلن الثورة المسلحة على خورشيد مما وضع صعوبات كثيرة فى اتصـــالاته مع المناطق الشرقية والغربية من شبه الجزيرة . وقد أكد هـذه المعلومات يوسف إرتون طبيب خورشيد باشا الخاص خلال زيارته لخرك فى نهاية فبراير عندما كان فى

---

(١) نفس المصدر من هانيـل الى ريد ٢٥/٥/١٨٤٠ (رقم ٤٩ الادارة السرية) ومرفق خطـــاب نوت الى هانيل ٢٠/٥/١٨٤٠ (رقم ٥١٠ الادارة السرية) .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٨ من هودجز الى بالمرستون ٢١/٤/١٨٤٠ (رقم ٢٥) .

(٣) من هودجز الى بالمرستون الاسكندرية ٣١/٣/١٨٤٠ (رقم ٣٥) .

طريقة الى الهند لبيع بعض الجياد لحساب خورشيد باشا (١) وعلى الرغم من

أ سمع الكثير من الاشاعات عند وجوده فى الساحل الغربى فى شهر أبريل لتجديد « معاهدة الصلح البحرية » عن الصعوبات التى كان يواجهها خورشيد الا أنه لم يستطع التأكد من صحة تلك الاشاعات . وأخـــيرا فى الاسبوع الأخير من مايو تلقى تقريرا من وكيل الممثلية فى البحرين يفيـد بأن المصريين قد جلوا عن الاحساء كما أن القوات الرئيسية لخورشيد قد انسحبت من نجد .

وبمجرد ان تم الاستغناء عن السفينة دويل تايجر فى خرك طلب اليها هانيل الابحـــار الى ساحل القطيف لجمع ما يمكن جمعه من معلومات عن الأوضاع هنـــاك ، وقد ذكر قائد السفينة فى تقريره ، بأن المعلومات التى تضمنها تقرير الوكيل سابقة لأوانها . فقد كانت القطيف لاتزال تخضع لحكم محمد افندى احد رجال خورشيد باشا ، وهو نفس الشخص الذى زار خرك قبل عام واحد ، كما أن سلاح الفرسان والقوات غير النظامية التابعة لجيش مصر لاتزال فى نجد رغم أن القسم الأكبر من قوات المشاة قد غادرت المنطقة الى الحجـــاز ، وقد ذكر محمد افندى أن خورشيد باشا قد تلقى أمرا من محمد على بالانسحاب الى المدينة وانه سوف يبقى هناك للاشراف على شئون المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة . وعلى أى حال فقد كان خورشيد كما قيل مترددا فى التخلى عن فتوحاته أو على الأقل قبل أن يعتصر آخر قطرة من تلك الفتوحات ولهذا أرجأ تنفيذ أوامر الوالى ريثما يعرف نتيجة اقتراحه للوالى بتأخير عملية الانسحاب لبعض الوقت . كما ذكر محمد أفندى بأن خورشيد باشا ينوى تعيين أحد اتباع خالد بن سـعود كحاكم على القطيف على الرغم

---

(١) مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٢ مرفق للخطاب السرى رقم ٢٦ المؤرخ ١٨٤٠/٥/٢٠ من هانيـــل الى ويلوبى ١٨٤٠/٣/٧ (رقم ٣٢ الادارة السياسية) .

انه كان ينوى البقاء قريبا من الميناء لفترة من الوقت لمراقبة سير الأمور . وعلى الرغم مما ذكره فقد كان من الواضح أن خورشيد لم يعد يستطيع الاستمرار فى نجد أو الاحساء فقد كانت البلاد تغلى بالثورة ضده واصبحت شكلة القائدالمصرى هى البحث عن وسيلة ينجو فيها بجلده (١) .

وقد كان هذا رأى محمد على باشا أيضا الذى أصبح فى حاجة الى جيشه للدفاع به عن سوريا ومصر ، وبنهاية يونيو كانت الفرق الثلاث عشرة المصرية من القوات النظامية فى طريقها الى مصر كما أن ابراهيم باشا النجل الأصغر لمحمد على باشا قد انسحب هو الآخر من اليمن ، بينما انسحب خورشيد باشا من نجد ، وعاد ابراهيم باشا الى القاهرة فى بداية أغسطس، ثم أعقبه خورشيد باشا وفرقتان من الجيش ، أما مكة والمدينة فقد ترك امزهما للقوات النظامية تحت اشراف محمد بن عون شريف مكة الذى كان عينه محمد على باشا حاكما على الحجاز خلفا لأحمد باشا (٢) .

وبعد انسحاب المصريين من شبه الجزيرة لم تعد هناك حاجة الى الاجراءات التى كان هوب هاوس وبالمرستون قد قررا اتخاذها . وفى منتصف يونيو تلقى هانيل أمرا بوقف العمل بالتعليمات التى سبق أن تلقاها لحصار

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ المؤرخ ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل الى ريد ٢ ، ٤ يوليو ١٨٤٠ (رقم ٨ ، ٨٢ الادارة السرية) ومرفق معه خطابات محمد افندى وميرزا محمد على (وكيل الممثلية فى البحرين) .

(٢) درايلوت ٢ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ من كوشليت الى تيرز ١٨٤٠/٦/٢٢ جزء ٣ ص ٨٨ — ٩٠ من كوشليت الى تيرز ١٨٤٠/٨/٦ وجزء ٦ ص ١٦١ من كوشليت الى جيوزوت ١٨٤٠/١٢/٢٤ .

موانى الاحساء (١) وكانت حكومة بومباى قد قررت بالفعل فى شهر مايو أن تقطع علاقاتها بنعيم البريمى كما رفضت مقترحات هانيل وهمرتون تقديم مساعدة للنعيم لترميم حصونهم . فقد أبلغ هانيل بأن مهمته لا تتعدى مجابهة رؤسائهم وتقديم بعض الهدايا الصغيرة اليهم من وقت لآخر وحثهم على توحيد صفوفهم ضد أية محاولة لاخضاعهم كما أبلغ بأن الحكومة البريطانية لا توافق على أية نفقات جديدة فى هذا الشأن .

أما قضية البحرين فقد كانت أكثر تعقيدا . وكانت التقارير غير المشجعة التى يبعث بها هانيل الى هوب هاوس قد جعلته يقطع بأن الجزيرة غير صالحة ، وبالتالى فليس هناك ما يدعو الى اتخاذ أي اجراء للاستيلاء عليها (٢) ، كما أشار المقيم الى أن موقف الشيخ عبد الله حاكم البحرين من الحكومة البريطانية تبرر لها اذا شاءت تأييد السيد سعيد فى مطالبته بالبحرين . وقد رحبت حكومة بومباى بهذا الاقتراح ، وأوعزت فى شهر يوليو الى هانيل بعدم وضع أية عراقيل فى وجه السيد سعيد لاحتلال البحرين .

وفى بداية أغسطس قابل هانيل السيد سعيد فى مسقط وناقش معه هذا الموضوع . غير أن السيد سعيد ذكر له بأنه لم يكن يريد احتلال البحرين ليحتفظ بها لنفسه وأنه كان يفضل لو تولت الحكومة البريطانية بنفسها هذا الأمر . أما اذا كانت بريطانيا لا تريد احتلالها وتفضل أن يقوم السيد سعيد

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى ٤٧ المؤرخ ١٨٤٠/٧/١٨ من ريد الى هانيل ١٨٤٠/٧/١٤ (١١٦٤ الادارة السرية) .

(٢) مسودات المجلس من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٣ مسودة لحاكم بومباى ١٨٤٠/٨/١٥ (رقم ٦٤٥) .

بالاستيلاء عليها فانه على أتم استعداد للقيـــام بهذا الأمر وتوفير الإمكانيات اللازمة له ، غير أن هانيل لم يكن فى وضع يسمح له باعطاء تعهد للسيد سعيد بعدم ممانعة الحكومة البريطانية على احتلاله للبحرين . والواقع أن السيد سعيد قد رحب بالفكرة أيما ترحيب وأسر الى هانيل بأنه قد بدا يفقد الأمل فى تحقيق هدفه هذا وأنه يستعد للعودة الى زنجبار . وقال بأنه قد يؤجل سفره الى افريقيا الشرقية اذا كان هناك أمل فى تأييد بريطانيا له بالاستيلاء على البحرين .

ولقد بقيت هناك تحفظات لدى هانيل فى اهمية التحالف مع الســـيد سعيد بوجه عام وفى تأييده لاحتلال البحرين بوجه خاص ، وقد أشار هانيل فى هذا المعنى بأنه سوف يكون اجراء خاطئا من الوجهة السياسية أن تبـــدو بريطانيا وكأنها تكافىء الســـيد ســـعيد على مواقفه الســـابقة وعلى الأخص بشأن تجارة الرقيق بالتواطؤ معه على شن عدوان على البحرين (١) ، وعلى أى حال فقد أيد هانيل بشدة سياسة السيد سعيد لدى حكومة بومباى ، وذكر لها فى تقريره انه على ضوء مواقف السيد سعيد السابقة تجاه الحكومة البريطانية فان السيد سعيد جدير بالحصول على تأييدها ، لأنه من مصلحة بريطانيا أن تتعاون مع السلطان فى استرجاع نفوذه المنهـــار فى الخليج ، وبالتالى فان استيلاءه على البحرين سوف يسهم فى تحقيق هذا الهدف . فهو قد تخلى عن البحرين نزولا على رغبة الحكومة البريطانية برفضه عرض خورشيد باشا للقيام بحملة مشتركة لاحتلالها ، فاذا كنا الآن نفكر فى مساعدته فى احتلال الجزيرة فان هذه العملية كلها لن تتطلب قوات كبيرة ويكفيها ٥٠٠

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفقـــات للخطاب السرى رقم ١٥٦ فى ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل الى ريد ١٨٤٠/٨/٤ (رقم ٨٧ الادارة السرية) .

جندى أوربى وفصيلة من الجنود الهنود وســتة مدافع ميدان (١) ، وقد حظيت مقترحات المقيم بشيء من التأييد فى الأوساط الحاكمة فى بومباى ، وعلى أى حال فلم يكن كارناك يعتقد بأن الممثلية البريطانية فى بوشهر يمكنها الاستغناء عن بعض قواتها للقيام بهذه المغامرة العسكرية خصوصا وان الوضع فى افغانستان لايدعو الى الارتياح . وكان اوكلاند يرى نفس الشىء . وقال باننا لا ينبغى ان نلوح للسيد سعيد بالمساعدة قبل تدعيم الوضع البريطانى العسكرى فى الخليج بوصول سفينة أو أكثر من السفن الحربية من بريطانيا(٢) وعلى الرغم من ان هوب هاوس كان يؤيد هانيل الى حد كبير الا انه فى الوقت نفسه كان يتفق مع أوكلاند على: « ان الوقت لم يحن بعد للقيام بعمليات عسكرية أو بحرية لتمكين سلطان مسقط من احتلال البحرين وأنه لايزال من السابق لأوانه القيام بالحملة المقترحة قبل أن تعرف نتائج الحرب فى سوريا والطريقة التى سوف يتم بها حل الازمة المصرية (٣) وفى نهاية العام أنهى هوب هاوس المناقشة حول هذا الموضوع بارسال تعليمات حاسمة الى بومبـاى بالحيلولة دون قيام السيد سـعيد (٤) باحتلال البحرين أو القيام

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ فى ١٨٤٠/٨/٢٢ من هانيل إلى ريد ١٨٤٠/٨/٤ (رقم ٩٧ الادارة السرية) .

(٢) من سجلات الخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١١ جزء ١ من الحاكم الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٨/٢٢ (رقم ٥٦ الادارة السرية) .

(٣) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ٢٦ مرفق للخطاب السرى رقم ٩٠ المؤرخ ١٨٤٠/١٢/٢٨ .

(٤) مسودات مجلس الادراة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٣ مسودة الى الحاكم فى بومباى ١٨٤٠/١٠/٣١ (قم ٦٧٤) .

بأى اجراء بشأن الجزيرة قبل الرجوع الى السلطات في انجلترا غير أن السيد سعيد كان قد صرف النظر عن هذه الفكرة قبل وصول التعليمات من هوب هاوس وعاد يرى فيها فكرة عقيمة ثم سافر الى زنجبار ٠

وفيما بين شهرى سبتمبر ونوفمبر ١٨٤٠ منى الجيش المصرى بهزيمة ساحقة على يد القوات المشتركة لتركيا وبريطانيا والنمسا ٠ وقد وضع هذا حدا نهائيا لمخططات محمد على التوسعية ولتطلعاته فى انشاء امبراطورية مصرية تمتد من النيل الى الفرات ٠ وبمقتضى اتفاق الاسكندرية المعقود فى شهرى نوفمبر وديسمبر وافق محمد على والى مصر على التخلى عن سوريا وأطنة وكريت وشبه الجزيرة العربية واعادة الأسطول التركى الى السلطان العثمانى ٠ وبهذا القرار فقد محمد على باشا المناطق التى احتلها خورشيد باشا وهى القاسم ، ونجد والاحساء ، كما ضاعت منه الحجاز ، والأماكن المقدسة واليمن ٠ أما خالد بن سعود الذى عينه خورشيد باشا أميرا لنجد والاحساء صنيعة للمصريين فلم يكن يستطيع المضى فى تحقيق اطماع الباشا فى البحرين وعمان ورغم ذلك فقد قرر اوكلاند تكليف حكومة بومباى بايعاز من هانيل فى شهر فبراير ١٨٤١ بتوجيه تحذير الى خالد بأنه اذا حاول توسيع رقعة نفوذه الى منطقة جنوب شرقى الجزيرة العربية بارسال قوات مسلحة من الأحساء عن طريق البحر الى ساحل القرصنة فانه سوف يلقى مقاومة من السفن البريطانية الحربية (١). وبعد شهر علم أن خالدا قد اعترف بسلطة الباب العالى وتم تعيينه واليا على نجد ، وفى

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٨ المؤرخ ١٨٤١/٥/٢٦ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/٢/٢٢ (رقم ٢٢ الادارة السرية) ٠

شهر سبتمبر كتب الى هانيل معربا عن رغبته فى انشاء علاقات ودية مع الحكومة البريطانية (١) ·

وعلى الرغم من عرضه هذا فقد علمت السلطات البريطانية فى شهر نوفمبر بأن خالدا يفكر فى ارسال حملة عسكرية برية لاحتلال البريمى ومن المنطقى أن يعين خالد بن سعود سعد بن مطلق قائدا لتلك الحملة ، وسرعان ماقرر هانيل ايفاد مبعوث خاص الى الأمير خالد ، واختار اللفتنانت كيف جوب لهذه المهمة وتم ايفاده الى الهفوف للاجتماع بخالد وتحذيره من القيام بأى تحرك عسكرى ضد ساحل القرصنة سواء عن طريق البر او البحر، وعلى الرغم من أن خالدا خلال مقابلته لجوب أكد على حقه المطلق فى احتلال البريمى الا أنه وافق على صرف النظر عن الفكرة · وقد أعاد تأكيد رأيه هذا فى الخطاب الذى بعث به الى هانيل بصحبة جوب ، والواقع أن خالدا لم يكن ملزما بتوجيه ذلك الخطاب الى هانيل ، وجاء فى تقرير المبعوث الى هانيل بأنه متأكد مما سمع وشاهد بأن الأمير ليس فى وضع يسمح له بالقيام بعمليات عسكرية خارج الاحساء وأن جيشه القتالى لايزيد على ٣٠٠٠ مقاتل وان القوات المقاتلة الاخرى لايزيد عددها على ٨٠٠ جندى مصرى غير نظامى نصفهم من الفرسان ونصفهم من المشاة وتسليحهم كان ضعيفا جدا وهم متذمرون لسبب تأخر صرف الرواتب لهم (٢) ·

---

(١) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى خطاب سرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٤٢/٨/٣٠ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤١/٦/٣٠ (رقم ٨٠ الادارة السرية) ومجلد ٣٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٧ المؤرخ ١٨٤١/١٢/٣١ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤١/١٠/٥ (رقم ١١٢ الادارة السرية) ·

(٢) نفس الحلقات مجلد ٤١ مرفق للخطاب السرى رقم ١٧ فى ١٨٤٢/٢/٢٨ من جوب الى هانيل (ديسمبر ١٨٤١) ويمكن مقارنة تقرير جوب مع لجنة خليفة لوشليت الذى ارسله من القاهرة فى مايو السابق وجاء فيه ان جميع الجنود المصريين النظاميين كانوا قد عادوا من شبه الجزيرة ·

وعلى امتداد عام ١٨٣٩ لم يظهر بالمرستون أى رغبة فى الوصول الى تسوية مع حكومة فارس وعلى العكس فقد كان يميل الى ترك الأمور تأخذ مجراها فى كل من فارس وافغانستان · وقد تم رفع الحصار عن اقليم الحيرة كما اصبح هناك جيش بريطانى يرابط فى كابل ، كما حصل بالمرستون على وعد من تسلرود باستدعاء سيجونيس من طهران · وأضف الى كل ذلك نشوء أزمة فى الشام بين محمد على والسلطان بحيث لم تترك له وقتا يخصصه لبحث المشاكل مع فارس · وعندما بلغه فى الربيع بأن مبعوثا من الشاه فى طريقه الى انجلترا للاجتماع به كان رد فعله فى البداية هو رفضه للاجتماع به ، وعلى اى حال فعند وصول المبعوث حسين خان الى انجلترا فى شهر يونيو ١٨٣٩ وافق بالمرستون على الاجتماع به بصفة غير رسمية ، وكان حسين شاه يحمل معه مذكرة من الشاه ، أوضح فيها الأسباب التى دفعته الى الهجوم على الحيرة وهى (انقاذ الرعايا الفرس من القهر) والقى اللوم على ماكنيل عن الأزمة التى نشأت بين الدولتين · كما كشف المبعوث عن عدد من القضايا التى تدين بريطانيا واحتلالها لخرك وقال بانه مالم تقم بريطانيا بخطوات مرضية فى هذا الشأن فان الشاه سوف يضطر الى الاحتماء بالحل ، وهو تهديد كشف الشاه عنه بنفسه ، بارساله صورة من المذكرة الى تسلرود ، غير أن بالمرستون رفض التهديد ، وعندما قابل حسين خان فى اليوم التاسع عشر من يونيه أبلغه بأن خطوة ماكنيل قد تمت بموافقة الحكومة البريطانية ، وأن الهجوم على الحيرة كان فى نظر بريطانيا تحريضا من الروس ، وهو يمثل تهديدا للهند البريطانية وبالتالى كان احتلال بريطانيا لخرك دفاعا عن النفس ضد ما كانت حكومة فارس تقوم به من اجراءات ضد مصالحنا فى المناطق الأخرى (١) . وقد رد حسين خان على بالمرستون بقوله : « أن الاحتلال

---

(١) فارس والخليج مجلد ٦٥ مذكرة بمحضر الاجتماع المعقود بين اللورد بالمرستون وحسين خان بشارع شيبا نهوب فى ١٨٣٩/٦/١٩ اعداد جى·بى· فريزر .

البريطانى كان عملا من أعمال الغدر لأنه لم يسبقه اعلان رسمى للحرب ضد فارس . وربما كان فى هذا القول بعض الصحة وكاد بالمرستون أن يعترف به عندما قال : بأن اوكلاند قد تصرف على النحو الذى رآه مناسبا للموقف . وعلى أى حال فاذا كان حسين خان قد أشار الى موضوع الغدر فما هو رده على الاعتداءات التى قام بها المسئولون الفرس على مثلاند وهانيل فى بوشهر . غير أن حسين خان لم يعلق بشىء على ذلك لأنه لم تكن لديه أى معلومات عن ذلك الحادث . وعندما أشار الى أن تصرف اهالى بوشهر جاء نتيجة لوجود الأسطول البريطانى فى مياههم الاقليمية مما استنفذ مشاعرهم لم يقبل بالمرستون هذه الحجة منه (١) .

وقد اشترط بالمرستون لعودة العلاقات الودية مع فارس أن تقدم الحكومة الفارسية اعتذارها عن الاهانات التى لحقت بالمقيم ، وبالأميرال ، وأن تدفع تعويضا عن الاعتداء على صراف المثلية وساعى المفوضية البريطانية فى طهران ، وعلى أى حال فهذه لم تكن شروطا بالمعنى الدقيق للكلمة لعودة العلاقات . وبالتالى يتعين على الشاه أن يوافق على عقد اتفاق تجارى وان يتخلى عن أطماعه فى افغانستان ، وأن يقوم بسحب حميته من حدود غوريان الواقعة فى الأراضى الافغانية بالقرب من الحيرة ، وفى اجتماع آخر مع مبعوث الشاه يوم ١٣ يوليو كرر بالمرستون هذه المطالب مؤكدا على حوادث بوشهر ومطالبا بسحب حاكم بوشهر . وعندما وعد حسين خان ببحث الموضوع بحثا كاملا رد بالمرستون بلهجة عنيفة بأن هذه عبارة مألوفة من جانب الفرس ، وهم يلجأون اليها عندما يواجهون واقعة ما . وعلى اى حال فقد كان المبعوث لايعرف شيئا غير ماسمعه من بالمرستون فى لندن ولايملك

---

(١) نفس المصدر « تاريخ فارس » تاليف واتسون ص ٣٣٤ للاطلاع على كلمات بالمرستون لحسين خان فى هذا الاجتماع انظر اعلاه ص ٣١ .

صلاحية تقديم الاعتـــذار . وقد وافق بالمرستون على تاجيل البت فى هــذا الموضوع (١) .

وقد سببت صراحة بالمرستون استياء شديدا للشاه فعبر عن غضبه باعطاء المبعوث علقة غير أن غضب الشاه سرعان ماتلاشى . ففى شهر سبتمبر أمر رئيس وزرائه الحاج ميرزا اغاس بأن يكتب الى بالمرستون رسالة يشعره فيها بموافقة الشاه على المطالب البريطانية ، كما قدم رئيس الوزراء اعتذار حكومته عن الاعتداء الذى وقع على ساعى ماكنيل كما أصدر الشاه مرسوما (فرمانا) بمنح الحصانة لأفراد هيئة المفوضية البريطانية وارسل أمرا آخر الى امير شيراز يأمره بتوقيع العقوبات على المسئولين عن الاعتــداء على صراف المثلية . كما وعد رئيس الوزراء بابعاد حاكم بوشهر واخلاء منطقة غوريان واستعداده لتوقيع اتفاق تجارى عند وصـــول الســفير البريطانى الجديد الى طهران(٢)، وتبدو هذه التعهدات فى ظاهرها وكأنها موافقة واضحة على المطالب البريطانية الا أن تنفيذها واجه عراقيل كثيرة .. فقد بقيت غوريان فى أيدى الفرس عدة شهور ولم تقدم الحكومة الفارسية اى اعتذار عن الاهانات والاعتداءات التى وجهت للمسئولين البريطانيين . وكان الوضع فى بوشهر لايدعو الى الارتياح فقد حل محل ميرزا اسد الله المسئول عن توجيه الاهانات الى ميللاند وهانيل حاكما جديدا فى شهر يونيو ، وبالتالى فان وعد الحاج ميرزا اغاس بابعاده لم ينفذ . وعلى الرغم من انه كان متوقعا ان يربط، كما كان متوقعا، ابعاد ميرزا اسد الله برغبة الحكومة الفارسية فى الاستجابة لمطالب الحكومة البريطانية حتى ولو تم ذلك بعد ٣ أشهر من

---

(١) نفس الحلقات والمجلد مذكرة بشأن الاجتماع الثانى المعقود بشارع سنا شهوب فى ١٨٣٩/٧/١٣ اعداد جى.بى. فريزر .

(٢) فارس والخليج .

الوعد الا ان الواقع أن الظروف التى احاطت بابعاده لم تكن تتفق اساساً ومضمون الطلب فلم يصدر بيان رسمى عن الأسباب التى دعت الى استدعائه فضلا عن أن يكون السبب هوسلوك ذلك الحاكم معماثيلاند وهانيل فردعلى ذلك انه منح رداء الشرف (حلقة) قبل مغادرته بوشهر . وعلى أى حال فقد اعتاد سكان بوشهر على سرعة ذهاب ومجىء حكامهم . فقد تم تعيين وابعاد مالا يقل عن عشرة حكام ، وتم ابعاد بعضهم باستعمال القوة فيما بين يونيه ١٨٣٨ وديسمبر ١٨٣٩ .

وقد عاد بالمرستون فأثار هذا الموضوع حين بعث برده على خطاب الحاج ميرزا اغاس . وأكد فى خطابه لرئيس وزراء فارس انه مالم يصدر بيان رسمى بأن ابعاد ميرزا اسد الله تم بسبب سلوكه تجاه ماثيلاند وهانيل فان الحكومة البريطانية لن تعدل عن مواقفها من حكومة الشاه ، كما عبر بالمرستون عن عدم ارتياحه من صيغة المرسوم الذى يكفل الحصانة للعاملين فى المفوضية او فيما يتعلق بحادث الصراف . ومن ثم فان بالمرستون كما ذكر سوف ينتظر من المقيم معلومات تؤكد على تلبية الحكومة لتلك المطالب(١) . وفى شهر ابريل أصدر الشاه مرسوما جديدا بمنح حصانة اوسع للعاملين فى المفوضية البريطانية غير ان هانيل قد بعث بتقرير فى شهر مايو ذكر فيه أنه لم يتم حتى ذلك الوقت أى تعديل للموقف فى بوشهر (٢) وربما كان السبب هو

---

(١) مسودات مجلس ادارة شركة الهند الشرقية - من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٢ مسودة الى الحاكم البريطانى العام ١٨٤٠/١/٢١ (رقم ٥٦٠) ومرفق به خطاب بالمرستون الى الحاج ميرزا اغاس فى ١٨٤٠/١/١٨ ومسودة الى المقيم فى الخليج ١٨٤٠/١/٢٢ (رقم ٥٦٠) .

(٢) فارس والخليج مجلد ٦٩ من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٤٠/٥/١٦ .

الأوضاع المضطربة فى اقليم فارس كما أمر الشاه بوقف فرهاد ميرزا كحاكم عام وتعيين حاكم آخر مكانه أكثر انقيادا للشاه ومن غير الأسرة الملكية الحاكمة كما أعاد تثبيت الحكم الوراثى فى بوشهر الى الشيخ ناصر فى منصبه مع منحه لقب دريابيجى « قائد البر الأعلى » (١) وكان من الصعب التكهن فى ذلك الوقت عما اذا كان ذلك الاجراء يقصد به استفزاز الحكومة البريطانية لاسيما وأن الشيخ ناصر كان الرجل المسئول عن التهديدات التى وجهت الى المقيم بالوكالة فى شهر ديسمبر ١٨٣٧ غير أن الشيخ ناصر قد رحب بالحملة البريطانية لدى وصولها الى خرك فى يونيو التالى ، ووضع نفسه تحت تصرف قائدها(٢) ولم يكن دافعه الى ذلك التصرف بريئا لأنه كان قد جرد من منصبه كحاكم لبوشهر خلال مايو ١٨٣٨ لفشله فى دفع الزكاة المقررة عليه الى اقليم شيراز ، وكنتيجة لذلك لجأ الى خرك التى كانت تعتبر اقطاعية خاصة لأسرة الناصرى ، وفى شهر ابريل ١٨٣٩ طرده الكولونيل شيريف قائد القوات البرية للحامية البريطانية فى خرك لاقتناعه بأن وجوده فى الجزيرة كان يشكل خطرا معنويا على نفسيات الجنود البريطانيين . وقد أمضى الشيخ ناصر بقيـة

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٦ مرفق للخطاب السرى رقم ١١١ المؤرخ ٤ أكتوبر ١٨٣٩ من هانيل الى ويلوبى ١٨٣٩/٨/٢٤ (رقم ٦٧ الادارة السرية) ومجلد ٢٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٥ المؤرخ ١٨٤٠/٣/٣١ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤٠/٢/٩ (رقم الادارة السياسية).

(٢) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٠ مرفق للخطاب السرى رقم ١٤ المؤرخ ١٨٣٨/٧/١٤ من هانيل الى السكرتير السياسى لحكومة بومباى ١٨٣٨/٦/٢٠ (رقم الادارة السياسية) .

شهور العـــام فى التودد الى مانوشر خان الذى كان فى ذلك الوقت معتمدا للدولة لاسترداد منصبه السابق فى بوشهر (١) .

وعلى أية حال فان المشكلة الأساسية لم تكن المضايقات الصـغيرة فى بوشهر وانما استمرار الاحتلال الفـــارسى لغوريان وفى شهر نوفمبر بعث بالمرستون بخطـاب شـديد اللهجة الى الحـــاج ميرزا أغاس قـال فيه : ان ما يهم بريطانيا ليس الجلاء عن القلعة وانما الجلاء نفسه ، وحـول بقية النقاط أبدى بالمرستون استعداد حكومته للتساهل وقبول بيـــان رئيس الوزراء بنصه حول ابعاد حاكم بوشــــهر بأنه قد تم نزولا على رغبة الحكومة البريطانية وبأن الحكومة البريطانية مقتنعة بعزم الحكومة الفارسية على توقيع العقوبات على المسئولين عن الاعتداء على صراف الممثلية .

وقد شاء هوب هاوس بأن يضيف فقرة الى خطاب بالمرستون تقول بأن انسحاب بريطانيا من خرك مرتبط بانســحاب القوات الفارسية من غوريان وبأن الحكومة البريطانية لا تمانع فى امهــال الحكومة الفارسية فترة زمنية محددة تعلن بعدها بأن خرك أصبحت جزءا من ممتلكات التاج البريطانى اذا

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١٨ من هاتيـــل الى ويلوبى ١٨٣٩/٤/١٦ (رقم ٢٧ الادارة السرية) ومجـلد ١٦ مرفق للخطـــاب السرى رقم ١١١ المؤرخ ١٨٣٩/١٠/٤ من هانيـل الى ويلوبى المؤرخ ١٨٣٩/٨/٢٤ (رقم ٦٧ الادارة السرية) وللسير ويتشارد برتون راى طريف عن الشيخ ناصر وذلك فى المقالة الختامية من ألف ليلة وليلة .

لم تقم حكومة فارس بخطوات ترضى عنهـا حكومة بريطانيا (١) وكان اوكلاند اول من دعا الى هذا الأمر وقد طرات تغييرات على موقفه منذ ربيع ١٨٣٨ عندما كان مترددا بشأن احتـلال خرك والمزايا التى ستعود على الحكومة البريطانية من وجود قاعدة دائمة لها فى الخليج .

ففى شهر فبراير أعرب اوكلاند عن أمله لبالمرستون فى الا يتخلى عن خرك بسرعة (٢) ثم عاد فى شـهر أغسطس فبعث برسالة الى هوب هاوس يقول له فيهـا : انى أرجوك بأن تتوسل الى بالمرستون بضرورة التفكير فى موضوع خرك ولابد من تحديد فترة زمنية محدودة لحكومة فارس تصـبح بعـدها جزيرة خـرك اذا ما نكثت فارس بعهودها من ممتلكاتنا ، وياحبـذا لو صدر هذا التصريح كى تصبح هذه الجزيرة سنغافورة الخليج (٣) غير ان بالمرستون لم يوافق على اصـدار التصريح المذكور فى تلك الظروف وعلى الأخص بسبب تحفز روسيا لمراقبة ما يجرى بين بريطانيا وفارس ، وحاجة انجلترا اليها فى الوقوف فى وجه أطماع محمد على باشا . وقد صـحت تنبؤات بالمرستون ففى شهر مارس ١٨٤١ سلم الشـاه بالمطالب البريطانية

---

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٣ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٠/١١/٣٠ (رقم ٦٨٤) ومرفق به خطاب بالمرستون الى الحاج ميرزا أغاس ١٨٤٠/١١/٢٤ .

(٢) خطاب من اوكلاند الى بالمرستون كلكتا ١٨٤٠/٢/١٦ .

(٣) متفرقات حكومة الوطن مجلد ٨٤٢ من اوكلاند الى هـوب هاوس كلكتا فى ١٨٤٠/٨/١٥ .

وتم جـــلاء القوات الفارسية عن غوريان وسلمت المنطقة الى حاكم الحيرة وحضر مراسيم التسليم مندوب عن المفوضية البريطانية فى طهران .

وعـلى الرغم من علم اوكلاند بأن عـودة خـرك الى فـارس مشروطة بانسحاب قوات فارس من غوريان فقد واصل ضغوطه على هوب هـاوس للاحتفاظ بها بشكل او آخر (١) وكان هوب هاوس نفسه شبه مقتنع بوجهـة نظر اوكلاند فى هذه المسألة ، وذلك لارتباطها بموضوع اقامة قاعدة دائمة فى الخليج . غير ان هـوب هاوس كان يبحث عن منطقة بديلة لخـرك لو أمكن العثور عليها . وفى الوقت الذى كان هوب هاوس يذكر عدم تحبيذ هانيـل لفيلكه فى ١٨٣٩ فقد كتب اليه يستفسر عمـا اذا كانت الكويت نفسـها تصلح كقاعدة (٢) . وقد زار هانيل الكويت فى شـهر ابريل فى مستهل جولته السنوية واقتنع بأنها هى الأخرى لا تصلح لهذا الغرض ، ووجد أنه بالرغم من صلاحية الميـناء الا أن البلدة وحدها غير صحية المناخ وميـاه الشرب فيها رديئة ، كما كان هانيل مقتنعا بأن الحاكم الكويتى الشيخ جابر سوف يعترض على تحويل الكويت الى قاعدة كما ان هانيل نفسه كان يعارض اقامة قاعدة فوق الجزء الأساسى من شبه الجزيرة العربية لاستحالة الدفاع

---

(١) نفس الحلقات مجـلد ٨٤٣ من اوكلاند الى هـوب هاوس فى ١/٢٣ ، ١٨٤١/٢/١٤ .. قد لا تكون المبادلة عملية خاسرة ولو انى سأشعر بالأسف لو اننـا خسرنا مركزنا الذى نتمتع فيه بالاستقلال والاستقرار فى الخليج .

(٢) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٤ مسودة الى المقيم فى الخليج ـ بتاريخ ١٨٤١/٢/٢٢ (رقم ٧٠٩) .

عنها بالأسلحة البحرية وحدها(١)، وقد عاد المقيم فأكد صلاحية خرك كقاعدة، وفى شهر اغسطس ١٨٤١ اقترح هوب هاوس على بالمرستون الاستفسار من الشاه عما اذا كان على استعداد لبيع خرك لبريطانيا ، غير أن اثارة هذا الموضوع مع الشاه في ذلك الوقت كان تصرفا خطيرا . وكان السير جون ماكنيل فى طريق عودته الى فارس فى ذلك الوقت يحمل تعليمات بانسحاب الحامية البريطانية من خرك فور التصديق على الاتفاق التجارى الذى كان من المتوقع ابرامه فى ذلك الوقت مع الشاه . ولو ان هانيل عرض على الشاه طلب شراء الجزيرة فى ذلك الوقت لكان قد فسر بأنه محاولة للتملص من الالتزام البريطانى بالانسحاب . والانكى من ذلك هو أن يحاول الروس استغلال استمرار الاحتلال البريطانى لخرك للحصول على امتيازات اقليمية من الشاه فى شمال فارس . وكانت فارس لا تزال مدينة لروسيا بجزء من التعويضات التى فرضتها عليها فى عام ١٨٢٨ ، وبالتالى فقد كانت روسيا تفضل الحصول على مناطق اقليمية فى جيلان مقابل التعويضات . وكان أقصى ما تطمع فيه بريطانيا كما ذكر بالمرستون لهوب هاوس هو أن تسمح حكومة فارس ببناء المثلية البريطانية فى خرك وقتما ترغب بريطانيا فى ذلك كما كان من المحتمل أن يوافق الفرس على اقامة مستودع للفحم هناك لتموين السفن التى ترتاد منطقتى دجلة والفرات ، غير أن الجزيرة سوف

---

(١) فارس والخليج مجلد ٧٢ من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٤١/٤/٢٤ (رقم ٩ الادارة السرية) كما زار هانيل جزيرتى هنجام وديرستان بجزيرة قشم ولكنه وجدهما لا تصلحان لتكونا قاعدتين عسكريتين .

تبقى من الناحية الاسمية تابعة لفارس . وقد وافق هوب هاوس على ذلك الحل الوسط وكلف ماكنيل فى أواخر شهر اغسطس ببذل قصارى جهده للحصول على موافقة الشاه على تلك المطالب (١) .

ولما كان اوكلاند يجهل ما استجد من تطورات على الوضـــع فقد بادر بارسال أوامر الى ماكنيـــل فى شهر أغسطس بارجاء عملية الانســـحاب من خرك الا اذا قدم الشاه تعهدا قاطعا بالتخلى عن أطماعه فى أفغانستان كما أوضح اوكلاند لبالمرستون بأنه سوف يكون مسئولا عن أى تغيير فى التعليمات الأصلية التى وصـــلته من بالمرستون ، وفى الوقت نفســـه بعث أوكلاند بتعليمات الى هانيل بعـــدم سحب القوات من خرك ريثمـا تصله تعليمات جديدة من الهند بهذا الشأن (٢) ويعود السبب فى هذا الاجراء الذى اتخذه اوكلاند الى تدهور وضع الحامية البريطانية فى أفغانستان . وكان أوكلاند يرمى الى الحصول على تعهد من الشاه بوقف تدخلاته فى أفغانستان قبـــل ان يزداد الوضع ســـوءا هناك ، غير أن هـــذه التعليمات وصلت للأسف متأخرة الى ماكنيل . وصل المبعوث البريطـــانى الى طهران يوم ١١ أكتوبر فوجد الشاه فى انتظاره لتوقيع الاتفاق التجارى ولم يشأ المبعوث أن تضيع

---

(١) من هانيل الى اللجنة السرية ١٨٤١/٥/١٩ رقم ١١ الادارة السرية .

(٢) مرفقـــات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجـــلد ٣٩ ومرفق للخطاب السرى رقم ٢٠٧ المؤرخ ١٨٤١/١٢/٣١ من ماكنيل الى السكرتير الأول لحكومة بومباى ١٨٤١/١٠/٣٠ ومسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٥ مسودة الى الحاكم العام ١٨٣١/١٢/٣٠ (رقم ٨٠٤) ومرفق معها خطاب ماكنيل الى بالمرستون ١٨٤١/١١/١ .

منه هذه الفرصة ، وهكذا وقع الاتفاق يوم ٢٨ أكتوبر وتم التصديق عليه فى نفس اليوم . ونص الاتفاق على حرية التبادل التجارى بين رجال الأعمال البريطانيين والفرس . وحرية تنقلاتهم فى أراضى كل من الدولتين المتعاقدتين ، كما نص الاتفاق على حق القناصل البريطانيين فى الاقامة فى تبريز مع أن هذا يعتبر أقل من الامتيازات التى حصلت عليها روسيا بمقتضى معاهدة تركمنشاه كما سمح للمقيم البريطانى بموجب الاتفاق البقاء فى مقره فى بوشهر (١) .

كما كلف ماكنيل بالحصول على تعهد خطى من حكومة الشاه بعدم معاقبة أهالى خرك على تعاونهم مع القوات البريطانية أثناء احتلالها للجزيرة . وقد حصل ماكنيل على التعهد المذكور فى نفس اليوم الذى تم فيه التوقيع على الاتفاق البريطانى الفارسى . ولم يعد أمام المبعوث البريطانى بعد كل ذلك الا أن يطلب من قائد الحامية البريطانية فى خرك الانسحاب منها فورا وتسليم شئون الادارة لمندوب حكومة فارس . وقد بعث ماكنيل بهذه الأوامر الى قائد الحامية يوم ٢٨ أكتوبر وطلب اليه ابلاغ الممثل المنتدب من الحكومة الفارسية عند تسليم الجزيرة بعزم الحكومة البريطانية الاحتفاظ بمستودعات الفحم فيها لتموين السفن البريطانية العاملة فى مياه دجلة والفرات تحت اشراف مسئول بريطانى وذلك كما سبق لماكنيل ان ابلغ وزير

---

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة بومباى مجلد ١٦ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٢/١/٢٩ (رقم ٨١٦) . ومرفق بها خطاب من ابردين الى ماكنيل ١٨٤٢/١/٢٢ .

خارجية فارس بذلك (١) غير ان تعليمات اوكلاند وصلت متأخرة الى ماكنيل، كما لم توافق الحكومة فى لندن عليهـــا ، فقد سقطت حكومة ملبورن ولم يرغب اللورد أبردين الذى خلفه فى وزارة الخارجية فى تعكير صـــفو العلاقات مع حكومة الشـــاه أو أن يسىء الى مركز الحكومة البريطانية عن طريق تمسكه بخرك (٢) . وحتى يتفـــادى أبردين تردد اوكلاند فى تنفيذ الانسحاب من القاعدة فقد بادر الى ارسال تعليمات الى بومباى فى نهـــاية شهر يناير ١٨٤٢ لتنفيذ عملية الانسحاب فورا (٣) .

والواقع أن قلق أبردين من هذه الناحية لم يكن له ما يبرره . فعندما علم اوكلاند بأن الأوامر التى أصـــدرها الى ماكنيل لم تصل اليه بادر فى الأسبوع الثالث من ديسمبر الى ارسال تعليمات أخرى الى بومباى بوجوب تنفيذ الانسحاب (٤) .

---

(١) مسودة الى حاكم بومباى ١٨٤٢/١/٢٩ (رقم ٨١٨) .

(٢) مرفقات للرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٣٩ مرفق للخطاب السرى رقم ١٠٧ فى ١٨٤١/١٢/٣١ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/١٢/١٨ من مادوك الى ويلوبى ١٨٤١/١٢/١٨ (١٨٤٧ الادارة السرية) .

(٣) مرفق للخطاب السرى رقم ٤٢ المؤرخ ١٨٤٢/٤/٣٠ من الكولونيل ج . ج دى روبرتسون (المقيم بالوكالة) الى ويلوبى ١٨٤٢/٣/٢٦ (رقم ١٨ الادارة السرية) .

(٤) مرفق للخطاب السرى رقم ٨٢ المؤرخ ١٨٤٢/٧/١٨ من روبرتسون الى ريد ١٨ مايو ١٨٤٢ (رقم ٨١ الادارة السرية) .

غادر الجـــانب الأكبر من القوات البريطانية خرك فى نهاية شــــهر فبراير ، وقد استكملت عملية الانسحاب من الجزيرة يوم ٢٦ مارس . وقد أثارت السرعة التى تم بهـا سحب القوات البريطانية دهشة الفرس · ولم يتسلم المسئول الفارسىالمنتدب عهدة الجزيرة قبل شـــهر مايو · وقد بعث سحب القوات الارتياح فى نفس ابردين · فقد كان على غرار سلفه بالمرستون يخشى أن يؤدى استمرار احتلال بريطانيا للجزيرة الى تشجيع الروس على احتلال مناطق ساحلية أخرى من فارس على بحر قزوين · كما كان لابد من وضع معارضة الشاه للاحتلال موضع الاعتبار . ولم يكن واضحا ما اذا كانت معارضته للاحتلال البريطانى لجزيرة خرك ناشئة عن الخوف من وجـــود قاعدة أجنبية بالقرب من شواطئه ام من احتمـــال اضطراره الى اعطـــاء الروس امتيازات مماثلة فى شمال البلاد (١) غير أن استياءه من الوجـــود البريطانى فى خرك لم يكن يقل خطورة عن خنق جده قبل عشرين عاما نتيجة لوجود قاعدة لبريطانيا فى جزيرة قشم . واستمر موقف الشـــاه الودى تجـــاه البريطانيين نحو اربعة أشهر ، اى حتى وقت وقوع مذبحة البعثة البريطانية فى كابول ، وتقهقر الجيش البريطانى الى حدود داخل الهند فى

---

(١) مسودات مجلس الادارة التقـــارير السرية الى الهند مجلد ١٦ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٢/٢/٢٥ (رقم ٨٢٢) ومجلد ١٧ مسودة الى المقيم فى الخليج ١٨٤٢/١١/٢ — (رقم ٨٩٦) وكان هانيـــل فى الاجازة عندما تقرر اعادة المثلية فوجدها فى حالة غير صالحة ولذلك فقد عاد الى خرك الى ان تم تجديدها (انظــر فارس والخليج مجـــلد ٧٦ من شبـــيل الى ابردين ١٨٤٢/٨/١٠ (رقم ٤١) ·

شتاء ١٨٤١ — ١٨٤٢ ، وقد انقلب موقف الشاه الى العداء ، حتى أن ابردين قد اضطر منعا للمزيد من تدهور العلاقات الى معارضة الاقتراحات التى وصلت اليه من الهند بابقاء المثلية فى خرك بصورة دائمة كما عارض انتقال المقيم الى خرك فى شهور الصيف (١) • وما أن نجحت الحكومة البريطانية فى تحسين العلاقات بينها وبين الشاه حتى شرع الأخير فى حملة لاغلاق مستودع الوقود فى جزيرة خرك بعد أن سبق ووافق على بقائه هناك • وقد تصاعدت حملة الاحتجاجات من جانب الشاه وحكومته بالنسبة الى هذا الموضوع ضد الحكومة البريطانية ، وربما يرجع السبب فى ذلك على حد رأى جوستين رشيل القائم بالأعمال البريطانى فى طهران الى خوفه من قيام الروس بانشاء مستودع مماثل لهم بالقرب من أستراباد ، بحيث اضطر وزير الخارجية البريطانى فى شهر مارس ١٨٤٤ الى تكليف حكومة الهند بالنظر فى هذا الأمر واتخاذ التدابير اللازمة لاغلاق المستودع بأسرع وقت •

وضعت الخلافات الكثيرة التى نشأت بسبب بوشهر نهاية مؤسفة للعلاقات الودية مع فارس • ولم يحصل ميثلاند او هانيل على رد الاعتبار عن الاهانات التى تعرض لها فى شهر مارس ١٨٣٩ ، وقد توفى ميثلاند فى البحرين فى شهر نوفمبر من ذلك العام بينما كان فى طريقه الى بحر الصين، كما كان هانيل فى اجازة عندما أعيد فتح المثلية البريطانية فى بوشهر فى شهر مايو ١٨٤٢ ، كما لم تقم حكومة فارس من جانبها بأية خطوة بشأن

---

(١) فارس والخليج مجلد ٧٩ من شيل الى ابردين ١٢/١/١٨٤٤ للاطلاع على الرسائل المتبادلة حول هذا الموضوع انظر نفس الحلقات مجلد ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ومسودات مجلس الادارة مجلد ١٧ ، ١٨ •

اصدار بيان للسكان فى بوشهر ٠ يؤكد ان فصل ميرزا اسد الله من منصبه قد تم بسبب مسلكه تجاه ممثلى الحكومة البريطانية ، فقد اغتنم المسئولون الفرس فى بوشهر وشيراز كل فرصة لخلق المتاعب للمقيم بعد عودته الى الى المدينة . فقد منع من قضاء شهور الصيف خارج بوشهر كما حظر على المثلين الانتقال بعد غروب الشمس ، كما احيطت المثلية بأســـوار وتمت محاولة أخرى لمنع المسئولين البريطانيين من استخدام رصيف المثلية خلال انتقالهم من السفن الى المدينة والعكس بالعكس (١) ٠

ولم تقدم الحكومة الفارسية اى دليل على تحسين موقفهـــا ومسلكها تجاه الحكومة البريطانية وخاصة فيما يتعلق بالاعتداء على صراف المثلية كما أنها لم تدفع له أى تعويض عن الاضرار التى تحملها ، كما لم تقم الحكومة الفارسية بالقبض على الجناة أو معاقبتهم ٠ والأسوأ من كل هذا هو موقف حكومة الهند من قضية الصراف رغم الحاح بالمرستون فى سنة ١٨٣٩ على تعويضه ٠ فقد اقترح الكولونيل ا ٠ ج . دى ربرتسون المقيم بالوكالة فى ١٨٤٢ دفع تعويض للصراف عن الأضرار والخسائر التى تعرض لها بعـــد ان فقد الأمل فى الحصول على تعويض من السلطات الفارسية ٠ هذا وعلى

---

(١) للاطلاع على الرسائل المتبادلة حول هـــذا الحادث انظـــر (فارس والخليج) مجلد ٨٠ وعلى الأخص تقارير شيل بتاريخ ٨ ، ١٥ ، ١٨٤٤/١٢/١٨ (رقم ١١ ، ١٢١ ، ١٢٩) انظر ايضا نفس الحلقات مجلد ٨١ وعلى الاخص خطاب شيل الى ابردين المؤرخ ١٨٤٥/٦/١٧ (رقم ٦٥) ومسودات مجلس الادارة مجـــلد ١٨ وعلى الأخص مسـودة الى الحـــاكم العام بتاريـــخ ١٣ ، ١٨٤٥/١٠/١٦ (رقم ١١٢٣ ، ١١٢٥) ٠

الرغم من ترحيب حكومة بومبـــاى بالاقتراح الا أن حكومة كلكتا لم توافق عليه . وكان المبلغ المطلوب هو ٢٠ جنيها فقط (١) ومثل آخر على ســوء مسلك حكومة فارس هو ما حدث لسكان جزيرة خرك ، فعلى الرغم من أن الشاه قد أصدر مرسوما (فرمان) الى أمير شيراز فى شهر نوفمبر ١٨٤١ طالبه فيه بعدم الاساءة أو الانتقـــام من سكان جزيرة خرك المتعاونين مع السلطات البريطانية فقد ارسل أمير شيراز قوة من ٢٠٠ جندى فى شـــهر سبتمبر ١٨٤٣ لاحتلال الجزيرة ، غير أن حجم هذه القوة بالمقارنة الى عــدد سكان الجزيرة الذى لا يتعدى ٣٠٠ نسمة انما يدل على أن أمير شيراز يبيت أمرا ، وما ان علم ســـكان خرك بوصول القوة الفارسية الى الجزيرة حتى خرجوا منها بالجملة ولجأوا الى الكويت ولم يعودوا الى مواطنهم الا بعد أن وجه هانيل تحذيرا الى المسئولين الفرس من أن الحـكومة البريطانية لن تسمح بأى حال من الأحوال بالحاق أى ضرر بسكان الجزيرة (٢) .

لم تشعر الحكومة البريطانية بالارتياح من نتيجة التسوية الشاملة مع حكومة فارس ، صحيح أن الاتفاق التجارى الذى كانت تطالب به قد وقع ، كما صدر مرسوم بمنح الحصانة للعاملين فى المفوضية البريطانية ، وقدمت الحكومة الفارسية اعتذارا رسميا عن الهجوم على ساعى المفوضية ، غير أن

---

(١) مسودات مجلس الادارة من التقارير السرية الى حكومة الهند مجلد ١٨ مسودة الى الحـاكم العام ١٨٤٤/٣/١٩ (رقم ٩٨٣) ومرفق به خطاب ابردين الى الاميرال يربون (رئيس مجلس الهند) .

(٢) من شيل الى ابردين ١٨٤٣/١٠/٢٧ (رقم ٨٥) ومجلد ٧٩ من شيل الى ابردين ١٨٤٤/٤/١٨ (رقم ٤٣) .

جذور الخلاف بين الدولتين لم تحسم كما لم يتخل الشاه عن أطمـــاعه فى اقليم الحيرة . وقد حاول اوكلاند عبثا اقناع الشاه بالكف عن التدخـل فى أفغانستان لأن الحكومة البريطـــانية لم تؤيده فى تلك الخطوة . ولم تتضح الأسباب التى منعت بالمرستون من الاصرار على الحصول على تعهد رسمى من الشاه حول هذه النقطة . ولعل خوفه من الروس فى آســيا قد خف كنتيجة للخــلافات التى دبت بين القيصر ومحمد على باشا . وعلى الأخص انتهاء العمل بمعاهدة هنيكار اسكليس والعودة الى العمل بالنظـام القديم بالنسبة للمضايق التركية بمقتضى معاهدة يوليو ١٨٤١ ، وبالتــالى فلا يصح أن ننظر الى تعليمات بالمرستون الى ماكنيل فى ذلك الشهر من زاوية تناقض شكوك بالمرستون فى نوايا الروس فى آســـيا من ناحية أو كتغيير عن اعتقاده بأهمية التوصل الى تسوية ما مع حكومة فارس لأن بقاء الوضع على ما هو عليه قد يدفع الروس فى استغلال توتر العلاقات الانجلو — فارسية لتوسيع قاعدة نفوذهم فى فارس . فاذا كان الاحتمال الثانى هو الاحتمال الأصــح فان قرار بالمرستون بالنظر الى الانتكاسة العســـكرية البريطانية فى أفغانستان والتى جاءت بعد التســـوية مباشرة يعتبر قرارا حكيما ، غير ان هذا القرار أبقى على مشكلة الحيرة بدون حل وتطلب الأمر حروبا طويلة مع فارس قبل ان تحل هذه المشكلة .

وعلى الجانب الآخر من الخليج كان التهديد الذى تمثله الحملة المصرية على المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة فيما بين عامى ١٨٣٧ ، ١٨٤٠ فى الرؤية البريطانية أقل خطرا من هجوم الشــاه على اقليم الحيرة لا لخلو الأول من التورط الروسى فحسب وانما من حيث حجم ذلك الخطر

أيضا ، رغم انه كان مصدر احراج للحكومة البريطانية . أما جيش خورشيد باشا فلم يكن يزيد عن ٤٠٠٠ مقاتل فى أى وقت من الأوقات بما فى ذلك الجنود البدو غير النظاميين ، كما أن اختيار خورشيد باشا « السليمية » كمقر عام لهذا الجيش ثم اتخاذ الثرمدة مقرا له فيما بعد انما يدل على ان خورشيد باشا لم يكن ينوى التوغل بجيشه الى ما وراء الحدود التى استقر بها خلال ربيع ١٨٣٩ ، أما حملة سعد بن مطلق وتهديده للبريمى فقد كانت تنطلق من دوافع شخصية وليس بتحريض من خورشيد باشا الذى كان على ما يبدو يطمع فى احتلال سلطنة عمان .

والسؤال الآن عن الأسباب الحقيقية التى دفعت محمد على باشا الى شبه الجزيرة العربية . من المؤكد أن تلك الدوافع لم تكن مجرد احتلاله لنجد أو الاستيلاء على البحرين رغم ما كان لثروتها من جاذبية وسحر . كما لا يبدو بأن نية محمد على باشا كانت هى الوصول الى المشارف الجنوبية للعراق فى ذلك الوقت الذى كان اهتمام السلطان العثمانى والدول الأوربية مركزا فى الدرجة الأولى على نفوذه ونشاطه فى الشام . لقد كانت حملة محمد على باشا تسير بصورة بطيئة حيث بدأت عام ١٨٣٧ وانتهت فى الأشهر الأولى من سنة ١٨٣٩ حيث كان محمد على باشا يتخذ من الأمير خالد ستارا لاخفاء أهدافه الحقيقية من حملته ، وأصبح هذا الأمير يمثل دور التابع للسيطرة المصرية . ومن سوء حظ محمد على أن يتوافق ظهور الجيش المصرى على الضفاف العربية للخليج مع انفجار الصراع البريطانى الفارسى على ضفافه الشرقية مما جعله يحدث أصداء أكثر مما كان متوقعا له .

واذا نظرنا الى تهديد خورشيد باشا من زاويته الفعلية وتردد خورشيد فى ان يواجه الموقف بسرعة وفعالية فان موقفه هذا لايعتبر

موقفا شاذا . وعندما نتذكر بأن حكومة بومباى وبالمرستون وهوب هاوس وأخيرا أوكلاند الى حد ما قد احسوا بخطر ذلك التهديد فان تردد خورشيد باشا كان نابعـــا من ضعفه . وحتى اذا لم نضع فى الاعتبـــار الالتزامات الكثيرة والنقص فى الامكانيات العسكرية والبحرية لحـكومة الهند فى ذلك الوقت فلقد كان فى امكان اوكلاند أن يتخذ اجراءات أكثر مما اتخذه .

وعلى أى حـــال فان عجز حكومة بومبـــاى الواضح فى المجـــابهة مع المصريين وذلك باستعراض القوة البريطانية المســـلحة فى المنطقة أدى الى تشجيع القبائل الساحلية على تحدى قوة بريطانيا . واذا كان هؤلاء الحكام قد غيروا من مواقفهم هـــذه فيما بعد فان ذلك يرجـــع الى جهود حكومة بومباى والضباط السياسيين والبريطانيين فى منطقة الخليج . وبنوع خاص الى جهود رجل واحد هو صمويل هانيـــــل المقيم البريطانى فى الخليج فى تلك الفترة .

الفصل التاسع

نظـام الصلح

١٨٣٥ - ١٨٥٣

في ليل ٢٥ نوفمبر عام ١٨٣٤ انتهز حمود بن عزان والي صحار ، فرصة غياب السيد سعيد عن البلاد ، وقام باحتلال بلده السويق على ساحل الباطنة ، وبعد ان اجتاحها عاد فانسحب الى المنطقة الداخلية من البلاد ، وقد قام كل من هلال أكبر أنجال السيد سعيد ومحمد بن سالم ابن أخيه اللذين عينهما السيد سعيد نائبين عنه بالرد على اجراء حمود بن عزان بارسال عدد من السفن الى ساحل السويق كما طلبا مساعدة كل من سلطان بن صقر شيخ القواسم وخليفة بن شخبوط شيخ بني ياس وزعيم النعيم ضد حمود بن عزان . وقد رأى سلطان بن صقر في ازمة آل بوسعيد ضالته المنشودة لتحقيق مكاسب اقليمية من وراء ذلك . وهكذا أبحرت خمسون سفينة شراعية على الفور من الشارقة ورأس الخيمة وغيرها من موانيء القواسم على خليج عمان ، بينما انطلقت قوة من القواسم للاستيلاء على خور فكان ، وكان ملجأ للسفن على ساحل الشميلية ، كما كان يستخدمه القواسم كقاعدة للانقضاض على السفن التي ترتاد مضيق هرمز . كما تحركت بطلب من نائبي السيد سعيد احدى سفن بني ياس وكانت ترسو في ميناء مسقط ، وأبحرت الى ساحل صحار للاستيلاء على أي سفينة تصادفها في مياه تلك المنطقة وبعد ذلك بوقت قصير قام بنو ياس بنهب سفينتين تابعتين لشيخ جزيرة قشم .

واصبح من الواضح جدا ان النائبين قد فتحا البلاد لموجة من الاضطرابات والفوضى لم يعد فى وسعهما السيطرة عليها . وكان الاحتمال ضعيفا ، أن يلتزم شيوخ القرصنة بالتمييز بين السفن الصديقة وغير الصديقة ، كما كان من الصعب على النائبين التدخل فى هذا الأمر خوفا من انحياز بنى ياس الى معسكر حمود بن عزان ٠

لقد كان هذا رأى الكابتن هانيل المقيم المساعد الذى عهد اليه بالاشراف على شئون المثلية بعد رجوع بلين الى الهند فى الصيف ، وقد وجه هانيل تحذيرا الى كل من سلطان بن صقر والشيخ شخبوط فى أوائل شهر يناير ١٨٥٢ ، بأن السلطات البريطانية تراقب تحركاتهما مراقبة دقيقة ٠ غير ان هذا التحذير وصل متأخرا جدا الى شيخ ابوظبى ٠

إن السهولة التى تمكنت بها سفينة بنى ياس من الاستيلاء على بعض الغنائم من السفن التى اعترضتها على ساحل صحار ، ثم اندلاع القتال فى عمان من اقصاها الى اقصاها قد هيأ الفرصة لخليفة بن شخبوط من تحسين أوضاع بلاده الاقتصادية ٠ وفى أوائل شهر فبراير قرر شيخ بنى ياس اطلاق أسطوله الحربى للعبث بالملاحة التجارية فى الخليج ٠ وقد اتخذ هذا الأسطول منطقة القوين على مدخل الخليج قاعدة لنشاطه ، ومن هذه القاعدة اخذ يستولى على كل سفينة غصبا ، ويقوم بنهب محتوياتها من السلع ، ويقوم فى أغلب الأحيان ببتر أعناق بحارتها بحد السيف ٠ وحتى شهر فبراير ومنتصف شهر ابريل وقعت فى أيدى أسطول بنى ياس ما لا يقل عن ١٧ سفينة ، وقاموا بالاستيلاء عليها ونهبها وأرسالها الى أبو ظبى ٠ وكانت أغلب السفن المنهوبة تنتمى الى الموانى الفارسية عدا اثنتين منها فقد كانتا ترفعان العلم البريطانى . وقد قام بنو ياس بقطع

رقاب عدد غفير من بحارة السفينة « ذريا ذولت » التابعة لبومباى كما مزقوا شعارها .

في ذلك الوقت لم يكن يوجد الا طراد واحد من طرادات أسطول الخليج بالقرب من تلك المنطقة . وقد صدرت الأوامر الى ذلك الطراد بالابحار فور وصول الأخبار عما يرتكبه أسطول القراصنة . وقد قام قائد أسطول الخليج بعمليات مسح شاملة فى منطقة الخليج الأسفل من هنجام الى أبو ظبى ولكنه لم يعثر على أسطول القراصنة . اما الطراد الفنستون أحد السفن التابعة للأسطول فقد كان فى ذلك الوقت فى شط العرب . وقد أصدر هانيل أوامره الى قائد الطراد للتوجه الى بوشهر فى الأسبوع الأخير من مارس ، كما سافر بنفسه على ظهر ذلك الطراد متوجها الى قاعدة الأسطول فى باسيدو يوم ٦ أبريل . وعند وصول هانيل الى القاعدة علم بأن القراصنة بعد انتصاراتهم الأخيرة التى حققوها قد بعثوا برسول الى باسيدو ، يتحدون فيه قائد الأسطول بالخروج الى البحر لمبارزتهم . وقد كلف هانيل جون سوبر قائد الطراد الفنستون بقبول التحدى ، بينما استقل هو السفينة الحربية امهرست وهاجم بها أبو ظبى .

في نهار يوم ١٦ أبريل التقى الطراد الفنستون بأسطول بنى ياس المؤلف من أربع سفن مختلفة الحجم ، وكان هذا الأسطول يقطر السفينة الفارسية التى استولى عليها . وفيما يلى وصف لأحداث الاصطدام الذى وقع بين الطراد وأسطول القراصنة على لسان سوبر نفسه : —

« ومدوا أيديهم مسرعين فى المجىء نحونا ، وفى الساعة السادسة صباحا أرغمناهم على ان ينحنوا قليلا بالسفينة واصبحنا فى موقع

التحكم منهم ، واخذنا نستعد للدخول في معركة معهم ، وفي الساعة السابعة اطلقنا مدافعنا ورفعنا اعلامنا ، ولاحظنا أثنـاء ذلك أن السفينة الامامية من سفن القراصنة مكتظة بالرجال وكانوا يقطرون سفينة أخرى، وقد اطلقت طلقة ثم رفعت علما أحمر ثم أغطست العلم ثلاث مرات في الماء كعلامة على التحدي فاطلقنا طلقة لكنها لم تصب الهدف وقد ردت السفينة الكبيرة على الفور ولكن قذائفها سقطت في منتصف الهدف ، ثم انزلوا اعلامهم كما انزلت احدى السفن اشرعتها ، وتقدمت نحونا ربما بهدف لفت انتباهنا ، وعندما امعنا النظر فيها وجدناها مكتظة بالناس واقتنعنا عند ذلك بأن تلك السفن ما هي الا أسطول للقراصنة التابع لابو ظبي ، كما أكد لنا ذلك القبطان الغربي ، وعند اقتراب تلك السفينة منا تعرفنا عليها ، وقد تأكد لنا ان السفينة تقل الشيخ سلطان بن شخبوط وعندما تبين لهم باننا اقوى منهم قاموا بفك السفينة المقطورة ونكسوا اشرعتهم واقتربوا منا الى حد مرمى المسدس دليلا على استعدادهم للمعركة . وقد تحركنا حتى كنا في وسطهم ونجحنا في تلك الحركة دون أن تحتك سفننا بسفنهم بحيث أصبحت سفينة الشيخ في الجانب الأيمن والمقطورة على الجانب الأيسر ، وإثناء مرورنا فيما بينهم وجهنا عليهم نيران مدافعنا لدرجة أن مدافعنا كادت أن تلامسهم . وقد اخذ بحارة سفينة الشيخ يصيحون فينا « الله اكبر ، انهم الكفار » وقد شوهد بعضهم يحاول ان يرمي برماحهم نحونا ، غير أننا اطلقنا عليهم النار ، وإذا بنحو ٩٠ أو ١٠٠ رجل يهجمون برماحهم الطويلة علينا بهدف الصعود الى سفينتنا ، غير انهم فشلوا أمام سيل القذائف التي إطلقناها عليهم . وكان في السفينة ما لا يقل عن مائة رجل وكانوا يمثلون خطرا علينا برماحهم ، كما تعرضت سفينتهم لأضرار بالغة إذ كانت قطع الخشب تتناثر منها في كل الاتجاهات ، وعند مرورهم قفز نحو ٩٠ رجلا من السفينة المقطورة والتقطتهم سفينة الشيخ شخبوط

التى كانت قد رفعت اشرعتها واستقرت فى الناحية الشمالية منـــا ، وكانت تصحبها احـــدى السفن من طراز الباتل ثم افترقت عنهـا ، ثم حاولنا الالتفاف عليها ولكنها انطلقت بسرعة وقد حاولنا استخدام مدفع المقدمة فى محاولة لأحداث خلل بها ولكننا لم ننجح لأن القذيفة لم تصبها، ثم قامت السفن الأخرى بتغيير اتجاهها نحو السفينة المهجورة وجردوها من اشرعتها وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى ووقفوا فى الجنوب الغربى. وفى الساعة التاسعة شاهدنا السفينة المطاردة تنقل بعض الأشياء الى ظهرها ولكننا لم نتمكن من معرفة تلك الأشياء وقد واصلنا مطاردتها حتى الغروب حيث تمكنت من تغيير وجهتها نحو الشرق على بعد عدة اميـــال منا وبعد أن حل الظلام تخلينا عن فكرة المطاردة واتجهنا الى الجنوب على امل أن نلتقى معها فى النهار ».

وعلى الرغم من أن الربان سوبر لم يفلح فى الاشتباك مرة أخرى مع اسطول القراصنة فى اليوم التـالى ، فان العملية التى جرت فى منطقة ذى جريت تومب قد قصمت ظهر قبائل بنى ياس . كما كانت تلك العملية هى الاشتباك الأخير التى يشترك فيه أسطول الخليج ضد قبائل الساحل الغربى .

وقد وصل الكابتن هانيـــل الى أبو ظبى على ظهر السفينة امهرست يوم ١٩ ابريل . وبعد بضع ساعات من وصوله واجتماعه بالشيخ خليفه وافق الأخير ، وبعد نقاش حاد مع المقيم المساعد ، على استدعاء السفن المشتركة فى العملية ، واعادة الســفن التى تم الاستيلاء عليها مع بحارتهـــا ودفع تعويضات عن السلع التى تم الاستيلاء عليها وبعدها سافر هانيـــل الى باسيدو لانتظاره تنفيذ خليفة لوعوده . وطوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة

من شهر مايو رابطت ثلاثة طـرادات فى مياه أبو ظبى للتـأكد من تنفيذ الاتفاق . وقبل نهاية الشـهر كان بنو ياس قد نفذوا وعدهم ، فأعيدت السفن المغتصبة وبحارتها ، وقاموا بدفع تعويضات رمزية عن السـلع والبحارة المقتولين مقدارها ٢٥٫٠٠٠ ريال نمسوى (نحو ٥٠٠٠ ج س) كما تم تسـليم ربانى السفينتين اللتين قامتا بالاعتداء على دريا دولت وغيرها من السـفن التى كانت ترفع العـلم البريطانى الى السـلطات البريطانية . وقد جرت محاكمة الربابنة فى بومباى بتهمة اقتراف اعمال القرصـنة . وكان أحد الربابنة وهو محمد بن صـقر بن دياب من أفـراد أسرة آل بوفلاح الحاكمة فى أبوظبى .وربان السفينة ممباسة التى قامت بالهجوم على السفينة البريطانية الفنستون . أما التهمة الموجهة الى الربان الثانى وهو محمد بن ماجد أحد المنشقين عن القواسم ، فلم تثبت التهمة عليه لعدم توفر الادلة ، وبالتالى فقد أعيد الى منطقة الخليج ليقوم زعيم قبيلته بتوقيع العقوبة عليه .

امضى هانيل فترة الانتظار فى قاعدة باسيدو يفكر فى الكيفية التى يمكن بها منع تلك الحوادث فى المستقبل . ولا جدال فى أن الأسـباب الاقتصادية ووليدة الحرب الطويلة بين قبائل بنى ياس والقواسم هى التى دفعت قبائل بنى ياس الى ممارسة القرصنة . ثم ان افتقادهم لمصـايد اللؤلؤ فى عام ١٨٣٤ كان القشة التى قصمت ظهر البعير . ان اقتصـاد القبائل الساحلية كان يعتمد فى المقـام الأول على مواسم صيد اللؤلؤ السنوية وعلى الرحلات التجارية البحرية الى البصرة وبومباى وزنجبـار والبحر الأحمر . واذا ما توقف هذا النشاط أو انخفض كنتيجة لما يحدث من اشتباكات بحرية بين هذه الدويلات فان النتيجة تكون قاسية عـلى

سكان هذه المناطق ، بل على تجارة الخليج عموما . وكان تمرد بنى ياس أهم وآخر تمرد تقوم به هذه القبائل ، وان كان اقساها تعبيرا عن النتائج المشئومة والخطيرة لحرية القبائل الساحلية فى أن تشن الحروب ومتى وكيف تشاء . كما أن هـذا — التمرد قد أظهر السهولة التى يمكن أن يتحول بها هذا التمرد الى حروب مشروعة ، وكمثل على هـذا التمرد موضوع محاصرة نائب السيد سعيد لمدينة صحار وتحوله الى عمليات للقرصنة ، غير انه لم يكن هناك اقل أمل فى أن توافق القبائل من تلقاء نفسها ، بالكف عن الاقتتال فيما بين بعضها البعض مهما كانت الفوائد التى قد تأتيها من ذلك ، وقد اثبتت التجربة أن الطريقة الوحيدة لارغام تلك القبائل على الحد من اندفاعهـا الى الحروب هى ان تقوم الحكومة البريطانية بفرض معاهدة صلح بحرى على هـذه القبائل وتسوية الخلافات القائمة بينها . غير ان مجلس ادارة شركة الهند الشرقية كان حتى أغسطس ١٨٣٤ يعارض حكومة بومباى فى القيام بهذا الدور ومهما كان موقف مجلس الادارة فقد كان واضحا على أية حال ، ومنذ أعوام عديدة أن الأحداث قد ترغم السلطات البريطانية فى النهاية على التحول عن سياسة الحياد التى كان قد وضعها مونستارت الفنستون والتزم بها المسئولون البريطانيون حتى ذلك الوقت . ولعل تمرد بنى ياس هو أحد تلك الأسباب التى فرضت نفسها .

وصل الشيخ شخبوط بن دياب والد الشيخ خليفة الى باسيدو فى منتصف شهر مايو لدفع التعويضات المستحقة على بنى ياس . وصادف وصوله وجود الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم الذى انتهز فرصة وجود المقيم فى باسيدو ليرهقه بمزيد من الشكاوى . وقد وجد

هانيل فى تواجد الزعيمين فرصة لتسوية الخلافات بين القواسم وبنى ياس ، مما يتيح للجانبين الاشتراك فى موسم صيد اللؤلؤ ١٨٣٥ كما تصور المقيم أنه فى الامكان اقناع الزعماء الآخرين على اجراء تسوية سلمية ، لهذا فقد بعث بطراد الى دبى وعجمان لاحضار الشيخ عبيد بن سعيد شيخ ملاسة ، وراشد بن حمد شيخ النعيم ٠ وكان هانيل يدرك تمام الادراك صعوبة التوفيق بين جميع الأطراف نظرا لأن مواقفهم متعارضة ، كما أن مطالب كل فريق من الفريق الآخر متطرفة بحيث كانت امكانية التسوية بينهم معدومة . وفضلا عن ذلك ، كما اكتشف هانيل من مقابلتهم على انفراد ، انهم كانوا جميعا يصرون على أن تضمن الحكومة البريطانية أى تسوية تتم فيما بينهم . وبما أنه لم يكن فى وسع هانيل قبول هذا الشرط ، فقد اقترح عقد هدنة بحرية تمتد طوال موسم صيد اللؤلؤ سنة ١٨٣٥ . ولما كان هذا الاقتراح لا يلزمهم بالتخلى عن تحفظاتهم ويضمن لهم فى نفس الوقت الاستفادة من موسم الصيد ، فقد وافقوا عليه بدون تحفظ . وفى يوم ٢١ مايو وقع شيوخ المنطقة على أول معاهدة للهدنة البحرية . وقد نصت المعاهدة على الامتناع عن اللجوء للحرب اعتبارا من ٢٢ محرم ١٢٥١ — الموافق ٢١ مايو ١٨٣٥ الى ٢٩ شهر رجب ١٢٥١ الموافق ٢١ نوفمبر ١٨٣٥ ، كما تعهدوا بدفع قيمة التعويضات عن أية انتهاكات لهذا الاتفاق يقوم بها رعايا هذه الامارات ضد بعضهم البعض أثناء الفترة التى تكون المعاهدة سارية المفعول فيها ، والابلاغ عن أية انتهاكات من هذا القبيل الى المقيم البريطانى أو الى قائد أسطول الخليج ، ليقوم باجراء التدابير اللازمة فى الأمر ، كما تعهد شيوخ المنطقة بالتخلى عن القيام بأى اجراءات انتقامية ضد بعضهم البعض ، كذلك تعهد زعماء المنطقة بالعمل على تجديد هذه المعاهدة على اسس راسخة قبل

أربعة أسابيع من انتهائها ، أما اذا لم يقرروا تجديد المعاهدة وفضلوا استئناف صراعاتهم فيتعين عليهم ابلاغ المقيم البريطانى بهذه النية مسبقا (١)

على الرغم من ان الاتفاقية تشبه الى حد ما اقتراحات مالكولم لعام ١٨٢٨ التى تنص على اعتبار المصايد مناطق محايدة تكون بعيدة عن الحروب البحرية القبلية ، كما أضافت نصا آخر يحظر الحروب لفترة محدودة كما حددت عقوبات لمن يرتكب أية مخالفة . لقد كان هانيل هو الذى توصل الى فكرة الهدنة البحرية وأن الفضل فى ذلك يرجع اليه وحده .

ولقد حذر هانيل حكومته فى التقرير الذى بعث به اليها حول هذه الاتفاقية بألا تتفاءل بها كثيرا . ولعل أهم ما فى الاتفاقية هو تعهد زعماء المنطقة بالاحتكام الى السلطات البريطانية عند أية انتهاكات بدلا من الانتقام بأنفسهم من بعضهم البعض . فاذا نجحت الاتفاقية فى أهدافها فيمكن اقناع الشيوخ بالموافقة على تجديدها فى العام التالى . وكان الخوف الوحيد على الاتفاقية، كما يتصور هانيل ، هو أن تعمد المشيخة الأقوى فى الامكانيات البحرية كالقواسم الى الانتقام فى البحر عن اعتداء امارة أخرى عليها فى البر . وبالاضافة الى ذلك فان المعاهدة لم تقض على الاشتباكات البحرية بين

---

(١) مجموعة مجلس الادارة مجلد ١٥٩٦ ، خطاب من هانيل الى ماكناتن (السكرتير الأول لحكومة الهند) باسيدو ١٨٣٥/٥/٢٦ .

القبائل بشكل حاسم ، وبالتالى فقد كان من المحتمل أن تعانى التجـــارة البحرية من انعكاسات تلك الاشتباكات . وتأسيسا على هذا الاعتقاد فقد اقنع هانيل الشيوخ الموقعين على المعـــاهدة بالاعتراف بالخطوط الملاحية الرئيسية الواقعة على امتداد الســاحل الفارسى كمياه دولية محـــايدة ، لا يحق لأى من ســفن تلك المنطقة التواجد فى أي وقت من العام فى هذه الخطوط الملاحية ، ولضمان التزام الشيوخ بهذه التحديدات ، رســـم هانيل خطــا بين جزيرة موسى وجزيرة سرى باعتبارها الحد الجنــوبى للمنطقة المحايدة ، وحصل على تعهد من كل شـــيخ بحصر صراعاتهم الى الجنوب من ذلك الخط .

وخلال شهر يناير التـــالى وبينما كان هانيل فى اجازة قام المقيم الجديد الماجور جيمس مارسون باعادة رسم الخط الفاصل وقد راعى أن يكون هذا الخط بعيدا عن الساحل الفارسى بعد أن نبهه الضـــباط العاملون فى الأسطول بأن جزيرتى أبو موسى وسرى هما قواعد مشهورة للقراصنة ، وأصبح الخط الجديد يمتد من قشم على الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم الى نقطة تبعد عشرة أميال جنوب أبو موسى امتدادا منها الى جزيرة سر أبو نعير . وعند ابلاغ سلطان بن صقر بهذا التعديل احتج عليه بأنه قد يمنعه من ارسال سفنه حول رأس مسندم الى خليج عمان للدفاع عن ممتلكاته الواقعة فى خور فكان . وقد رفض موريسون احتجاجه بشـــدة وذكره بأن اســـتيلاءه على خور فكان قـد تم نتيجة الاضطرابات التى وقعت فى عمان فى أواخر ١٨٣٤ . وقد كان السبب الحقيقى وراء رفض موريســون احتجــاج ســلطان بن صـــقر كما ذكر موريسون لرؤسائه هو أن التعديل ســوف يغلق تمــاما اكثر جوانب خط

الملاحة تعرضا لسفن القواسم ، كما أنه فى نفس الوقت يمنح سلطان مسقط بعض الضمان ضد اعتداءات القواسم على سفنه .

وقد التزم الاطراف بالمعاهدة بشكل مرض دون وقوع أى انتهاك لها حتى نهاية العمل بها فى ٢١ نوفمبر . ومن جهة اخرى لم يظهر شيوخ المنطقة أى بادرة لتقدير مزايا الاتفاق او الرغبة فى تحويله الى نظام دائم . وقد جاءت ساعة الاختبار بعد ٢١ نوفمبر عندما أصبح الشيوخ احرارا فى استئناف صراعاتهم البحرية . وقد انقضى شهران دون أن تبدو أى دلالة على استعدادهم لتنفيذ ذلك .

وفى الربيع استفسر موريسون من هؤلاء الشيوخ عما اذا كانوا راغبين فى تجديد اتفاقية الهدنة للموسم القادم لصيد اللؤلؤ ، فردوا بالايجاب ، وتم التوقيع على الاتفاقية الجديدة يوم ١٣ ابريل ١٨٣٦ . وهى لاتختلف عن الأولى الا من حيث مدتها التى لم تتجاوز ثمانية أشهر ، واشترك فيها بالاضافة الى الزعماء الموقعين عليها سابقا شيخ ام القوين وكان قد تعذر اشتراك هذا الشيخ فى الاتفاقية الأولى بسبب اعتراض حاكم رأس الخيمة الذى أصر على أن ام القوين تابعة له . وباشتراك شيخ ام القوين أصبحت الاتفاقية تشمل توقيع جميع الزعماء الرئيسيين الذين وقعوا على معاهدة ١٨٢٠ البحرية ، باستثناء شيخ البحرين . وكانت الأسباب المباشرة لعدم اشتراك البحرين فى معاهدتى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ ذات شقين ، ففى المقام الأول لم تكن النية متجهة الى اشراك دول كالبحرين والكويت اللتين لم تمارسا القرصنة . اما السبب الثانى والأهم فهو احتمال قيام السيد سعيد من جديد باحتلال البحرين ، مما قد يضع الحكومة البريطانية فى موضع حرج من الالتزام بارغام السيد سعيد بالانسحاب ، ومما يثير الغرابة أن نقول

بأن الخلافات الداخلية فى البحرين أصبحت الخطر الاكبر الذى يهدد الأمن فى مياه الخليج فى الأعوام التى أعقبت عام ١٨٣٥ . كان الشيخ عبد الله بن أحمد الحاكم الوحيد فى البحرين بعد وفاة ابن اخيه وشريكه فى الحكم خليفة بن سلمان فى شهر مايو ١٨٣٤ . ولكن حكومة عبد الله كانت ضعيفة جدا ، كما كانت سلطته على أنجاله الأقوياء وأقاربه واهية ، مما ألقى بالبلاد من الالتزام بارغام السيد سعيد بالانسحاب ، ومما يثير الغرابة ان نقول فى خضم المشاكل والاضطرابات . فقد تدهورت اوضاع المناطق ، كما انهارت حالة التجارة فجأة ، وتضاعفت الهجرة الى درجة خطيرة لأن الكثيرين من السكان قد تركوا البلاد هربا من اضطهاد آل خليفة . وفى عام ١٨٣٥ ثارت قبائل آل بو على وآل بوعينين سكان هديلة على ساحل قطر ضد عبد الله . وقد تم تلفيق نوع من الصلح عن طريق السيد هلال اكبر انجال السيد سعيد، غير أن هذا الاتفاق سرعان ما انهار بعد أن قام أحد افراد اسرة عبد الله بشن هجوم على هديلة ، واغراق احدى سفنها ، وقتل احد اقارب زعيم آل بوعينين عيسى بن طارق . وعندما تقدم الشيخ بطلب التعويض من الشيخ عبد الله لم يحصل منهم على اكثر من تعهد بعدم تكرار مثل تلك الأعمال . وقد قام عيسى بن طارق وآل بوعلى وآل بوعينين بفك تحالفهم مع البحرين وهاجروا جماعات الى أبوظبى فى أواخر تلك السنة احتجاجا على ما تعرضوا له من ظلم حكام البحرين (١) ، فى هذا الوقت كانت مدة اتفاقية الهدنة الأولى قد انتهت . وكان هناك احتمال أن يتخذ خليفة بن شخبوط من وجود اللاجئين

---

(١) مرفق للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٣ مرفق للخطاب السرى رقم ٦٧ المؤرخ ١٨٣٩/٥/١٨ ملخص من اعداد ويلوبى (السكرتير السياسى للحكومة) للنزاع بين عبد الله بن احمد وعيسى بن طارق بومباى ١٨٣٩/٢/٢٥ ودليل الخليج ص ٥/٧٩٤ لوريمر .

فى مشيخته حجة للهجوم على البحرين وسفنها ٠ ولكن خليفة فى ذلك الوقت كان فى حالة نفسية سيئة بسبب العقوبات التى وقعت عليه فى العام السابق ، وان كان على أية حـال غير ملزم بموجب نصوص اتفاقية الهدنة بعدم مهاجمة المشيخات غير المشتركة فى التوقيع على المعاهدة ٠ وقد دفعت نتائج احتمال نشوب صراع بين ابوظبى والبحرين ، الماجور موريسون ، وكان قد فرغ من ادخال بعض التعديلات على الخط الملاحى الفاصل فى شهر ينـاير ١٨٣٦ الى استمرار العمل بموجب الخط شمال غرب المنطقة وبذلك تم وضع خط حاجز بين المنطقة الخطرة بالقرب من البحرين وخط الملاحة الدولى ٠ ولهذا فقد صدر بلاغ الى شيوخ المنطقة يفيد بمد الخط الفاصل الى ما وراء جزيرة سرأبو نصير من خلال جزيرة هلول الى نقطة تبعد عشرة اميال من رأس فكان ، على طرف شبه جزيرة قطر ومنها الى جزيرة القرين حتى رأس الزور على الساحل الغربى أسفل الكويت وقد تم ابلاغ الشيخ عبد الله بالتعديل وطلب اليه اعلان موافقته الخطية على رسم الحدود الجديدة ، وقد نفذ عبد الله الطلب يوم ٢٦ مارس ١٨٣٦ وكان يبدو غريبا بعض الشىء أن يكون الحاكم الذى استبعد من اتفاقية الهدنة أول الموقعين رسميا على تعديل الخط الملاحى ٠ وقد دار بخلد أعضاء مجلس ادارة الشركة عند استعراضهم للتركيب الذى قام عليه نظام الهدنة فى الخليج أن يوجهوا رسالة فى شهر سبتمبر الى حاكم بومباى لاستطلاع رأيه فى تجميع كافة شيوخ المنطقة الموقعين على اتفاقية ١٨٣٥ ، ١٨٣٦ لتقديم تعهد رسمى باحترام الحدود الجديدة لخطوط الملاحة فى الخليج ٠ وقد رد هانيل الذى كان قد عاد الى الخليج كمقيم بالوكالة فى بداية ١٨٣٧ بأنه ليس من المناسب استعمال شيوخ المنطقة فى تبديل تقاليدهم البحرية بهذه السهولة ، ورأى الاكتفاء فى البداية بنظام الهدنة المعمول به ، وقال بأنه ليس ثمة أية فائدة من استفزاز

الشيوخ بمثل هذه الاقتراحات . وبدلا من ذلك عرض هانيل اقتراحا مضادا يقوم على اقناع زعماء المنطقة عند انتهاء اتفاقية الهدنة بالموافقة على احترام الحدود الدولية للملاحة والتوقيع على تعهد بهذا . وقد تمت الموافقة على الاقتراح من جانب كل من حكومة بومباى ومجلس ادارة الشركة (١) .

وفى منتصف ١٨٣٨ قرر عبد الله بن احمد القيام بمحاولة لارغام المتمردين من آل بنى على وآل بوعينين على العودة الى ديارهم ليكونوا تحت سلطته ، غير ان هانيل حاول أن يمنعه من ذلك ونبهه الى أنه على الرغم من أن عيسى بن طارق وخليفة بن شخبوط لايستطيعان تأليف قوة بحرية لشن هجوم على البحرين ، الا أنه فى وسعهما الحاق الضرر بتجارة البحرين الى حد كبير . وعلى امتداد عامين ظل هانيل والماجور موريسون يكبحان جماح عيسى واتباعه من القيام بعملية انتقامية من عبد الله عن طريق مهاجمة سفن البحرين التجارية . كما أن عبد الله من ناحيته لم يبذل أى محاولة لتسوية خلافاته مع المتمردين من رعاياه بل استمر يرفض بشدة تعويضهم عن الاضرار التى لحقت بهم . وبالتالى فقد نبه هانيل عبد الله بأنه لم يعد يرى سببا فى الاستمرار فى منع عيسى بن طارق من اللجوء الى القوة لاسترداد حقه ، وأنه بالتالى ينفض يده من النزاع وعلى الرغم من أن عبد الله قد فوجىء بموقف هانيل المتصلب الا أنه لم يعدل عن المضى فى خطته للانتقام من

---

(١) التقارير السرية الى حكومة بومباى من مجلس الادارة الى الحاكم ١٨٣٧/٩/٥ ومجموعة المجلس رقم ٧٢٤٦٣ مجلد ١٧٦٧ من هانيل الى ويلوبى بوشهر ١٨٣٨/٥/١٥ ومن ريد (السكرتير السياسى لحكومة بومباى) الى هانيل ١٨٣٨/٧/١١ .

عيسى بن طارق ٠ فبذل عبد الله محاولة ماكرة ، فعرض على هانيل ان يوافق على اعفائه من الالتزام بالخط الملاحى الفاصل فى موضوع نزاعه مع زعيم آل بنى على. وكان يريد استغلال حرص المقيم على قضية أمن المنطقة مما يضطره الى منع نشوب اصطدام بين عبد الله وخصمه فيضطر هانيل الى اقناع عيسى بالعودة الى المنطقة . ولكن يبدو ان عبد الله قد أساء فهم المقيم. وكان خليفة من جهة اخرى قد أبلغ هانيل فى وقت مبكر بأنه لم يكن يؤيد نشوب قتال بين عيسى وشيخ البحرين ، وبالتالى فان خطر انفجار صراع واسع فى الخليج لم يكن موضوعا واردا ٠ وعليه فقد ابلغ هانيل شيخ البحرين ، أنه بالنظر الى سلوكه المرن منذ عام ١٨٢٠ فليس مطلوبا منه ان يلتزم بمراعاة الخط الفاصل ٠ ثم عندما يئس عبد الله من خلافه مع عيسى طلب من هانيل أن يدبر نوعا من التسوية بينه وبين خصـمه ، وقد وافقـه المقيم ، الا أن المفاوضات بين الطرفين توقفت بسبب اصرار عبد الله على أن تعلن الحكومة البريطانية ضمانها لأية تسوية يتم التوصـل اليها . غير ان هانيـل رفض هذا الطلب على أساس المبادىء التى يلتزم بها ، حسبما ابلغ هانيل رؤساءه بذلك ، واشار الى خطأ السماح للمتمردين بترك مواطنهم باللجوء الى بلد معاد يقومون منه بشن الاعتداءات على حاكمهم الشرعى ٠ وقد نشبت الحرب بين عبد الله وعيسى بن طارق فيما بعد ، وكان لها تأثير مدمر على تجار البحرين واصحاب السفن فيها اكثر مما كان على عيسى بن طارق واتباعه ٠ وكان القتال لايزال مستمرا بين الشيخين عندما ظهر خورشيد باشـا على مسرح الأحداث فى شبه الجزيرة العربية ، وخوفا من احتمال غزو مصرى لبلدهم وجه تجار البحرين نداء الى هانيل يناشدونه العمل على انهاء الصراع بين الطرفين حتى تتمكن البحرين من توحيد قواها الوطنية للوقوف فى وجه المصريين ٠ وعند زيارة ادموندز مساعد هانيل للبحرين فى شهر مارس

١٨٣٩ (١) ، كانت لديه تعليمات لمحاولة تسوية الخلاف بين عبد الله وعيسى بن طارق ، ولكن محاولاته اصطدمت باصرار شيخ البحرين على ضمان الحكومة البريطانية للتسوية بصورة اجبارية (٢) . ولما كانت السلطات البريطانية فى الهند حريصة على منع انتشار النفوذ المصرى بين القبائل العربية الساحلية ، وعلى الأخص فى البحرين فقد كانت على استعداد بالرغم من معارضة هانيل على ارغام عيسى بن طارق للعودة الى تحالفه السابق مع شيخ البحرين . غير أنها لم تحصل على التأييد لهذا الموقف من انجلترا ، حيث عارض هوب هاوس الفكرة باعتبارها غير سليمة . وأثنى على تراجع هانيل عن الرسالة واضاف هوب هاوس ... أننا لا نرغب فى أن تتحمل الحكومة البريطانية اى مسئولية حول مسلك الاطراف المعنية سواء فى البحرين أو على الساحل الغربى لأنها لا سلطان لها على ذلك ، فضلا عن انها لا تملك الوسائل الفورية والفعلية لمثل هذا التدخل وقد صدقت تنبؤات هوب هاوس فانحاز عبد الله بن احمد الى جانب المصريين ، وقد وضعت نهاية لهذه الحالة المؤلمة بابرام اتفاق بين عبد الله والشيخ خليفة حاكم ابوظبى ، تعهد فيه الشيخ خليفة بارغام عيسى بن طارق بوقف نشاطاته المعادية وأن يبحث له عن مكان آخر يلجأ اليه بعد انتهاء موسم صيد اللؤلؤ ١٨٣٩ . وفى أواخر العام

---

(١) مسودات المجلس ، التقارير السرية الى الهند مسودة الى الحاكم العام ١٨٣٩/٩/٣ (رقم ٤٠٣) انظر ايضا نفس الحلقات مجلد ١٠ مسودة الى الحاكم ١٨٣٩/٧/١١ .

(٢) نفس المصدر مجلد ١٩ خطاب سرى رقم ٥ فى ١٨٤٠/١/٣١ من هانيل الى ريد ١٨٣٩/١٢/٢٧ (الادراة السرية رقم ١٤٠) ودليل الخليج تأليف لوريمر ص ٨٦١ .

أبلغ عيسى بن طارق بأنه يود أن يستقر هو واتباعه فى جزيرة قيس على الساحل الفارسى ٠

وخلال العامين الأولين من ابرام معاهدة الصلح كان للمعاهدة دور كبير فى تحسين الظروف الاقتصادية للمنطقة رغم أن أصحابها لم يدركوا تلك الحقيقة بسهولة . وعند وصول هانيل الى المنطقة فى شهر ابريل من عام ١٨٣٧ للتمهيد لتجديد المعاهدة لثمانية شهور اخرى وجد شيوخ القرصنة أو شيوخ الهدنة كما أصبحوا يعرفون الآن (١) متلهفين لتجديدها ، والواقع أن الشيخ سلطان بن صقر شيخ القواسم الذى ظل أتباعه يرهبون منطقة الخليج بأعمالهم ، اصبحوا الآن من أشد المتحمسين لتجديد المعاهدة ٠ وعلى اثر تجديد المعاهدة لسنة ١٨٣٧ مباشرة أوفد الشيخ سلطان بن صقر مبعوثا الى هانيل يقترح أن يقوم هو وزملاؤه الشيوخ الآخرون بعقد اتفاق لانهاء الصراعات البحرية بينهم الى الأبد ٠ وكان غرض سلطان الرئيسى من الاقتراح هو ضمان سلامة السفن التابعة له والتى كانت تبحر الى الهند خلال موسم الرياح الشمالية الشرقية ولا تتمكن من العودة قبل انتهاء صلاحية المعاهدة فى شهر نوفمبر من كل عام ٠ وقد رد هانيل على مبعوث الشيخ بأنه شخصيا لايملك الصلاحيات لعقد مثل هذا الاتفاق ، وأنه لايعتقد بأن حكومته ستكون على استعداد للقيام بدور الحكم فى كل نزاع ينشب بين القبائل الساحلية ٠

---

(١) لم يبدأ استعمال هذا التعبير قبل أواخر القرن ، وان كنا لانستطيع أن نحدد تاريخ استعماله بالضبط ٠ وحسب معلومات المؤلف ان المقيم السياسى اللفتنانت كولونيل روس هو اول من استخدم هذا اللفظ فى التقرير السنوى للممثلية فى الخليج عام ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ٠

ولقد كان هانيل مصيبا فى تصوره ، ففى شهر نوفمبر عام ١٨٣٧ أكد اوكلاند الحاكم العام بشكل قاطع بأنه لا يرغب فى ان تلتزم حكومته بالتدخل فى كل نزاع ينشب بين هذه الاقطار ، ولكنه يحتفظ بالحق فى التدخل أو عدم التدخل حسبما تقتضيه المصلحة •

غير ان سلطان بن صقر لم ييأس فعندما زار هانيل منطقة الساحل فى شهر ابريل ١٨٣٨ عاد الى طرح الفكرة عليه • وللمرة الثانية رفض المقيم التزام حكومته بمثل هذه التدابير التى اقترحها • وأضاف بان سبب نجاح معاهدة الصلح يعود الى النص الوارد فيها والذى يكفل للشيوخ الموقعين حرية العودة الى ممارسة صراعاتهم عند نهاية موسم الصيد وان وضع أى حجر على هذا البند سوف يؤدى الى حزازات جديدة بينهم ، فاذا كان حرص الشيخ سلطان يقتصر على سلامة سفن القواسم وضمان عودتها من الهند كل عام ، فيمكن تبديد مخاوفه ، حسب اقتراح هانيل بتجديده صلاحية الاتفاقية من ثمانية أشهر الى عام كامل • وقد وافق سلطان على هذا الاقتراح، وتم حصول موافقة بقية الشيوخ ، وبالتالى فقد تم اعداد اتفاقية سنوية جديدة ووقع عليها يوم ١٨ ابريل ١٨٣٨ ، ومنذ ذلك الوقت كان يتم تجديد المعاهدة سنويا فى ربيع كل عام •

واعتبارا من عام ١٨٣٥ حتى ١٨٤٣ لم يرتكب اهالى المنطقة اى حادث قرصنة يستوجب تدخل السلطات البريطانية فى الخليج • وفى صيف عام ١٨٣٩ نشب القتال فى مصايد اللؤلؤ بين قبائل بنى ياس سكان ابوظبى وقبائل آل بوفلاسه سكان دبى ، ادى الى توقف العمل فى منطقة المصايد وارسال طراد بريطانى الى المنطقة للتحقيق • وقد عادت أعمال صيد اللؤلؤ بعد توجيه تحذير الى الشيوخ المعنيين وبأن يعملوا على السيطرة على

رعاياهم ، وفى ربيع ١٨٤١ استوجب ارسال طراد الى دبى وعليه قوة للعمل على رد ثلاث سفن لأبوظبى ، استولى عليها بعض افراد من قبيلة القبيسات ، وكانت قد انشقت عن قبيلة بنى ياس ولجأت الى دبى ، وقد أدى اطلاق بعض الأعيرة النارية فى أتجاه دبى الى ارغام شيخها مكتوم بن بطى الى اعادة السفن الى أصحابها . وكلا الحادثين كان حصيلة عداوة مريرة بين بنى ياس سكان ابوظبى وحكامهم آل بوفلاح وآل بوفلاسه سكان دبى. ولعل اخطر الجرائم التى اقترفت فى مياه الخليج فيما بين عام ١٨٣٥ و ١٨٤٣ هى الأعمال القرصنية التى تمارسها عناصر من خارج المنطقة ، أو التى تقطن على اطرافها البعيدة . وقد انشق فرع القبيسات من قبيلة بنى ياس عن ابوظبى فى عام ١٨٣٦/١٨٢٣ تهربا من دفع حصتهم من التعويضات التى فرضت على القبيلة المذكورة عن تمرد ١٨٣٥ ، ولكى يكونوا فى حل من ممارسة اعمال القرصنة . وقد استقر بهم القرار فى خور العديد على الحافة الشرقية لقطر ، حيث اقاموا مستوطنات لهم تحولت بسرعة الى قاعدة للقرصنة . وحتى يفهم هؤلاء وغيرهم بأن المناطق المنزوية أو الخطيرة على الجنوب الشرقى من قطر لايمكن ان تؤمن لهم حماية من الهجوم عليهم هناك . فقد أرسل هانيل فى عام ١٨٣٦ ثلاث سفن حربية للابحار بالقرب من الساحل الشرقى لقطر . وقد رست السفن فى الدوحة ، والوخرة ، والعديد ، وأخذت تعهدات من شيوخها بانهم سوف يصادرون اى سفينة تقترف عملا من أعمال القرصنة وتلجأ الى مناطقهم ، والا فعليهم أن يدفعوا غرامات عن ذلك .

وفى شهر مايو ١٨٣٧ قام خليفة بن شخبوط بعد استئذان المقيم بهجوم على العديد وقتل خمسين من سكان المستوطنة وتغريم الباقى وتدمير

مساكنهم . وقد فر عدد من القبيسات الى الدوحة ومنها الى دبى . وقد أمكن فى النهاية التوفيق بينهم وبين الشيخ خليفة فعادوا الى ابوظبى .

كان جاسم بن جابر أخطر قرصان عرفته المنطقة خلال هذه الفترة وكان يتخذ من الدوحة وغيرها من القرى الواقعة على الساحل الشرقى لقطر قاعدة لنشاطه . وعلى اثر ارتكاب قاسم بن جابر لأبشع عملية قرصنة ، عبأ المقيم أسطول الخليج كله بقيادة الكومندور بركس على ظهر سفينة القيادة سيسو تريس ، وقد أبحر الأسطول فى شهر فبراير ١٨٤١ الى الدوحة مزودا بتعليمات لفرض تعويض على جاسم بن جابر لضحاياه أو لورثتهم . وقد رفض جاسم فى البداية الامتثال ، ولكنه عاد فغير رأيه بعد أن أنذر هانيل سكان قريته باخلائها باطلاق بعض القذائف على حصن القرية .

لقد جرت العادة منذ أواخر العشرينات للقرن التاسع عشر أن يقوم المقيم البريطانى فى الخليج بجولة سنوية على الجانب الغربى للخليج ، وكانت هذه الجولة تتم عادة فى فصل الربيع من كل عام . واعتبارا من عام ١٨٣٦ أصبح الغرض من جولة المقيم فى المنطقة هو العمل أساسا على تجديد اتفاقية الهدنة . وفى الحالات التى تدب فيها الصراعات والخلافات بين المشتركين فى المعاهدة فان المقيم يصطحب معه فى جولته أسطول الخليج . وكان كثيرا ما يطلب منه التدخل فى حل خلافات الشيوخ واحيانا يضطر الى تدخله اذا احس بأن أمن الخليج يتعرض للخطر ، غير ان تدخله هذا لم يتخذ فى أى وقت من الاوقات مجال الوساطة ، لأن الحكومة البريطانية ظلت ترفض باستمرار حشر نفسها فى موضوع فرض التسويات التى يتم التوصل اليها ، فقد كان شبح الحملة على قبائل بنى بو على لايزال ماثلا

أمامها من عواقب التورط فى السياسات الداخلية لعرب المنطقة . وكان المقيم يستقبل ضيوفه من حكام المنطقة على ظهر الطراد ، حتى لا يثير احراجا لأى منهم فيما لو زار أحد الحكام ولم يزر الحكام الآخرين . كما كان هناك سبب آخر لهذه الاحتياطات ، وهو العمل على تقليل وقوع حوادث ، قد تؤدى الى تورطه شخصيا وتكون لها نتائج محرجة .

وفى كل الجولات كان المقيم حسب التقاليد يأخذ معه بعض الهدايا لتقديمها للشيوخ وكانت أغلب هذه الهدايا تتكون من النقود والشيلان والمسدسات وقماش للعباءات وبعض البارود . كما بذلت جهود لتلبية بعض طلبات الشيوخ كالبوصلات والسيوف والمناظير ، كما كان طبيب الطراد يلبى طلبات الشيوخ الذين كانوا يبعثون بطلبات لصيدلية المثلية لحصولهم على عقاقير وأدوية منشطة للجنس، وكان العمل يتطلب ان يقوم احد الطرادات التابعة لأسطول الخليج بجولة فى خلجان اللؤلؤ خلال الموسم . كما كان المفروض أن يتواجد طراد فى مناطق الصيد طوال فترة الموسم ، غير أن الامكانيات لم تكن تسمح بذلك وبسبب كثرة المشتركين فى أعمال الصيد ، والذين قد يصل عددهم الى ٤٠ الف عامل فى ذروة الموسم كانت المحافظة على النظام فى منطقة الصيد عن طريق تنظيم زيارات دورية للطرادات غير ممكنة ، وفى جولة قام بها بركس فى أحواض الصيد فى شهر اغسطس من عام ١٨٤١ قدر عدد السفن المشتركة بنحو ٢٤٠٠ الى ٢٥٠٠ سفينة تعمل عبر مساحة تمتد من البحرين الى جزيرة سر بنى ياس . ويعمل فيها ما لايقل عن ٣٧ الفا الى ٣٨ الف رجل (١) وعلى الرغم من انخفاض عدد الحوادث خلال

---

(١) من مرفقات حكومة بومباى السرية مجلد ٣٦ مرفق للخطاب السرى رقم ٧٩ المؤرخ ١٨٤١/٩/٣٠ من بركس الى هانيل ١٨٤١/٨/٢٥ لقد لاحظ =

هذه المواسم الا أنها كانت تقع فى بعض الأحيان ، ويحدث هذا عندما يحاول بعض العمال الهرب من الشيخ الذى يعمل معه الى شيخ آخر من غير أن يرد له السلفة التى كان قد حصل عليها فى بداية الموسم . كما يحدث أيضا عندما ينتهز أحد شيوخ المنطقة فرصة خلو احدى المشيخات من سكانها خلال موسم الصيد فيشن هجوما على تلك المشيخة وقد وقع حادث من هذا النوع فى عام ١٨٤١ عندما اعتدى الشيخ خليفة حاكم ابوظبى على مشيخة دبى ، وقام بنهبها ، وكانت فى ذلك الوقت شبه خالية من السكان . وعلى اثر ذلك طلب حاكم دبى الشيخ مكتوم مساعدة من القواسم فى كل من الشارقة وراس الخيمة ، غير ان الشيخ خليفة رد على هذا الاجراء بشن هجوم آخر على القواسم وقد امتد حتى الشارقة وقد اضطرت أغلبية سفن القواسم الى ترك المصايد والعودة الى بلادهم للدفاع عنها كما بعث شيخ القواسم فى لنجة بـ ١٠٠ من رجاله فى محاولة لمساعدة اخوانه القواسم .

وقبل وقوع هذا الحادث بوقت قصير كانت حكومة الهند قد اقترحت على المقيم البريطانى فى بوشهر وضع صيغة لاتفاقية جديدة بصلاحية لمدة أطول ، وذلك على أساس النجاح الذى حققته اتفاقية عام ١٨٣٥ على أن تكون الاتفاقية الجديدة شبيهة بالاتفاقية التى اقترحها الشيخ سلطان بن

=بركس بالنسبة لهذه المصايد كثرة عدد السفن المشتركة فيها من دبى وعدد قليل من البحرين ، الأمر الذى يعود الى الاضطرابات الداخلية فى الجزيرة وهو يذكر بهذه المناسبة ان مجموع ما أرسلته كل من البحرين وقطر من السفن نحو ١٥٤٠ فى عام ١٨٢٦ بينما لم يتجاوز عدد السفن فى عام ١٨٤١ ٥٧٣ سفينة .

صقر فى عام ١٨٣٧ ، غير أن هانيل رأى عدم المضى قدما فى هذا المشروع لنفس الأسباب التى أدت الى وقوع الصدام بين كل من أبوظبى من جهة والشــــارقة ودبى من جهة اخرى . وكانت القيــود التى تضمنتها هــــذه الاتفاقية البحرية تشكل عبئا على القواسم الذين تعتمد قوتهم العسكرية على امكانيتهم البحرية ، عكس بنى ياس الذين تعتمد قوتهم العسكرية على امكانيتهم العسكرية البرية ، فبمقتضى هذه الاتفاقية يحق لحاكم أبوظبى اعلان الحرب على القواسم الذين يشكلون قوة عسكرية أضعف من قوته ، بينما لا يحق للقواسم الذين يتفوقون عليه فى البحر ان يعتدوا على بنى ياس فى البحر ، وقد استطاع الشيخ خليفة أن يكبح جماح اتباعه خلال العامين أو الثلاثة أعوام الماضية من الانتقام من القواسم عن طريق تذكيرهم بالفرص التى سوف تتهيأ لهم فى نهاية صلاحية الاتفاقية السنوية غير انه ما تكاد تنتهى صلاحية الاتفاقية ويجنى الجميع الفوائد الكثيرة من الموسم الوفير حتى يطغى هذا العامل على الحروب القبلية ، الأمر الذى يتيح لهذا الحاكم من تجديد اتفاقية الهدنة عاما آخر ، وكان هانيل يتصــور بأن مد أجــل الاتفاقية الى فترة اطول قد يحرم القبائل من ذلك الأحساس بالحرية فى شن الحروب البحرية على بعضها البعض متى حان الوقت ، كما قد يتسبب فى حدوث مزيد من الانتهاكات للاتفاقية .

وقد ادركت حكومة بومباى أهمية آراء هانيل حول هذا الموضوع ولم تحاول أن تعطى الموضـــوع أهمية اكثر . غير ان مجلس الهند كان له رأى آخر ، فقد أبلغ حكومة بومباى فى سبتمبر ١٨٤١ أنه يؤيد مشروع عقد اتفاقية تكون مدة صلاحيتها اطول ، كما ذكر بأنه يتطلع الى اليوم الذى يفكر فيه الشيوخ فى أن تشمل الاتفاقية الصراعات داخل المنطقة وتمتثل للوساطة

البريطانية ، والتى لن ترفضها الحكومة البريطانية لأسباب تتعلق بمصالحها مع عدم التورط فى تدخلات عسكرية ، وعلى اى حال فان هذا التحول الجذرى عن السياسة السابقة يمكن ارجاعه الى مسلك الشيوخ ابان الحملة المصرية على شرقى الجزيرة العربية خلال عام ١٨٣٩ و ١٨٤١ . كما يرجع بشكل مباشر الى الاهتمام الذى يوليه بالمرستون وهوب هاوس لشئون الخليج ، وعند وصول تعليمات المجلس الى الهند كلف اللفتنانت كولونيل اج . دى. روبرتسون — لأن هانيل قد سافر فى اجازة — بجس النبض لشيوخ المنطقة بالنسبة الى مد صلاحية الاتفاقية . غير أن تحريات روبرتسون اقنعته بأن الوقت لم يحن بعد لاجراء كهذا . فلقد كان الشيخ خليفة بن شخبوط الذى كان فى حرب برية مع القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة فى شتاء ١٨٤١ — ١٨٤٢ كان لايزال يعانى من فشله فى تلك الحرب ، ولهذا لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالموافقة على مد صلاحية الاتفاقية سواء من حيث الزمان أو المكان .

وقد تولى هانيل هذا الموضوع بعد عودته الى الخليج ١٨٤٢ . ففى شهر مارس من ذلك العام أوفد مساعده اللفتنانت كامبل الى ساحل الهدنة للتأكد مما اذا كان شيوخ المنطقة وعلى الأخص الشيخ خليفة بن شخبوط ، قد غيروا رايهم بشأن المعاهدة . وقد اكتشف كامبل بأن جميع الشيوخ بما فيهم الشيخ خليفة قد أبدوا رغبتهم فى عقد اتفاقية جديدة تكون مدتها عشر سنوات حسب الاقتراح الذى عرض عليهم . وفى اليوم الاول من يونيه ١٨٤٣ تم توقيع اتفاقية لمدة عشر سنوات بحضور هانيل . وبموجب نصوص هذه الاتفاقية تعهد الشيوخ بمراعاة شروط الهدنة فى الخليج لمدة عشر سنوات من تاريخ توقيعها ، كما تعهدوا بالنظر فى ابرام اتفاق دائم بعد انتهاء صلاحية

الاتفاقية أو بمد صلاحيتها . كما تعهد كل شيخ من الموقعين على تلك الاتفاقية بدفع تعويضات عن أية أضرار تنجم عن اعمال يرتكبها رعاياه فى مياه البحر من أى طرف آخر مشترك فى تلك الاتفاقية ، وكذلك الامتناع عن القيام بأعمال انتقامية ضد بعضهم البعض وباحالة أى مخالفة أو اعتداء الى الحكومة البريطانية لتتولى البت فيه باعتبار الحكومة البريطانية الطرف الضامن للاتفاقية . ويمكن للانسان أن يستشعر مدى مساهمة هانيل فى وضع صيغة هذه الاتفاقية من قراءة البند الرابع والأخير من الاتفاقية الذى ينتهى بالقول : « انه فى حالة عدم التوصل الى حل بالنسبة لأى من المشكلات فاننا نتعهد باعلان موقفنا هذا الى المقيم البريطانى واخطاره بعدم رغبتنا فى تجديد الاتفاقية عند انتهاء صلاحيتها اى فى شهر مايو ١٨٥٣ (١) .

لم تتضمن الاتفاقية أى اشارة الى الاشتباكات التى تقع فى البحر ، وقد أوضحت الحكومة البريطانية موقفها عند توقيع المعاهدة على انها مرتبطة فيما يتعلق بمنع الاشتباكات فى البحر ، وأما فيما يتعلق بالاشتباكات التى تنشب بين القبائل على البر ، فان بريطانيا لا علاقة لها بها ولن تتدخل فيها ، كما أنها قد أوضحت للمشتركين فى المعاهدة بأنها لاتعتبر أن الاتفاقية تنطبق على الاعتداءات التى تقع على السفن فى البر أو من الخلجان أو البحيرات أو ضد السفن المسحوبة على الشاطىء ، كما كانت هناك نقطتان أخريان فى

(١) كتاب المعاهدات ص ١٣٤ ـ ١٣٥ تأليف اتشيسون الموقعون على هذه الاتفاقية هم سلطان بن صقر حاكم الشارقة ورأس الخيمة خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبى ، مكتوم بن بطى حاكم دبى ، عبد العزيز بن راشد حاكم عجمان وعبد الله بن راشد حاكم أم القيوين .

حاجة الى ايضاح ، ونعنى بهما نقل الأسلحة بالسفن وحق كل حاكم فى اعادة احد مواطنيه ممن يكون قد هرب ولجأ الى حاكم آخر من حكام المنطقة . أما بالنسبة لنقل الأسلحة بالسفن فقد تم حظر هذا لأنه يبرر للخصم الهجوم على تلك السفن التى تستعمل لهذا الغرض ، الأمر الذى يشكل انتهاكا لاتفاقية الهدنة . أما النقطة الأخرى فتتعلق بمشكلة المديونين الذين يتركون دائنيهم من اصحاب السفن تهربا من رد السلف التى يحصلون عليها فى مستهل موسم الصيد . وعلى اى فان التدخل فى الحقوق التقليدية والحد من ممارسة تلك الحقوق سواء عن طريق ارغام المدين على العودة ، أو بمنع حاكمه من اعتقاله فى أحواض الصيد عند نهاية الموسم ، كما يحدث غالبا ، فان ذلك يشكل نوعا من التدخل فى الشئون الداخلية للمشيخات الأمر الذى لم يكن هانيل يحبذه فى تلك المرحلة من الظروف . لأن ذلك قد يحرم رجال القبائل من ضمانات هامة ضد ملاحقتهم من حكامهم .

ان نجاح نظام الهدنة منذ بداية عام ١٨٣٥ انما يعود الى حد كبير لصبر ودأب ومهارة صمويل هانيل ، فلقد وفق هذا الرجل فى تحقيق بداية لحل مشكلة تطويق الحروب البحرية فى الخليج ضمن نطاق محدود ، حتى لاتؤدى انعكاستها الى الأضرار بالملاحة البرية فى المنطقة ، وكان عند تطبيق هذا الحل حازما ولبقا فى نفس الوقت . أن الفرق الجوهرى بين اتفاقية الهدنة والمعاهدة العامة لسنة ١٨٢٠ هو ان الأولى كانت تهدف الى منع القرصنة بالقضاء على أسبابها وذلك بمنع الجروب البجرية ، بينما كان هدف المعاهدة العامة هو القضاء على القرصنة عن طريق فرض العقوبات على ممارسيها . وعلى أية جال فان المعاهدة العامة تعتبر مرحلة ضرورية فى عملية فرض الأمن البجرى فى الخليج . وبدون ذلك لم يكن من الممكن للشيوخ

الاشتراك فى نظام الهدنة أو الالتزام به فيما بعد ، ويعود نجاح نظام الهدنة الى درجة كبيرة الى فاعليــة الرقابة البحرية وفق النظــام الذى ادخــل عام ١٨٢٠ ، وذلك لاشــعار حــكام المنطقة بتصميم الحــكومة البريطــانية على المحافظة على الأمن فى البحار . فعلى حين كان الأمر قبل عام ١٨٣٥ يقضى بارغام الشيوخ على دفع تعويضــات عن الاعتداءات التى يقترفهــا رعاياهم فى البحر ، فان هذا قد أصبح نادر العمل به بعد الاتفاقية . فقد تغيرت نظرة الشيوخ بعد توقيع اتفاقية العشر سنوات لدرجة أنهم أخذوا يفرضون عقوبات على مرتكبى الاعتداءات من رعاياهم حتى قبل أن يعلم المقيم البريطانى بها . بل أنهم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، وذلك بمنع اعمال القرصنة قبل وقوعها ، وعلى سبيل المثال عندما قذفت الأمواج باحدى سفن القواسم سكان لنجة الى عجمان عام ١٨٤٥ بادر حاكمها الى التوجه الى مكان الحادث صحبة اخوته وسيفه فى يده ، وأقسم هنــاك بقطع رأس كل من يحــاول الاقتراب من السفينة . ولعل الحافز الأكبر لمراعاة الهدنة يأتى من المكاسب الاقتصادية التى تحققت لأهل المنطقة . ومن الأدلة النسبية للأمن الذى حققه نظام الهدنة للمنطقة فى بداية الأربعينات للقرن التاسع عشر هو الانخفاض فى عدد السفن الاوربية التى تزاول التجارة فى الخليج . وخلال هذه الفترة على سبيل المثال اصبحت الكويت فى مقدمة الأقطار الناقلة للمنتجات التجارية فى الخليج (١) كما انعكس هذا الاستقرار ايضا على تواجد سفن الأسطول

---

(١) من مرفقات الرسائل السرية لحكومة بومباى مجــلد ٥٠ الخطــاب السرى رقم ١٠٤ المؤرخ ١٨٤٢/٩/٢٨ من روبرتسون الى السكرتير الأول لحكومة بومباى ١٨٤٢/٧/٢٣ (رقم ١١٨ الادارة السياسية) وقد انضمت الكويت الى اتفاقية الهدنة مؤقتا فى عام ١٨٤١، وقد تم هذا بالصدفة وليس=

البريطانى التى انخفض عددها تبعا لذلك فى مياه الخليج . والواقع ان حجم الانخفاض لقوة أسطول الخليج كان مسألة مقلقة فقد تعذر تخصيص سفن لأى من الخليج والبحر الأحمر بسبب تزايد الطلب على السفن لنقل الجنود والبريد . فقد كان لدى الأسطول الهندى عام ١٨٤٤ نحو ١٤ سفينة من مختلف الأصناف والأحجام (١) وكان هذا النقص فى السفن يعود الى استمرار تواجدها فى الخدمة فى مياه الخليج والبحر الأحمر لفترات تمتد الى سنتين

= بالقصد ، فعندما زار هانيل الكويت فى شهر ابريل ١٨٤١ ، بايعاز من السلطات البريطانية فى انجلترا للتأكد عما اذا كانت تصلح لاتخاذها قاعدة فقد حاول اخفاء القصد الحقيقى من مهمته حين قال بأنه قد جاء للبحث فى احتمال انضمام الكويت لنظام الهدنة . وقد ذكر الشيخ صباح أكبر أنجال الحاكم الشيخ جابر والذى كانت بيده مقاليد الحكم بسبب عجز والده بانه فى الوقت الذى لا يمانع على التوقيع على اتفاقية الهدنة البحرية الا أنه لم يكن يرغب فى اقامة علاقات مع شيوخ الساحل . وعلى أى حال فقد سلم تعهدا خطيا منه بالامتناع عن الاشتراك فى قتال بحرى لمدة عام ، وبأن يحيل حوادث الانتهاكات ضد سفن رعاياه الى المقيم البريطانى قبل اتخاذ اجراءات انتقامية ضد المعتدين . غير أن هذا التعهد انتهت صلاحيته بعد عام واحد ولم يجدد (انظر أيضا مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى خطاب سرى ٥٨ المؤرخ ٤١/٧/١٧ مجلد رقم ٥٨ من هانيل الى ويلوبى ١٨٤١/٤/٢٧ (رقم ٤٢ الادارة السرية) .

(١) من سجلات الخطابات السياسية لحكومة بومباى مجلد ٢٩ من حاكم بومباى الى مجلس ادارة الشركة ١٨٤٤/١/٣١ (رقم ٥ الادارة السياسية) .

وثلاث سنوات ، يرافق ذلك تدهور فى حالة السفن وعدم صلاحيتها للخدمة بسبب ضغط العمل عليها . وفى أواخر عام ١٨٤٣ حذر قائد الاسطول الهندى حاكم بومباى بأن هذا النظام فيه ضرر كبير على المصلحة العامة والانضباط فى العمل ، كما انه ضار بصحة البحارة ومصدر للمتاعب والتذمر وقد أوصى هذا القائد بعدم ابقاء السفن المخصصة للخليج أو الساحل العربى أكثر من اثنى عشر شهرا ، وعند وجود هذه السفن فى أعمالها هذه فلاينبغى أن يسمح لها بالبقاء فى الموانىء غير الصحية كميناء عدن وبوشهر كما كان الحال فى الماضى ، بل ينبغى أن ترسو بعيدا عن الشاطىء بقدر المستطاع ، بحيث يمكنها القيام بواجبها الذى ارسلت من أجله الى تلك المناطق ، وهو منع حوادث القرصنة وحماية التجارة .

وقد وافق حاكم بومباى على توجيهات المسئول وأوعز الى المقيم البريطانى والمعتمد السياسى فى عدن بتنفيذها ، كما طلب منهما موافاته بخطط لفرض رقابة بحرية على الخليج والبحر الأحمر على أساس سفينتين أو ثلاث لكل من المنطقتين . وقد قدم هانيل خطته فى شهر ابريل ١٨٤٤ ، وصدر الأمر بتنفيذها بحذافيرها . وعلى حين كان هانيل يفضل أن يكون هناك أربعة طرادات للعملية ، بحيث تتواجد ثلاثة منها فى قاعدتها على الدوام ، الا أنه كان يعتقد ان أعمال الدورية فى مياه الخليج يمكن ان تقوم بها ثلاث من السفن بشرط أن تتم الاستعانة بسفينة الممثلية فى بوشهر ، وعلى أن يقوم طراد آخر برحلته الى بومباى ، فى بداية شهر يناير من كل عام ، ويعود فى شهر مارس ، كما يتوجه طراد آخر الى الهند ويعود منها فى نهاية شهر يونيو ، على أن تبقى جميع الطرادات الثلاثة فى قواعدها خلال موسم اللؤلؤ اعتبارا من أول يوليو حتى أواخر سبتمبر ، ينفصل عنها احد الطرادات فى بدايةاكتوبر للتفرغ لأعمال الممثلية ، ويعود الى قاعدته فى نهاية

ديسمبر . أما السفينة المخصصة للممثلية فيتعين أن تقوم برحلتها الى بومباى على مرحلتين خلال العام الواحد ، اى فى منتصف فبراير وبداية نوفمبر ، على أن تكون جاهزة للاشراف على حراسة خطوط المواصلات خلال شهور الصيف ولسوء الحظ فان سفينة الممثلية تحطمت بالقرب من جزيرة قيس فى شهر مارس عام ١٨٤٥ ، وعندما تقدم هانيل الى المسئولين بطلب لاستبدالها بأخرى رفض طلبه رغم تزكية قائد الاسطول الهندى لطلبه ، وكان السبب فى الرفض أن الظروف لم تكن تسمح بانفاق مبلغ ١٨٨٤٢ روبية ، نظرا لسياسة التقشف الاقتصادى التى كانت حكومة الهند تنتهجها فى ذلك الوقت .

ان ثمة عاملين ساهما فى انجاح نظام الهدنة البحرية وهما رحيل الوهابيين وابعادهم عن المنطقة الشمالية من عمان فيما بين ١٨٣٩ و ١٨٤٥ والاستقرار النسبى الذى تحقق فى داخل عمان خلال هذه الفترة . ان اقصاء الحامية الوهابية من واحة البريمى عام ١٨٣٩ قد وردت الاشارة اليه فى غير هذا المكان فى سياق مذكرات رحلة الكابتن همرتون الى الواحة والى صحار عام ١٨٤٠ . وعلى اى حال فلم يكن همرتون أول اوربى يصل الى المنطقة الداخلية من عمان . بل الفضل فى ذلك يعود الى اثنين من الضباط البريطانيين الشبان العاملين فى الاسطول الهندى وهما اللفتنانت جى . ار . ولستد واللفتنانت اف . وايتلك ، اللذاين قاما برحلة فى هذه البلاد فى أواخر عام ١٨٣٥ وبداية عام ١٨٣٦ ويقتضى التنويه برحلة هذين الضابطين ، لا من حيث اهميتها فحسب ، وانما من حيث المعلومات التى دونها احدهما ، وهو ولستد، حول انطباعاته عن تلك الرحلة ، وتعد هذه المعلومات من أهم الحقائق عن وضع عمان قبل قرن من الزمان .

غادر ولستد مدينة مسقط فى نوفمبر ١٨٣٥ بعد أن اذن له السيد سعيد بارتياد المنطقة الداخلية من عمان . وقد أبحر فى البداية الى مدينة صور على الساحل الشرقى . ومن هناك جنوبا عبر المنطقة جعلان الى بلاد بنى بوعلى وبنى بوحسن ، ثم منهما الى رمال وهيبة بمنطقة الجنبة وبعد أن اجتاز بلاد بنى بو على اتجه الى وادى بطما عبر الشمال الغربى ومنها الى بديه حيث لقى القائد الوهابى مطلق المطيرى مصرعه على أيدى الحجريين عام ١٨١٣، ومن بديه واصل ولستد رحلته الى وادى بطما فى سمد التى وصلها فى منتصف شهر ديسمبر، وفى هذه المنطقة التقى بواتيلك الذى قطع المنطقة عبر الممرات قادما من مسقط، وتوجه الاثنان عن طريق منح وفرق الى نزوى قلب عمان الأم ، وقد دهش ولستد كثيرا من منظر المدن والقرى التى زارها وماتتسم به من وجاهة التصميم وروعته ، ومن الخصوبة التى تتميز بها هذه البلاد ، ويرجع جمال ووجاهة القرى الى لون بيوتها الرمادى الداكن والى وجودها وسط خمائل النخيل وحدائق الفاكهة ، ومن وراء تلك الخضرة ترتفع صفوف التلال العارية الداكنة الألوان ، كما دهش الى حد بعيد من روعة تصميم المدن والقرى العمانية ، ويتحدث ولستد عن نظام الرى فى عمان فيقول :

انها عبارة عن قنوات يتم شقها داخل التربة على عمق ٦ او ٨ أقدام ، وتكوم الأتربة التى تستخرج من حفر القناة على حوافيها . وقد لاحظت أن هذه القرى التى زرتها والقرى الأخرى فى عمان يرجع الفضل فى خصوبتها وأزدهارها الى هذا النظام الذى يطبقه السكان فى رى المزارع ، وهذا النظام يكاد يكون وقفا على عمان وحدها ، وان كانت المهارة والتكاليف التى يتطلبها هذا الاسلوب ذات سمة صينية اكثر منها عربية .

ويسمى نظام الرى هذا بنظام الأفلاج الذى يشبه نظام القنوات الجوفية فى فارس ، والذى يستمد مصادر مياهه من الينابيع القريبة منه . ويتم

تنظيف الأفلاج بزج قضبان داخلها لازالة التراكمات . وقد ساهم هذا النظام وخصوبة التربة فى عمان فى زراعة أنواع كثيرة من الفاكهة على نطاق شد انتباه ولستد ، فقد شاهد اشجار اللوز والتين والجوز بأحجام هائلة ، وكانت الثمار على اشجار الليمون والبرتقال كثيفة لدرجة أنها كانت تغطى المزارع ، بالاضافة الى ذلك فهناك اشجار النخيل التى تضفى مزيدا من الجمال على المنطقة غير ان لهذه الأوضاع عيوبها ايضا ، فبمجرد ان تخرج من المناطق المقفرة فانك تحس بتغير هائل فى الجو . فالهواء بارد ورطب ، والتربة فى كل مكان مشبعة بالرطوبة وان المنظر يبدو لك من كثافة الظل معتما وكئيبا ، ولهذه الأسباب فان معظم السكان يشكون من الأمراض الصدرية ، وهم أقل صحة من البدو سكان الصحارى .»

وصل ولستد ووايتلك مدينة نزوى يوم ٢٢ ديسمبر ، وهذه المدينة باعتبارها العاصمة القديمة لعمان ، تتميز بقلعتها الهائلة والتى يعتقد اهل البلاد انها قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها أو احتلالها لمناعتها . وقطر القلعة حسب تقدير ولستد حوالى ٣٠٠ قدم وارتفاعها ١٥٠ قدما .

« .... والى ارتفاع نحو ٩٠ قدما ملئت بكتل من الأتربة والأحجار ، وحفر نحو ٧ أو ٨ آبار خلال هذا البناء ، تقوم بتزويد القلعة بما يكفيها من الماء . أما الآبار الجافة فتتخذ كمخزن للذخيرة والبارود .... ويحيط بالقلعة سور يبلغ ارتفاعه اربعين قدما .... وهو سور حصين قد لا تؤثر فيه القذائف والمدافع ،وهو عال جدا بحيث يتعذر التصويب عليه حتى ولو أصيب الحائط . وفى تصورى بأن الطريقة الوحيدة للاستيلاء على القلعة هى ، اما بمحاصرتها ، أو بث الألغام حولها .

وترجع أهمية مدينة نزوى من بعض الوجوه الى كونها المدينة الوحيدة التى كان السلطان يحصل على الضرائب منها ، ولكن هذه الضرائب حسب ملاحظة ولستد ضرائب محدودة اذ لاتزيد على الف ريال كل عام .

خلف نزوى مرتفعات الجبل الأخضر ، وقد استمد اسمه هذا من الأودية الخصبة التى تجرى خلال قممه الجيرية . ولما كان الضابطان مصممين على التوغل الى ماوراء الضباب الكثيف الذى كان يحجب منطقة الجبل الأخضر . فقد غادرا نزوى يوم ٢٦ ديسمبر عبر الطريق الجبلى الذى يؤدى الى تنوف . وعلى امتداد مائة عام من ذلك التاريخ لم يقدر لأى اوربى أن يرى ويشاهد مارآه كل من ولستد وواتيلك فى هذه البلاد . وفى يوم ٢٨ ديسمبر وصل الرجلان وادى وقرية سيت ، وهى قرية اكثر جمالا ورومانتيكية لدرجة يتعذر تصورها وعلى امتداد المنحدرات والسفوح الجبلية كانت ترتفع المنازل التى بنيت من الحجر الأبيض ، واحدا فوق الآخر ، وكانت تبدو لمن يشاهدها من السفح وكأنها معلقة فى الفضاء . وكانت منطقة الوادى زاخرة بمزارع الفاكهة والثمار : الرمان والبرتقال بانواعه ، واللوز ، والصمغ والجوز بالاضافة الى أشجار البن ومزارع العنب . ويقع خلف سيت واد آخر يسمى وادى الشجيرة ولا يقل جمالا عن بلاد سيت ، ويضم مالايقل عن مائتى منزل تقع كلها على طرف الوادى (١) .

---

(١) لم يصل اوشير الوى الى منطقة الشريحة أطلاقا التى يقول انه شاهدها من السفح الأمر الذى يثير الشك فى كونه وصل الى قمة الجبل الأخضر . وارتفاع الجبل حسب تقديره من ٨٠٠ الى ٩٠٠ تويس أى ١٢٠ ر٥ الى ٧٦٠ ر٥ قدما . كتاب وصف لرحلة فصل ٢ ص ٥٦٣/٥٦٤ .

وقد قضى الضابطان ثلاثة أيام يتجولان عبر هذه الأودية والمنحدرات وأكثر ما أثار اعجابهما ودهشتهما هو انتشار مزارع العنب التى تمتد صفوفا على ضفاف الأودية لعدة أميال تغطى المنحدرات وتلتف حول الأودية . ويزرع فى الجبل الأخضر العنب بنوعيه الأسود والأبيض ، ويتم تجفيف العنب الأسود أما الأبيض فتصنع منه الخمور . وبنو ريام هم سادة الجبل الأخضر ويبلغ تعدادهم نحو ١٠٠٠ نسمة ولم يسبق ان خضعوا لأى سلطة ، وهم نادرا مايغادرون مناطق سكناهم الا للأسباب التجارية التى لا تتعدى منطقة السفوح أثناء تنقلاتهم . وبقية قبائل عمان تعتبر سكان الجبل عصبيى الطباع وكسالى ومنحلين أخلاقيا ، ولعل عيبهم الأكبر كما لاحظ ولستد هو البخل والتحفظ فى الضيافة اما أكبر نقطة ضعف فيهم. فهى انهم مدمنو خمر : —

« على الرغم من أن سكان الجبل الأخضر اقوياء ورياضى الأجسام اذا قارناهم بسكان السهل الا أنهم لا يتمتعون بالجسم الصحى السليم الذى يميز الجبليين عادة ، فهم على العكس لهم وجوه متغضنة وشاحبة ، وكأنهم يعانون من الشيخوخة المبكرة . واعتقد أن يكون السبب فى ذلك هو الخمر الحادة التى يتناولونها ويستقطرونها بأنفسهم بكميات كبيرة من الكروم ويتناولونها عيانا فى خلال وجباتهم اليومية وهم يتحججون بمعاقرة الخمر ببرودة الجو عندهم (١) .

ونساء الجبل الأخضر على العكس من رجاله ويقول ولستد انهن على جانب كبير من الحسن والجاذبية ، ويبدو أن الحركة المستمرة التى تقوم بها النساء فى الهواء الطلق تكسبهن رشاقة وخفة فى الحركة بالاضافة الى

---

(١) رحلات ولستد فصل ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

صحة ابدانهن ونقاء بشرتهن التى لا توجد الا فى نساء السهل ، وهــذه الخصائص يضاف اليها تقاطيع نساء الجبل التى لا تقل جمالا ، وقاماتهن الطويلة تميزهن عن الرجال (١) .

وقد قرر كل من الرحالتين ولستد وواتيلك وهما عائدان الى نزوى أن يمرا بالمنطقة الساحلية وأن يواصلا رحلتهما عبر ســاحل الباطنة الى السويق ، قبل أن يعودا الى المنطقة الداخلية مرة اخرى . وقد وصــلا السيب عن طريق وادى سمايل يوم ٣٠ يناير ، ثم السويق بعد أسبوع من ذلك ، وقد حلا هنــاك ضيفين على السيد هــلال نجل السلطان ونائبه السابق ، وبقيا هناك حتى الأسبوع الأول من مارس ثم غادراها بعدئذ الى منطقة الحجر على آمل الوصول الى واحــه البريمى ، ومنها يواصــلان سفرهما اذا سمحت الظروف الى نجد ، وفى اليوم السابع من مارس قطعا الجزء الداخلى من الحجر ، وبعد عدة أيام وصلا عبرى ، حيث تلتقى سفوح الحجر بمرتفعات الظاهرة ، وقد استقبلهم شيخ البلدة بطريقة غير ودية ، ولم يتغير أسلوبه معهم حتى بعد أن أبرزوا له التصريح الـذى يحملانه من السلطان ويقول ولستد ، بأن شيوخ عمــان بصفه عامة شخصيات مهذبة ويتحلون بقدر من المجاملة والسلوك الودى ، الا ذلك الشــيخ فقد كانت لهجته وسلوكه فى غاية الفظاظة ، وكان اشــبه بالحيوان الدميم منــه بالانسان ، وكان أقرب الى أن يكون سفاحا منه شيخا . كانت عبرى ولاتزال حتى هذا الوقت مشهورة بعنف سكانها وقسوة طباعهم . ويذكر جيران عبرى ، انه يستحيل على أى شخص أن يدخل بلدتهم ما لم يكن مسلحا

---

(١) رحلات ولستد فصل ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

تسليحا كاملا ، أو أن يكون شحاذا تحيط الأسمال بخصره وليس شخصا عاديا مهذبا .

قضى الضابطان تلك الليلة فى خيمة خارج البلدة . وقد بعث الشيخ اليهما يطلب منهما سرعة مغـــادرة المكان نظرا لأن البلدة مليئة بالوهابيين المسلحين الذين لا يقل عددهم عن ألفين . ورغم ذلك فقد طلبهما وقال أن البلدة غير آمنة ، وفى هذه الأثناء كان خبر وجودهما قد انتشر ، وأخذ المئات من رجال القبائل يقتربون من مخيمهما . وكان هؤلاء المتجمعون صغار القامة ويلبسون رداء واحدا حول خصورهم وكانوا سمر البشرة ولهم شـــعور طويلة وقد شعر ولستد وزميله بأنه من الحماقه اطالة البقاء ، ولذلك فقد طويا خيمتهما سرا وركبا بعيرهما . وقد أخـــذ المتجمعون من الســـكان يصفرون ويقذفونهما بالحجـــارة . وقد علم الضـــابطان بعد أسبوعين بأن الوهابيين كانوا يقومون بغارة على عمان وانهما وصلا الى مسقط بقيـــادة سعد بن مطلق المطيرى نائب الأمير .

وكان قد عين سعد بن مطلق المطيرى حاكما على البريمى فى أواخر عام ١٨٣٥ . وعندما التقى به ولستد وواتيلك فى عبرى كان سعد فى طريقه ومعه ٣٠٠٠ قبلى لشن هجوم على الحجريين فى بداية ، والانتقام لمقتـــل والده الذى شهده وهو صبى قبل ٢٢ عاما . وقد علم ولستد بنتيجة تلك الغاره فيما بعد وهى كما يلى : « ما ان علمت القبيلة التى كان مطلق ينوى ابادتها قبل ساعتين من وصوله حتى عبأت نحو ٨٠٠ رجل من الموجودين فى ذلك الوقت للتصدى لقوات سعد بن مطلق . وكان جميع هـــؤلاء مسلحين تسليحا جيدا . كما أن تهديدات الشيخ سعد بعدم التراجع عما كان ينويه جعلهم يبذلون أقصى ما فى وسعهم لتحطيم هجومه . وعلى الرغم من عـــدم التكافؤ فى عدد المقاتلين فقد قام العمانيون بمفاجأة الوهابيين بشن هجوم

عنيف عليهم وأرغموهم على الانسـحاب من ميدان المعركة ، وبعد ابادة أعداد غفيرة من الوهابيين ، أرغموا البقية على الفرار . وقد تمكن مطلق الذى أصيب بجنون من نتيجة الهجوم من الافلات بفضل بعض الموالين له من رجاله ، ولولا ذلك للقى نفس المصير الذى لقيه والده من قبل .

بعد ثلاثة أعوام من هذه الواقعة كان سـعد بن مطلق خلالها قد أثار عداء كل قبائل الظاهرة بشراسته وغطرسته ، وانتهز شيوخ البريمى فرصة غياب نائب الأمير عن الواحة فقاموا بطرد الحامية واخراجهم نهائيا من عمان.

خلال العقد التالى من انشاء نظام الهدنة فى الخليج تعرض هذا النظام ليكون موضع الاختبار ، نتيجة للصراعات المسلحة التى انفجرت بين القواسم وبنى ياس خـلال فترة اتفاقية الهدنة ، وتغلغل الوهابيين الى جنوب شرقى الجزيرة . ومن الغريب أن تلك الصراعات لم تترك لها مضاعفات فى البحر. وكما حدث خلال الفترة الواقعة بين ١٨٣٥ ـ ١٨٤٣ كانت الاضطرابات تقع نتيجة للخلافات التى نشبت بين الدول غير المشتركة فى اتفاقية الهدنة وعلى الأخص كنتيجة للصراع الذى نشب للإستيلاء على البحرين . ومن الميسور تقديم بعض البيانات عن تلك الصراعات قبل الدخول فى تفاصيل ما حـدث فى مشيخات الهدنة وعمان بعد ١٨٤٣ والاتجاه الذى سارت فيه الأحـداث التى انتهت الى انشاء نظام الهدنة فى الخليج .

وكانت الصعوبات ترجع الى عدم الرقابة الفعالة من جانب الأسـطول بسبب قلة الصلاحيات التى يمارسها الأسطول الهندى فى مراقبة سـاحل الخليج . فبعد جمـلة عام ١٨١٩ / ١٨٢٠ ولبضع سنوات كانت وحـدة أسطول الخليج هى التى تتولى الرقابة على السواحل الفـارسية ، وعلى الأخص تلك السـواحل الموبوءة ، وكان هـذا يتم بموافقة ضـمنية من

السلطات الفارسية . وقد صرف النظر عن هذه العمليات فى أعقاب وفاة فتح على شاه سنة ١٨٣٤ ، الأمر الذى يعود بشكل خاطىء الى تدهور العلاقات البريطانية مع فارس بعد تولى محمد شاه الحكم فى فارس وقد ثبت من التجربة ان السلطات الفارسية في اقليم فارس لا تقوى بشكل فعال على السيطرة على قبائل فارس الساحلية . وبعد انتهاكات عديدة من قبل هذه الموانى خلال عام ١٨٣٩ ، اقترح هانيل على حكومته في شهر سبتمبر من ذلك العام أن تقوم بريطانيا بممارسة مسئولياتها فى مراقبة المنطقة على أساس الأمر الواقع . ولما أعيدت العلاقات الدبلوماسية التى كانت مجمدة فى ذلك الوقت بسبب مشكلة الحيرة ، فقد كان هناك احتمال أن توافق حكومة فارس على قيام بريطانيا بهذا الدور .

والخطر الذى نشأ بنوع خاص عند افتقاد مثل تلك الرقابة للساحل الفارسى هو المضاعفات المعاكسة لذلك الوضع على عملية الهدنة على الساحل الغربى . فالدول التى لم تكن من ضمن المشتركين فى الهدنة كانت حرة فى القيام بالهجوم على مشيخات الساحل ، كما أن دول المنطقة لم يكن هناك شيء يمنعها بموجب المعاهدة من الاقتتال فى البحر كيفما شاءت . وعلى أى حال فقد كان هناك الحظر الدولى الفاصل الذى يمنع تلك الأقطار من مد أمد الحرب الى الساحل الفارسى . و ن واقعة الصدام بين بنى ياس والقواسم فى صيف ١٨٤١ ، عندما عبر قواسم لنجة الخليج لمساعدة أخوانهم ، تكشف عن هذا الحظر بشكل واضح . وكنتيجة لهذا فقد تبنت حكومة بومباى مقترحات هانيل التى عرضها فى شهر أكتوبر عام ١٨٤١ واقترحت على السلطات المسئولة فى انجلترا وجوب اتخاذ الترتيبات اللازمة للاتفاق مع حكومة فارس لمنع وقوع مثل هذه الحوادث وكان اقتراح هانيل هذا قد أحيل بالفعل الى وزارة الخارجية فى شهر يناير ١٨٤٠ للدراسة ، ولكن بالمرستون

لم يؤيده ، ليس بحجة أن الشاه سيعارضه فحسب ، وانما لأنه قد يصبح مبررا للروس لمطالبة الحكومة الفارسية بامتيازات مماثلة فى منطقة بحر قزوين . وكان رأى بالمرستون « بأن على حكومة بومباى أن تكتفى » باتخاذ تلك الاجراءات التى يسمح بها قانون الأمم لقمع أعمال القرصنة فى تلك المناطق غير الخاضعة للسلطة الفارسية وقد ارسل نفس الرد على اقتراح حكومة بومباى الذى تقدمت به فى شهر نوفمبر ١٨٤١ ولم تبحث الموضوع مرة أخرى قبل سنة ١٨٤٦ ، عندما طلب حاكم فارس بنفسه من المقيم مساعدة بريطانيا له فى مكافحة القرصنة على سواحل فارس .

فى شهر مارس من عام ١٨٤٥ تحطمت السفينة البريطانية اميلى بالقرب من جزيرة قيس ، وقد قام السكان بنهب محتوياتها . وقد قدم الوزير البريطانى فى طهران طلبا الى الحكومة الفارسية بالتعويض ، ولكن لم يكن ثمة أمل فى نجاح الطلب ، اذ أن طلبات سابقة من هذا النوع لم تسفر عن نتيجة ، لاسيما وأن حكومة فارس كان ينقصها الوسائل البحرية اللازمة لمراقبة شواطئها . وبالنسبة لهذا الحادث بالذات فقد تعهد حسين خان حاكم الاقليم بالعمل ، وبالتالى ففى شهر ابريل ١٨٤٦ طلب الى هانيل ارسال طراد الى جزيرة قيس ليطلب من حاكمها رد السلع التى استولى عليها سكان الجزيرة أو دفع تعويض عنها . وقد امتثل هانيل لطلب الحاكم وتم الحصول على التعويض فى الشهر التالى . ولكن حسين خان عاد فقدم طلبا آخر الى هانيل أكثر خطورة . فلقد جرت العادة منذ مدة أن يقوم بارسال لطلبات الخاصة بالمخالفات للقوانين البحرية الى الوزير البريطانى المفوض فى طهران لارسالها الى حكومة فارس . وقد نتج عن ذلك خروج سيل من المراسيم من طهران الى شيراز ، الأمر الذى كان حسين لا يعارضه فحسب بل كان يخشاه ، لأن فيه تحديدا لسلطاته فى فارس . ولكى يتجنب

هذا الاحراج ، اقترح الأمير على هانيل في شهر يوليو ١٨٤٦ بأن يراسله مباشرة حول أي حادث من حوادث القرصنة يرتكب ضد السفن أو الرعايا التابعين للحكومة البريطانية من جانب القبائل الساحلية لفارس . وفضلا عن ذلك فقد أبدى رغبته في السماح للمقيم باستخدام طرادات أسطول الخليج لارغام القبائل اذا اقتضى الأمر ، وأن تساعد عموما في أعمال مكافحة القرصنة وقمعها . والشرط الوحيد الذي وضعه حسين خان ، هو أن يرافق كل طراد واحد من ضباط الجيش الفارسي في أي حملة تأديبية يتقرر القيام بها لهذا الغرض ، وقد بعث هانيل بتقرير حول هذا الموضوع الى حكومة بومباي جاء فيه : لقد حققنا مرحلة هامة بعد أن أصبحت عملية المراقبة في أيدينا ، فاذا أحسنا خطواتنا في الاستفادة من السلطة التي حصلنا عليها بموجب ذلك ، فان الأمل يراودني بقوة في أن أعمال السلب والنهب وانتهاك القانون التي سادت تلك المنطقة قد يتم القضاء عليها بصورة فعالة بحيث يستتب الأمن في المستقبل . ولقد صحت تنبؤات هانيل . وتم العمل بموجب التدابير التي تمت مع حاكم فارس للمرة الأولى في شهر نوفمبر ١٤٨٦ ، عندما قام اثنان من الطرادات بزيارة الى اسيلو ، وشيرو ، ونخيلو لارغام شيوخ تلك الموانى على تسليم السلع التي استولوا عليها من الرعايا البريطانيين . ومنذ ذلك التاريخ أخذت أعمال القرصنة في المياه الفارسية تتضاءل عاما بعد عام ، مما أسهم في التقليل من الحاجة الى استخدام القوة تبعا لذلك . غير أن هذا الاتفاق لم يوثق رسميا من جانب حكومة الشاه ، كما أن الحكومة البريطانية لم تجد من المناسب مطالبة حكومة فارس بذلك ، فالتفويض الضمني الذي اعطى للأسطول البريطاني بفرض رقابة على المياه الاقليمية الفارسية كان يعني اعترافا بالضعف وهو الشيء الذي يعارضه الشاه في قرارة نفسه .

ان النجـــاح الذى تحقق فى مجال مكافحة القرصنة على السواحل الفارسية قد شجع هانيل على أن يستشير المقيم والقنصل البريطـانى فى بغداد هنرى رولنسون فى أواخر سنة ١٨٤٦ فى اتخاذ اجراءات مشـــابهة لحل مشكلة القرصنة فى الميـــاه التركية بعد أن تأكد بأن القراصنة العـــرب والفرس يفلتون من الاعتقال عن طريق اللجوء الى الميـــاه التركية علاوة على أن غيرهم من القراصنة يمارسون هذه الأعمال فى المياه التركية نفســـها وعلى الأخص فى ميـــاه شط العرب ، دون أن تستطيع السلطات التركية معاقبتهم . وطالب بمحاولة اقناع والى بغداد نجيب باشا بتخويل الأسطول البريطانى سلطة القبض على القراصنة العرب والفرس فى المياه التركية عن أعمال اقترفوها فى مناطق أخـرى واعتقال نفس القراصنة على أعمـــال اقترفوها فى المياه التركية . ولسوء الحظ رأى رولنسون فى طلب هانيـــل اليه تطورا خطيرا ، وعلى حين تظاهر باعتبار اقتراح هانيل غير سليم ، فقد بعث بتقرير مطول الى وزارة الخارجية البريطانية اشار فيه الى الصلاحيات الواسعة التى أصبح هانيل يتمتع بها بالنسبة للسيادة البحرية والتى تخوله الحق فى معاقبة القراصنة عن الأعمال التى يقترفونها ضمن الخط الفاصـــل أى الى الشرق من حدود الخط الملاحى الدولى . وفى رأى رولنسون أن هانيل كان يتصور بأن شط العرب يدخل ضمن هذا الخط ،و بالتـــالى فانه يتصور بانه من حقه اعتقال أى مواطن عربى أو فارسى يقترف أعمال القرصنة فى المياه التركية . غير أن هذا الافتراض كانت ترفضه السلطات الفارسية لانه يهدف الى تجريدها من حقوق سيادتها على مياه شـــط العرب . وفى مناقشة خاصة مع نجيب باشا اكتشف رولنسون أن الوالى يعارض بشدة المقولة البريطانية فى تخويل الأسطول البريطانى القبض على القراصنة فى المياه التركية ، وهو لا يعارض هذا فحسب وانما يعارض أيضا معاقبة رعايا

الدول الأجنبية الذين يقترفون أعمال القرصنة فى المياه التركية . وكان رولنسون يؤيد هذا الرأى . أولا لأنه موقف ينسجم مع القانون الدولى ، وثانيا لأن أى تساهل من جانب الباب العالى فى هذا الشأن سوف يخلق سابقة مؤسفة قد تشجع الدول الأوربية الأخرى الى استغلالها لانتهاك حياد الملاحة التركية وموانيها (١) .

وقد اقر بالمرستون هذه الآراء وأبلغ حكومة الهند عن طريق مجلس الهند فى انجلترا فى شهر مارس ١٨٤٧ بعد الأحقية للأسطول لبريطانى فى القبض على القراصنة فى المياه التركية أو حجزهم فى المياه الدولية عن جرائم اقترفوها فى المياه التركية . وقد كان هذا القرار مفاجأة بعد أن كان الباب العالى قد وافق قبل بضعة أسابيع على حظر استيراد العبيد بطريق البحر الى العراق التركى وأنه قد خول الأسطول البريطانى حق تفتيش أى سفينة تخالف هذا الحظر وقد علق هانيل باستياء بعد علمه بقرار وزير الخارجية هذا بقوله :

انى اعترف وأنا أرى سياستنا المتقلبة فى الخليج الفارسى على امتداد العشرين عاما الماضية ، انى كنت تحت انطباع خاطىء ، اننا اذا ما ادخلنا فى الاعتبار انتهاك احد الزعماء العرب لأى معاهدة تربطنا به ، حتى ولو تم هذا الانتهاك ضمن حدود سيادة دولة أجنبية ، فاننا اذا اعتبرناه مسئولا عن ذلك الجرم ، ففى هذه الحالة لا نكون مخالفين للقانون الدولى . وفى الوقت نفسه اذا اعترفنا بالتصور الخاطىء الذى كنا نعمل على أساسه حتى الآن ،

---

(١) مسودات المجلس — من التقارير البرية الى الهند مجلد ١٩ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٧/٣/١١ (رقم ١٢٦٠) ومرفق به خطاب رولنسون الى بالمرستون ١٨٤٦/١٢/٢٨ .

فانني أرى أن التطبيق الحرفي لمبادىء هذا القانون كما هو مطبق بين الشعوب الأوربية على القبائل المتحضرة والمتحاربة التى تقطن سواحل الخليج الفارسى قد يؤدي الى نتايج فى غاية الخطورة بالنسبة لعلاقاتنا مع تلك القبائل(١).

ولقد تساءل هانيل عن الخطوات الواجب اتباعها لو وقع انتهاك لاتفاقية الهدنة بين دولتين مشتركتين فيها ؟

فلو قيل فى هذه الحالة للطرف المتضرر ، عندما يتقدم بطلب التعويض، بوجوب الاتجاه الى السلطات التركية ، « فان مثل هذا الرد لن يصدق » وكما ذكر هانيل فاننا لا نستطيع أن نقدم تفسيرا مقنعا لانسحابنا من نظام الرقابة فى المياه الدولية مما يؤدى الى ازالة الانطباع من أننا قد اضطررنا الى اجراء هذا التغيير فى مسئوليتنا بسبب ما أصاب نفوذنا وسلطتنا من ضعف.

غير أن أقواله وحججه لقيت أذنا صماء . فقد شكا شيل الوزير المفوض فى طهران والذى كان متخوفا من أن يعلم الروس عن تلك الامتيازات التى اعطاها الحاكم العام فى فارس سنة ١٨٤٦ للبريطانيين فيتخذها مبررا للحصول على امتيازات مماثلة في منطقة بحر قزوين ، وكان يجب على هانيل ن يستشيررولنسون قبل ارسال اقتراحه اليه ، كما أن رولنسون فى نظر شيل قد عقد الأمور اكثر ، وذلك بمناقشة الموضوع مع والى بغداد ، بل وأكثر من ذلك باحالة الموضوع الى السفير البريطانى فى القسطنطينية حيث تكشفت المسألة للرأى العام وعلى العكس من شيل ورولنسون فقد أيدت حكومة بومباى هانيل تأييدا تاما . وأبدت أسفها على الطريقة العشوائية التى عالج بها رولنسون هذا الموضوع .

---

(١) مرفق لسجل الرسائل السرية لحكومة بومباى مجلد ٨٨ مرفق للخطاب السرى رقم ٥٦ المؤرخ ١٨٤٧/٦/١٦ من هانيل الى ماليت ١٨٤٧/٥/٢٢ (١٩٤ الادارة السرية) .

وفى شهر أغسطس ١٨٤٧ وضع بالمرستون نهـــاية لهذه المشكلة ، عندما أيد آراء رولنسون ووبخ هانيل على تصوراته العقيمة لسياسة قمع القرصنة فى الخليج بحجة أن سفن الأسطول البريطانى لم يكن فى مقدورها ملاحقة القراصنة الى المياه التركية . وقال فى هذا الصدد « انه يبـــدو أن الماجور هانيل قد كون افتراضات مبهمة تقوم على أسس ضيقة جـدا » وسيكون من الأوفـق أن تترك الأمور كما هى حتى تتوفر الظـروف الملائمة للحصول على التصريح الذى يطالب به هانيل » وختم بالمرستون رسالته قائلا « ولعله من الخطورة بمكان مناقشة الموضوع الا اذا دعت الضرورة ، اذ أن الاتصال بالحكومة التركية للحصول على مثل هذا التصريح ، قد تفسره بأنها نملك حق الرفض ، وهو الشىء الذى قد لا يفطنون اليه الآن .

لم يطلب الى البحرين الاشتراك فى اتفـــاقية العشر سنوات وذلك للأسباب نفسها التى دعت الى استثنائها من المعاهدة السنوية : وهى عدم استقرار الأوضاع فى البحرين وتوابعهـــا والتهديدات التى كانت تتعرض لها من القـوى الخارجية ، والتى جعلت من المحقق ، أن المياه القريبة من البحرين قد تصبح مرتعا لحروب مستمرة ، كما أن مطالبة زعماء البحرين بالامتناع عن الدخول فى حروب بحرية ، يعنى مطالبتهم بالتخلى عن مبدأ أساسى من مبادىء الدفاع عن أنفسهم ، بالاضافة الى ما سيؤدى اليه ذلك من توريط بريطانيا بغير أسانيد قانونية فى خلافات ونزاعات تافهة . وعلى أى حال فقد كان هناك أمر أكثر خطورة ، لان اتفاقية الهدنة تتضمن التزام بريطانيا بالدفاع عن الأطراف المشتركة فى الاتفاقية ضد أى هجوم عليهم من الدول الخارجية . أما فيما يتعلق بالمشيخات الساحلية فان هذا الالتزام هو تطور منطقى للسياسة التى كانت متبعة فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وكان هدفها الحيلولة دون تعرض اســتقلال تلك الدويلات وسلطنة عمان للانتهاك من جانب الوهابيين أو غيرهم من الدول ، بحيث يتعرض الأمن

البحرى للخطر عن طريق اعاقة هؤلاء الشيوخ من ممارسة التزاماتهم بموجب معاهدة ١٨٢٠ بشكل فعال من ناحية ، ووقوع مسقط وموانيها وسفنها تحت سيطرة الوهابيين لاستخدامها فى أعمال القرصنة . وهكذا فقد تدخلت الحكومة البريطانية فى عمان خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لمنع خضوع سلطان مسقط لسيطرة الأمير الوهابى أو سقوط حكمه عن طريق العناصر المنافسة والمناوئة له فى داخلية البلاد . ثم تدخلت بعد ذلك ببضع سنوات لمنع تغلغل النفوذ الوهابى على السواحل العربية مما كان سيؤدى الى تعكير صفو الأمن فى مياه الخليج .

وفى الوقت الذى تم فيه ابرام معاهدة هذه السنوات العشر ، أصبحت السياسة المتفق عليها ، ان لم تكن السياسة للحكومة البريطانية ، هى ضمان استقلال مشيخات ساحل الهدنة وسلطنة عمان ضد خصومهم فى شبه الجزيرة ، وذلك لمصلحة الاستقرار فى منطقة الخليج ، غير أن ذلك كان على الدوام يتم على أساس الاعتماد على قوة الأسطول والضغط السياسى أو على كليهما ، ولم يتطلب التدخل بقوات عسكرية على أراضى المنطقة . اما الذى لم يكن مقبولا فى عام ١٨٤٣ ثم أصبح حقيقة لا مفر منها فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر ، أن نظام الهدنة قد جعل أمر الدفاع عن استقلال المشيخات التزاما على بريطانيا وليس مجرد ضرورة .

وكان هذا يعنى اشراك البحرين فى ذلك النظام وتحمل مسئولية الدفاع عنها ضد أعدائها الكثيرين . وعلى الرغم من أن السيد سعيد سلطان مسقط لم يعد مهتما بالاستيلاء على البحرين ، فان البحرين كانت معرضة لحركات تمرد وعصيان من جانب قبائل آل بنى على وآل بوعينين بزعامة عيسى بن طارق ، ومن جانب الفرس الذين كانوا يدعون السيادة عليها ، ومن جانب

ذوى الميول التوسعية لحركة الوهابيين فى نجد ، وأخيرا وان لم يكن بدرجة أقل من جانب القطاعات المتذمرة من أسرة آل خليفة . ومع ذلك فان حكومة بريطانيا قد اتخذت أول خطواتها فى مسئولية حماية البحرين سنة ١٨٣٩، عندما حاولت فى تلك الفترة منع المصريين من فرض سيطرتهم عليها . كما اضطرت الحكومة البريطانية الى اتخاذ سلسلة اجراءات من هذا القبيل للتدخل فى شئون البحرين ابتداء من عام ١٨٤٣ بسبب الأزمات التى تعاقبت على الجزيرة .

وقد اتجه حكم عبد الله بن أحمد فى البحرين الى الاستبداد فى عام ١٨٤٢ لدرجة أن تشكل حلف من العناصر التى تعرضت للاضطهاد على يديه وأعلنت نيتها فى اقصائه عن السلطة . وكان الحلف مشكلا من محمد بن خليفة أكبر أبناء أخيه ونجل شريكه السابق فى الحكم خليفة بن سلمان وعيسى ابن طارق وبشير بن رحمة ابن القرصان الخليجى المشهور رحمة بن جابر. وكان يساند هؤلاء الأمير الوهابى عبد الله بن ثوينى الذى كان يناصب عبد الله العداء بسبب حصاره للقطيف والاحساء . ففى أواخر عام ١٨٤٢ طلب كل من عيسى بن طارق وبشير بن أحمد من هانيل السماح لهما بالانطلاق من جزيرة قيس حيث كانت تتجمع قبائل آل بنى على وآل بوعينين لشن حرب ضد عبد الله بن أحمد . وقد سمح لهما المقيم بشرط حصر عملياتهم الى الغرب من الخط الدولى . وقد احتج عبد الله الى هانيل على اجرائه هذا قائلا بأنه سوف يستعين بالأمير الوهابى اذا لم يضع هانيل خصومه عند حدهم ، غير أن هانيل لم يكترث لاحتجاج عبد الله . فمنذ تواطؤ عبد الله مع المصريين عام ١٩٣٩ كانت حكومة الهند البريطانية تقف موقفا سلبيا منه ، ولم تكن تشعر بأى ندم على اسقاط حكمه . وفى شهر مارس ١٨٤٣ شن هذا الثلاثى هجومه على جزيرة البحرين . وخلال شهر أرغموا عبد الله على الاستسلام

وقد أقصى من الجزيرة بعد أن اصطحب معه سفينتين من سفنه .

وخلال الأعوام الستة التى أعقبت ذلك ظل عبد الله يتنقل فى مناطق الخليج حتى مرض . وقد رفض عرض أبناء عمومته الكويتيين لايوائه عندهم، وفضل عبد الله بن احمد التحالف مع بعض العناصر المشبوهة التى كانت تتخذ منه مخلب قط فى تحقيق أغراضها . وكانت تؤرق ضميره باستمرار تصرفاته القديمة ، كما أعلن فيصل بن تركى الذى استعاد امارة الوهابيين عام ١٨٣٤ بأن عبد الله عدوه اللدود لا بسبب تواطئه فى عملية اغتيال والد فيصل ١٨٣٤ وانما لابتهاجه بقيام المصريين ١٨٣٨ باقصاء فيصل عن الحكم . وفى عام ١٨٤٢ طرده عبد الله من الدمام ، وكانت الدمام البقعة الوحيدة التى بقيت له على ساحل شبه الجزيرة ، والتى كان قد احتلها خلال الفوضى التى عمت المنطقة فى أعقاب انسحاب المصريين منها . كذلك أعطى فيصل تأييده السافر لمحمد بن خليفة ، خليفة عبد الله على الحكم فى البحرين ، والذى تعهد بدفع الزكاة للأمير الوهابى فى مقابل ذلك التأييد . كما أن شيوخ الساحل رفضوا مساعدة عبد الله لعدم رغبتهم فى اغضاب فيصل من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب التحذير الذى وجه اليهم هانيل بعدم التورط فى تلك المشكلة حتى لا تقع المنطقة فى حروب دموية . وبعد أن يئس عبد الله بن أحمد من كل هؤلاء عبر الى الساحل الفارسى فى عام ١٨٣٩ لطلب المساعدة من الفرس .

وباستثناء المحاولة الفاشلة التى قام بها الفرس عام ١٨٣٩ للحصول على اعتراف من حاكم البحرين بالسيادة على الجزيرة ، فان فارس لم تحاول مرة أخرى المطالبة بالبحرين منذ ابرام مايسمى بمعاهدة شيراز لعام ١٨٢٢ وقد راجت الاشاعات خلال عام ١٨٤٢ عن غزو تنوى فارس القيام به للبحرين ، مما دفع حكومة الهند فى شهر اغسطس من ذلك العام الى اصدار

تعليماتها الى المقيم البريطانى فى الخليج تقول : « انه فى حالة قيام الحكومة الفارسية بارسال قوة من السفن المسلحة ، او سفن تحمل مسلحين ، يتعين مراقبة تلك السفن بحيث اذا قامت تلك السفن بالاستيلاء فعلا على أراضى تابعة للزعماء العرب المتحالفين مع الحكومة البريطانية ، والاحتجاج لدى السلطات الفارسية فى البداية ضد تلك الاجراءات ثم التصدى لها فى حالة اصرارها على الاستيلاء على تلك الأراضى ، ولم تصدر هذه التعليمات لوجه عبد الله بن أحمد وانما لمصلحة الأمن البحرى فى الخليج . وكانت تلك التعليمات خطوة أخرى فى اتجاه الاعتراف باستقلال البحرين وتحمل مسئولية الدفاع عنها .

وأعقب هذه الخطوة التى اتخذتها سلطات الوطن سنة ١٨٤٤ بعد تلقيها تقارير من الخليج بأن عبد الله بن أحمد يتآمر مع حاكم فارس للانقضاض على البحرين . وقد أوعز اللورد ابردين وزير الخارجية فى ذلك الوقت الى الكولونيل شيل المقيم فى طهران فى شهر مايو بتقديم تحذير الى الحكومة الفارسية ، بأن أى تدخل من جانبه فى نزاع عبد الله بن أحمد سيكون موضع استياء من جانب حكومة الهند البريطانية ، وأنها ما لم يكن تدخل فارس فى هذه المسألة بشكل قانونى ، فانه قد يسفر عن قيام خلافات مع انجلترا ، واستطرد ابردين فى رسالته يقول : مالم تثبت حكومة فارس أن لها حقا شرعيا فى هذا التدخل فعليه أن يبلغها بانه مالم يكن لها حق واضح وغير قابل للنزاع فى السيادة على البحرين ، وانها قد مارست هذه السيادة وبغير انقطاع خلال حكم اسرة القاجار ، وأن اجراءها هذا هو من منطلق ممارستها لهذه الحقوق المشروعة ، وليس على أسس غير مستندة

على حقوق قانونية ، فان على فارس أن تتوقع مجابهة نشطة من حكومة الهند البريطانية حول هذه القضية (١)

وقد سلم شيل تحذيره الى حكومة الشاه فى الشهر التالى . وكما كان متوقعا فقد تمخض هذا الاجراء عن التوجه باحتجاج من حكومة فارس الى بريطانيا . غير أن المسألة توقفت عند هذا الحد . وخلال هذه الفترة قام عبد الله بسلسلة من الغارات على سفن البحرين من ملجئه فى نابند على الساحل الفارسى . وقد أدى ذلك بمحمد بن خليفة الى أن يطلب من المقيم البريطانى بوقف عبد الله عند حده أو السماح له بعدم الالتزام بالخط الملاحى الفاصل حتى يتمكن من ردع الشيخ عبد الله بن أحمد بنفسه ، ولما كان من المحتمل أن يؤدى الجزء الثانى من الطلب الى نشوب القتال بالقرب من الخط الرئيسى من الملاحة البحرية للخليج ، فقد وافق هانيل على كبح جماح عبد الله . ولما رأى عبد الله ، وكان على حق ، أن الحكومة البريطانية تعامله معاملة مجحفة غادر نابند الى الكويت فى خريف عام ١٨٤٥ (٢) وفى صيف العام التالى استأنف عبد الله عملياته ضد محمد بن خليفة وذلك بالتعرض لسفن البحرين فى المياه الواقعة بين الجزيرة والساحل . ثم غاب عن المسرح لعام واحد عاد بعده بمحاولة جديدة لاسقاط حكم خلفه عن الحكم ، وقد انضم هذه المرة الى عدوه القديم عيسى بن طارق ، الذى اختلف مع محمد بن

---

(١) مسودات المجلس من التقارير السرية الى الهند مجلد ١٨ مسودة الى الحاكم العام ١٨٤٤/٥/٢ (رقم ١٠٠١) ومرفق نسخة من خطاب ابردين الى شيل ١٨٤٤/٥/١ (رقم ٢٣) .

(٢) من سجلات الخطابات السياسية لحكومة الهند مجلد ٣٣ من حاكم بومباى الى مجلس ادارة الشركة ١٨٤٦/١/٣١ (رقم ٢٠ الادارة السياسية) .

خليفة بعد مساعدته للوصول الى الحكم مباشرة فى عام ١٨٤٣ ، والذى ظل منذ ذلك الحين يتحرك ذهابا وايابا بين جزيرة قيس والدوحة . وفى شهر نوفمبر من عام ١٨٤٧ وبتحريض من عبد الله شن عيسى بن طارق هجوما على ممتلكات محمد بن خليفة الواقعة فى المنطقة الشمالية من قطر . غير أن هذا الهجوم قد فشل وسقط عيسى بن طارق قتيلا فى المعارك التى نشبت بالقرب من الغويرات . وعندما علم هانيل بمقتل عيسى أبدى أسفه على موت رجل كان يتمتع بطاقات كبيرة وأخلاق عالية ، حتى ولو كان غيابه عن مسرح السياسة فى الخليج سوف يسهم ولاشك فى اقرار السلم فى المنطقة .

وكان أتباع عيسى بن طارق من قبائل آل بنى على وآل بوعينين لايزالون مقيمين فى جزيرة قيس ، ولو استمر هؤلاء هناك وظلوا يواصلون نشاطهم ضد محمد بن خليفة ، فانهم سوف يخلقون للحكومة البريطانية نفس المشاكل التى كان يسببها لهم عبد الله بن أحمد ١٨٤٥ عندما كان ينطلق من قواعده على الساحل الفارسى للاغارة على سفن البحرين . وانصافا للواقع فانه لم يكن فى وسع المقيم أن يسمح لخصوم محمد بن خليفة بمهاجمته ، كما لم يكن فى وسعه أن يمنعه من اجتياز الخط الفاصل للانتقام من معارضيه . وكان محمد بن خليفة ملما بهذه الحقيقة ، وبالتالى عندما عرف فى عام ١٨٤٧ أن عيسى بن طارق ينوى الهجوم عليه فى قطر ، وقد استفسر من هانيل عما اذا كان له الحق فى اجتياز الخط الفاصل لمهاجمة خصمه عيسى ابن طارق وارغام المتمردين على العودة الى موطنهم الأصلى للانصياع لسلطته. وعندما فشل فى ذلك عاد يسأل عما اذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لكبح جماح المتمردين المقيمين فى جزيرة قيس ، كما فعلت بالنسبة لعبد الله ابن أحمد .

وكان محمد بن خليفة يراهن على خوف المقيم من تجدد القتال على الطريق العام للملاحة الدولية بحيث يضطره الى رفض الجزء الأول من الطلب ويوافق على الجزء الثانى . غير أنه قد تبين لشيخ البحرين بأن المشكلة لم تكن بتلك البساطة . فقد كان رد هانيل على طلب محمد بن خليفة بأنه سوف يبعث بطلبه الى رؤسائه ليقرروا رأيهم فيه . ولكن حاكم بومباى رأى احالة الموضوع الى الحاكم العام للهند ، ولذلك فقد أحاله الى كلكتا وقد أحاله الحاكم العام بدوره وبالنظر الى أن الموضوع يمس العلاقات البريطانية مع فارس بحكم أن جزيرة قيس جزيرة فارسية فقد رفع الأمر الى السلطات فى لندن .

وفى وزارة الخارجية كان بالمرستون واثقا من الاجراء الذى سوف يتخذه وقد أوعز الى القائم بالأعمال البريطانى فى طهران فى أواخر العام بالاتصال بالحكومة الفارسية لمنع الفارين فى جزيرة قيس من شن هجوم على البحرين ، كما طلب من مجلس الهند فى الوقت نفسه ، ليتأكدوا من حصول هانيل على تفويض باستعمال الامكانيات البحرية للدفاع عن البحرين اذا دعت الحاجة ولكن رئيس وزراء فارس الحاج ميرزا أغاس بعد أن اكتشف نوايا الجانب البريطانى قدم احتجاجا الى القائم بالأعمال البريطانى فى طهران اللفتنانت كولونيل فيرانت على تدخل الحكومة البريطانية فى شئون البحرين التى قال عنها أنها احدى الولايات الفارسية . أما فيرانت فقد ذكر لرئيس الوزراء عند تسليم رسالة وزير الخارجية اليه فى فبراير ١٨٤٨ بأن الحكومة البريطانية لاتعترف لفارس بسيادتها على البحرين ، وهنا توقفت المسألة عند هذا الحد . كما أن المتمردين فى جزيرة قيس لم يشنوا أى هجوم على البحرين طوال عام ١٨٤٨ ، ولم يقم محمد بن خليفة هو الآخر بأى تحركات ضد هؤلاء المتمردين . ولذلك فان هانيل لم يعد فى حاجة الى مناقشة الموضوع ، كما

أن حكومة فارس كانت مشغولة فى تلك الفترة بآثار وفاة محمد شاه وتقلد الشاه الجديد للحكم ، بما لم يكن يسمح لها هذا الموقف باثارة موضـــوع البحرين .

فى مطلع عام ١٨٤٩ وقد ساءت حالة عبد الله بن أحمد الصحية والمالية ، فقد غادر بوشهر حيث كان يقيم فى ذلك الوقت وتوجه الى مسقط فى طريقه الى زنجبار لكى يحاول اقناع السيد سعيد خصمه القديم بأن يتبنى قضيته ، غير أن سفره أثار ازعاج محمد بن خليفة ، لأنه كان متورطا فى ذلك الوقت فى مشاكل داخلية مع الأمير فيصل بن تركى ، بصـــدد ممتلكاته فى شـــبه الجزيرة العربية ، بالاضافة الى احتمال نشوب نزاع مع عمه الأكبر . وقد كان هذا عبئا ثقيلا عليه . وهكذا ففى بداية عام ١٨٤٩ قرر محمد بن خليفة وأفراد أسرة آل خليفة جميعهم الاتصال بالحكومة البريطانية لوضع البحرين تحت سيادتها . وفى ٩ من فبراير (١٥ ربيع الأول ١٢٦٥) بعث محمد بن خليفة برسالة الى هانيل ضمنها هذا العرض :

« اعرفكى بأننى اعلم أن جميع البلدان الواقعة فى هذه المنطقة تعتمد على أحد السلاطين فى وجودها ، وعلى سبيل المثال فان حكومة اقليم فارس تعتمد على الفرس وهكذا أيضا سكان الكويت والوهابيون وغيرهم يعتمدون على تركيا . أما عن نفسى فكما تعلمون فانى اعتمد على الحكومة البريطانية الموقرة ، وانى أحد اتباعها . وانى متأكد انكم لن تقبلوا وقوع اى ضرر او اساءة للبلدان التابعة لحكومتكم . ولهذا فانى اطلب منكم ، اذا كنتم توافقون الآن على ما اريد ، وقد صممت على تحقيقه . ان تعملوا على عودة اولئك الذين انشقوا عنى الى طاعتى وذلك لمصـــلحة البلد واهلهـــا . أما اذا كنتم

تعتقدون اننى اتبع دولة أخرى فارجو أن تعرفونى عن الخطة التى تناسب الحكومة البريطانية كى انفذها » .

وقد بعث هانيل بخطاب الأسرة الحاكمة فى البحرين الى الحاكم فى بومباى مع ملاحظة واحدة وهى أن التصور المصطنع لمحمد بن خليفة أن رخاء الكويت من ناحية ، ورخاء بوشهر وغيرها من الموانى الفارسية من ناحية أخرى انما يعود الى خضوعها الى السلطان العثمانى وشاه فارس ، وبالتالى فان أحوال البحرين سوف تزدهر فيما لو خضعت هذه الجزيرة للنفوذ البريطانى . وعلى أى حال فقد أشار هانيل الى أن السبب الرئيسى لتدهور أوضاع البحرين فى السنوات الأخيرة انما يرجع الى الحكم التعسفى الذى كان يفرضه عليها كل من عبد الله بن أحمد ومحمد بن خليفة . أما فيما يختص بطلب محمد بن خليفة فقد ذكر هانيل بانه كان يعارض انشاء تقارب مع البحرين أعمق مما كان قائما بموجب اتفاقية الصلح العامة لسنة ١٨٢٠ ، وتعهد عبد الله ابن أحمد فى ١٨٣٦ باحترام الخط الدولى للملاحة البحرية . وأن هـــذه الوثائق تكفى لمنع البحرين من تعكير صفو الأمن فى البحار . أما الجزيرة نفسها اذا استثنينا ممتلكاتها الداخلية ، ففى قدرة الأسطول البريطـانى أن يضعها عند حدها ، وأن فرض الحماية على البحرين قد يؤدى الى تورط بريطانيا فى شئون المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية وقد أقرت حكومة الهند هانيل على آرائه ورفضت عرض محمد بن خليفة ١٨٤٩ لوضع بلاده تحت الحماية البريطانية . فى هذا الوقت تضـــاءل اهتمـام محمد على بمشاكله . فقد سوى نزاعه مع الأمير فيصل وفى شهر فبراير توفى خصمه عبد الله بن أحمد فى مســقط . أما وقد تخلص محمد بن خليفة من ألد خصومه ومناوئيه ، فقد أصبح فى مقدوره أن يتنفس الصعداء . أما موضوع

وضع البحرين تحت الحماية البريطانية أو موضوع دخولها الى عضوية اتفاقية الهدنة ، فلم يعرض للبحث مرة اخرى لفترة من الوقت .

لقد توافق ابرام اتفاقية الهدنة الموسعة مع قيام السلطات الوهابية وانتشار مبادئها فى المنطقتين الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة العربية ، بعد انسحاب المصريين منها ١٨٤٠ . أما خالد بن سعود صنيعة المصريين ، والذى أخلفه خورشيد باشا على الحكم بعد انسحابه ، فقد اقصاه عن الحكم ابن أخيه عبد الله بن ثنيان وذلك فى شـــهر ديسمبر ١٨٤١ والتجأ الى الاحساء ومن قاعدته فى الدمام ظل يحاول استعادة السلطة فى نجد ، غير أنه اضطر فى صيف عام ١٨٤٢ الى الاعتراف بعجزه عن تحقيق اهدافه . وفى شهر يونيو وصل الى جزيرة خرك حيث أبلغ المقيم بالوكالة انه ذاهب الى الكويت . وفى شهر مايو من عام ١٨٤٣ افرجت السلطات المصرية فى القاهرة عن فيصل بن تركى حاكم نجد السابق وسرعان ماعاد الى نجد حيث سلمه الحكم هناك عبد الله بن ثنيان ، ويبدو أن فيصل قد عاد الى السلطة فى نجد كصنيعة لمحمد على باشا وللسلطان العثمانى فى نفس الوقت ، لأنه شرع منذ ذلك الوقت فى دفع الزكاة الى محمد بن عون شريف مكة الذى أوكل اليه محمد على باشا السلطة فى الحجاز على أثر انسحاب القوات المصرية منها وقد سبق أن اعترف الأمير خالد قبل عامين بالسيادة العثمانية على الحجاز على الرغم من أن الباب العالى لم يكن يتمتع بالاسس القانونية للسيادة على نجد .

على أن السلطات البريطانية فى الهند أخذت تنظر الى عودة فيصـــل ابن تركى الى الحكم بتحفظ كبير . أما هانيل فقد كان يتصور أن خالد سيمارس نفوذا أكثر ثباتا فى الأوضاع السياسية لشبه الجزيرة العربية من

خالد ، حتى أنه اوصى فى شهر فبراير ١٨٤١ بممارسة الضغط على محمد على باشا للافراج عن فيصل ، اعتقادا منه ان مثل تلك الخطوة بالاضافة الى أن الانطباعات التى كان فيصل قد كونها عن قوة النفوذ البريطانى قد تشجعه على تأييد الجهود البريطانية التى تبذل لتحقيق السلم والاستقرار فى شبه الجزيرة العربية ، غير أن سلوك فيصل بعد عودته لم يكن يبرر ثقة هانيل فيه ، فخلال شهر من عودته اغتنم فرصة اقصاء عبد الله بن أحمد عن الحكم فى البحرين للتدخل فى شئون الجزيرة تحت شعار الوساطة وقبل أن ينتهى فصل الصيف أخذ يخابر شيوخ الساحل غير أن حكومة بومباى وبعد اجراء مشاورات مع حكومة الهند قررت فى نهاية العام أن تستمر فى اظهار مشاعر الصداقة تجاه فيصل طالما اقتصرت جهوده على تثبيت حكمه على ممتلكاته السابقة ، أما اذا أصبحت علاقته بالبحرين وبمشيخات الساحل تهدد بعودة أعمال القرصنة الى المنطقة فينبغى مقاومة تلك السياسة ، وبعبارة أخرى فلم تكن هناك نية لوضع حدود معينة للمناطق التى يشملها نفوذه ، وعليه فعندما اتصل شيوخ النعيم فى البريمى بالمقيم البريطانى فى شهر نوفمبر ١٨٤٣ يعربون عن مخاوفهم من هجوم وهابى محتمل على منطقتهم ويطالبون بالمساعدة البريطانية لرده ، وقد أخبرهم المقيم بأن سياسة المحافظة على استقلال البريمى فى وجه التهديدات القادمة من نجد ، انما كانت تنطبق فقط على الفترة التى كان المصريون يحتلون فيها شبه الجزيرة العربية ، وخلال حكم مرشح الادارة المصرية الأمير خالد ، أما وقد انسحب المصريون والأمير خالد من المسرح ، فان الحكومة البريطانية بدورها لاتسعى الى التدخل فى سياسات شبه الجزيرة . وفى شهر ديسمبر تلقت الممثلية رسالة من الأمير فيصل يبلغها فيها استئنافه الحكم فى نجد والاحساء ، ويعرب عن أمله فى استمرار العلاقات الودية التى كانت قائمة بينه وبين الحكومة البريطانية .

وقد بعثت حكومة الهند برد ودى اليه، واشارت فى ردها الى حرص الحكومة البريطانية على الأمن البحرى فى الخليج . كما أشارت بنوع خاص الى أنها تأمل بأن لايتعارض امتداد نفوذه مع ممارسة شيوخ الساحل لالتزامهم للمحافظة على السلم فى المنطقة . ولم يظهر فيصل أى دليل على القيام بأى تحركات فى اتجاه عمان الشمالية أو الساحلية قبل بداية عام ١٨٤٥ . ففى ١٣ يناير من عام ١٨٤٥ تحركت قوة من ٧٠٠ رجل بقيادة سعد بن مطلق من الاحساء فى طريقها الى عمان وفى ٧ فبراير وصلت القوة الى البريمى وسرعان ماسلم النعيم القلعة اليهم وقد استقبل سعد بن مطلق عند قدومه بحماس شديد وعلى الأخص من جانب القبائل الغافرية ، بينما سرى الخوف من وصولها بين القبائل الهناوية . وقد غادر السيد سعيد مسقط الى زنجبار فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٤ترافقه كتيبة من ١٠٠٠ مقاتل تم جمعها من ساحل الهدنة ، وذلك للاشتراك فى القتال فى افريقيا الشرقية . وقد أناب السيد ثوينى نجل السيد سعيد عنه فى الحكم . ونظرا لضعف شخصية ثوينى وعجزه عن مواجهة مثل هذه المواقف ، فقد شعر بالخوف من ظهور الوهابيين ، فبادر بالكتابة الى هانيل يسأله رأيه فيما يمكن أن يفعله ازاء تلك التطورات . وقد أشار عليه هانيل بعدم استفزاز الأمير فيصل بلا سبب ، وانما عليه أن يوافق على مطالبه منه اذا لم تكن تمس استقلال عمان . ولكى يطمئن هانيل السيد سعيد فقد أشار فى رسالته اليه بعلاقات الصداقة الوثيقة القائمة بين آل بوسعيد والحكومة البريطانية والواقع أن مخاوف السيد ثوينى كان لها ما يبررها . ذلك أن شيوخ الساحل ، فيما عدا خليفة ابن شخبوط حاكم أبوظبى العدو العريق للوهابيين ، ومكتوم بن بطى شيخ دبى الذى كان موجودا فى افريقيا الشرقية مع السيد سعيد سارعوا الى الاعراب

عن ولائهم لسعد بن مطلق . وفى ابريل وجه نائب الأمير رسالة بمطالبه من السيد ثوينى وابن أخيه السيد حمود بن عزان والى صحار ، باستئناف دفع الزكاة التى كانت تدفعها مسقط فى السابق الى الرياض . وقد طلب سعد مبلغ عشرين ألف ريال من ثوينى وخمسة آلاف ريال من حمود وقد اعتزم السيد حمود أن يدخل فى معركة مع الوهابيين ، غير أن السيد ثوينى نصحه بالتريث . وبعد ذلك بعث السيد ثوينى برده الى سعد وقال بأنه لابد من احالة الطلب الى والده فى زنجبار ، وانه يطلب منه مهلة ريثما يتلقى الرد . وقد وافق سعد بن مطلق على طلب السيد ثوينى الذى وجه نداء عاجلا بالمساعدة الى حاكم بومباى .

وقد كانت حكومة بومباى على استعداد للقيام بكل ما تستطيع لمساعدة السيد ثوينى . فقد كان الوضع فى عمان يبدو لهم مشحونا بالأخطار ، سواء فيما يمس استقلال السلطنة ، أو فيما يختص بنجاح نظام الهدنة . وكانت الفرصة سانحة أمام سعد بن مطلق لكى يثير الخلاف الأبدى بين بنى ياس والقواسم ، ويسوق القبيلتين الى حرب قد تمتد الى البحر . ومع ذلك فقد كانت حكومة بومباى مقيدة اليدين بموجب بيان مجلس ادارة الشركة الصادر عام ١٨٤٤ بعدم أحقية سلطان مسقط فى طلب الحماية البريطانية ضد الوهابيين أو ضد أى من خصومه فى شبه الجزيرة ، وبعدم جواز تقديم المساعدة اليه طالما الوهابيون على علاقة ودية مع الحكومة البريطانية . أما عن حكومة الهند فانهـا من جانبهـا ظلت متمسكة برأى بتنك ١٨٣٤ بعدم استخدام الأسلحة والأموال البريطانية للدفاع عن عمان واذا كان هدف سعد ابن مطلق هو السيطرة على القسم الشمالى من عمان ، فان هذا الهدف ، كما قالت عنه حكومة الهند لحكومة بومباى بانه لا يستدعى التدخل البريطانى...

الا اذا كان غرض فيصل بن تركى هو دفع نفوذه الى ماوراء الحدود السابقة ، والاعتداء على أراضى حليفنا سلطان مسقط، أو اذا ماتبين أن هذه الاجراءات سوف تهدد علاقاتنا بالقبائل العربية على ســـاحل الخليج وجهودنا لوقف أعمال القرصنة ، فان هذا قد يثير موضوع تدخلنا فى المنطقة ، وفى هذه الحالة ينبغى التوضيح للامير فيصل بن تركى بأن صبرنا واحتمالنا الذى هو السبب فى تشجيعه على المضى فى هذه السياسة ، سوف ينفد : وباننـا لا يمكن أن نتساهل أو نسمح بشن اعتداء متعمد على حليفنا القديم ... وأن الحاكم العام يرغب على أى حال فى أن يوضح بأنه لاينوى توريط حكومته فى الوقت الحاضر فى سياسة من المحتمل أن تستدعى ارسال قوات الى الخليج من ناحية ، ومن ناحية أخرى لن يوجه أى تهديد الى الأمير الوهابى أو نائبه سعد بن مطلق لايستطيع تنفيذه .

وعلى كل فان الوضع فى المنطقة لم يكن من الوضوح الذى كان عليه قبل عقد من الزمن . فمن ناحية فان السيد سعيد قد قدم جملة تنازلات للحكومة البريطانية فى موضوع تجارة الرقيق على امتداد السنوات الأخيرة ، كما كان يطلب اليه من جانب المعتمد البريطانى فى زنجبار الموافقة على وضع حظر شامل على تصدير العبيد من ممتلكاته فى افريقيا الشرقية . فالتنازلات التى قدمها السيد سعيد سابقا قد حولت الرأى العام ضده فى دول الخليج العربية ، واذا قدم تنازلات أخرى فقد تجعله هدفا لاجراءات انتقامية منهم . وبالتالى فقد كان هناك التزام من جانب الحكومة البريطانية ١٨٤٥ بتأييده . وهو تأييد لم يكن واردا فى ١٨٤٣ . ومن ناحية أخرى فان السيد سعيد قد أثبت خلال تلك المرحلة من علاقاته ببريطانيا، أن مصلحة عمان لا تدخل فى اعتباره ، فقد كانت زنجبار قلب امبراطوريته . وبالتالى فان السؤال الذى

كان يطرح نفسه عندما ظهر سعد بن مطلق على المسرح لم يكن الجواب عليه سهلا وكانت المسألة لاتزال رهن البحث فى أوساط الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت .

ان سعد بن مطلق بالرغم من وعده لثوينى بانتظار رد من السيد سعيد على مطالبه فقد أخذ يشن الغارات على ساحل الباطنة ، وعندما احتج ثوينى على ذلك ، تلقى ردا قاسيا متعجرفا ! ! صحيح فان القائد الوهابى كان يرمى الى أكثر من العبارات والتهديدات ... أما حمود بن عزان فقد استسلم لسعد وقام بدفع الزكاة المطلوبة منه . وفى شهر يونيو استدعى سعد بن مطلق قبائل الظاهرة وطلب منها الاشتراك فى حملة ضد مسقط . وقد تحمس البعض لهذا الاجراء حتى يقال (أن بنى قتب وحدهم أبدوا استعدادهم للمساهمة بنحو ١٣٠٠ رجل) وهكذا أصبح مصير عاصمة عمان فى كفة القدر . أما الحكومة فى مسقط فقد اظهرت العجز والتخاذل ، ولم يتمكن ثوينى من تعبئة قوات للدفاع عن العاصمة كما ذكر هانيل . وفى هذه اللحظة بالذات تدخل هانيل وأرسل طرادين لمراقبة ساحل الباطنة ودعم موقف السيد ثوينى ، كما اضطر سعد بن مطلق بوقف عملياته ، كما بعث برسالة احتجاج الى الأمير فيصل يحتج على تصرف نائبه ، ويطالبه بوقفه عند حده . وقد رد فيصل ردا مؤكدا حق السيادة على عمان ، غير انه لم يجرؤ على القول بامكان فرض تلك السيادة بالقوة .

فى هذه الأثناء كان ثوينى قد تلقى رد والده الذى أوعز اليه بالعمل على تقوية دفاعات عمان ، كبركا وسمايل ونخل ، وبأنه فى حالة اندلاع قتال سافر مع الوهابيين فعليه أن ينسحب الى مسقط ، واذا اضطر الى دفع الزكاة للوهابيين فيمكنه أن يدفع لهم ٦٠٠٠ ريال نمسوى فى كل عام . وفى أواخر

يونيو أو أوائل يوليو توصل السيد ثوينى الى اتفاق مع سعد بن مطلق وافق بمقتضاه على دفع ٥٠٠٠ ريال نمسوى سنويا للامير فيصل وباعطاء سعد ابن مطلق نفسه هدايا بقيمة الفى ريال نمسوى . ويعتقد هانيل بأن الاعتدال النسبى فى موقف سعد ترجع أسبابه الى تضاؤل التأييد القبلى له وظهور الأسطول البريطانى على ساحل الباطنة . وقد وافق مجلس ادارة الشركة فى صيف ١٨٤٥ على اجراءات هانيل بشىء من التحفظ ، وأقر المسئولون لهانيل بأن علاقة بريطانيا بمسقط قد توثقت أكثر منذ ١٨٣٤ ، وذلك فى الدرجة الأولى نتيجة الاتفاقات التى عقدت بين الحكومتين حول تجـــارة الرقيق ، غير أنهم لم يفكروا فى الخروج على الخطوط العامة للسياسة التى قرروها فى ذلك الوقت . فالاعتراضـــات التى كانت موجودة يومئـــذ على التدخل فى الشئون الداخلية لعمان كانت لاتزال قائمة . وان المساعدة البحرية من النوع التى قدمها هانيل للسلطان يمكن ان تقدم اليه مرة أخرى اذا تعقدت أموره مع الوهابيين ، وان مساعدة كهذه قد تساعده على الخروج من تلك المشاكل ، خاصة وأن الوهابيين يخشون من أى نشـــاط يقوم به الأسطول ضد موانيهم فى الاحساء وانه لمن تكرار القول أن نؤكد على خطأ القيام بأى عمليات برية فى شبه الجزيرة . وقد كان أعضاء مجلس ادارة الشركة يلحون على أن لا تقدم بريطانيا أى مساعدة للسلطان دون ثمن . وانما نظير تنازلات جديدة منه فى موضوع تجارة العبيد ، ومقابل تعهد منه بتنظيم شئونه الداخلية . ونتصور انه لابد لنا من مطالبة سلطان مسقط بتكريس قدر أكبر من اهتمامه الشخصى الى حماية ممتلكاته فى شبه الجزيرة . وأن الحكومة المحلية الموجودة حاليا فى مسقط لايبدو أن فى وسعها مواجهة اى مشكلات داخلية كانت أو خارجية . وأنه مالم يقم السلطان فى البلاد ولو على فترات ، فانه لايمكنه الاهتمام بمصالحه ، مالم يكن يتصور أن هنـــاك

من سيحميه من الخارج . كانت هذه التحليلات ، تحليلات تتمشى مع واقع عمان ومشاكلها ، غير أن أعضاء مجلس ادارة الشركة قد فشلوا فى ادراك اهمال السيد سعيد لعمان وتكريس نفسه لتحقيق أطماعه الشخصية فى افريقيا الشرقية .

ظلت الحالة هادئة هدوءا مشوبا بالقلق فى المنطقة الشمالية من عمان خلال الفترة الباقية من عام ١٨٤٥ . وقد عادت الأمور فاضطربت بشكل خطير عندما اغتيل كل من خليفة بن شخبوط ، شيخ ابوظبى وأخيه سلطان ، من قبل أحد أفراد آل بوفلاح فى نهاية الصيف ، غير أن القاتل قتل هو الآخر من قبل بعض اتباع سعيد بن طحنون نجل الزعيم السابق طحنون ابن شخبوط الذى وقع صريع ضربة نصل من خليفة فى شهر ابريل ١٨٣٣ . وقد خشى هانيل أن الاضطرابات فى ابوظبى والخلاف بين أسرة آل بوفلاح حول الخلافة على السلطة قد يمتد الى المناطق البحرية ، ولهذا رأى أن يعترف لسعيد بن طحنون بالمشيخة باعتباره الرجل الأقوى . وانطلاقا من هذا التصور أرسل هانيل الطراد دجلة الى أبوظبى فى شهر اكتوبر لتسليم خطاب الاعتراف الى الحاكم الجديد ، وعرض التأييد والمساندة للشيخ . وقد رحب بنو ياس بخطوة هانيل ، وتعهد سعيد باحترام التزامات المشيخة للحكومة البريطانية . وفى بومباى أمر الحاكم الكومندور هنرى بلاكود الذى كان فى ذلك الوقت فى زيارة لبومباى على رأس بعض قطع من أسطول الهند الشرقية بالابحار الى الخليج واثبات الوجود البريطانى هناك . وقد قام هذا القائد البحرى على رأس السفن فوكس ، وفيليانت وبايلوت وبعض طرادات اسطول الخليج بجولة على امتداد ساحل الباطنة خلال شهرى نوفمبر وديسمبر كما زار مسقط .

وعلى بعد مائتى ميل الى الشرق من ابوظبى وفى صحار كانت تجرى أحداث أكثر خطورة ، فقد قرر السيد حمود بن عزان أن يقوم بمحاولة لانتزاع السلطة وتنصيب نفسه حاكما على عمان التى تخلى عنها السيد سعيد ، وكان نجله ثوينى غير كفء لها . وكان السيد حمود يلقى التأييد لحركته هذه من رجال الدين فى غمان ومن أكثر الاباضية تعصبا . بعد أن ضاقوا ذرعا باهمال السيد سعيد لشئون البلاد وبسبب علاقته بالاجانب والنصارى ، وعلى الأخص تنازلاته للبريطانيين فى موضوع تجارة العبيد ، ويعتبر هذا أخطر تنازل منه فى هذا الصدد فى شهر اكتوبر عام ١٨٤٥ وقد وصل الى علم هانيل فى شهر فبراير ١٨٤٦ بأن السيد حمود قد سلم حصن صحار وغيرها من المراكز الدفاعية الى أحد مطاوعة(١) قبيلة بنى سعد التى تستوطن السفوح الشرقية لمنطقة الحجر على الجهة الغربية من صحار . كما كتب السيد حمود الى غيره من مطاوعة رجال القبائل الأخرى يستنكر ضعف حكومة السلطان ويحثهم على الانتفاض عليها . وقد انزعج السيد ثوينى من تلك الاعمال فوجه رسالة الى هانيل للتدخل . وكان خوفه ناشئا كما ذكر هانيل من أن يتمكن السيد حمود بتأييد ومساعدة قبائل بنى سعد من انتزاع الحكم على حساب مصلحة السيد سعيد ... أما هانيل فلم يكن متأكدا مما اذا كان السيد حمود يهدف فعلا للوصول الى الحكم أم لا ، غير أنه كان يعتقد

---

(١) المطوع وجمعها مطاوعة يعنى الشخص الذى يطيع أو يقدم الطاعة الى الله .

بأنه كانت هناك أسباب حقيقية اضطرت السيد حمود الى القيام بتلك المحاولة . وكان السبب الواضح هو عجز السيد حمود من مواجهة الوهابيين بمفرده وعلى الأخص بعد أن خذله أقاربه فى مسقط ، ولم يقدموا اليه العون الضرورى . وانهم لو كانوا قد أيدوه وقدموا اليه المساعدة اللازمة لربما تمكن من صد العدوان الوهابى بنجاح . أما بنو سعد فانهم لم يكتفوا برفض مطالب سعد بن مطلق بدفع الزكاة فحسب ، وانما هاجموا رسله ومندوبيه بينما كانوا فى طريقهم الى مسقط . وبالتالى فلم يعد هناك من الشك فى أن بنى سعد سوف يقدمون الحماية للسيد حمود للدفاع عن صحار ضد اعتداءات الوهابيين . وان كان سوف يكشف النقاب آخر الأمر بأن ذلك لم يكن بغير ثمن وقد بعث هانيل رسالة الى السيد حمود يطالبه فيها بتوضيح موقفه ، كما يذكره فيها بالاتفاق الذى عقده فى ديسمبر ١٨٣٩ مع السيد سعيد بعدم التعرض أو الاعتداء او التآمر سرا أو علنا على المناطق الخاضعة لحكم السيد سعيد . وقد رد السيد حمود على رسالة هانيل ينكر فيها انه ينوى القيام بأى عمل من شأنه الاساءة الى السيد سعيد ، كما ذكر فى الرسالة بأن مخاوف السيد ثوينى لم يكن لها أى مبرر .

ان شراسة وغطرسة سعد بن مطلق سرعان ما أثارت عليه القبائل العمانية. فقد أصبح كافة الزعماء يكنون له الكراهية والازدراء وتألبوا جميعهم ضده ولمقاومة أطماعه فى المنطقة . ولم يبق من مؤيدى سعد بن مطلق الا حاكم أم القوين . أما سلطان بن صقر شيخ القواسم فقد بعث بخطاب الى الأمير فيصل يطلعه فيه على الأعمال الارهابية والتعسفية التى يقترفها نائبه . وقد اقتنع فيصل بمضمون الخطاب واستدعى نائبه الى العودة الى نجد . غير أنه سرعان ما عفا عنه بعد أن قدم لأميره ٢٥٠ بعيرا وكميات كبيرة من الغنائم والأسلاب . وقد عاد سعد بن مطلق فاقترح على الأمير فيصل بأن

يرسل ابنه مشارى بن سعد بن مطلق بالخطابات التى أرسلها سلطان بن صقر الى الأمير فيصل لردها اليه على أساس أنهـا مرفوضـة . وقد تم ارجاع الخطابات الى سلطان بن صقر فى شهر يونيو ، ولكن هذا الاجراء كان سببا فى احراج زعيم القواسم واثارته .

وقد عاد سعد بن مطلق الى البريمى فى وقت لاحق من العام ، كما أن رحلته القصيرة الى نجد لم تغير شيئا من سلوكه ، وقد أخذ سيل من الشكاوى يصل الى الأمير فيصل ضد سعد بن مطلق ، وقد تضمنت هذه الشكاوى بانه كان يجمع الزكاة من القبائل ويأخذها لنفسه . وقد أحس سعد بما قد تؤدى اليه تلك الشكاوى من تأثير على وضعه ، ولذلك فكر أن يشد الرحال مرة أخرى الى نجد ، حينما وصلته اشارة من الأمير فيصل بالبقاء فى منصبه وبارسال مايتجمع لديه من الزكاة الى الرياض . وقد تمكن سعد من ارسال مبالغ ضخمة من الزكاة ، ومع ذلك فلم يطل المكوث هناك اذ استدعى الى الرياض فى أوائل ١٨٤٧ . وقد سافر عن طريق الشارقة بعد أن عهد بحصنى البريمى الى مساعده محمد بن سيف العجاجى وما أن حل الخريف حتى وجد العجاجى نفسه عاجزا عن السيطرة على منطقة البريمى. وكان سعد قبل ذلك بعام قد قام بمحـاولة لاحتـلال بلدة ضـنك من آل بوخريبان وهم فرع من قبيلة النعيم ، ولمواجهة هذا الاجراء تكتل هؤلاء مع خصومهم التقليديين آل بوشامس وطلبوا مساعدة من السيد حمود . وقد وجد العجاجى نفسه عندئذ محاصرا من الجنوب والشرق بينما كان بنو ياس من الناحية الغربية يراقبونه باهتمام . ولقد حاول فيصل فك الحصار عن العجاجى فى ربيع ١٨٤٨ بارسال امدادات اليه من نجد بقيادة نائب جديد هو عبد الرحمن بن ابراهيم ، غير أن عبد الرحمن لم يصل الى ابعد من الاحساء،

فلقد كان بنو ياس وحلفاؤهم يحاصرون الطريق الصحراوى ابتداء من فاعدة شبه جزيرة قط حتى الظفرة ، كما لم يكن فى امكانه اقناع شيخ البحرين بنقله هو ورجاله عن طريق البحر .

ولما نفدت المؤونة والذخيرة عند العجاجى قام بمحاولة فى شهر مايو ١٨٤٨ لحمــل الســيد حمود بن عزان على تزويده بشيء من المؤن ، وذلك بارسال فريق منه للاغارة على صحار عن طريق وادى الجزى ، غير أن قافلة العجاجى وقعت فى كمين أعده لها سيف ابن السيد حمود بالتعاون مع النعيم (فرع آل بوخريبان) واضطرت الى الفرار . ومن ناحية أخرى فان سعيد بن طحنون الذى كان قد طلب منه آل بوخريبان المساعدة فى الهجوم على العجاجى كان مستعدا للتحرك صوب المنطقة الداخلية ومعه مجموعة من قبائل المزاريع والعوامر وغيرها من القبائل البدوية . وقد بدأ زعيم بنى ياس زحفه على واحة للبريمى فى بداية شهر يونيو ، وتمكن من احتلال منطقة الظواهر ، وهى القبيلة الرئيسية الثانية فى الواحة . ومن الشرق أطبق سيف بقواته من النعيم . غير أن العجاجى تحصن داخل القلعتين وأخذ يبعث بنداءات عاجلة الى الأمير فيصل لنجدته عن طريق كل من ميناءى الشارقة ودبى وهما الطريقان الوحيدان المفتوحان أمامه . أما شيخ القواسم سلطان بن صقر وشيخ آل بوفلاسه مكتوم بنّ بطى حاكم دبى فقد ابديا استعدادهما لمساعدة العجاجى وذلك انطلاقا من غيرتهما من سعيد بن طحنون اكثر من حبهما للوهابيين ، غير انهما عدلا عن الخطة بعد وصول معلومات عن كثافة القوات التى كانت تحت امرة بنى ياس . وفى ١٧ يونيو أخلى العجاجى قصر الصبارة . وفى هذه اللحظة انضم الى القوات المهاجمة فصائل من بنى كعب وبنى قتب والغفارة . وفى يوم ٢٠ منه استسلم العجاجى للقوات المهاجمة وقد سمح له ولجماعته من الوهابيين بمغادرة البريمى الى الشارقة بأسلحتهم

الشخصية . ومن هناك يشقون طريقهم الى نجد بالبحر ، وقد فكر سعيد بن طحنون فى هدم القلعتين ، وهما قصر الخندق وقصر الصبارة ، الا أن السيد سيف بن حمود أبدى استعداده ليقيم بها حامية من جنوده ، وقد وافقه الشيخ سعيد الا أنه قرر بأن يبقى قريبا من المكان فى منطقة الظاهرة طول فصل الصيف .

وخلال شهر يونيو انطلقت اشاعات من نجد عن الأمير فيصل بأنه يعد حملة لفك الحصار عن قلعة البريمى أو استعادتها . وكان المفروض أن تتحرك الحملة فى نهاية شهر رمضان أو فى نهاية شهر أغسطس . أما هانيل الذى كان يراقب مجرى التطورات فى عمان ، فقد كان يشك فى صحة تلك الاشاعات ، خصوصا أن يقوم فيصل بارسال حملة خلال فصل الصيف عندما تكون منطقة الظفرة شعلة من اللهب ، وتصور هانيل أن الأكثر احتمالا أن تتحرك تلك الحملة عن طريق البحر ، وذلك باستعمال سفن يقدمها كل من شيخى الشارقة ودبى . ولو شعر هانيل بأن شيخى هاتين المشيختين ينويان بالفعل التعاون مع الأمير فيصل . فقد كان يفكر فى لفت نظرهما الى أن شحن أسلحة فى سفنهما سيعتبر خرقا لقانون نظام الهدنة البحرية .

غير أن الأمر لم يتطلب توجيه تحذير بهذا الشأن . اذ أنه مهما كان عداء سلطان بن صقر ومكتوم بن بطى لسعيد بن طحنون ، ومهما كان استعدادهما للتعاون مع الأمير فيصل للقضاء على خصمهما هذا ، الا انهما لم يكونا راغبين فى استقرار السلطات البريطانية فى الخليج . وقد وقع الهجوم الوهابى المنتظر فى فصل الخريف . غير أن سعيد بن طحنون كان على أتم استعداد للتصدى لذلك الهجوم . فقد استبدل رجال حامية صحار الذين كانوا يرابطون فيها بقوات من رجاله ، وعقد لواءها لزعيم آل بوشامس

حمود بن سرور ، كما دعا قبائل العوامر والمزاريع وبنى قتب والغفارة للدفاع عن الواحة من الجناح الغربى ، كما وضع قوات من المناصير والمزاريع من منطقة الظفرة الواقعة بين واحة ليوا والساحل لصد أى قوة تحاول التحرك من الاحســـاء . وفى اليوم الثـــامن من أكتوبر خرجت قوة مسلحة من الوهابيين بقيادة سعد بن مطلق من الاحساء متجهة الى ساحل الهدنة . غير أن قوات سعيد بن طحنون المرابطة فى الظفرة حاصرتها ومزقتها اربا ، وقد تمكن سعد بن مطلق نفسه من الافلات والتوجه الى الشارقة حيث وضع كل من سلطان بن صقر ومكتوم ابن بطى جميع قواتهما تحت تصرفه على الفور ، وبهذه القوات وبمـــا تبقى من قواته المهزومة ، وبرجال حامية العجاجى الذى كان ولايزال فى الشارقة بالاضافة الى بعض قوات ساهم بها كل من شيخى عجمان وام القيوين ، تحرك سعد بن مطلق من الشارقة فى الأسبوع الأول من ديسمبر وبرفقته زعيما القواسم وآل بوفلاسه لفرض حصار على البريمى .

قبل أن يتحرك سعد بن مطلق من الشارقة كتب الى الأمير فيصل ، بناء على اقتراح سلطان بن صـــقر يطالبه بالاستفسار من هانيل ، عمـــا اذا كان سيسمح بنقل الأسلحة والامدادات من الاحساء الى منطقة الساحل بطريق البحر . وفى هذا المعنى تلقى هانيل رسالة من الأمير فيصـــل فى شهر يناير ١٨٤٨ يدعى فيها ، بأن له حق السيادة على عمـــان ويذكره بالصداقة التى تربط آل سعود بالحكومة البريطانية مما يتوجب عليهـــا تأييد اجراء سعد بن مطلق والحيلولة دون تدخل أى طرف فى عملية نقـــل الامدادات الى نائبه عن طريق البحر . وقد عامل هانيل رساله فيصـــل بما تستحقه من اجراء ، بعد أن شعرهانيل بانه ليس فى نطاق واجبه أن يعرض نظـــام الهدنة للخطر عن طريق تحقيق أطماع الأمير فيصـــل فى

المنطقة ، وبالتالى فقد رد عليه بأنه لا يستطيع الاخلال باتفاقية الهدنة أو المجازفة بتشجيع سعيد بن طحنون بخرقها عن طريق شن هجوم بحرى على السفن الناقلة للامدادات من الاحساء الى عمان ، وقد أيدت حكومة الهند موقف هانيل ، وكلفته باستخدام القوة ، اذا دعا الأمر لمنع نقل الحملات العسكرية المسلحة الى ساحل الهدنة عن طريق البحر .

وقد استمر حصار البريمى من جانب سعد بن مطلق وحلفائه نحو شهرين ، دون أن يحقق أى نجاح . ومنذ البداية كان يبدو وضع سعيد بن طحنون وضعا غير مطمئن ، فقد انقلب عليه السيد سيف بن حمود ، ربما بسبب وضع رجاله فى قلعتى البريمى وأخذ يتودد الى زعماء التحالف كما أن نعيم آل بوخريبان قد تخلوا عنه أيضا ، ولم يكن لديه أى امل فى وصول عون اليه من السيد ثوينى فى مسقط . وبمضى الوقت أخذ وضع المحاصرين للواحة يتأرجح بسبب الخلافات التى نشبت فيما بينهم ، وكاد ينتهى الحصار بنهاية محزنة ، لولا دخول عنصر جديد الى حلبة الصراع ؛ ويبدو أن غرض الأمير فيصل من خلق الإضطرابات فى شمال عمان هو التنصل من تحويل الزكاة السنوية المقررة عليه الى الباب العالى عن سنة ١٢٦٤ هجرية (١٨٨٤ ميلادية) وقبل أن يقوم بايفاد سعد بن مطلق من الاحساء فى شهر أكتوبر ناشد رئيسه شريف مكة محمد بن عون التدخل مع سعد بن طحنون واقناعه بتسليم البريمى اليه . وقد بادر محمد بن عون بارسال مبعوث عنه الشريف على الذى وصل الى منطقة الساحل فى شهر فبراير ، ومنها توجه الى البريمى حيث نجح فى اعادة الأمور الى وضعها الطبيعى قبل الحرب . فبعد أن يئس سعيد بن طحنون من الحصول على مساعدة من سلطان مسقط ، وافق على أخلاء القلعتين وتسليمهما الى سعد بن مطلق ، بشرط أن يسمح لقوات التحالف بالانسحاب سالمة ، وأن يسمح

له باصطحاب كل ما حصل عليه من غنائم واسلاب كنتيجة للحرب التى شبت .

وصل الشريف على بوشهر فى الاسبوع الثانى من مارس بخطاب نهانيل من محمد بن عون جاء فيه :

« اعرفكم بخصوص ابن سعود فيصل بان هذا من رعايا السلطان العثمانى ، وغير خاف عليكم ان هناك بعض القلاع التى تخصه فى عمان وان البو سعيد وسعيد ابن طحنون قد طرداه منها ، وهو يدفع لخزينة السلطان ١٧٫٠٠٠ ريال ، وانه عرض الأمر على ، وبلغنى بعداء ابن طحنون والبو سعيد ضده كما ذكر لى بأن ابن طحنون يقيم فى احدى الجزر فى البحر ، ولا سبيل له الى الوصول اليه ، وانى أعرفكم أن ابن سعود هو من رعايا السلطان، واملى فيكم الا تسمحوا بالقيام بأى اجراء ضده . ولا أحب أن أطيل عليكم فى الرسالة لعلمى انكم لا تفهمون اللسان العربى جيدا» . وقد طلب الشريف على من هانيل بالنيابة عن سيده أن يمنع بنى ياس من خلق المتاعب لفيصل، غير أن هانيل رد يقول بأن ذلك غير ممكن لأن سياسة الحكومة البريطانية تقوم على أساس من عدم التدخل فى النزاعات القبلية على البر وقد عاد فيصل فكتب رسالة أخرى الى هانيل فى الشهر التالى تتضمن نفس المطالب ، وتقترح ارغام بنى ياس على أن يختاروا بين الأوضاع الاقليمية والأوضاع البحرية . واذا اختاروا مهنة البحر فيمكن للحكومة البريطانية أن تتولى مسئوليتهم ، واذا اختاروا أن يبقوا كشعوب برية ، فعندئذ يحرمون من الاستفادة من الملاحة وأيا ما كان الجانب الذى سيختارونه ، فان مشيخة أبو ظبى سوف تبقى تحت رحمة الأمير فيصل .

أمضى سعد بن مطلق فترة تقل عن العام فى البريمى منذ عودته الأخيرة اليها . غير أن الأوضاع قد تغيرت بالنسبة لما كانت عليه سابقا

فى شمال عمان ، وعلى الأخص بعد تحدى القبائل لسلطته ، وهزيمته على يد سعيد بن طحنون . وبعد أن جـاءت عودته الى الواحة على حسـاب زعيمها . وقد غادر سعد بن مطلق البريمى بصفة نهائية فى شـهر مارس ١٨٥٠ متوجها الى موطنه نجد عن طريق الشارقة والبحرين وعلى أثر ذلك قام سعيد بن طحنون فورا بطرد بقايا الحامية الوهابية واعادتها الى بلادها كما استولى على القلعة الصغرى ووضع فيها حامية من ٥٠٠ رجل ، وقد تمت هذه العملية بالتوافق مع تحرك السيد ثوينى نائب حاكم مسقط الذى أخذ هو الآخر يبدى اهتماما بما يجرى من أحداث فى المقاطعات الحدودية لعمان ، فبعث باربعين خيالا للمساعدة فى عمليات البريمى ، غير ان اهتمام السيد ثوينى بمصالح بلاده لم يتجاوز هذا الحد . ففى الوقت الذى كان سعيد بن طحنون ورجاله من نعيم آل بوشامس يحاصرون الحامية الوهابية فى البريمى . كان ثوينى منصرفا الى احياء خلافه مع السيد حمود بن عزان ، بأمل القضاء على زعيم صحار قضاء مبرما . وقد أقصى حمود عن السلطة فى صحار فى الشهور الأولى من عام ١٨٤٩ ، وقاد عملية اقصاء ابنه سيف الذى أخذ يضيق ذرعا بانصياع والده الى جماعة المطاوعة . وبمساعدة من والى شناص الواقعة على الساحل قام سيف بابعاد هذه الطائفة المترهبنة من صحار وطرد معها والده أيضا . وعند لقاء هانيل بسيف فى مايو ، والحصول منه على تعهد بتحريم استيراد العبيد الى منطقة صحار وتوابعها . وجد ان الحاكم الجديد لايتجاوز الثانية والعشرين من العمر ، وكان هادىء الطبع متحفظا ولكنه لايخلو من سحنة الوقار التى يتميز بها كافة أفراد أسرة صاحب السمو امام عمان وقد انتقم حمود الذى انسحب الى الرستاق من ابنه سيف باغتياله فى مارس ١٨٥٠ ، فبعد استيلاء حمود على السـلطة استدعاه ثوينى للاجتماع به فى شناص ، ربما بهدف التباحث معه بشأن الاشتراك

فى الاعداد لهجوم على الوهابيين فى البريمى . وعندما لم يبد حمود حماسا للفكرة ، أمر ثوينى باعتقاله واحضــاره الى مسقط حيث زج به فى قلعة الجلالى . ثم قام ثوينى بعد ذلك بمهاجمة صحار التى كان قيس بن عزان والى الرستاق وشقيق حمود هو المسئول عن الدفاع عنها غير أن قيس دعا سلطان بن صقر ومكتوم بن بطى لكى يخفا لمساعدته ، وعلى أساس ذلك عبرت قوات الشارقة ودبى جزيرة رأس مسندم واستولت على شناص . وفى يوم ٢٧ ابريل توفى حمود بن عزان فى سجن مسقط .

ان أسلوب الخيانة والتهور الذى استخدمه السيد ثوينى ضد السيد حمود قد أثار إستنكارا شديدا فى الأوساط المسئولة فى بومبـــاى ، التى رأت أنه أسلوب سوف يقوض اركان الحكم المتزعزع بالفعل لسلطان مسقط خصوصا اذا قررت القوات القبلية فى ساحل الهدنة الزحف من شـــناص الى الباطنة . ان اغتيال حمود والهجوم على صحار قد كان لهما تأثير مباشر على حكومة بومباى ، لأن هذه الأعمال تشكل خرقا لاتفاق ١٨٣٩ المعقــود بين السيد سعيد وحمود بن عزن . والذى تمت مناقشته والتوقيع عليه عن طريق هانيل . زد على هذا أن التعهد الذى حصل عليه هانيـــل من السيد حمود بمنع رعاياه من الاتجار فى الرقيق يعد اعترافا من بريطانيا بالاستقلال الداخلى للولاية . وبالتالى فقد كان الفايكونت فوكلاند حـــاكم بومباى مصمما على توبيخ السيد ثوينى ووالده على الأعمال المخجلة التى قاما بها ، غير أنه لم يكن يعرف الطريقة التى ينفذ بها تلك الرغبة . والواقع أن تأييد ودعم حكم السيد سعيد لعمان هو من قبيل السياسة الثـــابتة للحكومة البريطانية ، ومع ذلك فقد قام الحاكم بالايعاز الى هانيل بأن يفعل ما فى وسعه لتحقيق تسوية للنزاع بين مسقط وصحار ، وللحصول على

تعويضات لورثة السيد حمود . كما صـــدرت الأوامر للسفينة المسلحة أوكلاند بالتوجه الى الخليج لدعم موقف هانيل ، غير أن المقيم حـذر من أستخدام أى وسـيلة من وسائل القوة ، أو الزام حكومته بشيء فى اية تسوية يعقدها بين الطرفين . كذلك أوعز الحاكم الى المعتمد البريطانى فى زنجبار ، وهو الكابتن اتكنس همرتون ، بأن ينصح السيد سعيد بالعودة الى مسقط بأسرع وقت ممكن ، وأن يقترح عليه اصــــدار بيان يستنكر فيه تصرفات نجله وتقديم تعويضات الى أسرة السيد حمود .

على أنه قبل أن يتلقى هانيل تلك الأوامر ، كان السيد ثوينى والســيد قيس قد توصلا الى نوع من الاتفـــاق فيما بينهما . وكان الاتفاق فى صالح قيس ، بحكم أن حليفه الأكبر سلطان بن صقر قد قرر فى بداية فصـــل الصيف توزيع رجاله على مصائد اللؤلؤ واخلاء بلدة شناص . أما ما اذا كان سلطان سيتمسك بموقف الاعتدال هذا حتى فصـل الخريف ، وهو الوقت الذى تنتهى فيه اتفاقية الهدنة ، فقد كان هذا موضع تساؤل وكما كان متوقعا فقد انشغل سلطان فى الخريف بمرحلة جديدة من العلاقات بينه وبين سعيد بن طحنون . وبما أن سلطان قد ضاق ذرعا بالطريقة المتعالية التى عاملها به سعد بن مطلق ثم خليفته فى البريمى بتال المطيرى ، وبعد كل المساعدات التى قدمها لهم فى العام السابق ، قرر الانضمام الى سعيد بن طحنون والنعيم وكان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥٠ خلال الحصار المضروب على الحـامية الوهابية فى الواحة . وفى الأسبوع الثانى من نوفمبر ارغموا قائد الحـامية ابن بتال المطيرى على الاستسلام . وقد سمح له ولرجال حاميته بالرحيل الى نجد ، ثم تسليم القلعتين الى النعيم . وفى فصل الربيع الثانى تم الوصول

لى معاهدة سلام تضم جميع قبائل عمان المتهادنة ، كما تضم قيس بن عزان، والى صحار وقبائل بنى ياس وزعماء القواسم ، وقد تم التوقيع على المعاهدة فى الشنارقة بتاريخ ٥ ابريل ١٨٥١ . وكان الهدف الأساسى من ابرام المعاهدة هو توحيد صفوف القبائل فى مقاومة أى تدخل من جانب الأمير فيصل وتأكيد سلطاتها على أراضيها العمانية .

وقد لزم هانيل الفراش بسبب مرض شـــديد أصيب به فى خريف ١٨٥٠ ، ولم يتمكن من مغادرة بوشهر لتنفيذ تعليمات أوكلاند قبل نهـــاية ديسمبر . وفى مسقط رحب به ثوينى ترحيبا لائقا ، ولكنه لم يســـمح له بالمساهمة بأى اجراء فى تحقيق تسوية بينه وبين قيس . وأوضح له بأنه قد تم تمديد الهدنة الى الخريف على أساس تعهد الطرفين باحترام الأوضـــاع القائمة حتى عودة السيد سعيد التى كانت متوقعة فى أى يوم . وهنا شعر هانيل بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى هذا الصدد ، وغادر السيد ســعيد زنجبار فى اليوم الثانى عشر من ابريل يرافقه همرتون ووصل مسقط يــوم ١١ مايو ولكن حالته لم تكن ملائمة . فلم يظهر السيد سعيد أى بادرة لاستنكار اجراءات السيد ثوينى ، وأخذ يتضح لهمرتون أكثر وأكثر بأن الهجوم الأول على صحار واعتقال حمود بن عزان قد تم بايعاز من السيد سعيد نفسه .

وكان يبدو عليه أنه مصمم على ســـحق قيس بن عزان وتأكيد سلطته على صـــحار ، وكان غير مكترث باتفــاق ١٨٣٦ وفى الخريف زحف السيد سعيد على اقليم صحار ، بعد أن نجح فى جلب سلطان بن صقر حليف قيس الرئيسى الى صفه ، وبذلك احتل صحم والخابورة ثم أخذ يساوم قيس ، بالسماح له بالاحتفاظ بصحار وشناص ، وأمهله شهرين لقبول عرضـــه أو رفضه . وقد أمضى قيس الوقت بحثا عن حلفاء يدعمونه ولكنه لم يفلح .

فخلال السنة الجديدة أرسل السيد سعيد قوة كبيرة ساهم فيها الشيخ مكتوم بن بطى حاكم دبى . وقد تمكنت هذه القوة من احتلال صحار وشناص ، وأسر قيس وكان هذا نهاية لاستقلال هذا الاقليم . فهذه الولاية التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى منذ اتفاق بركا فى ١٧٩٣ ، الحقت بأراضى السلطنة ، وسمح لقيس بالعودة الى موطن أسرته فى الرستاق .

وفى غضون العاميين اللذين أعقبا طرد الحامية الوهابية من واحة البريمى فى نوفمبر ١٨٥٠ ، لم يجد الأمير فيصل وقتا يخصصه لاسترجاع نفوذه الضائع فى عمان ، وذلك لانشغاله بمشكلات اهم فى نجد . فقد كان يواجه بعض المتاعب فى الاحتفاظ بمنطقة القاسم ، وهى المقاطعة الواقعة بين الحجاز ونجد ، حيث كان سكانها لايزالون يحتفظون بولائهم للامير السابق خالد بن سعود ، مما أضطر فيصل فى ربيع ١٨٥٠ الى القيام بحملات لاخضاعها لنفوذه ، كما أن ظهور حركة مناوئة له فى الشمال بقيادة ابن رشيد كانت تزيد من متاعبه على أن أكبر تحد كان يواجهه هو خضوعه لمحمد بن عون شريف مكة . وقد علم فى أواخر ١٨٥٠ أن شريف مكة قد أجر نجد من الباب العالى نظير ٦٠٫٠٠٠ ريال نمسوى كل عام ومن هنا فقد كان فيصل فى امس الحاجة الى المال لدفع الزكاة التى كان يطالب بها شريف مكة ، ولهذا فقد قرر انتزاع تلك الأموال من البحرين . وهكذا ففى اوائل عام ١٨٥١ تحرك نحو الجنوب من القطيف فى اتجاه قطر ، بهدف تهديد المستعمرة البحرينية فى شبه جزيرة قطر ، وبالتالى ارغام آل خليفة الى دفع الزكاة اليه. واحدث وصول قواته الى قطر فى شهر مارس قلقا واسعا على طول ساحل الهدنة ، وقد ساءت الأحوال أكثر من جراء الاستقبال الفاتر الذى استقبل به مبعوثه من جانب الشيخ سلطان بن صقر . وبالتالى فقد كان الأمير يكن منتهى الكراهية لزعيم القواسم ، وعلى الأخص من جراء ماقام به شيخ القواسم من دور فى اقصاء

الحامية الوهابية من البريمى .. وقد دفع هذا الخطر الزعيم القاسمى الى الاسراع فى عقد اتفاق مع سعيد بن طحنون فى شهر ابريل ، هدفه مقاومة زحف الأمير فيصل على المنطقة كما أن عزم الأمير فيصل على سحق بنى ياس دفع سعيد بن طحنون بدوره ولنفس الأسباب الى تقديم مساعدته لحاكم البحرين محمد بن خليفة وذلك للوقوف فى وجه الأمير فيصل .

وقد حفزت هذه المخاوف حاكم البحرين الى بدء مفاوضات مع شريف مكة فى الخريف السابق يعرض عليه وضع البحرين تحت السيادة العثمانية ، ورفع العلم العثمانى ودفع زكاة سنوية للباب العالى . غير أن تصرفه هذا أثار قلق الدوائر المسئولة فى كل من الهند وانجلترا . وفى صيف عام ١٨٤٩ بعث ستافورد كانتج السفير البريطانى فى القسطنطينية ، بتقرير يقول فيه بأن الباب العالى قد أعلن فصل بلده ومقاطعة النصيرة عن بغداد، وأن هذه المقاطعة مع اقليم الاحساء والساحل الجنوبى الغربى من الخليج الفارسى قد اصبح مقاطعة منفصلة والى جانب التقرير الذى ورد بكشف عزم الأتراك وضع سفينتين من سفنهم للعمل فى مياه الفرات وسفينة ثالثة للعمل فى الخليج ، فان ذلك كله كان يشير الى عزم الباب العالى على اتباع سياسة توسعية فى هذه المنطقة . كما يبدو أن محمد بن خليفة كان مدفوعا فى اتصاله بشريف مكة برغبة تفادى الرقابة البحرية التى يفرضها البريطانيون على سواحل الخليج . والتى كانت تسبب له احراجا ، وكان على خلاف مع هانيل حول بعض الحوادث التى وقعت فى أحواض صيد اللؤلؤ خلال عام ١٨٥٠ ، وكان يستنكر مواقف الحكومة البريطانية فى مجالسه ويقول ، أنها كانت منحازة الى الفرس وأنه لاشأن له بهم .

وفى ابريل عام ١٨٥٠ دعا فيصل محمد بن خليفة الى الامتثال لدفع الزكاة السنوية المستحقة عليه ومقدارها ٤٠٠٠ ريال نمسوي وعشرة من الخيول

والا فسيلوم نفسه . ولم يمض وقت قليل على هذا الاجراء حتى قام مواطنو الدوحة بالانتفاض على حاكم البحرين واعلان ولائهم للامير الوهابى وقد تناسى محمد بن خليفة خلافه مع هانيل ، فبعث اليه برسول الى بوشهر فى شهر يونيو للتعرف عما اذا كان المقيم مستعدا للتدخل بالنيابة عنه . غير أن هانيل لم يعره اهتماما ، فقد أوضح للمبعوث بان السياسة البريطانية كانت دائما تقوم على الامتناع عن التدخل فى تصرفات الأمير فيصل أو غيره من زعماء المنطقة طالما لم تؤثر مواقفهم أو تعكر صفو الامن فى الخليج ... وقال : مما لاجدال فيه أن وقوع البحرين تحت سلطة الوهابيين سوف يثير أسف الحكومة البريطانية ، غير أنه مالم يتلق تعليمات من حكومة بومباي بالتدخل فانه لايستطيع أن يفعل شيئاً .

ولخوف الأمير فيصل من توجيه حاكم البحرين نداء الى الحكومة البريطانية ولاقناعه بأن موقف المقيم سيكون أمرا حاسما فى تحديد نتيجة الخلاف فقد بادر بارسال مبعوث سرى الى بوشهر فى نفس الفترة . وقد وصل المبعوث الشيخ عبد العزيز الى بوشهر عن طريق الكويت ، لأن ميناء القطيف كان تحت حصار الأسطول البحرينى . وقد أبلغ المبعوث هانيل عند وصوله بان الأمير فيصل حائر من الاتجاه المعاكس الذى أخذت تسير فيه السياسة البريطانية تجاهه فى الآونة الأخيرة . فعلى حين كانت الحكومة البريطانية تحترم أسس التفاهم القائمة بينها وبينه ، والتى تقوم على امتناعها عن التدخل فى علاقاته بسكان الساحل الغربى . فانهم قاموا فى الفترة الأخيرة بمنع رعاياه فى رأس الخيمة ودبى من تقديم المساعدة البحرية اليه لاخضاع رعاياه المتمردين فى البحرين . كما انها سمحت فى الوقت نفسه لسعيد بن طحنون حاكم دبى بمساعدة محمد بن خليفة بالرجال والسفن . وقد رد هانيل على المبعوث بأن الحكومة البريطانية لم تعترف بسيادة الأمير فيصل على البحرين أو مشيخات الساحل . ولقد سبق لعدد من الدول أن

ادعت بسيادتها على البحرين ، غير أن الحكومة البريطانية لم تعترف لهـا بتلك السيادة على البحرين التى تربطها به علاقات معاهدة منذ ثلاثين عاما . وأنها لن تنظر بارتياح الى انتقال السيادة عليها من حكامها شيوخ آل خليفة . وان عزوف شيوخ الهدنة عن مساعدة فيصل نابع من قلقهم على مصير الأمن فى البحر ، وليس نتيجة موقف عدائى . أما مساعدة بنى ياس لآل خليفة فانها لم تكن بايعاز من الحكومة البريطانية ، وانما لان الامير فيصل قد نذر نفسه للقضاء عليهم . وكان هانيل يميل الى تذكير محمد بن خليفة بفضائل الأمير فيصل عليه ، وان يحاول تحسين علاقته به ، وكان هذا أقصى ما فى استطاعة هانيـــل أن يقوم به ، أما فيما عدا ذلك كما اشار هانيـــل الى رؤسائه فى بومباى فســـوف لا يتعارض مع السياسية البريطانية المقررة للمنطقة فحسب ، وانما سيؤدى الى تسهيل وضع البحرين تحت السـيادة العثمانية . أما من حيث العلاقة القائمة بين الأمير فيصل والباب العالى فليس هذا موضع شك فى اعتقادى ، فعندما كان الشـيخ عبد العزيز فى الكويت كان يعتبر نفسه مبعوث عباس باشا . وكان قد أخبرنى بأن رسلا من الباشا موجودون عند الأمير فى الوقت الحاضر .

وفى الأسبوع الثانى من فبراير أصدر بالمرستون بوزارة الخـــارجية أوامره الى ستافورد كاننج ، بعد علمه بموضوع عرض محمد بن خليفة على شريف مكة بابلاغ الباب العالى بأن الحكومة البريطانية لا يمكنها الموافقة على أى ترتيبات تتعلق بوضع البحرين تحت الحماية التركية وأرسلت نسخة من تلك الأوامر الى الكولونيل شيل فى طهران الذى قام باحالتها الى هانيل . وهنا قرر هانيل بالا ينتظر وصول تعليمات من الهند ، وبالتالى ففى الأسبوع الأول من يوليو طلب الى قائد أسطول الخليج بتوجيه ثلاثة طرادات للتجول

بالقرب من سواحل البحرين . كما كتب الى فيصل فى الوقت نفسه بأنه اذا حاول غزو البحرين فان الأسطول سوف يقاومه .

قام أسطول الخليج بالاشتراك مع أسطول البحرين بحصار ساحل القطيف طوال شهر يوليو . وفى بداية شهر أغسطس وصلت معلومات عن عقد اتفاق بين فيصل ومحمد خليفة عن طريق الوساطة غير المتوقعة لسعيد بن طحنون . وبموجب الاتفاق اعيدت الدوحة الى خليفة ، كما تعهد محمد بن خليفة بدفع الزكاة الى الأمير فيصل بواقع ٤٠٠٠ ريال كل عام . وبهذا تكون المشكلة قد حلت فى وقتها وقد ظهرت الكوليرا فى البحرين ومنها انتشرت الى الأسطول المحاصر حيث اودت بحياة عدد من طاقم الطراد الفنستون . وفى اليوم السادس من أغسطس وصل الى بوشهر مبعوث آخر من فيصل هو الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم وهو نفس الشخص الذى بذل المحاولات لفك الحصار عن الحامية الوهابية فى البريمى فى مطلع عام ١٨٤٨ لمقابلة هانيل ، وقد أبلغ المقيم بأن فيصل قد صرف النظر عن الهجوم على البحرين ، وذلك نزولا على رغبة الحكومة البريطانية ، رغم أنه لا يزال يطالب بالسيادة على القبائل البحرية بما فى ذلك عمان وساحل الباطنة .

ثم أخذ عبد الرحمن يسأل هانيل عما اذا كان سيرتب تسوية دائمة بين فيصل وشيوخ البحرين على أساس الاتفاق الأخير ، وفى حالة عدم تمكنه من فرض هذه التسوية فهل لدى الحكومة البريطانية ما يمنع من قيام الأمير فيصل بنفسه بارغام البحرين على دفع الزكاة ، فيما اذا توقفت عن ادائها فى أى وقت من الأوقات ، وقد اجابه هانيل بأن الحكومة البريطانية لن تسمح للأمير فيصل بوقوع البحرين تحت سيطرة أى دولة ، مهما كانت الحجج وأنها من ناحية أخري لا تعترف للأمير فيصل بأية سلطة على قبائل الساحل العربى

التى كانت ولا تزال تعتبرها وتعاملها كدولة مستقلة .. واما فيما يتعلق بابرام اتفاق بين البحرين وأمير نجد فانه ، أى هانيل ، لا يستطيع ذلك قبل حصوله على موافقة من حكومته ، وأن هذه الموافقة غير واردة فى اعتقاده .

ولقد كتب هانيل الى رؤسائه بعد هذا اللقاء التقرير التالى : « اننى لا أتصور أن تكون سياسة غير حكيمة او وافقت الحكومة على ممارسة ضغط على شيخ البحرين لحمله على دفع الزكاة الى الأمير الوهابى بصورة منتظمة ، مع الحرص على أن يكون دفع تلك الزكاة من منطلق دينى محض ، باعتبارها ضريبة مستحقة للامام أو الحاكم الدينى لطائفة الوهابيين ، وليس كاتاوة ، وعلى أساس أنها لا تتضمن اعترافا له بالسيادة على البحرين ، وأن دفع مبلغ ٤٠٠٠ ريال سنويا ليس مبلغا كبيرا ، اذا وضعنا فى الاعتبار موارد البحرين ، وبما أن هذه الضريبة السنوية ظلت تدفع من جانب حكام الجزيرة الى رئيس الوهابيين منذ وقت طويل ، فان مطالبة الأمير فيصل الآن باستمرار دفع الزكاة موقف له ما يبرره . اننى متاكد كل التأكد أن هذا الاقتراح قد لا يلقى الموافقة ، الا أننى ارى انه جدير بالنظر باعتباره خطوة تساهم فى اقرار السلام فى الخليج (١) .

فى شهر فبراير من عام ١٨٥٢ قام اللفتنانت كولونيل هانيل بجولته الأخيرة فى الخليج . وقد اصطحب معه فى هذه الجولة مساعده الكابتن ارنولد كامبل ليقدمه الى الشيخ باعتباره المرشح الذى سيخلفه فى منصب

---

(١) مرفقات للخطابات السرية لحكومة بومباى مجلد ١٠٢ مرفق للخطاب السرى رقم ٧٣ فى ١٨٥١/١٠/٢ من هانيل الى ماليت ١٨٥١/٨/٩ (رقم ٢٥٨ الادارة السرية) .

المقيم . غير أن رحلة الوداع التي قام بها لمشايخ المنطقة لم تحظ بأى اهتمام ولم يظهر الشيوخ أى أسف على رحيله . غير انهم عندما صعدوا الى المركب الذى كان يقله فى كل من الشارقة وأم القيوين وعجمان ودبى لتوديع هانيل للمرة الأخيرة ، شعروا جميعا بأن سفره يعنى نهاية المرحلة . ولقد كانت لحظة فريدة اختلطت فيها المشاعر واستيقظت ذكريات الماضى بفواجعه وفوضاه ، وما تتخلله من أعمال السلب والنهب فى البحر وعلى الأخص من جانب شيخ مشايخ القواسم سلطان بن صقر ، وعلى الرغم من شيخوخته وتدهور حالته الصحية فقد كان ولا يزال فى مقدوره اشعال المنطقة من رمس الى أبو ظبى ، رغم أنه لم يعد يستطيع أن ينشر الرعب الذى كان يثيره اسم القواسم فى كافة أرجاء الخليج . كما أن سعيد بن طحنون شيخ مشايخ بنى ياس ، والذى التقى به هانيل فى مسقط فى أواخر الشهر ، كان من حقه أيضا أن يهتم برحيل المقيم عن المنطقة ، ان لم يكن للحملة التى قادها هانيل لسحق تمرد بنى ياس سنة ١٨٣٥ فعل الأقل نتيجة للتأييد الذى منحه هانيل لشيخ بنى ياس خلال الأيام الحرجة التى أعقبت استيلاءه على السلطة والمساعدة التى قدمها اليه لاخراج الوهابيين من عمان .

غير ان سعيد بن طحنون وأمثاله من شيوخ المنطقة لم يكونوا من النوع الذى يعترف بالجميل . فلقد كان الحقد والجشع أهم بالنسبة اليهم من التفاهم وبعد النظر ، وأن الأمن بالنسبة اليهم قد لا يساوى شيئا أمام المكاسب اليومية التافهة ، كما أن المراوغة عندهم غاية وليست وسيلة لغاية ، فخلال عامين تحول سعيد بن طحنون من الموقف المعادى للوهابيين الى موقف المتعاون معهم ثم العداء مرة أخرى . وعند مقابلة هانيل له فى مسقط كان سعيد مشغولا بشراء سفينة حمولة ٣٥٠ طنا «بايدال» وقيل أنه حصل عليها من الأمير فيصل . وقد سأل هانيل فيما اذا كان فى استطاعته أن يقف الى

أحد الجانبين فيما لو نشب خلاف بين الأمير فيصل ومحمد بن خليفة . ولقد راودت هانيل الشكوك أن تكون السفينة التى كان يقوم سعيد بن طحنون بشرائها قد تخصص لنقل جنود الوهابيين من الاحساء الى البحرين ، غير أن هانيل اجابه بأنه لا يستطيع تقديم أى مساعدة مجزية لأى من الجانبين . ولما استاء من رد هانيل عاد يسأله عن الموعد الذى ستنتهى فيه صلاحية اتفاقية الهدنة . فرد عليه هانيل بأنه باق على الاتفاقية عام واحد ، وعند انتهائها سوف تجرى التدابير لتجديدها .

وفى التقرير الذى بعث به هانيل الى رؤسائه اشار الى ما لاحظه من نفاد الصبر بين قبائل المنطقة حول هذه النقطة . ولقد استمر التحالف الشاذ بين القواسم وبنى ياس لعله بسبب عزم المشيختين على سحق دبى . وكان الشيخ مكتوم بن بطى موجودا هو الآخر فى مسقط عندما زارها هانيل ، وكان يحاول شرح مشكلته للسيد سعيد ، غير أن السيد سعيد كان قد مال الى جانب سلطان بن صقر وسعيد بن طحنون . وعلى الرغم من الهدوء الذى يسود الخليج من اقصاه الى اقصاه ، الا أن هانيل كان يتوجس خوفا من المستقبل وعلى الأخص عندما تنتهى مدة الاتفاق . وبعد استلام تقرير هانيل أو عزت حكومة بومباى الى الكابتن كامبل الذى خلف هانيل بالعمل على جس نبض شيوخ الهدنة حول رغبتهم فى تجديد الاتفاقية عند انتهائها فى ١٨٥٣/٥/٣١، سوء بشكل دائم أو لمدة محدودة أخرى . وقد تم توجيه السؤال الى الشيوخ فى أواخر عام ١٨٥٢ ، وكان رد الفعل خليطا من المواقف . فقد أجاب كل من شيخ ذبى وعجمان وأم القيوين بأنهم يرغبون فعلا فى تحقيق طلب المقيم . أما زعيما بنى ياس والقواسم فقد أجابا بأنهما يفضلان عدم اتخاذ قرار قبل زيارة المقيم الى منطقتهم فى فصل الربيع القادم . وكان كامبل يفضل اتفاقية

دائمة بدلا من اتفاقية محدودة المدة ، وكان يشاطره هذا الرأى رجال السلطة فى بومباى .

ان الأجوبة المتناقضة لمشايخ المنطقة كانت تعود فى المقام الأول الى التوتر وحالة عدم الاستقرار التى تسود السواحل العربية للخليج ابان سنة ١٨٥٢ . ففى شهر ابريل استقبل الأمير فيصل فى الرياض أحد أشقاء سعيد بن طحنون واثنين من أنجال سلطان بن صقر . وفى أواخر ذلك الشهر وصل الأمير عبد الله أكبر أنجال فيصل الى الاحساء قادما من نجد ، وقد كان الهدف من زيارته هو مطالبة حاكم البحرين بدفع الزكاة المستحقة عليه بموجب الاتفاق المنوه عنه سابقا والذى لم يتم تسديده بالكامل حتى ذلك الوقت . غير أن الزيارة كانت تنطوى على هدف أخطر من ذلك الا وهو غزو عمان ، وقد بقى الأمير عبد الله فى الاحساء طوال الصيف . وكانت الاشاعات تنطلق متدفقة بغزو وشيك للبحرين ، ثم يتبعه زحف على عمان . وكان أحد أنجال السيد حمود قد قام بزيارة للرياض ، وأن فيصل وعده خلال تلك الزيارة بأن يسترد له ميراثه من السيد سعيد . أما محمد بن خليفة حاكم البحرين فقد بعث بوفد الى مسقط يعرض عقد حلف دفاعى ضد الأمير فيصل . وفى نفس الوقت كان السيد سعيد على اتصال بعباس باشا والى مصر ، لكى يطلب منه كبح جماح فيصل وفى شهر أغسطس توفى مكتوم بن بطى شيخ دبى ، وعلى أثره نشب صراع على السلطة بين أنجاله وشقيقه سعيد . وقد وجه أنجاله نداء الى سلطان بن صقر للمساعدة ، بينما وجه سعيد بن بطى نداءه الى السيد سعيد ، وعلى الرغم من أن السيد سعيد قد بعث اليه بحفنة من الرجال ، الا أنه لم تعد تهمه مشاكل عمان والخليج أو شبه الجزيرة . ونظرا لشيخوخته المبكرة بعد أن استنزفت قواه الأزمات والمتاعب ، شعر بالحنين الى زنجبار ، وهكذا عند هبوب أول نسمات الفصل الموسمى أقلع مرة أخرى الى مأواه فى أفريقية الشرقية .

غير أن غياب السيد سعيد عن عمان فتح الباب واسعا أمام امير الرياض وفى الأسبوع الاخير من يناير ١٨٥٣ ، تحرك عبد الله بن فيصل من الاحساء الى عمان ورافقه فى الحملة أحمد السديرى والى الاحساء ، وكان القائدان على رأس قوة من ٣ آلاف راكب جمل و ٣٠٠ الى ٥٠٠ خيال وبعد شهر من خروجهما وصلا واحة البريمى ، ورابطت قواتهما فى مزارع النخيل التى تحيط بالبلدة . ولقد بادر النعيم الذين كانوا يقومون بحراسة القلعتين بتسليمهما الى عبد الله ، وقد صرح عبد الله بأنه قد جاء كحكم ومنقذ لابنائه الشيوخ مما كانوا يعانون منه من ظلم واضطهاد فى عمان غير أن أهدافه الحقيقية لم تكن أهدافا سامية كما صرح . وقد بادر عبد الله الى استدعاء السيد ثوينى نائب السيد سعيد للحضور الى البريمى على الفور ، وطالبه باعادة ولاية صحار لقيس بن عزان ، ودفع متأخرات الزكاة وجميع تكاليف الحملة . ولقد كان المبلغ الذى طلبه عبد الله بن فيصل ضخما ، مما يقطع بأن الهدف الأساسى من ذلك الشرط ، هو أن يتخذ عبد الله من رفض السيد ثوينى لمطالبه ذريعة الهجوم على ساحل الباطنة واجتياحها . ولكى يقطع عبد الله على السيد ثوينى كل طريق فى الحصول على مساعدات وتأييد من شيوخ الساحل ، دعاهم الى الحضور الى مقره فى البريمى واستبقاهم هناك .

وفى يوم ٢١مارس وصل الكابتن كامبل الى الشارقة على ظهر الطراد كلايف لمفاوضة الشيوخ فى عقد اتفاقية بحرية دائمة . ولما علم بأن شيوخ الساحل مجتمعون كلهم بعبد الله فى البريمى كتب اليهم رسائل يدعوهم للاجتماع به على الساحل فورا لعقد الاتفاقية . ثم بعد ذلك انسحب كامبل الى باسيدو فى انتظار وصولهم . ولم يرد عليه من الشيوخ سوى اثنين هما سلطان بن صقر وحمد بن راشد شيخ عجمان وذكرا له فى رسالتيهما أنهما لا يستطيعان الحضور . ومن ناحية أخرى بعث الأمير عبد الله برسائل الى

كامبل يقول فيها أنه يهمه بقاء الشيوخ لديه (لأنهم مرتبطون بنا ومحسوبون علينا) وبأنهم لا يستطيعون الحضور لمقابلته لبعض الوقت ، وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس وصل وكيل الممثلية فى الشارقة الى باسيدو ، وأفاد بأن سلطان بن صقر قد انحاز الى زعيم الوهابيين وذلك لسببين : الأول : العمل على اعادة قيس بن عزان لولاية صحار ، الأمر الذى سيسمح له بتوسيع رقعة نفوذه الى ساحل الباطنة من ناحية ، والثانى تأكيد سلطته على عجمان وأم القيوين من ناحية أخرى . ومن ناحية ثالثة فان زعيم بنى ياس سعيد بن طحنون رغم أن علاقته بمسقط لم تعد كما كانت سابقا بسبب تخاذل السيد ثوينى فى الدرجة الأولى ، الا أنه رفض الاشتراك فى هجوم على مسقط وسرح القسم الأكبر من رجال القبائل الذين كانوا معه . وقد عاد الأمير عبد الله فأرسل طلبا قاطعا الى السيد ثوينى لتسليم صحار ، وساعتها شعر كامبل بأن الوقت قد حان لكى يتدخل . فقام بارسال خطابات الى كل من الأمير عبد الله وسلطان بن صقر أبدى فيها أسفه البالغ على تصرف الأمير بمنع الشيوخ من الاجتماع به ، كما وبخ زعيم القواسم على اشتراكه فى التحريض على شن عدوان على أرض أحد أصدقاء بريطانيا القدماء كما أمر كامبل فى الوقت نفسه الطرادين كلايف وتجرنيس بالتحرك للقيام بدوريات على طول ساحل الباطنة لدعم موقف السيد ثوينى .

أما ثوينى فقد قذف بكل مالديه من رجال الى ميدان المعركة فى صحار ورفض التهديدات التى وجهها اليه عبد الله وقد توافق قرار السيد ثوينى وموقف السيد سعيد بن طحنون مع تدخل كامبل الى جانبهما الى تمييع موقف الأمير عبد الله ، مما اضطره فى الاسبوع الثانى من ابريل الى ايفاد مساعده ، أحمد السديرى الى صحار برفقة سعيد بن طحنون كوسيط لمفاوضة السيد ثوينى وقد أمضى كامبل اسبوعين عصيبين ، وهو ينتظر فى

قاعدة باسيدو ، وهو نفس المكان الذى وضعت فيه صيغة نظام الهدنة ، وبالتالى أصبح مصير ذلك النظام بل ومصير عمان نفسها فى كفة القدر ، فاذا فشلت المفاوضات أو أطلق عبد الله قواته لشن هجوم على عمان ، فان منطقة الساحل سوف تغرق فى بركة رهيبة من الدماء ، كما ستتعرض سلطنة عمان للدمار ، فضلا عن أن نظام الهدنة البحرية برمته سوف ينهار • والواقع أن صحار كانت تشهد فى ذلك الوقت صراعا بين كامبل وعبد الله ، أو بين الحكومة البريطانية وامارة الوهابيين فى نجد من أجل سبيل السيطرة على الدول البحرية للخليج • وفى يوم ٢ مايو علم كامبل بأنه قد كتب له النظر فى ذلك الصراع . فقد حضر اليه معبوث الى باسيدو ليبلغه عن عقد اتفاق لتسوية الأزمة تم توقيعه فى مدينة صحار •

لقد كان الاتفاق مجحفا بالنسبة لمسقط ، غير أنه كما ألمح سعيد بن طحنون لكامبل بأن البديل سيكون تمزيق السلطنة . فقد تعهد ثوينى لعبد الله بدفع ٦٠ الف ريال كمتأخرات عن الزكاة المستحقة عليه ، وان يدفع بعد ذلك ما مقداره ١٤٫٠٠٠ ريال سنويا عن مسقط و ٨٠٠٠ ريال سنويا عن ولاية صحار ، كما تعهد بتوفير ٥٠٠ شوال من الأرز وأربعة صناديق بارود ، وكمية كبيرة من الرصاص لاستعمال الحامية الوهابية فى البريمى ومن جانب الأمير عبد الله فانه قد عقد حلفا وثيقا وكاملا مع السيد ثوينى ، تعهد فيه باعتبار أصدقاء وأعداء أحد الطرفين المتعاقدين اصدقاء واعداء للطرف الآخر وأن يؤيد كل طرف الطرف الآخر فى كافة المسائل التى تهم الطرفين وتتطلب مساعدة الواحد للاخر وبموجب الاتفاق المعقود تم الاعتراف بالسيادة الوهابية على عمان الداخلية أبتداء من وادى الجزى جنوبا على امتداد سلسلة الحجز حتى بهلا ومنها الى رأس الحد ، كما اعترف للأمير بتبعية الباطنة له .

وفى مقابل ذلك اعترف أمير نجد للسلطان بالسيادة على عمان الأصلية ، ومسقط والشرقية وجعلان .

لم يبق عبد الله فترة طويلة فى البريمى بل غادرها قبل حلول فصل الصيف الحار ، وقد أخذ معه قوات الخيالة والهجانة ، بعد أن ترك احمد السديرى وحامية صغيرة فى الواحة لجمع الزكاة السنوية من مسقط وقبائل عمان الشمالية . وقد غادر البحر الى الساحل بمجرد علمه باتفاق صحار ليرتب لتجديد اتفاقية الهدنة . وقد اكتشف لدى وصوله أن جميع الحكام دون استثناء راغبون بل ومتلهفون على ابرام اتفاق بحرى للهدنة الدائمة . وفيما بين ٤ و ٩ مايو وقع الشيوخ الخمسة ـ سلطان بن صقر حاكم الشارقة ورأس الخيمة ، وعبد الله بن راشد حاكم أم القيوين ، وحمد بن راشد حاكم عجمان ، وسعيد بن بطى حاكم دبى وسعيد بن طحنون حاكم ابو ظبى على معاهدة السلم البحرية الدائمة ، تعهدوا فيها بالالتزام بها هم وخلفاؤهم من بعدهم ، وبموجب البند الأول للمعاهدة تعهد الفرقاء انه اعتبارا من هذا التاريخ وهو الخامس والعشرون من رجب ١٢٦٩ ـ الموافق الرابع من مايو ١٨٥٣ ومن الآن فصاعدا سوف تتوقف جميع العمليات الحربية فى البحر بين رعايانا وأتباعنا ، وأن تقوم هدنة حقيقية دائمة فيما بيننا نحن الموقعين وفيما بين خلفائنا من بعدنا ، والى الأبد وفى البند الثانى تعهد كل شيخ من هؤلاء الشيوخ بمعاقبة كل فرد من رعاياهم أو أتباعهم عن أى انتهاك يرتكبه فى البحر ضد ممتلكات رعايا وأتباع الأطراف الأخرى الواقعة على المعاهدة ، كما أن عليهم أن يدفعوا ما يترتب على تلك الاعتداءات من تعويض وغرامات ، كما تعهد كل منهم فى البند الثالث من المعاهدة ، أنه فى حالة وقوع اعتداء على رعايا أحد منهم فى البحر من جانب رعايا طرف آخر من المشتركين فى المعاهدة فليس من حقه الرد على الاعتداء وانما يبلغ عنه المقيم

البريطاني فى الخليج ، او قائد اسطول الخليج الذى سيقوم باتخاذ الاجراء اللازم للتعويض عن الاعتداء .

مر ثلاثون عاما منذ توقيع معاهدة السلم العامة باشراف السير وليم كيى . وقد أمكن التوصل اخيرا الى حل المشكلة الخاصة بأعمال القرصنة فى الخليج . وحتى ذلك الوقت لاتزال هناك ثغرات فى المعاهدة . نظرا لأن المعاهدة لم تلزم الشيوخ بمراعاة السلم فى الخليج تجاه الدول غير المشتركة فيها . وقد سأل الشيخ سلطان بن صقر الكابتن كامبل عند توقيع المعاهدة عما اذا كان الوضع يجيز له الرد على السيد سعيد فيما لو حاول شن هجوم على ممتلكاته فى الشميلية ، فاجابه كامبل بأنه يمكن ذلك بشرط أن يوجه تحذيرا الى الطرف الآخر بمدة كافية ولقطع خط الرجعة على هذه الثغرة فى المعاهدة فقد كان الالتزام بالخط الدولى للملاحة يمنع الى حد كبير نشوب صراع بين الدول المشتركة فى المعاهدة ودولة خارجية . كما تمنع امتداد ذلك الصراع الى الخط الملاحى الرئيسى . وثمة ثغرة اخرى فى المعاهدة وهى أنها لا تحوى نصا بشأن الدفاع عن مشيخات الهدنة ضد أى اعتداء يقع عليها فى البحر من دولة خارجية . ومن ناحية أخرى فان مسئولية الدفاع عن مشيخات الساحل انما تقع على عاتق الحكومة البريطانية التى تستمدها من نظام الهدنة نفسه . وكان الشيخ بطى بن مكتوم حاكم دبى قد اشار لكامبل عند توقيع المعاهدة بأن الوجود الوهابى فى عمان يتعارض مع مصلحة القبائل الساحلية ، وأنه قد يأتى وقت يشكل فيه هذا الوجود نوعا من الاحراج للحكومة البريطانية ، واستطرد الشيخ يقول بأن اسهل طريقة أمام الحكومة البريطانية لمواجهة هذا الوضع هى اعلان المنطقة الساحلية الممتدة من أبو ظبى حتى رأس مسندم ، منطقة خاضعة للحماية البريطانية ، ثم تساءل هل اذا هاجم الوهابيون مشيخة دبى ستنبرى الحكومة البريطانية للدفاع

عنها ؟ وقد أجابه كامبل بأن سياسة حكومته تقوم على أساس الحياد فى المشكلات التى تقع داخل المنطقة رغم أنها حريصة كل الحرص على استقلال وسلامة الدول البحرية ، وأنها ستدافع بلاشك لوتعرضت لهجوم من البحر وأما مسألة الدفاع عن هذه الدول ضد الاعتداءات الوهابية على البر فقد ظلت بغير تحديد ٠

ان تردد الحكومة البريطانية فى موضوع التدخل فى العمليات العسكرية فى داخلية شبه الجزيرة ظل مستمرا ، وكان فى رأيها أنه طالما أمكن الحفاظ على استقلال تلك الدول ضد الوهابيين عن طريق الضغط السياسى واستعراض القوة البحرية عند الضرورة ، وظل الشيوخ متمسكين بالتزاماتهم الخاصة بالأمن والسلم فى الخليج ، فان مثل هذا التورط يظل خارج تفكير الحكومة البريطانية ٠ وقد كان هذا التصور هو الأساس فى استبعاد البحرين من نظام الهدنة فى ١٨٥٣كما كان الحال سابقا ؛ لأن البحرين لا تتألف من الأرخبيل فقط وانما تشمل بعض أجزاء من قطر ٠ واذا كان الدفاع عن الأرخبيل ممكنا بالوسائل البحرية ، فان الأمر يختلف بالنسبة للقطاعات الداخلية للجزيرة ، وبالاضافة الى ذلك فان الخطر على البحرين بعد غياب السيد سعيد عن المسرح بدأ ينطلق من دولة فارس ٠ وفارس دولة ليس لها أسطول ٠ اما الخطر البرى على البحرين فقد كان مصدره نجد ، وكان يشكل معضلة خطيرة للبريطانيين ، اذ لم تكن تجد القوة العسكرية الرئيسية فى المنطقة فحسب ، وانما لانها كانت تستطيع أن تهدد ممتلكات آل خليفة ٠ وهكذا ففى الوقت الذى كانت الحكومة البريطانية على استعداد لممارسة مسئوليتها فى البحر بمنع فارس من السطو على المشيخات العربية ، وانها قد سبق لها أن مارست

هذه المسئولية الا أنها لاتجد نفسها فى وضع يسمح لها بممارسة هذه المسئولية ازاء الوهابيين .

وقد بقى نظام الهدنة سارى المفعول حتى يومنا هذا ، كما بقى رمزا لجهود كل من صمويل هانيل وارنولد كامبل مساعده . ولم يحدث أن قام رجل بما قام به هانيل فى توطيد اركان النفوذ البريطانى فى الخليج وحفظ الأمن فيه .

ولد هانيل من أب يعمل صائغا بمنطقة روزهل فى برمنجهام سنة ١٨٠٠ والتحق بالخدمة العسكرية سنة ١٨١٩ بالفرقة ١٢ من مشاة بومباى. وفى سن السادسة والعشرين عين فى منطقة الخليج كمساعد للمقيم ، فى ذلك الوقت كانت قبائل القرصنة لاتزال تعانى من آثار هزيمتها على يد كير ، وكانت حماية الملاحة البحرية تتطلب وجود مالايقل عن ٦ طرادات . وعند مغادرة هانيل للمنطقة بصفة نهائية كان هناك طراد واحد فقط يتولى أعمال الرقابة على الأمن فى الخليج . ولقد استطاع هانيل خلال الفترة التى قضاها فى الخليج أن يكتسب ثقة شيوخ الساحل ، كما نجح فى مناسبات كثيرة وبعمليات خاطفة وضربات ساحقة أن يحمى سلطنة عمان من الوقوع فى خضم الحرب الأهلية أو الأجتياح الوهابى لها .. وعلى امتداد السنوات الحرجة من عام ١٨٣٨ حتى ١٨٤١ عندما كان البريطانيون يقاتلون بضراوة على جانبى الخليج ، استطاع هانيل بهدوء أعصابه أن يستخدم الامكانيات المحدودة كأحسن ما يكون الإستخدام ، ويحافظ بالتالى على سمعة حكومته وهيبتها على امتداد تلك المرحلة الحرجة . كما أن نجاحه فى اقناع سلطان مسقط وشيوخ الساحل بوقف تجارة الرقيق لايقل اهمية . بل ويضاعف من أهميته هذا الانجاز الذى يكشف عن براعة ودبلوماسية هائلة ، لقد كان هانيل بلا جدال

أعظم المقيمين السياسيين البريطانيين الذين خدموا فى منطقة الخليج ، ورغم هذا فانه عندما احيل على المعاش من عمله فى الشركة اعتبارا من ٣ اكتوبر ١٨٥٤ ، غادر المنطقة دون تكريم من حكومته ، كما أن السنوات الست والعشرين التى أمضاها فى عمل مستمر فى الخليج ذهبت سدى دون أن يلقى ما هو أهل له من ثواب وتكريم . ويومها عاد هانيل ليستقر فى شلتنهام حيث أمضى بقية عمره حتى الثمانين وتوفى يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٠ .

* * *

انتهى الجزء الأول

ويليه

الجزء الثانى

محتويات الجزء الأول

صحيفة

٧ الفصل الأول : الخليج في أواخر القرن الثامن عشر

٩٥ الفصل الثانى : الحرب مع فرنسا الوفود الى فارس .

١٥٦ الفصل الثالث : القرصنة والوهابيون (١٨٠٠ ــ ١٨١٨ م) .

٢٣١ الفصل الرابع : الحملات العسكرية ضد موانىء القرصنة (١٨١٩ ــ ١٨٢٠ م) .

٢٧٧ الفصل الخامس : البحث عد قاعدة فى الخليج والحملة على قبيلة بنى بوعلى (١٨٢٠ ــ ١٨٢٣ م) .

٣١٩ الفصل السادس التفتيش والرقابة : الحفاظ على الأمن البحرى (١٨٢٣ ــ ١٨٣٤ م) .

٤٤٣ الفصل السابع : الطريق الى الهند (١٨٢٦ ــ ١٨٣٦ م) .

٥٠٢ الفصل الثامن : الأزمتان المصرية والفارسية (١٨٣٧ ــ ١٨٤٠ م).

٦١٨ الفصل التاسع : نظام الهدنة (١٨٣٥ ــ ١٨٥٣ م) .

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٣٦٣٧ / ٧٩